تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠هـ - ٩٨٢هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا



تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠هـ — ٩٨٢هـ

تحقيق

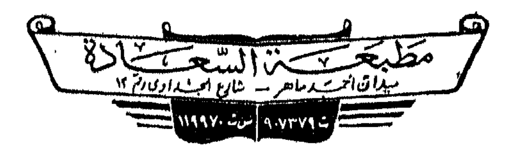
عبد القادر أحمد عطا

الجزء الأول

يطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة

بالرياض


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر — شارع الجداوي رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩
س ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الروم أبو السعود العمادى

من دلائل عظمة القرآن الكريم، وعزة سلطانه، وعالمية دعوته، أن كان له فى كل قطر من أقطار الأرض، وبين كل جنس من أجناس الناس فقهاء يأخذون بطرف من أسراره المنيفة، ويكشفون عن سمات إعجازه الرفيع، على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم، وتباين تراثهم الحضارى، فاختلفت مآخذهم، واتحدت سرائرهم جميعا على التبتل فى محرابه، والاستسلام لجلاله فى إطار من التوحيد والإسلام المأثور عن إبراهيم الخليل عليه السلام، والمتدرج فى مراتبه حتى الكمال على يد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً.

فكما كان الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة، يعلنه الرسل عبر العصور والدهور باسمه ومعناه، كان القرآن كتاب الإسلام المتكامل فى المناهج والقوانين. كتاب العالم ودستوره الذى ينسجم مع بيئاته وثقافاته وأجناسه وحضاراته، لا يتنافر مع جنس، ولا يتضارب مع بيئة، ولا يتعارض مع زمان، فهو هو الجديد المتفاعل مع جميع العقليات على اختلاف تكوينها على مدى القرون والأجيال.

وكان ممن حاول اجتلاء أسرار القرآن ودلالات إعجازه عالم من علماء الروم هو: أبو السعود محمد بن مصطفى العمادى. فأبدع وأجاد فى الميدان الذى اختاره لنفسه وارتضاه لكتاب الله تعالى، ألا وهو سر لغة القرآن فى إعجاز القرآن.

والرجل وإن لم يكن عربى المنبت والأرومة فإنه بلغ قمة الإجادة فى استكشاف أسرار العربية لغة الكتاب الكريم، شأنه فى ذلك شأن غيره

من العلماء المسلمين من غير العرب ، ولكنه زاد عليهم بشمول بحثه لجوانب القرآن الكريم كله ، ولم يكتف بمواضع معينة منه يركز عليها دراسته لأسرار الإعجاز القرآنى المنيع .

لقد سبقه من غير العرب عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ولكن بحث عبد القاهر عن إعجاز القرآن من الجانب اللغوى لم يكن متكاملا ، بل كان مجرد قواعد وأصول يمكن أن يحتذيها الباحث فى هذا الميدان . وسبقه كذلك جار الله الزمخشرى فى كتابه « الكشاف » ولكنه انتحى جانب الكشف عن أسرار المجاز والاستعارة فى القرآن ، أما جانب التركيب الأسلوبى للقرآن فقد كان فيه قليل البضاعة . أما فخر الدين الرازى فى كتابه « أنوار التنزيل » فمع جلالة قدره لم ينتهج منهج التخصص ، بل أخذ بأطراف من وجوه الإعجاز القرآنى فى اللغة والفلسفة والتشريع .

وأما خطيب المفسرين أبو السعود فقد كان متخصصا ، وكان إلى جانب ذلك رجلا لا يفترق عن العلماء المخترعين فى معاملهم فالقارىء المتدبر لكتابه هذا الذى نقدم له يأخذه الدهش ملء جميع أقطاره ، لأنه يجد نفسه بالفعل أمام رجل بينه وبين علماء المعامل المخترعين شبه وثيق .

فإذا كان علماء المعامل الكيمائية يؤلفون بين العناصر والمواد ليبتكروا للناس ما فيه ترف أو نعيم أو علاج لأبدانهم ، أو ليخترعوا سلاحا من أسلحة الدفاع عن النفس والوطن ، أو وسيلة من وسائل تيسير الحياة على الناس ، فإن إمامنا أبا السعود ماهو إلا رجل يضع عناصر اللغة القرآنية تحت منظار بصيرته المتألقة ، ونور عقله الروحى العميق ، ويستكشف من خلالها كل ما يخدم قوى الإنسان الإيمانية ، فإذا الإنسان موقن بأنه آوى إلى ركن شديد ، وآمن برب عزيز ، وأن مواهبه الباطنة قد بدأت تتفتح عن وعى جديد يؤكد أن الله هو القاهر فوق عباده ، وأن العمل على هدى الإيمان به هو الخير والقوة والسيادة العزيزة المنال . وعلى أى حال فمعامل الأصوات اللغوية منهج جديد من مناهج البحث اللغوى لها فى أوربا شأن عظيم فى عصرنا الحاضر .

ولد الإمام أبو السعود العمادى المولى الرومى فى قرية قريبة من القسطنطينية عام تسعمائة من الهجرة ، وقال صاحب العقد المنظم فى تاريخ علماء الروم إن مولده كان فى عام ثمان وتسعين وثمانمائة . واتفق الجميع على أن وفاته كانت فى اثنتين وثمانين وتسعمائة . أى إنه عاش ثمانين عاما أو اثنين وثمانين عاما على خلاف فى عام ولادته .

وكان والده رجلا من أهل العلم والفضل فأخذ عليه الفتى أبو السعود أصول العلوم الشرعية ، ودرس عليه اللغة العربية والفارسية والتركية ، فكان مجيداً لها جميعاً . ثم تنقل فى مدارس العلم التى انتشرت فى بلاده ، وانتهى به المطاف إلى ملازمة العلامة المولى سعدى جلبي فتخرج به ، ونضج على يديه .

تولى أبو السعود عددا من المناصب كلها تدل على تفوقه فى علوم الشريعة والمامه بها إلماما يدل على وثاقة شأنه فيها . فقد تولى قضاء مدينة « بروسا » ثم قضاء « القسطنطينية » ثم قضاء العسكر ودام فيه ثمانى سنين ، ثم عين مفتيا عاما للقسطنطينية وهو أعلى منصب دينى فى الخلافة العثمانية ، وعين له السلطان كل يوم مائتين وخمسين درهما .

وكانت فكرة هذا التفسير قد راودته فى شبابه وفى أثناء دراسته ، وبدأ فى إعداده ، ولكن عمله فى القضاء عوق من تيار نشاطه فى سبيل إنهائه ، ولما تقدم به العمر جد فى إعداده خوفا من أن يحول الموت بينه وبين تمامه ، وأهداه إلى السلطان سليمان خان بن بايزيد . ويقول الشوكانى فى البدر الطالع : إن السلطان أعجب بالكتاب فأنعم على مؤلفه نعما عظيمة ، وزاد فى معلومه اليومى زيادة واسعة ، إلى جانب ما تناهت به عظمته فى جميع الممالك الرومية حتى صار المرجع لعلمائها فى جميع العلوم كما يقول صاحب الكواكب السائرة وصاحب البدر الطالع أيضا .

وأبو السعود حنفى المذهب سنى المعتقد ، روحى الوجدان ، وكان له من دراسة مذهب الإمام أبى حنيفة قدرة هائلة على مناقشة القضايا والخروج من

ذلك بأحكام لاتقبل الجدل ، كما كان له من سنية معتقده ، وروحية وجدانه إحساس ببواطن لغة القرآن ، وعمق تشريع الإسلام ، أضفى على بحثه العلمى البحت روحا جديدة بثها فى أبحاثه فأصبح شهيا للقارىء لايمل من شدته ، ولامن عمق فلسفته .

ولأبى السعود العمادى مؤلفات أخرى غير التفسير هى :

١ ــ بضاعة القاضى فى الصكوك .

٢ ــ تهافت الأمجاد فى فروع الفقه الحنفى .

٣ ــ تحفة الطلاب فى المناظرة .

ولكن أبرعها وأمجدها كلها هى التفسير الذى يعتبر بحق معجزة العقل البشرى فى كله فى كشف أسرار لغة القرآن الكريم ، والاسترشاد بتلك الأسرار اللغوية فى تقرير أصل عظيم هو إعجاز القرآن لغويا وأدبيا لقوم كانت بضاعتهم الأولى والأخيرة هى الشعر والأدب ، ولمن يأتى بعدهم من الأجيال ، ثم بالنسبة لجميع اللغات فى العالم كله .

ومن يمن طالع أبى السعود أنه لما مات بالقسطنطينية دفن بجوار صحابى جليل هو أبو أيوب الأنصارى وكان ذلك فى الخامس من جمادى الأولى عام ٩٨٢ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مناهج فهم القرآن

الواقع أن القرآن الكريم لم يكن تحديا لغويا وأدبيا للعرب من أهل الجاهلية حسب كما يظن بعض الباحثين ، وإنما كان تحديا للعالم كله فى جميع أنحاء النشاط البشرى والإنسانى جميعا .

ولئن كان فى إبان نزوله يشكل تحديا تعجيزيا لعرب الجاهلية من ناحية الأسلوب الأدبى والتركيب اللغوى وغير ذلك من خصائص الأدب العربى فإن إعجازه فى هذا الجانب ما زال قائما لكل من يتخذون العربية لغة تخاطب وتعليم لهم ، ولو كان إعجاز القرآن مقصورا على هذا الجانب وحده لما كان الإسلام دينا عالميا ، أو لكان على أى قابل للإسلام أن يتعلم العربية حتى يدرك المعجزة القرآنية التى تقنعه بالإيمان بدين الإسلام ، والواقع لا يدل على ذلك .

فالقرآن بنصه يقرر أن النبى صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة ، وأن خلفاءه مأمورون بالجهاد الدائم حتى يكون الدين كله لله ، وأن القرآن فيه تبيان لكل شىء ، وأن الله تعالى لم يفرط فيه فى شىء من شئون الدنيا ولا الآخرة ، على أن هناك نصوصا قرآنية تثبت أن إعجاز القرآن ليس كامنا فى لغته وأدبه حسب ، وإنما هو كامن فى إنسانياته وقانونه ودستوره العالمى ، ومبادئه المحكمة التى لا تحتاج إلى تعديل باختلاف الزمان أو المكان . فالله تعالى قد تحدى الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله . ومعلوم لنا أنه لم يتحد الإنجليزى ولا الألمانى بعربيته ، بل بأنواع أخرى من التحدى لا تقل عن تحدى الناطقين بالعربية ببيانه وأسلوبه المعجز . فهو الآن يتحدى فقهاء الدستور بقوانينه ، ويتحدى المنظمات العالمية بإنسانياته ، ويتحدى العلماء المعمليين بإشاراته ، ويتحدى الأطباء بمناهجه الصحى الأصيل ، والزراع والصناع وغيرهم

بما بث من أصول ترك للعقل البشرى توسيعها وتعميقها ، حتى يستحق الإنسان لقب الإنسان .

فلو آمن ناس من غير العرب بالإسلام ، ثم ترجموا آياته إلى لغتهم لكان لهم من تلك الترجمة جانب من جوانب الإعجاز على أى حال ، وقديما انبهر ناس من غير العرب بالعدل الإسلامى النابع من تطبيق القرآن فآمنوا به معجبين عاجزين عن مثل العدل المقرر فيه .

لهذا كله آتى القرآن الكريم ثماره فى كل بيئة وبين كل جنس تماما كما آتى ثماره فى جزيرة العرب مع اختلاف فى المنهج وتقابل فى الفهم ، فأثره فى الفرس مقابل لأثره فى بلاد الروم وهكذا كان القرآن ولا يزال إكسيرا عجيبا يمس أى بيئة من البيئات فتتحول معارف تلك البيئة وثقافتها إلى ثقافة قرآنية على وجه من الوجوه تعتبر قمة فى مجال الثقافة والحضارة العالمية .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الشمول فى مناهج فهم القرآن أن يتخصص العرب فى الجانب اللغوى ، وأن يتخصص غيرهم فى الجوانب الأخرى من الإعجاز ، وكان لذلك حكمة عليا هى نفسها من دلائل الإعجاز وإن كانت من نتائجها .

فالإسلام والقرآن قانون وتطبيق وعلم وثقافة ، والقانون كما هو معروف فى أرجاء العالم يحتاج إلى دقة فى الصياغة ، وفهم عميق لمدلولات الألفاظ ومراميها ، حتى يكون استنباط الأحكام منها قائما على أسس دقيقة لا تجنح إلى الظن ، ولا تميل نحو الخطأ ، ولذلك كان تفسير السلف من العرب للقرآن يتجه إلى هذا الاتجاه ، ومنه اتجه المجتهدون إلى أصول التشريع ، ثم استنباط الأحكام على ضوء هذه الأصول فكان العرب بذلك أول العلماء المنهجيين ، وسبقوا غيرهم فى هذا المجال ، كما كانوا أعظم العلماء فى تحقيق نص القرآن عند تدوينه على الوجه المعروف للدارسين جميعاً .

وهذا المنهج هو الأساس الذى تنطلق منه جذوة الإيمان الصحيح إلى أرجاء العالم بحيث تسلم العقيدة من كل عبث فى أى بيئة غير البيئة التى ولد فيها الإسلام وهو ما كان بحمد الله حينما نشأت البدع والأهواء والفرق الزائفة فما لبثت أن تحطمت على صخرة الحق الصلبة بفضل الفهم الدقيق لمعانى القرآن على أيدى السلف من العرب فى عصر الصحابة والتابعين .

وهكذا تفاعل القرآن فى بيئته وفى كل زمان مع العقلية الجديدة فلم يحد العقل عن الأصل المرسوم. فقد اتسعت مطالب الحياة باتساع البلدان المفتوحة وبادر العلماء إلى استنباط أحكام شرعية للحالات الناشئة على هدى من الكتاب والسنة ، ومن ثم نشأ التفسير التشريعى ، وتفاعل مع بيئة الفرس التى ورثت ثقافات عريقة وخيالات أدبية قديمة فنشأ التفسير الإشارى ، وتفاعل مع عقلية الروم وارثة الفلسفات فنشأ فهم فلسفى للقرآن مختلف الاتجاهات ، ومنه الفهم الفلسفى اللغوى الذى تزعمه أبو السعود دون منازع له على الإطلاق

تفسير أبى السعود

والواقع أن منهج أبى السعود يعتبر لازما لأى بيئة إسلامية عربية كانت أو غير عربية ، فهو محاولة لإقناع العالم بتفاعل كلمات القرآن بعضها مع بعض تقديما وتأخيرا ، أو إجمالا وتفصيلا ، حتى الحرف يؤثره القرآن دون غيره من الحروف ، فينتج من هذا التفاعل فهم مذهل لآياته ومعانيه ، فهو مع كل وجه من الوجوه يعطى معنى غير سابقه ، وتكون النتيجة أن كلاما يعطى مع التقديم والتأخير والإجمال والتفصيل والالتفات وغير الالتفات معانى كلها قمم من الإعجاز والقوة والرصانة لا يمكن أن يكون كلام بشر ، فما من كلام البشر ما يعطى تلك الوجوه المتعددة مع الاحتفاظ بدرجة القوة والمتانة . ومن هنا كان أساس الإيمان صلبا متينا لا تؤثر فيه العواصف ولا الأهواء .

وهو ناقد فذ لآراء من سبقوه من علماء اللغة ، فكثيرا ما تراه يرفض آراءهم ويقيم الدليل على أنها لاتليق بجزالة النظم الكريمة ، ولا بسباق الأسلوب ولا سياقه .

وهو مع ذلك عالم فحل بفنون الإعراب القرآنى وآرائه السابقة ، فتراه يعرضها كلها عرضا سريعا ، ثم يبدأ فى تحليلها ، فإما رجح أحدهما أو بعضها ، ثم يبدأ رحلته التحليلية الدقيقة صاعدا إلى قمة الإعجاز ، فيدعك وقد احتواك الإيمان بالقرآن من كل أقطارك لا تبغى به بدلا ، ولا بدين الإسلام دينا .

وهو مع ذلك خبير بالقراءات المأثورة للقرآن ، يعرضها ليستنبط منها معانى للكلمات منفردة ومجموعة .

ولا ينسى أبو السعود أن يتعرض لمذاهب الفقهاء فى فهم القرآن واستنباط الأحكام منه ، وهو يستوعبها أحيانا منذ عهد الصحابة إلى المجتهدين الأربعة وأصحابهم، وأحيانا يقتصر على مذاهب المجتهدين الأربعة بحيث يبرز رأى الحنفية

بشيء من التفصيل والاحتجاج ، مع تحقيق فاحص ، وبحث دقيق قل أن نجده في غيره من التفاسير .

ثم هو لا يغفل الآثار الواردة في أسباب النزول ، أو الموضحة لبعض المعاني من الحديث الصحيح والأثر المروى عن الصحابة والتابعين ، كما لا يغفل الوقائع التاريخية ، فتراه يتعرض لها بشيء من التفصيل والبحث ، ويورد آراء السابقين فيها دون تعرض لنقدها إلا فيما يتصل بدعاوى بني إسرائيل .

وقد عنى كذلك بالناسخ والمنسوخ وتمحيص الرأى فيه ، وبفضائل السور دائماً ، والأذكار القرآنية أحيانا ، فأورد في كل مناسبة حديثا دون تخريج ولكنها على أي حال لا تخرج عن دائرة الصحة أو الحسن .

أما مصادره في كتابه هذا فهي كما قال الجمع بين الكشاف وأنوار التنزيل ، وإضافة الشوارد من مطالعاته ودراسته الخاصة . فهو ينقل عن الواحدي في تفاسيره : « البسيط » و « الوجيز » و « الوسيط » . وكلها لا تزال مخطوطة وينقل كذلك عن معاني القرآن لمكي بن إبراهيم وهو مخطوط أيضاً ، كما ينقل عن سيبويه والفراء والفارسي وغيرهم من أساطين العربية إلى غير ذلك من المصادر التي يمكن استقراؤها من كتابه ، فهو أمين في النقل يعزو كل رأى إلى صاحبه ، وما كان له من الرأى فهو واضح من السياق .

ولا شك في أن كتاب أبي السعود هذا يعتبر قمة شامخة في الفكر اللغوى وفلسفته وأسراره فاق به عبد القاهر الجرجاني وغيره ممن تعرضوا لهذا الشأن فهو فوق أنه تفسير للقرآن يعتبر كتابا لإعجاز القرآن ، ومصدرا غنيا من مصادر العربية في شواردها ومسائلها النادرة التي اختلف فيها علماؤها ، ولاسيما أهل البصرة وأهل الكوفة ، كما يعتبر مصدرا جامعا من مصادر إعراب القرآن الذي ألفت فيه كتب مستقلة ، فأصبح كتابه بحق موسوعة لعلوم القرآن من جميع جوانبها .

وأخيرا يعتبر مصدرا أصيلا من مصادر الإيمان . فهو يقنعك بالإعجاز

اللغوى بطريقة لم يسبق إليها ، وهو منهج شامل متكامل يدعك أشد استمسا كا بالقرآن ، وأكثر رغبة فى مصاحبته ، واستجلاء أسراره بالتأمل والفكر والذوق ، إذ هو الكتاب الأوحد الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه .

منهج العمل

تفسير أبى السعود طبع مرتين بمصر ولكن طبعاته لم تعن بوضع الهمزات على الألفات حتى إنه ليتعذر على القارىء العادى أن يفرق بين إما وأما ، أو بين إن وأن ، وما شابه ذلك ، كما أن المطبوعات خلطت آيات القرآن التى أوردها المؤلف للاستشهاد بكلام المؤلف فلا يميز القارىء بينهما بسهولة ، كما أن فيها أخطاء لم تثبت فى نهاية الطبع لتصحيحها .

ولذلك قمنا بإكمال هذا النقص ، ثم راجعناه على أقدم نسخه المخطوطة ، وهى رقم ٤٨٥،١٠ . واستعنا فيما هو غير واضح بنسخ أخرى، وأثبتنا الفروق بالهامش . أما مسائله اللغوية وتحقيقاته فهى أكبر من أن تنالها يد محقق بالتصحيح ولا التمحيص،فهو عالم فحل أوتى من الذكاء قدرا عظيما لايستهان به .

ثم وضعنا عناوين لموضوعات السور تسهيلا للقارىء الباحث وقمنا بعمل فهارس موضوعية لكل جزء من التفسير، إذ أن الفهرس الموجود فى المطبوعة لا يسمن ولا يغنى ودققنا فى مراجعة تجارب الطبع فجاء بحمدالله متقنا إلا مواضع يسيرة جداً سننبه عليها كما أن عنوان الكتاب فى المطبوعة غير مطابق للإسم الذى وضعه المؤلف . فقد جاء فى المطبوعة : إرشاد العقل للسليم فى مزايا القرآن الكريم . بينما سماه المؤلف : إرشاد العقل السليم فى مزايا الكتاب الكريم .

كلمة أخيرة

يقول المستشرق الكندى «سمث» فى كتابه «الإسلام فى العصر الحديث»: إن الإسلام هو المحور الرئيسى الذى تقوم من أجله الصراعات الدولية الحديثة،

فالدول الكبرى تتصارع على مناطق يغلب فيها الإسلام ، لأنها فزعة قلقة من سر خلود الإسلام حتى وصل سليما على مدى تلك القرون المتطاولة لم يمسه سوء .

وأفاض « سمث » فى التدليل على نظريته ، وأهاب بالمسلمين أن يحاولوا تفهم دينهم على منهج يتفق مع تلك الصراعات الرهيبة التى تتخذ أهبتها من أجل الإسلام .

ونقول : إن القرآن لا زال يحتاج إلى بحوث وجهود ضخمة من الباحثين ليكون مستعدا دائما لغزو أقطار بعيدة عن المحيط العربى غزوا ثقافيا ودستوريا وعلميا .

وهذا العمل فى الحقيقة فرض على أمم الإسلام التى فرض عليها الجهاد حتى يكون الدين كله لله ، والجهاد يشمل أنواع القوة كلها : العسكرية ، والثقافية ، والاقتصادية ، وغيرها من صنوف القوى . وأهمها الغزو القرآنى للعالم فى العصر الحاضر ، استجابة لأمر الله ورسوله ، وقياما بما له من حق فى عنق كل مسلم .

وأبو السعود العمادى قد قام بعمل مجيد فى عصر من عصور التقهقر والانخذال فكان من الواجب ولا زال أن تتضافر الجهود فى سبيل التعريف بالإسلام على المستوى العالمى على أساس من الدراسات القرآنية الواعية التى تتسم بتأصيل الإيمان فى قلوب الشباب وفتح مسالك جديدة للبحوث القرآنية .

ولكننا نحذر من ورطة خطيرة وقع فيها الكثيرون ، هى تلمس وجوه شبه بين بعض النصوص القرآنية وبعض المخترعات الحديثة ، فيسارع الكتاب إلى تأكيد أنها تنطبق تمام الانطباق على ما تنبأ به القرآن ، وهو عكس للأصل المقرر وهو معرفة الرجال بالحق ، لا معرفة الحق بالرجال ، فلا يجوز أن يحكم هؤلاء على الكتاب مع سلامة مقصدهم لأنهم يحكمون الرجال فى القرآن وهو خطأ شنيع ، فالنظريات العلمية الحديثة ليست مستقرة ، ولا تلبث أن يثبت خطؤها أو نقصها ، أما القرآن فهو القول الثابت الذى لا يعتريه خلل ولا نقص .

ولئن كان هناك تشابه بين بعض نصوص القرآن وبعض المبتكرات والمخترعات الحديثة ، فإن تلك المخترعات لم تصل بعد إلى التطابق مع نص القرآن .

والقرآن على أى حال قد وضع أصول العلم والبحث ، وأشار إلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى هذا المجال إشارة أساسية لا تفصيل فيها ، فأحرى بمن ينهج ذلك المنهج أن ينبه إلى تلك الأحوال ويثير العزائم إلى بحثها والسير على نهجها .

وقديما كتب الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيرا علميا للقرآن من هذا القبيل ولكن لم يكتب له الخلود ، لأنه منهج خاطىء كما قلنا .

ونسأل الله أن يكون قد آن للذين آمنوا أن يتفهموا ما أراد الله منهم فى كتابه على المستوى المحلى والمستوى العالمى جميعاً ، وأن يوفقهم إلى مراضيه . وأن يخلص نوايانا جميعا لوجهه ، ربنا إنك سميع الدعاء ؟

القاهرة { ٢٤ من رجب ١٣٩١ هـ
١٤ من سبتمبر ١٩٧١ م }

عبد القادر أحمد عطا

رموز التحقيق

(   ) أو [   ] = كلمات سقطت من المطبوعة وزيدت من المخطوطات

ط : = المطبوعة .

الأرقام = أرقام المطبوعات فى فهرس التفسير بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين له من شعائر الشرائع كل ماجل ودق ، أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج ، قرآنا عربيا غير ذى عوج ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، هاديا إلى صراط العزيز الحميد ، آمراً بعبادة الصمد المعبود ، كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه الجلود ، تكاد الرواسى لهيبته تمور ، ويذوب منه الحديد وتميع الصم الصخور ، حقيقاً بأن تسير به الجبال ويتيسر به كل صعب محال ، معجزا ألجم كل مصقع من مهرة قحطان ، وبكت كل مفلق من سحرة البيان ، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته ، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، نزله عليه على فترة من الرسل ليرشد الأمة إلى أقوم السبل ، فهداهم إلى الحق وهم فى ضلال مبين ، فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين ، فمن أتبع هداه فقد فاز بمناه ، وأما من عانده وعصاه ، واتخذ إلهه هواه ، فقد هام فى موامى الردى ، وتردى فى مهاوى الزور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور . صلى الله عليه وعلى آله الأخيار ، وصحبه الأبرار ، ما تناوبت الأنواء ، وتعاقبت الظلم والأضواء ، وعلى من تبعهم بإحسان ، مدى الدهور والأزمان . وبعـــد :

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادى ، أبو السعود بن محمد العمادى : إن الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وما كان حرف منها مسطوراً ، والحكمة الكبرى فى تخمير طينة آدم ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ليست إلا معرفة الصانع المجيد ، وعبادة البارىء المبدىء المعيد ، ولاسبيل إلى ذلك المطلب الجليل ، سوى الوقوف على مواقف التنزيل فإنه عز سلطانه ، وبهر برهانه ، ولئن سطر آيات قدرته فى صحائف الأكوان ، ونصب رايات وحدته فى

صفائح الأعراض والأعيان ، وجعل كل ذرة من ذرات العالم ، وكل قطرة من قطرات العيلم ، وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم فى لوح الاختراع ، مرآة لمشاهدة جماله ، ومطالعة صفات كماله ، حجة نيرة واضحة المكنون ، وآية بينة لقوم يعقلون ، برهانا جليا لاريب فيه ، ومنهاجا سويا لايضل من ينتحيه ، بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ، ومجيباً صادقا فهل له من داع ، يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويرد جوابهم بحسب مقولهم ، يحاور تارة بأوضح عبارة ، ويلوح أخرى بألطف إشارة .

لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل ، والاستشهاد بتلك الأمارات والمخايل ، والتنبه لتلك الإشارات السريه ، والتفطن لمعانى تلك العبارات العبقرية ، وما فى تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوز آثار التعاجيب والعبر مما لايطيق به عقول البشر إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر فإذن مدار المراد ، ليس إلا كلام رب العباد ، إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينيه ، والمفسر لمشكلات الايات التكوينيه ، والكاشف عن خفايا حظائر القدس ، والمطلع على خبايا سرائر الأنس ، وبه تكتسب الملكات الفاخره وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والاخره ، خلا أنه أيضاً من علو الشأن ، وسمو المكان ، ونهاية الغموض والإعضال ، وصعوبة المأخذ وعزة المنال ، فى غاية الغايات القاصية ، ونهاية النهايات النائية ، أعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق لايتسنى العروج إلى معارجه الرفيعة ، ولايتأتى الرقى إلى مدارجه المنيعه ، كيف لا وإنه مع كونه متضمنا لدقائق العلوم النظرية والعمليه ، ومنطويا على رقائق الفنون الخفية والجليه ، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعية ومحيطا بمناط الدلائل الأصلية والفرعيه ، ومنبئاً عن أسرار الحقائق والنعوت مخبراً بأطوار الملك والملكوت ، عليه يدور فلك الأوامر والنواهى ، وإليه تستند معرفة الأشياء كما هى ، قد نسخ على أبدع منوال وأغرب طراز[1]

(١) فى المطبوعة : أغرب منوال وأبدع طراز .

واحتجبت طلعته بسبحات الإعجاز ، وطويت حقائقه الأبية عن العقول ، وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول ، يرد عيون العقول سبحاته ، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه .

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار وتولى تيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير في كل قطر من الأقطار ، فغاصوا في لججه ، وخاضوا في ثبجه ، فنظموا فرائده في سلك التحرير ، وأبرزوا فوائده في معرض التقرير ، وصنفوا كتباً جليلة الأقدار وألفوا زبراً جميلة الآثار ، أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعانى ، وتشييد المبانى ، وتبيين المرامى[1] وترتيب الأحكام ، حسبما بلغهم من سيد الأنام ، عليه شرائف التحية والسلام ، وأما المتأخرون المدققون ، فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة ، وإبداء خباياه الفائقة ، ليعاين الناس دلائل إعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية ، والزبر العظيمة السبحانية ، فدونوا أسفاراً بارعه ، جامعة لفنون المحاسن الرائعة ، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان ، وعوائد لطيفة تتشنف[2] بها آذان الأذهان ، لا سيما الكشاف وأنوار التنزيل ، المتفردان بالشأن الجليل ، والنعت الجميل ، فإن كلامنهما قد أحرز قصب السبق أى إحراز ، كأنه مرآة لاجتلاء وجوه الإعجاز[3] ، صحائفهما مرايا المزايا الحسان ، وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان .

ولقد كان في سوابق الأيام وسوالف الدهر والأعوام . أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما ، وزمان انتصابى لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور فى خلدى على استمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، أن أنظم درر فوائدهما فى نمط[4]

---

(١) فى المطبوعة : يتبيين المرام .
(٢) فى المطبوعة : يتشنف .
(٣) فى المطبوعة : وجه الإعجاز .
(٤) فى المطبوعة : فى سمط .

دقيق ، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ، وأضيف إليهما ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته فى أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع ، حسبما يقتضيه جلاله شأن التنزيل ، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ، ماسنح للفكر العليل بالعناية الربانية ، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية ، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب ، وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب ، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام فى مداحض الأقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام ، من خواطر الأنام ، فى معارك أفكار تشتبه فيها الشؤون ، ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار الكمون ، من دقائق السر المخزون ، فى خزائن الكتاب المكنون ، ماتطمئن إليه النفوس وتقر به العيون ، من خفايا الرموز ، وخبايا الكنوز ، وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة ، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض ، واصطفاه لسلطنتها فى الطول والعرض ، ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم ، والخاقان الأمجد الأفخم ، مالك الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر ، رافع رايات الدين الأزهر ، موضح آيات الشرع الأنور ، مرغم أنوف الفراعنة والجبابرة ، معفر جباه القياصرة والأكاسره ، فاتح بلاد المشارق والمغارب ، بنصر الله العزيز وجنده الغالب ، الهمام الذى شرق عزمه المنير فانتهى إلى المشرق الأسنى ، وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو أدنى ، بخميس عرمرم متزاحم الأفواج ، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج ، فأصبح ما بين أفقى الطلوع والغرب ، وما بين نقطتى الشمال والجنوب ، منتظما فى سلك ولاياته الواسعة ، ومندرجا تحت ظلال راياته الرائقة ، فأصبحت منابر الربع المسكون مشرفة بذكر اسمه الميمون ، فياله من ملك استوعب ملكه البر البسيط ، واستغرق فلكه وجه البحر المحيط ، فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه ، أو نصبت عليه ألويته وأعلامه ، مالك ممالك العالم ، ظل الله الظليل على كافة الأمم ،

قاصم القياصرة وقاهر القروم ، سلطان العرب والعجم والروم ، سلطان المشرقين ، وخاقان الخافقين ، الإمام المقتطد بالقدرة الربانية ، والخليفة المعتز بالعزة السبحانية ، المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين ، وحماية المقامين الجميلين المفخمين ، ناشر القوانين السلطانية ، عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور ، والخاقان الموقر المشهور ، صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الأمصار ، والفتوحات المذكورة فى صحائف الأسفار ، السلطان سليم خان ، ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان ، لا زالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان .

وكنت أتردد فى ذلك بين إقدام وإحجام ، لقصور شأنى وعزة المرام . أين الحضيض من الذرى ، شتان بين الثريا والثرى ، وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك ، واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك ، فمضت عليه الدهور والسنون ، وتغيرت الأطوار ، وتبدلت الشؤون . فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء البلاد ، وأخرى فى قضاء العساكر والأجناد ، فحال بينى وبين ما كنت إخال تراكم المهمات ، وتزاحم الأشغال ، وجموم العوارض والعلائق ، وهجوم الصوارف والعوائق ، والتردد إلى المغازى والأسفار ، والتنقل من دار إلى دار .

وكنت فى تضاعيف هاتيك الأمور أقدر فى نفسى أن أنتهز نهزة من الدهور ، ويتسنى لى القرار ، وتطمئن بى الدار . وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه إلى جناب ذى العظمة والجلال ، وأوجه إليه وجهى ، وأسلم له سرى وعلانيتى ، وأنظر إلى كل شىء بعين الشهود ، وأتعرف سر الحق فى كل موجود تلافيا لما قد فات ، واستعداداً لما هو آت ، وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه ، وأتولى لتكميل ما توجهت إليه ، برفاهة واطمئنان ، وحضور قلب وفراغ جنان ، فبينما أنا فى هذا الخيال ، إذ بدا لى ما لم يخطر بالبال ، تحولت الأحوال

والدهر حول ، فوقعت فى أمر أشق من الأول ، أمرت بحل مشكلات الأنام فيما شجر بينهم من النزاع والخصام ، فلقيت معضلة طويلة الذيول ، وصرت كالهارب من المطر إلى السيول ، فبلغ السيل الزبى ، وغمرنى أى غمر ، غوارب ماجرى بين زيد وعمرو ، فأضحيت فى ضيق المجال ، وسعة الأشغال ، أشهر ممن يضرب بها الأمثال ، فجعلت أتمثل بقول من قال :

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة   وأستمرض الأيام وهى صحائح
إلى أن تغشتنى - وقيت - حوادث   تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرمت عرى الآمال ، عن الفوز بفراغ البال ، ورأيت أن الفرصة على جناح الفوات ، وشمل الأسباب فى شرف الشتات ، وقد مسنى الكبر ، وتضاءلت القوى والقدر ، ودنا الأجل من الحلول ، وأشرفت شمس الحياة على الأفول عزمت على إنشاء ما كنت أنويه ، وتوجهت إلى إملاء ما ظللت أبتغيه ، ناويا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » فشرعت[1] فيه مع تفاقم المكاره على ، وتزحم المشادة بين يدى ، متضرعا إلى رب العظمة والجبروت ، خلاق عالم الملك والملكوت فى أن يعصمنى عن الزيغ والزلل ، ويقينى مصارع السوء فى القول والعمل ، ويوفقنى لتحصيل ما أرومه وأرجوه ، ويهدينى إلى تكميله على أحسن الوجوه ويجعله خير عدة وعتاد ، أتمتع به يوم المعاد .

فيامن توجهت وجوه الذل والابتهال نحو بابه المنيع ، ورفعت أيدى الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع ، أفض علينا شوارق أنوار التوفيق ، وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق ، وثبت أقدامنا على مناهج هداك ، وأنطقنا بما فيه أمرك ورضاك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا فى لحظة ولا آن ، وخذ بناصيتنا

---

(١) فى ١١ « وشرعت » .

إلى الخير حيث كان ، جئناك على جباه الاستكانة ضارعين ، ولأبواب فيضك قارعين ، أنت الملاذ فى كل أمر مهم ، وأنت المعاذ فى كل خطب ملم ، لارب غيرك ولاخير إلا خيرك ، بيدك مقاليد الأمور ، لك الخلق والأمر وإليك النشور .

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات

معنى فاتحة الكتاب وأسمائها

الفاتحة فى الأصل : أول مامن شأنه أن يفتح ، كالكتاب والثوب ، أطلقت عليه لكونه واسطة فى فتح الكل ، ثم أطلقت على أول كل شيء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالكلام التدريجى حصولا ، والسطور والأوراق التدريجية قراءة وعداه والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية ، أو هى مصدر بمعنى الفتح ، أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر ، إشعارا بأصالته كانه نفس الفتح ، فإن تعلقه به بالذات ، وبالباقى بواسطته ، لكن لاعلى معنى أنه واسطة فى تعلقه بالباقى ثانيا . حتى يرد أنه لايتسنى فى الخاتمة ، لما أن ختم الشيء عبارة عن باوغ آخره ، وذلك إنما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الأول ، بل على معنى أن الفتح المتعلق بالأول فتح له أولا وبالذات ، وهو بعينه فتح للمجموع[1] بواسطته ، لكونه جزءا منه ، وكذا الكلام فى الخاتمة فإن باوغ آخر الشيء يعرض للآخر أولا وبالذات ، وللكل بواسطته ، على الوجه الذى تحققته .

والمراد بالأول ما يعم الإضافى فلا حاجة إلى الاعتذار بأن إطلاق الفاتحة على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الأول ، والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصى، لاالقدرالمشترك بينه وبينأجزائه ، على ما(هو)[2] اصطلاح

---

(١) فى ١١ أولاو بالذات وللكل بواسطته (٢) سقطت من المطبوعة

أهل الأصول ، ولا ضير فى اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم فى أوائل عهد النبوة ، قبل تحصيل المجموع بنزول الكل ، لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإذن ؛ فيكفى فيها تحصله باعتبار تحققه فى علمه عز وجل أوفى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل[1] على السفرة ، ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والإضافة بمعنى اللام كما فى جزء الشى لا بمعنى من كما فى خاتم فضة ، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه ، لاجزئى له ، ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب على الترتيب المعهود ، لافى القراءة فى الصلاة ، ولا فى التعليم ولا فى النزول كما قيل .

أما الأول فبين ، إذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على ما يقرأ فى الصلاة حتى تعتبر فى التسمية مبدئيتها له . وأما الأخيران فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليم ، أو من حيث النزول يستدعى مراعاة الترتيب فى بقية أجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين : ولا ريب فى أن الترتيب التعليمى والنزولى ليسا على نسق الترتيب المعهود .

وتسمى أم القرآن لكونها أصلا ومنشأله ، إما لمبدئيتها له ، وإما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عزوجل ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب .

وتسمى أم الكتاب أيضاً كما يسمى بها اللوح المحفوظ ، لكونه أصلا لكل الكائنات ، والآيات الواضحة الدالة على معانيها لكونها بينة تحمل عليها

---

(١) فى ١١ وإملاء جبريل .

المتشابهات ، ومناط التسمية ما ذكر فى أم القرآن لاما أورده الإمام البخارى فى صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها فى الصلاة ، فإنه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير إليه ، وتسمى سورة الكنز ، لقوله عليه السلام : « إنها أنزلت من كنز تحت العرش »(١) أو لما ذكر فى أم القرآن ، كما أنه الوجه فى تسميتها الأساس ، والكافية ، والوافية ، وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة ، لاشتمالها عليها ، وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها ، وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام : « هى شفاء من كل داء » ، والسبع المثانى لأنها سبع آيات تثنى فى الصلاة ، أو لتكرر نزولها على ما روى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة(٢) وبالمدينة أخرى حين حولت القبلة ، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى » وهو مكى بالنص .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هل البسملة من القرآن

اختلف الأئمة فى شأن التسمية فى أوائل السور الكريمة فقيل إنها ليست من القرآن أصلا ، وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومذهب مالك ، والمشهور من مذهب قدماء الحنفية ، وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها . وقيل إنها آية مفردة(٣) من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها ؛ وهو الصحيح من مذهب الحنفية . وقيل هى آية تامة من سورة صدرت بها ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد نسب إلى ابن عمر أيضاً رضى الله عنهم ، وعليه يحمل إطلاق عبارة ابن الجوى فى زادالمسير(٤) حيث قال: روى

---

(١) أخرجه الحافظ الدمياطى فى المتجه الرابح من طارق لمسلم فى ثواب الفاتحة .
(٢) انظر ملشا بالفاتحة فى إرشاد الرحمن للاجهورى
(٣) (فذة) هكذا فى ٤٨٦ ، وما اخترناه من ١١ أوضح
(٤) هو التفسير الصغير لابن الجوزى طبع أخيراً فى دمشق

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت[١] مع كل سورة ، وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبد الله بن المبارك ، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما ، وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ، ولذلك يجهر بها عنده ، فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه إليه أحد ، وقيل : إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآنا فى سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزءا منها أولا ، ولا لكونها آية تامة أولا ، وهو أحد قولى الشافعى على ماذكره القرطبي. ونقل عن الخطابى أنه قول ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم . وقيل إنها آية تامة فى الفاتحة وبعض فى البواقى : وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقى ، وقيل إنها بعض آية فى الكل ، وقيل إنها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزءا منها ، وهذا القول غير معزو[٢] فى الكتاب إلى أحد ، وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه إلى أحد وهو أنها آية تامة فى الفاتحة وليست بقرآن فى سائر السور ، ولو لا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محلى تردد الشافعى ، فإنه قد نقل عنه أنها بعض آية فى الفاتحة ، وأما فى غيرها فقوله فيها متردد ، فقيل بين أن يكون قرآنا أولا ، وقيل بين يكون آية تامة أولا ، قال الإمام الغزالى: والصحيح من الشافعى هو التردد الثانى. وعن أحمد بن حنبل فى كونها آية كاملة وفى كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ، ونقل أنه مع مالك ، وغيره ممن يقول إنها ليست من القرآن .

هذا والمشهور من هذه الأقاويل هى الثلاث[٣] الأول ، والاتفاق على إثباتها فى المصاحف مع الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله عز وجل يقضى بنفى القول الأول ، وثبوت القدر المشترك بين الأخيرين

(١) فى ١١ نزلت .

(٢) فى المطبوعة : معزى خطأ .

(٣) فى المطبوعة : الثلاث .

من غير دلالة على خصوصية أحدهما ، فإن كونها جزءا من القرآن لايستدعى كونها جزءا من كل سورة منه ، كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه . وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى : وما روى عن أبى هريرة من أنه عليه السلام قال : « فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم » .

وما روى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية . وإن دل كل واحد منها على نفى القول الثانى فليس بشىء منها نصا فى إثبات القول الثالث ، أما الأول فلأنه لايدل إلا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد السور المصدرة بها ، لاعلى ما هو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة منها ، إلا أن يلتجأ إلى أن يقال إن كونها آية متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها قول لم يقل به أحد ، وأما الثانى فساكت عن التعرض لحالها فى بقية السور ، وأما الثالث فناطق بخلافه مع مشاركته للثانى فى السكوت المذكور . والباء فيها متعلقة بمضمر ينبىء عنه الفعل المصدر بها ، كما أنها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال ، وتسمية كل فاعل عند مباشرة الأفعال .

تفسيرها البسملة

ومعناها الاستعانة أوالملابسة تبركا ، أى باسم الله أقرأ ، أو أتلو . وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص ، كما فى إياك نعبد ، وتقدير أبدا لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مخل بما هو المقصود ، أعنى شمول البركة للكل ، وادعاء أن فيه امتثالا للحديث[1] الشريف من جهة اللفظ والمعنى معاً ،

(١) فى المطبوعة : الحديث .

وفى تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشىء ، فإن مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله ، إذلم يقل فى الحديث الكريم : « كل أمر ذى بال لم يقل فيه أو لم يضمر فيه أبداً ، وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقول على ألسنة العباد تلقيناً لهم ، وإرشاداً إلى كيفية التبرك باسمه تعالى ، وهداية إلى منهاج الحمد وسؤال الفضل ، ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة ، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر ، كما كسرت لام الأمر ، ولام الإضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء . والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الأعجاز . المبنية الأوائل على السكون قد أدخلت[١] عليها عندالابتداء همزة ، لأن من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ، ويشهد له تصريفهم على أسماء ويسمى[٢] وسميت ، وسمى كهدى لغة فيه قال :

والله أسماك سمى مباركا آثرك الله به إيثاركا

والقلب بعيد غير مطرد ، واشتقاقه من السمو لأنه رفع للمسمى وتنويه له ، وعند الكوفيين من السمة ، وأصله وسم ، حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل إعلالها ، ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ماحذف صدره فى كلامهم ، ومن لغاتهم سيم[٣] وسم قال :

* باسم الذى فى كل سورة سمه *

وإنما لم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن ، أو لتحقيق ماهو المقصود بالاستعانة ههنا ، فإنها تكون تارة بذاته تعالى . وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل وإحداثه ، أى إفاضة القدرة المفسرة عند الأصوليين من أصحابنا

---

(١) فى ٤٨٦ ، دخلت .

(٢) فى المطبوعة ، وسمى .

(٣) فى المطبوعة : سم وسم

بما يتمكن به العبد من أداء مالزمه ، المنقسمة إلى ممكنة وميسرة ، وهى المطلوبة بإياك نستعين ، وتارة أخرى باسمه عز وجلّ وعلا . وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتداً به شرعاً فإنه مالم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم . ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم ، وإلا فالمتبادر من قولنا بالله عند الإطلاق لاسيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى .

إن قيل : فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم ، لما أن التبرك لا يكون إلا به ، قلنا : ذاك فرع كون المراد بالله هو الاسم ، وهل التشاجر إلا فيه ، فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال إرادة المسمى . ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك ، وإنما لم يكتب الألف لكثرة الاستعمال قالوا : وطولت الباء عوضا عنها .

والله أصله الإله ، فحذفت همزته على غير قياس كما ينبىء عنه وجوب الإدغام ، وتعويض الألف واللام عنها ، حيث لزماه وجردا من معنى التعريف ، ولذلك قيل يا ألله بالقطع ، فإن المحذوف القياسى فى حكم الثابت ، فلا يحتاج إلى التدارك بما ذكر من الإدغام والتعويض . وقيل : على قياس تخفيف الهمزة ، فيكون الإدغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ، ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال . والإله فى الأصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، أى مع قطع النظر عن وصف الحقية والبطلان ، لا مع اعتبار أحدهما لا بعينه ، ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق . وأما الله بحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود الحق[1] لم يطلق على غيره أصلا ، واشتقاقه من الألاهة والألوهة .

والألوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهرى ، على أنه اسم منها بمعنى المألوه ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، لا على أنه (اسم)[2] صفة منها ، بدليل أنه

(١) فى المطبوعة : بالحق .   (٢) سقطت من المطبوعة

يوصف ولا يوصف به ، حيث يقال إله واحد ، ولا يقال شيء إله ، كما يقال كتاب مرقوم ، ولا يقال شيء كتاب . والفرق بينهما أن الموضوع له فى الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها . فمدلوها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ، ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الأمر تلك الخصوصية ، فبأى ذات يقوم ذلك المعنى يصح إطلاق الصفة عليها ، كما فى الأفعال . ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول . والموضوع له فى الاسم المذكور هو الذات المعينة . والمعنى الخاص ، فمدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما فى الصفة . ولذلك لم يعمل عملها .

وقيل اشتقاقه من أله بمعنى تحير ، لأنه سبحانه تحار فى شأنه العقول والأفهام . وأما أله كعبد وزنا ومعنى فمشتق من الأله المشتق من أله بالكسر ، وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر . وقيل : من أله إلى فلان أى سكن إليه ، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته . وقيل من أله إذا فزع من أمر نزل به ، وآلهه غيره إذا أجاره ، إذ العائذ به تعالى يفزع إليه وهو يجيره حقيقة أو فى زعمه . وقيل : أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع ، أطلق على الفاعل مبالغة . وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء ، وعليه مدار أمر التوحيد فى قولنا « لا إله إلا الله » .

ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلا كاف فى ذلك ، ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس فى الأصل ، وقيل : هو وصف فى الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ، ويرده امتناع الوصف به .

واعلم أن المراد بالمنكر فى كلمة التوحيد هو المعبود بالحق ، فمعناها : لافرد[١] من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبود بالحق . وقيل : أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الثانية ، وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لامه إذا لم ينكسر ماقبله سنة ، وقيل مطلقا ، وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ، ولا ينعقد به صريح اليمين ، وقد جاء لضرورة الشعر فى قوله :

ألا لابارك الله فى سهيل إذا ما الله بارك فى الرجال

و (الرحمن الرحيم) صفتان مبنيتان من رحم « بعد جعله لازما » بمنزلة الغرائز ، بنقله إلى رحم بالضم كما هو المشهور . وقد قيل : إن الرحيم ليس بصفه مشبهة ، بل هى صيغة مبالغة ، نص عليه سيبويه فى قولهم : هو رحيم فلانا . والرحمة فى اللغة رقة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها . والمراد ههنا التفضل والإحسان ، وإرادتهما بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه البعيد أو القريب ، فإن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال ، دون المبادىء التى هى انفعالات . والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى ، وإنما امتنع صرفه إلحاقا له بالأغلب فى بابه من غير نظر إلى الاختصاص العارض ، فإنه كما حظر وجود فعلى فعلى حظر وجود فعلانة ، فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه ، فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص ، بأن تقاس إلى نظائرها من باب فعل يفعل، فإذا كانت[٢] كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلى فيها علم أن هذه الكلمة أيضاً فى أصلها مما تحقق فيها وجود فعلى ، فتمنع[٣] من الصرف ، وفيه من المبالغة ماليس فى الرحيم ؛ ولذلك قيل يارحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تأخيره رعاية لأسلوب الترقى إلى الأعلى كما فى قولهم

---

(١) فى المطبوعة : لافراد . خطأ

(٢) فى المطبوعة : كان (٣) فى المطبوعة : فتمتنع

فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض ، لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقاً بأن يكون قرينا للاسم الجليل الخاص به تعالى ، ولأن ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها، وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة .

الحمد والمدح والشكر

(الحمد لله) الحمد هو : النعت بالجميل على الجميل ، اختياريا كان أو مبدأ له ، على وجه يشعر [٣] بتوجيه إلى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح ، فإنه خال عنها ، يرشدك إلى ذلك ماترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول فى قولك : حمدته ومدحته ، فإن تعلق الثانى بمفعوله على منهاج تعلق عامة الأفعال بمفعولاتها ، وأما الأول فتعلقه بمفعوله منبيء عن معنى الإنهاء ، كما فى قولك كلمته ، فإنه معرب عما تفيده لام التبليغ فى قولك قلت ونظيره ، وشكرته وعبدته وخدمته ، فإن تعلق كل منها منبيء عن المعنى المذكور وتحقيقه أن مفعول كل فعل فى الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور فى كيفية تعلق الفعل به — أى فعل كان — اختلاف أصلا . وأما المفعول به الذى هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسبما تقتضيه خصوصيات الأفعال بحسب معانيها المختلفة ، فإن بعضها يقتضى أن يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة الأفعال ، وبعضها يستدعى أن يلابسه أدنى ملابسة . إما بالانتهاء إليه كالإعانة مثلا ، أو بالابتداء منه كالاستعانه مثلا ، اعتبر فى كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو ، مغايرة لما اعتبر فى النحوين الأخيرين .

فنظم القسم الأول من التعلق فى سلك التعلق بالمفعول الحقيقى مراعاة لقوة الملابسة ، وجعل كل واحد من القسمين الأخيرين من قبيل التعلق بواسطة

---

(٣) فى ٤٨٦ يشعر ذلك

الجار المناسب له ، فإن قولك أعنته مشعر بانتهاء الإعانة إليه ، وقولك استعنته بابتدائها منه ، وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق بأحدهما على الكيفية الأولى ، وبالآخر على الثانية أو الثالثة ، كما فى قولك حدثنى الحديث ، وسألنى المال ، فإن التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق بكَ على الكيفية الثانية ، وبالحديث على الأولى ، وكذا السؤال فإنه فعل واحد ، وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة [١] وبالمال على الأولى .

ولاريب فى أن اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب إليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولانكير وإن كان لا يتضح حق الاتضاح إلا عند الترجمة والتفسير ، وأن مدار ذلك الاختلاف ليس إلا اختلاف الفعل أو اختلاف [٢] المفعول ، وإذ لا اختلاف فى مفعول الحمد والمدح تعين أن اختلافهما فى كيفية التعلق ،لاختلافهما فى المعنى قطعا . هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار ، يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقة قده ، وأيا ما كان فليس بينهما ترادف ، بل أخوة من جهة الاشتقاق الكبير ، وتناسب تام فى المعنى كالنصر والتأييد فإنهما يتناسبان [٣] معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول ، وإنما مرادف النصر الإعانة ، ومرادف التأييد التقوية ، فتدبر .

ثم إن ما ذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد ، واللائق بالإرادة فى مقام التعظيم ، وأما ما ذكر فى كتب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما فى قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » وفى قولهم : لهذا الأمر عاقبة حميدة ، وفى قول الأطباء ، بحران محمود ، مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار

---

(١) فى المطبوعة الثانية : خطا . (٢) فى ٢٩٦٠ : لاختلاف .

(٣) فى المطبوعة : متناسبان

فبمعزل من[1] استحقاق الإرادة ههنا استقلالا أو استتباعا بحمل الحمد على ما يعم المعنيين ، إذ ليس فى إثباته له عز وجل فائدة يعتد بها . وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح ، وعقد القلب على وصف المنعم بنعت الكمال كما قال من قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

فإذن هو أعم منهما من جهة ، وأخص من أخرى . ونقيضه الكفران ، ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل فى إشاعة النعمة والاعتداد بشأنها ، وأدل على مكانها لما فى عمل القلب من الخفاء ، وفى أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر ، وملاكا لأمره فى قوله عليه السلام : « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده » وارتفاعه بالابتداء ، وخبره الظرف ، وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التى لا تكاد تستعمل معها ، نحو شكراً وعجباً ، كأنه قيل : نحمد الله حمدا بنون الحكاية ، ليوافق ما فى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) لاتحاد الفاعل فى الكل ، وأما ما قيل من أنه بيان لحمدهم له تعالى ، كأنه قيل : كيف تحمدون فقيل إياك نعبد فمع أنه لا حاجة إليه مما لا صحة له فى نفسه ، فإن السؤال المقدر لا بد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وتنساق إليه الأذهان والأفهام ، ولا ريب فى أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته على أن ما قدر من السؤال غير مطابق للجواب ، فإنه مسوق لتعيين المعبود ، لا لا لبيان العبادة ، حتى يتوهم كونه بيانا لحمدهم[2] والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه كيفية الحمد تعكيس للأمر ، وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر .

وبعد اللتيا والتى إن فرض السؤال من جهته عز وجل فاتت نكتة الالتفات التى أجمع عليها السلف والخلف ، وإن فرض من جهة الغير يختل النظام لابتناء الجواب على خطابه تعالى ، وبهذا يتضح فساد ما قيل إنه استئناف جوابا لسؤال

---

(١) فى ١١ «عن» واخترنا ما فى ٤٨٦ (٢) فى ١١ لكيفية حمدهم

يقتضيه إجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها ، فكأنه قيل: ما شأنكم معه وكيف توجهكم إليه ، فأجيب بحصر العبادة والاستعانة فيه ، فإن تناسى جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عز وعلا مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله .

والحق الذى لا محيد عنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للإقبال الكلى عليه ، من غير أن يتوسط هناك شىء آخر كما ستحيط به خبرا ، وإيثار الرفع على النصب الذى هو الأصل الإيذان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت ، وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب ، وهو السر فى كون تحية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تحيتهم له فى قوله تعالى : (قالوا سلاما قال سلام) وتعريفه للجنس ، ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هى حاضرة فى ذهن السامع ، والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع أفرادها به سبحانه على الطريق البرهانى ، لكن لا بناء على أن أفعال العباد مخلوقة له تعالى ، فتكون الأفراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الأفعال الجميلة راجعة إليه تعالى ، بل بناء على تنزيل تلك الأفراد ودواعيها فى المقام الخطابى منزلة العدم كيفا وكما .

وقد قيل للاستغراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها فى ضمن جميع أفرادها ، حسبما يقتضيه المقام ، وقرىء : الحمد لله بكسر الدال إتباعا لها باللام ، وبضم اللام إتباعا لها بالدال ، بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالها مقترنتين منزلة كلمة واحدة ، مثل المغيرة ومنحدر الجبل .

(رب العالمين) بالجر على أنه صفة لله ، فإن إضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ، ضرورة تعين إرادة الاستمرار ، وقرىء منصوبا على المدح ، أو بما دلت عليه الجملة السابقة ، كأنه قيل : نحمد الله رب العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة إعمال المصدر المحلى باللام ، وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر ، والرب فى الأصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيئا فشيئا ، وصف به الفاعل مبالغة كالعدل .

وقيل : صفة مشبهة ، من ربه يربه ، مثل نمه ينمه ، بعد جعله لازما بنقله إلى فعل بالضم ، كما هو المشهور ، سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيدا كرب الدار ورب الدابة ، ومنه قوله تعالى (فيسقى ربه خمراً) وقوله تعالى (فارجع إلى ربك) وما فى الصحيحين من أنه عليه السلام قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضىء ربك ، ولا يقل أحدكم ربى ، وليقل سيدى ومولاى » .

فقد قيل إن النهى فيه للتنزيه ، وأما الأرباب فحيث لم يمكن(١) إطلاقه على الله سبحانه جاز فى إطلاقه الإطلاق والتقييد ، كما فى قوله (أأرباب متفرقون خير) الآية . والعالم اسم لما يعلم به ، كالخاتم والقالب . غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها وبين مجموعها ، فإنه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قولهم عالم الأفلاك ، وعالم العناصر ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، إلى غير ذلك ، يطلق على المجموع أيضاً ، كما فى قولنا العالم بجميع أجزائه محدث ، وقيل : هو اسم لأولى العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع .

وقيل : أريد به الناس فقط ، فإن كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والأعراض يعلم بها الصانع ، كما يعلم بما فى كل(٢) عالم على حياله ، ولذلك أمر بالنظر فى الأنفس كالنظر فى الآفاق ، فقيل (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) والأول هو الأحق الأظهر ، وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى بجميع(٣) الأجناس ، والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها ، إذ لو أفرد لربما توهم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى ، أو استغراق أفراد جنس واحد على الوجه الذى أشير إليه فى

---

(١) فى المطبوعة لم يكن . خطأ

(٢) فى المطبوعة بما فيه عالم . خطأ

(٣) فى المطبوعة : جميع الاجناس .

تعريف الحمد ، وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم — وإن لم ينطلق على آحاد مدلوله — منزلة الجمع ، حتى قيل إنه جمع لا واحد له من لفظه ، فكما أن الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وإن لم يصدق عليها كما فى مثل قوله تعالى (والله يحب المحسنين) أى كل محسن ، كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به ، وإن لم ينطلق عليها ، كأنها آحاد مفرده التقديرى ، ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع ، فكما أن الأقاويل تتناول كل واحد من آحاد الأقوال ، يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التى لا تكاد تحصى .

روى عن وهب بن منبه أنه قال « لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، والدنيا عالم منها » وإنما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما فى حكمها من الأعلام لدلالته على معنى العلم ، مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم ، واعلم أن عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الآحاد ليس إلا باعتبار الغلبة والاصطلاح ، وأما باعتبار الأصل فلا ريب فى صحة الإطلاق قطعاً لتحقق المصداق حتما فإنه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ما سواه ، وبكل جنس من أجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع ، وبكل فرد من أفراد تلك الأجناس ، لتحقق الحاجة إلى المؤثر الواجب لذاته فى الكل ، فإن كل ما ظهر فى المظاهر مما عز وهان وحضر فى هذه المحاضر كائنا ما كان دليل لائح على الصانع المجيد ، وسبيل واضح إلى عالم التوحيد ، وأما شمول ربوبيته عز وجل للكل فمما لا حاجة إلى بيانه ، إذ لا شىء مما أحدق به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجثمانيات[1] إلا وهو فى حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آنا واحداً لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا فى مطمورة العدم

(١) فى المطبوعة : والجسمانيات .

ومهاوى البوار ، لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس، فى كل زمان يمضى ، وكل آن يمر وينقضى ، من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ، ووجوده وصفاته وكمالاته مما لا يحيط به فلك التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير، ضرورة أنه كما لا يستحق شىء من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء ، وإنما ذلك من جناب المبدىء الأول(١) عز وعلا ، فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلى ، لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ، ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء ، لما أن الدوام من خصائص الوجود الواجبى ، وظاهر أن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التى هى علله وشرائطه وإن كانت متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التى لها دخل فى وجوده وهى المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك ، إذ لا استحالة فى أن يكون لشىء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاؤه على ارتفاعها ، أى بقائها على العدم مع إمكان وجودها فى أنفسها(٢) فإبقاء تلك الموانع التى لا تتناهى على العدم تربية لذلك الشىء من وجوه غير متناهية .

وبالجملة فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات فى كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه(٣) لا تلاحظه العيون بأنظارها ، ولا تطالعه العقول بأفكارها ، شأنه لا يضاهى ، وإحسانه لا يتناهى ، ونحن فى معرفته حائرون . وفى إقامة مراسم شكره قاصرون ، نسألك اللهم الهداية إلى مناهج معرفتك ، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لا نحصى ثناء عليك لا إله إلا أنت ، نستغفرك ونتوب إليك .

---

(١) فى المطبوعة المبدأ الأول .

(٢) فى المطبوعة : فى نفسها .

(٣) فى المطبوعة : سلطانه .

(الرحمن الرحيم) صفتان لله ، فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين ، أو ما يفيض على الكل بعد الخروج إلى طور الوجود من النعم ، فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر ، وإن أريد ما يعم الكل فى الأطوار كلها حسبما فى قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء) فوجه الترتيب أن التربية لاتقتضى المقارنة للرحمة ، فإيرادها فى عقيبها[1] للإيذان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه ، وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى بهما فى التسمية لما أنه الأنسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل ، والأوفق لمقاصده .

(مالك يوم الدين) صفة رابعة له تعالى ، وتأخيرها عن الصفات الأول مما لا حاجة إلى بيان وجهه ، وقرأ أهل الحرمين المحترمين (ملك) من الملك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة التامة ، والقدرة على التصرف الكلى فى أمور العامة ، بالأمر والنهى وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين ، كما فى قوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقرئ (ملك) بالتخفيف و (ملك) بلفظ الماضى ، (ومالك) النصب على المدح ، أو الحال ، وبالرفع منونا ومضافا على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وملك مضافا وبالرفع والنصب ، واليوم فى العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان ، وفى الشرع عما بين طلوع الفجر الثانى وغروب الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت ، والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ، ومنه الثانى فى المثل السائر كما تدين تدان ، والأول فى بيت الحماسة :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الأول فى الأول والثانى فى الثانى فليس بجزاء حقيقة ، وإنما سمى به

---

(١) فى المطبوعة : فإيرادها فى عقبها .

مشاكلة . أو تسمية للشيء باسم مسببه كما سميت إرادة القيام والقراءة باسمهما فى قوله عز اسمه (إذا قمتم إلى الصلاة) وقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) ولعله هو السر فى بناء المفاعلة من الأفعال التى تقوم أسبابها بمفعولاتها ، نحو عاقبت اللص ونظائره ، فإن قيام السرقة التى هى سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به ، وهى العقوبة ، فصار كأنها قامت بالجانبين ، وصدرت عنهما ، فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاكلة بين[1] اثنين وإضافة اليوم إليه لأدنى ملابسة كإضافة سائر الظروف الزمانية إلى ما وقع فيها من الحوادث ، كيوم الأحزاب وعام الفتح ، وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه أدخل فى الترغيب والترهيب ، فإن ما ذكر من القيامة وغيرها من مبادىء الجزاء ومقدماته وإضافة مالك إلى اليوم إضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، على نهج الاتساع المبنى على إجرائه مجرى المفعول به ، مع بقاء المعنى على حاله ، كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار . أى : مالك أمور العالمين كلها فى يوم الدين . وخلو إضافته عن إفادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة إنما هو إذا أريد به الحال ، أو الاستقبال ، وأما عند إرادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب فى كونها إضافة حقيقية كإضافة الصفة المشبهة إلى غير معمولها فى قراءة (ملك يوم الدين) .

ويوم الدين وإن لم يكن مستمرا فى جميع الأزمنة إلا أنه لتحقق وقوعه وبقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر . ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار ، كما تشهد به القراءة على صيغة الماضى ، وما ذكر من إجراء الظرف مجرى المفعول به إنما هو من حيث المعنى ، لا من حيث الإعراب ، حتى يلزم كون الإضافة لفظية ، ألا ترى أنك تقول فى مالك عبده أمس إنه مضاف إلى المفعول به ، على أنه كذلك معنى ، لا أنه منصوب محلا ، وتخصيصه بالإضافة إما

---

(١) فى المطبوعة : على المشاركة بين الاثنين .

لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر فيه ، وانقطاع العلائق الجارية[1] بين الملاك والأملاك حينئذ بالكلية ، وإجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليل لما سبق من اختصاص الحمد له تعالى ، المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى ، وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه ، فإن كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى، وامتناع ثبوتها لما سواه .

أما الأولى والرابعة فظاهر ، لأنهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وما سواه مربوبا مملوكا له تعالى .

وأما الثانية والثالثة فلأن اتصافه تعالى بهما ليس إلا بالنسبة إلى ما سواه من العالمين وذلك يستدعى أن يكون الكل منعما عليهم ، فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الإطلاق ، وهو المعنى بالاختصاص .

(إياك نعبد وإياك نستعين) .

سر وجوب الفاتحة فى الصلاة

التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وتلوين للنظم من باب إلى باب ، جار على نهج البلاغة فى افتنان الكلام ، ومسلك البراعة حسبما يقتضى المقام ، لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب ، أدخل فى استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب ، والغيبة إلى كل واحد من الآخرين ، كما فى قوله عز وجل (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) الآية ، وقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردة

---

(١) فى المطبوعة : المجازية . خطأ

فى التنزيل لأسرار تقتضيها ، ومزايا تستدعيها . ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التى أوجبت له تعالى أكمل تميز ، وأتم ظهور ، بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور ، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب ، والإيذان بأن حق التالى بعد ما تأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الأقدس ، المستوجب للمعبودية ، وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية ، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين ، وافتقار الكل إليه فى الذات والوجود ابتداء وبقاء ، على التفصيل الذى مرت إليه الإشارة أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة البيان[1] وينتقل من عالم الغيبة إلى معالم الشهود ، ويلاحظ نفسه فى حظائر القدس حاضرا فى محاضر الأنس ، كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه ، وهو يدعو بالخضوع والإخبات ، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا : يامن هذه شؤون ذاته وصفاته ، نخصك بالعبادة والاستعانة ، فإن ما سواك كائنا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود ، فضلا عن استحقاق أن يعبد ويستعان ، ولعل هذا هو السر فى اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى (من)[2] مناجاة العبد لمولاه ومنته للتبتل إليه بالكلية ، وإيا ضمير منفصل منصوب ، وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب ، والتكلم والغيبة لا محل لها من الإعراب ، كالتاء فى أنت والكاف فى أرأيتك ، وما ادعاه الخليل من الإضافة محتجاً عليه بما حكاه عن بعض العرب : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب ، فمما لا يعول عليه . وقيل هى : الضمائر ، وإيا دعامة لها لتصيرها منفصلة ، وقيل الضمير هو المجموع ، وقرى (إياك) بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد ، وهياك بقلب الهمزة هاء .

---

(١) فى ٤٨٦ : العيان .

(٢) سقطت من المطبوعة

العبادة والعبودية والاستعانة

والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ، ومنه طريق معبد أى مذلل ، والعبودية أدنى منها ، وقيل : العبادة فعل ما يرضى به الله ، والعبودية الرضى بما فعل الله تعالى ، والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه ، وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) مع ما فيه من التعظيم والاهتمام به ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : معناه نعبدك ولا نعبد غيرك ، وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب ، وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الاسم الجليل ، وإن ساعدته[1] الصفات المجراة عليه أيضاً ، وأما الاستعانة فمن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادة من حقوق الله تعالى ، والاستعانة من حقوق المستعين ، ولأن العبادة واجبة حتما ، والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب ، وعدمه ، وقيل لأن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول ، هذا على تقدير كون إطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه ، كما قالوا وقد قيل : إنه لما كان المسئول هو المعونة فى العبادة والتوفيق لإقامة مراسمهما على ما ينبغى ، وهو اللائق بشأن التنزيل ، والمناسب لحال الحامد ، فإن استعانته مسبوقة بملاحظة فعل من أفعاله ، ليستعينه تعالى فى إيقاعه ، ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شؤونه تعالى ، واشتغاله بأداء ما توجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء ، لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبال الكلى عليه ، والتوجه التام إليه ، ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولا ، وباستدعاء الهداية إلى ما يوصل إليه آخراً فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها ، كأنه قيل : وإياك

---

(١) فى المطبوعة : ساعده خطأ .

نستعين فى ذلك ، فإنا غير قادرين على أداء حقوقك[١] من غير إعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح ، وفيه من الإشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة مناها ، وبكونها عند العابد أشرف المباغى والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لامن أعمال نفسه ، ومن الملاءمة[٢] لما يعقبه من الدعاء ما لا يخفى .

وقيل الواو للحال ، أى إياك نعبد مستعينين بك ، وإيثار صيغه المتكلم مع الغير فى الفعلين للإيذان بقصور نفسه ، وعدم لياقته للوقوف[٣] فى مواقف الكبرياء منفرداً ، وعرض العبادة ، واستدعاء المعونة والهداية مستقلا ، وأن ذلك إنما يتصور من عصابة هو من جملتهم ، وجماعة هو من زمرتهم ، كما هو ديدن الملوك ، أو للإشعار باشتراك سائر الموحدين له فى الحالة العارضةله ، بناء على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك ، وقرىء (نستعين) بكسر النون على لغة بنى تميم .

(إهدنا الصراط المستقيم) إفراد لمعظم فراد المعونة المسئولة بالذكر ، وتعيين لما هو الأهم أو بيان لها ، كأنه قيل : كيف أعينكم فقيل : اهدنا .

أجناس الهداية

والهداية دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، ولذلك اختصت بالخير ، وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وارد على نهج التهكم ، والأصل تعديتها[٤] بإلى واللام ، كما فى قوله تعالى : (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق) فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى (واختار موسى

---

(١) فى المطبوعة : حقوقه . خطأ .
(٢) فى المطبوعة : الملائمة . خطأ
(٣) فى المطبوعة : بالوقوف .
(٤) فى المطبوعة : تعديته .

قومه) وعليه قوله تعالى : (لنهدينهم سبلنا) وهداية الله تعالى مع تنوعها إلى أنواع لاتكاد تحصر منحصرة فى أجناس مترتبة ، منها أنفسية ، كإفاضة القوى الطبيعية والحيوانية التى بها يصدرعن المرء فاعيله الطبيعية الحيوانية ، والقوى المدركة ، والمشاعر الظاهرة والباطنة التى بها يتمكن من إقامة مصالحه المعاشية والمعادية ، ومنها آفاقية فإما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال ، وهى نصب الأدلة المودعة فى كل فردمن أفراد العالم حسبما لوح به فيما سلف ، وإماتنزيلية مفصحة عن تفاصيل الأحكام النظرية والعملية بلسان المقال ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التى من جملتها الإرشاد إلى مسلك الاستدلال بتلك الأدلة التكوينية الآفاقية والأنفسية ، والتنبيه على مكانها ، كما أشير إليه مجملا فى قوله تعالى : (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وفى قوله عز وعلا : (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) ومنها الهداية الخاصة وهى كشف الأسرار على قلب المهدى بالوحى ، أو الإلهام .

ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتحيها ، وطالب يستدعيها ، والمطلوب إما زيادتها كما فى قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وإما الثبات عليها كما روى عن على وأبى رضى الله عنهما : إهدنا ثبتنا ، ولفظ الهداية على الوجه الأخير[1] مجاز قطعاً ، وأما على الأول فإن اعتبر مفهوم الزيادة داخلا فى المعنى المستعمل فيه كان مجازا أيضاً ، وإن اعتبر خارجاً عنه مدلولا عليه بالقرائن كان حقيقة ، لأن الهداية الزائدة هداية ، كما أن العبادة الزائدة عبادة ، فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وقرىء أرشدنا ، والصراط الجادة وأصله السين ، قلبت صاداً لمكان الطاء كمصيطر فى مسيطر ، من سرط الشىء إذا ابتلعه ، سميت به لأنها تسترط السابلة إذا سلكوها ، كما سميت لقما لأنها

(١) فى المطبوعة الآخر .

لأنها تلتقمهم وقد تشم الصاد صوت الزاى تحريا للقرب من المبدل منه . وقد قرىء بهن جميعاً ، وفصحاهن إخلاص الصاد ، وهى لغة قريش ، وهى الثابتة فى الإمام ، وجمعه صرط ككتاب وكتب ، وهو كالطريق والسبيل فى التذكير والتأنيث ، والمستقيم المستوى ، والمراد به طريق الحق وهى الملة الحنيفة السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ بدل من الأول بدل الكل ، وهو فى حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة ، وفائدته التأكيد والتنصيص على أن طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم فى الاستقامة ، والمشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلا إليه.

النعم ومن الذين أنعم الله عليهم

وإطلاق الإنعام لقصد الشمول ، فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها ، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها : وقيل : المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ولعل الأظهر أنهم المذكورون فى قوله عز قائلا (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بشهادة ما قبله من قوله تعالى (ولهديناهم صراطا مستقيما) وقيل : هم أصحاب موسى وعيسى عليهما (الصلاة[1] و)السلام قبل النسخ والتحريف وقرىء صراط من أنعمت عليهم والإنعام إيصال النعمة وهى فى الأصل الحالة التى يستلذها الإنسان من النعمة وهى اللين ثم أطلقت على ما تستلذه النفس من طيبات الدنيا.

ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها تنحصر[2] أصولها فى دنيوى وأخروى والأول قسمان : وهبى وكسبى ، والوهبى أيضاً قسمان : روحانى كنفخ الروح

(١) سقطت من المطبوعة .

(٢) فى ١١ : تستحضر .

فيه ، وإمداده بالعقل ، وما يتبعه من القوى المدركة ، فإنها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة فى أنفسها ، وجسمانى كتخليق البدن والقوى الحالة فيه ، والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الأعضاء ، والكسبي تخلية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالأخلاق السنية ، والملكات البهية ، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المرضية ، وحصول الجاه والمال .

والثانى[1] مغفرة مافرط منه ، والرضى عنه ، وتبوئته فى أعلى عليين ، مع المقربين والمطلوب هو القسم الأخير ، وماهو ذريعة إلى نيله من القسم الأول، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم . ورحمتك الواسعة .

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ : صفة للموصول على أنه عبارة عن إحدى الطوائف المذكورة المشهورة بالإنعام عليهم ، وباستقامة المسلك ، ومن ضرورة هذه الشهرة شهرتهم بالمغايرة لما أضيف إليه كلمة غير من المتصفين بضدى الوصفين المذكورين ، أعنى مطلق المغضوب عليهم والضالين ، فاكتسبت بذلك تعرفا مصححا لوقوعها صفة للمعرفة كما فى قولك : عليك بالحركة غير السكون ، وصفوا بذلك تكملة لما قبله وإيذانا بأن السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جلية فى نفسها ، أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التى هى نعمة الإيمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال . وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم ، فيكون بمعنى النكرة كذى اللام إذا أريد به الجنس فى ضمن بعض الأفراد لا بعينه ، وهو المسمى بالمعهود الذهنى ، و(المراد)[2] بالمغضوب عليهم والضالين اليهود والنصارى ، كما ورد فى مسند أحمد والترمذى فيبقى لفظ غير على إبهامه نكرة مثل موصوفة ، وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف إليه مما قبله ؛ فإن مدارها كون صراط المؤمنين

(١) المراد النعم الأخروية .
(٢) سقطت من المطبوعة

علما فى الإستقامة مشهوداً له بالاستواء على الوجه الذى تحققته فيم سلف ، ومن البين أن ذلك من حيث إضافته وانتسابه إلى كلهم لا إلى بعض مبهم منهم ،وبهذا تبين ألا سبيل إلى جعل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول[1] لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيد تأكيد وتقرير ، وفضل إيضاح وتفسير ، ولا ريب فى أن قصارى أمر مانحن فيه أن يكتسب مما أضيف إليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول ، وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيداً لمـا ذكر من الفوائد فكلا ، وقرىء بالنصب على الحال ،والعامل أنعمت ، أو على المدح ، أو على الاستثناء إن فسر النعمه بما يعم القليل .

والغضب هيجان النفس لإرادة الإنتقام وعند اسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه القريب إن أريد به إرادة الإنتقام ، وعلى مسببه البعيد إن أريد به نفس الانتقام ، ويجوز حمل الـكلام على التمثيل ، بأن تشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وإرادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك إذا غضب على الذين عصوه ، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم ، وعليهم مرتفع بالمغضوب ، قائم مقام فاعله والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخير إليه عز وجل ، دون أضدادها ، كما فى قوله تعالى : (الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين) ، وقوله تعالى : (وإنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده غير من معنى النفى كأنه قيل : إن ولا المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولذلك جاز إن زيداً[2] غير ضارب ، جواز إن زيداً لاضارب وإن امتنع إن زيداً مثل ضارب ، والضلال هو

---

(١) فى ١١ . الموصوف .

(٢) فى المطبوعة ، أن زيداً فى الفقرة كلها خطأ .

العدول عن الصراط السوى ، وقرىء وغير الضالين ، وقرىء ولا الضألين ، بالهمزة على لغة من جد فى الهرب عن التقاء الساكنين .

﴿ آمين ﴾ اسم فعل هو : استجب ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين ، فقال : «افعل» بنى على الفتح كأين لالتقاء الساكنين ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها قال :

* ويرحم الله عبداً قال آمينا * وقال : * أمين فزاد الله ما بيننا بعداً *

عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب ، وقال : إنه كالختم على الكتاب » .

حكم قراءة آمين فى الصلاة

وليست من القرآن وفاقا ، ولكن يسن ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن أبى حنيفة رحمه الله أن المصلى يأتى بها مخافتة ، وعنه أنه لا يأتى بها الإمام لأنه الداعى وعن الحسن مثله ، وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس بن مالك عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وعند الشافعى رحمه الله يجهر بها ، لما روى وائل بن حجر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ، ورفع بها صوته . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بن كعب « ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟ قلت بلى يا رسول الله قال : فاتحة الكتاب إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته [1] » وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا ، فيقرأ صبى من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة »[2] .

---

(١) أخرجه الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح لمسلم وأحمد والطبرانى فى الأوسط .
(٢) الطبرانى فى الصغير وفى إسناده كلام

سورة البقرة مدنية وهى مائتان وسبع وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء فى الحروف المقطعة

﴿ الم ﴾ الألفاظ التى يعبر بها عن حروف المعجم التى من جملتها المقطعات المرقومة فى فواتح السور الكريمة أسماء لها ، لاندراجها تحت حد الاسم ، ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم ، وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية ، وما وقع فى عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة ، وأما ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه من أنه عليه السلام قال : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وفى رواية الترمذى والدارمى : « لا أقول الم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف » فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا ، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة . وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلام من الحروف المبسوطة ، وربما يطلق على الكلمة أيضا تجوزا وأريد[1] بالحديث الشريف دفع توهم التجوز ، وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيقى ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية ، بل بعدد حروفها المكتوبة فى المصاحف ، كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن ، وليس هذا من تسمية الشىء باسم مدلوله فى شىء كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة إنما هى المسميات البسيطة الواقعة فى كتاب الله عز وعلا[2] ، سواء عبر عنها بأسمائها المؤلفة كما إذا قلنا[3] الألف مؤلف من ثلاثة أحرف ، فكما أن الحسنات فى قراءة قوله تعالى

---

(١) فى المطبوعة : فأريد . (٢) فى المطبوعة : وجل .

(٣) فى المطبوعة : قلت .

(ذلك الكتاب) بمقابلة حروفه البسيطة ، وموافقة لعددها كذلك فى قراءة قوله تعالى (ألم) بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددها ، لا بمقابلة أسمائها الملفوظة . والألفات الموافقة فى العدد ، إذ الحكم بأن كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بأنه مستتبع لحسنة واحدة ، فالعبرة فى ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ، ولعل السر فيه أن استتباع الحسنة منوط بإفادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية . فكما أن سائر الكلمات الشريفة لاتفيد معانيها إلا بتلفظ حروفها بأنفسها ، كذلك الفواتح المكتوبة لاتفيد المعانى المقصودة بها إلا بالتعبير عنها بأسمائها ، فجعل ذلك تلفظا بالمسميات كالقسم الأول من غير فرق بينهما .

ألا ترى إلى ما فى الرواية الأخيرة من قوله عليه السلام « والذال حرف والكاف حرف » كيف عبر عن طرفى ذلك باسميهما ، مع كونهما ملفوظين باسميهما[1] ، ولقد روعيت فى هذه التسمية نكتة رابعة[2] ، حيث جعل كل مسمى لكونه من قبيل الألفاظ صدراً لاسمه ، ليكون هو المفهوم منه إثر ذى أثير ، خلا أن الألف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة ، وهى معربة إذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الأصل ، لكنها مالم تلها العوامل ساكنة الأعجاز على الوقف كأسماء الأعداد وغيرها ، حين خلت عن العوامل ، ولذلك قيل : صاد ، وقاف ، مجموعا فيهما بين الساكنين ، ولم تعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وإن وليها عامل مسها الإعراب ، وقصر ما آخره ألف عند التهجى لا بتغاء الخفة لا لأن وزانه وزان لا تقصر تارة فتكون حرفا وتمد أخرى فتكون اسما لها كما فى قول حسان رضى الله عنه :

ما قال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تكلموا فى شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها فقيل : إنها

---

(١) فى المطبوعة : بأسميهما . (٢) فى ط : رائعة

من العلوم المستورة ، والأسرار المحجوبة ، روى عن الصديق أنه قال « فى كل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور » وعن على رضى الله عنه « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « عجزت العلماء عن إدراكها » وسئل الشعبى عنها فقال « سر الله عز وجل فلا تطلبوه » وقيل : إنها من أسماء الله تعالى وقيل : كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته تعالى . وقيل : إنها صفات الأفعال ، الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده وملكه ، قاله محمد ابن كعب القرظى . وقيل : إنها من قبيل الحساب ، وقيل الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد ، أى الله أنزل[1] الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . وقيل هى أقسام من تعالى بهذه الحروف المعجمة ، لشرفها من حيث إنها أصـــول اللغات ومبادىء كتبه المنزلة ، ومبانى أسمائه الكريمة ، وقيل : إشارة إلى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر ، وقيل ، وقيل .

ولكن الذى عليه التعويل : إما كونها أسماء للسور المصدرة بها ، وعليه إجماع الأكثر ، وإليه ذهب الخليل وسيبويه ، قالوا سميت بها إيذانا بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، فيكون فيه إيماء إلى الإعجاز والتحدى على سبيل الإيقاظ. فلولا أنه[2] وحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ، ويقرب منه ما قاله الكلبى والسدى وقتادة من أنها أسماء للقرآن والتسمية بثلاثة أسماء فصاعداً إنما تستنكر فى لغة العرب إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً ، كما فى حضرموت ، فأما إذا كانت منثورة فلا استنكار فيها ، والمسمى هو المجموعة لا الفاتحة فقط ، حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى ، غاية الأمر دخول الاسم فى المسمى ، ولا محذور فيه ، كما لا محذور فى عكسه حسبما

---

(١) فى المطبوعة : أنزل الله . (٢) فى ا ا : أنها .

تحققته آنفا ، وإنما كتبت فى المصاحف صور المسميات دون صور الأسماء لأنه أدل على كيفية التلفظ بها ، وهى أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما فى الفواتح الخماسية ، على أن خط المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس ، وإما كونها مسرودة على نمط التعديد ، وإليه جنح أهل التحقيق .

قالوا إنما وردت هكذا ليكون إيقاظا لمن تحدى بالقرآن ، وتنبيها لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فلولا أنه خارج عن طوق البشر ، نازل من عند خلاق القوى والقدر ، لما تضاءلت قوتهم ، ولا تساقطت قدرتهم ، وهم فرسان حلبة الحوار ، وأمراء الكلام فى نادى الفخار ، دون الإتيان بما يدانيه ، فضلا عن المعارضة بما يساويه ، مع تظاهرهم فى المضادة والمضاره ، وتهالكهم على المعازة والمعاره .

أو ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة أنموذجا لما فى الباقى من فنون الإعجاز ، فإن النطق بأنفس الحروف فى تضاعيف الكلام ، وإن كان على طرف التمام ، يتناوله الخواص والعوام ، من الأعراب والأعجام لكن التلفظ بأسمائها إنما يتأتى ممن درس وخط ، وأما ممن لم يحم حول ذلك قط ، فأعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق ، لاسيما إذا كان على نمط عجيب ، وأسلوب غريب ، منبىء عن سر سرى ، مبنى على نهج عبقرى ، بحيث يحار فى فهمه أرباب العقول ، ويعجز عن إدراكه ألباب الفحول .

كيف لا وقد وردت تلك الفواتح فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، مشتملة على نصفها تقريبا ، بحيث ينطوى على أنصاف أصنافها تحقيقا أو تقريبا ، كما يتضح عند الفحص والتنقير ، حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير .

فسبحان من دقت حكمته من أن تطالعها الأنظار ، وجلت قدرته عن أن تنالها أيدى الأفكار ، وإيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى الخماسية جرى

على عادة الافتنان ، مع مراعاة أبنية الكلم وتفريقها على السور ، دون إيراد كلها مرة لذلك ولما فى التكرير والإعادة من زيادة إفادة ، وتخصيص كل منها بسورتها مما لاسبيل إلى المطالبة بوجهه ، وعد بعضها آية دون بعض ، مبنى على التوقيف البحت .

هل الحروف آيات ؟ إعرابها

أما الم فآية حيثما وقعت ، وقيل فى آل عمران ليست بآية ، والمص آية ، والمر لم تعد آية ، والر ليست بآية فى شىء من سورها الخمس ، وطسم آية فى سورتيها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية فى سورها كلها ، وكهيعص آية ، وحم عسق آيتان . وص وق ون لم تعد واحدة منها آية . هذه على رأى الكوفيين .

وقد قيل : إن جميع الفواتح آيات عندهم فى السور كلها بلا فرق بينها ، وأما من عداهم فلم يعدوا شيئاً منها آية ، ثم إنها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد لا تشم رائحة الإعراب ، ويوقف عليها وقف التمام ، وعلى تقدير كونها أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه إما الرفع على الابتداء أو على الخبرية ، وإما النصب بفعل مضمر ، كاذكر ، أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن ، وإما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ، ويستدعيه النظام ، ولاوقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالكل على وجه الحكاية ساكنة الأعجاز إلا أن ما كانت منها مفردة مثل ص وق ون يتأتى فيها الإعراب اللفظى أيضا ، وقدقرئت بالنصب على إضمار فعل ، أى اذكر أواقرأ صاد وقاف ونون ، وإنما لم تنون لامتناع الصرف ، وكذا ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل ، حيث أجاز سيبويه فيها مثل ذلك قال فى باب أسماء السور من كتابه : وقد قرأ بعضهم

ياسين والقرآن ، وقاف والقرآن ، فكأنه جعله اسما أعجميا ، ثم قال اذكر ياسين ، انتهى .

وحكى السيرافى أيضا عن بعضهم قراءة ياسين ويجوز أن يكون ذلك فى الكل تحريكا لالتقاء الساكنين ، ولا مساغ للنصب بإضمار فعل القسم ؛ لأن ما بعدها من القرآن والقلم محلوف بهما ، وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم عليه واحد قبل انقضاء الأول ، وهو السر فى جعل ما عدا الواو الأولى فى قوله تعالى (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى) عاطفة ، ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الأول والثانى فى الإعراب ، نعم يجوز ذلك بجعل الأول مجرورا بإضمار الباء القسمية ، مفتوحا لكونه غير منصرف ، وقرىء ص وق بالكسر على التحريك لالتقاء الساكنين ، ويجوز فى طاسين ميم أن تفتح نونها ، وتجعل من قبيل دارابجرد ذكره سيبويه فى كتابه . وأما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها إلا الحكاية وسيجىء تفاصيل سائر أحكام كل منها مشروحة فى مواقعها بإذن الله عز سلطانه أما هذه الفاتحة الشريفة فإن جعلت اسما للسورة أو للقرآن فمحلها الرفع ، إما على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هذا الم أى مسمى به ، وإنما صحت الإشارة إلى القرآن بعضاً أو كلا مع عدم سبق ذكره لأنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد ، كما يقال هذا ما اشترى فلان .

وإما على أنه مبتدأ ، أى المسمى به والأول هو الأظهر ، لأن ما يجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه عند المخاطب وإذ لا علم بالتسمية قبل لحقها الإخبار بها وادعاء شهرتها يأباه التردد فى أن المسمى هى السورة أو كل القرآن .

﴿ ذلك ﴾ ذا اسم إشارة واللام كناية عما جىء به للدلالة على بعد المشار إليه ، والكاف للخطاب ، والمشار إليه هو المسمى ، فإنه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى ، وما فيه من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيذان

بعلو شأنه ، وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف ، إثر تنويهه بذكر اسمه ، وما قيل من أنه باعتبار التقضى أو باعتبار الوصول من المرسل إلى المرسل إليه فى حكم المتباعد ، وإن كان مصححا لإيراده ، لكنه بمعزل من ترجيحه على إيراد ما وضع للإشارة إلى القريب ، وتذكيره على تقدير كون المسمى هى السورة ، لأن المشار إليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به ، لامن حيث هو مسمى بالسورة ، ولئن ادعى اعتبار الحيثية الثانية فى الأول بناء على أن التسمية لتمييز السور بعضها من بعض ، فذلك لتذكير ما بعده ، وهو على الوجه الأول مبتدأ على حدة ، وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان .

وقوله عز وعلا (الكتاب) إما خبر له ، أوصفة ، أما إذا كان خبرا له فالجملة على الوجه الأول مستأنفة مؤكدة ، لما أفادته الجملة الأولى من نباهة شأن المسمى ، لامحل لها من الإعراب ، وعلى الوجه الثانى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الأول . واسم الإشارة مغن عن الضمير الرابط ، والكتاب إما مصدر سمى به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور ، وإما فعل بنى للمفعول كاللباس ، من الكتاب الذى هو ضم الحروف بعضها إلى بعض وأصله الجمع والضم فى الأمور البادية للحس البصرى ، ومنه الكتيبة للعسكر ، كما أن أصل القراءة الجمع والضم فى الأشياء الخافية عليه ، وإطلاق الكتاب على المنظوم عبارة لما أن مآله الكتابة ، والمراد به على تقدير كون المسمى هى السورة جميع القرآن الكريم ، وإن لم يتم نزوله نزول السورة إما باعتبار تحققه فى علم الله عز وجل ، أو باعتبار ثبوته فى اللوح ، أو باعتبار نزوله جملة إلى السماء الدنيا ، حسبما ذكر فى فاتحة الكتاب المعهود ، الغنى عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله عليه السلام : « الحج عرفة » ، وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن .

فالمراد بالكتاب الجنس ، واللام للحقيقة ، والمعنى أن ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لتفوقه على بقية الأفراد فى

حيازة كمالات الجنس ، كأن ماعداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه كما يقال هو الرجل ، أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال ، وعليه قول من قول :

* هم القوم كل القوم يا أم خالد *

فالمدح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفراده ، وفى الصورة الأولى من جهة حصر كمال الكل فى الجزء ، ولا مساغ هناك لحمل الكتاب على الجنس ، لما أن فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراده من الكتب السماوية ، لا بعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءا لهذا الفرد ، لا باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ، ولأن حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور ، وإن لم يكن الحصر بالنسبة إليها لتحقق المغايرة بينهما ، هذا على تقدير كون الكتاب خبرا لذلك ، وأما إذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون ألم خبر مبتدأ محذوف ، إما خبر ثان أو بدل من الخبر الأول ، أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده ، وعلى تقدير كونه مبتدأ إما خبر له ، أو مبتدأ ثان خبره ما بعده ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمشار إليه على كلا التقديرين هو المسمى ، سواء كان هى السورة أو القرآن ، ومعنى البعد ماذكر من الإشعار بعلو شأنه ، والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشأن ، البالغ أقصى مراتب الكمال .

وقيل المشار إليه هو الكتاب الموعود ، فمعنى البعد حينئذ ظاهر ، خلا أنه إن كان المسمى هى السورة ينبغى أن يراد بالوعد ما فى قوله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) كما قيل ، وإن كان هو القرآن فهو ما فى التوراة والإنجيل ، هذا على تقدير كون (الم) اسما للسورة أو القرآن ، وأما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد فذلك مبتدأ ، والكتاب إما خبره أو صفته ، والخبر ما بعده على نحو ما سلف ، أو يقدر مبتدأ ، أى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب ، وقرىء (الم تنزيل الكتاب) .

وقوله تعالى : ﴿ لاريب فيه ﴾ إما فى محل الرفع على أنه خبر لذلك

الكتاب على الصور الثلاث المذكورة ، أو على أنه خبر ثان لألف لام ميم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره ، أو للمبتدأ المقدر آخرا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة ، كما فى قوله تعالى : (فإذا هى حية تسعى) وإما فى محل النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، وإما جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب مؤكدة لما قبلها ، وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق ، عاملة عمل إن بحملها عليها ، لكونها نقيضا لها ، ولازمة للاسم لزومها ، واسمها مبنى على الفتح لكونه مفردا نكرة لامضافا ولا شبيها به ، وأما ما ذكره الزجاج من أنه معرب وإنما حذف التنوين للتخفيف فمما لا تعويل عليه ، وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لأنه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم ، وخبرها محذوف ، أى لا ريب موجود أو نحوه ، كما فى قوله تعالى : (لا عاصم اليوم من أمر الله) والظرف صفة لاسمها ، ومعناه نفى الكون المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب ، أو الخبر هو الظرف ، ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا ، وجعل المذكور خبرا لما بعده .

وقرىء لاريب فيه على أن لا بمعنى ليس ، والفرق بينه وبين الأول أن ذلك موجب للاستغراق ، وهذا مجوز له ، والريب فى الأصل مصدر رابنى إذا حصل فيك الريبة ، وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا ، أو مع تهمة ، لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة ، وفى الحديث « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » . ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيته ، وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى ، لا أنه لايرتاب فيه أحد أصلا ، ألا ترى كيف جوز ذلك فى قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا) الخ . فإنه فى قوة أن يقال : وإن كان لكم ريب فيما نزلنا ، أو إن ارتبتم فيما نزلنا ، الخ إلا أنه خولف فى الأسلوب حيث فرض كونهم فى الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه ، مع نوع إشعار بأن ذلك من جهتهم ، لا من جهته.

العالية ، ولم يقصد ههنا ذلك الإشعار ، كما لم يقصد الإشعار بثبوت الريب في سائر الكتب ، ليقتضى المقام تقديم الظرف ، كما فى قوله تعالى : (لا فيها غول) .

الهدى والضلال

﴿ هدى ﴾ مصدر من هداه كالسرى والبكا ، وهو الدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، أى ما من شأنه ذلك ، وقيل : هى الدلالة الموصلة إليها ، بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته ، فى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وقوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ولا شك فى أن عدم الوصول معتبر فى مفهوم الضلال ، فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ، ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى إذ لا فرق بينهما إلا من حيث التأثير ، والتأثر ، ومحصله أن الهدى المتعدى هو التوجيه الموصل ، لأن اللازم هو التوجه الموصل ، بدليل أن مقابله الذى هو الضلال توجه غير موصل قطعا ، وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوبا فى مفهوم اللازم ، واعتبار وجود اللازم وجوبا فى مفهوم المتعدى ، وكلا الأمرين بمعزل من الثبوت ، أما الأول فلأن مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الاطلاق ، بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ، ليتحقق التقابل بينهما .

وتوضيحه أن الهدى لا بد فيه من اعتبار توجه عن علم إلى ما من شأنه الإيصال إلى البغية ، كما أن الضلال لا بد فيه من اعتبار الجور عن القصد إلى ما ليس من شأنه الإيصال قطعا ، وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ، ومحققة للتقابل بينهما ، وإنما النزاع فى أن إمكان الوصول إلى البغية هل هو كاف فى تحصيل مفهوم الهدى ، أو لا بد فيه من خروج الوصول من القوة إلى الفعل ، كما أن عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعا .

إذا تقرر هذا فنقول إن أريد باعتبار الوصول بالفعل فى مفهوم الهدى اعتباره مقارناله فىالوجود زمانا حسباعتبار عدمه فى مفهوم مقابله فذلك بين البطلان ، لأن الوصول غاية للتوجه المذكور ، فينتهى به قطعا ، لاستحالة التوجه إلى تحصيل الحاصل ، وما يبقى بعد ذلك فهو إما توجه إلى الثبات عليه ، وإما توجه إلى زيادته ، ولأن التوجه إلى المقصد تدريجى ، والوصول إليه دفعى ، فيستحيل اجتماعهما فى الوجود ضرورة ، وأما عدم الوصول فحيث كان أمرا مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له فى جميع أزمنة وجوده . إذ لو فارقه فى آن من آنات تلك الأزمنة لقارنه فى ذلك الآن مقابله الذى هو الوصول ، فما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا ، وإن أريد اعتباره من حيث أنه غاية له واجبة الترتب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية الجد فى السلوك إلى مامن شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمانع خارجى كاخترام المنية مثلا من غير تقصير ولاجور من قبل المتوجه ، ولاخلل من جهة المسلك ضلالا ، إذ لاواسطة بينهما ، مع أنه لاجور فيه عن القصد أصلا ، فبطل اعتبار وجوب الوصول فى مفهوم اللازم قطعا ، وتبين منه عدم اعتباره فى مفهوم المتعدى حتما ، وأما اعتبار وجود اللازم فيه وجوبا وهو الأمر الثانى ، فبيانه مبنى على تمهيد أصل . وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذى يصدر عنه ويتم من قبله ، لكن لما لم يكن له فى تحققه فى نفسه بد من تعلقه بمفعوله اعتبر ذلك فى مدلول اسمه قطعا ، ثم لما كان له باعتبار كيفية صدوره عن فاعله ، وكيفية تعلقه بمفعوله ، وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متمايزة فى أنفسها ، مستقلة بأحكام مقتضية لإفرادها بأسماء خاصة ، وعرض له بالقياس إلى كل أثر من تلك الآثار إضافة خاصة ممتازة عما عداها من الإضافات العارضة له بالقياس إلى سائرها ، وكانت الآثار تابعة له فى التحقق غير منفكة عنه أصلا إذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متمماته ، واعتبرت الإضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاعتماد المتعلق بالجسم مثلا ، وضع له باعتبار الإضافة العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذى هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم

الكسر ، وباعتبار الإضافة العارضة له من انقطاعه الذى هو أثر آخر له اسم القطع ، إلى غير ذلك من الإضافات العارضة له بالقياس إلى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد فى آثاره الطبيعية .

وأما الآثار التى له مدخل فى وجودها فى الجملة من غير إيجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقه أخرى ، بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها ، كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا إليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة فى أنفسها مستندة إلى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متمماته ، ولم تعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالإضافة العارضة للأمر بحسب امتثال المأمور والإضافة العارضة للدعوة بحسب إجابة المدعو ، فإن الامتثال والإجابة وإن عدا من آثار الأمر والدعوة باعتبار ترتبهما عليهما غالبا ، لكنهما حيث كانا فعلين اختياريين للمأمور والمدعو مستقلين فى أنفسهما غير لازمين للأمر والدعوة ، لم يعدا من متمماتهما ولم تعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلول اسم الأمر والدعوة بل جعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامتثال والإجابة أو لا . إذا تمهد هذا فنقول كما أن الامتثال والإجابة فعلان مستقلان فى أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للأمر والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للأفعال الموجبة لها ، وإن كانا مترتبين عليهما فى الجملة ، كذلك هدى المهدى أى توجهه إلى ما ذكر من المسلك فعل مستقل له صادر عنه باختياره ، غير لازم للهداية ، أعنى التوجيه إليه لزوم ما ذكر من الآثار الطبيعية ، وإن كان مترتبا عليها فى الجملة ، فلما لم يعدا من متممات الأمر والدعوة ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلولهما علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متممات الهداية ، ولم يعتبر الإضافة العارضة لها بحسبه داخلة فى مدلولها ، إن قيل ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامتثال والإجابة بالقياس إلى أصليهما ، فإن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لايقتضى

إلا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا ، وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والإجابة ، إذ لاتلازم بينهما وبين الأولين أصلا ، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية ، فإن تعلقها بالمهدى يقتضى اتصافه به ، لأن تعلق الفعل المتعدى المبنى للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبنى للمفعول قطعاً ، وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم ، وهل هو الاعتبار وجود اللازم فى مدلول المتعدى حتما ؟ قلنا كما أن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعى إلا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والإجابة إيجابا وسلبا ، كذلك تعلق الهداية التى هى عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهدى لايستدعى إلا اتصافه بالمدلولية ، التى هى عبارة عن المصدر المأخوذ من المبنى للمفعول ، من غير تعرض لقبول تلك الدلالة ، كما هو معنى الهدى اللازم ، ولا لعدم قبوله ، بل الهداية عين الدعوة إلى طريق الحق ، والاهتداء عين الإجابة ، فكيف يؤخذ فى مدلولها ، واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدى المبنى للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقا إنما هو فى الأفعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار ، والمقطوعية والانقطاع ، وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققته فيما سلف .

وإن قيل : التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية مع أنه معتبر فى مدلول التعليم قطعا ، فليكن الهدى مع الهداية كذلك ، قلنا : ليس ذلك لكونه فعلا اختياريا على الاطلاق ، ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للمتعلم ، كما قيل ، فإن المعلم ليس بمستقل فى ذلك ، فنى إسناده إليه ضرب تجوز ، بل لأن كلاهما مفتقر فى تحصله إلى الآخر ، فإن التعليم عبارة عن إلقاء المبادىء العلمية على المتعلم وسوقها إلى ذهنه شيئاً فشيئاً على ترتيب يقتضيه الحال ، بحيث لا يساق إليه بعض منها إلا بعد تلقيه لبعض آخر ، فكل منهما متمم للآخر ؛ معتبر فى مدلوله . وأما الهدى الذى هو عبارة عن التوجه المذكور ففعل اختيارى يستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوى كونها داعية إلى إيجاده باختياره ، فلم يكن من متمماتها ولامعتبرا فى مدلولها .

إن قيل : التعليم نوع من أنواع الهداية ، والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره فى مدلول التعليم اعتبارا للهدى فى مدلول الهداية ، قلنا إطلاق الهداية على التعليم إنما هو عند وضوح المسلك ، واستبداد المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه ، سوى كونه داعيا إليه ، وقد عرفت جلية الأمر على ذلك التقدير ، إن قيل : أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم ، بحيث لم يكن ذلك تعليما فى الحقيقة فلتكن الهداية أيضا كذلك ، وليحمل تسمية مالا يستتبع الهدى بها على التجوز ، قلنا : شتان بين التخلفين ، فإن تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه ، كما أن تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك .

وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها ، بل إنما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدى ، بعد تكامل ما يتم من قبل الهادى .

وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية ، وتبين أنها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال إلى البغية بتعريف معالمه وتبيين مسالكه ، من غير أن يشترط فى مدلولها الوصول ولا القبول ، وإن الدلالة المقارنة لهما أو لأحدهما والمفارقة عنهما ، كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها أفراد حقيقية لها ، وأن ما فى قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت) وقوله تعالى : (ولو شاء لهداكم) ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز ، وانكشف أن الدلالات التكوينية المنصوبة فى الأنفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة فى الكتب السماوية على الإطلاق بالنسبة إلى كافة البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية ، فائضة من عند الله سبحانه ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

﴿ للمتقين ﴾ أى أى المتصفين بالتقوى حالا أو مآلا ، وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره ، وإن كان ذلك شاملا

لكل ناظر ، من مؤمن وكافر ، وبذلك الاعتبار قال الله (هدى للناس) والمتق اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة .

معانى التقوى ومراتبها

والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة قال عليه السلام : « جماع التقوى فى قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ما حرم الله ، وأداء مافرض الله ، وعن شهر بن حوشب : المتقى من يترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس ، وعن أبى يزيد : أن التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة ، وعن محمد بن حنيف : أنها مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى ، وعن سهل المتقى من تبرأ عن حوله ، وقدرته . وقيل التقوى : ألا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وعن ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر ، وعن أبى تراب : بين يدى التقوى خمس عقبات لا ينالها من لايجاوزهن : إيثار الشدة على النعمة ، وإيثار الضعف على القوة ، وإيثار الذل على العزة ، وإيثار الجهد على الراحة ، وإيثار الموت على الحياة ، وعن بعض الحكماء أنه لايبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما فى قلبه فى طبق فطيف به فى السوق لم يستحى ممن ينظر إليه : وقيل : التقوى أن تزين ، سرك للحق ، كما تزين علانيتك للخلق .

والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب : الأولى : التوقى عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر ، وعليه قوله تعالى (وألزمهم التقوى) كلمة الثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ، حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) والثالثة أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتبتل إليه بكليته ، وهى

التقوى الحقيقية المأمور بها فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية ، المبنية على الحكم الأبية ، أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيث جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ، ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية ، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين ، فإن أريد بكونه هدى للمتقين إرشاده إياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلها ، فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجازا ، لاستحالة تحصيل الحاصل ، وإيثاره على العبارة المعربة عن ذلك للإيجاز ، وتصدير السورة الكريمة بذكر أوليائه تعالى وتفخيم شأنهم وإن أريد به إرشاده إلى تحصيل إحدى المرتبتين الأخيرتين ، فإن عنى بالمتقين أصحاب الطبقة الأولى تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب إحدى الطبقتين الأخيرتين تعين المجاز ، لأن الوصول إليهما إنما يتحقق بهدايته المترقبة ، وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة ، فإنه إن أريد بالهدى الإرشاد إلى تحصيل المرتبة الثالثة ، فإن عنى بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ، ولفظ الهداية حقيقة فى جميع الصور ، وأما إن أريد بكونه هدى لهم تثبيتهم على ما هم عليه أو إرشادهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهومها داخلا فى المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لامحالة ، ولفظ المتقين حقيقة على كل حال واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له ، أو حالا منه ، ومحل هدى الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو هدى ، أو خبر مع لاريب فيه لذلك الكتاب ، أو مبتدأ خبره الظرف المقدم ، كما أشير إليه ، أو النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، أو من الضمير فى فيه ، والعامل ما فى الجار والمجرور من معنى

الفعل المنفى ، كأنه قيل : لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا ، على أنه قيد للنفى لا للمنفى ، وحاصله انتفاء الريب فيه حال كونه هاديا ، وتنكيره للتفخيم وحمله على الكتاب إما للمبالغة ، كأنه نفس الهدى ، أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل ، هذا والذى يستدعيه جزالة التنزيل فى شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ، ولذلك لم يتخلل بينها عاطف ، (فالم) جملة برأسها على أنها خبر لمبتدأ مضمر ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم ، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدى لما دلت عليه من كونه منعوتا بالكمال الفائق ، ثم سجل على غاية فضله بنفى الريب فيه ، إذ لا أفضل أعلى مما للحق ، واليقين ، وهدى للمتقين مع ما يقدر له من المبتدأ جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ، ودالة على تكميله بعد كماله ، أو يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول ، فإنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس كلامهم ، وقد عجزوا عن معارضته بالمرة ، ظهر أنه الكتاب البالغ أقصى مراتب الكمال ، وذلك مستلزم لكونه فى غاية النزاهة عن مظنة الريب ، إذ لا أنقص مما يعتريه الشك ، وما كان كذلك كان لامحالة هدى للمتقين ، وفى كل منها من النكت الرائقة والمزايا الفائقة مالا يخفى جلالة شأنه حسبما تحققته .

﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ إما موصول بالمتقين ، ومحله الجر على أنه صفة مقيدة له إن فسر التقوى بترك المعاصى فقط ، مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية ، وموضحة إن فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا ، من فعل الطاعات وترك السيئات معا ، لأنها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف إجمالا ، وذلك لأنها مشتملة على ماهو عماد الأعمال وأساس الحسنات ، من الإيمان والصلاة والصدقة ، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية إلى التجنب

عن المعاصى غالبا ألا ترى إلى قوله تعالى : (إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقوله عليه السلام . « الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام» أو مادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ما ذكر من الخصال الثلاث بالذكر لإظهار شرفها وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات ، أو النصب على المدح بتقدير أعنى أو الرفع عليه بتقديرهم ، وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الإشارة كما سيأتى بيانه ، فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لأنه وقف على مستقل ما بعده أيضا مستقل ، وأما على الوجه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به وتبعيته له ، أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر ، وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من ان المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الإعراب ، وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما ، قال أبو على : إذا ذكرت صفات للمدح وخولف فى بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ، أى للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد فى الإصغاء ، فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب .

إن قيل : لاريب فى أن حال الموصول عند كونه خبرا لمبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى فى أنه ينسبك به جملة اسمية مفيدة ، لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ، ضرورة أن كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين . وأن كلا من اتصافهم بالإيمان وفروعه ، وإحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجليلة ، فما السر فى أنه

جعل ذلك فى الصورة الأولى من توابع المتقين ، وعد الوقف غير تام ، وفى الثانية مقتطعا عنه ، وعد الوقف تاما ، قلنا : السر فى ذلك أن المبتدأ فى الصورتين وإن كان عبارة عن المتقين ، لكن الخبر فى الأولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ إجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه ، غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح ، نظم ذلك فى سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى ، وإن سمى قطعاً مراعاة لجانب اللفظ ، كيف لا وقد اشتهر فى الفن أن الخبر إذا كان معلوم الانتساب إلى المخبر عنه فحقه أن يكون وصفا له ، كما أن الوصف إذا لم يكن معلوم الانتساب إلى الموصوف حقه أن يكون خبرا له ، حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار ، والأخبار بعد العلم بها صفات . وأما الخبر فى الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملا على مالا ينبىء عنه المبتدأ من المعانى اللائقة كما ستحيط به خبرا مفيدا للمخاطب فوائد رائقة ، جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعاً .

الإيمان

والإيمان إفعال من الأمن المتعدى إلى واحد ، يقال آمنته ، وبالنقل تعدى إلى اثنين ، يقال آمننيه غيرى ، ثم استعمل فى التصديق ، لأن المصدق يؤمن المصدق ، أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة ، واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف ، وقد يطلق على الوثوق . فإن الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة ، ومنه ما حكى عن العرب ما أمنت أن أجد صحابة ، أى ماصرت ذا أمن وسكون ، وكلا الوجهين حسن هنا وهو فى الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام ، كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها ، وهل هو كاف فى ذلك أولا بد من انضمام الإقرار إليه للتمكن منه ؟

والأول : رأى الشيخ الأشعرى ومن شايعه ، فإن الإقرار عنده منشأ

لإجراء الأحكام ، والثانى مذهب أبى حنيفة ومن تابعه وهو الحق ، فإنه جعلهما جزأين له ، خلا أن الإقرار ركن محتمل للسقوط بعذر ، كما عند الإكراه ، وهو مجموع ثلاثة أمور : اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج ، فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ، ومن أخل بالاقرار فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج ، وخارج عن الإيمان غير داخل فى الكفر عند المعتزلة .

وقرىء يومنون بغير همزة ، والغيب إما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة فى قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) أو فعيل خفف كقتل فى قتيل وهين فى هين ، وميت فى ميت ، لكن لم يستعمل فيه الأصل كما استعمل فى نظائره . وأياما كان فهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة ، بحيث لايدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذى أريد بقوله سبحانه : (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات ومايتعلق بها من الأحكام والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء ، وهو المراد ههنا ، فالباء صلة للإيمان ، إما بتضمينه معنى الاعتراف ، أو بجعله مجازا من الوثوق ، وهو واقع موقع المفعول به ، وإما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما فى قوله تعالى : (الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله تعالى : (ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى يؤمنون ملتبسين بالغيبة ، إما عن المؤمن به ، أى غائبين عن النبى صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة ، لما روى أن أصحاب ابن مسعود رضى الله عنه ، ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيمانهم فقال رضى الله عنه : إن أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بينا لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الإيمان بغيب ، ثم تلا هذه الآية . وإما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين ، لا كالمنافقين الذين إذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم .

وقيل المراد بالغيب القلب ، لأنه مستور ، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فالباء حينئذ للآلة ، وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة إما للقصد إلى إحداث نفس الفعل كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع ، أى يفعلون الإيمان ، وإما للاكتفاء بما سيجىء ، فإن الكتب الإلهية ناطقة بتفاصيل مايجب الإيمان به .

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ إقامتها عبارة عن تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع فى شىء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ ، من إقامة العود إذا قومه وعدله . وقيل عن المواظبة عليها ، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت ، وأقمتها إذا جعلتها نافقة ، فإنها إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه ، وقيل عن التشمر لأدائها عن غير فتور ولاتوان من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه واجتهد وقيل عن أدائها ، عبر عنه بالإقامة لاشتماله على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذى هو القيام وبالركوع والسجود والتسبيح ، والأول هو الأظهر ، لأنه أشهر ، وإلى الحقيقة أقرب ، والصلاة فعلة من صلى إذا دعا ، كالزكاة من زكى ، وإنما كتبتا بالواو مراعاة اللفظ المفخم ، وإنما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء ، وقيل أصل صلى حرك الصلوين ، وهما العظمان الناتئان فى أعلى الفخذين ، لأن المصلى يفعله فى ركوعه وسجوده واشتهار اللفظ فى المعنى الثانى دون الأول لا يقدح فى نقله عنه ، وإنما سمى الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد [1].

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ والرزق فى اللغة العطاء ، ويطلق على الحظ المعطى ، نحو ذبح ورعى للمذبوح والمرعى . وقيل : هو بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم ، وفى العرف ما ينتفع به الحيوان .

---

(١) انظر بحثا فى معنى الصلاة لغة فى (القول البديع) للحافظ السخاوى .

هل يدخل الحرام فى الرزق ؟

والمعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لايتناول الحرام ، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق إلى ذاته إيذانا بأنهم ينفقون من الحلال والصرف ، فإن إنفاق الحرام بمعزل من إيجاب المدح ، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) جعلوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق ، والذم لتحريم مالم يحرم ، واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة ، وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما روى عنه عليه السلام فى حديث عمرو بن قرة حين أتاه فقال : يا رسول الله ، إن الله كتب على الشقوة ، فلا أرى أرزق إلا من دف بكفى ، فأذن لى فى الغناء من غير فاحشة ، من أنه قال عليه السلام : « لا آذن لك ولا كرامة ، ولا نعمة ، كذبت أى عدو الله ، والله لقد رزقك الله حلالا طيبا ، فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله ، وبأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذى به طول عمره مرزوقا ، وقد قال الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والإنفاق والإنفاد أخوان ، خلا أن فى الثانى معنى الإذهاب بالكلية دون الأول ، والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير ، فرضا كان أو نفلا ، ومن فسر بالزكاة ذكر أفضل أنواعه ، الأصل فيه ، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها ، والجملة معطوفة على ما قبلها من الصلة ، وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رءوس الآى ، وإدخال من التبعيضية عليه للكف عن التبذير .

هذا وقد جاز أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التى منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة ، ويؤيده قوله عليه السلام : « إن علما لاينال به ككنز لاينفق منه » وإليه ذهب من قال : ومما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ معطوف

على الموصول الأول ، على تقدير وصله بما قبله ، وفصله عنه مندرج معه فى زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا ، أو من حيث المعنى فقط ، اندراج خاصين تحت عام ، إذ المراد بالأولين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب ، وبالآخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الإيمان بالكتب المنزلة قبله ، كعبد الله بن سلام وأضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الأولون خاصة ، ويكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للإيذان بتنزههم عن حالتهم الأولى بالكلية ، لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها ، الموجبة للاتقاء عنها ، بخلاف الآخرين ، فإنهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرة ، بل متمسكون بأصول الشرائع التى لا تكاد تختلف باختلاف الأعصار ، ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ، ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات ، بل لاختلاف الصفات كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله :

* يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب *

للإيذان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله ، له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة ، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل أحدهما تتمة للآخر ، وقد شفع الأول بأداء الصلاة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الأمور المؤمن بها تكملة له ، فإن كمال العلم بالعمل ، وقرن الثانى بالإيقان بالآخرة مع كونه منطويا تحت الأول تنبيها على كمال صحته ، وتعريضا بما فى اعتقاد أهل الكتابين من الخلل كما سيأتى ، هذا على تقدير تعلق الباء بالإيمان ، وقس عليه الحال عند تعلقها

بالمحذوف ، فإن كلا من الإيمان الغيبي المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والإيمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الأمور التي يجب الإيمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة ، مستدعية لما ذكر ، والله تعالى أعلم .

وقد حمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان لا طريق إليه غير السمع ، وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين ، وتباين السبيلين فليتأمل ، وأن يراد بالموصول الثاني بعد اندراج الكل في الأول فريق خاص منهم ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب ، بأن يخصوا بالذكر تخصيص جبريل وميكائيل به إثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لأمثالهم ، وأقرانهم في تحصيل ما لهم من الكمال .

إنزال الكتب

والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل ، وتعلقه بالمعاني إنما هو بتوسط تعلقه بالأعيان المستتبعة لها ، فنزول ماعدا الصحف من الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا ، أو يحفظها من اللوح المحفوظ ، فينزل بها إلى الرسل فيلقيها عليهم عليهم السلام ، والمراد بما أنزل إليك هو القرآن بأسره ، والشريعة عن آخرها والتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر ، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما في قوله تعالى : (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) مع أن الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع إذ ذاك نازلا ، وبما أنزل من قبلك التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة ، وعدم التعرض لذكر من أنزل إليه من الأنبياء عليهم السلام ، لقصد الإيجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به في قوله تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل)

الآية . والإيمان بالكل جملة فرض ، وبالقرآن تفصيلا من حيث أنا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية ، فإن فى وجوبه على الكل عينا حرجا بينا ، وإخلالا بأمر المعاش ، وبناء الفعلين للمفعول للإيذان بتعين الفاعل ، والجرى على سنن الكبرياء ، وقد قرئا على البناء للفاعل .

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ الإيقان إتقان العلم بالشيء بنفى الشك والشبهة عنه ، ولذلك لا يسمى علمه تعالى يقينا ، أى يعلمون علما قطعيا مزيحا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التى من جملتها زعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، واختلافهم فى أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا ، وهل هو دائم أو لا ، وفى تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب ، فإن اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول إلى مرتبة اليقين ، والآخرة تأنيث الآخر ، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى ، غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الأسماء ، وقرىء بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وقرىء يؤقنون بقلب الواو همزة ، إجراء لضم ما قبلها مجرى ضمها فى وجوه ووقتت ، ونظيره مافى قوله :

لحب المؤقدان إلى مؤسى وجعدة إذ أضاءهما الوقود

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز ، منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ، وهو مبتدأ ، وقوله عز وعلا ﴿ على هدى ﴾ — خبره ، وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه ، كأنه قيل : على أى هدى لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره . وإيراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم فى ملابستهم بالهدى بحال من يعتلى الشىء ويستولى عليه

يتصرف فيه كيفما يريد ، أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية ، متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه ، أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه ، وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الإضافية إثر بيان فخامته الذاتية ، مؤكدة لها ، أى على هدى كائن من عنده تعالى ، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى ، وفنون توفيقه والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف إليهم ، وتشريفهما ، ولزيادة تحقيق مضمون الجملة ، وتقريره ببيان ما يوجبه ويقتضيه ، وقد أدغمت النون فى الراء بغنة أو بغير غنة ، والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لامحل لها من الإعراب ، مقررة لمضمون قوله تعالى : (هدى للمتقين) مع زيادة تأكيد له وتحقيق .

كيف لاوكون الكتاب هدى لهم فن من فنون ما منحوه واستقروا عليه من الهدى ، حسبما تحققته ، لاسيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح وقيل هى واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ مما سبق ، كأنه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن ، وهل هم أحقاء بتلك الأثرة ؟ فأجيب بأنهم بسبب اتصافهم بذلك مالكون لزمام أصل الهدى الجامع لفنونه ، المستتبع للفوز والفلاح ، فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ؟

ولقد جار عن سنن الصواب من قال فى تقرير الجواب : بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجــــلا ، وبالفلاح أجلا .

وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الذى هو الموصول الأول ، والثانى معطوف عليه ، وهذه الجملة استئناف

وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن من تخصيص ما ذكر بالمتقين قبل بيان مبادىء استحقاقهم لذلك ، كأنه قيل : ما بال المتقين مخصوصين به ، فأجيب بشرح ماانطوى عليه اسمهم إجمالامن نعوت الكمال ، وبيان مايستدعيه من النتيجة ، أى الذين هذه شئونهم أحقاء بما هو أعظم من ذلك ، كقولك : أحب الأنصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا مهجتهم فى سبيل الله ، أولئك سواد عينى ، وسويداء قلبى .

واعلم أن هذا المسلك يسلك تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ، كقولك أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، وأخرى بإعادة صفته ، كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك ، ولا ريب فى أن هذا أبلغ من الأول لما فيه من بيان الموجب للحكم وإيراد اسم الإشارة بمنزلة إعادة الموصوف بصفاتهالمذكورة ، مع مافيه من الإشعار بكمال تمييزه بها ، وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ، والإيماء إلى بعد منزلته ، كما مر ، هذا وقد جوز أن يكون الموصول الأول يجرى على المتقين حسبما فصل ، والثانى مبتدأ ، وأولئك الخ خبره ، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون أنهم على الهدى ، ويطمعون فى نيل الفلاح .

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم ، وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الأثرتين ، وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عمن عداهم ، ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين، بخلاف مافى قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيهم بالبهائم ، فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى ، وأماالإفلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايراً للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل ، وهم ضمير فصل يفصل

الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ، أومبتدأ خبره المفلحون ، والجملة خبرلأولئك ، وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون فى الآخرة ، أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ، هذا وفى بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير إليه فى تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب فى اقتفاء أثرهم والإرشاد إلى اقتداء سيرهم مالايخفى مكانه والله ولى الهداية والتوفيق .

أحوال الكفر والكفار

﴿ إن الذين كفروا ﴾ كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة ، إثر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم فى الحال والمآل ، وإنما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به مسلك قوله تعالى (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) لما بينهما من التنافى فى الأسلوب ، والتباين فى الغرض ، فإن الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب فى باب الهداية والإرشاد ، وأما التعرض لأحوال المهتدين به فإنما هو بطريق الاستطراد ، سواء جعل الموصول موصولا بما قبله ، أو مفصولا عنه ، فإن الاستئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام المتقدم ، فهو من مستتبعاته لاعالة وأما الثانية فسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالة ، وترامى أمرهم فى الغواية والضلال إلى حيث لايجديهم الإنذار والتبشير ، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون فى تيه الغى والفساد عن منهاج العقول ، وراكبون فى مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول ، وإنما أوثرت هذه الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان أن الكتاب هاد للأولين وغير مجد للآخرين لأن العنوان الأخير ليس مما يورثه كمالا حتى يتعرض له فى أثناء تعداد كمالاته ، وإن من الحروف التى تشابه الفعل فى عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم

الأسماء ودخول نون الوقاية عليها ، كأننى ولعلنى ونظائرهما ، وإعطاء معانيه ، والتعدى خاصة فى الدخول على اسمين ، ولذلك أعملت عمله الفرعى وهو نصب الأول ورفع الثانى إيذانا بكونه فرعا فى العمل دخيلا فيه ، وعند الكوفيين لا عمل لها فى الخبر ؛ بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب . وأجيب بأن ارتفاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل ، وإلا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها ، فتعين إعمال الحرف وأثرها تأكيد النسبة وتحقيقها ، ولذلك يتلقى بها القسم ، وتصدر بها الأجوبة ، ويؤتى بها فى مواقع الشك والإنكار لدفعه ورده ، قال المبرد : قولك عبد الله قائم إخبار عن قيامه وإن عبد الله قائم جواب سائل عن قيامه شاك فيه ، وإن عبد الله لقائم جواب منكر لقيامه .

وتعريف الموصول إما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وأحبار اليهود ، أو للجنس وقد خص منه غير المصرين بما أسند إليه من قوله تعالى : سواء عليهم الخ ، والكفر فى اللغة ستر النعمة ، وأصله الكفر بالفتح أى الستر . ومنه قيل للزارع والليل كافر ، قال تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) وعليه قول لبيد :

* فى ليلة كفر النجوم ، غمامها *

ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكى الذى غطى السلاح بدنه ، وفى الشريعة إنكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام به ، وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرهما كفراً لدلالته على التكذيب ، فإن من صدق النبى عليه السلام لا يكاد يجترىء على أمثال ذلك ، إذ لا داعى إليه كالزنى وشرب الخمر ، واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضى على وجه الإخبار ، فإنه يستدعى سابقة المخبر عنه لا محالة ، وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدوثه لا يستدعى

حدوث الكلام ، كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لايستدعى حدوث العلم ﴿ سواء ﴾ هو اسم بمعنى الاستواء ، نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة ، قال تعالى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) وقوله تعالى ﴿ عليهم ﴾ متعلق به ، ومعناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر ، لأن قوله تعالى ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ مرتفع به على الفاعلية ، لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام ، لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما ، كما جرد الأمر والنهى لذلك عن معنييهما فى قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وحرف النداء فى قولك : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص ، كأنه قيل : إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه ، كقولك ، إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه ، أو مبتدأ وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه ، والجملة خبر لأن ، والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه عند بقائه على حقيقته .

وأما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة الاتساع فهو كالاسم فى الإضافة والإسناد إليه ، كما فى قوله تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقوله تعالى (وإذا قيل لهم لاتفسدوا) وفى قولهم : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، كأنه قيل : إنذارك وعدمه سيان عليهم ، والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادلها عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده ، كما أشير إليه ؛ وقيل : سواء مبتدأ وما بعده خبره وليس بذاك ؛ لأن مقتضى المقام بيان كون الإنذار وعدمه سواء ، لابيان كون المستوى الإنذار وعدمه ، والإنذار إعلام المخوف للاحتراز عنه ، إفعال من من نذر بالشىء إذا علمه فحذره ، والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصى ، والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلا ، ولأن الإنذار أوقع فى القلوب ، وأشد تأثيرا فى النفوس فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع ، فحيث لم يتأثروا به فلألا يرفعوا للبشارة رأسا أولى ، وقرىء بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها والثانية

بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلاتوسيط ، وبحذف حرف الاستفهام ، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله ، كما قرىء قد أفلح ، وقرىء بقلب الثانية ألفا ، وقد نسب ذلك إلى اللحن .

﴿ لا يؤمنون ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها ، مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء ، فلا محل لها من الإعراب ، أو حال مؤكدة له ، أو بدل منه أو خبر لأن ، وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم ، أو خبر ثان على رأى من يجوزه عند كونه جملة ، والآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق ، فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لايؤمنون ، فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذى هو عدم مطابقة إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان ، باقين على التكليف ، ولأن من جملة ما كلفوه الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث أن الأحكام لاتستدعى أغراضا لاسيما الامتثال ، لكنه غير واقع للاستقراء ، والإخبار بوقوع الشيء أو بعدمه لا ينفى القدرة عليه ، كإخباره تعالى عما يفعله هو ، أو العبد باختياره ، وليس ما كلفوه الإيمان بتفاصيل مانطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبى عليه السلام إجمالا ، على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم .

وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لايفيد إلزام الحجة وإحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الإبلاغ ، ولذلك قيل سواء عليهم ، ولم يقل عليك ، كما قيل لعبدة الأصنام سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، وفى الآية الكريمة إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهى من المعجزات الباهرة ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ استئناف تعليلى لما سبق الحكم ، وبيان لما يقتضيه ، أو بيان وتأكيد له ، والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد ، والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة

له ، أو لما فيه من التعرض له كما فى البيت الفارغ والكيس المملوء ، والأول هو الأنسب بالمقام ، إذ ليس المراد به صيانة ما فى قلوبهم ، بل إحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم فى الغى وانهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح ، بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلا ، إما على طريقة الاستعارة التبعية ، بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلى هو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ، ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضى ، وإما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت لأجله من الأمور الدينية النافعة ، وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولا مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالكلية ، ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفى التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الأمر فى تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم ، والباقى منوى مراد قصدا بألفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب ، وتلك الألفاظ وإن كان لها مدخل فى تحقيق وجه الشبه الذى هو أمر عقلى منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما أعدله بسبب مانع قوى ، ليس فى شىء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز ، بل هى باقية على حالها من كونه حقيقة أو مجازا أو كناية ، وإنما التجوز فى المجموع ، وحيث كان معنى المجموع مجموع معانى تلك الألفاظ التى ليس فيها التجوز المعهود ، ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولا وضعيا لها ليكون ما دل على الهيئة المشبه بها عند استعماله فى الهيئة المشبهة مستعملا فى غير ما وضع له ، فيندرج تحت الاستعارة التى هى قسم من المجاز اللغوى ، الذى هو عبارة عن الكلمة المستعملة فى غير ما وضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه إلى جعل التمثيل قسما برأسه ، ومن رام

تقابل الأقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية ، وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور أخر من قبيل الاستعارة ، وسماه استعارة تمثيلية ، وإسناد إحداث تلك الحالة فى قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالى ، وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم ، فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) ونحو ذلك .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلق المجبول عليه ، ومنها أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خالية عن الفطن ، أو بقلوب قد ختم الله تعالى عليها كما فى : سال به الوادى إذا هلك ، وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته ، ومنها أن ذلك فعل الشيطان أو الكافر ، وإسناده إليه تعالى باعتبار كونه بإقداره تعالى وتمكينه ، ومنها أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم ، لأنه سد لطريق إيمانهم بالكلية ، وفيه إشعار بترامى أمرهم فى الغى والعناد ، وتناهى انهماكهم فى الشر والفساد ، ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعوننا إليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) تهكما بهم ، ومنها أن ذلك فى الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ويعضده قوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما) ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضوهم وينفروا عنهم .

﴿ وعلى سمعهم ﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكم الختم لقوله عز وجل

(وختم على سمعه وقلبه) وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم ، ولاشتراكهما في الإدراك من جميع الجوانب ، وإعادة الجار للتأكيد والإشعار بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للإيذان بأنها الأصل فى عدم الإيمان وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم ، بناء على أنه طريق إليها ، فالختم عليه ختم عليها بل هى مختومة بختم على حدة ، لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) والسمع إدراك القوة السامعة ، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا ، إذ هو المختوم عليه أصالة ، وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم فى تلك الحال ، أو لأن جنايتهم من حيث السمع الذى به يتلقى الأحكام الشرعية ، وبه يتحقق الإنذار أعظم منها من حيث البصر الذى به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد ، فبيانها أحق بالتقديم ، وأنسب بالمقام .

قالوا : السمع أفضل من البصر ، لأنه عز وعلا حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ، ولأن السمع شرط النبوة ولذلك ما بعث الله رسولا أصم ، ولأن السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التى تتلقف من أصحابها وتوحيده للأمن عن اللبس ، واعتبار الأصل ، أو لتقدير المضاف ، أى وعلى حواس سمعهم ، والكلام فى إيقاع الختم على ذلك كما مر من قبل ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ الأبصار جمع بصر ، والكلام فيه كما سمعته فى السمع ، والغشاوة فعالة من التغشية أى التغطية ، بنيت لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة ، وتنكيرها للتفخيم والتهويل ، وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ما قبلها ، وإيثار الاسمية للإيذان بدوام مضمونها ، فإن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة فى الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك أيضا كذلك .

وأما الآيات التى تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حينا فحينا

أوثر فى بيان الختم عليها وعلى ماهى أحد طريق معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية ، وعلى رأى الأخفش مرتفع على الفاعلية مما تعلق به الجار ، وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب ، أى وجعل على أبصارهم غشاوة ، وقيل على حذف الجار وإيصال الختم إليه ، والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب ، وهما لغتان فيها ، و(غشوة) بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة ، وعشاوة بالعين غير المعجمة والرفع ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه فى الآخرة والعذاب كالنكال بناء ومعنى يقال أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يقمع العطش ويردعه ، ولذلك يسمى نقاخا ، لأنه ينقخ العطش ويكسره ، وفراتا لأنه يرفته على القلب ويكسره ، ثم اتسع فيه فأطلق على كل ألم فادح ، وإن لم يكن عقابا يراد به ردع الجانى عن المعاودة ، وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو إزالة العذاب ، كالتقذية والتمريض . والعظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فمن ضرورة كون الحقير دون الصغير كون العظيم فوق الكبير . ويستعملان فى الجثث والأحداث . تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ، ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيده التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة فى ذلك .

والمعنى : أن على أبصارهم ضربا من الغشاوة خارجا مما يتعارفه الناس ، وهى غشاوة التعامى عن الآيات ، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا يدرك غايته ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك كله يا أرحم الراحمين .

من علامات النفاق

﴿ومن الناس﴾ شروع فى بيان أن بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد ، بل يضمون إليه فنونا أخر من الشر والفساد وتعديد لجناياتهم الشنيعة المستتبعة

لأحوال هائلة عاجلة وآجلة ، وأصل ناس أناس ، كما يشهد له إنسان وأناسى وإنس ، حذفت همزته تخفيفا كما قيل لوقة فى ألوقة ، وعوض عنها حرف التعريف ، ولذلك لايكاد يجمع بينهما وأما مافى قوله :

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

فشاذ ، سموا بذلك لظهورهم وتعلق الإيناس بهم كما سمى الجن جنا لاجتنانهم وذهب بعضهم إلى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وبعضهم إلى أنه مأخوذ من نسى ، نقلت لامه إلى موضع العين فصار نيسا ، ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : سمى الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسى ، واللام فيه إما للعهد ، أو للجنس المقصور على المصرين حسبما ذكر فى الموصول ، كأنه قيل : ومنهم أو من أولئك ، والعدول إلى الناس للإيذان بكثرتهم ، كما ينبىء عنه التبعيض ، ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه . أو نعت لمقدر هو المبتدأ ، كما فى قوله عز وجل (ومنا دون ذلك) أى وجمع منا الخ ، ومن فى قوله تعالى ﴿ من يقول ﴾ موصولة أو موصوفة ، ومحلها الرفع على الخبرية ، والمعنى وبعض الناس ، أو وبعض من الناس الذى يقول ، كقوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية ، أو فريق يقول ، كقوله تعالى : (من المؤمنين رجال) الخ ، على أن يكون مناط الإفادة والمقصود بالإصالة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة ، وما يتعلق به من الصفات جميعا ، لا كونهم ذوات أولئك المذكورين .

وأما جعل الظرف خبرا كما هو الشائع فى موارد الاستعمال فيأباه جزالة المعنى ، لأن كونهم من الناس ظاهر فالإخبار به عار عن الفائدة كما قيل ، فإن مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقا ، وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التنبيه على أن الصفات المذكورة تنافى الإنسانية ، فحق من

يتصف بها ألا يعلم كونه من الناس ، فيخبر به ويتعجب منه ، وأنت خبير بأن الناس عبارة عن المعهودين ، أو عن الجنس المقصور على المصرين ، وأيا ما كان فالفائدة ظاهرة ، بل لأن خبرية الظرف تستدعى أن يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة فى ثلاث عشرة آية عنوانا للموضوع مفروغا عنه ، غير مقصود بالذات ، ويكون مناط الإفادة كونهم من أولئك المذكورين ، ولا ريب لأحد فى أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزل المعانى وأكملها وتوحيد الضمير فى يقول باعتبار لفظة من وجمعه فى قوله ﴿ آمنا بالله واليوم الآخر ﴾ وما بعده باعتبار معناها ، والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، إذ لاحد وراءه ، وتخصيصهم للإيمان بهما بالذكر مع مع تكرير الباء لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه ، وأحاطوا به من طرفيه ، وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الأصالة والاستحكام ، وقد دسوا تحته ماهم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن إيمانهم بواحد منهما إيمانا فى الحقيقة ، إذ كانوا مشركين بالله بقولهم (عزير ابن الله) وجاحدين باليوم الآخر بقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم ، فإن ماقالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك إيمانا ، فكيف وهم يقولونه تمويها على المؤمنين واستهزاء بهم ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ رد لما ادعوه ونفى لما انتحلوه وما حجازية ، فإن جواز دخول الباء فى خبرها لتأكيد النفى اتفاقى بخلاف التميمية ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة فى الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم فى جميع الأزمنة لا فى الماضى فقط كما يفيده الفعلية ، ولا يتوهمن أن الجملة الاسمية الإيجابية تفيد دوام الثبوت ، فعند دخول النفى عليها يتعين الدلالة على نفى الدوام ، فإنها بمعونة المقام تدل على دوام النفى قطعا ، كما أن المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار ،

الامتناع ، لا على امتناع الاستمرار ، كما فى قوله عز وجل (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) فإن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل ، وإطلاق الإيمان عما قيدوه به للإيذان بأنهم ليسوا من جنس الإيمان فى شىء أصلا ، فضلا عن الإيمان بما ذكروا ، وقد جوز أن يكون المراد ذلك ، ويكون الإطلاق للظهور ، ومدلول الآية الكريمة أن من أظهر الإيمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا ، فلا حجة فيها على الكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتى الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون ، أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ، فقيل يخادعون الله الخ أى يخدعون ، وقد قرىء كذلك وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة فى الكيفية ، فإن الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعا أو فى الكمية كما فى الممارسة والمزاولة ، فإنهم كانوا مداومين على الخدع ، والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب ، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذى إذا أمر الحارس يده على باب جحره يوهمه الإقبال عليه فيخرج من بابه الآخر ، وكلا المعنيين مناسب للمقام ، فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين ، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة .

وأياما كان فنسبته إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتمثيل ، لإفادة كمال شناعة جنايتهم أى يعاملون معاملة الخادعين ، وإما على طريقة المجاز العقلى ، بأن ينسب إليه تعالى ما حقه أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إبانة لمكانته عنده تعالى ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : (إن الذين

يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) وقوله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) مع إفادة كمال الشناعة كما مر ، وإما لمجرد التوطئة والتمهيد لما بعده من نسبته إلى الذين آمنوا ، والإيذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه ، وقوله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقى بناء على زعمهم الفاسد ، وترجمة عن اعتقادهم الباطل ، كأنه قيل : يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم ، أو على جعلها استعارة تبعيه ، أو تمثيلا لما أن صورة صنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم بإجراء أحكام الإسلام عليهم ، وهم عنده أخبث الكفرة ، وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجا لهم ، وامتثال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى فى ذلك مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل ، مما لا يرتضيه الذوق السليم أما الأول فلأن المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لم يتصور منهم التصدى للخدع ، وأما الثانى فلأن مقتضى المقام لإيراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة ، وبيان أن غائلتها آيلة إليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عز وعلا ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ فالتعرض لحال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقه ، وهو حال من ضمير يخادعون ، أى يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم ، فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم ، أو مايخدعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها فى مهاوى الردى ، وقرىء (ومايخادعون) والمعنى هو المعنى ، ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها لايحيق إلا بهم ، أو مايخادعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ، وهى أيضا تغرهم وتمنيهم الأمانى الفارغة ، وقرىء (وما يخدعون) من التخديع ، (وما يخدعون) أى يختدعون ، ويخدعون ويخادعون على البناء للمفعول ، ونصب أنفسهم بنزع الخافض ، والنفس ذات الشىء وحقيقته وقد يقال للروح لأن نفس

الحى به وللقلب أيضاً لأنه محل الروح أو متعلقه وللدم أيضاً لأن قوامها به وللماء أيضاً لشدة حاجتها إليه والمراد هنا هو المعنى الأول لأن المقصود بيان أن ضرر مخادعتهم راجع إليهم لايتخطاهم إلى غيرهم .

وقوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ حال من ضمير ما يخدعون ، أى يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أى ما يحسون بذلك لتماديهم فى الغواية ، وحذف المفعول إما لظهوره أو لعمومه ، أى مايشعرون بشىء أصلا ، جعل لحوق وبال ما صنعوا بهم فى الظهور بمنزلة الأمر المحسوس الذى لايخفى إلا على مؤوف الحواس مختل المشاعر .

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفاعيله ، ويؤدى إلى الموت ، استعير ههنا لما فى قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة ، وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدى إلى الهلاك الروحانى ، والتنكير للدلالة على كونه نوعا مبهما غير ما يتعارفه الناس من الأمراض والجملة مقررة لما يفيده قوله تعالى (وماهم بمؤمنين) من استمرار عدم إيمانهم ، أو تعليل له كأنه قيل مالهم لايؤمنون فقيل فى قلوبهم مرض يمنعهم[1] ﴿ فزادهم الله مرضا ﴾ بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لايؤثر فيها التذكير والإنذار ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه ، وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب ، وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية ، لأنهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحى يزدادون كفرا ، ويجوز أن يكون المرض مستعارا لما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين ، فزيادته تعالى إياهم مرضا مافعل بهم من إلقاء الروع وقذف الرعب فى قلوبهم عند إعزاز الدين بإمداد النبى صلى الله عليه وسلم بإنزال الملائكة ، وتأييده بفنون النصر والتمكين ، فقوله تعالى

---

(١) فى ق : يمنعه

(فى قلوبهم مرض) الخ حينئذ استئناف تعليلى لقوله تعالى (يخادعون الله) الخ ، كأنه قيل مالهم يخادعون ويداهنون ولم لايجاهرون بما فى قلوبهم من الكفر ، فقيل فى قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم فى الدنيا ، ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ أى مؤلم يقال ألم وهو أليم كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للمبالغة كما فى قوله :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

على طريقة جد جده فإن الألم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب ، كما أن الجد للجاد ، وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيجىء فى قوله تعالى بديع السموات والأرض ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ الباء للسببية أو ومامصدرية داخلة فى الحقيقة على يكذبون ، وكلمة كانوا مقحمة للمقابلة لإفادة دوام كذبهم وتجدده أى بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذى هو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهم غير مؤمنين ، فإنه إخبار بإحداثهم الإيمان فيما مضى لا إنشاء للإيمان ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبى بمعنى الإذعان والقبول قطعا ويجوز أن يكون محمولا على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر ، كما صرح به فى قول الشاعر :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار ، وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية إما لأن المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من الإصرار على الكفر كما ينبىء عنه قوله تعالى : (ومن الناس) الخ وإما للإيذان بأن لهم بمقابلة سائر جناياتهم العظيمة من العذاب ما لايوصف ، وإما للرمز إلى كمال سماجة الكذب نظراً إلى ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية ، مع إحاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم

من جهات شتى ، وأن الاقتصار عليه للإشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه ويروى مرفوعا أيضاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان » وما روى أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات[1] فالمراد به التعريض ، وإنما سمى به لشبهه به صورة ، وقيل ماموصولة والعائدمحذوف أى بالذى يكذبون والمفعول محذوف ، وهوإما النبي صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن وما مصدرية ، أى بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام ، أو القرآن أو موصلة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف ، ويجوز أن يكون صيغة التفعيل للمبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص ، أو للتكثير كما فى موتت البهائم وبركت الإبل ، وأن يكون من قولهم كذب الوحشى إذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذبذب .

﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض ﴾ شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق وإذا ظرف زمن مستقبل ويلزمها معنى الشرط غالبا ، ولا تدخل إلا فى الأمر المحقق أو المرجح وقوعه ، واللام متعلقة بقيل ومعناها الإنهاء والتبليغ ، والقائم مقام فاعله جملة لاتفسدوا على أن المراد بها اللفظ ، وقيل هو مضمر يفسره المذكور والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله ، والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه ما يؤدى إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وإغرائهم عليهم ، وغير ذلك من فنون الشرور ، كما يقال للرجل لاتقتل نفسك بيدك ، ولاتلق نفسك فى النار إذا أقدم على ما تلك عاقبته وهو

---

(1) هى قوله : إنى سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله عن سارة إنها أخته لازوجته ، وفى الأخيرة نظر .

إما معطوف على يقول ، فإن جعلت كلمة من موصولة فلامحل له من الإعراب ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فإن ذلك ليس توسيطا بالأجنبي ، وإن جعلت موصوفة فمحله الرفع ، والمعنى ومن الناس من إذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الإفساد فى الأرض ﴿ قالوا ﴾ إرادة للناهين أن ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصلى إنكار كون ذلك إفسادا وادعاء كونه إصلاحا محضا كما سيأتى توضيحه ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ أى مقصورون على الإصلاح المحض ، بحيث لا يتعلق به شائبة الإفسادوالفساد ، مشيرين بكلمة إنما إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لاينبغى أن يرتاب فيه ، وإما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائعهم وأما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نهوا عن الإفساد إنما نحن مصلحون كما قيل ، فيأباه أن هـذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحا كما فى قوله تعالى (بما كانوا يكذبون) فإن مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) أو لذكر ما يستلزمه استلزاما ظاهرا كما فى قوله عز وجل (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فإن ما ذكر من الضلال عن سبيل الله ممـا يوجب حتما نسيان جانب الآخرة التى من جملتها يوم الحساب وما لم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعليته قصدا كما فى قوله تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار) الآية وقوله (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) الآية إلى غير ذلك ولاريب فى أن هـذه الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون شىء منها معلوم الانتساب إليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة ، حتى تستحق الانتظام فى سلك التعليل المذكور ، فإذن حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم على أحد الوجهين ، مفيدة لاتصافهم بكل واحدمن تلك الأوصاف قصدا واستقلالا كيف لاوقوله عز وجل ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ينادى بذلك نداء جليا فإنه رد من جهته

تعالى لدعواهم المحكية أبلغ رد ، وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع (وصدرت الجملة الجملة بحرفى التأكيد ألا المنبهة على تحقق ما بعدها ، فإن الهمزة الإنكارية الداخلة على النفى تفيد تحقيق الإثبات قطعا كما فى قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلقى به القسم ، وأختها التى هى أما من طلائع القسم .

وقيل : هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبيه والاستفتاح وإن المقررة للنسبة ، وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد ما فى قصر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ للإيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة ، لكن لا حس لهم حتى يدركوه ، وهكذا الكلام فى الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما ، ولولا أن المراد تفصيل جناياتهم وتعديد خبائثهم وهناتهم ثم إظهار فسادها وإبانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثر نهيهم عن المنكر إتماما للنصح وإكمالا للإرشاد ﴿ آمنوا ﴾ حذف المؤمن به لظهوره أو أريد افعلوا الإيمان ﴿ كما آمن الناس ﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أى آمنوا إيمانا مماثلا لإيمانهم فما مصدرية أو كافة ، كما فى ربما ، فإنها تكف الحرف عن العمل ، وتصحح دخولها على الجملة ، وتكون للتشبيه بين مضمونى الجملتين ، أى حققوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم ، واللام للجنس ، والمراد بالناس الكاملون فى الإنسانية العاملون بقضية العقل ، فإن اسم الجنس كما يستعمل فى مسماه يستعمل فيما يكون جامعاً للمعانى الخاصة به المقصودة منه ، ولذلك يسلب عما ليس كذلك ، فيقال هو ليس بإنسان وقد جمعهما من قال :

* إذ الناس ناس والزمان زمان *

أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأضرابه ، والمعنى آمنوا إيمانا مقرونا بالإخلاص ، متمحضا عن شوائب النفاق ، مماثلا لإيمانهم ﴿قالوا﴾ مقابلين للأمر بالمعروف بالإنكار المنكر واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ مشيرين باللام إلى من أشير إليهم فى الناس من الكاملين ، أو المعهودين ، أو إلى الجنس بأسره ، وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد ، والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل ، ويقابله الحلم والأناة ، وإنما نسبوهم إليه مع أنهم فى الغاية القاصية من الرشد والرزانة والوقار ، لكمال ، انهماك أنفسهم فى السفاهة ، وتماديهم فى الغواية ، وكونهم ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لا محالة ضلالا أو لتحقير شأنهم ، فإن كثيرا من المؤمنين كانوا فقراء ، ومنهم موال كصهيب وبلال ، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله ، وأياما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعى فخامة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم ، وحيث كانوا فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام ، والقدح فى إيمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين . وذلك مما لا يكاد يساعده السباق والسياق ، وعن هذا قالوا ينبغى أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين .

قال الإمام الواحدى : إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين ، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم ، وأنت خبير بأن إبراز ماصدر عن أحد المتحاورين فى الخلاء فى معرض ماجرى بينهما فى مقام المحاورة مما لا عهد به فى الكلام فضلا عما هو فى منصب الإعجاز فالحق الذى لامحيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم بمحضر من الناصحين لايقتضى كونهم مجاهرين ، فإنه ضرب من الكفر أنيق ، وفن فى النفاق

عريق ، مصنوع على شاكلة قولهم (واسمع غير مسمع) فكما أنه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر ، بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما ترضاه ونحوه ، وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به ، مظهرين إرادة المعنى الأخير ، وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول ، مطمئنون به ، ولذلك نهوا عنه ، كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر فى تفسيره ، وللخير بأن يحمل على ادعاء الإيمان كإيمان الناس وإنكار ما اتهموا به من النفاق ، على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمجانين الذين لا اعتداد بإيمانهم ، لو آمنوا ولا نؤمن كإيمان الناس حتى تأمرونا بذلك ، قد خاطبوا به الناصحين استهزائهم مرائين لإرادة المعنى الأخير ، وهم معولون على الأول ، فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلا ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون ﴾ أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحرفى التأكيد حسبما أشير إليه فيما سلف ، وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة إلى حيث لا يدرون أنهم سفهاء ، وعن هذا اتضح لك سر مامر فى تفسير قوله تعالى (إنما نحن مصلحون) فإن حمله على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة أن مشافهتهم للناصحين بادعاء كون ما نهوا عنه من الإفساد إصلاحا كما مر إظهار منهم للشقاق ، وبروز بأشخاصهم من نفق النفاق .

والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر فى بعض التفاسير ، وبالإصلاح الذى يدعونه إصلاح ما بينهم وبين المؤمنين ، وأن معنى قوله تعالى (ألا إنهم المفسدون) أنهم فى تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين ، لإشعارها بإعطاء الدنية ، وإنبائها عن ضعفهم الملجىء إلى توسيط من يتصدى لإصلاح ذات البين ، فضلا عن كونهم مصلحين بما لا سبيل إليه قطعاً ، فإن قوله تعالى ، ولكن لا يشعرون ناطق بفساده كيف لا وهو[1] يقتضى أن يكون المنافقون فى تلك الدعوى صادقين

---

(١) فى ط أنه .

قاصدين للإصلاح ، ويأتيهم الإفساد من حيث لايشعرون ، ولا ريب فى أنهم فيهم كاذبون لا يعاشرونهم إلا مضارة للدين ، وخيانة للمؤمنين ، فإذن طريق حل الإشكال ليس إلا ما أشير إليه ، فإن قولهم إنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب ، وإنكار صدور الإفساد المنسوب إليهم عنهم ، على معنى ، وهم معرجون على المعنى الأول ، فرد عليهم بقوله تعالى (ألا إنهم هم المفسدون) الآية ، والله سبحانه أعلم بما أودعه فى تضاعيف كتابه المكنون من السر المخزون ، نسأله العصمة والتوفيق ، والهداية إلى سواء الطريق .

وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما أنه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتميز بين الحق والباطل ، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال ، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهى يقف عليه من له شعور ، ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم فى أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين ومساق ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ، ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الإيمان فليس فيه شائبة التكرير .

روى أن عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة ، فقال ابن أبى انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فلما دنوا منهم أخذ بيد أبى بكر رضى الله عنه فقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تيم ، وشيخ الإسلام ، وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنزلت . وقيل : قال له على رضى الله عنه يا عبد الله اتق الله ، ولاتنافق ، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى ، فقال له مهلا يا أبا الحسن أفى تقول هذا ، والله إن إيماننا كإيمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبى لأصحابه كيف رأيتمونى فعلت ، فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت ، فأثنوا عليه خيراً ، وقالوا لا نزال بخير ما عشت فينا فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروه بذلك فنزلت ، واللقاء المصادفة ، يقال لقيته ولاقيته أى صادفته واستقبلته وقرىء إذا لاقوا ﴿ وإذا خلوا ﴾ من خلوت إلى فلان ، أى انفردت معه ، وقد يستعمل بالباء ، أو من خلا بمعنى مضى ، ومنه القرون الخالية ، وقولهم خلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك ، وقد جوز كونه من خلوت به إذا سخرت منه ، على أن تعديته بإلى فى قوله تعالى ﴿ إلى شياطينهم ﴾ لتضمنه معنى الإنهاء ، أى وإذا أنهوا إليهم السخرية الخ .

وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الإنهاء مما لاوجه له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم للشيطان فى التمرد والعناد ، المظهرون لكفرهم ، وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر ، أوكبار المنافقين ، والقائلون صغارهم ، وجعل سيبويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال ، على أنه من شطن إذا بعد ، فإنه بعيد من الخير والرحمة ، ويشهد له قولهم تشيطن ، وأخرى زائدة فوزنه فعلان ، على أنه من شاط أى هلك أو بطل ، ومن أسمائه الباطل ، وقيل معناه هاج واحترق ﴿ قالوا إنا معكم ﴾ أى فى الدين والاعتقاد لانفارقكم فى حال من الأحوال ، وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة ، لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين ، والتأكيد للإنباء عن صدق رغبتهم ، ووفور نشاطهم ، لا لإنكار الشياطين ، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين ، فإنهم إنما يدعون عندهم إحداث الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه ﴿ إنما نحن ﴾ أى فى إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿ مستهزئون ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشىء من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما بالكم

توافقون المؤمنين فى الإتيان بكلمة الإيمان ، فقالوا : إنما نحن مستهزئون بهم فلا يقدح ذلك فى كوننا معكم ، بل يؤكده وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ، ويعدون ذلك نصرة لدينهم ، أو تأكيد لما قبله ، فإن المستهزىء بالشيء مصر على خلافه أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر والاستهزاء بالشيء السخرية منه ، يقال هزأت واستهزأت بمعنى ، وأصله الخفة من الهزؤ ، وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ مات على مكانه . وتهزأ به ناقته أى تسرع به وتخف .

﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ أى يجازيهم على استهزائهم ، سمى جزاؤه باسمه كما سمى جزاء السيئة سيئة إما للمشاكلة فى اللفظ ، أو المقارنة فى الوجود ، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم ، فيكون كالمستهزىء بهم ، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم . أما فى الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم بالإمهال والزيادة فى النعمة على التمادى فى الطغيان ، وأما فى الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) وإنما استؤنف للإيذان بأنهم قد بلغوا فى المبالغة فى استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعاتها عند السامعين ، وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم إلى أن يقولوا ما مصير أمر هؤلاء وما عاقبة حالهم ، وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم إلى المعارضة بالمثل ، ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء ، حيث ينزل بهم من النكال ويحل عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ، كما يعرب عنه قوله عز قائلا : (أو لايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) وما كانوا خالين فى أكثر الأوقات من تهتك أستار وتكشف أسرار ، ونزول فى شأنهم ، واستشعار حذر من ذلك ، كما أنبأ عنه قوله عز وجل (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما

فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) ﴿ ويمدهم ﴾ أى يزيدهم ويقويهم من مد الجيش وأمده إذا زاده ، ومنه مددت الدواة والسراج إذا أصلحتهما بالحبر والزيت ؛ وإيثاره على يزيدهم للرمز إلى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه إنما يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية إليه ، كما فى الأمثلة المذكورة ، وقرىء يمدهم من الإمداد وهو صريح فى أن القراءة المشهورة ليست من المد فى العمر ، على أنه يستعمل باللام كالإملاء ، قال تعالى (ونمد له من العذاب مدا) وحذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير خلاف الأصل لايصار إليه إلا بدليل ﴿ فى طغيانهم ﴾ متعلق بيمدهم والطغيان مجاوزة الحد فى كل أمر ، والمراد إفراطهم فى العتو ، وغلوهم فى الكفر ، وقرىء بكسر الطاء ، وهى لغة فيه كلقيان لغة فى لقيان ، وفى إضافته إليهم إيذان باختصاصه بهم ، وتأييد لما أشير إليه من ترتب المد على سوء اختيارهم ﴿ يعمهون ﴾ حال من الضمير المنصوب أو المجرور ، لكون المضاف مصدرا فهو مرفوع حكما ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر ، وهو التحير والتردد ، بحيث لايدرى أين يتوجه ، وإسناد هذا المد إلى الله تعالى مع إسناده فى قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) محقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الأشياء مستندة[1] من حيث الخلق إليه سبحانه ، وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم .

والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء النظم الكريم على مسلكه نكبوا إلى شعاب التأويل ، فأجابوا أولا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنعهم ألطافه ، فتزايد الرين فى قلوبهم فسمى ذلك مددا فى الطغيان ، فأسند إيلاؤه إليه تعالى ، ففى المسند مجاز لغوى ، وفى الإسناد عقلى ، لأنه إسناد للفعل إلى المسبب له ، وفاعله الحقيقى هم الكفرة ، وثانيا بأنه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والإلجاء إلى الإيمان كما فى قوله تعالى (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فالمجاز فى المسند فقط ، وثالثا بأن المراد به معناه الحقيقى وهو فعل

(١) فى ط : مستند

الشيطان ، لكنه أسند إليه سبحانه مجازا ، لأنه بتمكينه تعالى وإقداره ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عمن[1] عداهم أكمل تمييز . بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشر وسوء الحال ، ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿ الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ والجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وبيان لكمال جهالتهم فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال بإظهار غاية سماجتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلا عن العقلاء والضلالة الجور عن القصد ، والهدى التوجه إليه ، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب فى الدين ، والثانى للاستقامة عليه ، والاشتراء استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها به لا بذله لتحصيلها كما قيل ، وإن كان مستلزما له ، فإن المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب ، الذى هو المعتبر فى عقد البيع ، ثم استعير لأخذ شىء بإعطاء ما فى يده عينا كان كل منهما أو معنى ، لا للإعراض عما فى يده محصلا به غيره كما قيل ، وإن استلزمه لما مر سره ومنه قوله :

أخذت بالجمة رأسا أزعرا   وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمرا جيدرا   كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلا منه أخذا منوطا بالرغبة فيها والإعراض عنه ، ولما اقتضى ذلك أن يكون ما يجرى مجرى الثمن حاصلا للكفرة قبل العقد وما يجرى مجرى المبيع غير حاصل لهم إذ ذاك حسبما هو فى البيت ، ولا ريب فى أنهم بمعزل من الهدى ، مستمرون على الضلالة استدعى الحال تحقيق ما جرى مجرى العوضين ، فنقول وبالله التوفيق .

وليس المراد بما تعلق به الاشتراء ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكفرة ، حتى تكون حاصلة لهم من قبل ، بل هو فردها الكامل الخاص

---

(١) فى ط : عن عداهم .

بهؤلاء ، على أن اللام للعهد ، وهو عمههم المقرون بالمد فى الطغيان ، المترتب على ما حكى عنهم من القبائح . وذلك إنما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم ، وكذا ليس المراد بما فى حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الأسباب ، وتآخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ، ولا مرية فى أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التى من جملتها ما حكى من النهى عن الإفساد فى الأرض ، والأمر بالإيمان الصحيح ، وقد نبذوها وراء ظهورهم ، وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التى هى العمه فى تيه الطغيان ، وحمل الهدى على الفطرة الأصلية الحاصلة لكل أحد يأباه أن إضاعتها غير مختصة بهؤلاء ، ولئن حملت على الإضاعة التامة الواصلة إلى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس فى إضاعتها فقط من الشناعة ما فى إضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية ، على أن ذلك يفضى إلى كون ذكر ما فصل من أول للسورة الكريمة إلى هنا ضائعا ، وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه فى أيديهم ، بناء على أنه يستعمل اتساعا فى إيثار أحد الشيئين الكائنين فى شرف الوقوع على الآخر ، فإنه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرة مخل برونق الترشيح الآتى ، هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الأنسب بتجاوب أطراف النظم الكريم .

وأما إذا جعل ترجمة عن جناية أخرى من جناياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وحقية دينه ، بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ، ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم

ما عرفوا كفروا به كما سيأتى ولامساغ لحمل الهدى على ما كانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فإنها ضلالة مضاعفة .

﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ عطف على الصلة داخل فى حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها ، والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح ، وهو الفضل على رأس المال ، يقال ربح فلان فى تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح وإسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران إليها ، وهو لأربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملابسة ، وفائدته المبالغة فى تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يلابسهم ، وإيرادهما إثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة ، وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسارة التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للإشباع فى التخسير ، والتحسين ، ولا ينافى ذلك أن التجارة فى نفسها استعارة لانهماكهم فيما هم عليه من إيثار الضلالة على الهدى ؛ وتمرنهم عليه معرفة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة ، إذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيا على الحقيقة ، تابعا للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتها ، كما فى قولك رأيت أسدا وافى البراثن ، فإنك لاتريد به إلا زيادة تصوير للشجاع ، وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البراثن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لأصل الاستعارة كما فى قوله :

فلما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

فإن لفظ الوكرين مع كونه مستعارا من معناه الحقيقى الذى هو موضع يتخذه الطائر للتفريخ للرأس واللحية أو للفودين أعنى جانبى الرأس ترشيح باعتبار معناه الأصلى ، لاستعارة لفظ النسر للشيب ، ولفظ ابن دأية للشعر الأسود ، وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور ، وقرىء تجاراتهم وتعددها لتعدد المضاف إليهم ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أى إلى طرق التجارة ، فإن المقصود

منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ، ولئن فات الربح فى صفقة فربما يتدارك فى صفقة أخرى لبقاء الأصل ، وأما إتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعا فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين ، فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة بألف منزل فالجملة راجعة إلى الترشيح معطوفة على ما قبلها مشاركة له فى الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ ﴿ مثلهم ﴾ زيادة كشف لحالهم وتصوير غب تصويرها بصورة ما يؤدى إلى الخسارة بحسب المآل بصورة ما يفضى إلى الخسار من حيث النفس تهويلا لها وإبانة لفظاعتها ، فإن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى ، وقمع سورة الجامع الأبى ، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبراز لها فى معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للمنكر فى صورة المعروف ، وإظهار للوحشى فى هيئة المألوف . والمثل فى الأصل بمعنى المثل والنظير ، يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك إلا قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر و باد ، استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب ، وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شىء آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل (ولله المثل الأعلى) أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى قصتها العجيبة الشأن ﴿ كمثل الذى ﴾ أى الذين كما فى قوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى ﴿ استوقد نارا ﴾ نظرا إلى الصورة ، وإنما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين ، لأن المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه ، بل إنما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته ، ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين ولأنه

ليس باسم تام بل هو كجزئه ، فحقه ألا يجمع ، ويستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن إخواته ، وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ، ولذلك جاء بالياء أبدا على اللغة الفصيحة ، أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أوالفريق المستوقد ، والنار جوهر لطيف مضيء حار محرق واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأن فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها . أى سطوعها وارتفاع لهبها وتنكيرها للتفخيم ﴿ فلما أضاءت ماحوله ﴾ الإضاءة فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) وتجيء متعدية ولازمة ، والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد ، أو فلما أضاء ما حوله ، والتأنيث لكونه عبارة عن الأماكن والأشياء ، أو أضاءت النار نفسها فيما حولهعلى أن ذلك ظرف لإشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها ، أو ما مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لأنه يدور ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ النور ضوء كل نير ، واشتقاقه من النار ، والضمير للذى والجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم ، وإنما علق الإذهاب بالنور دون نفس النار لأنه المقصود بالاستيقاد ، لا الاستدفاء ونحوه كما ينبيء عنه قوله تعالى (فلما أضاءت) حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك ، وهو جواب لما أو استئناف أجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره ، أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للمنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى (فلما ذهبوا به) للإيجاز والأمن من الإلباس ، كأنه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا فى الظلمات خابطين متحيرين خائبين بعد الكدح فى إحيائها ، وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى إما لأن الكل بخلقه تعالى ، وإما لأن الانطفاء حصل بسبب خفى ، أوأمر سماوى كريح أو مطر وإما للمبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والإمساك ، يقال ذهب السلطان بماله إذا أخذه ، وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل

له من بعده ولذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى الظاهر إلى النور لأن ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور فى الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف ، والمراد إزالته بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ فإن الظلمة التى هى عدم النور وانطماسه بالمرة ، لاسيما إذا كانت متضاعفة متراكبا بعضها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمى وما بعدها من قوله تعالى (لا يبصرون) لايتحقق إلا بعد ألا يبق من النور عين ولا أثر ، وإما لأن المراد بالنور مالا يرضى به الله تعالى من النار المجازية التى هى نار الفتنة والفساد كما فى قوله تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) ووصفها بإضاءة ماحول المستوقد من باب الترشيح ، أو النار الحقيقية التى يوقدها الغواة ليتوصلوا بها إلى بعض المعاصى ، ويهتدوا بها فى طرق العبث والفساد ، فأطفأها الله تعالى ، وخيب آمالهم ، وترك فى الأصل بمعنى طرح وخلى ، وله مفعول واحد ، فضمن معنى التصيير فجرى مجرى أفعال القلوب قال :

فتركته جزر السباع ينشنه   يقضمن حسن بنانه والمعصم

والظلمة مأخوذة من قولهم : ماظلمك أن تفعل كذا ، أى مامنعك ، لأنها تسد البصر وتمنعه من الرؤية ، وقرىء فى ظلمات بسكون اللام ، وفى ظلمة بالتوحيد ، ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح ، كأن الفعل غير متعد ، والمعنى أن حالهم العجيبة التى هى اشتراؤهم الضلالة التى هى عبارة عن ظلمتى الكفر والنفاق المستتبعتين لظلمة سخط الله تعالى ، وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، وظلمة العقاب السرمدى بالهدى ، الذى هو النور الفطرى المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق أو بالهدى الذى كانوا حصلوه من التوراة حسبما ذكر ، كحال من استوقد ناراً عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى ، وتركه فى ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الإبصار ﴿ صم بكم عمى ﴾ أخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير المنافقين ، أو خبر واحد بالتأويل المشهور ، كما فى قولهم : هذا حلو حامض والصمم آفة مانعة من السماع ، وأصله الصلابة واكتناز الأجزاء ، ومنه

الحجر الأصم ، والقناة الصماء ، وصمام القارورة : سدادها ، سمى به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ ، وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه ، والبكم الخرس ، والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر ، وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم ، وأبوا أن يتلقوها بالقبول ، وينطقوا بها ألسنتهم ، ولم يجتلوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر ، وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه ، صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية ، وهذا عند مفلق سحرة البيان من باب التمثيل البليغ ، المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ ، لا من قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية ، حتى لو لم يكن هناك قرينة تحمل(١) على المعنى الحقيقى ، كما فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

﴿ فهم لا يرجعون ﴾ الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها ، والآية نتيجة للتمثيل ، مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع ، فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعرى السمع والنطق ، ولاختلال مشعر الإبصار ، وقيل الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى ، كالضمائر المتقدمة .

فالآية الكريمة تتمة للتمثيل ، وتكميل له بأن ما أصابهم ليس بمجرد انطفاء نارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة ، مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل

(٢) فى المطبوعة : تحمل

اختلت مشاعرهم جميعا ، واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين فى مكاناتهم ، لايرجعون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ، وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم ، وقرىء صما بكما عميا ، إما على الذى كما فى قوله تعالى : (حمالة الحطب) والمخصوص بالذم هم المنافقون ، أو المستوقدون وإما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم ، أو المرفوع فى لا يبصرون وإما على المفعولية لتركهم ، فالضميران للمستوقدين ﴿ أو كصيب ﴾ تمثيل لحالهم إثر تمثيل ، ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ، ويوفى حقها من التفظيع والتهويل ، فإن تفننهم فى فنون الكفر والضلال وتنقلهم فيها من حال إلى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، ويرخى فى حلبته أعنة المقال ، ويمد لشرحه أطناب الإطناب ، ويعقد لأجله فصول وأبواب ، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة ، وقسط من الجزالة والبراعة ، لابد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الإطناب والإيجاز ، فما ظنك بما فى ذروة الإعجاز من التنزيل الجليل ، ولقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم ، وهو عطف على الأول على حذف المضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك ، أى كمثل ذوى صيب ، وكلمة أو للإيذان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معا ، والصيب فيعل من الصوب وهو النزول الذى له وقع وتأثير ، يطلق على المطر وعلى السحاب قال الشماخ :

عفا آيه نسج الجنوب مع الصبا وأسحم دان صادق الوعد صيب

ولعل الأول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى ، وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول ، وأمد به مافيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ، ومادته الثانية أعنى الصوب المنبىء عن شدة الانسكاب ، ومن جهة بنائه الدال على الثبات ، وقرىء أو كصائب ﴿ من السماء ﴾ متعلق بصيب ، أو بمحذوف وقع صفة له ، والمراد بالسماء هذه المظلة ، وهى فى الأصل كل ما علاك من

سقف ونحوه ، وعن الحسن أنها موج مكفوف ، أى ممنوع بقدرة الله عز وجل من السيلان ، وتعريفها للإيذان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد ، فإن كل أفق من آفاقها أى كل مايحيط به كل أفق منها سماء على حدة ، قال :

* ومن بعد أرض بيننا وسماء *

كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى : (وأوحى فى كل سماء أمرها) والمعنى أنه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق ، وقيل المراد بالسماء السحاب ، واللام لتعريف الماهية .

﴿ فيه ظلمات ﴾ أى أنواع منها ، وهى ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر ، وظلمة الهلال[1] مايلزمه من الغمام الأسحم المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل ، وجعله محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل ، لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة فى شدته وتهويلا لأمره ، وإيذانا بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام ، وهو السر فى عدم جعل الظلمات هى الأصل المستتبع للبواقى ، مع ظهور ظرفيتها للكل ، إذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها غالبة على غيرها (وفيه)[2] .

﴿ ورعد ﴾ وهو صوت يسمع من السحاب ، والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض ، أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها ، بسوق الرياح إياه سوقا عنيفا ﴿ وبرق ﴾ وهو ما يلمع من السحاب من برق الشىء بريقا أى لمع ، وكلاهما فى الأصل مصدر ، ولذلك لم يجمعا ، وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما إليه وكونهما فى الظلمات الكائنة فيه والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف ، وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقيق شرط العمل بالاتفاق ، وقيل بالابتداء ، والجملة

---

(١) فى المطبوعة : أظلال .   (٢) سقطت من المطبوعة .

إما صفة لصيب أو حال منه لتخصصه بالصفة ، أو بالعمل فيها بعده من الجار أو من المستكن فى الظرف الأول على تقدير كونه صفة لصيب ، والضمائر فى قوله عز وجل : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) للمضاف الذى أقيم مقامه[١] المضاف إليه فإن معناه باق وإن حذف لفظه تعويلا على الدليل كما فى قوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) فإن الضمير للأهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية .

قال حسان رضى الله عنه :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

فإن تذكير الضمير المستكن فى يصفق لرجوعه إلى الماء المضاف إلى بردى وإلا لأنث حتما ، وإيثار الجعل المنبىء عن دوام الملابسة ، واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة فى بيان سد المسامع باعتبار الزمان كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع فى بيان سدها باعتبار الذات ، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لايهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد ، وكذا الحال فى عدم تعيين الأصبع المعتاد أعنى السبابة ، وقيل : ذلك لرعاية الأدب والجملة استئناف لامحل لها من الإعراب ، مبنى على سؤال نشأ من الكلام ، كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة : فماذا يصنعون فى تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون إلخ .

وقوله تعالى :

﴿ من الصواعق ﴾ متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق المقارنة للرعد من قولهم سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شعلة[١] نار لاتمر بشىء إلا أتت عليه . من الصعق وهو شدة الصوت ، وبناؤها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعد ، والتاء للمبالغة . كما فى الرواية ، أو

---

(١) فى ١٠ مقام

(١) فى ط بثقة نار .

مصدر كالعافية . وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد ، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق ، أو بشدة الصوت ، وسد الآذان إنما يفيد على التقدير الثانى دون الأول ، وقرىء من الصواقع وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين فى التصرف يقال صقع الديك ، وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته ﴿ حذر الموت ﴾ منصوب بيجعلون على العلة وإن كان معرفة بالإضافة كقوله :

وأغفر عوراء الكريم إدخاره   وأصفح عن شتم اللئيم تكرما

ولا ضير فى تعدد المفعول له ، فإن الفعل يعلل بعلل شتى ، وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت ، والحذر والحذار هو شدة الخوف ، وقرىء حذار الموت ، والموت زوال الحياة ، وقيل عرض يضادها ، لقوله تعالى (خلق الموت والحياة) ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والإعدام مقدرة (والله محيط بالكافرين) أى لايفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى لهم ، وانطواء ملكوته عليهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت أو شبه الهيئة المنتزعة من شئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط فالاستعارة المبنية على التشبيه الأول استعارة تبعية فى الصفة متفرعة على ما فى مصدرها من الاستعارة والمبنية على الثانى تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الإحاطة والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر تحريره فى قوله عز وجل (ختم الله على قلوبهم) والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغنى عنهم شيئا فإن القدر لا يدافعه الحذر ، والحيل لا ترد بأس الله عز وجل .

وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب الإيذان بأن مادهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) فإن الإهلاك الناشىء من السخط أشد ، وقيل هذا الاعتراض من جملة أحوال المشبه

على أن المراد بالكافرين المنافقون ، قد دل به على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وإنما وسط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لإظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه .

(يكاد البرق) استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل يكاد ذلك (يخطف أبصارهم) أى يختلسها ويسلبها[1] بسرعة وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ، ولا يكون خبرها إلا مضارعا عاريا عن كلمة أن ، وشذ مجيئه اسما صريحا كما فى قوله :

* فأبت إلى فهم وما كدت آيبا *

وكذا مجيئه مع أن حملا لها على عسى فى مثل قول رؤبة :

* قد كاد من طول البلى أن يمحصا *

كما تحمل هى عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة فى أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما فى عسى ، وقرىء يخطف بكسر الطاء ويختطف ويخطف بفتح الياء والخاء بنقل فتحة التاء إلى الخاء وإدغامها فى الطاء ، ويخطف بكسرهما على إتباع الياء الخاء ، ويخطف من صيغة التفعيل ويتخطف من قوله تعالى : (ويتخطف الناس من حولهم) (كلما أضاء لهم) كل ظرف وما مصدرية والزمان محذوف ، أى كل زمان إضاءة ، وقيل ما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف ، أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل فى كلما جوابها ، وهو استئناف ثالث ، كأنه قيل ما يفعلون فى أثناء ذلك الهول ، أيفعلون بأبصارهم ما فعلوا بآذانهم أم لا ، فقيل كلما نور البرق لهم ممشى ومسلكا على أن أضاء

---

(١) فى ط : ويستلبها .

متعد والمفعول محذوف ، أو كلما لمع لهم على أنه لازم ، ويؤيده قراءة (كلما أضاء) ﴿مشوا فيه﴾ أى فى ذلك المسلك أو فى مطارح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم ، وإيثار المشى على مافوقه من السعى والعدو للإشعار بعدم استطاعتهم لهما (وإذا أظلم عليهم) أى خفى البرق واستتر ، والمظلم وإن كان غيره لكن لما كان الإظلام دائراً على استتاره أسند إليه مجازا تحقيقا لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم ، وقد جوز أن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل . ومنه ما جاء فى قول أبى تمام :

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

ويعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول (قاموا) أى وقفوا فى أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة[1] أخرى عسى يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم ، وإيراد كلما مع الإضاءة وإذا مع الإظلام للإيذان بأنهم حراص على المشى ، مترقبون لما يصححه ، فكلما وجدوا فرصة انتهزوها . ولا كذلك الوقوف ، وفيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب ما لا يوصف (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء ، ومن قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفائه قطعا ، والمنازع فيه مكابر ، وأما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل وقيل . والحق الذى لا محيد عنه أنه إن كان ما بينهما من الدوران كليا أو جزئيا قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى لامحالة ، ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول ، أما فى مادة الدوران الكلى كما فى قوله عز وجل (ولو شاء لهداكم أجمعين) وقولك لو جئتنى لأكرمتك فظاهر لأن وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة ، ووجود المجىء علة لوجود الإكرام ادعاء ، وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتما ، ثم إنه قد

---

(١) فى ١٠ لحقيقة .

يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما فى المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ، ولذلك قيل هى لامتناع الثانى لامتناع الأول وقد تساق للاستدلال بانتفاء الثانى لكونه ظاهرا أو مسلما على انتفاء[1] الأول لكونه خفيا أو متنازعا فيه ، كما فى قوله سبحانه (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفى قوله تعالى (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) فإن فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين إلى الإيمان لازم لخيريته فى زعم الكفرة ولا ريب فى انتفاء اللازمين ، فتعين انتفاء الملزومين حقيقة فى الأول وإدعاء باطلا فى الثانى ضرورة استلزام انتفاء اللازم انتفاء الملزوم ، لكن لا بطريق السببية الخارجية ، كما فى المثالين الأولين ، بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة إلى سببية العلم بانتفاء الثانى للعلم بانتفاء الأول ومن لم يتنبه له زعم أنه لانتفاء الأول لانتفاء الثانى .

وأما فى مادة الدوران الجزئى كما فى قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء ، فلأن الجزاء المنوط بالشرط الذى هو طلوعها ليس وجود أى ضوء كان كضوء القمر المجامع لعدم الطلوع مثلا ، بل إنما هو وجود الضوء الخاص الناشىء عن[2] الطلوع ، ولا ريب فى انتفائه بانتفاء الطلوع ، هذا إذا بنى الحكم على اعتبار الدوران ، وأما إذا بنى على عدمه فإما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أولا ، فإن اعتبر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فإن كان بينه وبين انتفاء الأول منافاة تعين الدلالة كما إذا قلنا[3] لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء ، فإن وجود الضوء وإن علق صورة بعدم الطلوع لكنه فى الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة أن عدم الطلوع من حيث هو هو ليس مدارا لوجود الضوء فى الحقيقة ، وإنما وضع موضع المدار لكونه كاشفا عن تحقق مدار آخر له ، فكأنه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب فى أن هذا الجزاء منتف عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمرى عند طلوع الشمس ، وإن لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما فى قوله صلى الله

(١) فى المطبوعة ابتغاء . (٢) فى المطبوعة من (٣) فى المطبوعة قلت .

عليه وسلم فى بنت أبى سلمة : « لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى لأنها لابنة أخى من الرضاعة » فإن المدار المعتبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ربيبته عليه السلام ، بل مجامع له ، ومن ضرورته مجامعة أثريهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام ، والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاعة . وإن لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل ينبنى[1] الحكم على اعتبار عدمه فلادلالة لها على ذلك أصلا.

كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الأولى ، كما فى قوله عز وجل (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم) وقوله عليه السلام « لو كان الإيمان فى الثريا لناله رجال من فارس » وقول على رضى الله عنه « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » فإن الأجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعى نقائضها . إيذانا بأنها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق انتفاء أسبابها[2] ، فكيف إذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية ، فى مثل قوله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) ولها تفاصيل وتفاريع حررناها فى تفسير قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وقول عمر رضى الله عنه « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » إن حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والإجلال وغيرهما مما يجامع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة ، وإن حمل بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل ، والآية الكريمة ، واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية هول ما دهمهم من المشاق ، وأنها قد بلغت من الشدة إلى حيث لو تعلقت مشيئة الله تعالى بإزالة مشاعرهم لزالت ، لتحقق ما يقتضيه اقتضاء تاما ، وقيل ، كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردا

---

(١) فى المطبوعة : ينى

(٢) فى المطبوعة : أسباب انتفائها .

عن الدلالة على انتفاء الآخر بمنزلة كلمة أن ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فإنها إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمونا للجزاء فلا يكاد يذكر إلا أن يكون شيئاً مستغربا كما فى قوله :

فلو شئت أن أبكى دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

أى لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ، ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحكم والمصالح ، وقرىء لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) الآية[1] ، والإفراد فى المشهورة لأن السمع مصدر فى الأصل ، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها من الجمل الاستئنافية ، وقيل على كلما أضاء إلخ وقوله عز وجل ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانى ، والشىء بحسب مفهومه اللغوى يقع على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه كائنا ما كان ، على أنه فى الأصل مصدر شاء أطلق على المفعول واكتفى فى ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والإخبار عنه فقط ، وقد خص ههنا بالممكن موجودا كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به ، لما أنه عبارة عن التمكين من الإيجاد والإعدام الخاصين به ، وقيل هى صفة تقتضى ذلك التمكين والقادر هو الذى إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، والقدير هو الفعال لكل ما يشاء كما يشاء ، ولذلك لم يوصف به غير البارى جل جلاله (وتقدست أسماؤه)[2] ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه إن شاء إبقاءه على الوجود أبقاه عليه ، فإن علة الوجود هى علة البقاء ، وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن شاء إعدامه أعدمه ، ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنه إن شاء إيجاده أوجده وإن لم يشأ لم يوجده ، وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك ، وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز ، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل بقدر ما تقتضيه

---

(١) سقط من المطبوعة . (٢) ما بين الحاصرين سقط من المطبوعة

إرادته أو بقدر قوته ، وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة ، لأنه شيء وكل شيء مقدور له تعالى .

واعلم أن كل واحد من التمثيلين وإن احتمل أن يكون من قبيل التمثيل المفرق كما فى قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

بأن يشبه المنافقون فى التمثيل الأول بالمستوقدين وهداهم الفطرى بالنار وتأييدهم إياها[١] بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكنهم التام من الانتفاع به بإضاءتها ما حولهم وإزالته بإذهاب النور النارى ، وأخذ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها ، وشبهوا[٢] فى التمثيل الثانى بالسابلة والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الأبدية بالصيب الذى هو سبب الحياة الأرضية وماعرض لهم بنزوله من الغموم والأحزان وانكساف البال بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وتصامهم عما يقرع أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه عنها ، ولا خلاص له منها ، واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد يحرزونه بمشيهم فى مطارح ضوء البرق ، كلما أضاء لهم ، وتحيرهم فى أمرهم حين عن لهم مصيبة بوقوفهم إذا أظلم عليهم لكن الحمل على التمثيل المركب الذى لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل ، بل ينتزع فيه من المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة أخرى منتزعة من المفردات الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل واحد من التمثيلين هيئة بحيالها فتشبه كل واحدة من الأوليين بما يضاهيها من الأخريين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل لاشتماله على التشبيه الأول إجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وإيذانه بأن

(١) فى ط : إياه

(٢) فى ط : أو يشبهوا .

اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلا فى الغرابة .

التحريض على العبادة

﴿ياأيها الناس اعبدوا ربكم﴾إثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام . وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ونعت كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم إلى الإصغاء وتوجيها لقلوبهم نحو التلقى ، وجبرا لما فى العبادة من الكلفة بلذة الخطاب ، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به ، ويا حرف وضع لنداء البعيد ، وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد إما إجلالا كما فى قول الداعى يا ألله ويارب ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصارا لنفسه واستبعادا لها من محافل الزلفى ومنازل المقربين ، وإما تنبيها على غفلته وسوء فهمه وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه ، وأى اسم مبهم جعل وصله إلى نداء المعرف باللام لا على المنادى أصالة بل على أنه صفة موضحة له مزيلة لإبهامه ، والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلا إشعارا بأنه المقصود بالنداء . وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيدا لمعنى النداء وتعويضا عما يستحقه أى من المضاف إليه ، ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثر سلوكها فى التنزيل المجيد ، كيف لا وكل ما ورد فى تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الأبية ، ويتلقوها بآذان واعية ، وأكثرهم عنها غافلون ، فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد فى الإيقاظ والتنبيه والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين فى ذلك العصر . لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما فى قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعاً ذائعاً ، وأما من عداهم ممن سيوجد منهم

فغير داخلين فى خطاب المشافهة ، وإنما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة ، ولا يقدح فى العموم ما روى عن علقمة والحسن البصرى من أن كل ما نزل فيه (يا أيها الناس) فهو مكى ، إذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار ، إذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفرة ولا ضير فى تحقق العبادة فى بعض المكلفين قبل ورود هذا الأمر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لإنشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع أنها متكررة حسب تكرر أسبابها ولا فى انتفاء شرطها فى الآخرين منهم أعنى الإيمان لأن الأمر بها منتظم للأمر بما لا تتم إلا به وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فإن أمر المحدث بالصلاة مستتبع للأمر بالتوضى لا محالة .

وقد قيل المراد بالعبادة ما يعم أفعال القلب أيضاً لما أنها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ما ورد فى القرآن من العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولا شك فى كون بعض من الفرقتين الأخيرتين ممن لا يجدى فيهم الإنذار بموجب النص القاطع لما أن الأمر لقطع الأعذار ليس فيه تكليفهم بما ليس فى وسعهم من الإيمان بعدم إيمانهم أصلا ، إذ لا قطع لأحد منهم بدخوله فى حكم النص قطعاً ، وورد النص بذلك لكونهم فى أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا أن كونهم كذلك لورود النص بذلك ، فلا جبر أصلا .

نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى (وأنتم تعلمون) وإيراده تعالى بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الأمر بالإشعار بعليتها للعبادة ﴿الذى خلقكم﴾ صفة أجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل إثر التعليل وقد جوز كونها للتقييد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركين ، وحمل الرب على ما هو أعم من الرب الحقيق ، والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق إيجاد الشىء على تقدير واستواء

وأصله التقدير يقال خلق النعل أى قدرها وسواها بالمقياس ، وقرىء خلقكم بإدغام القاف فى الكاف ﴿ والذين من قبلكم ﴾ عطف على الضمير المنصوب ومتمم لما قصد من التعظيم والتعليل ، فإن خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى للكل وتخصيصه بالمشركين يؤدى إلى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم وإخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصول عندهم أيضا مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وإن اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) للإيذان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لأحد إنكاره وقرىء وخلق من قبلكم وقرىء والذين من قبلكم بإقحام الموصول الثانى بين الأول وصلته توكيدا كإقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك ، أو بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدأ محذوف ، أى الذين هم أناس كائنون من قبلكم ﴿ لعلكم تتقون ﴾ المعنى الوضعى لكلمة لعل هو إنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول إما محبوب فيسمى ترجيا ، أو مكروه فيسمى إشفاقا ، وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل إما من جهة المتكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الأصل الشائع فى الاستعمال . لأن معانى الإنشاءات قائمة به وإما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما ، كما فى قوله سبحانه (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيذانا بأن ذلك الأمر فى نفسه مئنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا .

فإن روعيت فى الآية الكريمة جهة المتكلم يستحيل إرادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار إما إلى الاستعارة بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مئنة لها لتعاضد أسبابها برجاء الراجى من

المرجو منه أمراً هين الحصول فى كون متعلق كل منهما مترددا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة فى الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع وإما إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى إياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها ، وينتزع من ذلك هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من الراجى ورجائه من المرجو منه شيئاً سهل المنال ، فيستعمل فى الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل فى الثانية ، فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجى والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر مراراً وأما جعل المشبه إرادته تعالى فى الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن إرادته تعالى ، فالجملة حال إما من فاعل خلقكم أى طالبا منكم التقوى أو من مفعوله ، وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين ، لأنهم المأمورون بالعبادة أى خلقكم وإياهم مطلوبا منكم التقوى أو علة له ، فإن خلقهم على تلك الحال فى معنى خلقهم لأجل التقوى ، كأنه قيل خلقكم لتتقوا ، أو كى تتقوا ، إما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كما ذهب إليه كثير من أهل السنة ، وإما تنزيلا لترتب الغاية على ما هى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له ، فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لا نزاع فيه وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتكميل عليته للمأمور به وتأكيدها ، فإن إتيانهم بما خلقوا له أدخل فى الوجوب ، وإيثار تتقون على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) للمبالغة فى إيجاب العبادة والتشديد فى إلزامها ، لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده ، فإذا لزمتهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم ، والإتيان به أهون .

وإن روعيت جهة المخاطب فلعل فى معناها الحقيقى ، والجملة حال من ضمير

أعبدوا ، كأنه قيل أعبدوا ربكم راجين للانتظام فى زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح .

المراد بالتقوى

على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة ، التى هى التبتل إلى الله عز وجل بالكلية ، والتنزه عن كل ما يشغل سره عن مراقبته ، وهى أقصى غايات العبادة التى يتنافس فيها المتنافسون ، وبالانتظام القدر المشترك بين إنشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة ومادونها من مرتبتى التوقى عن العذاب المخلد ، والتجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك كما مر فى تفسير المتقين .

ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفى المفعول لما فى التقديم من فوات الإشعار بكون الوصف الأول معظم أحكام الربوبية ، وكونه عريقا فى إيجاب العبادة وفى التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل ، فأما إن اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم ، وما عطف عليه على الطريقة المذكورة أى خلقكم وإياهم حال كونكم جميعاً بحيث يرجو منكم كل راج أن تتقوا ، فإنه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى ، جامعين لمباديها الآفاقية والأنفسية ، كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لامحالة ، وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وإن لم يتحقق الرجاء قطعاً .

واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وتحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم بإشارتها إلى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة فى الأنفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقنا ، وقد بين فيها أولا من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ، ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل .

عود إلى بواعث التقوى

﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وهو فى محل النصب على أنه صفة ثانية لربكم ، موضحة أو مادحة ، أو على تقدير أخص أو أمدح ، أو فى محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ ، قال ابن مالك : التزم حذف الفعل

فى المنصوب على المدح إشعارا بأنه إنشاء كما فى المنادى ، وحذف المبتدأ فى المرفوع إجراء للوجهين على سنن واحد ، وأما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهى ما فى حين الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل فى ذلك مع كونه أعظم شأنا ، وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه ، وقيل هى بمعنى خلق ، وانتصاب الثانى على الحالية والظرف متعلق به على التقديرين ، وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين ، وللتشويق إليه لأن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما عند [(١)] الإشعار بمنفعته تبقى مترقبة له ، فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن ، أولما فى المؤخر وما عطف عليه من نوع طول . فلو قدم لفات تجاوب [(٢)] أطراف النظم الكريم ، ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب ، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا ، فإن كرية شكلها مع عظم جرمها مصحح [(٣)] لافتراشها ، وقرىء بساطا ومهادا .

﴿ والسماء بناء ﴾ عطف على المفعولين السابقين ، وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم إليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر ، أى جعلها قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد ، أو جمع سماوة أو سماءة ، والبناء فى الأصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم بنى على امرأته لما أنهم كانوا إذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا .

﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ عطف على جعل أى أنزل من جهتها ، أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ، كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبىء عنه الإظهار فى موضع الإضمار ، وهو على الأولين لزيادة التقرير ، ومن لابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف

---

(١) فى الأصل : بعد الإشعار (٢) فى ١١ : تجاذب (٣) فى الأصل : مصححة

وقع حالا من المفعول أى كائنا من السماء ، قدم عليه لكونه نكرة ، وأما تقديم الظرف على الوجه الأول مع أن التأخير عن المفعول الصريح فإما لأن السماء أصله ومبدؤه ، وإما لما مر من التشويق إليه مع ما فيه من مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى : ﴿ فأخرج به ﴾ أى بسبب الماء ﴿ من الثمرات رزقا لكم ﴾ .

وذلك بأن أودع فى الماء قوة فاعلة وفى الأرض قوة منفعلة ، فتولد من تفاعلهما أصناف الثمار ، أو بأن أجرىَ عادته بإفاضة صور الثمار وكيفياتها المخالفة على المادة الممتزجة منها وإن كان المؤثر فى الحقيقة قدرته تعالى ومشيئته ، فإنه تعالى قادر على أن يوجد جميع الأشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادىء والأسباب ، لكن له عز وجل فى إنشائها متقلبة فى الأحوال وفى الأطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الأبصار عبرا ومزيد طمأنينة، إلى عظيم قدرته ولطيف حكمته ما ليس فى إبداعها بغتة ، ومن للتبعيض لقوله تعالى (فأخرجنا به ثمرات) ولوقوعها بين منكرين . أعنى ماء ورزقا كأنه قيل : وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم ، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء ، ولا أخرج من الأرض كل الثمرات ، ولاجعل كل المرزوق ثمارا ، أو للتبيين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ، ومن الثمرات بيان له ، أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج ، لأنه بمعنى رزق .

وإنما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لأنه أريد بالثمرات جماعة الثمرة فى قولك : أدركت ثمرة بستانه ، ويؤيده القراءة على التوحيد ، أو لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض ، كقوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون) وقوله تعالى : (ثلاثة قروء) أو لأنها محلاة باللام خارجة عن حد القلة ، واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق ، أى رزقا كائنا لكم ، أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا ، كأنه قيل رزقا إياكم .

﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ إما متعلق بالأمر السابق مترتب عليه ، كأنه قيل : إذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا ، وإنما قيل أندادا باعتبار الواقع ، لا لأن مدار النهى هو الجمعية ، وقرىء ندا ، وإيقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعيين[1] الحكم بوصف الألوهية التى عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والإيذان باستتباعها لسائر الصفات ، وإما معطوف عليه كما فى قوله تعالى : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والفاء للإشعار بعلية ما قبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهى أو الانتهاء أو لأن مآل النهى هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها ، كأنه قيل : اعبدوه فخصوها به ، والإظهار فى موضع الإضمار لما مر آنفا ، وقيل هو نفى منصوب بإضمار أن جوابا للأمر ، ويأباه أن ذلك فيما يكون الأول سببا للثانى . ولاريب فى أن العبادة لا تكون سببا للتوحيد ، الذى هو أصلها ومبناها .

وقيل هو منصوب بلعل نصب (فأطلع) فى قوله تعالى : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه ، وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل فى بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد ، وقيل هو متعلق بقوله تعالى : (الذى جعل الخ) على تقدير رفعه على المدح ، أى هو الذى خصكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة ، فلا تتخذوا له شركاء ، وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهى مع عراقتهما فيها . وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول فى حقه ، وقد عرفت ما فيه مع لزوم المصير إلى مذهب الأخفش فى تنزيل الاسم الظاهر منزلة الضمير كما فى قولك زيد قام أبو عبد الله إذا كان ذلك كنيته .

---

(١) فى الأصل : وتعليل

والند المثل المساوى من ند ندودا إذا نفر ، وناددته خالفته ، خص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوى بالمماثل فى المقدار ، وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادا والحال أنهم ما زعموا أنها تماثله تعالى فى صفاته ولا أنها تخالفه فى أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات ، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله عز وجل ، وتمنحهم ما لم يرد الله تعالى بهم من خير ، فتهكم بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد وفى ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل البصير

وقوله تعالى : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ حال من ضمير لا تجعلوا بصرف التقييد إلى ما أفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ، ومفعول تعلمون مطروح بالكلية كأنه قيل لا تفعلوا[1] ذلك فإنه قبيح واجب الاجتناب عنه ، والحال أنكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وإصابة الرأى ، أو مقدر حسبما يقتضيه المقام ، نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، أو تعلمون أنه لا يماثله شىء أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله كما فى قوله تعالى : (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) أو غير ذلك .

وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذى يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لإنشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة ، وللثبات عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مر مثله فى الأمر ، وأما صرف التقييد إلى نفس النهى فيستدعى تخصيص الخطاب بالكفرة لا محالة إذ لا يتسنى ذلك بطريق قصر النهى على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل والمتمكن من العلم بل إنما

(١) فى الأصل : لا تجعلوا

يتأتى بطريق المبالغة فى التوبيخ والتقريع ، بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح ؛ وذلك إنما يتصور فى حق الكفرة ، فمن صرف التقييد إلى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضا فقد نأى عن التحقيق .

إن قلت : أليس فى تخصيصه بالكفرة فى الأمر والنهى خلاص من أمثال مامر من التكلفات وحسن انتظام بين السياق والسياق إذ لا محيد فى آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لامحالة مع مافيه من رباء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن حيز الانتظام فى سلك الكفرة والإيذان بأنهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر فى صدر السورة الكريمة مستغنون فى ذلك عن الأمر والنهى ؟ قلت ، بلى إنه وجه سرى ، ونهج سوى ، لايضل من ذهب إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه ، فتأمل .

دلائل أن القرآن من عند الله

﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ شروع فى تحقيق أن الكتاب الكريم الذى من جملته ما تلى من الآيتين الكريمتين ، الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر فى مطلع السورة الشريفة من النعوت الجلية التى من جملتها نزاهته عن أن يعتريه ريب ما والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا فى غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب فى شأنه ، وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال ، كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع ، وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها .

وإنما لم يقل وإن ارتبتم فيما نزلنا الخ لما أشير إليه فيما سلف من المبالغة فى تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى :

(لاريب فيه) للإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لامن جهته العالية ، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافى اعتبار ضعفه وقلته ، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لاقوته وكثرته ، ومن فى مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب ، وحملها على السببية ربما يوهم كونه محلا للريب فى الجملة وحاشاه (من)[1] ذلك وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لاعن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه ، وليس معنى كونهم فى ريب منه ارتيابهم فى استقامة معانيه ، وصحة أحكامه ، بل فى نفس كونه وحيامنزلا من عند الله عز وجل، وإيثار التنزيل المنبيء[2] عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم ، وبناء التحدى عليه إرخاء للعنان وتوسيعا للميدان ، فإنه كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة إلى إنكاره ، فجعل ذلك من مبادى الاعتراف به ، كأنه قيل : إن ارتبتم فى شأن ما نزلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه ، ونجم فرد من نجومه ، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ، ويتحدى بالكل .

وهذا كما ترى غاية ما يكون فى التبكيت وإزاحة العلل وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وإنقياده لأوامره تعالى مالايخفى. وقرىء على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته ، أو جميع الأنبياء عليهم السلام ، ففيه إيذان بأن الارتياب فيه إرتياب فيما أنزل (على)[3] من قبله لكونه مصدقا له ومهيمنا عليه والأمر فى قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من باب التعجيز وإلقام الحجر ، كما فى قوله تعالى (فأت بها من المغرب) والفاء للجواب وسببية الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأمور به لما أشير إليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور ، فإنه سبب للأول مطلقا ، وللثانى على تقدير الصدق ، كأنه قيل إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله ، لأنكم تقدرون على

---

(١) سقطت من الأصل (٢) فى ١١ : المبنى (٣) سقطت من الأصل

ما يقدر عليه سائر بنى نوعكم . والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلها ثلاث آيات . وواوها أصلية منقولة من سور البلد ، لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها ، أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها ، أو من السورة التى هى الرتبة قال :

ولرهط حراب وقد سورة   فى المجد ليس غرابها بمطار

فإن سور القرآن مع كونها فى أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول والقصر ، فهى من حيث انتظامها مع أخواتها فى المصحف مراتب يرتقى إليها القارىء شيئاً فشيئاً . وقيل واوها مبدلة من الهمزة ، فمعناها البقية من الشيء ، ولايخفى ما فيه ومن فى قوله تعالى ﴿ من مثله ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة ، والضمير لما نزلنا ، أى بسورة كائنة من مثله فى علو الرتبة وسمو الطبقة ، والنظم الرائق والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز وجعلها تبعيضية يوهم أن له مثلا محققا قد أريد تعجيزهم عن الإتيان ببعضه ، كأنه قيل ، فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تتمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدارا للعجز مع أنه المراد ، وبناء الأمر على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون (لو نشاء لقلنا مثل هذا) أو على التهكم يأباه ما سبق من تنزيله منزلة الريب ، فإن مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفه ولو بغير جد ، وقيل هى زائدة كما هو رأى الأخفش ، بدليل قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، (بعشر سور مثله) وقيل هى ابتدائية ، فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما ، لما أن رجوعه إلى المنزل يوهم أن له مثلا محققا (بالفعال)[1] قد ورد الأمر التعجيزى بالإتيان بشيء منه ، وقدعرفت مافيه بخلاف رجوعه إلى المنزل عليه ، فإن تحقق مثله عليه السلام فى البشرية والعربية والأمية يهون الخطب فى الجملة ، خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للإتيان بالمأمور به لايدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم ، بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك فى

(١) سقط من ط .

الجملة فرادى أو مجتمعين ، مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله ، فأين هذا من تحدى أمة جمة وأمرهم بأن يحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وادعوا شهداء كم من دون الله﴾ على الإتيان بقدر يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم .

والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ، ومعنى دون أدنى مكان من شيء ، يقال هذا دون ذاك إذا كان أحط منه قليلا ، ثم استعير للتفاوت فى الأحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو ، أى فى الفضل والرتبة ، ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر ، فجرى مجرى أداة الاستثناء ، وكلمة من إما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية ، والظرف مستقر والمعنى أدعوا متجاوزين الله تعالى لاستظهار من حضركم كائنا من كان ، أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم فى الملمات ، وتعولون عليهم فى المهمات ، أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة ، أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الإنس والجن ليعينوكم .

وإخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الأول مع اندراجه فى الحضور لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه ؛ وأما فى سائر الوجوه فللتصريح من أول الأمر ببراءتهم منه تعالى ؛ وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصدين[1] استظهارهم على ماسواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة وتربية المهابة ؛ وقيل المعنى ادعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المقاولة والمناقلة ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله ، إيذانا بأنهم

(١) فى الأصل : قاصرين

يأبون أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلى الاستحالة وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء وقيل المعنى أدعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد أن ما ندعيه حق فإن ذلك ديدن المحجوج وفيه أنه إن أريد بما يدعون حقية ما هم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى وإن أريد مثلية ما أتوا به للمتحدى به فمع عدم ملاءمته لابتداء التحدى يوهم أنهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشىء مشتبه الحال مترددين بين المثلية وعدمها ، وأنهم ادعوها مستشهدين فى ذلك بالله سبحانه ، إذ عند ذلك تمس الحاجة إلى الأمر بالاستشهاد بالناس والنهى عن الاستشهاد به تعالى ، وأنى لهم ذلك ، وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببنت شفة .

وإما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الأصنام ، ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين ، والعامل ما دل عليه شهداءكم ، أى أدعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى فى اتخاذها ، كذلك وكلمة من ابتدائية فإن الاتخاذ ابتداء من التجاوز ، والتعبير عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير ما زعموا من أنها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق ، فإن ما هذا شأنه يجب أن يكون ملاذا لهم فى كل أمر مهم ، وملجأ يأوون إليه فى كل خطب ملم ، كأنه قيل : أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم ، فوجه الالتفات الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة ما لا أحقر منه .

وقيل لفظة دون مستعارة من معناها الوضعى الذى هو أدنى مكان من شىء لقدامه ، كما فى قول الأعشى :

* تريك القذى من دونها وهى دونه *

أى تريك القذى قدامها وهى قدام القذى ، فتكون ظرفا لغويا معمولا لشهداءكم لكفاية رائحة الفعل فيه ، من غير حاجة إلى اعتماد ولا إلى تقدير

يشهدون ، أى أدعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدى الله تعالى ليعينوكم فى فى المعارضة ، وإيرادها بهذا العنوان لما مر من الإشعار بمناط الاستعانة بها ، ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر فى ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به فى كل مرام ، وفى أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا فى معارضة القرآن الذى أخرس كل منطيق بالجماد من التهكم بهم ما لا يوصف ، وكلمة من ههنا تبعيضية ، لما أنهم يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى فى لأنهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل إنما يقع فى بعض تينك الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل .

وقد يقال كلمة من الداخلة على دون فى جميع المواقع بمعنى فى كما فى سائر الظروف التى لا تنصرف ، وتكون منصوبة على الظرفية أبدا ، ولا تنجر إلا بمن خاصة ، وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر ، ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أى ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أتيتم به مثله متجاوزين فى ذلك أولياء الله ، ومحصله شهداء مغايرين لهم إيذانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك ، وإنما قدر المضاف إلى الله تعالى رعاية للمقابلة ، فإن أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الأصنام ، كما أن ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام ، والمقصود بهذا الأمر إرخاء العنان والاستدراج إلى غاية التبكيت ، كأنه قيل تركنا إلزامكم بشهداء لا ميل لهم إلى أحد الجانبين كما هو المعتاد ، واكتفينا بشهدائكم المعروفين بالذب عنكم ، فإنهم أيضا لا يشهدون لكم حذرا من اللائمة[1] وأنفة من الشهادة البينة البطلان .

كيف لا وأمر الإعجاز قد بلغ من الظهور إلى حيث لم يبق إلى إنكاره سبيل قطعا ، وفيه ما مر من عدم الملاءمة لابتداء التحدى وعدم تناوله لأولئك الشهداء ، ولإيهام أنهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشىء احتاجوا فى إثبات مثليته للمتحدى به إلى الشهادة ، وشتان بينهم وبين ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنه من كلامه عليه السلام . وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق

---

(١) ٤٦٥ الإثم

عليه ، أى إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله إلخ ، واستلزام المقدم للتالى من حيث أن صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام فى البشرية والعربية ، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب فى أن القدرة على الشىء من موجبات الإتيان به ودواعى الأمر به .

﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ أى ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود ، وجاوزتم فى الجد كل حد معهود ، متشبثين بالذيول ، راكبين متن كل صعب وذلول ، وإنما لم يصرح به إيذانا بعدم الحاجة إليه ، بناء على كمال ظهور تهالكهم على ذلك ، وإنما أورد فى حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر المأمور به مفعولا له للإيجاز البديع المغنى عن التطويل والتكرير ، مع سر سرى استقل به المقام وهو الإيذان بأن المقصود بالتكليف هو إيقاع نفس الفعل المأمور به ، لإظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أى المأتى به ضرورة استحالته ، وأن مناط الجواب فى الشرطية أعنى الأمر باتقاء النار هو عجزهم عن إيقاعه لا فوت حصول المفعول فإن مدلول لفظ هو أنفس الأفعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة ، فإذا علق بفعل خاص متعد فإنما يقصد به إيقاع نفس ذلك الفعل وإخراجه من القوة إلى الفعل ، وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وإنما يستفاد ذلك من الفعل الخاص ، ولذلك تراهم يتوسلون بذلك إلى تجريد الأفعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة ، فيقولون مثلا ، معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء ، والمنع ، يرشدك إلى هذا قوله تعالى (فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) بعد قوله تعالى (ائتونى بأخ لكم من أبيكم) فإنه لما كان مقصود يوسف عليه السلام بالأمر ومرمى غرضه بالتكليف منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم إلى الجد فى الامتثال ، والسعى فى تحقيق المأمور به بالإشارة الإجمالية إلى الفعل الذى ورد

به الأمر بأن يقول : فإن لم تفعلوا ، بل أعاده بعينه متعلقا بمفعوله تحقيقا لمطلبه وإعرابا عن مقصده .

هذا وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الإتيان مع ما يتعلق به إما على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة إليها حذرا من التكرار ، أو على طريقة ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال فتدبر ، وإيثار كلمة إن المفيدة للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم بمجاراة معهم بحسب حسبانهم قبل التجربة أو تهكم بهم .

﴿ولن تفعلوا﴾ كلمة لن لنفى المستقبل كلا ، خلا أن فى لن زيادة تأكيد وتشديد ، وأصلها عند الخليل (لا أن) وعند الفراء (لا) أبدلت ألفها نونا وعند سيبويه حرف مقتضب للمعنى المذكور ، وهى إحدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين جزأى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ، ومؤكد لإيجاب العمل بتاليها ، وهذه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك ، كيف لا ولو عارضوه بشىء يدانيه فى الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف .

﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد ، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من إنكار كونه منزلا من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة فى تهويل شأنه ، وتفظيع أمره . وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه، وحثهم على الجد فى تحقيق المكنى عنه ، وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى ، حيث كان الأصل ، فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم ، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الإيمان به سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقوا النار (التى وقودها الناس والحجارة) صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة أعاذنا الله من ذلك ، والوقود ما توقد به النار وترفع من الحطب .

وقرىء بضم الواو وهو مصدر وسمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه وزين بلده ، والمعنى أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئا من رطب أو يابس إلا أحرقته ، لا كنيران الدنيا تفتقر فى الالتهاب إلى وقود من حطب أو حشيش وإنما جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها إلى ما نسبت هى إليه معلوما للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى (نارا وقودها الناس والحجارة) فأشير ههنا إلى ما سمعوه أولا ، وكون سورة التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور ، وأما أن الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه هين ، لما أن المخاطب هناك المؤمنون ، وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالحجارة الأصنام ، وبالناس أنفسهم حسبما ورد فى قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية .

﴿أعدت للكافرين﴾ أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم والمراد إما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أوليا ، وإما هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل الحكم بكفرهم وقرىء (أعتدت) من العتاد بمعنى العدة ، وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن ، والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب مقررة لمضمون ما قبلها ، ومؤكدة لإيجاب العمل به ، ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال[1] العموم وقيل حال بإضمار قد من النار ، لا من ضميرها فى وقودها ، لما فى ذلك من الفصل بينهما بالخبر ، وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف .

بشارات المؤمنين

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ أى بأنه منزل من عند الله عز وجل ، وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على أن المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه ، بل على أنه عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف

(١) فى ١١ : لإضمار العموم

ثوابهم ، على قصة الـكافرين به وكيفية عقابهم ، جريا على السنة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب ، والوعد بالوعيد ، وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين حالى الفريقين ، وقرىء وبشر على صيغة الفعل مبنيا المفعول عطفا على أعدت ، فيكون استئنافا وتعليق التبشير بالموصول للإشعار بأنه معلل بما فى حيز الصلة من الإيمان والعمل الصالح ، لـكن لا لذاتهما ، فإنهما لا يكافئان النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل ، بل بجعل الشارع ، ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا مفيدا للحدوث بعد إيراد الـكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالاتقاء على إحداث الإيمان ، وتحذيرهم من الاستمرار على الـكفر ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لـكل من يتأتى منه التبشير ، كما فى قوله عليه السلام : «بشر المشائين إلى المساجد فى ظلم الليالى بالنور التام يوم القيامة » فإنه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدا بعينه بل كل أحد ممن يتأتى منه ذلك ، وفيه رمز إلى أن الأمر لعظمه وفخامة شأنه حقيق بأن يتولى التبشير به كل من يقدر عليه . والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور فى البشرة ، وتباشير الصبح أوائل ضوئه ﴿وعملوا الصالحات﴾ الصالحة كالحسنة فى الجريان مجرى الاسم ، وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل واللام للجنس ، والجمع لإفادة أن المراد بها جملة من الأعمال الصالحة التى أشير إلى أمهاتها فى مطلع السورة الـكريمة ، وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال المـكلفين فى مواجب التـكليف ، وفى عطف العمل على الإيمان دلالة على تغايرهما وإشعار بأن مدار استحقاق البشارة مجموع الأمرين ، فإن الإيمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لا بناء به .

﴿أن لهم جنات﴾ منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه ، أو مجرور بإضماره مثل : « الله لأفعلن » والجنة هى المرة من مصدر جنه إذا ستره ، تطلق على النخل والشجر المتـكاثف المظل بالتفاف أغصانه قال زهير :

كأن عينى فى غربى مقتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

أى نخلا طوالا كأنها لفرط تـكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفس

الستره وعلى الأرض ذات الشجر ، قال الفراء الجنة مافيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم ، فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذاً من الفعل المبنى للمفعول وإنما سميت دار الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذها ، وجمعها مع التنكير لأنها سبع على ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون . وفى كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها .

﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ فى حيز النصب على أنه صفة جنات . فإن أريد بها الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل .

عن مسروق أن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود ، واللام فى الأنهار للجنس ، كما فى قولك : لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب ، أو عوض عن المضاف إليه كما فى قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) أو للعهد والإشارة إلى ما ذكر فى قوله عز وعلا : (أنهار من ماء غير آسن) الآية . والنهر بفتح الهاء وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات ، والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الإضمار أو على المجاز اللغوى ، أو المجارى أنفسها ، وقد أسند إليها الجريان مجازاً عقليا كما فى سال الميزاب .

﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا ﴾ صفة أخرى لجنات أخرت عن الأولى لأن جريان الأنهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها ، وهذا وصف لها باعتبار أهلها المتنعمين بها ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستأنفة ، كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع فى ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أولا ، فبين حالها ، و (كلما) نصب على الظرفية ، ورزقا مفعول به ، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع

الحال ، كأنه قيل كل وقت رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات ، وابتداؤه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة ، فصاحب الحال الأولى رزقا ، وصاحب الثانية ضميره المستكن فى الحال ، ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما فى قولك رأيت منك أسدا ، وهذا إشارة إلى ما رزقوا ، وإن وقعت على فرد معين منه كقولك مشيراً إلى نهر جار هذا الماء لا ينقطع ، فإنك إن أشرت إلى ماتعاينه بحسب الظاهر لكنك إنما تعنى بذلك النوع المعلوم المستمر ، فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل ، أى من قبل هذا فى الدنيا ، ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته ، وإنما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه ، فإن الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غير معروف ، وليتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه إذ لو كان جنسا غير معهود لظن أنه لا يكون إلا كذلك أو مثل الذى رزقناه من قبل فى الجنة لأن طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه أن أحدهم يؤتى فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك ، فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف ، أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفسى بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة إلى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها) والأول أنسب لمحافظة عموم كلما ، فإنه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الأولى يظهرون بذلك التبجح ، وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما فى الشكل واللون ، كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه فى الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب .

ولا يقدح فيه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا إلا الاسم ، فإن ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان ألا تشابه بينهما أصلا ، كيف لا وإطلاق الأسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعا ، هذا وقد فسرت الآية الكريمة بأن

مستلذات أهل الجنة بمقابلة ما رزقوه فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال ، فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذى رزقناه فى الدنيا من الطاعات ، ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات ، فإن الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب .

﴿ وأتوا به متشابها ﴾ اعتراض مقرر لما والضمير المجرور على الأول راجع إلى مادل عليه فحوى الكلام مما رزقوا فى الدارين كما فى قوله تعالى : (إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما) أى بجنسى الغنى والفقير ، وعلى الثانى إلى الرزق ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق ، فإن التطهر يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال ، وقرىء مطهرات ، وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت … واستعجلت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ ، والإفراد على تأويل الجماعة ، وقرىء (مطهرة) بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى . وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والأنثى ، وهو فى الأصل اسم لماله قرين من جنسه ، وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح إطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها ، واستغنائهم عن الأولاد ، كما أن المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يخل ذلك بإطلاقه على ثمار الجنة .

﴿ وهم فيها خالدون ﴾ أى دائمون والخلود فى الأصل الثبات المديد دام أو لم يدم ، ولذلك قيل للأثافى والأحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الإنسان على حاله خالد ، ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتأبيد فى قوله عز وعلا (خالدين فيها أبدا) ولما استعمل حيث لا دوام فيه لكن المراد ههنا الدوام

قطعا لما يقضى به من الآيات والسنن ، وما قيل من أن الأبدان مؤلفة من الأجزاء المتضادة فى الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانحلال والانفكاك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد فى عالم الكون والفساد على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لايعتورها الاستحالة ، ولا يعتريها الانحلال قطعا ، بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة فى الكيفيات متعادلة فى القوى ، بحيث لايقوى شىء منها عند التفاعل على إحالة الآخر ، متعانقة متلازمة لاينفك بعضها عن بعض ، وتبقى هذه النسبة متحفظة فيما بينها أبدا لايعتريها التغير بالأكل والشرب والحركات وغير ذلك .

واعلم أن معظم اللذات الحسية لما كان مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقراء ، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات إذ كل نعمة وإن جلت حيث كانت فى شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فإنها منغصة غيرصافية من شوائب الألم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلا للبهجة والسرور ، اللهم وفقنا لمراضيك ، وثبتنا على ما يؤدى إليها من العقد والعمل .

دفع شبهات عن القرآن الكريم

﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة ﴾ شروع فى تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ماوقع فيه من ضرب الأمثال وبيان لحكمته ، وتحقيق للحق إثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدى ، وإلقام الحجر ، وإفحام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المنافقين طعنوا فى ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق ، وقالوا : الله أجل وأعلى من ضرب الأمثال . وروى عطاء رضى الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين .

وروى عنه أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) الآية ، وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) الآية ، قالت اليهود : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما وجعلوا ذلك ذريعة إلى إنكار كونه من عند الله تعالى ، مع

أنه لايخفى على أحد ممن له تمييز أنه ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير ، بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر ، نازلا من عند خلاق القوى والقدر ، كيف لا وإن التمثيل كما مر ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود فى معرض الأمر المشهود ، وتحلية المعقول بحلية المحسوس ، وتصوير أوابد المعانى بهيئة المأنوس ، لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه فى إدراك الحقائق الخفية ، وفهم الدقائق الأبية ، كى يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه إلى ما يرتضيه ، ولذلك شاعت الأمثال فى الكتب الإلهية والكلمات النبوية وذاعت فى عبارات البلغاء وإشارات الحكماء ، ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به فى مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير ، وقد مثل فى الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير ، وجاء فى عبارات البلغاء : أجمع من ذره ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأضعف من بعوضة ، إلى غير ذلك مما لايكاد يحصر .

والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه ، يقال حيي ، الرجل وهو حيي ، واشتقاقه من الحياة اشتقاق شظى وحشى ونسى من الشظى والنسى والحشى ، يقال شظى الفرس ونسى وحشى إذا اعتلت منه تلك الأعضاء كأن من يعتريه الحياء تعتل قوته الحيوانية وتنتقص ، واشتكى بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر ، يقال : استحييته واستحييت منه ، والأول لا يتعدى إلا بحرف الجر ، وقد يحذف منه إحدى الياءين . ومنه قوله :

ألا يستحى منا الملوك ويتقى محارمنا لا يبوء الدم بالدم

وقوله :

إذا مااستحين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت فى إناء من الورد

فكما أنه إذا أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله يستحيي من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه» ، وقوله عليه السلام «إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا» ، يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل فى الحديثين

الكريمين تركه تعذيب ذى الشيبة ، وتخييب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء ، كذلك إذا نفي عنه تعالى فى المواد الخاصة كما فى هذه الآية الشريفة ، وفى قوله تعالى : (والله لا يستحيي من الحق) يراد بهسلب ذلك الترك الخاص المضاهى لترك المستحيي عنه ، لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا ، كما فى قولك إن الله لا يوصف بالحياء : لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الإيجاب من شأنه تعالى فى الجملة ، فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحيي من ضربه ، وفيه رمز إلى تعاضد الدواعى إلى ضربه وتآخذ البواعث إليه ، إذ الاستحياء إنما يتصور فى الأفعال المقبولة للنفس ، المرضيةعندها ، ويجوزأن يكون وروده على طريقةالمشاكلة ، فإنهم كانوا يقولون، أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالأشياء المحقرة كما فى قول من قال :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

وضرب المثل استعماله فى مضربه وتطبيقه به لا صنعه[1] وإنشاؤه فى نفسه وإلا لكان إنشاء الأمثال السائرة فى مواردها ضربا لها دون استعمالها بعد ذلك فى مضاربها ، لفقدان الإنشاء هناك . والأمثال الواردة فى التنزيل وإن كان استعمالها فى مضاربها عين إنشائها فى أنفسها ، لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار ، بل بالاعتبار الأول قطعا ، وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق ، فكما أن ضربه تطبيقه بقالبه ، كذلك استعمال الأمثال فى مضاربها تطبيقها بها ، كأن المضارب قوالب تضرب الأمثال على شاكلتها ، لكن لا بمعنى أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى أنها تورد منطبقة عليها سواء كان إنشاؤها حينئذ كعامة الأمثال التنزيلية ، فإن مضاربها قوالبها ، أو قبل ذلك كسائر الأمثال السائرة ، فإنها وإن كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أى إيرادها منطبقة على مضاربها إنما يحصل عند الضرب ، وإما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الإلصاق ، كأن من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لازب[2] لا تنفك عنها لشدة تعلقها بها .

---

(١) فى ٤٦٥ : لا صنعته (٢) فى ١١ : لازمة

ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحي بنفسه النصب على المفعولية ، وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض بإضمار من ، وعند سيبويه النصب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها ، ومثلا مفعول ليضرب ، وما إسمية إبهامية تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر إبهاما وشياعا ، كما فى قولك أعطنى كتابا ما، كأنه قيل مثلا ما من الأمثال ، أى مثل كان . فهى صفة لما قبلها ، أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما فى قوله تعالى : (فبما رحمة من الله) وبعوضة بدل من مثلا أو عطف بيان عند من يجوزه فى النكرات ، أو مفعول ليضرب ومثلا حال تقدمت عليها لكونها نكرة ، أوهما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل والتصيير ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو بعوضة .

والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة الصدر كما فى قوله تعالى : (تماما على الذى أحسن) على قراءة الرفع ، وعلى تقدير كونها موصوفة لها كذلك ، ومحل ما ، على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلا ، أو على أنه مفعول ليضرب ، وعلى تقدير كونها إبهامية صفة لمثلا كذلك ، وأما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب المثل قيل : ما بعوضة ، وأى مانع فيها حتى لا يضرب بها المثل ، بل له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ما وقع فى قوله صلى الله عليه وسلم : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» والبعوض فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب غلب على هذا النوع كالخموش فى لغة هذيل من الخمش وهو الخدش .

﴿ فما فوقها ﴾ عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف وأما على تقدير رفعها فهو عطف على ما الأولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة ، وأما على تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعنى بعوضة لا على نفسها كما قيل ، والمعنى ما بعوضة فالذى فوقها أو فشىء فوقها ، حتى لايضرب بها المثل ، وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة ، وبعوضة خبر للمضمر ،

وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل إنما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص ، فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكده بطريق الأولوية والمراد بالفوقية إما الزيادة فى المعنى الذى أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة . وإما الزيادة فى الحجم والجثة لكن لا بالغا ، بل فى الجملة كالذباب والعنكبوت.

وعلى التقدير الأول يجوز أن تكون ما الثانية خاصة استفهامية إنكارية والمعنى : إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فأى شىء فوقها فى الصغر والحقارة ، فإذن له تعالى أن يمثل بكل ما يريد ، ونظيره فى احتمال الأمرين ما روى أن رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله عنها حين ذكر لها ذلك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » فإنه يحتمل ما يجاوز الشوكة فى القلة كنخبة النملة بقوله عليه السلام : « ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة » وما تجاوزها من الألم كأمثال ما حكى من الخرور .

حكمة ضرب المثل فى القرآن

﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر تحقيق حقية صدوره عنه تعالى . والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها ، كأنه قيل : فيضربه فأما الذين الخ ، وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حكى من الكفرة مما لا يفتقر إلى بيان السبب ، وفى تصدير الجملتين بإما من إحماد أمر المؤمنين وذم الكفرة مالا يخفى ، وهو حرف متضمن لمعنى الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شىء ، ولذلك يجاب بالفاء وفائدته توكيد ماصدر به وتفصيل مافى نفس المتكلم من الأقسام ، فقد تذكر جميعا وقد يقتصر على واحد منها ، كما فى قوله عز من قائل[1] ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ الخ قال سيبويه أما زيد معناه مهما يكن من شىء

(١) فى ١١ : عز قائلا

فهو ذاهب لا محالة ، وأنه منه عزيمة ، وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء لكن كرهوا إيلاءها حرف الشرط ، فأدخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظاً ، والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما أن المراد بالموصول الآتى فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ، ومن يكفر به ، لاختلال المعنى أى فأما المؤمنين .

﴿فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ كسائر ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لامحاله ، بحيث لاسبيل للعقل إلى إنكاره لا الثابت مطلقا ، واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقية ، وأن له حكما ومصالح ، ومن لابتداء الغاية المجازية ، وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق ، أو من الضمير العائد إلى المثل ، أو إلى ضربه ، أى كائنا وصادراً من ربهم ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم ، وللإيذان بأن ضرب المثل تربية لهم ، وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم ، والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ، ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش ، أى فيعلمون حقيته ثابتة ، ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) للإشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ ممن حكيت أقوالهم وأحوالهم ﴿ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ أوثر يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر ، وترامى أمرهم فى العتو ، فإن مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة إنكارها والاستهزاء به صريحا وتمهيداً لتعداد ما نعى عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور .

على أن عدم العلم بحقيته لايعم جميعهم ، فإن منهم من يعلم بها ، وإنما يقول ما يقول مكابرة وعنادا ، وحمله على عدم الإذعان والقبول الشامل للجهل والعناد

تعسف ظاهر . هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ، ليطابق قرينه ويقابل قسيمه ، لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحاً على جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه ، فتأمل وكن على الحق المبين ، و (ماذا) إما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا بمعنى الذى وصلته ما بعده والعائد محذوف ، فالأحسن أن يجيء جوابه مرفوعا ، وإما منزلة اسم واحد بمعنى أى شيء ، فالأحسن فى جوابه النصب والإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه أو القوة التى هى مبدؤه ، والأول مع الفعل ، والثانى قبله ، وكلاهما مما لا يتصور فى حقه تعالى ، ولذلك اختلفوا فى إرادته عز وجل ، فقيل إرادته تعالى لأفعاله كونه غير ساه فيه ، ولا مكره ، ولأفعال غيره أمره بها ، فلا تكون المعاصى بإرادته تعالى ، وقيل هى علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل ، والوجه الأصلح ، فإنه يدعو القادر إلى تحصيله والحق عبارة عن ترجيح أحد طرفى المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه ، وهى أعم من الاختيار ، فإنه ترجيح مع تفضيل ، وفى كلمة (هذا) تحقير للمشار إليه واسترذال له[1] ومثلا نصب على التمييز أو على الحال كما فى قوله تعالى : (ناقة الله لكم آية) وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا ، بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت إرادته تعالى ، على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه ، فقوله عز من قائل ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾ جواب عن تلك المقالة الباطلة ، ورد لها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هى كونه ذريعة إلى هداية المستعدين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية ، فوضع الفعلان موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما ، فإن إرادتهما

(١) فى ٤٦٠ : واستنزال له

دون وقوعهما بالفعل وتجافيا عن نظم الإضلال مع الهداية فى سلك الإرادة لإيهامه تساويهما فى تعلقهما ، وليس كذلك ، فإن المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ونظائره .

وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم ، وأوثر صيغة الاستقبال إيذانا بالتجدد والاستمرار ، وقيل . وضع الفعلان موضع مصدر كأنه قيل : أراد إضلال كثير وهداية كثير وقدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوءهم ويفت فى أعضادهم وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين بأما وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدى وأن الجهل بوجه إيراده والإنكار لحسن[1] مورده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق إنما هى بالنظر إلى أنفسها لا بالقياس إلى مقابليهم فلا يقدح فى ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى : وقليل من عبادى الشكور . ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الإضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الأولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال :

إن الكرام كثير فى البلاد وإن   قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

وإسناد الإضلال[2] أى خلق الضلال إليه سبحانه مبنى على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى وإن كان أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم وجعله من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه التصريح بالسبب وقرىء يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكرير به مع جواز الاكتفاء بالأول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها ﴿ وما يضل به ﴾ أى بالمثل أو بضربه ﴿ إلا الفاسقين ﴾ عطف على ما قبله وتكملة للجواب والرد وزيادة

(١) فى ١١ : بحسب   (٢) فى ١١ : الضلال

تعيين لمن أريد إضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له وإشارة إلى أن ذلك ليس إضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه وقرىء وما يضل به إلا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق فى اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من جحرها أى خرجت قال رؤبة :

يذهبن فى نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا

وفى الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التى من جملتها الإصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث الأولى التغابى وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك فى تعاطيها والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذى عليه يدور الإيمان ولقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) والمعتزلة لما ذهبوا إلى أن الإيمان عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ، ولم يتسن لهم إدخال الفاسق فى أحدهما فجعلوه قسما بين قسمى المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما فى بعض أحكامه . والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون فى الكفر ، الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله تعالى ، والاستهزاء به وتخصيص الإضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما أجرى عليهم من القبائح للإيذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال فإن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرف وجوه أنظارهم عن التدبر فى حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ما قالوا .

صفات الفاسقين

﴿ الذين ينقضون عهد الله ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير ماهم عليه من الفسق والنقض فسخ التركيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما ، واستعماله فى إبطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد

كلامى المتعاقدين[١] بالآخر ، فإن شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحاً للمجاز ، وإن قرن بالعهد كان رمزا إلى ما هو من روادفه وتنبيها على مكانه ، وأن المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس تنبيها على أنه أسد فى شجاعته وبحر فى إفاضته ، والعهد الموثق يقال عهد إليه كذا إذا وصاه به ووثقه عليه والمراد ههنا إما العهد المأخوذ بالفعل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده (تعالى)[٢] ووحدته وصدق رسوله عليه السلام ، وبه أول قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أو المعنى الظاهر منه أو المأخوذ من جهة الرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره فى الكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه كما ينبىء عنه قوله عز وجل (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه) ونظائره ، وقيل عهود الله تعالى ثلاثة الأول ما أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقروا به وبربوبيته[٣] والثانى ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه والثالث ما أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه .

﴿من بعد ميثاقه﴾ الميثاق إما اسم لما يقع به الوثاقة والإحكام ، وإما مصدر بمعنى التوثقة كالميعاد بمعنى الوعد ، فعلى الأول إن رجع الضمير إلى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه من القبول والالتزام وإن رجع إلى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وإنذار رسله عليهم السلام ، والمضاف محذوف على الوجهين ، أى من بعد تحقق ميثاقه ، وعلى الثانى إن رجع الضمير إلى العهد والميثاق مصدر من المبنى للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام ، أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بإنزال الكتب وإنذار الرسل ، وإن كان مصدرا من المبنى للمفعول فالمعنى من بعد كونه موثقا إما بتوثيقهم إياه بالقبول وإما بتوثيقه تعالى إياه بإنزال الكتب وإنذار الرسل .

---

(١) فى ط : المتعاهدين (٢) سقطت من ط . (٣) فى ط : على ربوبيته .

﴿ولا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وعدم موالاة المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق ، وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، والأمر هو القول الطالب للفعل مع العلو ، وقيل بالاستعلاء ، وبه سمى الأمر الذى هو واحد الأمور تسمية للمفعول بالمصدر ، فإنه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن ، وكذا يقال له شىء وهو مصدر شاء لما أنه أثر للمشيئة ، ومحل أن يوصل إما النصب على أنه بدل من الموصول أو من ضميره والثانى أولى لفظا ومعنى .

﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة ، وفيه إيذان بأنهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك فى سلك الأمور المحسوسة ، وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الفساد ﴿هم الخاسرون﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية واستبدال الإنكار والطعن فى الآيات بالإيمان بها والتأمل فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب .

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ التفات إلى خطاب المذكورين مبنى على إيراث ما عد[1] من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) الخ بل المعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه . وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الإنكار إلى نفس الكفر

(١) فى ط : ما عده

بأن يقال أتكفرون . لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى ، وقوله عز وجل ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ إلى آخر الآية حال من ضمير الخطاب فى تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤون العظيمة الداعية إلى الإيمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيبويه ، وبالحال عند الأخفش ، أى فى أى حال أو على أى حال تكفرون به تعالى ، والحال أنكم كنتم أمواتا أى أجساما لا حياة لها ، عناصر وأغذية ونطفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة ، والأموات جمع ميت كأقوال جمع قيل ، وإطلاقها على تلك الأجسام باعتبار عدم الحياة مطلقا كما فى قوله تعالى (بلدة ميتا) وقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة) ، ﴿ فأحياكم ﴾ بنفخ الأرواح فيكم ، والفاء للدلالة على التعقيب فإن الإحياء حاصل إثر كونهم أمواتا وإن توارد عليهم فى تلك الحياة[1] أطوار مترتبة بعضها متراخ عن بعض كما أشير إليه آنفا ﴿ ثم يميتكم ﴾ أى عند انقضاء آجالكم ، وكون الإماتة من دلائل القدرة ظاهر ، وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى ، والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة إلى زمان الإحياء دون زمان الحياة ، فإن زمان الإماتة غير متراخ عنه ﴿ ثم يحييكم ﴾ بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور ، وأيا ما كان فهو متراخ من زمان الإماتة ، وإن كان إثر زمان الموت المستمر ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر أو إليه تنشرون من قبوركم للحساب ، وهذه الأفعال وإن كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا يتسنى مقارنة شيء منها لما هو حال منه فى الزمان ، لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كأنه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال المانعة

(١) فى ط : أى الحالة

منه ، ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ما ينفيه ، وإنما نظم ما ينكرونه من الإحياء الأخير والرجع فى سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة تنزيلا لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل فى إزاحة العلل والأعذار .

والحياة حقيقة فى القوة الحساسة أو ما يقتضيها ، وبها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لكونها من طلائعها وكذا فيما يخص الإنسان من العقل والعلم والإيمان من حيث أنه كما لها وغايتها والموت بإزائها يطلق على ما يقابل كل مرتبة من تلك المراتب ؛ قال تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم) وقال تعالى (اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها) وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه ، و جعلنا له نورا يمشى به فى الناس) وعند وصفه تعالى بها يراد صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا ، أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك ، وقرىء ترجعون بفتح التاء والأول هو الأليق بالمقام .

﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ تقرير للإنكار وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين غير سبكه عن سبك ما قبله مع اتحادهما فى المقصود إبانة لما بينهما من التفاوت ، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل فى الحث على الإيمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم ، وما يجرى مجراها ، وفى جعل الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة على الجلالة مالا يخفى ، وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق إليه كما سلف ، أى خلق لأجلكم جميع ما فى الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها فى أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع تعالى شأنه ، والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع ما فى الأرض لانفسها إلا أن يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو ، نعم يعم كل جزء من أجزائها ، فإنه من جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء فى الكل ؛ وجميعاً حال من الموصول الثانى مؤكدة لما فيه من العموم ، فإن كل فرد من

أفراد ما فى الأرض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل فى استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس .

أما من جهة المعاش فظاهر ، وأما من جهة الدين فلما أنه ليس فى العالم شىء مما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به إلا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر فى تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن لم يستدل به أحد بالفعل .

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أى قصد إليها بإرادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من إرادة خلق شىء آخر فى تضاعيف خلقها أو غير ذلك ، مأخوذ من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل ، وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه فى خلق السفليات ، لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الأرض ودحوها . عن الحسن رضى الله عنه : خلق الله تعالى الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات ، وأمسك الفهر فى موضعها ، وبسط منها الأرضين . وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) وإما لإظهار كمال العناية بإبداع العلويات ، وقيل : استوى : استولى وملك ، والأول هو الظاهر ، وكلمة ثم للإيذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخى الزمانى ، فإن تقدمه على خلق ما فى الأرض المتأخر عن دحوها مما لا مرية فيه لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما روى عن الحسن ، والمراد بالسماء إما الأجرام العلوية فإن القصد إليها بالإرادة لا يستدعى سابقة الوجود وإما جهات العلو .

﴿ فسواهن ﴾ أى أتمهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفطور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما فى مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع ، وفيه إشارة إلى ألا تغير فيهن بالنمو والذبول كما فى السلفيات ، والضمير على الوجه الأول للسماء لأنها[1] فى معنى الجنس ، وقيل هى جمع سماءة أو سماوة ، وعلى الوجه الثانى مبهم يفسره قوله تعالى (سبع

(١) فى ط : فإنها

سموات ﴾ كما فى قولهم : ربه رجلا ، وهو على الوجه الأول بدل من الضمير ، وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق ما فى الأرض مع كونه أقوى منه فى الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر ، وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر ، وإن كان فى إبداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصى هذا ما قالوا ، وسيأتى فى حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل بإذن الله تعالى .

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض وما بينهما[1] على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة ، فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق ، وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضد .

﴿ وإذ قال ربك ﴾ بيان لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للإنكار والاستبعاد فإن خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته إلى الشكر والإيمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع ، بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي صلى الله عليه وسلم خاصة للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى إليه بأدلة العقل كالأمور المشاهدة التى نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب ، بل إنما طريقه الوحى الخاص به عليه السلام ، وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى ، وإذا ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها ، كما أن إذا موضوع لزمان نسبة مستقبلة

---

(١) فى ط : وما فيهما .

يقع فيه أخرى مثلها ، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل وانتصابه بمضمر صرح فى قوله عز وجل (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) وقوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها ، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، وقيل : ليس انتصابه على المفعولية ، بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف وإقامة الظرف مقامه .

وأياما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه عليه الكلام كأنه قيل له عليه السلام غب ما أوحى إليه ما خوطب به الكفرة من الوحى الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى : ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم عليه[٢] وينتهوا عنه ، وأما ما قيل من أن المقدر هو اشكر النعمة فى خلق السموات والأرض أو تدبر ذلك فغير سديد ضرورة أن مقتضى الكلام[٣] تذكير المخاطبين[٤] بواجب الشكر وتنبيههم على ما يقتضيه ، وأين ذاك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم، وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا ، ويأباه أنه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة ، وقيل بما سبق من قوله تعالى وبشر الذين آمنوا ، ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال إلخ ولا ريب فى أنه لا فائدة فى تقييد بدء الخلق بذلك الوقت ، وقيل بخلقكم أو بأحياكم مضمرا ، وفيه ما فيه : وقيل إذ زائدة ، ويعزى ذلك إلى أبى عبيد ومعمر ، وقيل إنه بمعنى قد ، واللام فى قوله عز قائلا ﴿ للملائكة ﴾ للتبليغ وتقديم

---

(١) فى ١١ : به
(٢) فى ط : فيه
(٣) فى ط : المقام
(٤) فى ط : المخلين

الجار والمجرور فى هذا الباب مطرد لما فى المقول من الطول غالبا مع ما فيه من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر كما مر مرارا ، والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذى هو ملأك على أن الهمزة مزيدة كالشمائل فى جمع شمأل ، والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة ، واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة ، وقيل : على أنه مقلوب من مألك ، من الألوكة وهى الرسالة أى موضع الرسالة أو مرسل على أنه مصدر بمعنى المفعول ، فإنهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسله عز وجل ، أو بمنزلة رسله عليهم السلام ، واختلفت العقلاء فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها .

فذهب أكثر المتكلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام ، وذهب الحكماء إلى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقية ، وأنها أكمل منها قوة وأكثر علما يجرى منها مجرى الشمس من الأضواء منقسمة إلى قسمين ، قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله (يسبحون الليل والنهار لايفترون) وهم العليون المقربون ، وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرا ، فمنهم سماوية ومنهم أرضية ، وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان ، ونقل فى شرح كثرتهم أنه عليه السلام قال : « أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع » وروى أن بنى آدم عشر الجن ، وهما عشر حيوانات البر ، والكل عشر الطيور ، والكل عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم كل أولئك فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التى عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات

والأرض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس .

ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر ، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفيات عباداتهم إلا بارئهم العليم الخبير على ما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وروى أنه عليه السلام حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة فى موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون ؟ فقال جبريل : لا أدرى إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ، ثم سألا واحدا منهم منذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدرى غير أن الله عز وجل يخلق فى كل أربعمائة ألف سنة كوكبا ، وقد خلق منذ خلقنى أربعمائة ألف كوكب[1] فسبحانه من إله ما أعظم قدره وما أوسع ملكوته .

واختلف فى الملائكة الذين قيل لهم ما قيل ، فقيل : هم ملائكة الأرض وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنهم المختارون مع إبليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن ، حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم إلا قليلا ، قد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الأرض ، وخفف الله تعالى عنهم العبادة ، وأعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة ، فكان يعبد

---

(١) كل تلك الأخبار لا يراد ظاهرها فى العدد ؛ وإنما يراد منها بيان عظمة الخلق وعظمة الخالق سبحانه .

الله تعالى تارة فى الأرض وتارة فى السماء ، وأخرى فى الجنة ، فأخذه العجب، فكان من أمره ما كان ، وقال أكثر الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم إنهم(١) كل كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم المخصص وقوله تعالى :

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ فى حيز النصب على أنه مقول قال ، وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ، ولذلك عملت عمله . وفيها ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لامحالة وهى من الجعل بمعنى التصيير المتعدى إلى مفعولين . فقيل أولهما خليفة وثانيهما الظرف المتقدم على ما هو مقتضى الصناعة ، فإن مفعولى التصيير فى الحقيقة اسم صار وخبره ، أولهما الأول ، وثانيهما الثانى ، وهما مبتدأ وخبر والأصل فى الأرض خليفة ثم قيل صار فى الأرض خليفة ثم مصير فى الأرض خليفة فمعناه بعد اللتيا والتى : إنى جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كائنا فى الأرض ، فإن خبر صار فى الحقيقة هو الكون المقدر العامل فى الظرف ، ولا ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا ، وإنما الذى يقتضيه هو الإخبار بجعل آدم (عليه السلام)(٢) خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام ، فإذن قوله تعالى خليفة مفعول ثان ، والظرف متعلق بجاعل ، قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما أخر ، أو بمحذوف وقع حالا مما بعده لكونه نكرة ، وأما المفعول الأول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما فى قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) حذف فيه المفعول الأول وهو ضمير الأموال لدلالة الحال عليه وكذا فى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) حيث حذف فيه المفعول الأول لدلالة يبخلون عليه . أى لا يحسبن البخلاء

---

(١) فى الأصل : فى أنهم خطأ .

(٢) سقطت من ط .

بجعلهم هو خيراً لهم ولا ريب فى تحقق القرينة ههنا ، أما إن حمل على الحذف عند وقوع المحكى فهى واضحة لوقوعه فى أثناء ذكره عليه السلام على ما سنفصله ، كأنه قيل : إنى خالق بشرا من طين وجاعل فى الأرض خليفة ، وإما إن حمل على أنه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل إياه خليفة فى الأرض لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ما ذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) : إن قلت : كيف صح أن يقول لهم بشرا وماعرفوا ما البشر ولا عهدوا به ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى . فحيث جاز الاكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ، ويجوز أن يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو خليفة ، وحال الظرف فى التعلق والتقديم كما مر ، فحينئذ لا يكون ما سيأتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة ، فإنه روى أنه تعالى لما قال لهم : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال تعالى يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا ما قالوا والله تعالى أعلم .

والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة ، والمراد به إما آدم عليه السلام وبنوه ، وإنما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كمضر وهاشم ومنه الخلافة فى قريش وإما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته ، والمراد بالخلافة إما الخلافة من جهته سبحانه فى إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا لحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم ، وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيه ، وإما الخلافة ممن كان فى الأرض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع .

﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عما تنساق إليه الأذهان كأنه قيل : فماذا

قالت الملائكة حينئذ ، فقيل : قالوا ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟ وهو أيضاً من الجعل المتعدى إلى اثنين ، فقيل فيهما ما قيل فى الأول ، والظاهر أن الأول كلمة من ، والثانى محذوف ثقة بما ذكر فى الكلام السابق كما حذف الأول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم :

لا تخلنا على عزائك إنا ‌ ‌ ‌ طالما قد وشى بنا الأعداء

بحذف المفعول الثانى أى لا تخلنا جازعين على عزائك : والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة . والظرف الأول متعلق بتجعل وتقديمه لما مر مرارا والثانى بيفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن فى استخلاف المفسد فى محل إفساده من البعد ما ليس فى استخلافه فى غيره ، هذا وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو كلمة من ، وأنت خبير بأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد فى الأرض ، كيف لا وإن ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم منه يقضى ببطلانه حتما إذ لا صحة لدعوى الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون ، بل مداره أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها بإجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شأن بنى نوعه الإفساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وإن كان منزها عن ذلك إلا أن استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التى لا تخلو عنه غالبا ، وإنما أظهروا تعجبهم استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التى بدت على تلك المفاسد وألغتها ، واستخبارا عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التى جعلته أهلا لذلك ، كسؤال المعلم عما ينقدح فى ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه ولا شكا فى اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالا ، ولا طعنا فيه عليه السلام ولا فى ذريته على وجه الغيبة ، فإن منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك ، قال تعالى (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وإنما عرفوا ما قالوا إما بإخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل ، أو بتلق من اللوح ، أو باستنباط عما ارتكز فى عقولهم من اختصاص

الحكمة(١) بهم ، أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر .

﴿ ويسفك الدماء ﴾ السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب، والأولان مختصان بالدم ، بل لا يستعمل أولهما إلا فى الدم المحرم ، أى يقتل النفوس المحرمة بغير حق ، والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظعه وقرىء يسفك بضم الفاء ، ويسفك ويسفك من أسفك وسفك ، وقرىء يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع إلى من موصولة أوموصوفة أى يسفك الدماء فيهم،

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يجد فى خدمةمولاه وهو يأمر بها غيره أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها . كأنه قيل أتستخلف من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا ، والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر ، فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التى رذيلتها الإفراطية الفساد فى الأرض والقوة الغضبية التى رذيلتها الإفراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما إذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير [فإنه] يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عندانفرادها فى أفاعيلها كالإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات ، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة . والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادا وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح فى الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ، ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس فى الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ،ويقال قدسه أى طهره فإن مطهر الشيء مبعده عن الأقذار ، والباء فى بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير ، أى ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك

---

(١) فى ط . العصمة

ملتبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة ، فالتسبيح لإظهار صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الإنعام ، واللام فى لك إما مزيدة والمعنى نقدسك ، وإما صلة للفعل كما فى سجدت لله وإما للبيان كما فى سقيا لك ، فتكون متعلقة بمحذوف ، أى نقدس تقديسا لك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك عما لا يليق بك ، وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك ، كأنهم قابلوا الفساد الذى أعظمه الإشراك بالتسبيح وسفك الدماء الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا[1] بذلك ولا إظهارا للمنة بل بيانا للواقع .

﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم مالا يعلمون من الأشياء كائنا ما كان ، فإن ذلك مما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه لاسيما بطريق التوكيد ، بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام معانى مستدعية لاستخلافه ، إذ هو الذى خفى عليهم وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد ، فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعانى ، والمعنى : إنى أعلم مالا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه ، وإنما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلا إن فيه ما يقتضيه من غير تعرض لإحاطته تعالى وغفلتهم عنه تفخيما لشأنه وإيذانا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة ، وقيل معناه إنى أعلم من المصالح فى استخلافه ما هو خفى عليكم ، وأن هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة ، وأنت خبير بأنه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى اشتمال هذا الفعل لحكمة ما ، وذلك مما لا يليق بشأنهم فإنهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة ما ، ولكنهم مترددون فى أنها

(١) فى ١١ : لاقدحا

ماذا ؟ هل هو أمر راجع إلى محض حكم الله عز وجل ، أو إلى فضيلة من جهة المستخلف ؟ فبين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الإجمال والإبهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ، ثم أبرز لهم طرفا منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وينزاح شبهتهم بالكلية .

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ شروع فى تفصيل ماجرى بعد الجواب الإجمالى تحقيقا لمضمونه وتفسيراً لإبهامه وهو عطف على قال ، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مر من المقاولة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضر منه وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام ، بأن قيل إثر نفخ الروح فيه : إنى جاعل إياه خليفة فقيل ما قيل كما أشير إليه ، وإيراده عليه السلام باسمه العلمى لزيادة تعيين المراد بالخليفة ، ولأن ذكره بعنوان الخلافه لايلائم مقام تمهيد مباديها ، وهو اسم أعجمى والأقرب أن وزنه فاعل كشالخ وعاذر وعابر وفالغ لا أفعل . والتصدى لاشتقاقه من الأدمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الأسوة ، أو من أديم الأرض بناء على ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من : أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم ، ولذلك اختلفت ألوان ذريته أومن الأدم والأدمة بمعنى الألفة تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس ، ويعقوب من العقب ، وإبليس من الإبلاس ، والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشىء ودليلا يرفعه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال ، واستعماله عرفا فى اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركبا مخبرا عنهأوخبرا أو رابطة بينهما ، واصطلاحا فى المفرد الدال على معنى فى نفسه غير مقترن بالزمان والمراد ههنا إما الأول أو الثانى ، وهو مستلزم للأول ، إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعانى مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولايحصل ذلك بمجرد إفاضة المعلم ، بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر فى تفسير

الهدى ، وهو السر فى إيثاره على الإعلام والإنباء ، فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذى يشترك فيه البشر والملك ، وبه يظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبلتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبراً فمعنى تعليمه تعالى إياه أن يخلق فيه إذ ذاك بموجب استعداده علماً ضروريا تفصيليا بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها ، أو يلقى فى روعه تفصيلا أن هذا فرس ، وشأنه كيت وكيت ، وذاك بعير وحاله ذيت وذيت إلى غير ذلك من أحوال الموجودات ، فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة .

قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم: علمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وحتى[1] منفعة كل شىء إلى جنسه . وقيل أسماء ما كان وماسيكون إلى يوم القيامة ، وقيل : معنى قوله تعالى وعلم آدم الأسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها ، فيكون مامر من المقاولة قبل خلقه عليه السلام . وقيل التعليم على ظاهره ولكن هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح وعلمه الخ ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ الضمير للمسميات المدلول عليها بالأسماء كما فى قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرىء عرضهن وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها فى الحديث : أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ، ولعله عز وجل عرض عليهم من

---

(١) فى ط : وانحى .

أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون أنموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها .

﴿ فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾ تبكيتا لهم وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة ، فإن التصرف والتدبير وإقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والإنباء إخبار فيه إعلام ، ولذلك يجرى مجرى كل منهما والمراد ههنا ماخلا عنه ، وإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها ، فإن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبىء عنه مقالكم ، والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الإخبار ، فإن أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء مافى الأرض ، وأما ما قيل من أن المعنى فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفا كين للدماء فليس مما يقتضيه المقام ، وإن أول بأن يقال فى زعمكم أنى أستخلف من غالب أمره الإفساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى ، إذ لا تعلق له بأمرهم بالإنباء . وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه .

﴿ قالوا ﴾ استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ ، هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أولا ؟ فقيل : قالوا ﴿ سبحانك ﴾ قيل هو علم للتسبيح ولا يكاد يستعمل إلا مضافا وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والألف والنون المزيدتين كما فى قوله :

* سبحان من علقمة الفاخر *

وأما فى قوله :

* سبحانه ثم سبحانا نعود له *

فقيل صرفه للضرورة ، وقيل إنه مصدر منكر كغفران ، لا اسم مصدر ، ومعناه على الأول نسبحك عما لايليق بشأنك الأقدس من الأمور التى من جملتها خلو أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسبيحا ناشئا عن كمال طمأنينة النفس والإيمان باشتمال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة ، وعلى الثانى تنزهت عن ذلك ناشئا عن ذاتك ، وأرادوا به أنهم قالوه عن إذعان لما علموا إجمالا بأنه عليه السلام يكلف ما كلفوه ، وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة ، وقوله عز وعلا (لا علم لنا إلاما علمتنا) اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه ، إذ معناه لا علم لنا إلاما علمتناه بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا ، وما فى ما علمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ، ولقد نفوا عنهم العلم بالأسماء على وجه المبالغة حتى[1] لم يقتصروا على بيان عدمه بأن قالوا مثلا لاعلم لنا بها ، بل جعلوه من جملة مالايعلمونه ، وأشعروا بأن كونه من تلك الجملة غنى عن البيان ﴿إنك أنت العليم﴾ الذى لايخفى عليه خافية ، وهذا إشارة إلى تحقيقهم لقوله تعالى : (إنى أعلم ما لاتعلمون) ﴿الحكيم﴾ أى المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر ، أو صفة للأول ، وأنت ضمير الفصل لا محل له من الإعراب ، أوله محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء ، أو لما بعده كما قاله الكسائى ، وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت ، وقيل مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة خبر إن ، وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفى عليهم ، فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الأرض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور

---

(١) فى ط : حيث

فلك خلافة الحكيم الذى لايفعل إلا ماتقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على مافى الأرض وبناء أمر الخلافة عليها .

﴿قال﴾ استئناف كما سبق[١] ﴿ يا آدم أنبئهم﴾ أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع فى أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضاً وهو ظهور فضل آدم عليهم ، عليهم السلام ، إبانة لما بين الأمرين من التفاوت الجلى وإيذانا بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج إلى مايجرى مجرى الامتحان ، وأنه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره وقرىء بقلب الهمزة ياء وبحذفها أيضاً والهاء مكسورة فيهما ﴿ بأسمائهم﴾ التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام ، للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحققه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل (فلما رآه مستقراً عنده) بعد قوله سبحانه (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) وإظهار الأسماء فى موضع[٢] الإضمار لإظهار كمال العناية بشأنها ، والإيذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد ، فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلعثم فى شىء من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام ، فلما أنبأهم بذلك .

﴿قال﴾ عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالى واستحضارا له

---

(١) فى ط : سلف

(٢) فى ط : موقع

﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض﴾ ولكن لا لتقرير نفسه كما فى قوله تعالى (ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا) ونظائره بل لتقرير مايفيده من تحقق دواعى الخلافة فى آدم عليه السلام لظهور مصداقه ، وإيراد مالا يعلمون بعنوان الغيب مضافا إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته ، مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض ، وهذا دليل واضح على أن المراد بما لاتعلمون فيما سبق ما أشير إليه هناك كأنه قيل ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة مالاتعلمونه فيه هو هذا الذى عاينتموه ، وقوله تعالى : ﴿وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون﴾ عطف على جملة ألم أقل لكم لاعلى أعلم ، إذ هو غير داخل تحت القول ، وما فى الموضعين موصولة حذف عائدها أى أعلم ما تبدونه وما تكتمونه ، وتغيير الأسلوب للإيذان باستمرار كتمهم ، قيل المراد بما يبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لايخلق خلقا أفضل منهم .

روى أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه منه وقيل هو ما أسره إبليس فى نفسه من الكبر وترك السجود ، فإسناد الكتمان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم ، قالوا : فى الآية الكريمة دلالة على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة ، وأن ذلك هو المناط للخلافة ، وأن التعليم يصح إطلاقه على الله تعالى . وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به ، وأن اللغات توقيفية إذ الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم وتعليمها ظاهر فى إلقائها على المتعلم مبينا له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع وماهو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لزم التكرار وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا ذلك فى الطبقة العليا منهم وحملوا على

ذلك قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها .

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ عطف على الظرف الأول منصوب بما نصبه من المضمر : أو بناصب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة ، أى واذكروقت قولنا لهم ، وقيل بفعل دل عليه الكلام ، أى أطاعوا وقت قولنا الخ ، وقد عرفت ما فى أمثاله ، وتخصص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر إيراده على منهاج ما قبله من الأقوال المحكية المتصلة به للإيذان بأن مافى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها ، والالتفات إلى التكلم لإظهار الجلالة وتربية المهابة مع مافيه من تأكيد الاستقلال وكذا إظهار الملائكة فى موضع الإضمار ، والكلام فى اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر ، وقرىء بضم تاء الملائكة إتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى : (اسجدوا لآدم) كما قرىء بكسر الدال فى قوله تعالى : الحمد لله إتباعا لكسر الكسر اللام وهى لغة ضعيفة ، والسجود فى اللغة الخضوع والتطامن وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة ، فقيل أمروا بالسجود له عليه والسلام على وجه التحية تعظيما له واعترافا بفضله وأداء لحق التعليم واعتذارا عما وقع منهم فى شأنه ، وقيل أمروا بالسجود له تعالى وإنما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه ، فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للمبدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحانى بالعالم الجسمانى وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو فى قوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس) والأول هو الأظهر ، وقوله عز وجل ﴿ فسجدوا ﴾ عطف على قلنا ، والفاء لإفادة مسارعتهم إلى

الامتثال وعدم تلعثمهم فى ذلك ، روى عن وهب أن أول من سجد جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام وقوله تعالى ﴿ إلا إبليس ﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ، ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو منهم ، أو لأن الجن أيضا كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم ، أو منقطع : وهو اسم أعجمى ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقا من الإبلاس وهو إلباس قال إنه مشبه بالعجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الأعجمى .

واعلم أن الذى تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الأعراف من قوله تعالى (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) الآية ، والتى فى سورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى : (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) الآية ، أن سجود الملائكة إنما ترتب على الأمر التنجيزى الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه ألبتة كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذى به ورد الأمر التعليقى ، ولكن ما فى سورة الحجر من قوله عز وعلا (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وما فى سورة ص من قوله تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) إلى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الأمر التعليقى من غير أن يتوسط بينهما شىء غير ما تفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام .

وقد روى عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة بحمل ما فيها من الأمر على حكاية الأمر التعليقى بعد تحقق

المعلق به إجمالا . فإنه حينئذ يكون فى حكم التنجيز يأباه ما فى سورة الأعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الأمر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليق والاعتذار بحمل التراخى على الرتبى أو التراخى فى الإخبار أو بأن الأمر التعليقى قبل تحقق المعلق به لما كان فى عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث بعد تحققه فحكى على صورة التنجيز يؤدى بعد اللتيا والتى إلى أن ماجرى بينه وبينهم عليهم السلام فى شأن الخلافة وماقالوا فيه وما سمعوا إنما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروج إبليس من البين باللعن المؤبد لعناده ، وبعد مشاهدتهم لذلك كله عيانا وهل هو إلا خرق لقضية العقل والنقل ، والالتجاء فى التفصى عنه إلى تأويل نفخ الروح بحمله على مايعم إفاضة ما به حياة النفوس التى من جملتها تعليم الأسماء تعسف ينبىء عن ضيق المجال .

فالذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظم[1] الأنيق بعد التصفح فى مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون أن سجودهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزى المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبنى على المحاورة المسبوقة بالإخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك فى سلك ما نيط به الأمر التعليقى من التسوية ونفخ الروح ، إذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه ، فإن الفاء الجزائية ليست بنص فى وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء ، لقوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا) الآية وبعدم وجوب إقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى : (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) بل إنما الوجوب عند دخول الوقت . كيف لا والحكمة الداعية إلى ورود ما نحن فيه من الأمر التعليقى إثر ذى أثير إنما هى حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل فى شأنه عليه السلام ليتدبروا فى أحواله طرا ، ويحيطوا

(١) فى الأصل : النظر

بما لديه خبراً ، ويستفهموا ما عسى يستبهم عليهم فى أمره عليه السلام لا بتنائه على حكم أبيه ، وأسرار خفية طويت عن علومهم ، ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الأمر التنجيزى وتحتم الامتثال ، وقد قالوا بحسب ذلك ما قالوا وعاينوا ماعاينوا ، وعدم نظم الأمر التنجيزى فى سلك الأمور المذكورة فى السورتين عند الحكاية لا يستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الأمر التعليقى عند حكاية الأمر التنجيزى فى السورة الكريمة المذكورة لا يوجب عدم مسبوقيته به ، فإن حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة فى الكتاب العزيز ، وناهيك بما نقل فى توجيه قوله تعالى : (بشرا) مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير إليه مع أنه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به فى مواضع عديدة فلعله قد ألقى إليهم ابتداء جميع ما يتوقف عليه الأمر التنجيزى إجمالا بأن قيل مثلا إنى خالق بشرا من كذا وكذا وجاعل إياه خليفة فى الأرض ، فهناك ذكروا فى حقه عليه السلام ما ذكروا ، فأيده الله عز وجل بتعليم الأسماء فشاهدوا منه ماشاهدوا ، فعند ذلك ورد الأمر التنجيزى اعتناء بشأن المأمور به وتعيينا لوقته ، وقد حكى بعض الأمور فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر ، والذى يحسم مادة الاشتباه أن ما فى سورة ص من قوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) الخ ، بدل من قوله تعالى (إذ يختصمون) فيما قبله من قوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) أى بكلامهم عند اختصامهم والمراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور الأمة ، وباختصامهم ماجرى بينهم فى شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاول الذى من جملته ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ما ذكر فيه تفصيلا من الأمر التعليقى ، وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام وعناد إبليس وما تبعه من لعنه وإخراجه من

بين الملائكة ، وماجرى بعده من الأفعال والأقوال ، وإذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس المستتبعة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الإنباء بالأسماء حينئذ ، فهو إذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما بأحد الطريقين والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر .

﴿أبى واستكبر﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد والتأمل[1] والإباء الامتناع بالاختيار ، والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره ، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع ، أي امتنع عما أمر به واستكبر من أن يعظمه أو يتخذه وصلة فى عبادة ربه وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر فى سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به ، وفى سورة الحجر على ذكر الإباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين ﴿وكان من الكافرين﴾ أى فى علم الله تعالى ، إذ كان أصله من كفرة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الإباء والاستكبار ، أو صار منهم باستقباح أمره تعالى إياه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله (أنا خير منه) حين قيل له (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين) لا بترك الواجب وحده فالجملة معطوفة على ماقبلها ، وإيثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الإباء والاستكبار كفر لا أنهما سببان له كما تفيده الفاء .

﴿ وقلنا﴾ شروع فى حكاية ماجرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ماجرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليس من الأقوال والأفعال ، وقد تركت حكاية توبيخ إبليس وجوابه ولعنه واستنظاره[2] وإنظاره اجتزاء بما

---

(١) فى ط : والتأمل (٢) فى ط : واستظهاره

فصل فى سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدح فى ذلك اختلاف وقتيهما ، فإن المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة إذ زمان ممتد واسع للقوابن ، وقيل هو عطف على إذ قلنا بإضمار إذ ، وهذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء فى قوله تعالى ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به ، وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته فى مباشرة المأمور به ، واسكن من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف فى وقت خلق زوجه . فذكر السدى عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكنها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعا من جانبه الأيسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة ، فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى. فقالت الملائكة تجربة لعلمه : من هذه ؟ قال : امرأة، قالوا : لم سميت امرأة قال : لأنها من المرء أخذت، فقالوا ما اسمها ؟ قال : حواء، قالوا: لم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث الله تعالى جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور ، حتى أدخلوهما الجنة ، وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب ، لأنها المعهودة ، وقيل هى جنة بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان ، خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما فى قوله تعالى (اهبطوا مصرا) لما أن خلقه عليه السلام كان فى الأرض بلا خلاف ولم يذكر فى هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير ، لما أنه من أعظم النعم ، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس . وقيل إنها كانت فى السماء السابعة ، بدليل اهبطوا ، ثم إن

الإهباط الأول كان منها إلى السماء الدنيا ، والثانى منها إلى الأرض ، وقيل الكل ممكن ، والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع .

﴿ وكلا منها ﴾ أى من ثمارها ، وإنما وجه الخطاب إليهما تعميما للتشريف والترفيه ، ومبالغة فى إزالة العلل والأعذار ، وإيذانا بتساويهما فى مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام فى الأكل بخلاف السكنى ، فإنها تابعة له فيه ﴿ رغدا ﴾ صفة للمصدر المؤكد أى أكلا واسعاً رافها ﴿ حيث شئتما ﴾ أى أى مكان أردتما منها ، وهذا كما ترى إطلاق كلى حيث أبيح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر فى تناول ما منعا منه بقوله تعالى ﴿ ولا تقربا ﴾ بفتح الراء من قربت الشىء بالكسر أقربه بالفتح إذا التبست به وتعرضت له ، وقال الجوهرى قرب بالضم يقرب قربا إذا دنا ، وقربته بالكسر قربانا دنوت منه ﴿ هذه الشجرة ﴾ نصب على أنه بدل من اسم الإشارة ، أو نعت له بتأويلها بمشتق ، أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لا تأكلا منها وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الحنطة أو العنبة أو التينة وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث ، والأولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا ، وقرىء الشيره بكسر الشين وفتح الياء ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى وأياما كان فالقرب أى الأكل منها سبب لكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية . أو نقصوا حظوظهم بمباشرة مايخل بالكرامة والنعيم ، أو تعدوا حدود الله تعالى .

﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى أصدر زلتهما أى زلقهما وحملهما على الزلة بسببها » ونظيره عن هذه ما فى قوله تعالى (وما فعلته عن أمرى) أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها ، يقال زل عنى كذا إذا ذهب عنك ، ويعضده قراءة (أزالهما) وهما متقاربان فى المعنى . فإن الإزلال أى الإزلاق يقتضى زوال

الزوال عن موضعه ألبتة ، وإزلاله قوله لهما هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى . وقوله مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، ومقاسمته لهما إنى لكما لمن الناصحين ، وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث إليها .

واختلف فى كيفية توصله إليهما بعد ما قيل له (أخرج منها فإنك رجيم) فقيل إنه إنما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء ، وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة ، وقيل دخل فى فم الحية فدخل معها ، وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم عند الله سبحانه .

﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أى من الجنة إن كان ضمير عنها للشجرة ، والتعبير عنها بذلك للإيذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له ، أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من الكرامة والنعيم إن كان الضمير للجنة ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا) وجمع الضمير لأنهما أصل الجنس ، فكأنهما الجنس كلهم ، وقيل لهما وللحية وإبليس على أنه أخرج منها ثانيا بعدما كان يدخلها الوسوسة أو يدخلهامسارقة ، وأهبط من السماء وقرىء بضم الباء ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أى متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله أو استئناف لا محل له من الإعراب ، وإفراد العدو إما للنظر إلى لفظ البعض وإما لأن وزانه وزان المصدر كالقول ﴿ ولكم فى الأرض ﴾ التى هى محل الإهباط والظرف متعلق بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار ﴿ مستقر ﴾ أى استقرار أو موضع استقرار ﴿ ومتاع ﴾ أى تمتع بالعيش وانتفاع به ﴿ إلى حين ﴾ هو حين الموت على أن المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين ، أو القيامة ، على أنه تمتع الجنس فى ضمن بعض الأفراد والجملة كما قبلها فى كونها

حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافا .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ أى استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها ووفق لها وقرىء بنصب آدم ورفع كلمات دلالة على أنها استقبلته بلغته وهى قوله تعالى (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية . وقيل « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال يارب ألم تخلقنى بيدك؟ قال : بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك ؟ قال : بلى . قال : يارب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى . قال ألم تسكنى جنتك ؟ قال : بلى . قال : يارب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم . والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيذان بعليته لإلقاء الكلمات المدلول عليها[1] بتلقيها ﴿ فتاب عليه ﴾ أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقى الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواضع[2] الكتاب والسنة ﴿ إنه هو التواب ﴾ أى الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر إعانتهم على التوبة وأصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية ، وإذا وصف به البارى عز وجل أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ فى الرحمة وفى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه .

﴿ قلنا ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا وقع بعد قبول توبته فقيل : قلنا ﴿ اهبطوا منها جميعاً ﴾ كرر الأمر بالهبوط إيذانا بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة . ودفعاً لما عسى يقع فى أمنيته عليه

(١) فى ط عليه (٢) فى ط مواقع

السلام فى استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، وإظهارا لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق النير ، كيف لا والأول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها . والثانى مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدى إلى النجاة والنجاح ، وأما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا ، بل إنما هو دائر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه فى الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين ، فكيف بالمقترن بهما فتأمل ، وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثانى منها إلى الأرض ، ويأباه التعرض لاستقرارهم فى الأرض فى الأول ، ورجوع الضمير إلى الجنة فى الثانى وجميعاً حال فى اللفظ وتأكيد فى المعنى ، كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لا يستدعى الاجتماع على الهبوط فى زمان واحد كما فى قولك جاءوا جميعاً ، بخلاف قولك جاءوا معاً .

﴿ فإما يأتينكم من هدى ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به وإما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل فى محل الجزم بالشرط ، لأنه مبنى لاتصاله بنون التأكيد ، وقيل معرب مطلقا ، وقيل مبنى مطلقا ، والصحيح التفصيل . إن باشرته النون بنى وإلا أعرب ، نحو هل يقومان ، وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة ، والمعنى أن يأتينكم منى هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم ، وجواب الشرط قوله تعالى ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ كما فى قولك إن جئتنى فإن قدرت أحسنت إليك ، وإيراد كلمة الشك مع تحقق الإتيان لا محالة للإيذان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، بل يكفى فى وجوبه إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والأنفسية ، والتمكين من النظر والاستدلال ، أو للجرى على سنن العظماء فى إيراد عسى ولعل فى مواقع القطع والجزم والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم فى الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك ؛ لا

أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط ، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ، وإظهار الهدى مضافا إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجوب اتباعه أو لأن المراد بالثانى ما هو أعم من الهدايات التشريعية وما ذكر من إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والأنفسية كما قيل ، وقرىء هدى على لغة هذيل ولا خوف بالفتح ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ عطف على من تبع إلخ قسيم له كأنه قيل ومن لم يتبعه ، وإنما أوثر عليه ما ذكر تفظيعا لحال الضلالة وإظهارا لكمال قبحها ، وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكفرة ، والجمع بين الكفر والتكذيب للإيذان بتنوع الهدى إلى ما ذكر من النوعين ، وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات إليها لإظهار كمال قبح التكذيب بها ، أى والذين كفروا برسلنا المرسلة إليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم ، وقيل المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التى أنزلها على الأنبياء عليهم السلام ، أو أظهرها بأيديهم من المعجزات ، وقيل كفروا بالآيات جنانا وكذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها إلى الجار والمجرور والآية فى الأصل العلامة الظاهرة قال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل لأنها علامة لانفصال ما قبلها مما بعدها ، وقيل ، لأنها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال :

خرجنا من البيتين لا حى مثلنا بآيتنا نزجى النعـــاج المطافلا

واشتقاقها من أى لأنها تبين أيا من أى ، أو من أوى إليه أى رجع وأصلها أوية أو أية ، فأبدلت عينها ألفا على غير قياس أو أوية أو أيية كرمكة ، فاعلت أو آئية كقائلة ، فحذفت الهمزة تخفيفا ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصوف باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه إشعار بتميزهم بذلك الوصف تميزا مصححا للإشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل : ﴿أصحاب النار﴾ أى ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها خبره ، والجملة خبر للموصول أو اسم الإشارة بدل من الموصول ، أو عطف بيان له ، وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى : ﴿هم فيها خالدون﴾ فى حيز النصب على الحالية لورود التصريح به فى قوله تعالى : (أصحاب النار خالدين فيها) وقد جوز كونه حالا من النار لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدرة أو فى محل الرفع على أنه خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا ، وفيها متعلق بخالدون والخلود فى الأصل المكث الطويل وقد انعقد الإجماع على أن المراد به الدوام .

عناصر كفر بنى إسرائيل

﴿يا بنى إسرائيل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى طائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتذكيركلهم بالنعمة العامة لبنى آدم قاطبة بقوله تعالى (وإذ قال ربك) الخ (وإذ قلنا للملائكة) الخ لأن المعنى كما أشير إليه بلغهم كلامى واذكر لهم إذ جعلنا أباهم خليفة فى الأرض ومسجودا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الأسماء وقبلنا توبته ، والابن من البناء لأنه مبنى أبيه ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه ، فيقال أبو الحرب وبنت فكر ، وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله ، وقيل عبد الله ، وقرىء إسرائل بحذف الياء ، وإسرائيل ،

بحذفهما وإسرايل بقلب الهمزة ياء ، واسراءل بهمزة مفتوحة ، واسرئل بهمزة مكسورة بين الراء واللام ، وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرا بها .

﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ بالتفكر فيها والقيام بشكرها ، وفيه إشعار بأنهم قد نسوها بالكلية ، ولم يخطروها بالبال لا أنهم أهملوا شكرها فقط وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشريفها وإيجاب تخصيص شكرها به تعالى ، وتقييد النعمة بهم لما أن الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر إلى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضى والشكر ، قيل أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم التى سيجىء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التى أجلها إدراك عصر النبي عليه السلام ، وقرىء اذكروا من الافتعال ونعمتى بإسكان الياء وإسقاطها فى الدرج وهو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها ﴿وأوفوا بعهدى﴾ بالإيمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بحسن الإثابة ، والعهد يضاف إلى كل واحد ممن يتولى طرفيه ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثانى إلى المفعول ، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم ، وللوفاء بهما عرض عريض ، فأول مراتبه منا هو الإتيان بكلمتى الشهادة ، ومن الله تعالى حقن الدماء والأموال ، وآخرها منا الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أوفوا بعهدى فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم فى رفع الآصار والأغلال . وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب ، أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم ، فبالنظر إلى الوسائط ، وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول ، والمعنى أوفوا بما عاهدتمونى من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة ، وتفصيل

العهدين قوله تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) إلى قوله (ولأدخلنكم جنات) الخ وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد .

﴿ وإياى فارهبون ﴾ فيما تأتون وماتذرون خصوصا فى نقض العهد ، وهو آكد فى إفادة التخصيص من إياك نعبد ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئاً فارهبونى ، والرهبة خوف معه تحرز ، والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغى ألا يخاف إلا الله .

﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ أفرد الإيمان بالقرآن بالأمر به لما أنه العمدة القصوى فى شأن الوفاء بالعهود ﴿ مصدقا لما معكم ﴾ من التوراة ، والتعبير عنها بذلك للإيذان بعلمهم بتصديقه لها ، فإن المعية مئنة لتكرر المراجعة إليها والوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث أنه موافق لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش : وأما مايتراءى من مخالفته لها فى بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بحسب تفاوت الأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة ، بل هى موافقة لها من حيث أن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره وزمانه ، متضمن للحكم التى عليهـــا يدور ذلك التشريع ، وليس فى التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ما ينسخها ، وإنما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها ، بل نقول هى ناطقة بنسخ تلك الأحكام ، فإن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، فإذن مناط المخالفة فى الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ، ولذلك قال عليه السلام : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى »

وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعا .

﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أى لا تسارعوا إلى الكفر به ، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيته بطريق التلقى مما معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم ، وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون بزمانه كما سيجىء ، فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم ويجب عليكم ما لا يتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به ، ووقوع أول أول كافر به خبرا من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج ، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به ، كقولك كسانا حلة ، ونهيهم عن التقدم فى الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر ، كقولك أما أنا فلست بجاهل ، لأن المراد نهيهم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب ، أو ممن كفر بما عنده ، فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة ، وأول : أفعل لا فعل له ، وقيل أصله أوأل ، من وأل إليه إذا نجا وخلص ، فأبدلت الهمزة واوا تخفيفا غير قياسى ، أو أأول من آل فقلبت همزته واوا وأدغمت .

﴿ ولا تشتروا بآياتى ﴾ أى لا تأخذوا لأنفسكم بدلا منها ﴿ ثمنا قليلا ﴾ من الحظوظ الدنيوية ، فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى مافات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان ، قيل كانت لهم رياسة فى قومهم ورسوم وعطايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها على الإيمان ، وإنما عبر عن الشراء الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصود فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون بالباء التى تصحب الوسائل إيذانا بتعكيسهم حيث جعلوا ماهو المقصد الأصلى وسيلة ، والوسيلة مقصدا .

﴿ وإياى فاتقون ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادىء لما فى الآية الثانية فصلت بالرهبة التى هى من مقدمات التقوى ، أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين ، وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذى هو المنتهى .

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ عطف على ما قبله واللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه من المختلطين والمعنى لاتخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذى تكتبونه فى تضاعيفه ، أو تذكرونه فى تأويله ﴿ وتكتموا الحق ﴾ مجزوم داخل تحت حكم النهى كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال ، ونهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحق والإخفاء عمن لم يسمع[1] أو منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ، ويعضده أنه فى مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين ، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق إما لأن المراد بالأخير ليس عين الأول بل هو نعت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجىء فى قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) وإما لزيادة تقبيح المنهى عنه ، إذ فى التصريح باسم الحق ما ليس فى ضميره .

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم ، وليس لإيراد الحال لتقييد النهى به كما فى قوله تعالى (لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) بل لزيادة تقبيح حالهم ، إذ الجاهل عسى يعذر .

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوة ﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما بمعزل من كونه صلاة وزكاة أمرهم الله تعالى بفروع الإسلام بعد الأمر

---

(١) فى ط : يسمعه

بأصوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أى فى جماعتهم فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة ، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الأضبط بن قريع السعدى :

لا تحقرن الضعيف علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الأقارب ، وبر فى معاملة الأجانب .

﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ أى تتركونها من البر كالمنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرون سرا من نصحوه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعا فى الهدايا والصلات التى كانت تصل إليهم من أتباعهم وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ، وقال السدى : إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية ، وقال ابن جريج : كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونهما ومدار الإنكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ما عطفت هى عليه .

﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى والحال أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الآمرة بالإيمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتتلونه فلا تعقلون مافيه ، أو قبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه ، فالإنكار متوجه إلى عدم العقل[1] بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون ، فالإنكار متوجه إلى

(١) فى ١١ : الفعل

كلا الأمرين والمبالغة حينئذ من حيث الكم ، والعقل فى الأصـــل المنع والإمساك ، ومنه العقال الذى يشد به وظيف البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحراك سمى به النور الروحانى الذى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لأنه يحبسه عن تعاطى ما يقبح ويعقله على ما يحسن ، والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وإن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالى عن العقل ، والمراد بها كما أشير إليه حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لا منع الفاسق عن الوعظ يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف فى القلوب ، وكان كثيرا ما يموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه ، وكان فى بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ما وقع ثم إن العجوز لقيت الواعظ يوما فى الطريق فقالت :

لتهدى الأنام ولا تهتدى ألا إن ذلك لا ينفع

فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة فخر عن فرسه مغشيا عليه فحملوه إلى بيته فتوفى إلى رحمة الله سبحانه .

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا ما فيه مشقة من ترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلا على الله تعالى أو بالصوم الذى هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب روى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر

فزع إلى الصلاة ويجوز أن يراد بها الدعاء ﴿وإنها﴾ أى الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر كما فى قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها ﴿لكبيرة﴾ لثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴿إلا على الخاشعين﴾ الخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب وإنما لم تثقل عليهم لأنهم يتوقعون ما أعد لهم بمقابلتها فتهون عليهم ولأنهم يستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يدركون ما يجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام «وقرة عينى فى الصلاة» والجملة حالية أو اعتراض تذييلى ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ما عنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للايذان بفيضان إحسانه إليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون إليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة ورهبة وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للإشعار بعلية الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكأن الظن لما شابه العلم فى الرجحان أطلق عليه لتضمين معنى التوقع قال :

فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف جائف

وجعل خبر إن فى الموضعين اسما للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع وتقررهما عندهم ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به ﴿وأنى فضلتكم﴾ عطف على نعمتى عطف الخاص على العام لكماله أى فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أى عالمى زمانهم بما منحتهم من العلم والإيمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكا مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا ﴿واتقوا يوما﴾ أى حساب يوم أو عذاب يوم ﴿لا تجزى نفس عن

نفس شيئاً ﴾ أى لاتقضى عنها شيئا من الحقوق فانتصاب شيئاً على المفعولية
أو شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية وقرىء لاتجزى : أى لاتغنى
عنها فيتعين النصب على المصدرية وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم
والإقناط الكلى والجملة صفة يوما والعائد منها محذوف أى لاتجزى فيه ومن
لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به
ثم حذف كما حذف فى قول من قال :

فما أدرى أغيرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا

أى أصابوه ﴿ ولاتقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أى من النفس
الثانية العاصية أومن الأولى والشفاعة من الشفع كأن المشفوع له كان فردا
فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمى به الفدية لأنها
تساوى المفدى وتجزى مجزاه ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أى يمنعون من عذاب الله
عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى
من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والأناسى والنصرة
ههنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكانه أريد بالآية نفى أن
يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فإنه إما أن يكون قهرا أولا
والأول النصرة ، والثانى إما أن يكون مجانا أولا ، والأول الشفاعة والثانى
إما أن يكون بأداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو بأداء غيره وهوأن
يعطى عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لأهل الكبائر
والجواب أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة فى الشفاعة والأحاديث المروية
فيها ويؤيده أن الخطاب معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الأنبياء
يشفعون لهم ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل فى قوله
تعالى (نعمتى التى أنعمت عليكم) من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا
وقت تنجيتنا إياكم أى آباءكم فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم وقرىء أنجيتكم
وأصل آل أهل لأن تصغيره أهيل وخص بالإضافة إلى أولى الأخطار كالأنبياء

عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس
وقيصر لملك الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل إذا
عتا وتمرد وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا
من بقايا عاد وقيل إنه كان عطارا أصفهانيا ركبته الديون فأفلس فاضطر إلى
الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى فى ظاهره حملا
من البطيخ بدرهم ، وفى نفسه بطيخة بدرهم فقال فى نفسه إن تيسر لى أداء الدين
فهذا طريقه فخرج إلى السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به إلى السوق فكل
من لقيه من المكاسين أخذ منه بطيخة فدخل المصر ومامعه الا بطيخة فباعها
بدرهم ومضى لوجهه ورأى أهل البلد متروكين سدى لايتعاطى أحد سياستهم
وكان قد وقع بهم وباء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض
لأوليائه فقال أنا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطونى خمسة دراهم
فدفعوها إليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع فى مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما
ولم يتعرض له قط إلى أن تعرض يوما لأولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب
من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به إلى فرعون فقال
من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمنى أحد وإنما فعلت مافعلت ليحضرنى
أحد إلى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا
المقدار من المال فأحضره ودفعه إلى فرعون فقال ولنى أمورك ترنى أمينا
كافيا فولاه إياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت
أحوال الرعية ولبث فيهم أمداً طويلا وترامى أمره فى العدل والصلاح فلما مات
فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان
بينهما أكثر من أربعمائة سنة ﴿يسومونكم﴾ أى يبغونكم من سامه خسفاً
إذا أولاه ظلما وأصله الذهاب فى طلب الشىء ﴿سوء العذاب﴾ أى أفظعه
وأقبحه بالنسبة إلى سائره والسوء مصدر من ساء يسوء ونصبه على المفعولية
ليسومونكم والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما

جميعا لاشتمالها على ضميريهما ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك ترك العاطف بينهما وقرىء يذبحون بالتخفيف وإنما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعون رأى فى المنام أو أخبره الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل شيئاً قيل قتلوا بتلك الطريقة ألف مولود وتسعين ألفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة ﴿ وفى ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء أو إلى الإنجاء منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الأول معنى قوله تعالى ﴿ بلاء ﴾ محنة وبلية وكون استحياء نسائهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الأعمال الشاقة وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان ما يجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما ﴿ من ربكم ﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وبتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معا ﴿ عظيم ﴾ صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم ، وفى الآية الكريمة تنبيه على أن ما يصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصبر على المضار ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم كقوله تعالى (تنبت بالدهن) أو بسبب إنجائكم وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك وقرىء بالتشديد للتكثير لأن المسالك كانت اثنى عشر بعدد الأسباط ﴿ فأنجيناكم ﴾ أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل كما يصرح[1] به العدول إلى صيغة الأفعال بعد إيراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قوله تعالى :

---

(١) فى ط : كما يلوح

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أريد فرعون وقومه وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ ذلك أو غرقهم وإطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التى قذفها البحر إلى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا روى أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى ببنى اسرائيل فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده وصادفوهم على شاطىء البحر فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه بها فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا فسلكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلا نعلم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل إليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ما غشيهم واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ما هى عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ لما عادوا إلى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراه ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشراً من ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثى وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرىء وعدنا ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ بتسويل السامرى إلها ومعبودا وثم للتراخى الرتبى ،

﴿من بعده﴾ أى من بعد مشيه إلى الميقات على حذف مضاف ﴿وأنتم ظالمون﴾ بإشراككم ووضعكم للشيء فى غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم أو اعتراض تذييلى أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجيء لازما قال :

عرفت المنزل الخالى عفا من بعد أحوال
عفاه كل هتان كثير الوبل هطال

وقوله تعالى : ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد الاتخاذ الذى هو متناه فى القبح للإيذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم ﴿لعلكم تشكرون﴾ لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين الحق والباطل وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين الحق والباطل فى الدعوى أو بين الكفر والإيمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم بدر ﴿لعلكم تهتدون﴾ لكى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ بيان لكيفية وقوع العفو المذكور ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ أى معبودا ﴿فتوبوا﴾ أى فاعزموا على التوبة ﴿إلى بارئكم﴾ أى إلى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير إما بطريق التفصى كما فى برىء ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تسترد هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ تماما لتوبتكم بالبخع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضا وقيل أمر من لم يعبد العجل بقتل من عبده . يروى أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على

المضى لأمر الله تعالى فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لايتباصرون بها فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين الفا والفاء الأولى للتسبيب والثانية للتعقيب ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التوب والقتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ لما أنه طهرة عن الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه فإن مبنى الجميع على التكلم إلى الغيبة ليكون ذريعة إلى إسناد الفعل إلى ضمير بارئكم المستتبع للايذان بعلية عنوان البارئية والخلق والإحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم وإنما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم هذا وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بمعزل من اللياقة بجلالة شأن التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة .

﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ تعليل لما قبله أى الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الإنعام عليهم ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك﴾ تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لن نؤمن لأجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به إعطاء الله إياه التوراة أو تكليمه إياه أو أنه نبى أو أنه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات

ونصبها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول. وقرىء بفتح الهاء على أنها مصدر كالغلبة أو جمع كالكتبة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل ، روى أنهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهرون فيه تلك التوبة فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه ، وكان كلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع أحد من السبعين النظر إليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا في الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الأجسام وتتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة في الجهات والأحياز ولا ريب في استحالته إنما الممكن في شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين في الآخرة وللأفراد من الأنبياء الذين بلغوا في صفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنهم وهم في جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس في بعض الأحوال في الدنيا قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت إليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتا بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي ما أصابكم بنفسه أو بآثاره ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد

يكون من الإغماء وقد يكون من النوم كما فى قوله تعالى (ثم بعثناهم لنعلم) الخ ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس الله تعالى .

﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلها وذلك أنه تعالى سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ أى الترنجبين والسمانى وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ من مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿وما ظلمونا﴾ كلام عدل بهم عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بالكفران إذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر ﴿ وإذ قلنا ﴾ تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت قولنا لآبائكم إثر ما أنقذناهم من التيه ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ منصوبة على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الأخفش وهى بيت المقدس وقيل أريحا ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ أى واسعا هنيئا ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الإقامة والسكنى فيؤول إلى ما فى سورة الأعراف من قوله تعالى اسكنوا هذه القرية ﴿وادخلوا الباب﴾ أى باب القرية على ما روى من أنهم دخلوا أريحاء فى زمن موسى عليه السلام كما سيجىء فى سورة المائدة أو

باب القبة التى كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿سجدا﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكرا على إخراجهم من التيه ﴿وقولوا حطة﴾ أى مسئلتنا أو أمرك حطة وهى فعلة من الحط كالجلسة وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على أنها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا فى هذه القرية ونقيم بها ﴿نغفر لكم خطايا كم﴾ لما تفعلون من السجود والدعاء وقرىء بالياء والتاء على البناء للمفعول وأصل خطايا خطايىء كخضايع فعند سيبويه أبدلت الياء الزائدة همزة بين ألفين فأبدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر ﴿وسنزيد المحسنين﴾ ثوابا جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد إيذانا بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله وأنه يفعله لا محالة ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿قولا﴾ آخر مما لا خير فيه روى أنهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالو بالنبطية حطا سمقاسا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله عز وجل ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولا وإنما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقا لمخالفتهم وتنصيصا على المغايرة من كل وجه ﴿فأنزلنا﴾ أى عقيب ذلك ﴿على الذين ظلموا﴾ بما ذكر من التبديل وإنما وضع الموصول موضع الضمير العائد إلى الموصول الأول للتعليل والمبالغة فى الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى ﴿رجزا من السماء﴾ أى عذابا مقدرا منها والتنوين للتهويل والتفخيم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وتعليل إنزال الرجز به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيذان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو فى الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز فى الأصل ما يعاف عنه وكذلك الرجس وقرىء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون

روى أنه مات به فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك فى التيه حين استولى عليهم العطش الشديد وتغيير الترتيب لما أشير إليه مرارا من قصد إبراز كل من الأمور المعدودة فى معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعى الترتيب الوقوعى لفرض أن الكل أمر واحد أمر بذكره واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لأجل قومه ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين تسيل كل عين فى جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر إثنى عشر ميلا أو كان حجرا أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذى فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة فأشار إليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجرا من الحجارة وهو الأظهر فى الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فييبس فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطاشا ، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع فى ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة ﴿ فانفجرت ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب أى فضرب فانفجرت ﴿ منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فإن ضربت فقد انفجرت فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضاً لغتان ﴿ قد علم كل أناس ﴾ كل سبط ﴿ مشربهم ﴾ عينهم الخاصة بهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ على إرادة القول ﴿ من رزق الله ﴾ هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده لأنه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ويأباه

أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ما سيطلبونه وإضافته إليه تعالى مع استناد الكل إليه خلقا وملكا إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادى وإنما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا إلخ إيذانا بأن الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ولا تعثوا فى الأرض﴾ العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا فى الفساد حال كونكم ﴿مفسدين﴾ وقيل إنما قيد به لأن العثى فى الأصل مطلق التعدى وإن غلب فى الفساد وقد يكون فى غير الفساد كما فى مقابلة الظالم المعتدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حسا ﴿وإذ قلتم﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل وإخلادهم إلى ما كانوا فيه من الدناءة والخساسة وإسناد القول المحكى إلى أخلافهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ لعلهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها إذ يأباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى . روى أنهم كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية وإطرادها وتاقت أنفسهم إلى الشقاء ﴿فادع لنا ربك﴾ أى سله لأجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادى الإجابة ﴿يخرج لنا﴾ أى يظهر لنا ويوجد والجزم لجواب الأمر ﴿مما تنبت الأرض﴾ إسناد مجازى بإقامه القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتى فى قوله تعالى ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ بيانية واقعة موقع الحال أى كائنا من بقلها الخ وقيل بدل بإعادة الجار والبقل ما تنبت الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم وقرىء قثائها بضم القاف وهو لغة فيه ﴿قال﴾ أى الله تعالى أو موسى عليه السلام إنكارا عليهم وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿أتستبدلون﴾ أى أتأخذون لأنفسكم وتختارون .

﴿ الذى هو أدنى ﴾ أى أقرب منزلة وأدون قدرا سهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل بعيد المحل وبعيد الهمة وقرىء أدنأ من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة ﴿ بالذى هو خير ﴾ أى بمقابلة ماهو خير فإن الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) وليس فيه ما يدل قطعا على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ أمروا به بيانا لدناءة مطلبهم أو إسعافا لمرامهم أى انحدروا إليه من التيه يقال هبط الوادى وقرىء بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين وقيل أريد به العلم وإنما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير منون ، وقيل : وأصله مصرايم فعرب ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ تعليل للأمر بالهبوط أى فإن لكم فيه ماسألتموه ولعل التعبير عن الأشياء المسئولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل فإنه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أى جعلتا محيطتين بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقهما بهم وجعلهما ضربة لازب لاتنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين إما على الحقيقة ، وإما لخوف أن تضاعف جزيتهم ﴿ وباءوا ﴾ أى رجعوا ، ﴿ بغضب ﴾ عظيم وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أى صار حقيقاً بأن يقتل بمقابلته ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ﴿ بأنهم ﴾

بسبب أنهم ﴿ كانوا يكفرون ﴾ على الاستمرار ﴿ بآيات الله ﴾ الباهرة التى هى المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد ومالم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق الإيذان بأن ذلك عندهم أيضا بغير الحق إذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو فى العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أى جرهم العصيان والتمادى فى العدوان إلى ما ذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فإن صغار الذنوب إذا دووم عليها أدت إلى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحرى كبارها وقيل كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم كما أنه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله تعالى وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل والباء بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو تقدم كما فى قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كان ما ذكر والذى حسن ذلك فى المضمرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذى بمعنى الذين (إن الذين آمنوا) أى بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم فى سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لاتجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً ﴿ والذين هادوا ﴾ أى تهودوا من هاد إذا دخل فى اليهودية ويهود إما عربى من هاد إذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة وإما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ والنصارى ﴾ جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرى سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح

عليه السلام أو لأنهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أونسبوا إليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهارى ﴿والصابئين﴾ هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو إن كان عربيا فمن صبأ إذا خرج من دين إلى آخر وقرىء بالياء إما للتخفيف ، وإما لأنه من صبا إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه أو من الحق إلى الباطل ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أى من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصاً بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق ﴿وعمل﴾ عملا ﴿صالحاً﴾ حسبما يقتضيه الإيمان بما ذكر ﴿فلهم﴾ بمقابلة ذلك ﴿أجرهم﴾ الموعود لهم ﴿عند ربهم﴾ أى مالك أمرهم ومبلغهم إلى كمالهم اللائق فمن أما فى محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما فى قوله تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين . . الآية) وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد ما فى الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هى خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ ، وأما فى محل النصب على البدلية من اسم إن وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت ، وفى إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات .

﴿ولا خوف عليهم﴾ عطف على جملة أجرهم أى لا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام هذا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الإسلام المخلصون منهم والمنافقون فحينئذ لا بد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء

كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كإيمان من عداهم من المنافقين ، وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقين فى الإيمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين فى استحقاق الأجور وما يتبعه من الأمن الدائم ، وأما ماقيل فى تفسيره من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فما لاسبيل إليه أصلا لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام ، وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملابسة له بالمقام قطعاً بل ربما يخل بمقتضاه من حيث دلالته على حقيته فى زمانه فى الجملة على أن المنافقين والصابئين لايتسنى فى حقهم ما ذكر ، أما المنافقون فإن كانوا من أهل الشرك فالأمر بين ، وإن كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين ، وأما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات ولوسلم أنه كان لهم دين سماوى ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يمكن إرجاع الضمير الرابط بين اسم إن وخبرها إليهم أو إلى المنافقين وارتكاب إرجاعه إلى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لا إلى كل واحدة منها قصدا إلى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملا بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم فى حيز اسم إن ليس لهم فى حيز خبرها عين ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكر لجناية أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما فى التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ عطف على قوله أخذنا أو حال أى وقد رفعنا فوقكم الطور كأنه ظلة ، روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا مافيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله عليهم حتى قبلوا .

﴿خذوا﴾ على إرادة القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى أحفظوه ولا تنسوه أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب أو اعملوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ لكى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين أو طلبا لذلك وقد مر تحقيقه ﴿ثم توليتم﴾ أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أى المفتونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة وقيل لولا فضله تعالى عليكم بالإمهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو الأنسب بما بعده وكلمة لولا إما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وحرف النفى ومعناها امتناع الشىء لوجود غيره كما أن لو لامتناعه لامتناع غيره والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم ﴿ولقد علمتم﴾ أى عرفتم ﴿الذين اعتدوا منكم فى السبت﴾ روى أنهم أمروا بأن يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه أناس منهم فى زمن داود عليه السلام فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها أيلة فإذا كان يوم السبت لم يبق فى البحر حوت إلا برز وأخرج خرطومه فإذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وبالله لقد علمتوهم حين فعلوا من قبيل جناياتكم ما فعلوا فلم نمهلهم ولم نؤخر عقوبتهم بل عجلناها ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان فى الظروف والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لأنه فى معنى ممسوخين وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى

كمثل الحمار يحمل أسفارا والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرىء قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز ﴿فجعلناها﴾ أى المسخة والعقوبة ﴿نكالا﴾ عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصصهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها أو لأهل تلك القرية وما حواليها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها ﴿وموعظة للمتقين﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ توبيخ آخر لأخلاف بنى إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لأجدادكم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ وسببه أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر فقتله بنو عمه طمعاً فى ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيى فيخبرهم بقاتله ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أو لا ؟ فقيل قالوا ﴿أتتخذنا هزوا﴾ بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرىء بالهمزة مع الضم والسكون أى أتجعلنا مكان هزؤ أو أهل هزؤ أو مهزوءاً بنا أو الهزؤ نفسه استبعاداً لما قاله واستخفافا به ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه عليه السلام بها ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا إلى الامتثال وقالوا ﴿ادع لنا﴾ أى لأجلنا ﴿ربك يبين لنا ما هى﴾ ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حيز النصب بيبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع أسماعهم ما لم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فإن ما وإن شاعت فى طلب مفهوم

الاسم والحقيقة كما فى ما الشارحة والحقيقية لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد؟ فيقال طبيب أو عالم وقيل كان حقه أن يستفهم بأى لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله ﴿قال﴾ أى موسى عليه بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحى ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول إنها﴾ أى البقرة المأمور بذبحها ﴿بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أى لا مسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فروضا أى أسنت من الفرض بمعنى القطع كأنها قطعت سنها وبلغت آخرها وتركيب البكر للأولية ومنه البكرة والباكورة ﴿عوان﴾ أى نصف لاتخل ولا ضرع قال :

طوال مثل أعناق الهوادى نواعم بين أبكار وعون

﴿بين ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين لاختصاصه بالإضافة إلى المتعدد ﴿فافعلوا﴾ أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به ﴿ما تؤمرون﴾ أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما فى قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فإن حذف الجار قد شاع فى هذا الفعل حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين وهذا الأمر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافى والأمر المكرر فقيل قالوا ﴿أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها ﴿قال﴾ أى موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجىء البيان ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ إسناد البيان فى كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة فى إجابة مسؤلهم بقولهم يبين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قانىء وفى إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال الملون لملابسته به ما لا يخفى من فضل تأكيد كأنه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى جد جده وعن الحسن

رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى (جمالة صفر) قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما أنها من مقدماته وإما لأن سواد الإبل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى ﴿تسر الناظرين﴾ كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه ﴿قالوا﴾ استئناف كنظائره ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾ زيادة استكشاف عن حالها كأنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها مما تشاركها فى الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة فى أثناء البيان ولذلك عللوه بقولهم ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ يعنون أن الأوصاف المعدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى إلى تشخيص ما هو المأمور بها ولذلك لم يقولوا إن البقر تشابهت إيذانا بأن النعوت المعدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والإدغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تتشبه وتشبه بالتذكير ومتشابه ومتشابهة ومتشبه ومتشبهة وفيه دلالة على أنهم ميزوها عن بعض ما عداها فى الجملة وإنما بقى اشتباه بشرف الزوال كما ينبىء عنه قولهم ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان إلى المأمور بذبحها وفى الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد :

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث﴾ أى لم تذلل للكراب وسقى الحرث ولاذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولا الثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لاذلول مثيرة وساقية وقرىء لاذلول بالفتح أى حيث هو كقولك مررت برجل لابخيل ولا جبان أى أى حيث هو وقرىء تسقى من أسقى ﴿مسلمة﴾ أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا إذا أخلص له ويؤيده قوله تعالى : ﴿لاشية فيها﴾ أى لالون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها

وهى فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر ﴿ قالوا ﴾ عندما سمعوا هذه النعوت ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ماعداها ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا بخلاف المرتين الأوليين فإن ماجئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة ولعلهم كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع مافصل من الأوصاف المشروحة فى المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد فى المرة الأخيرة وإلا فمن أين عرفوا اختصاص النعوت الأخيرة بها دون غيرها وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام والآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ﴿ فذبحوها ﴾ الفاء فصيحة كما فى فانفجرت أى فحصلوا البقرة فذبحوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض تذييلى ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط استفهامهم فيها . قيل مضى من أول الأمر إلى الامتثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها . روى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان براً بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير . واعلم أنه لا خلاف فى أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مبهمة وأن الامتثال فى آخر الأمر إنما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ماخرجوا عن عهدة الأمر لكن اختلف فى أن المراد المأمور به إثر ذى أثير هل هى المعينة وقد أخر البيان عن وقت الخطاب أو المبهمة ثم لحقها التغير إلى المعينة بسبب تثاقلهم فى الامتثال وتماديهم فى التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم إلى الأول تمسكا بأن الضمائر فى الأجوبة أعنى أنها بقرة إلى آخره للمعينة قطعا ومن قضيته أن يكون فى السؤال ايضا

كذلك ولا ريب فى أن السؤال إنما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هى المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر إلى المعينة فى زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وإن لم يكن المراد من أول الأمر هى المعينة والحق أنها كانت فى أول الأمر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الأمر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم» وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ثم رجع الحكم الأول منسوخا بالثانى والثانى بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالكلية وانتقاله إلى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئاً فشيئاً كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فإن الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال ﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ منصوب بمضمر كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناد القتل والتدارؤ إليهم لما مر من نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخا وتقريعا وتخصيصهما بالإسناد دون ما مر من جناياتهم لظهور قبح القتل وإسناده إلى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة ﴿ فادارأتم فيها ﴾ أى تخاصمتم فى شأنها إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أو تدافعتم بأن طرح كل واحد قتلها إلى آخر وأصله تدارأتم فأدغمت التاء فى الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ أى مظهر لما تكتمونه لا محالة والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وإنما أعمل مخرج لأنه حكاية حال ماضية ﴿ فقلنا اضربوه ﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل

أو بتأويل الشخص أو القتيل ﴿ ببعضها ﴾ أى ببعض البقرة أى بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا أول القصة كما ينبىء عنه الضمير الراجع إلى البقرة كأنه قيل وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها . فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وإنما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وإنما حكى الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جناياتهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتيات على رأيه ﴿ كذلك يحيى الله الموتى ﴾ على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضربوه فحيى وقلنا كذلك يحيى الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى فحيى مع ما عطف بها وما عطف هو لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهى الحكايه عند قوله تعالى ببعضها مع ما ماقدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ﴿ ويريكم آياته ﴾ ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكى تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها أو تعلموا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الإحياء مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل

على الله تعالى والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الأنفس ويغالى بثمنه كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وإنما الأسباب أمارات لا تأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى إماتته الموت الحقيقى فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التى هى قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة فى طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاشية لها من قبائحها بحيث يتصل أثره إلى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والجدال ﴿ثم قست قلوبكم﴾ الخطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما فى الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة وإما لأن الاستمرار على شىء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها كقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

﴿من بعد ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من إحياء القتيل أو إلى جميع ما عدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجهها نحو الحق أى من بعد سماع ذلك وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته وعلو طبقته وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين ، إما بتأويل الفريق أو لأن المراد مجرد الخطاب لا تعيين المخاطب كما هو المشهور ، ﴿فهى كالحجارة﴾ فى القساوة ، ﴿أو أشد﴾ منها ، ﴿قسوة﴾ أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد فحذف وأقيم المضاف إليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على الحجارة وإيراد الجملة اسمية مع كون ما سبق فعلية للدلالة على

استمرار قساوة قلوبهم ، والفاء إما للتعليل كما فى قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وإنما لم يقل أو أقسى منها لما فى التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين فى الشدة واشتمال المفضل على زيادة ، وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حتى كان منها ما يتفجر منه المياه العظيمة ﴿وإن منها لما يشقق﴾ أى يتشقق ﴿فيخرج منه الماء﴾ أى العيون ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أى يتردى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل فيها من الثقل الداعى إلى المركز وهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى إن الحجارة ليس منها فرد إلا وهو منقاد لأمره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لا محالة واللام فى لما لام الابتداء دخلت على اسم إن لتقدم الخبر وقرىء أن على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرىء يهبط بالضم ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ عن متعلقة بغافل ، وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية ، وهو وعيد شديد على ما هو عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة وقرىء بالياء على الالتفات وقوله تعالى ﴿أفتطمعون﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود إثر ماعددت سيئاتهم ونعيت عليهم جناياتهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أتضرب أباك لا لإنكار الوقوع كما فى قولك أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفيا أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمنكر كلا الأمرين بل إلى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر الأول مثبتا أى أتنظرون فلا تبصرون فالمنكر ترتب الثانى على الأول مع

وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ومآل المعنى أبعد أن علمتم تفاصيل شئونهم المؤيسة عنهم تطمعون ﴿ أن يؤمنوا ﴾ فانهم متماثلون فى شدة الشكيمة والأخلاق الذميمة ، لايتأتى من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم وأن مصدرية حذف عنها الجار والأصل فى أن يؤمنوا وهى مع مافى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عز وجل (فآمن له لوط) أى فى إيمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم وصلة الإيمان محذوفة لظهور أن المراد به معناه الشرعى وستقف على ما فيه من المزية بإذن الله تعالى ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ الفريق اسم جمع لاواحد له من لفظه كالرهط والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق كائن منهم وقوله تعالى ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ خبر كان وقرىء كلم الله والجملة حالية مؤكدة للانكار حاسمة لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكية فيما سلف على منهاج قوله تعالى (وهم لكم عدو) بعد قوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه ﴿ ثم يحرفونه ﴾ عن مواضعه لا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل ﴿ من بعد ماعقلوه ﴾ أى فهموه وضبطوه بعقولهم ، ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبة أصلا فلما رجعوا إلى قومهم أداه الصادقون إليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله تعالى يقول فى آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فثم للتراخى زمانا أو رتبة قال القفال سمعوا كلام الله وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا وقيل هم رؤساء أسلافهم الذين تولوا تحريف التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت النبي صلى الله عليه وسلم فى عصره وبدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتى

الماضى والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف إلا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية الكريمة لا على عهده عليه الصلاة والسلام هذا والأول هو الأنسب بالسماع والكلام إذ التوراة وإن كانت كلام الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر ، ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فيه أظهر . ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فإن وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الأنسب حينئذ أن يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى أفتطمعون فى أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال أن أسلافهم الموافقين لهم فى خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما علموه يقينا ولا يستجيبون له هيهات ومن ههنا ظهر ما فى إيثار لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ما عقلوه أو على الخطأ فى بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون ﴿ وإذا لقوا ﴾ جملة مستأنفة سيقت إثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم أو معطوفة على ماسبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل فى فعلى الشرط والجزاء حقيقة ﴿ الذين آمنوا﴾ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ﴿قالوا﴾ أى اللاقون لكن لا بطريق تصدى الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل فى تقبيح حال الساكنين أولا العاتبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم ﴿ آمنا﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وعلموا أنه النبى المبشر به وإنما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ

الآتى ﴿ وإذا خلا بعضهم ﴾ أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين ﴿ إلى بعض ﴾ آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم ، وهذا نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفا إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ، ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ، ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أتوا من السكوت ثم العتاب ﴿ قالو ﴾ أى الساكتون موبخين لمنافقيهم على ما صنعوا ﴿ أتحدثونهم ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ بما فتح الله عليكم ﴾ ماموصولة والعائد محذوف أى بينه لكم خاصة فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لايقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم إراءة للتصاب فى دينهم كما ذهب إليه عصابة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل ﴿ ليحاجوكم به ﴾ متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ ، فإن التحديث بذلك وإن كان منكرا فى نفسه ، لكن التحديث به لأجل هذا الغرض مما لا يكاد يصدر عن العاقل أى أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم به فيسكتوكم والمحدثون به وإن لم يحرموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم .

﴿ عند ربكم ﴾ أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الإخفاء لا يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بأن إلزام المؤمنين إياهم وتبكيتهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الإلزام بإرجاع الضمير فى به إلى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى أنه مدفوع بالإخفاء لا تساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل ﴿ أفلا تعقلون ﴾ من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه

الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئاً من الأشياء التى من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل هذا وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى (أفتطمعون) والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم فى إيمانهم فيأباه قوله تعالى ﴿أو لا يعلمون﴾ فإنه إلى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون إيراد خطاب المؤمنين فى أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن فى تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفى تعميمه للنبى أيضاً صلى الله عليه وسلم كما فى أفتطمعون من سوء الأدب ما لا يخفى والهمزة للإنكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق إليه الذهن والضمير للموبخين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يضمرونه فى قلوبهم فيثبت الحكم فى ذلك بالطريق الأولى ﴿وما يعلنون﴾ أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة فى اللوم والعتاب ومن ههنا تبين أن المحظور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة فى الدارين حدثوا به أم لا، لا بالتحديث به حتى يندفع بالإخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أو لهم وللموبخين أو لآبائهم المحرفين أى أيفعلون ما يفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته إسرارهم الكفر وإظهارهم الإيمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكتم أمر الله وإظهار ما أظهروه افتراء وإنما قدم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما فى الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل

شيء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) حيث قدم فيه الإخفاء على الإبداء لما ذكر من السر على عكس ماوقع فى قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإن الأصل فى تعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب يتعلق به الإسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية .

﴿ ومنهم أميون﴾ وقرىء بتخفيف الياء ، جمع أمى ، وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف فى نسبته فقيل إلى الأم بمعنى أنه شبيه بها فى الجهل بالكتابة والقراءة فإنهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال بمعنى أنه على الحالة التى ولدته أمه فى الخلو عن العلم والكتابة وقيل إلى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عامى أى على عادة العامة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين وعن على رضى الله تعالى عنه هم المجوس والحق الذى لا محيد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم إثر بيان شنائع الطوائف السالفة وقيل هى معطوفة على الجملة الحالية فإن مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن إيمانهم كما فى مضمون الجملة الحالية وما بعدها فإن الجهل بالكتاب فى منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الفرقتين الأخريين ، أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة .

﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أى لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما فى تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿إلا أمانى﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنوية أفعولة من

منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى فى قوله * تمنى كتاب الله أول ليلة * فأعلت إعلال سيد وميت ومعناها على الأول ما يقدره الإنسان فى نفسه ويتمناه وعلى الثانى ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع إذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لايعلمون الكتاب لكن يتمنون أمانى حسبما منتهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيهم الفارغة المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائهم أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه وأما حمل الأمانى على الأكاذيب المختلفة على الإطلاق من غير أن يكون لها ملابسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانى واتباع الظن عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة وبكشف كيفية إضلالهم وتعيين مرجع الكل بالآخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم ﴿فويل﴾ هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوز إظهارها البتة فإن أضيف نصب نحو ويلك وويحك وإذا فصل عن الإضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الأصمعى الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق وقيل ويل فى الدعاء عليه وويح وما بعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الأليم وعن سفيان الثورى أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره» وقال سعيد بن المسيب إنه واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قيح ودم وقيل صهريج فى جهنم وحكى الزهراوى أنه باب من أبواب جهنم وعلى

كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا ﴿للذين يكتبون الكتاب﴾ أى المحرف
أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك
كتبته بيمينى ﴿ثم يقولون هذا﴾ أى جميعاً على الأول وبخصوصه على الثانى
﴿من عند الله﴾ روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم
حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق أسافل اليهود عن
الإيمان فعمدوا إلى صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة وكانت هى فيها
حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال
أزرق سبط الشعر فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه
مخالفا لصفته عليه السلام فيكذبونه وثم للتراخى الرتبي فإن نسبة المحرف
والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل
﴿ليشتروا به﴾ أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثمناً﴾ هو ما أخذوه من الرشا
بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل وإنما عبر عن المشترى الذى هو المقصود
بالذات فى عقد المعاوضة بالثمن الذى هو وسيلة فيه إيذانا بتعكيسهم حيث
جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصودا بالذات ﴿قليلا﴾ لا يعبأ به
فإن ذلك وإن جل فى نفسه فهو أقل قليلا عندما استوجبوا به من العذاب
الخالد ﴿فويل لهم﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم
بعد الإشعار به فيما سلف بإيراد بعضه فى حيز الصلة وبعضه فى معرض الغرض
والفاء للإيذان بترتبه عليه ومن فى قوله عز وجل ﴿مما كتبت أيديهم﴾ تعليلية
متعلقة بويل أو بالاستقرار فى الخبر وما موصولة اسمية والعائد محذوف أى
كتبته أو مصدرية والأول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر
عن التحريف ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير
لما مر من التأكيد والتشديد والقصد إلى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض
لقولهم هذا من عند الله لما أنه من مبادىء ترويج ما كتبت أيديهم فهو داخل
فى التعليل به ﴿وقالوا﴾ بيان لبعض آخر من جناياتهم وفصله عما قبله مشعر
بكونه من الأكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب ﴿لن تمسنا النار﴾

فى الآخرة ﴿ إلا أياما معدودة ﴾ قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكى الأصمعى عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أن ما وجدوا فى التوراة أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم وأنهم يقطعون فى كل يوم مسيرة سنة فيكملونها ﴿ قل ﴾ تبكيتا لهم وتوبيخا ﴿ أتخذتم ﴾ بإسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها فى الدرج وبإظهار الذال وقرىء بإدغامها فى التاء ﴿ عند الله عهدا ﴾ خبرا أو وعدا بما تزعمون فإن ما تدعون لا يكون إلا بناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿ فلن يخلف الله عهده ﴾ الفاء فصيحة معربة عن شرط محذوف كما فى قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقـــد جئنا خراسانا

أى أن الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية وإظهار العهد مضافا إلى ضميره عز وجل لما ذكر أو لأن المراد به جميع عهوده لعمومه بالإضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقق مضمون كلامهم وإن كان معلقا بما لم يكد يشم رائحة الوجود قطعا أعنى اتخاذ العهد ﴿ أم تقولون ﴾ مفترين ﴿ على الله ما لا تعلمون ﴾ وقوعه وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه مالا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه للمبالغة فى التوبيخ والنكير فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى وقولهم المحكى وإن لم يكن تصريحا بالافتراء عليه سبحانه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى وأم إما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخير كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى وإما منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الإضراب.

والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما فى قوله عز وجل قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴿ بلى ﴾ إلى آخره جواب عن قولهم المحكى وإبطال له من جهته تعالى وبيان لحقيقة الحال تفصيلا فى ضمن تشريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد إظهار كذبهم إجمالا وتفويض ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم لما أن المحاجة والإلزام من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الإشعار بأنه أمر هين لا يتوقف على التوقيف وبلى حرف إيجاب مختص بجواب النفى خبرا واستفهاما ﴿ من كسب سيئة ﴾ فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر كدأب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم ﴿ وأحاطت به ﴾ من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا وقد اشتملت واستولت عليه ﴿ خطيئته ﴾ التى كسبها وصارت خاصة من خواصه كما تنبىء عنه الإضافة إليه وهذا إنما يتحقق فى الكافر ولذلك فسرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الأولى قد تطلق على ما يقصد بالذات والثانية تغلب على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ وقرىء خطيته وخطياته على القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياه وفى ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم ﴿ فأولئك ﴾ مبتدأ ﴿ أصحاب النار ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ والفاء لتضمنه معنى الشرط وإيراد اسم الإشارة المنبىء عن استحضار المشار إليه بماله من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار ومافيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والخطايا وإنما أشير إليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند إليهم فى تينك الحالتين فإن كسب السيئة وأحاطت خطيئتنا به فى حالة الانفراد وصاحبية النار فى حالة

الاجتماع أى أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازمتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى جماتها ماهم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وإنما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلا بلى إنهم أصحاب النار الخ لما فى التعميم من التهويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر من قصد الإشعار بالتعليل ﴿ هم فيها خالدون ﴾ دائما أبدا فأنى لهم التفصى عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة فى الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة إلى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب فى مقام التهويل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ جرت السنة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة فى إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والتبشير مرة والإنذار أخرى (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) شروع فى تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود بما ينادى بعدم إيمان أخلافهم وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود الموجودون فى عهد النبوة توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ على إرادة القول أى وقلنا أو قائلين لاتعبدون إلخ وهو إخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لاتعبدوا وعطف قولوا عليه وقيل تقديره أن لاتعبدوا إلخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

ويعضده قراءة ألا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قيل وحلفناهم لاتعبدون إلاالله وقرىء بالياء لأنهم غيب ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ متعلق بمضمر أى وتحسنوا أو وأحسنوا ﴿وذى القربى واليتامى والمساكين﴾ عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم ، وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر أسكنه من الحراك وأثخنه عن التقلب ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أى قولا حسنا سماه حسناً مبالغة وقرىء كذلك وحسناً بضمتين ، وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به مافيه تخلق وإرشاد .

﴿وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ هما مافرض عليهم فى شريعتهم ﴿ثم توليتم﴾ أن جعل ناصب الظرف خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بنى إسرائيل جميعاً بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فإن الخطابات السابقة لأسلافهم محكية داخلة فى حين القول المقدر قبل لاتعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم فنعيت هى عليهم ، وإن جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف التشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿إلا قليلا منكم﴾ وهم من الأسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الأخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة تذييلية أى وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق ، وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة والإقبال إلى جانب العرض ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة على ما ذكر من التغليب ونعى عليهم إخلالهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى إثر بيان مافعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه وما يجرى مجراه على سبيل الأمر فإن المقصود الأصلى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الأمر بتخصيص العبادة

به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى ﴿لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ كما قبله إخبار فى معنى النهى غير السبك لما ذكر من نكتة المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم وإخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة فضمير أنفسكم للمخاطبين حتما إذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعا إذ المحذور إنما هو إخراجهم من ديارهم لا من ديار المخاطبين من حيث أنهم مخاطبون كما يفصح عنه ماسيأتى من قوله تعالى من ديارهم وإنما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع ، وأما ضمير دماءكم فمحتمل للوجهين مفاد الأول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان فى إفادة المبالغة فتدبر ، وأما ماقيل من أن المعنى لا تباشروا ما يؤدى إلى قتل أنفسكم قصاصا ، أو ما يبيح سفك دمائكم وإخراجكم من دياركم ويصرفكم عن دياركم أو لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل فى الحقيقة ولا تقترفوا ما تحرمون به عن الجنة التى هى داركم فإنه الجلاء الحقيقى فما لا يساعده سياق النظم الكريم بل هو نص فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ثم أقررتم﴾ أى بالميثاق وما يوجب المحافظة عليه ، ﴿وأنتم تشهدون﴾ توكيد للإقرار كقولك أقر فلان شاهداً على نفسه ، وقيل وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ، ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والإقرار به والشهادة عليه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناط الإفادة اختلاف الصفات المنزلة منزلة اختلاف الذات والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية

فإن قوله عز وجل ﴿تقتلون أنفسكم﴾ الخ بيان له وتفصيل لأحوالهم المنكرة المندرجة تحت الإشارة ضمنا كأنهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون أنفسكم أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير إليه وقرىء تقتّلون بالتشديد للتكثير ﴿وتخرجون فريقا منكم﴾ الضمير، إما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم، وإما للمقتولين والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفس المخاطبين وإلا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين فى ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة فى تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جناياتهم فى نقضه ﴿من ديارهم﴾ الضمير للفريق وإيثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضا بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر فى الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد إخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هى ديارهم لامن حيث هى ديار المخرجين، وقيل هؤلاء موصول والجملتان فى حيز الصلة والمجموع هو الخبر لأنتم ﴿تظاهرون عليهم﴾ بحذف إحدى التاءين وقرىء بإثباتهما وبالإدغام وتظهرون بطرح إحدى التاءين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعاً مبينة لكيفية الإخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة ﴿بالإثم﴾ متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالإثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم وقيل هو ما ينفر عنه النفس ولايطمئن إليه القلب ﴿والعدوان﴾ وهو التجاوز فى الظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى﴾ جمع أسير وهو من يؤخذ قهرا فعيل بمعنى مفعول من الأسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح، وقد قرىء أسرى ومحله النصب على الحالية ﴿تفادوهم﴾ أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء وقرىء تفدوهم قال السدى إن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة الميثاق أن لايقتل بعضهم بعضاً ولايخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حتى كان بينهما ما كان من العداوة والشنآن فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه

فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، ولكن نستحي أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبرا عن إخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن وقيل محرم خبر لضمير الشأن وإخراجهم مرفوع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم تفسيره إخراجهم أو راجع إلى مايدل عليه تخرجون من المصدر ، وإخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير فى تخرجون أو من فريقاً أومنهما كما من بعد اعتبار القيد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة فى أمره بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل ، ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشىء من دية أو قصاص هو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق ، وأما تأخيره من الشرطية المعترضة مع أن حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلأن نظم أفاعيلهم المتناقضة فى سمط واحد من الذكر أدخل فى إظهار بطلانها ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ أى التورة التى أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للإنكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب ، وهو المفاداة ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو حرمة القتال والإخراج مع أن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقى لكون الكل من عند الله تعالى داخلا فى الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم الكريم فإن التقديم يستدعى فى المقام الخطابى أصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما وإذ ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكار والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوع قطعاً لا إيمانهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لوقيل أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد كفرهم

بالبعض ، وإيمانهم بالبعض كما يفيده أن يقال أفتجمعون بين الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس .

﴿ فما جزاء من يفعل ذلك ﴾ ما نافية ومن إن جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الإعراب وإن جعلت موصوفة فمحله الجر على أنه صفتها وذلك إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض أو إلى مافعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى ﴿ منكم ﴾ حال من فاعل يفعل ﴿ إلا خزى ﴾ استثناء مفرغ وقع خبراً المبتدأ والخزى الذل والهوان مع الفضيحة والتنكير للتفخيم وهو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ فى حيز الرفع على أنه صفة خزى أى خزى كائن فى الحياة الدنيا أو فى حيز النصب على أنه ظرف الخزى ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهار أنه لا أثر له أصلا مع الكفر ببعض ﴿ ويوم القيامة يردون ﴾ وقرىء بالتاء أوثر صيغة الجمع نظرا إلى معنى من بعد ماأوثر الإفراد نظرا إلى لفظها لما أن الرد إنما يكون بالاجتماع ﴿ إلى أشد العذاب ﴾ لما أن معصيتهم أشد المعاصى وقيل أشد العذاب بالنسبة إلى ما لهم فى الدنيا من الخزى والصغار وإنما غير سبك النظام الكريم حيث لم يقل مثلا وأشد العذاب يوم القيامة للإيذان بكمال التنافى بين جزاءى النشأتين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال من أول الأمر ، ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من القبائح التى من جملتها هذا المنكر وقرىء بالياء على نهج يردون وهو تأكيد للوعيد ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره وقوله تعالى ﴿ الذين اشتروا ﴾ أى آثروا ﴿ الحياة الدنيا ﴾ واستبدلوها ﴿ بالآخرة ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها فإن ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود إليهم منهم من بعض المنافع الدينية والدنيوية ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ دنيويا كان أو أخرويا ﴿ ولا هم ينصرون ﴾

بدفعه عنهم شفاعة أو جبرا والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق ذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكا فلم يطيقوا حملها فخففها الله تعالى لموسى فحملها ﴿ وقفينا من بعده بالرسل ﴾ يقال قفاه به إذا أتبعه إياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس وإليسع ويونس وزكريا ويحيي وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالسريانية إيشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة :

قلت لزير لم تصله مريمه ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعل إذ لم يثبت فعيل ﴿ وأيدناه ﴾ وقرىء وآيدناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق وإنما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالإنجيل كما قيل فى القرآن روحا من أمرنا وقيل باسم الله الأعظم الذى يحيي الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان حقيته وإظهار كمال قبح ما فعلوا به عليه السلام

﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ من أولئك الرسل ﴿بما لاتهوى أنفسكم﴾ من الحق الذى لا محيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح إذا أحب والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لاشىء آخر وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من الأفعال السابقة لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك أو للتعجب من شأنهم ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسول منهم بما لاتهوى أنفسكم ﴿استكبرتم﴾ عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى ﴿ففريقا﴾ منهم ﴿كذبتم﴾ من غير أن تتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار والفاء للسببية أو للتعقيب ﴿وفريقا﴾ آخر منهم ﴿تقتلون﴾ غير مكتفين بتكذيبهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر وإيثار صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للإيماء إلى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحروه وسموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم: «ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى» ﴿وقالوا﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعارا بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقباحتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ﴿قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف الذى لم يختن أى مغشاة بأغشية جبلية لايكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ما روى عن أبى عمرو من القراءة بضمتين يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى يعنون أن قلوبنا لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ رد لما قالوه وتكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم

وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة وكونهم بحيث لا ينفعهم الإلطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق وعلى الثانى بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاء العلم الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لايقبلون الحق المؤدىء إليها ﴿فقليلا مايؤمنون﴾ ما مزيدة للمبالغة أى فإيمانا قليلا يؤمنون وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ما قالوا آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره وكلاهما ليس بإيمان حقيقة وقيل أريد بالقلة العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الإيمان ﴿ولما جاءهم كتاب﴾ من القرآن وتنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل ﴿من عند الله﴾ أى كائن من عنده تعالى للتشريف ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف ﴿وكانوا من قبل﴾ أى من قبل مجيئه ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم قال ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه والسين للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم بعضا أن يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم وقوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم﴾ تكرير للأول لطول العهد بتوسط الجملة الحالية وقوله تعالى ﴿ما عرفوا﴾ عبارة عما سلف من الكتاب لأن معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح بهوإيرادالموصول دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمال مكابرتهم فإن معرفة ما جاءهم من مبادىء

الإيمان به ودواعيه لامحالة والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى : ﴿ كفروا به ﴾ جواب لما الأولى كما هو رأى المبرد أو جوابهما معا كما قاله أبو البقاء وقيل جواب الأولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية عطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبي الذى عرفوه كفروا به ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للإيذان بأن حلول اللعنة بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا إذ الكلام فيهم وأيا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ ما نكرة بمعنى شىء منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أو بئس شيئا باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به فى زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لابد أن يكون المذموم ما كان حاصلا لهم لا ما كان زائلا عنهم والمخصوص بالذم قوله تعالى ﴿ أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ أى الكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الإنزال بالمجىء للإيذان بعلو شأنه الموجب للإيمان به ﴿ بغيا ﴾ حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة لأن يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبى بالنسبة إليه وإن لم يكن أجنبيا بالنسبة إلى فعل الذم وفاعله ولأن البغى مما لاتعلق له بعنوان البيع قطعا لاسيما وهو معلل بما سيأتى من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذى بينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به أنفسهم كفرهم المعلل بالبغى الكائن لأجل ﴿ أن ينزل الله من فضله ﴾ الذى هو الحى ﴿ على من يشاء ﴾ أى يشاؤه ويصطفيه ﴿ من عباده ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ومآله تعليل كفرهم بالمنزل عليه وإيثار

صيغة التفعيل ههنا للإيذان بتجدد بغيهم حسب تجدد الإنزال وتكاثره حسب تكاثره ﴿ فباؤا بغضب على غضب ﴾ أى رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فإنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير ابن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿وللكافرين﴾ أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿عذاب مهين﴾ يراد به إهانتهم وإذلالهم لما أن كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبنى على طمع المنزول عليهم وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه السلام ﴿وإذا قيل﴾ من جانب المؤمنين ﴿لهم﴾ أى لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لا سيما فى لام التبليغ ﴿ آمنوا بما أنزل الله﴾ من الكتب الإلهية جميعا والمراد به الأمر بالإيمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم إيذانا بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما فى حيز الصلة وموافقته له فى المضمون وتنبيها على أن الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله ﴿قالوا نؤمن﴾ أى نستمر على الإيمان ﴿ بما أنزل علينا ﴾ يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بنى إسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم إما أنفسهم فمعنى الإنزال عليهم تكليفهم بما فى المنزل من الأحكام وإما أنبياء بنى إسرائيل وهو الظاهر لاشتماله على مزية الإيذان بأن عدم إيمانهم بالفرقان لما مر من بغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ولأن مرادهم بالموصول وإن كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لكن إيرادها بعنوان الإنزال عليهم مبنى على ادعاء أن ما عداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير إليه فلو أريد بالإنزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى إسرائيل على الوجه الأخير

وتجريد الموصول عند الإضمار عما عرضوا به تعسف لا يخفى والوراء فى الأصل مصدر جعل ظرفا ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به مايواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد مجرد بيان أن إفراد إيمانهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفى إيمانهم بما وراءه بل بيان أن ما يدعون من الإيمان ليس بإيمان بما أنزل عليهم حقيقة فإن قوله عز اسمه ﴿وهو الحق﴾ أى المعروف بالحقيقة بأن يخص به اسم الحق على الإطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها إما ضمير الحق وعاملها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء وإما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمر أى أحقه مصدقا ﴿لما معهم﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها ﴿قل﴾ تبكيتا لهم من جهة الله عز من قائل ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض فى أقوالهم ﴿فلم﴾ أصله لما حذفت عنه الألف فرقا بين الاستفهامية والخبرية ﴿تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ الخطاب للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على أخلافهم وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلأى شىء كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وقرىء أنبياء الله مهموزا وقوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تكرير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديد التهديد أى إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين لما حذف ثقة بما أثبت فى الأخرى وقيل لا حذف فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لا يتأتى إلا على رأى الكوفيين وأبى زيد وقيل إن نافية أى ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتموهم

﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ من تمام التبكيت والتوبيخ داخل تحت الأمر لا تكرير لما قص فى تضاعيف تعداد النعم التى من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أى وبالله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة التى هى العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقد عدمنها التوراة وليس بواضح فإن المجىء بها بعد قصة العجل ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أى إلها ﴿من بعده﴾ أى من بعد مجيئه بها وقيل من بعد ذهابه إلى الطور فتكون التوراة حينئذ من جملة البينات وثم للتراخى فى الرتبة والدلالة على نهاية قبح ماصنعوا ﴿وأنتم ظالمون﴾ حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها فى غير موضعها أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم فى ادعائهم الإيمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم أى واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أى خذوا بما أمرتم به فى التوراة واسمعوا مافيها سمع طاعة وقبول ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ﴿سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما فى تضاعيف التوبة فكيف يتصور من أخلاقهم الإيمان بما فيها .

﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة أى تداخلهم حبه ورسخ فى قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن ، وفى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كما فى قوله تعالى (إنما يأكلون فى بطونهم نارا) والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم السابق الموجب

لذلك قيل كانوا مجسمة أو حلولية ، ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ماسول لهم السامرى ﴿قل﴾ توبيخا لحاضرى اليهود إثر ماتبين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون فى كل مايأتون وما يذرون ﴿ بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل ، وفى إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم وإضافة الإيمان إليهم للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإنه قدح فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لها وتقريره إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها وإذ لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعاً وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ماسبق عليه ﴿قل﴾ كرر الأمر مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر بتبكيتهم وإظهار كذبهم فى فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الأمر بإبطاله بل اكتفى بالإشارة إليه فى تضاعيف الكلام حيث قيل ﴿ إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ اى الجنة أو نعيم الدار الآخرة ﴿ عند الله خالصة ﴾ أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون انه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار فى الخبر أعنى لكم وقوله تعالى : ﴿من دون الناس﴾ فى محل النصب بخالصة يقال خلص لى كذا من كذا واللام للجنس أى الناس كافة أو للعهد أى المسلمين ﴿فتمنوا الموت﴾ فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص إليها من دارة البوار وقرارة الأكدار لاسيما إذا كانت خالصة كما قال على كرم الله وجهه لا أبالى أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين :

الآن ألقى الأحبه محمداً وحزبه

وقال حذيفة بن اليمان حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل :

جاء حبيب على فاقة فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ تكرير للكلام لتشديد

الإلزام وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط فى نفس الأمر فقط بل فى اعتقادهم أيضا وأنهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى إن كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى : ﴿ وان يتمنونه أبدا ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الإحجام عما دعوا إليه الدال على كذبهم فى دعواهم ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بسبب ما عملوا من المعاصى الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبى عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أى بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى جميع الأمور التى من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد إذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه ، وما بقى يهودى على وجه الأرض ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس ﴾ من الوجدان العقلى ، وهو جار مجرى العلم خلا أنه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص والتنكير فى قوله تعالى ﴿ على حيوة ﴾ للإيذان بأن مرادهم نوع خاص منها وهى الحياة المتطاولة وقرىء بالتعريف ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ عطف على ماقبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى الناس للايذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة فى توبيخ اليهود فإن حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بإنباء المعطوف عليه عنه أى وأحرص من الذين أشركوا فقوله تعالى ﴿ يود أحدهم ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون فى حيز الرفع صفة لمبتدأ محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود

لقولهم عزير ابن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل ليتنى أعمر وإنما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على أنه مفعول يود إجراء له مجرى القول لأنه فعل قلبي ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب﴾ ما حجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها وبمزحزحه خبرها والباء زائدة و﴿أن يعمر﴾ فاعل مزحزحه أى وما أحدهم بمن يزحزحه أى يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وأن يعمر بدل منه وقيل هو مبهم ، وأن يعمر مفسره والجملة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنهة بجبهة لقولهم سانهته وسنيهة وتسنهت النخلة إذا أتت عليها السنون ﴿والله بصير بما يعملون﴾ البصير فى كلام العرب العالم بكنه الشيء الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لامحالة وقرىء بتاء الخطاب التفاتا وفيه تشديد للوعيد ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ نزل فى عبد الله بن صوريا من أحبار فدك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عمن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لوكان غيره لآمنا بك وفى بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فلو كان هو الذى يأتيك لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بخت نصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عليه السلام . وقال إن كان ربكم آمره بهلاككم فإنه لايسلطكم عليه وإلا فبأى حق تقتلونه وقيل أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ، وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا ياعمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال والله ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لشك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن

جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يجىء بالخصب والسلام فقال لهم : وما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه إن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهم كان عدوا لله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لقد وافقك ربك يا عمر فقال عمر رضى الله عنه ، لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرىء جبرئيل كسلسبيل وجبرئل كجحمرش وجبريل وجبرئل وجبرائيل كجبراعيل وجبرائل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة ، وقيل معناه عبدالله ﴿فإنه نزله﴾ تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الأول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن أضمر من غير ذكر إيذانا بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لاسيما عند ذكر شىء من صفاته ﴿على قلبك﴾ زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحى فإنه القابل الأول له ومدار الفهم والحفظ وإيثار الخطاب على التكلم المبنى على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ لما فى النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة ﴿بإذن الله﴾ بأمره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزيمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى : ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ أى من الكتب الآلهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ والعامل فى الكل نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فإنه نزله عليك كتابا مصدقا لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيل الكتاب مصدقا لكتابهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرفوا كتابهم وجحدوا موافقته له لأن الاعتراف بها يوجب الإيمان به وذلك يستدعى

انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل إن الجواب فقد خلع ربقة الإنصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظا أو فهو عدولى ، وأنا عدوله ﴿ من كان عدوا لله ﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وإيذانا بأن عداوتهم عداوته عز وعلا كما فى قوله عز وجل (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ثم صرح بالمرام فقيل ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ وإنما أفردا بالذكر مع أنهما أول من يشمله عنوان الملكية والرسالة لإظهار فضلهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف مما ذكر تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الجنس وللتنبيه على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل فى حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللإشارة إلى أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه ، وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وإيثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات ووضع الكافرين موضع المضمر للإيذان بأن عداوة المذكورين كفر ، وأن ذلك بين لايحتاج إلى الإخبار به ، وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور وقرىء ميكائل كميكاعل وميكائيل كميكاعيل وميكئل كميكعل وميكئيل كميكعيل ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ واضحات الدلالة على معانيها ، وعلى كونها من عند الله تعالى ، ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدوده فإن من ليس على تلك الصفة من الكفرة لايجترىء على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماجئتنا بشىء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم

الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿أوكلما عاهدوا عهداً﴾ الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهداً ، ومن جملة ذلك ما أشير إليه فى قوله تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ من قولهم للمشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وقرىء بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم ، وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مراراً كثيرة وقرىء عوهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهداً ، إما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أومفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد ﴿نبذه فريق منهم﴾ أى رموا بالزمام ورفضوه وقرىء نقضه وإسناد النبذ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه ﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ أى بالتوراة وهذا دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون ، وأن من لم ينبذ جهارا فهم يؤمنون بها سرا ﴿ولما جاءهم رسول﴾ هو النبى صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم ﴿من عند الله﴾ متعلق بجاء أو بمحذوف وقع صفة لرسول لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقية نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وفق مانعت فيها ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ أى التوراة ، وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لأن النبذ عند مجىء النبى صلى الله عليه وسلم لايتصور منهم وأفرد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله عز وجل أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم لأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشيطاطين وإيثارهم له عليه والمراد بإيتائها ، إما إيتاء علمها بالدراسة والحفظ ، والوقوف على ما فيها فالموصول عبارة عن علمائهم وإما مجرد إنزالها عليهم فهو عبارة عن الكل ، وعلى التقديرين فوضعه موضعه للضمير للإيذان بكمال التنافى بين ما أثبت لهم فى حين الصلة وبين ما صدر عنهم

من النبذ ﴿ كتاب الله ﴾ أى الذى أوتوه قال السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة والفرقان فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحرها روت ، وماروت فلم يوافق القرآن فهذا قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله ﴾ الخ ، وإنما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فإن ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذاً له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فإن مجىء الرسول معرب عن مجىء الكتاب ﴿ وراء ظهورهم ﴾ مثل لتركهم وإعراضهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه ﴿ كأنهم لايعلمون ﴾ جملة حالية أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لايعلمه فإن أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الإيقان ولايعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ففيه إيذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لايعلمون أنه كتاب الله أو لايعلمونه أصلا كما إذا أريد بهم الكل ، وفى هذين الوجهين زيادة مبالغة فى إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالعلم المنفى فى قوله تعالى ﴿ كأنهم لايعلمون ﴾ هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما فى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل إن جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الأقلون المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿ بل أكثرهم لايؤمنون ﴾ وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدى الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى (نبذه فريق منهم) وفرقة لم يجاهروا بنبذها لجهلهم بها وهم الأكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ عطف على جواب لما أى نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرؤها الشياطين وهم المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والإقبال عليه

بالكلية وإلا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة، وقيل على على أشربوا ﴿ على ملك سليمان ﴾ أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون هذا علم سليمان وماتم له ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الإنس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره وقيل إن سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيراً من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل إليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك أشياء من فنون السحر تناسب تلك الأشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموهم أنه من عمل سليمان عليه السلام وأنه مابلغ هذا المبلغ إلا بسبب هذه الأشياء .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به والتعرض لكونه للمبالغة فى فى إظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك ﴿ ولكن الشياطين ﴾ وقرىء بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ما قبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون مابعدها مفردا ﴿ كفروا ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ إغواء وإضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا أو من الشياطين فإن مافى لكن من رائحة الفعل كاف فى العمل فى الحال أو فى محل الرفع على خبر ثان للكن أو بدل من الخبر الأول وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجدده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل اتبعوا فهى إما حال منه وإما استئنافية فحسب واعلم أن السحر أنواع منها سحر الكلدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها

تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإبطال مقالتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون أن الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بإلهية الأفلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلا ويشتغلون بخدمتها وهم عبدة الأوثان وفرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلا مختارا لكنهم قالوا إنه أعطاها قوة عالية نافذة فى هذا العالم وفوض تدبيره إليها ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية فإنهم يزعمون أن الإنسان تبلغ روحه بالتصفية فى القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وتغيير البنية والشكل ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن ومنها التخييلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الأمة فى أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانى وهو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية وأما من اعتقد أن الإنسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسل بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الإنسان إن كان خيرا متشرعا فى كل ما يأتى ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر فى يده من الخوارق ضرر شرعى لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وإن كان شريرا غير متمسك بالشريعة الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الأرواح الخبيثة الشريرة لامحالة ضرورة امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك فى الخبث والشرارة فيكون كافرا قطعا ، وأما الشعوذة وما يجرى مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فإطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه فى الأصل عبارة

عن كل ما لطف مأخذه وخفي سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرف على ما حكاه الأزهري عن الفراء ويونس ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ عطف على السحر أي ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ما تتلو وما بينهما اعتراض أي واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر أو تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس أو لأن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهار أمرهم على الناس وأما ما يحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بني آدم عيروهم ، وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم لعصيتموني قالوا سبحانك ما ينبغي لنا أن نعصيك قال تعالى فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم وأعبدهم فأهبطا إلى الأرض بعد ما ركب فيهما ما ركب في البشر من الشهوة وغيرها من القوة ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا إلى السماء مساء وقد نهيا عن الإشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارا فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصعدا إلى السماء فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لخم وقيل كانت من أهل فارس ملكة في بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت لا إلا أن تقضيا لي على خصمي ، ففعلا ، ثم سألاها ما سألا ، فقالت : لا إلا أن تقتلاه ففعلا ، ثم سألاها ما سألا فقالت لا إلا أن تشربا الخمر وتسجدا للصنم ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتي ثم سألاها ما سألا فقالت لا إلا أن تعلماني ما تصعدان به إلى السماء فعلماها الاسم الأعظم فدعت به وصعدت إلى السماء فمسخها سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تطعهما أجنحتهما

فعلما ما حل بهما ، وكان فى عهد إدريس عليه السلام فالتجأ إليه ليشفع لهما ففعل فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة فما لاتعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ولعله من مقولة الأمثال والرموز التى قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب وقيل هما رجلان سميا ملكين لصلاحهما ويعضده قراءة الملكين بالكسر ﴿ ببابل ﴾ الباء بمعنى فى وهى متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من الضمير فى أنزل وهى بابل العراق ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه بابل أرض الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف العجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية ﴿ هاروت وماروت ﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا ، وأما من قرأ الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال هما أسمان لهما وقيل هما اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرىء بالرفع على هما هاروت ، وماروت ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ من مزيدة فى المفعول به لإفادة تأكيد الاستغراق الذى يفيدة أحد لا لإفادة نفس الاستغراق كما فى قولك ما جاءنى من رجل وقرىء يعلمان من الإعلام ﴿ حتى يقولا إنما نحن فتنة ﴾ الفتنة الاختبار والامتحان وإفرادها مع تعددهما لكونها مصدرا وحملها عليهما مواطأة للمبالغة كأنهما نفس الفتنة والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه أى ، وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر أحدا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له إنما نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به أو اتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقى على الإيمان ﴿ فلا تكفر ﴾ باعتقاد حقيته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفى ليست هذه المقالة فقط بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهى لكن لم يذكر لظهوره وكون

الكلام فى بيان اعتناء الملكين بشأن النصح والإرشاد والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لامعطوفة عليه كما قيل أى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ويحملونهم على العمل به إغواء وإضلالا ، والحال أنهما مايعلمان أحداً حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه وأما ماقيل من أن مافى قوله تعالى (وما أنزل الخ) نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى (وما كفر سليمان) جىء بها لتكذيب اليهود فى القصة أى لم ينزل على الملكين إباحة السحر ، وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لأصالتهما وكون باقى الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى مايعلمان أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لايلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهى عن الكفر مع مافيه من الإخلال بنظام الكلام فإن الإبدال فى حكم تنحية المبدل منه ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ عطف على الجملة المنفية فإنها فى قوة المثبتة كأنه قيل يعلمانهم بعد قولهما إنما نحن الخ والضمير لأحد حملا على المعنى كما فى قوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ﴿ مايفرقون به ﴾ أى بسببه وباستعماله ﴿ بين المرء ﴾ وقرىء بضم الميم وكسرها مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة ﴿ وزوجه ﴾ بأن يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند ما فعلوا مافعلوا من السحر على حسب جرى العادة الإلهية من خلق المسببات عقيب حصول الأسباب العادية ابتلاء لا أن السحر هو المؤثر فى ذلك وقيل فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناس ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم ﴿ وماهم بضارين به ﴾ أى بما تعلموه واستعملوه من السحر ﴿ من أحد ﴾ أى أحدا ومن زائدة كما ذكر فى قوله تعالى ومايعلمان من أحد والمعهود وأن كان زيادتها فى معمول فعل منفى إلا أنه حملت الإسمية فى ذلك على الفعلية كأنه قيل وما يضرون به من أحد ﴿ إلا بإذن الله ﴾ لأنه وغيره من الأسباب بمعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء ، وقد لايحدثه والاستثناء مفرغ

والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وإن كان نكرة لاعتمادها على النفي أو الضمير المجرور في به أي وما يضرون به أحداً إلا مقرونا بإذن الله تعالى وقرىء بضارى على الإضافة بجعل الجار جزءاً من المجرور وفصل ما بين المضافين بالظرف ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ﴾ لأنهم يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالبا ﴿ ولا ينفعهم ﴾ صرح بذلك إيذانا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت وضرر محض لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب من يدعى النبوة مثلا من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة وفيه أن الاجتناب عما لا يؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية وإن قال من قال :

عرفت الشر لا للشــر لــكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشــر من الناس يقع فيه

﴿ ولقد علموا ﴾ أي اليهود الذين حكيت جناياتهم ﴿ لمن اشتراه ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الأولى جواب قسم محذوف والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة في حيز الرفع بالابتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى ﴿ ماله في الآخرة من خلاق ﴾ أي من نصيب جملة من مبتدأ وخبر ومن مزيدة في المبتدأ وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلاق في الآخرة وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للموصول والجملة في حيز النصب سادة مسد مفعولى علموا إن جعل متعديا إلى اثنين أو مفعوله الواحد إن جعل متعديا إلى واحد ، والجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ هذا ما عليه الجمهور وهو مذهب سيبويه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء إن اللام الأخيرة موطئة للقسم ومن شرطية مرفوعة بالابتداء واشتراه خبرها ، وماله في الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يجاب سابقهما غالبا فحينئذ

يكون الجملتان مقسما عليهما ﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم ﴾ أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر أو الكفر وفيه إيذان بأنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء مما لاسبيل إليه لأن المشترى متعين وهو ما تتلو الشياطين ولأن متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير إليه فى تفسير قوله سبحانه بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴿ لوكانوا يعلمون ﴾ أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمون قبحه على اليقين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أولا على التوكيد القسمى العقل الغريزى أو العلم الإجمالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لما فعلوا مافعلوا ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أى بالرسول المومأ إليه فى قوله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله) الخ أو بما أنزل إليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) أو بالتورارة التى أريدت بقوله تعالى (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) فإن الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها ﴿ واتقوا ﴾ المعاصى المحكية عنهم ﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾ جواب لو وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه إجلالا للمفضل من أن ينسب إليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشىء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير وقيل جواب لو محذوف أى لأثيبوا وما بعده جملة مستأنفة فإن وقوع الجملة الابتدائية جوابا للو غير معهود فى كلام العرب وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف إيمانهم واتقاءهم تلهفا عليهم وقرىء لمثوبة وإنما سمى الجزاء ثوابا ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أن ثواب الله خير نسبوا إلى الجهل لعدم

العمل بموجب العلم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمؤمنين فيه إرشاد لهم إلى الخير وإشارة إلى بعض آخر من جنايات اليهود ﴿ لاتقولوا راعنا ﴾ المراعاة المبالغة فى الرعى وهى حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من العلم يقولون راعنا يارسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابون بها فيما بينهم وهى راعينا قيل معناها اسمع لاسمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترصوه واتخذوه ذريعة إلى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسبة أو نسبته صلى الله عليه وسلم إلى الرعن وهو الحمق والهوج روى أن سعد بن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال يا أعداء الله عليكم لعنة الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه قالوا أو لستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعا لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبيس فقيل ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أى انظر إلينا بالحذف والإيصال أو انتظرنا على أنه من نظره إذا انتظره وقرىء أنظرنا من النظر ، أى أمهلنا حتى نحفظ وقرىء راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولا ذا رعن كدارع ولابن لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سببا للسب بالرعن اتصف به ﴿ واسمعوا ﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايلقي إليكم من من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لاتحتاجوا إلى الاستعاذة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والأمر بجد واعتناء حتى لاترجعوا إلى مانهيتم عنه أو واسمعوا سماع طاعة وقبول ولايكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿ وللكافرين ﴾ أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم وجعلوه سببا للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ما قالوا ﴿ عذاب أليم ﴾ لما اجترؤا عليه من العظيمة وهو تذييل لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه .

﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ الود حب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل فى كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعلية ما فى حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثيرا ما كان يقع عند تنزيل الوحى المعبر عنه فى هذه الآية بالخير فكأنه أشير إلى أن سبب تحريفهم له إلى ما حكى عنهم لوقوعه فى أثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيبا لهم فى ذلك ومن فى قوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ للتبيين كما فى قوله عز وعلا (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ولا مزيدة لما ستعرفه ﴿ أن ينزل عليكم ﴾ فى حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصريح الآتى فى قوله تعالى ﴿ من خير ﴾ هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفى وإن لم يباشره ظاهرا لكنه منسحب عليه معنى والخير الوحى وحمله على مايعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يأباه وصفه فيما سيأتى بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخر عنه لإظهار كمال العناية به لأنه المدار لعدم ودهم ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعليته لتنزيل الخير والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدهم بما فيه وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبى صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للإيذان بأن مدار كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم ويكرهونكم فيحسدونكم أن ينزل عليكم شيء من الوحى أما اليهود فبناء على أنهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون فى مهابط الوحى وأنتم أميون وأما المشركون فإدلالا بما كان لهم من الجاه والمال زعما منهم أن رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطة

بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ولما كانت اليهود بهذا الداء أشهر لاسيما فى أثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفى ﴿ والله يختص برحمته ﴾ جملة ابتدائية سيقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغام الكارهين له والمراد برحمته الوحى كما فى قوله سبحانه (أهم يقسمون رحمة ربك) عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافته إليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعد وصيغة الافتعال للإنباء عن الاصطفاء وإيثاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى (أن ينزل الله من فضله على من يشاء) لزيادة تشريفه صلى الله عليه وسلم وإقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتى الفائض عليه بحسب إرادته عز وعلا تفضلا لاتتعداه إلى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد إلى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه إيذان بأن إيتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى (إن فضله كان عليك كبيرا) وأن حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للإيذان بفخامة مضمونها وكون كل منهما مستقلة بشأنها فإن الإضمار فى الثانية منبىء عن توقفها على الأولى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ الذى هو فرد من أفراد تنزيل الوحى وإبطال مقالة الطاعنين فيه أثر تحقيق حقيقة الوحى ورد كلام الكارهين له رأساً قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الإزالة والنقل يقال نسخت الريح الأثر أى أزالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً وإنساؤها إذهابها من القلوب وماشرطية جازمة لننسخ منتصبة

به على المفعولية وقرىء ننسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة وننسأها من النسء أى نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرىء ما ننسخ من آية أو ننسكها وقرىء ما ننسك من آية أو ننسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً إلى بدل أو إلى غير بدل ﴿ نأت بخير منها ﴾ أى نوع آخر هو خير للعباد وبحسب الحال فى النفع والثواب من الذاهبة وقرىء بقلب الهمزة ألفا ﴿ أو مثلها ﴾ أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فى ما دونها أيضاً وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدل حسب تبدل الأشخاص والأبصار كأحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام ﴿ ألم تعلم ﴾ الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه (أليس الله بكاف عبده) وقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ ساد مسد مفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعاً والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وإيثاره على أن يقال إن لله ملك السموات

والأرض للقصد إلى تقوى الحكم بتكرر الإسناد وهو إما تكرير للتقرير وإعادة للاستشهاد على ما ذكر وإنما لم يعطف أن مع ما فى حيزها على ما سبق من مثلها وما لزيادة التأكيد وإشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته فى الوقوف على ما هو المقصود وإما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما إيجاداً وإعداماً وأمراً ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء وقوله تعالى ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لأن داخلة معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للأمة أيضاً وإنما إفراده عليه السلام بهما لما أن علومهم مستندة إلى علمه عليه السلام ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع إلى اسم أن لتربية المهابة والإيذان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فإن مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعى حصوله البتة وإنما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك وليا ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوض أمره إليه تعالى ولا يخطر بباله ريبة فى أمر النسخ وغيره أصلا والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا من المنصور وما إما تميمية لا عمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستغراق وإما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يجيز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله فى حيز النصب على الحالية من اسمها لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالا ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزم والإيقان بأنه تعالى لا يفعل بهم فى أمر من أمور دينهم أو دنياهم إلا ما هو خير لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه من غير إصغاء إلى

أقاويل الكفرة وتشكيكاتهم التى من جملتها ما قالوا فى أمر النسخ وقوله تعالى ﴿ أم تريدون ﴾ تجريد للخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة إلى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة إنكار وقوع الإرادة منهم واستبعاده لما أن قضية الإيمان وازعة عنها وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها للمبالغة فى إنكاره واستبعاده ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور نفسه والمعنى بل أتريدون ﴿ أن تسألوا ﴾ وأنتم مؤمنون ﴿ رسولكم ﴾ وهو فى تلك الرتبة من علو الشأن واقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين فى أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشؤنه سبحانه قيل لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية إلى النسخ وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للمشركين وهى شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب وقوله تعالى ﴿ كما سئل موسى ﴾ مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالا مشبها بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا إلها وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبنى للفاعل أعنى سؤالية المخاطبين لا من المبنى للمفعول أعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسئولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معا ولكنه أوجز النظم فذكر فى جانب المشبه السائلية وفى جانب المشبه به المسئولية واكتفى بما ذكر فى كل موضع عما ترك فى الموضع الآخر كما ذكر فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقد جوز أن تكون ما موصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سئله موسى عليه السلام وقوله تعالى ﴿ من قبل ﴾ متعلق بسئل جىء به للتأكيد وقرىء سيل بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين ﴿ ومن يتبدل الكفر ﴾ أى يختره ويأخذه

لنفسه ﴿بالإيمان﴾ بمقابلته بدلا منه وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو إرادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحت واقترح غيرها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى عدل وجار من حيث لا يدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى وإنما أوثر على ذلك ما عليه النظم الكريم للتصريح من أول الأمر بأنه كفر وارتداد وأن كونه كذلك أمر واضح غنى عن الإخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بأن يعد من المسلمات ويجعل مقدما للشرطية روما للمبالغة فى الزجر والإفراط فى الردع وسواء السبيل من باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للمشركين حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلخ فإضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالإيمان وهم بمعزل من الإيمان ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك وإيثارهم للكفر عليه ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ هم رهط من أحبار اليهود . روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فإنى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبأ وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبتما خيرا وأفلحتما فنزلت ﴿لو يردونكم﴾ حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وصيغة الغيبة كما فى قوله حلف ليفعلن وقيل

هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا التقدير وذوا ردكم وقيل هى على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره لو يردونكم كفارا لسروا بذلك و ﴿من بعد إيمانكم﴾ متعلق بيردونكم وقوله تعالى ﴿كفاراً﴾ مفعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أى يصيرونكم كفارا كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

وقيل هو حال من مفعوله والأول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ماأراده وغاية بعده منا لوقوع إما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته وإما لممانعة الإيمان له كأنه قيل من بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى .

﴿حسداً﴾ علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أى حاسدين لكم والحسد الأسف على من له خير بخيره ﴿من عند أنفسهم﴾ متعلق بود أى ودوا ذلك من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ولو على زعمهم أو بحسدا أى حسدا منبعثا من أصل نفوسهم بالغا أقصى مراقيه ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ بالمعجزات الساطعة وبما عاينوا فى التوراه من الدلائل وعلموا أنكم متمسكون به وهم منهمكون فى الباطل ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ العفو ترك المؤاخذه والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ الذى هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم أو الإذن فى القتال وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف ولا يقدح فى ذلك ضرب الغاية لأنها لا تعلم إلا شرعا ولا يخرج الوارد بذلك من أن يكون ناسخا كأنه قيل فاعفوا واصفحوا إلى ورود الناسخ ﴿إن الله على كل

شيء قدير﴾ فينتقم منهم إذا حان حينه وآن أوانه فهو تعليل لما دل عليه ما قبله ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ عطف على فاعفوا أمروا بالصبر والمداراة واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ كصلاة أو صدقة أو غير ذلك أى أى شيء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم ﴿تجدوه عند الله﴾ أى تجدوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد الكافرين ﴿وقالوا﴾ عطف على ود والضمير لأهل الكتابين جميعاً ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة أن السامع يرد كلا منهما إلى قائله ونحوه وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا وليس مرادهم بأولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على وجههما بل أنفسهم على ما هم عليه لأنهم إنما يقولونه لإضلال المؤمنين وردهم إلى الكفر والهود جمع هائد كعوذ جمع عائذ وبزل جمع بازل والإفراد فى كان باعتبار لفظ من والجمع فى خبره باعتبار معناه وقرىء إلا من كان يهوديا أو نصرانيا ﴿تلك أمانيهم﴾ الأمانى جمع أمنية وهى ما يتمنى كالأعجوبة والأضحوكة والجملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا وتلك إشارة إليه والجمع باعتبار صدوره عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أى أمثال تلك الأمنية أمانيهم وقيل تلك إشارة إليه وإلى ما قبله من أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردهم كفارا ويرده قوله تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ فإنهما ليسا مما يطلب له البرهان ولا مما يحتمل الصدق والكذب قيل هاتوا أصله آتوا قلبت الهمزة هاء أى أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين فى دعواكم. هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذى يستدعيه إعجاز التنزيل أن يحمل الأمل التبكيتى على طلب البرهان على أصل الدخول الذى يتضمنه دعوى الاختصاص به فإن قوله تعالى ﴿بلى﴾ إلخ إثبات من جهته تعالى لما نفوه مستلزم لنفى ما أثبتوه وإذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم بالدخول

كما ستعرفه بإذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذى كلفوا إقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحد مورد الإثبات والنفى وإنما عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لكمال عجزهم عن إثبات مدعاهم لأن حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن إقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن إثباته وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن إثباته أعجز وإنما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه :

﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يشرك به شيئاً عبر عنها بالوجه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الإخلاص أو بوجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شىء غيره ﴿ وهو محسن ﴾ حال من ضمير أسلم أى والحال أنه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الإسلام المذكور وحقيقة الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ فله أجره ﴾ الذى وعدله على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى : ﴿ عند ربه ﴾ حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أى فله أجره عند مالكه ومدبر أموره ومبلغه إلى كماله والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أى بلى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الأجر بما ذكر

من الإسلام والإحسان المختصين بأهل الإيمان قاض بأن أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ فى الدارين من لحوق مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الأفراد فى الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شىء أى أمر يعتد به من الدين أو على شىء ما منه أصلا مبالغة فى ذلك كما قالوا أقل من لاشىء وكفروا بعيسى والإنجيل ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ﴾ على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لا أنهم قالوا ذلك بناء للأمر على منسوخية التوراة ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ والواو للحال واللام للجنس أى قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بحقيقة دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فإن كتب الله تعالى متصادقة ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف فى محل النصب اما على أنها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لإفادة القصر أى قولا مثل ذلك القول بعينه لا قولا مغايرا له ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ من عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لأهل كل دين ليسوا على شىء وإما على أنها حال من المصدر المضمر المعروف الدال عليه قال أى قال القول الذين لايعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به ﴿ مثل قولهم ﴾ إما بدل من محل الكاف وإما مفعول للفعل المنفى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لايعلم أصلا ﴿ فالله يحكم بينهم ﴾ أى بين اليهود والنصارى فإن مساق النظم لبيان حالهم وإنما التعرض لمقالة غيرهم

لإظهار كمال بطلان مقالهم ولأن المحاجة المحوجة إلى حكم إنما وقعت بينهم ﴿ يوم القيامة ﴾ متعلق بيحكم وكذا ما قبله وما بعده ولا ضير فيه لاختلاف المعنى ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الأخير متعلق بيختلفون قدم عليه للمحافظة على رؤس الآى لا بكانوا ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فإذا قيل من أكرم من فلان أولا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك فى أى مسجد كان وإن كان سبب النزول فعل طائفة معينة فى مسجد مخصوص . روى أن النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن طيطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وإنما أوقع المنع على المساجد وإن كان الممنوع هو الناس لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها مبطلة لدعوى النصارى اختصاصهم بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية فتعلقها بما تقدمها من جهة أن المشركين من جملة الجاهلين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شىء .

﴿ أن يذكر فيها اسمه ﴾ ثانى مفعولى منع كقوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا) ، وقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك مفعولا

له أى كراهة أن يذكر فيها اسمه ﴿ وسعى فى خرابها ﴾ بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر ﴿ أولئك ﴾ المانعون الظالمون الساعون فى خرابها ﴿ ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم فى علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد ولله الحمد . روى أنه لا يدخل بيت بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الأئمة فى ذلك فجوزه أبو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره ﴿ لهم ﴾ أى لأولئك المذكورين ﴿ فى الدنيا خزى ﴾ أى خزى فظيع لا يوصف بالقتل والسبى والإذلال بضرب الجزية عليهم ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ وهو عذاب النار لما أن سببه أيضاً وهو ماحكى من ظلمهم كذلك فى العظم وتقديم الظرف فى الموضعين للتشويق إلى مايذكر بعده من الخزى والعذاب لما مر من أن تأخير ماحقه التقديم موجب لتوجه النفس إليه فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن كما فى قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) إلى غير ذلك ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ أى له كل الأرض التى هى عبارة عن ناحيتى المشرق والمغرب لا يختص به من حيث الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فإن منعتم من إقامة العبادة فى المسجد الأقصى أو المسجد الحرام ﴿ فأينما تولوا ﴾ أى ففى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة ﴿ فثم وجه الله ﴾ ثم اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوى الجر بمن وهو خبر مقدم ووجه الله مبتدأ والجملة فى محل الجزم على أنها جواب الشرط أى هناك جهته التى أمر بها فإن إمكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد

أو مكان دون آخر أو فثم ذاته بمعنى الحضور العلمى أى فهو عالم بما يفعل فيه ومثيب لكم على ذلك وقرىء بفتح التاء واللام أى فأينما توجهوا القبلة ﴿ إن الله واسع ﴾ بإحاطته بالأشياء أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿ عليم ﴾ بمصالحهم وأعمالهم فى الأماكن كلها والجملة تعليل لمضمون الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهوا وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود عن أن يكون فى جهة ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما بينهما من الجمل الكثيرة الأجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لا يعلمون وقرىء بغير واو على الاستئناف نزلت حين قالت اليهود عزير ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركو العرب الملائكة بنات الله والاتخاذ إما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى إلا إلى واحد وإما بمعنى التصيير والمفعول الأول محذوف أى صير بعض مخلوقاته ولدا ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه تنزيها لائقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والإبعاد فى الأرض ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من حيث إسناد البراءة إلى الذات المقدسة وإن كان التنزيه اعتقاد نزاهته تعالى عما لا يليق به لا إثباتها له تعالى ﴿ بل له ما فى السموات والأرض ﴾ رد لما زعموا وتنبيه على بطلانه وكلمة بل للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة

من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات ومن سرعة فنائه المحوجة إلى اتخاذ ما يقوم مقامه فإن مجرد الإمكان والفناء لا يوجب ذلك . ألا يرى أن الأجرام الفلكية مع إمكانها وفنائها بالآخرة مستغنيه بدوامها وطول بقائها عما يجرى مجرى الولد من الحيوان أى ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿ كل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى كل ما فيهما كائنا ما كان من أولى العلم وغيرهم ﴿ له قانتون ﴾ منقادون لا يستعصى شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وإنما جيء بما المختصة بغير أولى العلم تحقيرا لشأنهم وإيذانا بكمال بعدهم عما نسبوا إلى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء فى قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أى مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فإن البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله ٭ أمن ريحانة الداعى السميع ٭ وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته من بدع إذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشنعاء تقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها على الإطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والدا ورفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هو بديع الخ وقرىء بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الضمير فى له على رأى من يجوز الإبدال من الضمير المجرور كما فى قوله ٭ على جوده ضن بالماء حاتم ٭

﴿ وإذا قضى أمرا ﴾ أى أراد شيئاً كقوله إنما أمره إذا أراد شيئاً وأصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهيه المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه البتة

وقيل الأمر ومنه قوله تعالى (وقضى ربك) الخ ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾
كلاهما من الكون التام أى أحدث وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال
وإنما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير
لسرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المأمور المطيع للآمر القوى
المطاع وفيه تقرير لمعنى الإبداع وتلويح لحجة أخرى لإبطال ما زعموه بأن
اتخاذ الولد شأن من يفتقر فى تحصيل مراده إلى مبادىء يستدعى ترتيبها مرور
زمان وتبدل أطوار وفعله تعالى متعال عن ذلك ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾
حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قدحهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم
فى شأن التوحيد بنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى واختلاف فى هؤلاء القائلين
فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى ووصفهم
بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو لعدم علمهم بموجب
علمهم أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عمن له شائبة علم أصلا وقال قتادة
وأكثر أهل التفسير هم مشركو العرب لقوله تعالى (فليأتنا بآية كما أرسل
الأولون) وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾
أى هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة أو هلا يكلمنا
تنصيصا على نبوتك ﴿ أو تأتينا آية ﴾ حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو
والاستكبار إلى حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط
الرسول والملك ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات
الباهرة التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أنى يؤفكون
﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد ﴿ قال الذين
من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية ﴿ مثل قولهم ﴾ هذا الباطل الشنيع فقالوا
أرنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع
ربك الخ وقالوا اجعل لنا إلها الخ ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ أى قلوب هؤلاء
وأولئك فى العمى والعناد وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾
أى نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحان من صغر

البعوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أى يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لا يعتريهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الإتيان الذى طلبوه ما لا يخفى من الجزالة والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وإنما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أى ملتبسا بالقرآن كما فى قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أو بالصدق كما فى قوله تعالى (أحق هو) وقوله تعالى : ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ حال من المفعول باعتبار تقييده بالحال الأولى أى أرسلناك ملتبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيراً لمن كفر به أو أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا لا قاسر لهم على الإيمان فلا عليك إن أصروا وكابروا ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعدما بلغت ما أرسلت به وقرىء لن تسأل وقرىء لا تسأل على صيغة النهى إيذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها وحمله على نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيذان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعا .

وقوله تعالى : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ بيان لكمال شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة إثر بيان ما يعمهما والمشركين من الإصرار على ما هم عليه إلى الموت وإيراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفى لما مر من أن تصلب اليهود فى أمثال هذه العظائم أشد من النصارى

والإشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الأخرى أى لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولا النصارى ولو تركتهم حتى تتبع ملتهم فأوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة فى إقناطه صلى الله عليه وسلم من إسلامهم ما لاغاية وراءه فإنهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام ولوخلاهم يفعلون مايفعلون بل أملوا منه صلى الله عليه وسلم مالايكاد يدخل تحت الإمكان من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم فى أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم ، وإما أنهم أظهروها للنبى صلى الله عليه وسلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وإن بالغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه مايدل على خلافه فإن قوله عز وجل ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ صريح فى أن ما وقع هذا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة بل ما يستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية والنصرانية وأداء أن الاهتداء فيهما كقوله عز وجل حكاية عنهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أى قل ردا عليهم إن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى بالحق والذى يحق ويصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وماتدعون إليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم وهى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم إذ هى التى ينتمون إليها ، وأما ماشرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييرا ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ أى الوحى أو الدين المعلوم صحته ﴿ مالك من الله ﴾ من جهته العزيزة ﴿ من ولى ﴾ يلى أمرك عموما ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفى الولى نفى النصير وسط لا بين المعطوفين لتأكيد النفى وهذا من باب التهييج والإلهاب وإلافأنى يتوهم إمكان اتباعه عليه السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذى وطأه اللام واكتفى بهعن جواب الشرط. ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ يتلونه

حق تلاوته ﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبر فى معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر مابعده أو خبر وما بعده مقرر له ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ﴿ يؤمنون به ﴾ أى بكتابهم دون المحرفين فإنهم بمعزل من الإيمان به فإنه لايجامع الكفر ببعض منه ﴿ ومن يكفر به ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ يابنى إسرائيل إذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ ومن جملتها التوراة وذكر النعمة إنما يكون بشكرها وشكرها الإيمان بجميع ما فيها ومن جملته نعت النبى صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الإيمان بها الإيمان به عليه الصلاة والسلام ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أفردت هذه النعمة بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لإنافتها فيما بين فنون النعم ﴿ واتقوا ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ يوما لاتجزى ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ نفس ﴾ من النفوس ﴿ عن نفس ﴾ أخرى ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئا من الجزاء ﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ أى فدية ﴿ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ وتخصيصهم بتكرير التذكير وإعادة التحذير للمبالغة فى النصح وللإيذان بأن ذلك فذلكة القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها أشد وأقبح ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ شروع فى تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد والإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه السلام ، وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن مايدعونه من أنهم على ملة إبراهيم عليه والصلاة والسلام فرية بلا مرية ببيان ماصدر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء عليهم السلام من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقية التوحيد والإسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبى الذى استدعاه إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والصلام بقولهما (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية فإذا منصوب على المفعولية بمضمر مقدر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما

وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد الوازعة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات قد مر وجهه فى أثناء تفسير قوله عز وجل (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقيل على الظرفية بمضمر مؤخر أى وإذا ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيجىء من قوله تعالى : قال الخ ، والأول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على اذكروا خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون إلى ملة إبراهيم وأبنائه عليهم السلام من الأفعال والأقوال ليتمتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والإبتلاء فى الأصل الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك إنما يتصور حقيقة ممن لاوقوف له عواقب الأمور ، وأما من العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتب عليه شيأ هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من الكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وإبراهيم اسم أعجمى قال السهيلى كثيراً ما يقع الاتفاق أو التقارب بين السريانى والعربى ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة على ما روى البخارى فى حديث الرؤيا أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس وهو مفعول مقدم لإضافة فاعله إلى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أو امر ونواهى تظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الإمامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المقالة وتذكيرها الناس لإرشادهم إلى طريق إتقان الأمور ببنائها على التجربة وللإيذان بأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعدظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة . كيف لا وهى التى أجيب بها دعوة إبراهيم عليه السلام

كما سيأتى واختلف فى الكلمات فقال مجاهد هى المذكورة بعدها ورد بأنه يأباه الفاء فى فأتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هى عشر خصال كانت فرضا فى شرعه وهن سنة فى شرعنا خمس فى الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس فى البدن الختان وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء .

وفى الخبر أن إبراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الأظفار وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام عشر منها فى سورة براءة: التائبون إلخ وعشر فى الأحزاب:إن المسلمين والمسلمات إلخ وعشر فى المؤمنون : وسأل سائل إلى قوله عز وجل والذين هم على صلاتهم يحافظون . وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومه والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هى المناسك كالطواف والسعى والرمى والإحرام والتعريف وغيرهن وقيل هى قوله عليه السلام (الذى خلقنى فهو يهدين) الآيات ثم قيل إنما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لأنه يقتضى سابقة الوحى وأجيب بأن مطلق الوحى لا يستلزم البعثة إلى الخلق وقرىء برفع إبراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أولا ﴿ فأتمهن ﴾ أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان كما فى قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ما روى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه بقوله (رب اجعلنى) الآيات وقوله عز وجل ﴿ قال ﴾ على تقدير انتصاب إذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فإن الابتلاء تمهيد لأمر معظم وظهور فضيلة المبتلى من دواعى الإحسان إليه فبعد حكايتها تترقب النفس إلى ما وقع بعدهما كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾ أو بيان لقوله تعالى

وابتلى على رأى من يجعل الكلمات عبارة عما ذكر أثره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب إذ يقال فالجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والواو فى المعنى داخلة على قال أى وقال إذا ابتلى إلخ والجعل بمعنى التصيير أحد مفعوليه الضمير والثانى إماما واسم الفاعل بمعنى المضارع وأوكد منه لدلالته على أنه جاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك أى لأجل الناس أو بمحذوف وقع حالا من إماما إذ لو تأخر عنه لكان صفة له والإمام اسم لمن يؤتم به وكل نبى إمام لأمته وإمامته عليه السلام عامة مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته مأمورا باتباع ملته .

﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام عنده ؟ فقيل : قال ﴿ومن ذريتى﴾ عطف على الكاف ومن تبعيضية متعلقة بجاعل أى وجاعل بعض ذريتى كما تقول وزيدا لمن يقول سأكرمك أو بمحذوف أى واجعل فريقا من ذريتى إماما وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة إمامة الكل وإن كانوا على الحق وقيل التقدير وماذا يكون من ذريتى والذرية نسل الرجل فعولة من ذروت أو ذريت والأصل ذروة أو ذروية فاجتمع فى الأولى واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت ذرية أو فعيلة منهما والأصل فى الأولى ذريوة فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسبق إحداهما بالسكون فصارت ذريية كالثانية فأدغمت الياء فى مثلها فصارت ذرية أو فعيلة من الذرء بمعنى الخلق والأصل ذريئة فخففت الهمزة بإبدالها ياء كهمزة خطيئة ثم أدغمت الياء الزائدة فى المبدلة أو فعيلة من الذر بمعنى التفريق والأصل ذريرة قلبت الراء الأخيرة ياء لتوالى الأمثال كما فى تسرى وتقضى وتظنى فأدغمت الياء فى الياء كما مر أو فعولة منه والأصل ذرورة فقلبت الراء الأخيرة ياء فجاء الإدغام وقرىء بكسر الذال وهى لغة فيها وقرأ أبو جعفر المدنى بالفتح وهى أيضا لغة فيها ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال

ينساق إليه الذهن كما سبق ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ ليس هذا ردا لدعوته عليه السلام بل إجابة خفية لها وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الإمامة حسبما وقع فى استدعائه عليه الصلاة السلام من غير تعيين لهم بوصف يميز لهم عن جميع من عداهم فإن التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من ذلك التمييز إذ ليس معناه أنه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير إليه ولعل إيثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادىء الإمامة من ذريته إجمالا أو تفصيلا وإرسال الباقين لئلا ينتظم المقتدون بالأئمة من الأمة فى سلك المحرومين وفى تفصيل كل فرقة من الإطناب مالايخفى مع ما فى هذه الطريقة من تخييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع أطماعهم الفارغة من نيلها . إنما أوثر النيل على الجعل إيماء إلى أن إمامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسمعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هى حاصلة فى ضمن إمامة إبراهيم عليه السلام تنال كلا منهم فى وقت قدره الله عز وجل وقرىء الظالمون على أن عهدى مفعول قدم على الفاعل اهتماما ورعاية للفواصل وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر على الإطلاق وعدم صلاحية الظالم للإمامة . قوله تعالى ﴿وإذ جعلنا البيت﴾ أى الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على إذا ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمر مستقل معطوف على المضمر الأول والجعل إما بمعنى التصيير فقوله عز وجل ﴿مثابة﴾ أى مرجعا يثوب إليه الزوار بعدما تعوقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجة واعتماره مفعوله الثانى وإما بمعنى الإبداع فهو حال من مفعوله واللام فى قوله تعالى ﴿للناس﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لأجل الناس وقرىء مثابات باعتبار تعدد التائبين ﴿وأمنا﴾ أى آمنا كما فى قوله تعالى (حرما آمنا) على إيقاع المصدر موقع اسم

الفاعل للمبالغة أو على تقدير المضاف أى ذا أمن أو على الإسناد المجازى أى آمنا بحجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ما قبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وإن كان جانيا حتى يخرج على ما هو رأى أبى حنيفة ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس إلى كل شىء كائنا ما كان ويدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان يهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فإذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ على إرادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أى وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا إلخ وقيل هو بنفسه معطوف على الأمر الذى يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كأنه قيل توبوا إليه واتخذوا إلخ وقيل على المضمر العامل فى إذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الأخيرة له عليه السلام ولأمته والأول هو الأليق بجزالة النظم الكريم والأمر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذى عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذى كان عليه حين قام ودعا الناس إلى الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى إما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال «هذا مقام إبراهيم» فقال عمر رضى الله عنه أفلا نتخذه مصلى فقال «لم أومر بذلك» فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما روى جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام إبراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجمار واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله عز وجل وقرىء واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذى وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل ﴾ أى أمرناهما أمرا مؤكدا ﴿ أن طهرا بيتى ﴾ بأن طهراه على ان مصدرية حذف عنها الجار حذفا مطردا لجواز كون صلتها أمرا

ونهيا كما فى قوله عز وجل (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) لأن مدار جواز كونها فعلا إنما هو دلالته على المصدر وهى متحققة فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا يوصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال أو أى طهراه على أن « أن » مفسرة لتضمن العهد معنى القول وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الأمر بالتطهير ههنا إليهما عليهما السلام لا ينافى ما فى سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام فإن ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وكان إسمعيل عليه السلام حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهى وتمام البناء كما ينبىء عنه إيراده إثر حكاية جعله مثابة للناس إلخ والمراد تطهيرة من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به ﴿للطائفين﴾ حوله ﴿والعاكفين﴾ المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين ﴿والركع السجود﴾ جمع راكع وساجد أى للطائفين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود من هيئات المصلى أى لتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما أو أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم وفيه إيماء إلى أن ملابسة غيرهم به وإن كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ عطف على ما قبله من قوله وإذ جعلنا إلخ إما بالذات أو بعامله المضمر كما مر ﴿رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا أهله كليلة نائم أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول إلى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا

فقال نعم قالت إذن لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال (ربنا إنى أسكنت) الآية وتعريف البلد مع جعله صفة لهذا فى سورة إبراهيم إن حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين البلدية والأمن فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أوكان المسئول أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب إلى ذلك وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسؤل أولا أيضا وقد أجيب إليه لكن السؤال الثانى لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل البلد صفة لهذا لأنه المقصد الأصلى أو لأن المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الأمرين وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوى إليه كما سيأتى تفصيله هناك بإذن الله عز وجل ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء وإظهاراً لشرف الإيمان وإبانة لخطره واهتماما بشأن أهله ومراعاة لحسن الأدب وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان وزجر عن الكفر كما أن فى حكايته ترغيبا وترهيبا لقريش وغيرهم من الكتاب ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كما هو مرارا وقوله تعالى ﴿ ومن كفر ﴾ عطف على مفعول فعل محذوف تقديره ارزق من آمن ومن كفر وقوله تعالى ﴿ فأمتعه ﴾ معطوف على ذلك القول أو فى محل رفع بالابتداء وقوله تعالى فأمتعه خبره أى فأنا أمتعه وإنما دخلته الفاء تشبيها له بالشرط والكفر وإن لم يكن سببا للتمتيع المطلق لكنه يصلح سببا لتقليله

وكونه موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلقين كأنه قيل قل وارزق من كفر فإنه أيضا مجاب كأنه عليه السلام قاس الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أنه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الإمامة الخاصة بالخواص وقرىء فأمتعه من أمتع وقرىء فنمتعه ﴿قليلا﴾ تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ أى ألزه إليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم وقرىء ثم نضطره على وفق قراءة فنمتعه وقرىء فأمتعه قليلا ثم أضطره بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام وفى قال ضميره وإنما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للإيذان بأن الكفر سبب لاضطرارهم إلى عذاب النار وأما رزق من آمن فإنما هو على طريقة التفضل والإحسان وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة وأطره بإدغام الضاد فى الطاء وهى لغة مرذولة فإن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها بلا عكس ﴿وبئس المصير﴾ المخصوص بالذم محذوف أى بئس المصير النار أو عذابها ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ عطف على ما قبله من قوله عز وعلا وإذ قال إبراهيم على أحد الطريقين المذكورين فى وإذ جعلنا وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهى الأساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله ورفعه البناء عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع والمرتفع حقيقة وإن كان هو الذى بنى عليها لكنهما لما صارا شيئا واحدا فكأنها نمت وارتفعت وقيل المراد بها ساقات البناء فإن كل ساق قاعدة لما يبنى عليها ويرفعها بناء بعضها على بعض وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى حجه وفى إبهامها أولا ثم تبيينها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وقيل المعنى وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعنى يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روى أن الله عز وجل أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقى وغربى وقال لآدم أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف به

كما يطاف حول عرشي فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا برحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام وحج آدم عليه السلام أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور وكان موضعه خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها إبراهيم عليه السلام حتى أتى مكة المعظمة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار إبراهيم فى ظلها إلى أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودى أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل بناه من خمسة أجبل طورسيناء وطورزيتا ولبنان والجودى وأسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من السماء وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبيء فيه فى أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسود وقال الفاسى فى مثير الغرام فى تاريخ البلد الحرام والذى يتحصل من جملة ما قيل فى عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووى فى تهذيب الأسماء واللغات والأزرقى فى تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم عليه السلام ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقى فى دلائل النبوة وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيا لى بيتا فخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى إذا أصاب الماء نودى من تحته حسبك آدم فلما بنياه أوحى إليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وهكذا ذكره الأزرقى فى تاريخه وعبد الرزاق فى مصنفه ومنها بناء بنى آدم عندما رفعت الخيمة التى عزى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضربت فى موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم إلى أن مسه الغرق فى عهد نوح عليه السلام ذكره الأزرقى بسنده إلى وهب بن منبه ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه فى القرآن مشهور فى

ما بين قاص ودان ومنها بناء العمالقة ومنها بناء جرهم ذكرهما الأزرقى بسنده إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ومنها بناء قصى بن كلاب ذكره الزبير بن بكار فى كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل الجدار من جدارنها وقال الحافظ السهيلى إن بناءها لم يكن فى الدهر إلا خمس مرات الأولى حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم ﴿ واسمعيل ﴾ عطف على إبراهيم ولعل تأخيره عن المفعول للإيذان بأن الأصل فى الرفع هو إبراهيم وإسمعيل تبع له قيل إنه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها وقيل كانا يبنيانه من طرفيه ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ على إرادة القول أى يقولان وقد قرىء به على أنه حال منهما عليهما السلام وقيل على أنه هو العامل فى إذ والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا إذ يرفعان أى وقت رفعهما وقيل وإسمعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل فى ربنا تقبل منا فيكون إبراهيم هو الرافع وإسمعيل هو الداعى والجملة فى محل النصب على الحالية أى وإذ يرفع إبراهيم القواعد والحال أن إسمعيل يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الإجابة وترك مفعول تقبل مع ذكره فى قوله تعالى ربنا وتقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ما هما بصدده من البناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لجميع المسموعات التى من جملتها دعاؤنا ﴿ العليم ﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها نياتنا فى جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقبل لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائهما عليما بنياتهما مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصهما فى أعمالهما مستدع بموجب الوعد تفضلا وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتى السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية واعلم أن الظاهر أن أول ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ثم دعاء

البلدية والأمن وما يتعلق به ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ثم جعله مثابة للناس والأمر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعى فى الحكاية لنظم الشئون الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ونظم الأمور الواقعة من جهة إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال فى سلك آخر وأما قوله تعالى ومن كفر إلخ فإنما وقع فى تضاعيف الأحوال المتعلقة بإبراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلا كما أن وقوع قوله عليه السلام ومن ذريتى فى خلال كلامه سبحانه لذلك ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد وأياما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه من الإخلاص والإذعان وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بإدخال هاجر معهما فى الدعاء أو لأن التثنية من مراتب الجمع .

﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أى واجعل بعض ذريتنا وإنما خصهم بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع وإنما خصا به بعضهم لما علما أن منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لاتقتضى اتفاق الكل على الإخلاص والإقبال الكلى على الله عز وجل فإن ذلك مما يخل بأمر المعاش ولذلك قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا وقيل أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما فى قوله تعالى (ومن الأرض مثلهن) والأصل وأمة مسلمة لك من ذريتنا ﴿ وأرنا ﴾ من الرؤية بمعنى الإبصار أو بمعنى التعريف أى بصرنا أو عرفنا ﴿ مناسكنا ﴾ أى متعبداتنا فى الحج أو مذابحنا والنسك فى الأصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة وقرىء ارنا قياسا على فخذ فى فخذ وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرىء بالاختلاس ﴿ وتب علينا ﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة فى التوبة والإيمان أو توبة لهما عما فرط

منهما سهوا ولعلهما قالاه هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما ﴿ إنك أنت التواب الرحيم﴾ وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أى فى الأمة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾ أى من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذى أجيب به دعوتهما عليهما السلام روى أنه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان قال عليه السلام « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى » وتخصيص إبراهيم عليه السلام بالاستجابة له أنه الأصل فى الدعاء واسماعيل تبع له عليه السلام ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ يقرأ ويبلغهم ما يوحى إليه من البينات ﴿ ويعلمهم ﴾ بحسب قوتهم النظرية ﴿ الكتاب ﴾ أى القرآن ﴿ والحكمة ﴾ وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقه ﴿ ويزكيهم ﴾ بحسب قوتهم العملية أى يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصى ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسئول فإن وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التى من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن ملته التى هى الحق الصريح والدين الصحيح أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ أى أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبق أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد فى الخبر أن تسفه الحق وتغمص الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله :

ونأخذ بعده بذناب عيش ... أجب الظهر ليس له سنام

وقوله :

وما قومى بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشعر الرقابا

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ فى إذلال نفسه وذلتها وإهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمنا أن الله تعالى قال فى التوراة إنى باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت ﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ أى اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشىء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام والجواب قسم محذوف الواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ماقبلها أى وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى من المشهور لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل فى حيز القسم مؤكد لمضمونها مقررة لما تقرره ولا حاجة إلى جعله اعتراضا آخر أو حالا مقدرة فإن من كان صفوة للعباد فى الدنيا مشهودا له بالصلاح فى الآخرة كان حقيقا بالاتباع لايرغب عن ملته إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل وإيثار الإسمية لما أن انتظامه فى زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر فى الدارين لا أنه يحدث فى الآخرة والتأكيد بإن واللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الأمور التى تشاهد آثارها وكلمة فى متعلقة بالصالحين على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على أنه قد يغتفر فى الظرف ما لا يغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى إذا تمعددا كان جزائى بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أى وأنه لصالح فى الآخرة لمن الصالحين أو من

غير لفظه أى أعنى فى الآخرة نحو لك بعد رعيا وقيل هى متعلقة باصطفيناه على أن فى النظم الكريم تقديما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين ﴿إذ قال له﴾ ظرف لاصطفيناه لما أن المتوسط ليس بأجنبي بل هو مقرر له لأن اصطفاءه فى الدنيا إنما هو بالنبوة ومايتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم وأنه مانال مانال إلا بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لما أمر به وإخلاص سره على أحسن ما يكون حين قال له ﴿ربه أسلم﴾ أى لربك ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ وليس الأمر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام من الكوكب والقمر والشمس وقيل أسلم أى أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الإسلام والإخلاص أو استقم وفوض أمورك إلى الله تعالى فالأمر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته وإضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام إلى العالمين للإيذان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره إثر بيان كماله فى نفسه وفيه توكيد لوجوب الرغبة فى ملته عليه السلام والتوصية التقدم إلى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه إذا وصله وفصاه إذا فصله كان الموصى يصل فعله بفعل الوصى والضمير فى بها الملة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فى قوله عز وجل (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقرىء أوصى والأول أبلغ ﴿ويعقوب﴾ عطف على إبراهيم أى وصى بها هو أيضاً بنيه وقرىء بالنصب عطفا على بنيه ﴿يابنى﴾ على إضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لأنه فى معنى القول كما فى قوله :

رجلان من ضبة أخبرانا أنا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الأولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالإخبار الذى هو فى معنى القول وقرىء أن يا بنى وبنو إبراهيم عليه السلام كانوا أربعة إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثنى عشر روبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ دين الإسلام الذى هو صفوة الأديان ولادين غيره عنده تعالى : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت أى فاثبتوا عليه ولا تفارقوه أبدا كقولك لاتصل إلا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لاخير فيه وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والخطاب لأهل الكتاب الراغبين عن ملة إبراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر وإذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به إذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك إجمالا ومعنى بل الإضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبما حكى عنهم وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الأنبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سيأتى من قوله عز وجل (أم تقولون إن إبراهيم) الخ ومعنى الهمزة إنكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى ﴿إذ قال﴾ بدل من إذ حضر أى ما كنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام. وقوله ﴿ لبنيه ماتعبدون من

بعدى﴾ أى أى شىء تعبدونه بعد موتى فمن أين لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ما تدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والإنكار والتبكيت ثم بين أن الأمر قد جرب حينئذ على خلاف ما زعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما إذ به يتم وصيته بقوله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شىء ما لم يعرف فإذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن شىء بعينه وإن سئل عن وصفه قيل ما زيد أفقيه أم طبيب فقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقرب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أى نعبد الإله المتفق على وجوده وإلهيته ووجوب عبادته وعد إسماعيل من آبائه تغليبا للأب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى وقرىء أبيك على أنه جمع بالواو والنون كما فى قوله :

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

وقد سقطت النون بالإضافة أو مفرد وإبراهيم عطف بيان له وإسماعيل وإسحاق معطوفان على أبيك ﴿إلها واحدا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى (بالناصية ناصية كاذبة) وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشىء من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أو نصب على الاختصاص ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما معا ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ماسبق ﴿تلك أمة﴾ مبتدأ وخبر والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والأمة هى الجماعة التى تؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها ﴿قد خلت﴾ صفة للخبر أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها وأصله صارت إلى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها ﴿لها ما كسبت﴾ جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب أو صفة أخرى لأمة أو حال

من الضمير فى خلت وما موصولة أو موصوفة والعائد إليها محذوف أى لها ما كسبته من الأعمال الصالحة المحكية لاتتخطاها إلى غيرها فإن تقديم المسند يوجب قصر المسند إليه عليه كما هو المشهور ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ عطف على نظيرتها على الوجه الأول ، وجملة مبتدأة على الوجهين الأخيرين إذ لا رابط فيها ولا بد منه فى الصفة ولا مقارنة فى الزمان ولا بد منها فى الحال أى لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فإن تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند إليه كما قيل فى قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) أى ولى دينى لا دينكم وحمل الجملة الأولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام إذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج إلى بيان امتناعه وإنما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بأن أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لاتتخطاهم إلى غيرهم وليس لهؤلاء إلا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم لهم فى الأعمال كما قال عليه السلام يابنى هاشم لايأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ إن أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون ما مر من الجملتين تقريرا ظاهرا وأن أريد به مسببه أعنى الجزاء فهو تتميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمة الخالية وإنما أطلق العمل لإثبات الحكم بالطريق البرهانى فى ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل أى لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب فى أنه مما لا يليق بشأن التنزيل كيف لا وهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعه ﴿ وقالوا ﴾ شروع فى بيان فن آخر من فنون كفرهم وهو إضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالهم فى أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لإبعادهم من مقام المخاطبة والإعراض عنهم وتعديد جناياتهم عند غيرهم أى قالوا للمؤمنين ﴿ كونوا هودا أو نصارى ﴾ ليس هذا القول مقولا لكلهم أو لأى طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما

على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاء مغنيا عن التصريح به أى قالت اليهود كونوا هودا والنصارى كونوا نصارى ففعل بالنظم الكريم ما فعل بقوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) اعتمادا على ظهور المراد ﴿تهتدوا﴾ جواب الأمر أن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قل﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ما هو الحق لديهم وإرشادهم إليه ﴿بل ملة إبراهيم﴾ أى لا نكون كما تقولون بل نكون أهل ملته عليه السلام وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد جوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أنتم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرىء بالرفع أى بل ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن ملته ﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الباطل إلى الحق وهو حال من المضاف إليه كما فى رأيت وجه هند قائمة أو المضاف كما فى قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) الخ ﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بهم وإيذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع إشراكهم بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله .

﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالتهم الشنعاء على الإجمال وإرشاد لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضرب من التفصيل أى قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقا وإرشادا ضمنيا لهم إليه ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الإلهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سببا للإيمان بها ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾ جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أو أبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحق ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرة بأيديهما حسبما فصل فى التنزيل الجليل وإيراد الإيتاء لما أشير إليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وما أوتى النبيون﴾ أى جملة المذكورين وغيرهم ﴿من ربهم﴾ من الآيات البينات والمعجزات الباهرات

﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وإنما اعتبر عدم التفريق بينهم مع أن الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوتوه وهمزة أحدا إما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس ومنه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم «ما أحلت الغنائم لأحد سود الروس غيركم» حيث وصف بالجمع ، وإما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حجر إلا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا عليه تحقيق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ما ليس فى أن يقال لا نفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمنا وقوله عز وجل ﴿ونحن له مسلمون﴾ أى مخلصون له ومذعنون حال أخرى منه أو عطف على آمنا ﴿فإن آمنوا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن ما تقدم من إيمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لإيمان أهل الكتابين لما أنه مشتمل على ما هو مقبول عندهم ﴿بمثل ما آمنتم به﴾ أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على أن المثل مقحم كما فى قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز أن تكون الباء للاستعانة على أن المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفا أو على أن الفعل مجرى مجرى اللازم أى فإن آمنوا بما مر مفصلا أو فإن فعلوا الإيمان بشهادة مثل شهادتكم ، وأن تكون الأولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية أى فإن آمنوا إيمانا مثل إيمانكم بما ذكر مفصلا وأن تكون للملابسة أى فإن آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فإن آمنوا إيمانا ملتبسا به من الإذعان

والإخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام فإن ما وجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والإذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لاعينه بخلاف المؤمن به فإنه لايتصور فيه التعدد ﴿ فقد اهتدوا ﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق ، وأما ماقيل من أن المعنى فإن تحروا الإيمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فإن وحدة المقصد لاتأبى تعدد الطريق الحق وإرشادهم إليه بعينه لايلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراءه ﴿وإن تولوا﴾ أى أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشيء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديدنهم ﴿فإنما هم فى شقاق﴾ المشاقة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف والمعاداة والعداء من العداوة أى التجانب فإن أحد المخالفين يعرض عن الآخر صورة أو معنى ويوليه خلفه ويأخذ فى شق غير شقه وعدوة غير عدوته والتنوين للتفخيم أى هم مستوون فى خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا لدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة إما جواب الشرط كما هى على أن المراد مشاقتهم الحادثة بعد توليهم عن الإيمان بجواب الشرطية الأولى وإنما أوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم فى ذلك ، وإما بتأويل فاعلوا أنماهم فى شقاق . هذا هو الذى يستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل ، وقد قيل قوله تعالى (فإن آمنوا الخ) من باب التعجيز والتبكيت على منهاج قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، والمعنى فإن حصلوا دينا آخر مثل دينكم مماثلا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا وإذ لا إمكان له فلا إمكان لاهتدائهم ولا ريب فى أنه مما لايليق بحمل النظم الكريم عليه. ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدى إلى الجدال والقتال لامحاله عقب ذلك بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة ضمان التأييد والإعزاز ، وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل﴿فسيكفيكهم الله﴾ أى سيكفيك شقاقهم فإن الكفاية لاتتعلق بالأعيان بل بالأفعال وقد أنجز عز وعلا وعده الكريم بقتل بنى

النضير وتلوين الخطاب بتجريده للنبي صلى الله عيه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه الأصل والعمدة فى ذلك وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد فى مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى فى الكفاية والنصر فى حقه عليه السلام أتم وأكمل ﴿ وهو السميع العليم ﴾ تذييل لما سبق من الوعد وتأكيد له والمعنى أنه تعالى يسمع ماتدعوه به ويعلم مافى نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أووعيد للكفرة أي يسمع ماينطقون به ويعلم ما يضمرونه فى قلوبهم مما لاخير فيه وهو معاقبهم عليه ولايخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابق فإن وعيد الكفرة وعد للمؤمنين ﴿ صبغة الله ﴾ الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بها عن الإيمان بما ذكر على الوجه الذى فصل لكونه تطهيرا للمؤمنين من أوضار الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا فى قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك وقيل للمشاكلة التقديرية فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم وإضافتها إلى الله عز وجل مع استناده فيما سلف إلى ضمير المتكلمين للتشريف والإيذان بأنها عطية منه سبحانه لايستقل العبد بتحصيلها فهى إذن مصدر مؤكد لقوله تعالى ﴿ آمنا ﴾ داخل معه فى حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة فعله كأنه قيل صبغنا الله صبغة وقيل هى منصوبة بفعل الإغراء أى الزموا صبغة الله وإنما وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء ببيان أنه الإيمان الحق وبه الاهتداء ومسارعة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام ﴿ ومن أحسن من الله ﴾ مبتدأ وخبر الاستفهام للإنكار والنفى وقوله تعالى ﴿ صبغة ﴾ نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالى فالتفضيل جار بين الصبغتين لا بين فاعليهما أى لاصبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنها أحسن من كل صبغة على ما أشير إليه فى قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع الخ) وحيث كان مدار التفضيل على

تعميم الحسن الحقيقى والفرضى المبنى على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون فى صبغة غيره تعالى حسن فى الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما فى صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج ﴿ ونحن له ﴾ أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عابدون﴾ شكراً لها ولسائر نعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنا داخل معه تحت الأمر وإيثار الاسمية للإشعار بدوام العبادة أو على فعل الإغراء بتقدير القول أى ألزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى(ومن أحسن من الله) صبغة حينئذ يجرى مجرى التعليل للإغراء ﴿قل أتحاجوننا﴾ تجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم عقب الكلام الداخل تحت الأمر الوارد بالخطاب العام لما أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرىء بإدغام النون والهمزة للإنكار والتوبيخ أى أتجادلوننا ﴿فى الله﴾ أى فى دينه وتدعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وتارة كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ جملة حالية وكذلك ما عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلا لأنه تعالى ربنا أى مالك أمرنا وأمركم ﴿ولنا أعمالنا﴾ الحسنة الموافقة لأمره ﴿ولكم أعمالكم﴾ السيئة المخالفة لحكمه ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ فى تلك الأعمال لا نبتغى بها إلا وجهه فأنى لكم المحاجة حقية ما أنتم عليه والطمع فى دخول الجنة بسببه ودعوة الناس إليه وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿ أم تقولون ﴾ إما معادلة للهمزة فى قوله تعالى (أتحاجوننا) داخلة فى حيز الأمر على معنى أى الأمرين تأتون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما أنتم عليه والحال ما ذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء وتقولون ﴿إن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ فنحن بهم مقتدون والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما ، وإما منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم

السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهى منقطعة لاغير غير داخلة تحت الأمر واردة من جهته تعالى توبيخا لهم وإنكاراً عليهم لامن جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل . هذا ، وأما ماقيل من أن المعنى أتحاجوننا فى شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روى أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى (وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أنه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلايبعد أن يكرمنا كما أكرمكم بأعمالكم كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاما وتبكيتا فإن كرامة النبوة ، إما تفضل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء ، وإما إفاضة حق على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالإخلاص فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله تعالى فى إعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لا أنتم فمع عدم ملاءمته لسياق النظم الكريم وسيما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح فى نفسه لما أن المراد بالأعمال من الطرفين ما أشير إليه من الأعمال الصالحة والسيئة ولا ريب فى أن أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبنى على البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار تلك الأعمال فى استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ إعادة الأمر ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الإنكار عليهم بل للإيذان بأن مابعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام المخاطبين مترتب على ماسبق مستتبع لما أنه الحق قد أضرب عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما وبخوا عليه من الافتراء على الأنبياء عليهم السلام كما فى قوله عز وجل قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون) وقوله عز قائلا (قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على) فإن تكرير قال فى الموضعين وتوسيطه بين قولى قائل واحد للإيذان بأن بينهما كلاماً لصاحبه متعلقاً بالأول والثانى بالتبعية والاستتباع كما حرر فى محله أى كذبهم فى ذلك وبكتهم قائلا إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون وقد نفى عن إبراهيم عليه السلام كلا الأمرين حيث

قال ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) وهولاء المعطوفون عليه السلام أتباعه فى الدين وفاقا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما تصفون ﴿ ومن أظلم ﴾ إنكار لأن يكون أحد أظلم ﴿ممن كتم شهادة﴾ ثابتة ﴿عنده﴾ كائنة ﴿من الله﴾ وهى شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلى آنفاً فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جىء بهما لتعليل الإنكار وتأكيده فإن ثبوت الشهادة عنده وكونها من جانب الله عز وجل من أقوى الدواعى إلى إقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الأول مع أنه متأخر فى الوجود لمراعاة طريقة الترقى من الأدنى إلى الأعلى والمعنى أنه لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الأظلمية بمطلق الكتمان للإيماء إلى أن مرتبة من يردها ويشهد بخلافها فى الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمها عدم إقامتها فى مقام المحاجة وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير إليه وفى إطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الأنبياء عليهم السلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرىء عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير إما لمن كتم باعتبار المعنى، وإما لأهل الكتاب وقوله تعالى (ومن أظلم إلى آخر الآية) مسوق من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون﴾ تكرير للمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذير عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالأمة الأولى الأنبياء عليهم السلام وبالثانية أسلاف اليهود ﴿سيقول السفهاء﴾ أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض

عن التدبر والنظر من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج وقيل السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم قالوه إنكارا للنسخ وكراهة للتحويل حيث كانوا يأنسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم فى القبلة الأولى وبطلان الثانية إذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل إلى مكة بل طعنا فى الدين فإنهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها وليرجعن إلى دينهم أيضا وقيل هم القادحون فى التحويل منهم جميعاً فيكون قوله تعالى ﴿من الناس﴾ أى الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض فى فنون الفساد وهو الأظهر إذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذكر لا يقتضى تسليم الباقين للتحويل وارتضاءهم إياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقا أو بالعبارة المحكية .

﴿ ما ولاهم ﴾ أى أى شىء صرفهم والاستفهام للإنكار والنفى ﴿ عن قبلتهم﴾ القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة وهى الحالة التى يقابل الشىء غيره عليها كالجلسة للحالة التى يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة إذا لم يهتد لجهة أمره غلبت على الجهة التى يستقبلها الإنسان فى الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس وإضافتها إلى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى ﴿التى كانوا عليها﴾ أى ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها لتأكيد الإنكار فإن الاختصاص بالشىء والاستمرار عليه باعتقاد حقيته مما ينافى الانصراف عنه فإن أريد بالقائلين اليهود فمدار الإنكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنه خطأ وإن أريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه وإظهار أن كلا من التوجه إليها والإنصراف عنها واقع بغير داع إليه لا لكراهتهم الانصراف عنها أو التوجه إلى مكة وتعليق الإنكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم إلى غيرها مع تلازمهما فى

الوجود لما أن ترك الدين القديم أبعد عند العقول وإنكار سببه أدخل لا للإيذان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل عن خصوصية بيت المقدس الذى هو القبلة الحقة عندهم لا التوجه إلى خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه إلى الكعبة لأنه الحق عندهم فإنه بمعزل عن ذلك كيف لا والمنافقون من أحد الفريقين لا محالة والإخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس وإعداد ما يبكتهم فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد وقوله عز وجل ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أى لله تعالى ناحيتا الأرض أى الجهات كلها ملكا وملكا وتصرفا فلا اختصاص لناحية منها لذاتها بكونها قبلة دون ما عداها بل إنما هو بأمر الله سبحانه ومشيئته ﴿ يهدى من يشاء ﴾ أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التى لا يعلمها إلا هو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى سعادة الدين وقد هدانا إلى ذلك حيث أمرنا بالتوجه إلى بيت المقدس تارة وإلى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المقارنة لحكم أبية ومصالح خفية ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ توجيه للخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما فى مضمون الكلام من التشريف وذلك إشارة إلى مصدر جعلناكم لا إلى جعل آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد إلى المؤمنين لما أن المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطا جعلا كائنا مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر

المؤكد لا نعتاً له أى ذلك الجعل البديع جعلناكم ﴿ أمة وسطا ﴾ لا جعلا آخر أدنى منه والوسط فى الأصل اسم لما يستوى نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والإعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائى :

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فإن تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام إذ لا ملابسة بينها وبين أهليه الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفى الإفراط والتفريط كالعفة التى طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التى طرفاها الجربزة والبلادة وكالعدالة التى هى كيفية متشابهة حاصلة من اجتماع تلك الأوساط المحفوفة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه نفسها وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث رعاية لجانب الأصل كدأب سائر الأسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هى أن الجعل المشار إليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى إلى الحق الذى عبر عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجانبين فإنا إذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة كون الأمة المهدية إليه أمة وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة أى متصفة بالخصال الحميدة خيارا وعدولا مزكين بالعلم والعمل ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ بأن الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل من مدكر وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فإن العدالة كما أشير إليه حيث كانت هى الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية

البهيمية والشجاعة التى هى فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التى هى فضيلة القوة العقلية الملكية المشار إلى رتبتها بقوله عز وعلا (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا) كان المتصف بها واقفا على الحقائق المودعة فى الكتاب المبين المنطوى على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا بالشرائط الشهادة عليهم . روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم إقامة للحجة على المنكرين وزيادة لخزيهم بأن كذبهم من بعدهم من الأمم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتها وذلك قوله عز قائلا ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وكلمة الاستعلاء لما فى الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة إلا من العدول الأخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها ﴾ جرد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم رمزا إلى أن مضمون الكلام من الأسرار الحقيقة بأن تخص معرفته بها عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل وما قيل من أن الجعل تحويل الشيء من حالة إلى أخرى فالمتلبس بالحالة الثانية هو المفعول الثانى كما فى قولك جعلت الطين خزفا فينبغى أن يكون المفعول الأول هو الموصول والثانى هو القبلة فهو كلام صناعى ينساق إليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهدى إلى العكس فإن المقصود إفادته أنه ليس جعل الجهة قبلة لا غير كما يفيده ما ذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هى الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلى إليها أولا ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود أو هى الصخرة لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه

وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يراد بالقبلة الأولى الكعبة وأما الصخرة فيتأتى إرادتها على الروايتين والمعنى على الأول وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها قبل هذا الوقت وهى الصخرة ﴿ إلا لنعلم ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك الشىء من الأشياء إلا لنمتحن الناس أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ ﴿ من يتبع الرسول ﴾ فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة والالتفات إلى القبلة مع إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الاتباع ﴿ ممن ينقلب على عقبيه ﴾ يرتد عن دين الإسلام أو لا يتوجه إلى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وماكان لعارض يزول بزواله وعلى الأول ما رددناك إلى ما كنت عليه إلا لنعلم الثابت على الإسلام والناكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه والمراد بالعلم مايدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالى أى ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين وإسناده إليه سبحانه لما أنهم على خواصه وليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم إما بمعنى المعرفة أومتعلق بما فى «من» من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى ممن ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب على عقبيه ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ أى شاقة ثقيلة وإن هى المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدأ والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالى (إن كان وعد ربنا لمفعولا) وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى إلا أى ما كانت إلا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع إلى مادل عليه قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرىء لكبيرة بالرفع على أن كان مزيدة كما فى قوله :

* وإخوان لنا كانوا كرام * وأصله وإن هى لكبيرة

كقوله إن زيد لمنطلق ﴿ إلا على الذين هدى الله ﴾ أى إلى سر الأحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح إجمالا وتفصيلا وهم المهديون إلى الصراط

المستقيم الثابتون على الإيمان واتباع الرسول عليه السلام : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى ماصح وما استقام له أن يضيع ثباتكم على الإيمان بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل إيمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم إليها لما روى أنه عليه السلام لما توجه إلى الكعبة قالوا كيف حال إخواننا الذين مضوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فنزلت واللام فى ليضيع إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يضيع الخ ففى توجيه النفى إلى إرادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه إلى نفسه وإما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرؤف رحيم ﴾ تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضى لا محالة أن لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برؤف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى الكمية والرأفة أقوى منها فى الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية من الآلام والرحمة إيصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الألم كقطع العضو المتأكل وقرىء رؤف بغير مد كندس ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾ أى تردده وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعة ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل ﴿ فلنولينك قبلة ﴾ الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلة على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أى لنعطينكها ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته واليا له أو لنجعلنك تلى جهتها أو لنحولنك على أن نصب قبلة بحذف الجار أى إلى قبلة وقيل هو متعد إلى مفعولين ﴿ ترضاها ﴾

تحبها وتشتاق إليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته ﴿فول وجهك﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما أنه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن أى فاصرفه ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أى نحوه وهو نصب على الظرفية من نولى أو على نزع الخافض أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الأصل اسم لما انفصل من الشىء ودار شطور إذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة إيذان بكفاية مراعاة الجهة لأن مراعاة العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب . روى عن البراء بن عازب أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه إلى الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجد القبلتين ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب تعظيما لجنابه وإيذانا بإسعاف مرامه ثم عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم تأكيدا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد وحثا للأمة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم فى محل الجزاء بها وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية بكنتم نحو قوله تعالى (أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ من فريق اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه﴾ أى التحويل أو التوجه المفهوم من التولية ﴿الحق﴾ لا غير لعلمهم بأن عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلى إلى القبلتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب وأن مع اسمها وخبرها ساد مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على

أن العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كائنا من ربهم أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائن من ربهم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وعد ووعيد للفريقين والخطاب للكل تغليبا وقرىء على صيغة الغيبة فهو وعيد لأهل الكتاب .

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب ﴾ وضع الموصول موضع المضمر للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقيق ما يرغمهم منه من الكتاب الناطق بحقية ما كابروا فى قبوله ﴿ بكل آية ﴾ أى حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ جواب للقسم المضمر ساد مسد جواب الشرط والمعنى أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وإنما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للأمة لما أن المحاجة والإتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وإفراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم أن مدار النفى هو التعدد وقرىء بتابع قبلتهم على الإضافة ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ الزائغة المتخالفة ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ ببطلانها وحقية ما أنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا ﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾ وفيه لطف للسامعين وتحذيرهم عن متابعة الهوى

فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام فى سلك الراسخين فى الظلم فما ظن من ليس كذلك وإذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم إن وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التى بين الشرط وجوابه المحذوف لأن المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ فى التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الأنبياء عليهم السلام .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أى علماؤهم إذا هم العمدة فى إيتائه ووضع الموصول موضع المضمر مع قرب العهد للإشعار بعلية ما فى حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب فى قوله تعالى ﴿ يعرفونه ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطورا فى الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التى من جملتها أنه عليه السلام يصلى إلى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو إضمار قبل الذكر للإشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير إعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم أو سببه الذى هو الوحى أو القرآن أو التحويل ويؤيد الأول قوله عز وجل ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ أى يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة فى كتابهم ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهن بسبب كونهم أحب إليهم عن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا أعلم به منى بابنى قال ولم قال لأنى لست أشك فيه أنه نبى فأما ولدى فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضى الله عنهما ﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ هم الذين كابروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين آمنوا منهم فإنهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما

الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما فى تضاعيفه فما هم بصدد الإظهار ولا بصدد الكتم وإنما كفرهم على وجه التقليد ﴿الحق﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى ﴿من ربك﴾ خبره واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى الحق الذى يكتمونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذى أنت عليه لا غيره كالذى عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق وقوله تعالى من ربك إما حال أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على أنه بدل من الأول أو مفعول ليعلمون وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى الشاكين فى كتمانهم الحق عالمين به وقيل فى أنه من ربك وليس المراد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك لأنه غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ ﴿ولكل﴾ أى ولكل أمة من الأمم على أن التنوين عوض من المضاف إليه ﴿وجهة﴾ أى قبلة وقد قرىء كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة ﴿هو موليها﴾ أحد المفعولين محذوف أى موليها وجهه أو الله موليها إياه وقرىء ولكل وجهة بالإضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليها أهلها واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرىء مولاها أى مولى تلك الجهة قد وليها ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى تسابقوا إليها بنزع الجار كما فى قوله :

ثنائى عليكم آل حرب ومن يمل … سواكم فإنى مهتد غير مائل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهى المسامتة للكعبة ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ أى فى أى موضع تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو

متفرقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة إلى جهة واحدة ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق ﴿ومن حيث خرجت﴾ تأكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الأمر فى حالتى السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى ﴿فول﴾ أو بمحذوف عطف هو عليه أى من أى مكان خرجت إليه للسفر فول ﴿وجهك﴾ عند صلاتك ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أو افعل ما أمرت به من أى مكان خرجت إليه فول إلخ ﴿وإنه﴾ أى هذا الأمر ﴿للحق من ربك﴾ أى الثابت الموافق للحكمة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرىء يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين ﴿ومن حيث خرجت﴾ إليه فى أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ الكلام فيه كما مر آنفا ﴿وحيثما كنتم﴾ من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبما يعرب عنه إيثار كنتم على خرجتم فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث إقامتهم فيها ﴿فولوا وجوهكم﴾ من محالكم ﴿شطره﴾ والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى أن يؤكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ متعلق بقوله تعالى (فولوا) وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل فعلنا ذلك لئلا إلخ والمعنى أن التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول إلى الكعبة واحتجاج المشركين بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾وهم أهل مكة أى لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أخس الأباطيل من قبيل ما فى قوله تعالى حجتهم داحضة حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة فى نفى الحجة رأسا كالذى فى قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ضرورة أن لاحجة للظالم وقرىء ألا الذين بحرف التنبيه على استئناف ﴿فلا تخشوهم﴾ فإن مطاعنهم لا تضركم شيئا ﴿واخشونى﴾ فلا تخالفوا أمرى ﴿ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾ علة محذوف يدل عليه النظم الكريم أى أمرتكم بما مر لإتمامى للنعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة ولإرادتى لما أنه صراط مستقيم مؤد إلى سعادة الدارين كما أشير إليه فى قوله عز وجل(يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)وفى التعبير عن الإرادة بكلمة لعل الموضوعة للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية مالا يخفى أو عطف على علة مقدرة أى واخشونى لأحفظكم عنهم ولأتم إلخ أو على قوله تعالى لئلا يكون إلخ وتوسيط قوله تعالى فلا تخشوهم إلخ بينهما للمسارعة إلى التسلية والتثبيت وفى الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الإسلام ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ﴾ متصل بما قبله والظرف الأول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما فى صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتمام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة إتماما كائنا كإتمامى لها بإرسال رسول كائن منكم فإن إرسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالإرسال فاذكرونى الخ وإيثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوجيه فيما قبله افتنان وجريان على سنن الكبرياء ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾

صفة ثانية لرسول كاشفة لكمال النعمة ﴿ويزكيكم﴾ عطف على يتلو أى يحملكم على ما تصيرون به أزكياء ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة أخرى مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره فى قصة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث الشريفة من الشرائع وقوله عز وجل ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ صريح فى ذلك فإن الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمها وما ذلك إلا لتفصيل فنون النعم فى مقام يقتضيه كما فى قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) عقيب قوله تعالى (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) والمراد بعدم علمهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار الطريق فى الوحى ﴿فاذكرونى﴾ الفاء للدلالة على ترتب الأمر على ما قبله من موجباته أى فاذكرونى بالطاعة ﴿أذكركم﴾ بالثواب وهو تحريض على الذكر مع الإشعار بما يوجبه ﴿واشكروا لى﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿ولا تكفرون﴾ بجحدها وعصيان ما أمرتكم به ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿استعينوا﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿بالصبر﴾ على الأمور الشاقة على النفس التى من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿والصلوة﴾ التى هى أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿إن الله مع الصابرين﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج إلى التعليل وأما الصلاة

فحيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عيني في الصلاة . لم يفتقر الأمر بالاستعانة بها إلى التعليل ومعنى المعية الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة وإجابة الدعوة ودخول مع على الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية ﴿ ولا تقولوا ﴾ عطف على استعينوا إلخ مسوق لبيان أن لا غاية للمأمور به وإنما الشهادة التى ربما يؤدى إليها الصبر حياة أبدية ﴿لمن يقتل فى سبيل الله أموات﴾ أى هم أموات﴿ بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء ﴿ولكن لا تشعرون﴾ بحياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هى أمر روحانى لايدرك بالعقل بل بالوحى وعن الحسن رحمه الله أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل إليهم الألم والوجع قلت رأيت فى المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة أنى أزور قبور شهداء أحد رضى الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية وما فى سورة آل عمران وأرددهما متفكرا فى أمرهم وفى نفسى أن حياتهم روحانية لا جثمانية فبينما أنا على ذلك إذ رأيت شابا منهم قاعدا فى قبره تام الجسد كامل الخلقة فى أحسن ما يكون من الهيئة والمنظر ليس عليه شىء من اللباس قد بدا منه ما فوق السرة والباقى فى القبر خلا أنى أعلم يقينا أن ذلك أيضا كما ظهر وإنما لايظهر لكونه عورة فنظرت إلى وجهه فرأيته ينظر إلى متبسما كأنه ينبهنى على أن الأمر بخلاف رأيى فسبحان من علت كلمته وجلت حكمته وقيل الآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبه نطقت والسنن وعلى هذا فتخصيص الشهداء بذلك لما يستدعيه مقام التحريض على مباشرة مبادى الشهادة ولاختصاصهم بمزيد القرب من الله عز وعلا ﴿ ولنبلونكم ﴾ لنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء ﴿ بشىء من الخوف والجوع ﴾ أى بقليل من ذلك

فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة ﴿ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ عطف على شيء وقيل على الخوف وعن الشافعي رحمه الله الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الأموال الزكاة والصدقات ومن الأنفس الأمراض ومن الثمرات موت الأولاد وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح عبدي فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة والمصيبة ما يصيب الإنسان من مكروه لقوله عليه السلام كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ما خلق له وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرد معه فيهون ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه ما بعده ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبتهم ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرأفة وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما في قوله تعالى (رأفة ورحمة) (رؤف رحيم) والتنوين فيهما للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لإظهار مزيد العناية بهم أي أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه ﴿وأولئك﴾ إشارة إليهم إما بالاعتبار السابق والتكرير لإظهار كمال العناية بهم وإما باعتبار

حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الأول فعلى الأول المراد بالاهتداء فى قوله عز وجل ﴿ وهم المهتدون ﴾ هو الاهتـــداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم عليهما فلا بد لتأخيره عما هو نتيجة لهما من داع يوجبه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله كأنه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثانى هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيهم الدينية والدنيوية فإن من نال رأفة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب ﴿ إن الصفا والمروة ﴾ علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم ﴿ من شعائر الله ﴾ من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهى العلامة ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر ﴾ الحج فى اللغة القصد والاعتمار الزيارة غلبا فى الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم فى الأعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ اى فى أن يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فأدغمت الطاء فى الطاء وفى إيراد صيغة التفعل إيذان بأن من حق الطائف أن يتكلف فى الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا والشافعى وعن مالك رحمهما الله أنه ركن وإيراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان فى عهد الجاهلية على الصفا صنم يقال له إساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا إذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الإسلام وكسر الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ﴿ ومن تطوع خيراً ﴾ أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعا خيرا أو على حذف الجار وإيصال الفعل إليه أو على تضمين معنى فعل وقرىء يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرىء ومن يتطوع بخير ﴿ فإن الله شاكر ﴾ أى مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة فى الإحسان

إلى العباد ﴿ عليم ﴾ مبالغ فى العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئا وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيرا جازاه الله وأثابه فإن الله شاكر عليم ﴿ إن الذين يكتمون ﴾ قيل نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا ما فى التوراة من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدى والربيع والأصم أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت فى كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والأقرب هو الأول فإن عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب والكتم والكتمان ترك إظهار الشيء قصدا مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه وقد يكون بإزالته ووضع شيء آخر فى موضعه وهو الذى فعله هؤلاء .

﴿ ما أنزلنا من البينات ﴾ من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه ﴿ والهدى ﴾ أى والآيات الهادية إلى كنه أمره ووجوب اتباعه والإيمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للأصل وهى المرادة بالبينات أيضاً والعطف لتغاير العنوان كما فى قوله عز وجل (هدى للناس وبينات) إلخ وقيل المراد بالهدى الأدلة العقلية ويأباه الإنزال والكتم ﴿ من بعد ما بيناه للناس ﴾ متعلق بيكتمون والمراد بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة ببيناه وكذا الظرف فى قوله تعالى ﴿ فى الكتاب ﴾ فإن تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لا ريب فى جوازه أو الأخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائنا فى الكتاب وتبيينها لهم تلخيصه وإيضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بينا فى نفسه وهدى مؤكد لقبح الكتم أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والأول أنسب بقوله تعالى فى الكتاب والمراد بكتمه إزالته ووضع غيره فى موضعه فإنهم محوا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه فى تفسير قوله عز وعلا (فويل للذين يكتبون الكتاب) إلخ ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار

ما وصفوا به للإشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للإيذان بترامى أمرهم وبعد منزلتهم فى الفساد ﴿ يلعنهم الله ﴾ أى يطردهم ويبعدهم من رحمته والالتفات إلى الغيبة بإظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المغايرة لما هو مبدأ الإنزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة ﴿ ويلعنهم اللاعنون ﴾ أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى الثقلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى :

﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أى عن الكتمان ﴿ وأصلحوا ﴾ أى ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف ﴿ وبينوا ﴾ للناس معانيه فإنه غير لصلاح المذكور أو بينوا لهم ما وقع منهم أولا وآخرا فإنه أدخل فى إرشاد الناس إلى الحق وصرفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أوقعوهم فيه أو بينوا توبتهم ليمحوا به سمة ما كانوا فيه ويقتدى بهم أضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالإصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة للإشعار بعليته للحكم والفاء لتأكيد ذلك ﴿ أتوب عليهم ﴾ أى بالقبول وإفاضة المغفرة ، والرحمة وقوله تعالى ﴿ وأنا التواب الرحيم ﴾ أى المبالغ فى قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلى محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التكلم للافتنان فى النظم الكريم مع ما فيه من التلويح والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ فى فعليه تعالى السابق واللاحق ﴿ إن الذين كفروا ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيده الكلام والاقتصار على ذكر الكفر فى الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والإصلاح والتبيين مبنى على ما أشير إليه فكما أن وجود تلك الأمور الثلاثة مستلزم للإيمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعاً أى أن الذين استمروا

على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة ﴿ وماتوا وهم كفار ﴾ لايرعوون عن حالتهم الأولى ﴿ أولئك ﴾ الكلام فيه كما فيما قبله ﴿ عليهم ﴾ أى مستقر عليهم ﴿ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ ممن يعتد بلعنهم وهذا بيان لدوامها الثبوتى بعد بيان دوامها التجددى وقيل الأول لعنتهم أحياء وهذا لعنتهم أمواتا وقرىء والملائكة والناس أجمعون عطفا على محل اسم الله لأنه فاعل فى المعنى كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمر وتريد من أن ضرب زيد وعمر وكأنه قيل أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أى ويلعنهم الملائكة ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى اللعنة أو فى النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها ﴿ لايخفف عنهم العذاب ﴾ إما مستأنف لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف إثر بيان كثرته من حيث الكم أو حال من الضمير فى خالدين على وجه التداخل أو من الضمير فى عليهم على طريقة الترادف ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ عطف على ماقبله جارفيه وإيثار الجملة الاسمية لإفادة دوام النفى واستمراره أى لايمهلون ولايؤجلون أولا ينتظرون ليعتذروا أولا ينظر إليهم نظر رحمة ﴿ وإلهكم ﴾ خطاب عام لكافة الناس أى المستحق منكم للعبادة ﴿ إله واحد ﴾ أى فرد فى الإلهية لاصحة لتسمية غيره إلها أصلا ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر ثان للمبتدأ أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأيا ما كان فهو مقرر للوحدانية ومزيح لما عسى أن يتوهم أن فى الوجود إلها لكن لايستحق العبادة ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ خبران آخران للمبتدأ أو لمبتدأ محذوف وهو تقرير للتوحيد فإنه تعالى حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ماسواه كائناً ماكان مفتقرا إليه فى وجوده وما يتفرع عليه من كمالاته تحققت وحدانيته بلا ريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعاً قيل كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثمائة وستون صنما فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا إن كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ أى فى إبداعهما على ماهما عليه مع مافيهما من تعاجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات

لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر كقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أواختلاف كل منهما فى أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ماقدره الله تعالى ﴿ والفلك التى تجرى فى البحر ﴾ عطف على ما قبله وتأنيثه إما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فإن ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير إذ الأولى كما فى حمر والثانية كما فى قفل وقرىء بضم اللام ﴿ بما ينفع الناس ﴾ أى ملتبسة بالذى ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ عطف على الفلك وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر فى غالب الأمر ومن الأولى ابتدائية والثانية بيانة أو تبعيضية وأياما كان فتأخيرها لما مر مرارا من التشويق والمراد بالسماء الفلك أو السحاب أو جهة العلو ﴿ فأحيى به الأرض ﴾ بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار ﴿ بعد موتها ﴾ باستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به إيراد الموت فى مقابلة الإحياء ﴿ وبث فيها ﴾ أى فرق ونشر ﴿ من كل دابة ﴾ من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخلة تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيا الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شىء واحد كأنه قيل وما أنزل فى الأرض من ماء وبث فيها الخ أو على أحيا بحذف الجار والمجرور العائد إلى الموصول وإن لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله :

وإن لسانى شهدة يشتفى بها ولكن على من صبه الله علقم

أى علقم عليه وقوله :

لعل الذى أصعدتنى أن يردنى إلى الأرض إن لم يقدر الخير قادره

على معنى فأحيا بالماء الأرض وبث فيها من كل دابة فإنهم ينمون

بالخصب ويعيشون بالحيا ﴿ وتصريف الرياح ﴾ عطف على ما أنزل أى تقليبها من مقاب إلى آخر أو من حال إلى أخرى وقرىء على الإفراد ﴿ والسحاب ﴾ عطف على تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمى بذلك لانسحابه فى الجو ﴿ المسخر بين السماء والأرض ﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله تعالى سحابا ثقالا وتسخيره تقليبه فى الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب فى الذكر عن جريان الفلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجى لما مر فى قصة البقرة من الإشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة فى كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجى لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة ﴿ لآيات ﴾ اسم إن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به سبحانه ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم آية تصدقه فى قوله تعالى (وإلهكم إله واحد) وتسجيل عليهم بسخافة العقول وإلا فمن تأمل فى تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى واستغنى بها عن سائرها فإن كل واحد من الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين مستتبع لحكم مستقل فإذن لا بد له حتما من موجد قادر حكيم يوجده حسبما تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير إذ لو كان معه آخر يقدر على مايقدر عليه لزم إما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التمانع المؤدى إلى فساد العالم ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ بيان لكمال ركاكة آراء المشركين إثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة

الملجئة للعقلاء إلى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شيء من الموجودات فى صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة فى صفات الألوهية والكلام فى إعرابه كما فصل فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) الخ ومن دون الله متعلق بيتخذ أى من الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذى ذكرت شئونه الجليلة وإيثار الإسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات ﴿ أنداداً ﴾ أى أمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لاسيما فى الأوامر والنواهى كما يفصح عنه ما سيأتى من وصفهم بالتبرى من المتبعين وقيل هى الأصنام وإرجاع ضمير العقلاء إليها فى قوله عز وعلا ﴿ يحبونهم ﴾ مبنى على آرائهم الباطلة فى شأنها وصفهم بمالا يوصف به إلا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حد مد لكن الاستعمال المستفيض على أحب حبا ومحبة فهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه إرادة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه فمعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة فى حيز النصب إما صفة لأندادا أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن إفراده باعتبار لفظها ﴿ كحب الله ﴾ مصدر تشبيهى أو نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضا كذلك والظاهر اتحاد فاعلهما فإنهم كانوا يقرون به تعالى أيضاً ويتقربون إليه فالمعنى حبا كائنا كحبهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى وبينهم فى الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكورهم المؤمنون فالمعنى حقا كائنا كحب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما فى أصل الحب لا فى وصفه كما أوكيفا لما سيأتى من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبنى للمفعول أى كما يحب الله تعالى ويعظم وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس وأنت خبير بأنه لا مشابهة بين محبتهم لأندادهم وبين محبوبيته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه فى تفسير قوله عز قائلا (كما سئل موسى من قبل)

وإظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وإبانة كمال قبح ما ارتكبوه .

﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ جملة مبتدأة جيء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أى المؤمنون أشد حباً له تعالى منهم لأندادهم ومآله أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لأندادهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبنى للفاعل ما لا يخفى وإنما لم يجعل المفضل عليه حبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بغضا وذلك إنما يتصور فى حبهم لأندادهم لكونه منوطا بمبان فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها ، قيل ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فإذا وجدوا آخر رفضوه إليه وقد أكلت باهلة إلهها عام المجاعة وكان من حيس وأنت خبير بأن مدار ذلك اعتبار اختلال حبهم لها فى الدنيا وليس الكلام فيه بل فى انقطاعه فى الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الأهوال كما سيأتى بل اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة فى بيان كمال قبح ما ارتكبوه وغاية عظم ما اقترفوه وإيثار الإظهار فى موضع الإضمار لتفخيم الحب والإشعار بعلته ﴿ ولو يرى الذين ظلموا ﴾ أى باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿ إذ يرون العذاب ﴾ المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا إذا عاينوه وإنما أوثر صيغة المستقبل لجريانها مجرى الماضى فى الدلالة على التحقيق فى أخبار علام الغيوب ﴿ أن القوة لله جميعا ﴾ ساد مسد مفعولى يرى ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ عطف عليه وفائدته المبالغة فى تهويل الخطب وتفظيع الأمر فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان إما لعدم الإحاطة بكنهه وإما لضيق العبارة عنه وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أى لو علموا إذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه أحد من أندادهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد فى شيء أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد

يوصف وقرىء ولو ترى بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ لرأيت أمراً لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء إذ يرون على البناء للمفعول وأن الله شديد العذاب على الاستئناف وإضمار القول ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا ﴾ بدل من إذ يرون أى إذ تبرأ الرؤساء ﴿ من الذين اتبعوا ﴾ من الأتباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا ويدعونهم إليه من فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول إبليس : إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل وقرىء بالعكس أى تبرأ الأتباع من الرؤساء والواو فى قوله عز وجل ﴿ ورأوا العذاب ﴾ حالية وقد مضمرة وقيل عاطفة على تبرأ والضمير فى رأوا للموصوفين جميعاً ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ والوصل التى كانت بينهم من التبعية والمتبوعية والاتفاق على الملة الزائغة والأغراض الداعية إلى ذلك وأصل السبب الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه والجملة معطوفة على تبرأ وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبرى وقد جوز عطفها على الجملة الحالية ﴿ وقال الذين اتبعوا ﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا ﴿ لو أن لنا كرة ﴾ أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا ﴿ فنتبرأ منهم ﴾ هناك ﴿ كما تبرؤا منا ﴾ اليوم ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده لا إلى شىء آخر مفهوم مما سبق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية أى ذلك الإراء الفظيع ﴿ يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أى ندامات شديدة فإن الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحساره عما يؤلمه واشتقاقه من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهى ثالث مفاعيل يرى إن كان من رؤية القلب وإلا فهى حال والمعنى أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم بعد دخولهم النار والأصل وما يخرجون والعدول إلى الاسمية

لإفادة دوام نفى الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم كما فى قوله :

هم يفرشون اللبد كل طمره ۞ وأجرد سباق يبذ المغالبا

﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض ﴾ أى بعض ما فيها من أصناف المأكولات التى من جملتها ما حرمتموه افتراء على الله من الحرث والأنعام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرموا على أنفسهم ما حرموا من الحرث والبحائر والسوائب والوصائل والحام وقوله تعالى ﴿ حلالا ﴾ حال من الموصول أى كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه صفة لمصدر مؤكد أى أكلا حلالا ويؤيد الأولين قوله تعالى ﴿ طيبا ﴾ فإنه صفة له ووصف الأكل به غير معتاد وقيل نزلت فى قوم من المؤمنين حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أى لا تقتدوا بها فى اتباع الهوى فإنه صريح فى أن الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهيداً ليس من باب اتباع خطوات الشيطان فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وإنما الذى نزل فيهم ما فى سورة المائدة من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية وقرىء خطوات بسكون الطاء وهما لغتان فى جمع خطوة وهى ما بين قدمى الخاطى وقرىء بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو وبفتحتين على أنها جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وإن كان يظهر الولاية لمن يغويه ولذلك سمى ولياً فى قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت) ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وإفساده وانحصار معاملته معهم فى ذلك والسوء فى الأصل مصدر ساءه يسوؤه سوءاً ومساءة إذا أحزنه يطلق على جميع المعاصى سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب لاشتراك كلها فى أنها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها

وأعظمها مساءة ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بأنه حرم هذا وذاك ، ومعنى ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به وتعليق أمره بتقولهم على الله تعالى ما لا يعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقولهم عليه ما يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع أن حالهم ذلك للمبالغة فى الزجر فإن التحذير من الأول مع كونه فى القبح والشناعة دون الثانى تحذير عن الثانى على أبلغ وجه وآكده وللإيذان بأن العاقل يجب عليه ألا يقول على الله تعالى ما لا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه ما يعلم عدم وقوعه منه تعالى ، قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأسا وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنه فمستند إلى مدرك شرعى فوجوبه قطعى والظن فى طريقه ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ التفات إلى الغيبة تسجيلا بكمال ضلالهم وإيذانا بإيجاب تعداد ما ذكر من جناياتهم لصرف العذاب عنهم وتوجيهه إلى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المباثة أى إذا قيل لهم على وجه النصيحة والإرشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله ﴿ قالوا ﴾ لا نتبعه ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ أى وجدناهم عليه إما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا وألفينا متعد إلى واحد وإما على أنه مفعول ثان له مقدم على الأول نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول إما عبارة عما سبق من اتخاذ الأنداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك وإما باق على عمومه وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا وقيل نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منا وأعلم فعلى هذا يعم ما أنزل الله تعالى التوراة لأنها أيضا تدعو إلى الإسلام وقوله عز وجل ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى رداً لمقالتهم الحمقاء وإظهارا لبطلان آرائهم والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتعجب منه لا لإنكار الوقوع كالتى فى قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وكلمة لو فى أمثال هذا المقام ليست لبيان

انتفاء الشيء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والأمر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لا يعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن إليه ولو أساء إليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشيء من ورود الإنكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد إلا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو باق على ما هو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لا مدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال مما يتعلق به لا مما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وأن المقصود الأصلى إنكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة وإما تقديراً لمقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الإشعار بأنه أمر محقق إلا أنه أخرج مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبة آبائهم إلى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فيركبوا متن العناد ومبالغة فى الإنكار من جهة اتباعهم لآبائهم حيث كان منكرا مستقبحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك

أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة فى حيز النصب على الحالية من آبائهم على طريقة قوله تعالى (أن أتبع ملة إبراهيم حنيفا) كأنه قيل أيتبعون دين آبائهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين إنكاراً لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وتعويلا على اقتضائها للحالة الأولى اقتضاء بينا فإن اتباعهم الذى تعلق به الإنكار حيث تحقق مع كون آبائهم جاهلين ضالين فلأن يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى إن قلت الإنكار المستفاد من الاستفهام الإنكارى بمنزلة النفى ولا ريب فى أن الأولوية فى صورة النفى معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الإعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الأولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آبائهم عاقلين ومهتدين إنكار الاتباع لا نفسه إذ هو الذى يدل عليه أيتبعون إلخ فلم اختلفت الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الإعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم بل نتبع إلخ وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لإنكار ما يفيده واستقباح ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وكذا الحال فيما إذا كانت الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفى كما سيأتى تحقيقه فى قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وقيل الواو حالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف فى سائر اللغات أيضا ﴿ومثل الذين كفروا﴾ جملة ابتدائية واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة مثل عليه ووضع الموصول موضع الراجع إلى ماترجع إليه الضمائر السابقة لذمهم بما فى حيز الصلة وللإشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلا وتسير فى

الآفاق فيما ذكر من دعوته إياهم إلى إتباع الحق وعدم رفعهم إليه رأسا لانهماكهم فى التقليد وإخلادهم إلى ما هم عليه من الضلال وعدم فهمهم من جهة الداعى إلى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم إلى ما يلقى عليهم ﴿ كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ من البهائم فإنها لاتسمع إلا صوت الراعى وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلا وقيل إنما حذف المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ما عليه فإنها عبارة عنه مشعرة مع ما فى حيز الصلة بما هو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من إنهماكهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما ألقى إليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينعق بها وهى لاتسمع منه إلا جرس النغمة ودوى الصوت وقيل المراد تمثيلهم فى دعائهم الأصنام بالناعق فى نعقه وهو تصويته على البهائم وهذا غنى عن الإضمار لكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء فإن الأصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما تشابه أفراد الطرفين ﴿صم بكم عمى﴾ بالرفع على الذم أى هم صم إلخ ﴿فهم لا يعقلون﴾ شيئاً لأن طريق التعقل هو التدبر فى مبادى الأمور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فإذا كانوا صما بكما عميا فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى مستلذاته ﴿ واشكروا لله ﴾ الذى رزقكموها والالتفات لتربية المهابة ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فإن عبادته تعالى لاتتم إلا بالشكر له وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى» ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو باستثناء الشرع خروج الطحال من الدم ﴿والدم ولحم الخنزير﴾ إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضاً فى حكمه لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له ﴿وما أهل به لغير الله﴾ أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم والإهلال أصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير

عندها سمى ذلك إهلالا ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ سد الرمق والجوعة وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله ﴿فلا إثم عليه﴾ فى تناوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ بالرخصة إن قيل كلمة إنما تفيدقصر الحكم على ماذكروكم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ماذكر مما استحلوه لا مطلقا أو قصر حرمته على حالة الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها .

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾ المشتمل على فنون الأحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر آنفا وقال ابن عباس الله عنهما نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ ويشترون به ﴾ أى يأخذون بدله ﴿ ثمنا قليلا ﴾ عوضا حقيرا وقدمر سرالتعبير عن ذلك بالثمن الذى هو وسيلة فى عقود المعاوضةوقوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلىالموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عمن عداهم أكمل تمييز الجاعلين اياهم بحيث كأنهم حضار مشاهدون على ماهم عليه ومافيه من معنى البعدللإيذان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ﴾ والجملة خبر لإن أو اسم الإشارة مبتدأ ثان أو بدل من الأول والخبر ما يأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الحال مايستتبع النار ويستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

أو يأكلون فى المآل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بيأكلون وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر

المأكول وقيل معناه ملء بطونهم كما فى قولهم أكل فى بطنه وأكل فى بعض بطنه ومنه كلوا فى بعض بطنكم تعفوا فلا بد من الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء والا فتعليقه بيأكلون يؤدى إلى قصر ما يأكلونه إلى الشبع على النار والمقصود قصر ما يأكلونه مطلقا عليها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى ﴿ولا يزكيهم﴾ لا يثنى عليهم ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ما أشير إليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعة إذ لا دخل لها فى الحكم الذى يراد إثباته ههنا فإن المقصود تصوير ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتعاطاها عاقل أصلا ببيان حقيقة مانبذوه وإظهار كنه ما أخذوه وإبداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين للثمن وإن قل بل هم ﴿الذين اشتروا﴾ بالنسبة إلى الدنيا ﴿الضلالة﴾ التى ليست مما يمكن أن يشترى قطعا ﴿بالهدى﴾ الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شىء وإن جل ﴿والعذاب﴾ أى اشتروا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذى لايتوهم كونه مما يشترى ﴿بالمغفرة﴾ التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملابستهم بما يوجب النار إيجابا قطعيا كأنه عينها وما عند سيبويه نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجيب مرفوعة بالابتداء وتخصيصها كتخصص شرفى «شر أهر ذا ناب» خبرها ما بعدها أى شىء ماعظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى أى شىء أصبرهم على النار وقيل هى موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أو شىء أصبرهم على النار أمر فظيع ﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأن الله نزل الكتاب﴾ أى جنس الكتاب ﴿بالحق﴾ أى ملتبسا به فلا جرم أن يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان ويركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب ﴿وأن

الذين اختلفوا فى الكتاب ﴾ أى فى جنس الكتاب الإلهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها أو اختلفوا فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالآيات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بأن قال بعضهم أنه سحر وبعضهم أنه شعر وبعضهم أساطير الأولين كما حكى عن المفسرين ﴿لفى شقاق بعيد﴾ عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فإنهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت إلى الكعبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه إلى قبلته من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية إما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب وإما لأن توجه اليهود إلى المغرب ليس لكونه مغربا بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى تينك الجهتين على أن البر خبر ليس مقدما على اسمها كما فى قوله:

سلى إن جهلت الناس عنى وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

وقوله:

أليس عظيما أن تلم ملمة ... وليس علينا فى الخطوب مقول

وإنما أخر ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن فى الاسم طولا فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك إلا بكون

البر اسما كما يفصح عنه جعله مخبرا عنه فى الاستدراك بقوله عز وجل : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ وهو تحقيق للحق بعد بيان الباطل وتفصيل لخصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن البر المعهود الذى يحق أن يهتم بشأنه ويجد فى تحصيله بر من آمن بالله وحده إيمانا بريئا من شائبة الإشراك لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله ﴿ واليوم الآخر ﴾ أى على ما هو عليه لا كما يزعمون من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ففيه تعريض بأن إيمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه الصحيح لم يكن إيمانا وفى تعليق البر بهما من أول الأمر عقيب نفيه عن التوجه إلى المشرق والمغرب من الجزالة مالا يخفى كأنه قيل ولكن البر هو التوجه إلى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب فى الحقيقة ﴿ والملائكة ﴾ أى وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين أنبيائه بإلقاء الوحى وإنزال الكتب ﴿ والكتاب ﴾ أى بجنس الكتاب الذى من أفراده الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتمانهم نعوت النبى صلى الله عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا ﴿ والنبيين ﴾ جميعا من غير تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة الوحى وبين النبيين واضح وسيأتى فى قوله تعالى (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ حال من الضمير فى آتى والضمير المجرور راجع للمال أى آتاه كائنا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل : أى الصدقة أفضل؟ « أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح » وقول ابن مسعود رضى الله عنه أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ، وقيل الضمير لله تعالى أى آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه نوع تعريض لباذلى الرشا وآخذيها لتغيير التوراة وقيل للمصدر أى كائنا على حب الإيتاء ﴿ ذوى القربى ﴾ مفعول أول لآتى قدم عليه مفعوله الثانى أعنى

المال للاهتمام به أو لأن فى الثانى مع ما عطف عليه طولا لوروعى الترتيب لفات تجاوب الأطراف فى الكلام وهو الذى اقتضى تقديم الحال أيضاً وقيل هو المفعول الثانى ﴿واليتامى﴾ أى المحاويج منهم على مايدل عليه الحال وتقديم ذوى القربى عليهم لما أن إيتاءهم صدقة وصلة ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لاحراك به أو دائم السكون إلى الناس ﴿وابن السبيل﴾ أى المسافر سمى به لملازمته إياه كما سمى القاطع ابن الطريق وقيل الضيف ﴿والسائلين﴾ الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة إلى السؤال قال عليه الصلاة والسلام: أعطوا السائل ولو جاء على فرس ﴿وفى الرقاب﴾ أى وضعه فى فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم وقيل فى فك الأسارى وقيل فى ابتياع الرقاب وإعتاقها وأياً ماكان فالعدول عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم إما للإيذان بعدم قرار ملكهم فيما أوتوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأساً كما فى الوجه الأخير وإما للإشعار برسوخهم فى الاستحقاق والحاجة لما أن فى للظرفية المنبئة عن محليتهم لما يؤتى ﴿وأقام الصلاة﴾ أى المفروضة منها ﴿وآتى الزكاة﴾ أى المفروضة على أن المراد بما مر من إيتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة فى الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والأول لبيان المصارف والثانى لبيان وجوب الأداء ﴿والموفون بعهدهم﴾ عطف على من آمن فإنه فى قوة أن يقال ومن أوفوا بعهدهم وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء والمراد بالعهد مالا يحرم حلالا ولا يحلل حراما من العهود الجارية فيما بين الناس، وقوله تعالى ﴿إذا عاهدوا﴾ للإيذان بعدم كونه من ضروريات الدين ﴿والصابرين﴾ نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو فى الحقيقة معطوف على ما قبله. قال أبو على إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف فى بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعا لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه كما مر فى صدر السورة وقد قرىء

الصابرون كما قرىء والموفين ﴿ في البأساء ﴾ أي في الفقر والشدة ﴿ والضراء ﴾ أي المرض والزمانة ﴿ وحين البأس ﴾ أي وقت مجاهدة العدو في مواطن الحرب وزيادة الحين للإشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة وما فيه من معنى البعد لما مر مرار من التنبيه عن علو طبقتهم وسمو رتبتهم ﴿ الذين صدقوا ﴾ أي في الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الإشارة لزيادة تنويه شأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحا أو تلويحا لما إنها مع تكثر فنونها وتشعب شجونها منحصرة في خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب النفس وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل وإلى الثانية بإيتاء المال وإلى الثالثة بإقامة الصلاة الخ ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظرا إلى إيمانهم واعتقادهم وبالتقوى اعتبارا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافي لما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التي عليها بنى أساس المعاش والمعاد ﴿ كتب عليكم ﴾ أي فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولى على العفو فإن الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلى الحكام أو القاتلين ﴿ القصاص في القتلى ﴾ أي بسبب قتلهم كما في قوله صلى الله عليه وسلم إن امرأة دخلت النار في هرة ربطتها ، أي بسبب ربطها إياها ﴿ الحر بالحر والعبد والأنثى بالأنثى ﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت

فأمرهم أن يتباوؤا وليس فيها دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعى أيضا لأن اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا وإنما يتمسك فى ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة ولم يقده وبما روى عنه رضى الله عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد وبأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير وبالقياس على الأطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى (أن النفس بالنفس) فإن شريعة من قبلنا إذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنها شريعة لنا ولأن القصاص يعتمد المساواة فى العصمة وهى بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص ﴿فمن عفى له من أخيه شىء﴾ أى شىء من العفو لأن عفا لازم وفائدته الإشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله فى إسقاط القصاص وهو الواقع أيضا فى العادة إذ كثيراً ما يقع العفو من بعض الأولياء فهو شىء من العفو وقيل معنى عفى ترك وشىء مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفاه بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما فى قول من قال :

* ديار عفاها جور كل معاند *

وقوله : عفاها كل هتان كثير الوبل هطال

فيكون المعنى فمن محى له من أخيه شىء صرف للعبارة المتداولة فى الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود إلى ما ليس بمعهود فيهما وفى استعمال الناس فإنهم لا يستعملون العفو فى باب الجنايات إلا فيما ذكر من قبل وعفا يعدى بعن إلى الجانى والذنب قال تعالى (عفا الله عنك) وقال (عفا الله عنها) فإذا تعدى إلى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كأنه قيل فمن عفى له عن جنايته من جهة أخيه يعنى ولى الدم وإيراده بعنوان الأخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بنى آدم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف عليه ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فالأمر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية الباقى بالمسامحة ومطالبته بالدية

بالمعروف من غير تعسف وقوله عز وجل ﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ حث للمعفو عنه على أن يؤديها بإحسان من غير مما طلة ولا بخس ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الحكم ﴿ تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الإطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الأمة بين الثلاث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية ﴿ فله ﴾ باعتدائه ﴿ عذاب أليم ﴾ أما فى الدنيا فبالاقتصاص لما قتله بغير حق وأما فى الآخرة فبالنار ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشيء محلا لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن فى هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحياة نفسين ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثانى تخصيص وقيل المراد بالحياة هى الأخروية فإن القاتل إذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤخذ به فى الآخرة والظرفان إما خبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من المستكن فيه وقرىء فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى القرآن حياة أو فى القرآن حياة للقلوب ﴿ يا أولى الألباب ﴾ أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطاً لهم إلى التأمل فى حكمة القصاص ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والإهمال فى المحافظة عليه والحكم به والإذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى إليه ﴿ كتب عليكم ﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام المذكورة ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ أى حضر أسبابه وظهر أماراته أو دنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها ﴿ إن ترك خيراً ﴾ أى مالا وقيل مالا كثيراً لما

روى عن على رضى الله عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وإن هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى: (إن ترك خيراً) وإن هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت ما أرى فيه فضلا وأراد آخر أن يوصى فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله تعالى إن ترك خيراً وإن هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ مرفوع بكتب أخر عما بينهما لما مر مرارا وإيثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضا للفصل أو على تأويل أن يوصى أو الإيصاء ولذلك ذكر الضمير فى قوله تعالى (فمن بدله بعد ماسمعه) وإذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لا من حيث صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقا فعليا مستتبعا لوجوب الأداء كما ينبىء عنه البناء للمفعول وكلمة الإيجاب ولا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كما فى قوله «من يفعل الحسنات الله يشكرها» ورد بأنه إن صح فمن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم فى بدء الإسلام ثم نسخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه السلام أن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث فإنه وإن كان من أخبار الآحاد لكن حيث تلقته الأمة بالقبول انتظم فى سلك المتواتر فى صلاحيته للنسخ عند الحنفية على أن التحقيق أن الناسخ حقيقة هى آية المواريث وإنما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا إلى الوالدين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير أنصبائهم بل فوض ذلك إلى آرائكم حيث قال ﴿بالمعروف﴾ أى بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذى حق منهم حقه الذى يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم

يدع ثمة شيأ فيه مدخل لرأيكم أصلا حسبما تعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه إذا تحققت هذا ظهر لك أن ماقيل من أن آية المواريث لاتعارضه بل تحققه وتؤكده من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقا والحديث من الآحاد وتلق الأمة إياه بالقبول لايلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والأقربين بقولة تعالى (يوصيكم الله) أو بإيصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ما قيل من أن الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لأنصبائهم فلما نزلت آية المواريث بيانا للأنصباء بلفظ الإيصاء فهم منها بتنبيه النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التى كانت واجبة كأنه قيل إن الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها إليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فإن مدلول آية الوصية حيث كان تفويضا للأمر إلى آراء المكلفين على الإطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ما أدى إليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية المواريث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفاصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها مما لايشتبه على أحد وقوله تعالى ﴿ حقاً على المتقين ﴾ مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿فمن بدله﴾ أى غيره من الأوصياء والشهود ﴿بعد ماسمعه﴾ أى بعدما وصل إليه وتحقق لديه ﴿فإنما إثمه﴾ أى إثم الإيصاء المغير أو إثم التبديل ﴿على الذين يبدلونه﴾ لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول فى موضع الضمير الراجع إلى من لتأكيد الإيذان بعلية ما فى حيز الصلة الأولى وإيثار الجمع للإشعار بتعدد المبدلين أنواعا أو كثرتهم أفرادا والإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد للمبدلين ﴿فمن خاف من موص﴾ أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء وقرىء من موص ﴿جنفا﴾ أى ميلا بالخطأ فى الوصية ﴿أو إثما﴾ أى تعمداً للجنف ﴿فأصلح بينهم﴾ أى بين الموصى لهم بإجرائهم على منهاج الشريعة

الشريفة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى فى هذا التبديل لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية وتكرير النداء لإظهار مزيد الاعتناء والصيام والصوم فى اللغة الإمساك عما تنازع إليه النفس ومنه قوله تعالى (إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم) الآية ، وقيل هو الإمساك عن الشيء مطلقاً ومنه صامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب والفرس إذا أمسكت عن العدو قال:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وفى الشريعة هو الإمساك نهارا مع النية عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ما تشتهيه الأنفس ﴿كما كتب﴾ فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتابا كائنا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما على الوجهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما مماثلا للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه مماثلا لما كتب ﴿على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لأنفس المخاطبين به فإن الشاق إذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة إما المماثلة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار كما روى أن صوم رمضان كان مكتوبا على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فإنه كان يوم عاشورا ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موت فزادوا عشرة أيام فصار خمسين ﴿لعلكم تتقون﴾ أى المعاصى فإن الصوم يكسر الشهوة الداعية إليها كما قال عليه الصلاة والسلام « فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أو تتقون الإخلال بأدائه لأصالته أو تصلون بذلك إلى رتبة التقوى .

﴿أياما معدودات﴾ مؤقتات بعدد معلوم أو قلائل فإن القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلا والمراد بها إما رمضان أو ما وجب فى بدء الإسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وانتصابه ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبى بل بمضمر دل هو عليه أعنى صوموا إما على الظرفية أو المفعولية اتساعا وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهين وفيه أن الأيام ليست محلا له بل للمكتوب فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ أى مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ﴿أو على سفر﴾ مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز إلى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر ﴿فعدة﴾ أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر ﴿من أيام أخر﴾ إن أفطر فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور وقرىء بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أى وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فدية﴾ أى إعطاء فدية وهى ﴿طعام مسكين﴾ وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك فى فى بدء الإسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم فى الإفطار والفدية وقرىء يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويطوقونه بإدغام التاء فى الطاء ويطيقونه ويطوقونه بمعنى يتطيقونه وأصلهما يطيوقونه ويتطوقونه من فيعل وتفيعل من الطوق فأدغمت الياء فى الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدير المكان وما بها ديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الإفطار والفدية وهو حينئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أو يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فمن تطوع خيرا﴾ فزاد فى الفدية ﴿فهو﴾ أى التطوع أو الخير الذى تطوعه ﴿خير له وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون فى الإفطار من المرضى والمسافرين ﴿خير لكم﴾ من

الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير إلى أيام أخر والالتفات إلى الخطاب للهز والتنشيط ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أى ما فى صومكم مع تحق المبيح للإفطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم إليه وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير من ذلك ﴿شهر رمضان﴾ مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان وقرىء بالنصب على إضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أياما معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فأضيف إليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام من صام رمضان الحديث وارد على حذف المضاف للأمن من الالتباس وإنما سمى بذلك إما لارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ خبر للمبتدا على الوجه الأول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى إنزاله فيه أنه ابتدىء إنزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجما إلى الأرض حسبما تقضيه المشيئة الربانية أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل كتب عليكم وعن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لأربع وعشرين ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من الإعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ أى حضر فيه ولم يكن مسافرا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتفريع والترتيب أو لتضمن المبتدا معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هى جزائية كانه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه

﴿ فليصمه ﴾ أى فليصم فيه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور اتساعا وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون ما بعده مخصصا له كأنه قيل ﴿ ومن كان مريضا ﴾ وإن كان مقيما حاضرا فيه ﴿ أو على سفر ﴾ وإن كان صحيحا ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ أى فعليه صيام أيام أخر لأن المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿ يريد الله ﴾ بهذا الترخيص ﴿ بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ لغاية هى رأفته وسعة رحمته ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ تعليل لفعل محذوف يدل عليه ماسبق أى ولهذه الأمور شرع مامر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله تعالى لتكملوا علة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ويجوز أن تكون معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا إلخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكملوا إلخ كقوله تعالى (يريدون ليطفئوا) إلخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند الإهلال وما تحتمل المصدرية والموصولة أى على هدايته إياكم أو على الذى هداكم إليه وقرىء ولتكملوا بالتشديد ﴿ وإذا سألك عبادى عنى ﴾ فى تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله ﴿ فإنى قريب ﴾ أى فقل لهم إنى قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه ، روى أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعى بالإجابة ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم ﴿ وليؤمنوا بى ﴾ أمر بالثبات على ما هم عليه ﴿ لعلهم يرشدون ﴾

راجين إصابة الرشد أى الحق وقرىء بفتح الشين وكسرها ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيدا له وحثا عليه ثم شرع فى بيان أحكام الصيام فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ روى أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الأخيرة أو يرقدوا ثم إن عمر رضى الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبى صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت . وليلة الصيام الليلة التى يصبح منها صائما والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه وعدى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء والإنهاء وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه ولذلك سمى خيانة وقرىء الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من التشويق فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن وقت وروده فضل تمكن ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ استئناف مبين لسبب الإحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباسا للآخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل قال :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه ﴿وعفا عنكم﴾ أى محا أثره عنكم ﴿فالآن﴾ لما نسخ التحريم ﴿باشروهن﴾ المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أى واطلبوا ما قدره الله لكم وقرره فى اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغى أن

يكون غرضه الولد فإنه الحكمة فى خلق الشهوة وتشريع النكاح لاقضاء الشهوة وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب لكم ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ شبه أول ما يبدوا من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل ويجوز أن يكون من للتبعيض فإن ما يبدو بعض الفجر وما روى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال إلى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزا واكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم من أصبح جنبا ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ بيان لآخر وقته ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لأن النهى فى العبادات يوجب الفساد ﴿تلك حدود الله﴾ أى الأحكام المذكورة وحدود وضعها الله تعالى لعباده ﴿فلا تقربوها﴾ فضلا عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطيها كما قال صلى الله عليه وسلم إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التبيين البليغ ﴿يبين الله آياته﴾ الدالة على الأحكام التى شرعها ﴿للناس لعلهم يتقون﴾ مخالفة أوامره ونواهيه ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذى لم يبحه

الله تعالى و بين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم ﴿ وتدلوا بها إلى الحكام ﴾ عطف على المنهى عنه أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء أى ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام ﴿ لتأكلوا ﴾ بالتحاكم إليهم ﴿ فريقا من أموال الناس بالإثم ﴾ بما يوجب إثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو ملتبسين بالإثم ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنكم مبطلون فإن ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح . روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية فارتدع عن اليمين فسلم الأرض إلى عبدان فنزلت . وروى أنه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام « إنما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقضى له قطعة من نار » فبكيا فقال كل واحد منهما حق لصاحبى فقال اذهبا فتآخيا ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ﴿ قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عباداتهم لا سيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة إلى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برا فبين لهم أنه ليس ببر فقيل ﴿ ولكن البر من اتقى ﴾ أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم

سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج ذكر عقيبه ما هو من أفعالهم فى الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم فى السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا فى مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترىء على مثله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ إذ ليس فى العدول بر أو باشروا الأمور من وجوهها ﴿واتقوا الله﴾ فى تغيير أحكامه أو فى جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى إظهارا لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى لكى تظفروا بالبر والهدى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ أى جاهدوا لإعزاز دينه وإعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول الصريح لإبراز كمال العناية بشأن المقدم ﴿الذين يقاتلونكم﴾ قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفرة جميعاً فإن الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الأول ماروى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء فخاف المسلمون أن لا يفوا لهم وأن يقاتلوهم فى الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده إيراده فى أثناء بيان أحكام الحج ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أى لا يريد بهم الخير وهو تعليل للنهى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الحذق فى إدراك الشىء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فإما تثقفونى فاقتلونى ... فمن أثقف فليس إلى خلود

﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى المحنة التى يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء ألم النفس بها وقيل شركهم فى الحرم وصدهم لكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ﴾ أى لا تفاتحوهم بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام ﴿ حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم ﴾ ثمة ﴿ فاقتلوهم ﴾ فيه ولا تبالوا بقتالهم ثمة لأنهم الذين هتكوا حرمته فاستحقوا أشد العذاب وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة وقرىء ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قاتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلتنا بنو أسد ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم ﴿ فإن انتهوا ﴾ عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ أى شرك ﴿ ويكون الدين لله ﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿ فإن انتهوا ﴾ بعد مقاتلتكم عن الشرك ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أى فلا تعتدوا عليهم إذ لا يحسن الظلم إلا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما فى قوله عز وجل (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) أو إنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء .

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكه فلا تبالوا به ﴿ والحرمات قصاص ﴾ أى كل حرمة وهى ما يجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم إن قاتلوكم كما قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه

بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وهى فذلكة مقررة لما قبلها ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فيحرسهم ويصلح شؤنهم بالنصر والتمكين ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالأنفس أى ولا تمسكوا كل الإمساك : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه فإن ذلك مما يقوى العدو ويسلطه عليكم ويؤيده ما روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدى إلى الهلاك المؤبد ولذلك سمى البخل هلاكا وهو فى الأصل انتهاء الشىء فى الفساد والإلقاء طرح الشىء وتعديته بإلى لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالأيدى الأنفس والتهلكة مصدر كالتضرة والتسترة وهى والهلاك واحد أى لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك وقيل معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم ولا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذف المفعول ﴿ وأحسنوا ﴾ أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ أى يريد بهم الخير وقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدى لأدائهما وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم من العوارض المخلة بذلك من الإحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فإنه بيان لوجوب مد الصيام إلى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وإنما هو بقوله تعالى (كتب عليكم الصيام) الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) الآية فإن الأمر بإتمام فعل من الأفعال ليس أمرا بأصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء أن الأمر بإتمامهما أمر بإنشائهما تامين كاملين حسبما تقتضيه قراءة وأقيموا الحج والعمرة وأن الأمر للوجوب ما لم يدل على خلافه دليل مما لاسداد له ضرورة أن ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك

القراءة أيضا محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب إقامة أفعالهما كما ينبغي من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما فالمعنى أكملوا أركانهما وشرائطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير إخلال منكم بشيء منها هذا وقد قيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روى ذلك عن على وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وقيل أن تفرّد لكل واحد منهما سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من الأغراض الدنيوية وأياما كان فلا تعرض فى الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا وأما ما روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن العمرة لقرينة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على فأهللت بهما وفى رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من إفادة الوجوب مع كونه معارضا بما روى عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن أن تعتمر خير لك وبقوله عليه السلام الحج جهاد والعمرة تطوع فتدبر ﴿فإن أحصرتم﴾ أى منعتم من الحج يقال حصره إذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صده واصده والمراد منع العدو عند مالك والشافعى رضى الله عنهما لقوله تعالى (فإذا أمنتم) ولنزوله فى الحديبية ولقول ابن عباس لا حصر إلا حصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبى حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المحرم إذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى مما تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر وعندنا يبعث به إلى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أى لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث إلى الحرم بلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الأولون بلوغ الهدى محله على

ذبحه فيه حلا كان أو حرما ومرجعهم فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه فى الحرم وقال الواقدى الحديبية هى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والمحل بالكسر يطلق على المكان والزمان والهدى جمع هدية كجدى وجدية وقرىء من الهدى جمع هدية كمطى ومطية ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ مرضا محوجا إلى الحلق ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كجراحة أو قمل ﴿ففدية﴾ أى فعليه فدية إن حلق ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية وأما قدرها فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة لعلك آذاك هوامك قال نعم يا رسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة آصع ﴿فإذا أمنتم﴾ أى الإحصار أو كنتم فى حال أمن أو سعة ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ أى فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج فى أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعى وعندنا هو كالأضحية ﴿فمن لم يجد﴾ أى الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج﴾ أى أى فى أشهره بين الإحرامين ، وقال الشافعى فى أيام الاشتغال بأعماله بعد الإحرام وقبل التحلل والأحب أن يصوم سابع ذى الحجة وثامنه وتاسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ أى نفرتم وفرغتم من أعماله وفى أحد قولى الشافعى إذا رجعتم إلى أهليكم وقرىء وسبعة بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام ﴿تلك عشرة﴾ فذلكة الحساب وفائدتها ألا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قولك جالس الحسن وابن سيرين ، وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فإن أكثر العرب لا يعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضا

﴿ كاملة ﴾ صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد أو مبينة لكمال العشرة فإنها أول عدد كامل إذبه ينتهى الآحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التمتع عندنا وإلى الحكم المذكور عند الشافعى ﴿ لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعى ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك ﴿ واتقوا الله ﴾ فى المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما فى الحج ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن لم يتقه كى يصدكم العلم به عن العصيان وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

﴿ الحج ﴾ أى وقته ﴿ أشهر معلومات ﴾ معروفات بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليلة النحر عند الشافعى وكله عند مالك ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت إحرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً فإن مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة وأبو حنيفة وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه وإنما سمى شهرين وبعض شهر أشهراً إقامة للبعض مقام الكل أو إطلاقا للجمع على مافوق الواحد وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجىء بالألف والتاء ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن أو بالتلبية أو بسوق الهدى ﴿ فلا رفث ولافسوق ﴾ أى لاجماع أو فلا فحش من الكلام ولاخروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل بالسباب والتنابذ بالألقاب ﴿ ولا جدال ﴾ أى لامراء مع الخدم والرفقة ﴿ فى الحج ﴾ أى فى أيامه والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعلة الحكم فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله عز وجل من موجبات ترك الأمور المذكورة وإيثار النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لايكون فإن ما كان منكرا مستقبحا فى نفسه ففى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض

العبادة وقرىء الأولان بالرفع على معنى لايكونن رفث ولافسوق والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف فى الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضاً بعرفات ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير إثر النهى عن الشر ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أى تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام فى السؤال والتثقيل على الناس ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ فإن قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرؤا من كل شىء سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الألباب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا﴾ أى فى أن تبتغوا أى تطلبوا ﴿فضلا من ربكم﴾ عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء إذا صببته بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمى به كأذرعات وإنما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المقابلة لاتنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وههنا ليس كذلك أولأن التأنيث إما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث أو بتاء مقدرة كما فى سعاد ولا سبيل إليه لأن المذكورة تأبى تقديرها لما أنها كالبدل منها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت وإنما سمى الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه أولأن جبريل عليه السلام كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال عرفت أولأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا أولأن الناس يتعارفون فيه وهى من الأسماء المرتجلة

إلا من يجعلها جمع عارف قيل وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهى مأمور بها بقوله تعالى (ثم أفيضوا) وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة ، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج أو مقدمة الذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب والأمر به غير مطلق ﴿ فاذكروا الله ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء وقيل بصلاة العشاءين ﴿ عند المشعر الحرام ﴾ هو جبل يقف عليه الإمام ويسمى قزح وقيل ما بين مأزمى عرفة ووادى محسر ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى أسفر وإنما سمى مشعرا لأنه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عند المشعر الحرام مايليه ويقرب منه فإنه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ أى كما علمكم أو اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها وما مصدرية أو كافة ﴿ وإن كنتم من قبله ﴾ من قبل ما ذكر من هدايته إياكم ﴿ لمن الضالين ﴾ غير العاملين بالإيمان والطاعة وأن المخففة واللام هى الفارقة وقيل هى نافية واللام بمعنى إلا كما فى قوله عز وعلا (وإن نظنك لمن الكاذبين) ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ أى من عرفة لا من المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم فأمروا بأن يساووهم وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما فى قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلا إلى كريم وقيل من مزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام وقرىء الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فنسى والمعنى أن الإفاضة من عرفه شرع قديم فلا تغيروه ﴿ واستغفروا الله ﴾ من جاهليتكم فى تغيير المناسك ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار أو للأمر به ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم ﴾ أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب إذا قضوا

مناسككم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم ﴿أو أشد ذكرا﴾ ، إما مجرور معطوف على الذكر بجعله ذاكرا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرا كائنا مثل ذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ أو على ما أضيف إليه بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكرا أو منصوب بالعطف على آباءكم وذكرا من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكور من آبائكم أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكرا لله منكم لآبائكم ﴿فمن الناس﴾ تفصيل للذاكرين إلى من يطلب بذكر الله الدنيا وإلى من يطلب به خير الدارين والمراد به الحث على الإكثار والانتظام فى سلك الآخرين ﴿من يقول﴾ أى فى ذكره (ربنا آتنا فى الدنيا) أى اجعل إيتاءنا ومنحتنا فى الدنيا خاصة ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾ أى من حظ ونصيب لاقتصارهمه على الدنيا فهو بيان لحاله فى الآخرة أو من طلب خلاق فهو بيان لحاله فى الدنيا وتأكيد لقصر دعائه على المطالب الدنيوية ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة﴾ هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ هى الثواب والرحمة ﴿وقنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرة وروى عن على رضى الله عنه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة ، وفى الآخرة الحور وعذاب النار امرأة السوء وعن الحسن أن الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة ، وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشارة إلى علو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل إليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى ﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ على الأول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل نوع منهم نصيب من جنس ما كسبوا أو من أجله كقوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا) أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما أنه من الأعمال ﴿والله سريع الحساب﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لمحة فاحذروا من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا

إلى الطاغوت اكتساب الحسنات ﴿ واذكروا الله ﴾ أى كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها ﴿ فى أيام معدودات ﴾ هى أيام التشريق ﴿ فمن تعجل ﴾ أى استعجل فى النفر أو النفر فإن التفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعديين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله والأول أوفق للتأخر كما فى قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل

﴿ فى يومين ﴾ أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو القر ويوم الرؤس واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار ﴿ فلا إثم عليه ﴾ بتعجله ﴿ ومن تأخر ﴾ فى النفر حتى رمى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط ﴿ فلا إثم عليه ﴾ بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح فيه أفضلية الثانى وإنما ورد بنفى الإثم تصريحا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للمتأخر ﴿ لمن اتقى ﴾ خبر لمبتدا محذوف أى الذى ذكر من التخيير ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمه منهما ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتنتظموا فى سلك المغتنمين بالأحكام المذكورة والرخص أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أى للجزاء على أعمالكم بعد الإحياء والبعث وأصل الحشر الجمع والضم المتفرق وهو تأكيد للأمر بالتقوى وموجب للامتثال به فإن من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى إلى ملازمة التقوى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إليه عليه الصلاة والسلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى إلى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أو موصوفة وإعرابه كما بينا فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أى ومنهم من يروقك كلامه ويعظم موقعه فى نفسك لما تشاهد فيه من ملاءمة الفحوى

ولطف الأداء والتعجب حيرة تعرض للإنسان بسبب عدم الشعور بسبب ما يتعجب منه ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ متعلق بقوله أى ما يقوله فى حق الحياة الدنيا ومعناها فإنها الذى يريده بما يدعيه من الإيمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة إلى أن له قولا آخر ليس بهذه الصفة أو بيعجبك أى يعجبك قوله فى الدنيا بحلاوته وفصاحته لا فى الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما يرهقه من الحبسة واللكنة وأنت خبير بأنه لا مبالغة حينئذ فى سوء حاله فإن مآله بيان حسن كلامه فى الدنيا وقبحه فى الآخرة وقيل معنى فى الحياة الدنيا أى لا يصدر منه فيها إلا القول الحسن ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ أى بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم أن ما فى قلبي موافق لما فى لسانى وهو عطف على يعجبك وقرىء ويشهد الله فالمراد بما فى قلبه ما فيه حقيقة ويؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما (والله يشهد على ما فى قلبه) على أن كلمة على لكون المشهود به مضراً له فالجملة اعتراضية وقرىء ويستشهد الله ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على أن الخصام مصدر وإضافة ألد إليه بمعنى فى كقولهم ثبت العذر أو أشد الخصوم لهم خصومة على أنه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الإسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ما قبلها على القراءتين المتوسطتين ﴿ وإذا تولى ﴾ أى من مجلسك وقيل إذا صار واليا ﴿ سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف حيث بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل وقرىء ويهلك الحرث والنسل على إسناد الهلاك إليهما عطفا على سعى وقرىء بفتح اللام وهى لغة وقرىء على البناء للمفعول من الإهلاك ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أى لا يرتضيه بل يبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييلى .

﴿ وإذا قيل له ﴾ على نهج العظة والنصيحة ﴿ اتق الله ﴾ واترك ما تباشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته ﴿ أخذته العزة بالإثم ﴾ أى حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذى نهى عنه لجاجا وعنادا من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه أو ألزمته إياه ﴿ فحسبه جهنم ﴾ مبتدأ وخبر أى كافيه جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم ﴿ ولبئس المهاد ﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل ما يوطأ للجنب والجملة اعتراض ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ﴾ مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها ببذلها فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهالك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن ترتب عليه القتل ﴿ ابتغاء مرضات الله ﴾ أى طلبا لرضاه وهذا كمال التقوى وإيراده قسيما للأول من حيث أن ذلك يأنف من الأمر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وإن أدى إلى الهلاك وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال إنى شيخ كبير لا أنفعكم إن كنت معكم ولا أضركم إن كنت عليكم فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشرى حينئذ بمعنى يشترى لجريان الحال على صورة الشراء ﴿ والله رؤف بالعباد ﴾ ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييلى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم ﴾ أى الاستسلام والطاعة وقيل الإسلام وقرىء بفتح السين وهو لغة فيه وبفتح اللام أيضا وقوله تعالى ﴿ كافة ﴾ حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا فى قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراءنا ... على أثرنا ذيل مرط مرجل

وهى فى الأصل اسم الجماعة تكف مخالفها ثم استعملت فى معنى جميعا وتاؤها ليست للتأنيث حتى يحتاج إلى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وفى قوله :

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وإنما هى للنقل كما فى عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين أو ادخلوا فى الإسلام بكليته ولا تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب فإنهم كانوا يراعون بعض أحكام دينهم القديم بعد إسلامهم أو فى شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء عليهم السلام والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب كلهم ووصفهم بالإيمان إما على طريقة التغليب وإما بالنظر إلى إيمانهم القديم أو فى شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا يخلوا بشىء منها والخطاب للمسلمين وإنما خوطب أهل الكتاب بعنوان الإيمان مع أنه لا يصح الإيمان إلا بما كلفوه الآن إيذانا بأن ما يدعونه لا يتم بدونه ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ما أمرتم به ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهى أو الانتهاء ﴿ فإن زللتم ﴾ أى عن الدخول فى السلم وقرىء بكسر اللام وهى لغة فيه ﴿ من بعد ما جاءتكم ﴾ الآيات ﴿ البينات ﴾ والحجج القطعية الدالة على حقيقته الموجبة للدخول فيه ﴿ فاعلموا أن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حكيم ﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره ﴿ هل ينظرون ﴾ استفهام إنكارى فى معنى النفى أى ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه ﴿ إلا أن يأتيهم الله ﴾ أى أمره وبأسه أو يأتيهم الله بأمره وبأسه فحذف المأتى به لدلالة الحال عليه والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريق المباثة وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿ فى ظلل ﴾ جمع ظلة كقلل جمع قلة وهى ما أظلك وقرىء بالجر عطفا على ظلل أو الغمام ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى تم أمر إهلاكهم وفرغ منه وهو عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار وإنما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جىء بها إنباء عن وقوع مضمونها وقرىء وقضاء الأمر عطفا على الملائكة ﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره

﴿ ترجع الأمور ﴾ بالتأنيث على البناء للمفعول من الرجع وقرىء بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع .

﴿ سل بنى إسرائيل ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير لمجيء البينات ﴿ كم آتيناهم من آية بينة ﴾ معجزة ظاهرة على أيدى الأنبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الإسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية تميزها ﴿ ومن يبدل نعمة الله ﴾ التى هى آياته الباهرة فإنها سبب للهدى الذى هو أجل النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ ووصلت إليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل المجىء للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على على تفاصيلها كما فى قوله عز وجل (ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وإنما حذف للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح به لظهوره ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله يعاقبه أشد عقوبة فإنه شديد العقاب وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والتزيين من حيث الخلق والإيجاد مستند إليه سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل إذ ما من شىء إلا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما فى الدنيا من الأمور البهية والأشياء الشهية مزين بالعرض ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ عطف على زين وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزءون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم .

﴿ والذين اتقوا ﴾ هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان

بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم إلى جناب القدس شاغلة عنه ﴿فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل سافلين أو لأنهم فى أوج الكرامة وهم فى حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا والجملة معطوفة على ما قبلها وإيثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها ﴿والله يرزق من يشاء﴾ أى فى الدارين ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام وكان ذلك بين آدم وإدريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان ﴿فبعث الله النبيين﴾ أى فاختلفوا فبعث إلخ وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على ما يذكر عقيبه ﴿مبشرين ومنذرين﴾ عن كعب الذى علمته من عدد الأنبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن ثمانية وعشرون وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال فى فترة إدريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والأول هو الأنسب بالنظم الكريم ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب أو مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الإطلاق إذ لم يكن لبعضهم كتاب وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لا ينافى خصوص الضمير العائد إليه بمعونة المقام ﴿بالحق﴾ حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عز وعلا ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ ﴿ليحكم﴾ أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أو كل واحد من النبيين ﴿بين الناس﴾ أى المذكورين والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التعيين ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أى فى الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم.

﴿وما اختلف فيه﴾ أى فى الحق أو فى الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أى الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف وإزاحة الشقاق والتعبير عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم

من الوقوف على ما فى تضاعيفه من الحق فإن الإنزال لا يفيد تلك الفائدة أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سببا لاستحكامه ورسوخه ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أى رسخت فى عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى فاختلفوا وما اختلف فيه إلخ وقيل بالملفوظ بناء على عدم منع إلا عنه كما فى قولك ما قام إلا زيد يوم الجمعة ﴿ بغيا بينهم ﴾ متعلق بما تعلقت به من أى اختلفوا بغيا وتهالكا على الدنيا ﴿ فهدى الله الذين آمنوا ﴾ بالكتاب ﴿ لما اختلفوا فيه ﴾ أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف ﴿ من الحق ﴾ بيان لما وفى إبهامه أولا وتفسيره ثانيا ما لا يخفى من التفخيم ﴿ بإذنه ﴾ بأمره أو بتيسيره ولطفه ﴿ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ما سبق .

﴿ أم حسبتم ﴾ خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حثا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم إثر بيان اختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم وما لقى الأنبياء ومن معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرهم النصر وأم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة وهو متوقع ومنتظر ﴿ مستهم ﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل مستهم ﴿ البأساء ﴾ أى الشدة من الخوف والفاقة ﴿ والضراء ﴾ أى الآلام والأمراض (وزلزلوا) أى أزعجوا إزعاجا شديدا بما دهمهم من الأهوال والأفزاع ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ﴾ أى انتهى أمرهم من الشدة إلا حيث اضطرهم الضجر إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿ متى ﴾ أى متى يأتى ﴿ نصر الله ﴾ طلبا وتمنيا له

واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرىء حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل مع علو كعبهم فى الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضجيج علم أن الأمر بلغ إلى غاية لا مطمح وراءها ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ على تقدير القول أى فقيل لهم حينئذ ذلك إسعافا لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزمانى وفى إيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها[1] مالا يخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم إنشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه للإيذان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخلف ويجوز أن يكون هذا واردا من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردا عند وقوع المحكى وفيه رمز إلى أن الوصول إلى جناب القدس لا يتسنى إلا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبىء عنه قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات .

﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ أى من أصناف أموالهم ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ إما شرطية وإما موصولة حذف العائد إليها أى ما أنفقتموه من خير أى من خير كان ففيه تجويز الإنفاق من جميع أنواع الأموال وبيان لما فى السؤال إلا أنه جعل من جملة ما فى حيز الشرط أو الصلة وأبرز فى معرض بيان المصرف حيث قيل ﴿فللوالدين والأقربين﴾ للإيذان بأن الأهم بيان المصارف المعدودة لأن الاعتداد بالإنفاق بحسب وقوعه فى موقعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم له مال عظيم فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت ﴿واليتامى﴾ أى المحتاجين منهم ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ ولم يتعرض للسائلين والرقاب إما اكتفاء بما ذكر

---

(١) فى ١١ : وتقريره .

فى المواقع الأخر وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ فإنه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان ﴿ فإن الله به عليم ﴾ فيوفى ثوابه وليس فى الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدى ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال أى قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عز وجل ونصب القتال وقرىء وكتب عليكم القتل أى قتل الكفرة والواو فى قوله تعالى ﴿ وهو كره لكم ﴾ حالية أى والحال أنه مكروه لكم طبعاً على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالخبز بمعنى المخبوز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الإكراه مجازا كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التى من جملتها القتال فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن فى القتال خيراً لهم ﴿ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه من الأمور المستلذة وهو معطوف على ما قبله لامحل لهما من الإعراب ﴿ والله يعلم ﴾ ما هو خير لكم فلذلك أمركم به[1] ﴿ وأنتم لاتعلمون ﴾ أى لاتعلمونه ولذلك تكرهونه أو والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا فى ذلك رأيكم وامتثلوا بأمره تعالى .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيراً لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم فوقف رسول

---

(١) فى ط : يأمركم .

الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة ، والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام على أن قوله عز وجل ﴿ قتال فيه ﴾ بدل اشتمال من الشهر وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع فى الشهر الحرام لا عن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام وقرىء عن قتال فيه ﴿ قل ﴾ فى جوابهم ﴿ قتال فيه كبير ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بقل وإنما جاز وقوع قتال مبتدأ مع كونه نكرة لتخصصه إما بالوصف إن تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه وإما بالعمل إن تعلق به وإنما أوثر التنكير احترازا عن توهم التعيين وإيذانا بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان عن عطاء أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وما نسخت وأكثر الأقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الإسلام الموصل للعبد إلى الله تعالى ﴿ وكفر به ﴾ عطف على صد عامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فردا من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور فى حسن عطف قوله تعالى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ على سبيل الله لأنه ليس بأجنبى محض وقيل هو أيضا معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام ﴿ وإخراج أهله ﴾ وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ منه ﴾ أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به .

﴿ أكبر عند الله ﴾ خبر للأشياء المعدودة أى كبائر السائلين أكبر عند الله مما عنوا بالسؤال عنه وهو ما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفعل يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ والفتنة ﴾ أى ما ارتكبوه من

الإخراج والشرك وصد الناس عن الإسلام ابتداء وبقاء ﴿أكبر من القتل﴾ أى أفظع من قتل الحضرمى .

﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ بيان لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة فى الدين ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ الحق إلى دينهم الباطل وإضافة الدين إليهم لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق ﴿إن استطاعوا﴾ إشارة إلى تصلبهم فى الدين وثبات قدمهم فيه كأنه قيل وأنى لهم ذلك ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾ تحذير من الارتداد أى ومن يفعل ذلك بإضلالهم وإغوائهم ﴿فيمت وهو كافر﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام وفيه ترغيب فى الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الارتداد والموت عليه وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد والجمع للنظر إلى المعنى أى أولئك المصرون على الارتداد إلى حين الموت ﴿حبطت أعمالهم﴾ الحسنة التى كانوا عملوها فى حالة الإسلام حبوطا لاتلافى له قطعا ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر سابقا ولاحقا من القبائح ﴿أصحاب النار﴾ أى ملابسوها وملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾ كدأب سائر الكفرة ﴿إن الذين آمنوا﴾ نزلت فى أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فلا أجر لهم ﴿والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله﴾ كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فكأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿يرجون﴾ بما لهم من مبادىء الفوز ﴿رحمة الله﴾ أى ثوابه أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه لا لأن فى فوزهم اشتباها ﴿والله غفور﴾ مبالغ فى مغفرة ما فرط من عباده خطأ ﴿رحيم﴾ يجزل لهم الأجر والثواب والجملة اعتراض محقق لمضمون ما قبلها .

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ تواردت فى شأن الخمر أربع آيات نزلت

بمكة (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فطفق المسلمون يشربونها ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قالوا أفتنا يا رسول الله فى الخمر فإنها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فأما أحدهم فقرأ (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فنزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الآية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى نفر فلما سكروا تفاخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء للأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه شجة موضحة فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت (إنما الخمر والميسر) إلى قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) فقال عمر رضى الله عنه انتهينا يارب وعن على رضى الله عنه لو وقعت قطرة منها فى بئر فبنيت فى مكانها منارة لم أوذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف فنبت فيه الكلأ لم أرعه وعن ابن عمر رضى الله عنهما لو أدخلت أصبعى فيها لم تتبعنى وهذا هو الإيمان والتقى حقا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والخمر مصدر خمره أى ستره سمى به من عصير العنب على ماغلى واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كأنها نفس الستر كما سميت سكرا لأنها تسكرهما أى تحجزهما والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته إذا قمرته واشتقاقه إما من اليسر لأنه أخذ المال بيسر من غير كد ولا[1] تعب وإما من اليسار لأنه سلب له وصفته أنه كانت لهم عشرة قداح هى الأزلام والأقلام: الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين إلا الثلاثة وهى المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة ويضعونها على يدى عدل

(١) سقطت من ط .

ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونه البرم وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إياكم وهاتين اللعبتين المشؤمتين» فإنهما مياسر العجم وعن على كرم الله وجهه أن النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شيء فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى يسألونك عن حكمهما وعما فى تعاطيهما .

﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ أى فى تعاطيهما ذلك لما أن الأول مسلبة للعقول التى هى قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للأموال ﴿ ومنافع للناس ﴾ من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة وقرىء إثم كثير بالمثلثة وفى تقديم بيان إثمه ووصفه بالكبير وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ أى المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرىء أقرب من نفعهما .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ﴾ عطف على يسألونك عن الخمر إلخ عطف القصة على القصة أى أى شىء ينفقونه قيل هو عمرو بن الجموح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الأموال فلما بين جواز الإنفاق من جميع الأجناس سأل ثانيا من أى أصنافها ننفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ما ينفقه منه فقيل ﴿ قل العفو ﴾ بالنصب أى ينفقون العفو أو أنفقوا العفو وقرىء بالرفع على أن ما استفهامية وذا موصولة صلتها ينفقون أى الذى ينفقونه العفو قال الواحدى أصل العفو فى اللغة الزيادة وقال القفال العفو ماسهل وتيسر مما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل

وروى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال خذها منى صدقة فأعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى قال عليه السلام مغضبا هاتها فأخذها فحذفها عليه حذفا لو أصابته لشجته ثم قال : « يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى » ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه فى الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وإفراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب كما مر ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك البيان الواضح الذى هو عبارة عما مضى فى أجوبة الأسئلة المارة ﴿ يبين الله لكم الآيات ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية المذكورة لا بيانا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وتبين الآيات تنزيلها ظاهرة[1] الفحوى واضحة المدلول لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ لكى تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها وتعملوا بما فى تضاعيفها وقوله تعالى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق إما بيبين أى يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات وإما بمحذوف وقع حالا من الآيات أى يبينها لكم كائنة فيهما أى مبينة لأحوالكم المتعلقة بهما وإنما قدم عليه التعليل بمزيد الاعتناء بشأن التفكر وإما بقوله تعالى تتفكرون أى تتفكرون فى الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فى الأحكام الواردة فى أجوبة الأسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الأحكام الجزئية ويجوز التعميم لجميع الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة بذلك حينئذ إشارة إلى ما مر من البيانات كلا أو بعضا لا إلى مصدر

---

(١) فى ط : مبينة.

ما بعده فإنه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد فى الأجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون فى أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة .

﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ عطف على ما قبله من نظيره روى أنه لما نزلت إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أى التعرض لأحوالهم وأموالهم على طريق الإصلاح خير من مجانبتهم اتقاء .

﴿ وإن تخالطوهم ﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿ فإخوانكم ﴾ أى فهم إخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الأخوة ومواجبها المخالطة بالإصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد ومن لتضمينه معنى التمييز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد مميزا له ممن يصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازى كلا منهما بعمله ففيه وعد ووعيد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أى لو شاء أن يعنتكم أو يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم ﴿ إن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعز عليه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل ﴿ حكيم ﴾ أى فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة دليل على ما تفيده كلمة « لو » من انتفاء مقدمها .

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أى لا تتزوجوهن وقرىء بضم التاء من الإنكاح أى لا تزوجوهن من المسلمين ﴿حتى يؤمن﴾ والمراد بهن إما ما يعم الكتابيات أيضا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتيين لقوله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) إلى قوله (سبحانه عما يشركون) فالآية منسوخة بقوله تعالى ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وأما غير الكتابيات فهى ثابتة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبى مرثد الغنوى إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها عناق فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك إن الإسلام حال بيننا فقالت هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأستأمره فاستأمره فنزلت ﴿ولأمة مؤمنة﴾ تعليل للنهى عن مواصلتهن وترغيب فى مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى إفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار وأصل أمة أمو حذفت لامها على غير قياس وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واوا رجوعها فى الجمع قال الكلابى

أما الإماء فلا يدعوننى ولدا إذا تداعى بنو الأموات بالعار

وظهورها فى المصدر يقال هى أمة بينة الأموة وأقرت له بالأموة وقد وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أى ولأمة مؤمنة مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر ﴿خير﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿من مشركة﴾ أى امرأة مشركة مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشان ﴿ولو أعجبتكم﴾ قد مر أن كلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشىء فى الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى على تقديره بل هى لبيان تحقيق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة

للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على وجه الإجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبتكم والجملة فى حيز النصب على الحالية من مشركة إذ المآل ولأمة مؤمنة خير من امرأة مشركة حال عدم إعجابها إياكم بجمالها ومالها ونسبها وغير[1] ذلك من مبادىء الإعجاب وموجبات الرغبة فيها أى على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما هو أشد منافاة للخيرية تنبيها على أنها حيث تحققت معه فلأن تتحقق مع غيره أولى وقيل الواو حالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق أنها عاطفة مستتبعة لما ذكر من الاعتبار اللطيف . نعم يجوز أن تكون الجملة الأولى مع عاطف عليها مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها فتدبر .

﴿ ولا تنكحوا المشركين ﴾ من الإنكاح والمراد بهم الكفار على الإطلاق لما مرأى لاتزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو إماء ﴿ حتى يؤمنوا ﴾ ويتركوا ماهم فيه من الكفر ﴿ ولعبد مؤمن ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿ خير مشرك ﴾ مع ماله من عز المالكية ﴿ ولو أعجبكم ﴾ بما فيه من دواعى الرغبة فيه الراجعة إلى ذاته وصفاته ﴿ أولئك ﴾ استئناف مقرر لمضمون التعليلين السارين أى أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿ يدعون ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى ما يؤدى إليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم ﴿ والله يدعو ﴾ بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم ﴿ إلى الجنة والمغفرة ﴾ أى إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخلية أن تقدم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداء ﴿ بإذنه ﴾ متعلق بيدعو أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذى من جملته إرشاد المؤمنين لمقارنيهم الى الخير ونصيحتهم إياى فهم أحقاء بالمواصلة ﴿ ويبين آياته ﴾ المشتملة على الأحكام الفائقة والحكم الرائقة ﴿ للناس لعلهم يتذكرون ﴾ أى لكى يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون ولا

(١) فى ط : وبغير

بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تشريفا لهم وأنت خبير بأن الضمير فى المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى ويبين الله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه وأى يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فإنها موصلة لمن عمل بها إليهما وهذا وإن كان مستدعيا لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين فى الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا للمبتدأ لكن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى (أولئك يدعون إلى النار) ولعل الطريق الأسلم ما أوضحناه أولا وإيراد التذكر ههنا للإشعار بأنه واضح لا يحتاج إلى التفكر كما فى الأحكام السابقة.

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ عطف على ما تقدم من مثله ولعل حكاية هذه الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخمر وحكاية ما عداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك فى وقت على حدة والمحيض مصدر من حاضت المرأة كالمجىء والمبيت. روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يؤاكلونهن كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك إلى أن سأل عن ذلك أبو الدحداح فى نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت ﴿ قل هو أذى ﴾ أى شىء يستقذر منه ويؤذى من يقربه نفرة منه وكراهة له ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ أى فاجتنبوا مجامعتهن فى حالة المحيض. قيل أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الأعراب يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة فإن آثرناهن هلك سائر أهل البيت وإن استأثرنا بها هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم» وقيل إن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون فى الاعتزال فأمر المسلمون بالاقتصاد بين الأمرين ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن لا عدم القرب منهن وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبى حنيفة رحمه الله فإن كان ذلك

فى أكثر المدة حل القربان كما انقطع وإلا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعى رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ فإذا تطهرن ﴾ فإن التطهر هو الاغتسال ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ من المأتى الذى حلله لكم وهو القبل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ مما عسى يبدر[1] منهم من ارتكاب بعض ما نهوا عنه ومن سائر الذنوب ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ المتنزهين عن الفواحش والأقذار وفى ذكر التوبة إشعار بمساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر .

﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ أى مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين ما يلقى فى أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ﴿ فأتوا حرثكم ﴾ لما عبر عنهن بالحرث عبر عن مجامعتهن بالإتيان وهو بيان لقوله تعالى (فأتوهن من حيث أمركم الله) ﴿ أنى شئتم ﴾ من أى جهة شئتم . روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته فى قبلها من دبرها يأتى ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أى ما يدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة ﴿ واتقوا الله ﴾ بالاجتناب عن معاصيه التى من جملتها ما عد من الأمور ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ فتعرضوا لتحصيل ما تنتفعون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ما تفتضحون به ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهى بحسب القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل ما يبشر به من الأمور التى تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع ما فى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشريف المؤمنين ما لا يخفى ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنه بشر بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين

(١) فى ط : يندر

حلف أن لا ينفق على مسطح لخوضه فى حديث الإفك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة تطلق على ما يعرض دون الشيء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للأمر كما فى قوله :

* فلا تجعلونى عرضة للوائم *

فالمعنى على الوجه الأول لاتجعلوا الله مانعا من الأمور[1] الحسنة التى تحلفون على تركها وعبر عنها بالإيمان لملابستها بها كما فى قوله عليه السلام لعبد الله بن سمرة « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وقوله تعالى : ﴿ أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ عطف بيان لأيمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الأمور المحلوف عليها واللام فى لأيمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أى لا تجعلوا الله لبركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عرضة أى برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لاتجعلوه تعالى عرضة أى شيئاً يعترض الأمور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل ويتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضة فيكون الإيمان بمعناها وأنت خبير بأنه يؤدى إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبى وعلى الوجه الثانى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهى أى إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن الحلاف مجترىء على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون برا متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل من التوسط فى إصلاح ذات البين ﴿ والله سميع ﴾ يسمع أيمانكم ﴿ عليم ﴾ يعلم نياتكم فحافظوا على ما كلفتموه .

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ اللغو ماسقط من الكلام عن درجة الاعتبار والمراد به فى الإيمان مالا عقد معه ولا قصد كما ينبىء عنه قوله تعالى

---

(١) فى ط : للأمور .

(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) وهو المعنى بقوله عز وجل ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ وقد اختلف فيه فعندنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه فإنه لاقصد فيه إلى الكذب وعند الشافعي رحمه الله هو قول العرب لا والله وبلى والله مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال فالمعنى على الأول لايؤاخذكم الله أى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظانا أنه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من إثم القصد إلى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لاقصد معه إلى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط ﴿ والله غفور ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئا من عدم التثبت وقلة المبالاة ﴿ حليم ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لايؤاخذكم الخ وفيه إيذان بأن المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا إيجاب الكفارة إذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم دونه .

﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ الإيلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أى للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل أن يراد لهم من نسائهم ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ كقولك لى منك كذا وقرىء آلوا من نسائهم وقرىء يقسمون من نسائهم والإيلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا على التقييد بالأشهر أو لا أقربك على الإطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه أنه إن فاء إليها فى المدة بالوطء إن أمكن أو بالقول إن عجز عنه صح الفيء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وإن مضت الأشهر[1] الأربعة بانت بتطليقة والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف اتساعا أى لهم أن ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بفيء أو طلاق ﴿ فإن فاءوا ﴾ أى رجعوا عن

(١) سقطت من ط .

اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما إذا قلت أنا نزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره وإلا لم ألبث إلا ريثما أتحول ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يغفر للمولى بفيئته التى هى كتوبته إثر حنثه عند تكفيره أو ماقصد بالإيلاء من ضرار المراة .

﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ وأجمعوا عليه ﴿ فإن الله سميع ﴾ بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولة التى لا تخلو عنها الحال عادة ﴿ عليم ﴾ بنياتهم وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة مالا يخفى ﴿ والمطلقات ﴾ أى ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لاعدة على غير المدخول بها وأن عدة من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل بالأشهر ووضع الحمل وأن عدة الأمة قرآن أو شهران ﴿ يتربصن ﴾ خبر فى معنى الأمر مفيد للتأكيد بإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهن امتثلن بالأمر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا وبناؤه على المبتدأ مفيد لزيادة تأكيد ﴿ بأنفسهن ﴾ الباء للتعدية أى يقمعنها ويحملنها على مالاتشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لهن على ذلك لما فيه من الإنباء عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح إلى الرجال فيحملهن ذلك على الإقدام على الإتيان بما أمر به ﴿ ثلاثة قروء ﴾ نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أى يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن مضى ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «دعى الصلاة أيام أقرائك» وقوله عليه السلام «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان» وقوله تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) ولأن المقصود الأصلى من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر ويقال أقرأت المراة إذا حاضت وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) معناه مستقبلات لعدتهن وهى الحيض الثلاث وإيراد جمع الكثرة فى مقام جمع القلة بطريق الاتساع فإن إيراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع وقرىء ثلاثة قرو بغير همز ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله

في أرحامهن﴾ من الحيض والولد استعجالا للعدة[1] وإبطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفيا وإثباتا ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله دلالة واضحة أي فلا يجترئن على ذلك فإن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذي يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعاً ﴿وبعولتهن﴾ البعولة جمع بعل وهو في الأصل السيد المالك والتاء لتأنيث الجمع كما في الحزونة والسهولة أو مصدر بتقدير مضاف أي أهل بعولتهن أي أزواجهن الذين طلقوهن طلاقا رجعيا كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿أحق بردهن﴾ إلى ملكهم بالرجعة إليهن ﴿في ذلك﴾ أي في زمان التربص وصيغة التفضيل لإفادة أن الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب إيثار قوله على قولها لا أن لها أيضا حقا في الرجعة ﴿إن أرادوا﴾ أي الأزواج بالرجعة ﴿إصلاحا﴾ لما بينهم وبينهن وإحسانا إليهن ولم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الإصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرار ﴿ولهن﴾ عليهم من الحقوق ﴿مثل الذي﴾ لهم ﴿عليهن بالمعروف﴾ من الحقوق التي يجب مراعاتها ويتحتم المحافظة عليها ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي زيادة في الحق لأن حقوقهم في أنفسهن وحقوقهن في المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها أو مزية في الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما في أيديهن يشاركونهن في[2] الغرض من الزواج ويستبدون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿والله عزيز﴾ يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿حكيم﴾ تنطوي شرائعه على الحكم والمصالح.

﴿الطلاق﴾ هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعي لما أن السابق الأقرب حكمه، ولما روي أنه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام أو تسريح بإحسان وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده أي عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفا ﴿مرتان﴾

---

(١) في ط: في العدة.
(٢) في ط: فيما هو.

أى اثنان وإيثار ما ورد به النظم الكريم عليه للإيذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة لا دفعة واحدة وإن كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا ﴿ فإمساك ﴾ أى فالحكم بعدهما إمساك لهن بالرجعة ﴿ بمعروف ﴾ أى بحسن عشرة ولطف معاملة ﴿ أو تسريح بإحسان ﴾ بالطلقة الثالثة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة إلى أن تنقضى العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعى وبالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) أى كرة بعد كرة والمعنى أن التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فإن ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى فإمساك الخ حكم مبتدأ وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطليق فأمركم أحد الأمرين ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا ﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿ مما آتيتموهن ﴾ أى من الصدقات وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة أو للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى ﴿ شيئا ﴾ أى نزرا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الأزواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة ﴿ إلا أن يخافا ﴾ أى الزوجان وقرىء يظنوا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن ﴿ أن لا يقيما حدود الله ﴾ أى أن لا يراعيا مواجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب ﴿ فإن خفتم ﴾ أيها الحكام ﴿ أن لا يقيما ﴾ أى الزوجان ﴿ فيما افتدت به ﴾ لا على الزوج فى أخذ ما افتدت به ولا عليها فى إعطائه إياه ، روى أن جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شىء والله ما أعيب عليه فى دين ولا خلق ، ولكن أكره الكفر

بعد الإسلام ما أطيقه بغضا إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها إياها .

﴿ فإن طلقها ﴾ أى بعد الطلقتين السابقتين ﴿ فلا تحل ﴾ هى ﴿ له من بعد ﴾ أى من بعد هذا الطلاق ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ فإن النكاح أيضا يسند إلى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الإصابة لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى، وإن ما معه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم تريدين أن ترجعى إلى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا إلا أن تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك وبمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج[1] والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا ، ويروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الأكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والمحلل له ﴿ فإن طلقها ﴾ أى الزوج الثانى ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أى على الزوج الأول والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ أن يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافى للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد .

﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿ حدود الله ﴾ أى أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿ يبينها ﴾ بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتى بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب

(١) فى ١١ : الزواج .

والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى(فإذا هى حية تسعى) أو حال من حدود الله والعامل معنى الإشارة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ماسيلحق بعض النصوص من البيان لايقف عليه إلا الراسخون فى العلم ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ﴾ أى آخر عدتهن فإن الأجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهاها والبلوغ هو الوصول إلى الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد ههنا لقوله عز وجل ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ إذ لا إمكان للإمساك بعد تحقق بلوغ الأجل أى فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن بإحسان من غير تطويل وهذا كما ترى إعادة للحكم فى بعض صوره اعتناء بشأنه ومبالغة فى إيجاب المحافظة عليه ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً ﴾ تأكيد للأمر بالامساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لاتراجعوهن إرادة الإضرار بهن ، كان يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لالرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ما أمر بضده لما ذكر وضرارا نصب على العلية أو الحالية أى لاتمسكوهن للمضارة أو مضارين واللام فى قوله ﴿ لتعتدوا ﴾ متعلقة بضرارا أى لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإمساك المؤدى إلى الظلم وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته فى الشر والفساد ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ فى ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب ﴿ ولاتتخذوا آيات الله ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿ هزوا ﴾ أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة على مافى تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد فى الأمر : أنت هازىء ، كأنه نهى عن الهزؤبها وأريد ما يستلزمه من الأمر بضده أى جدوا فى الأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها وإلا فقد أخذتموها هزؤا ولعبا ويجوز أن يراد به النهى عن الإمساك ضرارا فإن الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب

الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ وقيل كان الرجل ينكح ويطلق ويعتق ثم يقول إنما كنت ألعب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والعتاق » ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ حيث هداكم إلى مافيه سعادتكم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله أى كائنة عليكم أو صفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها إن أريد بها الإنعام لأنها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح فى عمله تاء التأنيث لأنه مبنى عليها كما فى قوله :

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا كالموارد

﴿ وما أنزل عليكم ﴾ عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل ﴿ من الكتاب والحكمة ﴾ بيانية أى من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله

* إلى الملك القرم وابن الهمام *

وفى إبهامه أولا ثم بيانه من التفخيم مالا يخفى وفى إفراده بالذكر مع كونه أول مادخل فى النعمة المأمور بذكرها إبانة بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ما ذكر قبله من الأحكام ﴿ يعظكم به ﴾ أى بما أنزل حال من فاعل أنزل أو من مفعوله أو منهما معا ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة ﴿ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تذرون فيؤاخذكم بأفانين العقاب .

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ﴾ بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشارفة إليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب إما للأولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملا أن ترجع إلى زوجها الأول بالنكاح وقيل نزلت فى

جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له وإسناد التطليق إليهم لتسببهم فيه كما ينبىء عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز التزوج بالزوج الأول قبله أيضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها وإلا لما احتيج إلى نهى الأولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة ، وإما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وقسرا لحمية الجاهلية . وإما للناس كافة فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل فى استتباع اللائمة وسراية الغائلة ﴿ أن ينكحن ﴾ أى من أن ينكحن فمحله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿ أزواجهن ﴾ إن أريد بهم المطلقون فالزوجية إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فباعتبار الأخير ﴿ إذ تراضوا ﴾ ظرف للاتعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقييد به لأنه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضى وقيل ظرف لأن ينكحن وقوله تعالى ﴿ بينهم ﴾ ظرف للتراضى مفيد لرسوخه واستحكامه ﴿ بالمعروف ﴾ الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء إما متعلقة بمحذوف حال من فاعل تراضوا أو نعت[1] لمصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف ، وإما بتراضوا بما يحسن فى الدين والمروءة وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل .

---

(١) فى ط : وقع حالا . . . . أو نعتا .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام وما فيه من البعد لتعظيم المشار إليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد إما باعتبار كل واحد منهم ، وإما بتأويل القبيل والفريق ، وإما لأن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء ﴾ للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يعرفه كل واحد ﴿ يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه إجلالا له وخوفا من عقابه ، وقوله تعالى منكم إما متعلق بكان عند من يجوز عملها فى الظروف وشبهها ، وإما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أى كائنا منكم ﴿ ذلكم ﴾ أن الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿ أزكى لكم ﴾ أى أنمى وأنفع ﴿ وأطهر ﴾ من أدناس الآثام وأوضار الذنوب ﴿ والله يعلم ﴾ ما فيه من الزكاء والطهر ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك أو والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التى من جملتها ما بينه ههنا وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه فى كل ما تأتون وما تذرون .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ شروع فى بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة فى الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب أو الوجوب إن خص بمادة عدم قبول الصبى ثدى الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهن عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للمطلقات وغيرهن وقيل خاص بهن إذ الكلام فيهن ﴿ حولين كاملين ﴾ التأكيد بصفة الكمال لبيان أن التقدير تحقيقى لا تقريبى مبنى على المسامحة المعتادة ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ بيان لمن يتوجه إليه الحكم أى ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده ﴿ وعلى المولود له ﴾ أى الوالد فإن الولد يولد له وينسب إليه وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضى لوجوب الإرضاع ومؤنة المرضعة عليه ﴿ رزقهن وكسوتهن ﴾ أجرة لهن واختلف فى

استئجار الأم وهو غير جائز عندنا مادامت فى النكاح أو العدة جائز عند الشافعى رحمه الله ﴿ بالمعروف ﴾ حسبما يراه الحاكم ويفى به وسعه ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ تعليل لإيجاب المؤن بالمعروف أو تفسير المعروف وهو نص على أنه تعالى لا يكلف العبد مالا يطيقه وذلك لا ينافى إمكانه .

﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ تفصيل لما قبله وتقرير له أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرىء لا تضار بالرفع بدلا من لا تكلف وأصله على القراءتين لا تضارر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته أى لا يضر الوالدان بالولد فيفرط فى تعهده ويقصر فيما ينبغى له وقرىء لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضيره وإضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافهما إليه وللتنبيه على أنه جدير بأن يتفقا على استصلاحه ولا ينبغى أن يضرا به أو يتضارا بسببه .

﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ عطف على قوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن) الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبى ممن كان ذا رحم محرم منه وقيل عصباته وقال الشافعى رحمه الله هو وارث الأب وهو الصبى أى تمان المرضعة من ماله عند موت الأب ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبى مال وقيل الباقى من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام واجعله الوارث منا وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة ﴿ فإن أرادا ﴾ أى الوالدان ﴿ فصالا ﴾ أى فطاما عن الرضاع قبل تمام الحولين والتنكير للإيذان بأنه فصال غير معتاد ﴿ عن تراض ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى صادرا عن تراض ﴿ منهما ﴾ أى من الوالدين لا من أحدهما فقط لاحتمال إقدامه على ما يضر بالولد بأن تمل المرأة الإرضاع ويبخل الأب بإعطاء الأجرة ﴿ وتشاور ﴾ فى شأن الولد وتفحص عن أحواله وإجماع منهما على استحقاقه للفطام والتشاور من المشورة وهى استخراج الرأى من شرت العسل إذا استخرجته وتنكيرهما للتفخيم ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ فى ذلك لما أن تراضيهما إنما يكون بعد استقرار رأيهما أو اجتهادهما على أن صلاح الولد

فى الفطام وقلما يتفقان على الخطأ ﴿ وإن أردتم ﴾ بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام والالتفات إلى خطاب الآباء لجذبهم إلى الامتثال بما أمروا به ﴿ أن تسترضعوا أولادكم ﴾ بحذف المفعول الأول استغناء عنه أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم يقال أرضعت المرأة الصبى واسترضعتها إياه وقيل إنما يتعدى إلى الثانى بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبى أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم فحذف حرف الجر أيضاً كما فى قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى كالوا لهم ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع للولد ويمنع الأم من الإرضاع ﴿ إذا سلمتم ﴾ أى إلى المراضع ﴿ ما آتيتم ﴾ أى ما أردتم إيتاءه كما فى قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) وقرىء ما أتيتم من أتى إليه إحسانا إذا فعله وقرىء ما اوتيتم أى من جهة الله عز وجل كما فى قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وفيه مزيد بعث لهم إلى التسليم ﴿ بالمعروف ﴾ متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو ندب إلى ماهو الأليق والأولى فإن المراضع إذا أعطين ما قدر لهن ناجزاً يداً بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شئون الأطفال ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن مراعاة الأحكام المذكورة ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بذلك وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى .

﴿ والذين ﴾ على حذف المضاف أى وأزواج الذين ﴿ يتوفون منكم ﴾ أى تقبض أرواحهم بالموت فإن التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين ﴿ ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ أو على حذف العائد إلى المبتدأ فى الخبر أى يتربصن بعدهم كما فى قولهم: السمن منوان بدرهم أى منوان منه وقرىء يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم وتأنيث العشر

باعتبار الليالى لأنها غرر الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير فى مثله أصلا حتى أنهم يقولون صمت عشراً ومن البين فى ذلك قوله تعالى (إن لبثتم إلا عشراً) ثم (إن لبثتم إلا يوما) ولعل الحكمة فى هذا التقدير أن الجنين إذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه الأيام[1] العشر استظهارا إذ ربما تضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسلمة والكتابية والحرة والأمة فى هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف فى الأمة وقوله عز وجل وأولات الأحمال خص الحامل منه وعن على وابن عباس رضى الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين احتياطا ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أى انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أيها الحكام والمسلمون جميعا ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن ﴾ من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة ﴿ بالمعروف ﴾ بالوجه الذى لا ينكره الشرع وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجناح ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به .

﴿ ولا جناح عليكم ﴾ خطاب للكل ﴿ فيما عرضتم به ﴾ التعريض والتلويح إبهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لأسلم عليك وأصله إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه أى جانب والكناية هى الدلالة على الشىء بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف ﴿ من خطبة النساء ﴾ الخطبة بالكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فقيل هى مأخوذة من الخطب أى الشأن الذى له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب وقيل من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول

---

(١) سقطت من ط .

لها إنك لجميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك مما يوهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ﴿أو أكننتم فى أنفسكم﴾ أى أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهم على قلة التثبت ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ استدراك محذوف دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحا بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسر لأن مسببه الذى هو الوطء مما يسر به وإيثاره على اسمه للإيذان بأنه مما ينبغى أن يسر به ويكتتم وحمله على الوطء ربما يوهم الرخصة فى المحظور الذى هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب سرا على الظرفية أى لا تواعدوهن فى السر على أن المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ استثناء مفرغ مما يدل عليه النهى أى لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو إلا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشىء من الأشياء إلا بأن تقولوا قولا معروفا وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لأدائه إلى جعل التعريض موعودا وليس كذلك ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ من عزم الأمر إذا قصده قصدا جازما وحقيقته القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام والنهى عنه للمبالغة فى النهى عن مباشرة عقد النكاح أى لا تعزموا عقدة النكاح ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أى (تبلغ)[1] العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا (على أنفسكم)[2] عقدة النكاح أى لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيا عن نفس الفعل لا عن قصده .

(١ ، ٢) سقطت من ط

﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم ﴾ من ذوات الصدور التى من جملتها العزم على مانهيتم عنه ﴿ فاحذروه ﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداء أو إقلاعا عنه بعد تحققه ﴿ واعلموا أن الله غفور ﴾ يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى ﴿ حليم ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لإدخال الروعة ﴿ لا جناح عليكم ﴾ أى لا تبعة من مهر وهو الأظهر وقيل من وزر إذ لا بدعة فى الطلاق قبل المسيس وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر النهى عن الطلاق فظن أن فيه جناحا فنفى ذلك ﴿ إن طلقتم النساء مالم تمسوهن ﴾ أى مالم تجامعوهن وقرىء تماسوهن بضم التاء فى جميع المواقع أى مدة عدم مساسكم إياهن على أن مامصدرية ظرفية بتقدير المضاف ونقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى إن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثانى قيدا للأول كما فى قولك إن تأتنى إن تحسن إلى أكرمك أى إن تأتنى محسنا إلى والمعنى إن طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقعد من الأول لما أن ما الظرفية إنما يحسن موقعها فيما إذا كان المظروف أمرا ممتدا منطبقا على ما أضيف إليها من المدة أو الزمان كما فى قوله تعالى (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) وقوله تعالى (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) ولا يخفى أن التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفى الجناح ربما يوهم إمكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن يقدر الحال مكان الزمان والمدة ﴿ أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ أى إلا أن تفرضوا لهن أو حتى تفريضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة وإعرابا والمعنى أنه لا تبعة على المطلق بمطالبة المهر أصلا إذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال إلا فى حال تسمية المهر فإن عليه حينئذ نصف المسمى وفى حال عدم تسميته عليه المتعة لا نصف مهر المثل

وأما إذا كان بعد المسيس[1] فعليه فى صورة التسمية تمام المسمى وفى صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة أوعاطفة لمدخولها على ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر .

﴿ ومتعوهن ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى ما يليق بحال كل منهما وقرىء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلق إيسارا وإقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف إليه عند من يجوزه أى على موسعكم الخ وهذا إذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فإن كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿ متاعا ﴾ أى تمتيعا ﴿ بالمعروف ﴾ أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة ﴿ حقا ﴾ صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿ على المحسنين ﴾ أى الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال أو إلى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارا للمشارفة وترغيبا وتحريضا .

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن ﴾ قبل ذلك ﴿ فريضة ﴾ أى وإن طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة إليهما ونفس الفرض من المبنى للفاعل أو للمفعول وإن لم يقارن حالة التطليق لكن اتصاف المطلق بالفارضية فيما سبق مما لا ريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى اتصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق .

﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ أى فلهن نصف ما سميتم لهن من المهر أو فالواجب

(١) فى ط : المساس

عليكم ذلك وهذا صريح فى أن المنفى الصورة السابقة إنما هو تبعة المهر وقرىء بالنصب أى فأدوا نصف ما فرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الأصل فى العقد والأكثر فى الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت فى أنصارى تزوج امرأة من بنى حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند العلم بالا[1] لاشىء له متعها بقلنسوتك ﴿ إلا أن يعفون ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى فلهن نصف المفروض معينا فى كل حال إلا حال عفوهن فإنه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة فى نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وإنما الفرق فى الاعتبار والتحقيق فإن الواو فى الأولى ضمير والنون علامة الرفع وفى الثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره فيما عطف على محله من قوله تعالى ﴿ أو يعفو ﴾ بالنصب وقرىء بسكون الواو ﴿ الذى بيده عقدة النكاح ﴾ أى يترك الزوج المالك لعقده وحله ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها كاملا على ماهو المعتاد تكرما فإن ترك حقه عليها عفوا[2] بلا شبهة أو سمى ذلك عفوا فى صورة عدم السوق مشاكلة أو تغليبا لحال السوق على حال عدمه فرجع الاستثناء حينئذ إلى منع الزيادة فى المستثنى منه كما أنه فى الصورة الأولى إلى منع النقصان فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة ولا نقصان فى جميع الأحوال إلا فى حال عفوهن فإنه حينئذ لا يكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط أو فى حال عفو الزوج فإنه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على التفسير الأول وأما على التفسير الثانى فلا بد من المصير إلى جعل الاستثناء منقطعا لأن فى صورة عفو الزوج لايتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفى القول القديم للشافعى رحمه الله أن المراد عفو الولى الذى بيده عقدة نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الأول أنسب بقوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا

---

(١) فى ط : كما يلوح عند إظهار الا شىء عنده .　　(٢) فى ط : عفو .

أقرب للتقوى ﴾ إلى آخره فإن إسقاط حق الصغيرة ليس فى شىء من التقوى وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو وقرىء بالياء ﴿ ولاتنسوا الفضل بينكم ﴾ أى لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشىء المنسى وقرىء بكسر الواو والخطاب فى الفعلين للرجال والنساء جميعاً بطريق التغليب ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والإحسان .

﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ أى داوموا على أدائها لأوقاتها من غير إخلال بشىء منها كما تنبىء عنه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الأمر بها فى تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال بشأنهم وبشأن أنفسهم أيضا كما يفصح عنه الأمر بها فى حالة الخوف ولذلك أمر بها فى خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض ﴿ والصلوة الوسطى ﴾ أى المتوسطة بينها أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم نارا وقال عليه السلام إنها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وفضلها لكثرة إشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ وقيل هى صلاة الظهر لأنها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحمزها وقيل هى صلاة الفجر لأنها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة كصلاة العصر وقيل هى صلاة المغرب لأنها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع بين صلاتى النهار والليل وتر النهار ولا تنقص فى السفر وقيل هى صلاة العشاء لأنها بين الجهريتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ إحدى الأربع قد خصت بالذكر مع العصر

لانفرادها بالفضل وقرىء وعلى الصلاة الوسطى وقرىء بالنصب على المدح ، وقرىء الوسطى ﴿ وقوموا لله ﴾ أى فى الصلاة ﴿ قانتين ﴾ ذا كرين له تعالى فى القيام لأن القنوت هو الذكر فيه وقيل هو إكمال الطاعة وإتمامها بغير إخلال بشىء من أركانها وقيل خاشعين ، وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح .

﴿ فإن خفتم ﴾ أى من عدو أو غيره ﴿ فرجالا ﴾ جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقرىء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضا وقرىء فرجلا أى راجلا ﴿ أو ركبانا ﴾ جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ما أمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسايفة أيضاً ﴿ فإذا أمنتم ﴾ بزوال الخوف ﴿ فاذكروا الله ﴾ أى فصلوا صلاة الأمن وعبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها ﴿ كما علمكم ﴾ متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أى ذكرا كائنا كما علمكم أى كتعليمه إياكم ﴿ مالم تكونوا تعلمون ﴾ من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علمه الله تعالى ولإيرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أو اشكروا الله تعالى شكرا يوازى تعليمه إياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام التى من جملتها كيفية إقامة الصلاة حالتى الخوف والأمن . هذا وفى إيراد الشرطية الأولى بكلمة إن المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة إذا المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز فى جواب الأولى والإطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المأمور به فيهما منزلة مقام وقوع الأمر تنزيلا مستدعيا لإجراء مقتضى المقام الأول فى كل منهما مجرى مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولى الأبصار ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا ﴾ عود إلى بيان بقية الأحكام المفصلة فيما سلف إثر بيان أحكام توسطت(١) بينهما لما أشير إليه من الحكمة الداعية إلى

---

(١) فى ط : وسطت .

ذلك ﴿ وصية لأزواجهم ﴾ أى يوصون أوليوصوا أو كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لأزواجكم وقرىء بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدأ أو الخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أو كتب عليهم وصية أو عليهم وصية وقرىء متاع لأزواجهم بدل وصية ﴿ متاعا إلى الحول ﴾ منصوب بيوصون إن أضمرته وإلا فبالوصية أو بمتاع على القراءة الأخيرة ﴿ غير إخراج ﴾ بدل منه أو مصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ما تقول أو حال من أزواجهم أى غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى (أربعة أشهر وعشرا) فإنه وإن كان متقدما فى التلاوة فهو[1] متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية ﴿ فإن خرجن ﴾ عن منزل الأزواج باختيارهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أيها الأئمة ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ﴾ لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب وفيه دلالة على أن المحظور إخراجها عند إرادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وأنها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها ﴿ والله عزيز ﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿ حكيم ﴾ يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿ وللمطلقات ﴾ سواء كن مدخولا بهن أولا ﴿ متاع ﴾ أى مطلق المتعة الشاملة الواجبة والمستحبة وأوجبها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهرى للكل وقيل المراد بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعهد والمراد غير المدخول بهن والتكرير للتأكيد ﴿ بالمعروف ﴾ شرعا وعادة ﴿ حقا على المتقين ﴾ أى بما ينبغى ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك البيان الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾

---

(١) سقطت من ط .

الدالة على أحكامه التى شرعها لعباده ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ لكى تفهموا ما فيها وتعملوا بموجبها ﴿ ألم تر ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار من شأنهم البديع فإن سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العلمية أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب إيذانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الإقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وإن لم يكن ممن رآهم أو سمع بقصتهم فإن هذا الكلام قد جرى مجرى المثل فى مقام لما أنه شبه حال غير الرائى لشىء عجيب بحال الرائى له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلائه بحيث استوى فى إدراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائى قصداً إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب وتعدية الرؤية بإلى فى قوله تعالى ﴿ إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ على تقدير كونها بمعنى الأبصار باعتبار معنى النظر على تقدير كونها إدراكا قلبيا لتضمين معنى الوصول والإنتهاء على معنى ألم ينته علمك إليهم ﴿ وهم ألوف ﴾ أى ألوف كثيرة قيل عشرة آلاف وقيل ثلاثون وقيل سبعون ألفا والجملة حال من فاعل خرجوا [(١)] وقوله عز وجل ﴿ حذر الموت ﴾ مفعول له . روى أن أهل دراورد[(٢)] قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا ألا مفر من حكم الله عز سلطانه وقضاؤه وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابعه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله فنادى فإذا هم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت وقيل هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم . وقوله عز وجل :

﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ إما عبارة عن تعلق إرادته تعالى بموتهم دفعة ،

---

(١) فى ط . من ضمير خرجوا . (٢) فى ط . داوردان .

وإما تمثيل لإماتته تعالى إياهم ميتة نفس واحدة في أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر آمر مطاع لمأمور مطيع كما في قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، ﴿ ثم أحياهم ﴾ عطف إما على مقدر يستدعيه المقام أى فماتوا ثم أحياهم وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته وإما على قال لما أنه عبارة عن الإماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المفر فأولى أن يكون في سبيل الله تعالى ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ عظيم ﴿ على الناس ﴾ قاطبة أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى لا يشكرون فضله كما ينبغى ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار وإظهار الناس في مقام الإضمار لمزيد التشنيع ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾ عطف على مقدر يعينه ما قبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا في سبيله لما علمتم أن الفرار لا ينجى من الحمام وأن المقدر لا مرد له فإن كان قد حان الأجل فموت في سبيل الله عز وجل وإلا فنصر عزيز وثواب ﴿ واعلموا أن الله سميع ﴾ يسمع مقالة السابقين والمتخلفين ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه في أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيرا أو شرا فسارعوا إلى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة .

﴿ من ذا الذى يقرض الله ﴾ من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه وإقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلباً للثواب الآجل والمراد ههنا إما الجهاد الذى هو عبارة عن بذل النفس والمال في سبيل الله عز وجل ابتغاء لمرضاته وإما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاما أوليا ﴿ قرضا حسنا ﴾ أى إقراضا مقرونا بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضا حلالا طيباً ﴿ فيضاعفه له ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام

حملا على المعنى فإنه فى معنى أيقرضه وقرىء بالرفع أى يضاعف أجره وجزاءه جعل ذلك مضاعفة له بناء على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا وصيغة المفاعله للمبالغة وقرىء فيضعفه بالرفع بالنصب ﴿أضعافا﴾ جمع ضعف ونصبه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعول بأن يضمن المضاعفة معنى التصيير أو مصدر مؤكد على أن الضعف اسم للمصدر والجمع للتنوين ﴿كثيرة﴾ لا يعلم قدرها إلا الله تعالى وقيل الواحد بسبعمائة ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أى يقتر على بعض ويوسع على بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كى لا يبدل أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض فى الذكر للإيماء إلى أنه يعقبه فى الوجود تسلية للفقراء وقرىء يبصط بالصاد لمجاورة الطاء ﴿وإليه ترجعون﴾ فيجازيكم على ما قدمتم من الأعمال خيراً وشرا .

﴿ألم تر﴾ تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للإيذان باستقلاله فى التعجب مع أن له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الأمر بالقتال ﴿إلى الملأ من بنى إسرائيل﴾ الملأ من القوم وجوههم وأشرافهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم سموا بذلك لما أنهم يملأون العيون مهابة والمجالس بهاء أو لأنهم مليئون بما يبتغى منهم ومن تبعيضية ومن فى قوله تعالى ﴿من بعد موسى﴾ ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملأ أى كائنين بعض بنى إسرائيل من بعد وفاة موسى ولا ضير فى اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى ﴿إذ قالوا﴾ منصوب بمضمر يستدعيه المقام أى ألم تر إلى قصة الملأ أو حديثهم حين قالوا ﴿لنبى لهم﴾ هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهما السلام وقيل شمعون بن صعبة بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب عليهما السلام وقيل أشمويل بن بال بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل . قال مقاتل هو من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد أشمويل بن هلقايا ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ أى أنهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير أمر الحرب عن رأيه وقرىء نقاتل بالرفع على أنه حال مقدرة أى ابعثه لنا مقدرين القتال

أو استئناف مبنى على السؤال وقرىء يقاتل بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب للأمر والوصف لملكا ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال لهم النبي حينئذ فقيل قال ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أى هل قاربتم ألا تقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وإنما لم يذكر فى معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل هل عسيتم إن بعثت لكم ملكا الخ مع أنه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة فى بيان تخلفهم عنه فإنهم إذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بإيجاب الله تعالى فلئلا يقاتلوا عند عدم فرضيته أولى ولأن إيراد ما ذكروه ربما يوهم أن سبب تخلفهم عن القتال هو المبعوث لا نفس القتال وقرىء عسيتم بكسر السين وهى ضعيفة ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق ﴿ وما لنا ألا نقاتل ﴾ أى أى سبب لنا فى ألا نقاتل ﴿ فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أى والحال أنه قد عرض لنا ما يوجب القتال إيجابا قويا من الإخراج عن الديار والأوطان والاغتراب من الأهل والأولاد وإفراد الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك أن جالوت رأس العمالقة وملكهم وهو جبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا على بنى إسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ بعد سؤال النبي عليه السلام ذلك وبعث الملك ﴿ تولوا ﴾ أى أعرضوا وتخلفوا لكن لا فى ابتداء الأمر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته كما سيجىء تفصيله وإنما ذكر ههنا ما آل إليه[1] أمرهم إجمالا إظهارا لما بين قولهم وفعلهم من التنافى والتباين ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾

---

(١) فى ط : مآل أمرهم .

وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافى أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلى ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ شروع فى تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم أى قال لهم بعد ما أوحى إليه ما أوحى ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾ طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلوتا من الطول يأباه منع صرفه وملكا حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما مر ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك ﴿ ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ الواو الأولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام والمملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء .

﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم ﴾ لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك أولا بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره فى القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل ﴿ وزاده بسطة فى العلم ﴾ أى العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا وقيل قد أوحى إليه ونبىء ﴿ والجسم ﴾ قيل بطول القامة فإنه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ لما أنه مالك الملك والملكوت فعال لما يريد فله أن يؤتيه من يشاء من عباده ﴿ والله واسع ﴾

يوسع على الفقير ويغنيه ﴿ عليم ﴾ بمن يليق بالملك ممن لا يليق به وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة .

﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ توسيطه فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام للإشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. روى أنهم قالوا ما آية ملكه فقال ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ﴾ أى الصندوق وهو فعلوت من التوب الذى هو الرجوع لما أنه لا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كملكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقلبها إياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بنى إسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون إليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال أرباب الأخبار إن الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان عند آدم عليه السلام إلى أن توفى فتوارثه أولاده واحد بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ثم بقى فى أيدى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان إذا قاتل قدمه فكانت تسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وكان عنده إلى أن توفى ثم تداولته أيدى بنى إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا فى شىء تحاكموا إليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على

التابوت وسلبوه وجعلوه فى موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى أن كل من بال عنده ابتلى بالبواسير وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت. فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت قال لهم النبي إن آية ملكه أنكم تجدون التابوت فى داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه .

﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ أى فى إتيانه سكون لكم وطمأنينة كائنة من ربكم أو فى التابوت ماتسكنون إليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على مامر من أن موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وقيل السكينة صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهر وذنبه وجناحان فتئن فيزحف[1] التابوت نحو العدو وهم يمضون معه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن على رضى الله عنه كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما أو أنبياء بنى إسرائيل ﴿ تحمله الملائكة ﴾ حال من التابوت أى إن آية ملكه إتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفية ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الأخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له : ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبى عليه السلام لقومه أو إلى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به قبل تمام القصة إظهاراً لكمال العناية به ، وإفراد حرف

---

(١) فى ط : فيزف .

الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف ﴿ لآية ﴾ عظيمة ﴿ لكم ﴾ دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ماهى عليه من غير سماع من البشر ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى مصدقين بتملكيه أو بشىء من الآيات وإن شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هى بمعنى إذ .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ أى انفصل بهم عن بيت المقدس والأصل فصل نفسه ولما اتحد فاعله ومفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كانفصل وقيل فصل فصولا وقد جوز كونه أصلا برأسه ممتازا من المتعدى بمصدره كوقف وقوفا ووقفه وقفاً وكصد صدوداً وصده صداً ورجع رجوعا ورجعه رجعا والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من طالوت أى ملتبسا بهم ومصاحبا لهم روى أنه قال لقومه لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع إليه ممن اختارهم ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم نهراً فبعد ما ظهر له ما تعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبى عليه السلام أو بطريق الوحى عند من يقول بنبوته ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ بفتح الهاء وقرىء بسكونها ﴿ فمن شرب منه ﴾ أى ابتدأ شربه من النهر بأن كرع لأنه الشرب منه حقيقة ﴿ فليس منى ﴾ أى من جملتى وأشياعى المؤمنين وقيل ليس بمتصل بى ومتحد معى من قولهم فلان منى كأنه بعضه لكمال اختلاطهما ﴿ ومن لم يطعمه ﴾ أى لم يذقه من طعم الشىء إذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا أو غيرهما قال :

وإن شئت حرمت النساء سواكم   وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

أى نوما ﴿ فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ استثناء من قوله تعالى: (فمن شرب منه) فليس منى وإنما أخر عن الجملة الثانية لإبراز كمال العناية بها ومعناه الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكرع والغرفة ما يغرف وقرىء

بفتح الغين على أنها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أى غرفة كائنة بيده . يروى أن الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وإداوته[١] ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش ﴿ فشربوا منه ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى فابتلوا به فشربوا منه ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم المشار إليهم فيما سلف بالاستثناء من التولى وقرىء إلا قليل منهم ميلا إلى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فإن قوله تعالى فشربوا منه فى قوة أن يقال فلم يطيعوه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما فى قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

فإن قوله لم يدع فى حكم لم يبق ﴿ فلما جاوزه ﴾ أى النهر ﴿ هو ﴾ أى طالوت ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق بجاوز لا بآمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا من الموصول كأنه قيل فلما جاوزه والحال أن الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليل وفيه إشارة إلى أن من عداهم بمعزل من الإيمان ﴿ قالوا ﴾ أى بعض من معه من المؤمنين لبعض ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا من الكثرة والشدة ، قيل كانوا مائة ألف مقاتل شاكى السلاح ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ قيل أى الخلص منهم الذين يوقنون بلقاء[٢] الله تعالى بالبعث ويتوقعون ثوابه وإفرادهم بذلك الوصف لا ينافى إيمان الباقين فإن درجات المؤمنين فى التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين

---

(١) فى ط : وأدواته . والإداوة إناء ماء الوضوء .

(٢) فى ط يتيقنون لقاء

كافة والضمير فى قالوا للمتخذلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما .

﴿ كم من فئة ﴾ أى فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه إذا شققتها أو من فاء إليه إذا رجع فوزنها على الأول فعة وعلى الثانى فلة ﴿ قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهى فى حيز الرفع بالابتداء خبرها غلبت أى كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة ﴿ بإذن الله ﴾ أى بحكمه وتيسيره فإن دوران كافة الأمور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وإن قل عدده ولا يعز من خذله وإن كثرت أسبابه وعدده وقد روعى فى الجواب نكتة بديعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع فى كلام أصحابهم مبالغة فى رد مقالتهم وتسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشىء من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولادخل فى ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فإن العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب فى أن ما ذكر فى حيز الصلة ينبغى أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائما له فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى لمعيته[1] سبحانه حيث قيل ﴿ والله مع الصابرين ﴾ فإن المراد به معية نصره وتوفيقه حتما وحملها على المعية بالإثابة كما فعل يأباه أنهم إنما قالوه تتميما لجوابهم وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييلى تشجيعا لأصحابهم وتثبيتا لهم على الصبر المؤدى إلى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعا وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به تقريرا لكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبى أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت

(١) فى ط : بمقارنته .

فئة كثيرة بإذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وإيراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقرره وتحققه .

﴿ ولما برزوا ﴾ أى ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض فى موطن الحرب ﴿ لجالوت وجنوده ﴾ وشاهدوا ماهم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين لهم عادة ﴿ قالوا ﴾ أى جميعا عند تقوى القلوب الفريق الأول منهم بقول الفريق الثانى متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفى التوسل بوصف الربوبية المنبىء(1) عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة مالا يخفى ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ فى مداحض القتال ومزال النزال وتثبيت القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا لمجرد التقرر فى حيز واحد ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذى هو ملاك الأمر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى ﴿ فهزموهم ﴾ أى كسروهم بلا مكث ﴿ بإذن الله ﴾ بنصره وتأييده إجابة لدعائهم وإيثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل (فآتاهم الله ثواب الدنيا) الخ للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ كان إيشى أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء، وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار قال له كل منها احملنا فإنك بنا تقتل جالوت فحملها فى مخلاته وقيل لما أبطأ على أبيه خبر إخوته فى المصاف أرسل داود

---

(1) فى ط المنبئة

إليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم فى القراع وقد برز جالوت بنفسه إلى البراز ولا يكاد يبارزه أحد وكان ظله ميلا فقال داود لإخوته أما فيكم من يخرج إلى هذا الأقلف فزجروه فتنحى[1] ناحية أخرى ليس فيها إخوته وقد مر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلف قال طالوت أنكحه ابنتى وأعطيه شطر مملكتى فبرز له داود فرماه بما معه من الأحجار بالمقلاع فأصابه فى صدره فنفذت الأحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرين[2] وقيل إنما كلمته الأحجار عند بروزه لجالوت فى المعركة فأنجز له طالوت ما وعده وقيل إنه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ما صنعه فذهب يطلبه إلى أن قتل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك قوله تعالى ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ أى ملك بنى إسرائيل فى مشارق الأرض المقدسة ومغاربها ﴿ والحكمة ﴾ أى النبوة ولم يجتمع فى بنى إسرائيل الملك والنبوة قبله إلا له بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط ﴿ وعلمه مما يشاء ﴾ أى مما يشاء الله تعالى تعليمه إياه لا مما يشاء داود عليه السلام كما قيل لأن معظم ما علمه تعالى إياه مما لا يكاد يخطر ببال أحد ولا يقع فى أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيئته كالسرد بإلانة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الأمور الخفية .

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ ببعض ﴾ آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما فى القصة المحكية أو غيره وقرىء دفاع الله على أن صيغة المغالبة للمبالغة ﴿ لفسدت الأرض ﴾ وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها وقيل لولا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بعيثهم وقتلهم المسلمين أو لو يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض قاطبة ﴿ ولكن الله ذو فضل ﴾

(١) فى ط : فنحا ناحية (٢) فى ط : كثيرا .

عظيم لا يقادر قدره ﴿ على العالمين ﴾ كافة وهذا إشارة إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالى خلا أنه قد وضع موضعه ما يستتبعه ويستوجبه أعنى كونه تعالى ذا فضل على العالمين إيذانا بأنه تعالى متفضل فى ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كأنه قيل ولكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الأرض وتنتظم به مصالح العالم وتنصلح أحوال الأمم ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من حديث الألوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو شأن المشار إليه ﴿ آيات الله ﴾ المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى : ﴿ نتلوها عليك ﴾ أى بواسطة جبريل عليه السلام إما حال من الآيات والعامل معنى الإشارة وإما جملة مستقلة لا محل لها من الإعراب ﴿ بالحق ﴾ فى حيز النصب على أنه حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما فى كتبهم أو من فاعله أى نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أى ملتبسا بالحق والصدق ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ أى من جملة الذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا وإجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فإن هذه المعاملة لا تجرى بيننا وبين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام إثر بيان ما يستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها .

﴿ تلك الرسل ﴾ استئناف فيه رمز إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام إثر بيان كونه من جملتهم والإشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم فاللام فى المآل للاستغراق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم وقيل إلى الذين ذكرت قصصهم فى السورة وقيل إلى الذين ثبت علمه صلى الله عليه وسلم بهم ﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة خلا عنها غيره ﴿ منهم من كلم الله ﴾

تفصيل للتفصيل المذكور إجمالا أى فضله بأن كلمه تعالى بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمه تعالى ليلة الحيرة وفى الطور وقرىء كلم الله بالنصب وقرىء كالم الله من المكالمة فإنه كلم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه ويؤيده كليم الله بمعنى مكالمه وإيراد الاسم الجليل بطريق الإلتفات لتربية المهابة والرمز إلى ما بين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما ألحق من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس من التفاوت ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أى ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف والظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبىء عنه الإخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فإن ذلك فى قوة بعضهم فإنه قد خص بالدعوة العامة والحجج الجمة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغنى عن التعيين وقيل إنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلة وقيل إدريس عليه السلام حيث رفعه مكانا عليا وقيل أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل ﴿ وأيدناه ﴾ أى قويناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهى روح عيسى وإنما وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما مر وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط والآية ناطقة بأن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقاطع ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾ أى جاءوا من بعد الرسل من الأمم

المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق فمفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعاً ما اقتتل الخ وليس بذاك ﴿ من بعد ماجاءتهم ﴾ من جهة أولئك الرسل ﴿ البينات ﴾ المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على حقية الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الإعراض عن سننهم المؤدى إلى الاقتتال فمن متعلقة باقتتل ﴿ ولكن اختلفوا ﴾ استدراك من الشرطية أشير به إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها إلا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للإيذان بأن الاقتتال ناشىء من قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء كأنه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافا فاحشا ﴿ فمنهم من آمن ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿ ومنهم من كفر ﴾ بذلك كفراً لا ارعواء له عنه فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم ﴿ ولو شاء الله ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضا من الإختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة ﴿ ما اقتتلوا ﴾ وما نبض منهم عرق التطاول والتعادى لما أن الكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيد كما ظن بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجبا[1] لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه فى الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار فى ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ أى من الأمور الوجودية والعدمية التى من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فإن الترك أيضا من جملة الأفعال أى يفعل ما يريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيراً كان أو شرا إيمانا كان أو كفرا ﴿ يا أيها

(١) فى ط : موجب : خطأ .

الذين آمنوا أنفقوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى شيئا مما رزقناكموه على أن ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للحث على الإنفاق كما فى قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ والمراد به الإنفاق الواجب بدلالة ما بعده من الوعيد ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ كلمة من متعلقة بما تعلقت به أختها ولا ضير فيه لاختلاف معنييهما فإن الأولى تبعضية وهذه لابتداء الغاية أى أنفقوا بعض مارزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا تقدرون على تلافى ما فرطتم فيه إذ لا تبايع فيه حتى تتبايعوا ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ولا خلة حتى يسامحكم به أخلاؤكم أو يعينوكم عليه ولاشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء يشفعون لكم فى حط ما فى ذمتكم وإنما رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لأنها فى التقدير جواب هل فيه بيع أوخلة أو شفاعة وقرىء بفتح الكل ﴿ والكافرون ﴾ أى والتاركون للزكاة وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما فى قوله تعالى (ومن كفر) مكان ومن لم يحج وللإيذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) ﴿ هم الظالمون ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه إلى غير وجهه ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لاغير وفى إضمار خبر لامثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف ﴿ الحى ﴾ الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء وهو إما خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من لا إله إلا هو أو بدل من الله أو صفة له ويعضده القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعت ﴿ القيوم ﴾ فيعول من قام بالأمر إذا حفظه أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو القائم بذاته المقيم لغيره ﴿ لاتأخذه سنة ولا نوم ﴾ السنة ما يتقدم النوم من الفتور قال عدى بن الرقاع العاملى :

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الإحساس رأسا والمراد بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لا لأنهما قاصران بالنسبة إلى القوة الإلهية فإنه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل إلى حمل النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقى بناء على أن القادر على دفع السنة قد لايقدر على دفع النوم القوى كما فى قولك فلان يقظ لاتغلبه سنة ولانوم وإنما تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجى وتوسيط كلمة لا للتنصيص على شمول النفى لكل منهما كما فى قوله عز وجل (ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة) الآية وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ فلمراعاة الواقع إذ عروض السنة والنوم لمعروضهما إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تأكيد لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فإن من يعتريه أحدهما يكون موقوف الحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير وقيل استئناف مؤكد لما سبق وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن فى القيوم ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده فى الألوهية والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم .

﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ بيان لكبرياء شأنه وأنه لايدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده شفاعة وضراعة فضلا عن أن يدافعه عنادا أو مناصبة ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضى أو أمور الدنيا أو أمور الآخرة أو بالعكس أوما يحسونه ، وما يعقلونه أو ما يدركونه وما لايدركونه والضمير لما فى السموات والأرض بتغليب ما فيهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل عليه من ذا الذى من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ولايحيطون بشىء من علمه﴾ أى من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ أن يعلموه وعطفه على ما قبله لما أنهما جميعاً دليل على تفرده تعالى بالعلم الذاتى التام الدال على

وحدانيته ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ الكرسى ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد وكأنه منسوب إلى الكرس الذى هو الملبد وليس ثمة كرسى ولا قاعد ولا قعود وإنما هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة على طريقة قوله عز قائلا (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذا من كرسى العالم وقيل عن ملكه أخذا من كرسى الملك فإن الكرسى كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبر عن شمول علمه أو بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالأقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدى العرش محيط بالسموات السبع لقوله صلى الله عليه وسلم « ما السموات السبع والأرضون السبع مع الكرسى إلا كحلقة فى فلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » ولعله الفلك الثامن وعن الحسن البصرى أنه العرش .

﴿ ولا يؤوده ﴾ أى لا يثقله ولا يشق عليه ﴿ حفظهما ﴾ أى حفظ السموات والأرض وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه ﴿ وهو العلى ﴾ المتعالى بذاته عن الأشباه والأنداد ﴿ العظيم ﴾ الذى يستحقر بالنسبة إليه كل ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسائل الإلهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجلية فإنها ناطقة بأنه تعالى موجود متفرد بالإلهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا مناسبة بينه وبين الأشباح ولا يعتريه ما يعترى النفوس والأرواح مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد لا يشفع عنده إلا من أذن له فيه العالم وحده بجميع الأشياء جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عما تناله الأوهام عظيم

لا تحدق به الأفهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها أخواتها قال صلى الله عليه وسلم « إن أعظم آية فى القرآن آية الكرسى من قرأها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة » وقال عليه الصلاة والسلام « ما قرئت هذه الآية فى دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة » وقال « ياعلى علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها » وقال عليه السلام « من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله تعالى على نفسه وجاره وجاره والأبيات حوله » وقال عليه الصلاة والسلام «سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد القرآن سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسى » وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب بالذكر فى أثناء تعداد السيادات الخاصة لايدل على نفى مادلت عليه الأخبار المستفيضة وانعقد عليه الإجماع من سيادته عليه السلام لجميع افراد البشر .

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ جملة مستأنفة جىء بها إثر بيان تفرده سبحانه وتعالى بالشئون الجليلة الموجبة للإيمان به وحده إيذانا بأن من حق العاقل ألا يحتاج إلى التكليف والإلزام بل يختار الدين الحق من غير تردد وتلعثم وقيل هو خبر فى معنى النهى أى لاتكرهوا فى الدين فقيل منسوخ بقوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقيل خاص بأهل الكتاب حيث حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعثه عليه السلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فخلاهما ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ استئناف تعليلى صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كما فى قوله عز وجل (قد بلغت من لدنى عذرا)

أى إذ قد تبين بما ذكر من نعوته تعالى التى يمتنع توهم اشتراك غيره فى شىء منها الإيمان الذى هو الرشد الموصل إلى السعادة الأبدية من الكفر الذى هو الغى المؤدى إلى الشقاوة السرمدية ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه فقيل هو فى الأصل مصدر وإليه ذهب الفارسى وقيل اسم جنس مفرد مذكر وإنما الجمع والتأنيث لإرادة الآلهة وهو رأى سيبويه وقيل هو جمع وهو مذهب المبرد وقيل يستوى فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل إثر ما تميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ما عبد من دون الله تعالى أوصد عن عبادته سبحانه تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة ﴿ ويؤمن بالله ﴾ وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به عز وجل الموجبة للإيمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه فإن التخلية متقدمة على التحلية ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أى بالغ فى التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه ﴿ لا انفصام لها ﴾ الفصم الكسر بغير صوت كما أن القصم هو الكسر بصوت[1] ونفى الأول يدل على انتفاء الثانى بالأولوية والجملة إما استئناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة وإما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذى لا يحتمل النقيض أصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الإيمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدى إليه كما قيل فإنه غير مذكور فى حيز الشرط والاستمساك بها مستعارا

(١) فى ط : بغير إبانه ... بإبانة

لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى ﴿ والله سميع ﴾ بالأقوال ﴿ عليم ﴾ بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلى حامل على الإيمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد .

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين ثبت فى علمه تعالى إيمانهم فى الجملة مآلا أو حالا ﴿ يخرجهم ﴾ تفسير للولاية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير فى ولى ﴿ من الظلمات ﴾ التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل مما فى بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجلية بل مما فى جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان كما ستعرفه ﴿ إلى النور ﴾ الذى يعم نور الإيمان ونور الإيقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها إلى ما يقابلها من النور وإفراد النور لتوحيد الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال ﴿ والذين كفروا ﴾ أى الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان والطاغوت خبره والجملة خبر للأول والجملة الحاصلة معطوفة على ماقبلها ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا ﴿ يخرجونهم ﴾ بالوساوس وغيرها من طرق الإضلال والإغواء ﴿ من النور ﴾ الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها ﴿ إلى الظلمات ﴾ ظلمات الكفر والانهماك فى الغى وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الإسلام والجملة تفسير لولاية الطاغوت أوخبر ثان كما مر وإسناد الإخراج من حيث السببية إلى الطاغوت لايقدح فى استناده من حيث الخلق إلى قدرته سبحانه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما يتبعه من القبائح ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملابسوها وملازموها بسبب مالهم من الجرائم ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ماكثون أبدا .

﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ﴾ استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها وإنما بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة فى الله عز وجل وما أتى بها فى أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولأن فيما بعده تعدداً وتفصيلا يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير فى تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضاً بواسطة إبراهيم عليه السلام فإن يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لإنكار النفى وتقرير المنفى أى ألم تنظر أو ألم ينته علمك إلى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات أى قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وإيذان بتأييده فى المحاجة ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ أى لأن آتاه إياه حيث أبطره ذلك وحمله على المحاجة أو حاجه لأجله وضعا للمحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لأن أحسنت إليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك للكافر .

﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الأخير ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ بفتح ياء ربى وقرىء بحذفها . روى أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذى تدعو إليه قال ربى الذى يحيى ويميت أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحقة فقيل قال ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ روى أنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك ﴿ قال إبراهيم ﴾ استئناف كما سلف كأنه قيل فماذا قال

إبراهيم لمن فى هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أفحمه فقيل قال ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ فأت بها من المغرب ﴾ إن كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى فلم[1] يلتفت عليه السلام إلى إبطال مقالة اللعين إيذانا بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد وأن التصدى لإبطالها من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى صار مبهوتا وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أى فغلب إبراهيم الكافر وأسكته وإيراد الكفر فى حيز الصلة للإشعار بعلة الحكم والتنصيص على على كون المحاجة كفرا ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى لا يهدى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب إعراضهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنة يوم القيامة .

﴿ أو كالذى مر على قرية ﴾ استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق وإيثار أو الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر والكاف إما اسمية كما اختاره قوم جىء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما فى قولك الفعل الماضى مثل نصر إما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى أو لم تر إلى مثل الذى أو إلى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود أى قد رأيت ذلك وشاهدته فإذن لا ريب فى أن الله ولى الذين آمنوا الخ . هذا وإما جعل الهمزة لمجرد التعجيب على أن يكون المعنى فى الأول ألم تنظر إلى الذى حاج الخ أى انظر إليه وتعجب من أمره وفى الثانى أو أرأيت مثل الذى مر الخ إيذانا بأن حاله وما جرى عليه فى الغرابة بحيث لا يرى له مثل كما استقر عليه

---

(١) فى ط : لم

رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل فتدبر والمار هو عزير بن شرخيا قاله قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان ابن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم وقيل هو أرميا بن حلقيا من سبط هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير وقيل أرميا هو الخضر بعينه قال مجاهد كان المار رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد والقرية بيت المقدس قاله وهب وعكرمة والربيع ، وقيل هى دير هرقل على شط دجلة وقال الكلبى هى دير سابر آباد وقال السدى هى دير سلما باد والأول هو الأظهر والأشهر روى أن بنى إسرائيل لما بالغوا فى تعاطى الشر والفساد وجاوزوا فى العتو والطغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم بخت نصر البابلى فسار إليهم فى ستمائة ألف راية حتى وطىء الشام وخرب بيت المقدس وجعل بنى إسرائيل أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أسكنهم بالشام[1] وثلث منهم سباهم وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل مالك منهم أربعة غلمة وكان عزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد حين مر بحماره بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر وذلك قوله عز وجل ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ أى ساقطة على سقوفها بأن سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت إذا سقط أو من خوت الأرض أى تهدمت والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة مطلقا ﴿ قال ﴾ أى تلهفا عليها وتشوقا إلى عمارتها مع استشعار اليأس عنها ﴿ أنى يحيي هذه الله ﴾ وهى على مايرى من الحالة العجيبة المباينة للحياة وتقديمها على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل وأنى نصب على الظرفية إن كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه إن كانت بمعنى كيف والعامل يحيي وأياما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدى سبا ومن غيرهم وإنما عبر عنها

---

(١) فى ط: أقرهم بالشام

بالإحياء الذى هو علم فى البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيدا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل ﴿ بعد موتها ﴾ وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده أراه الله عز وجل آثر ذى أثير أبعد الأمرين فى نفسه ثم فى غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى إزاحة ما عسى يختلج فى خلده وأما حمل إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل فى الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق إرادته تعالى بإحيائهم كما تعلقت بعمارتها ومعاينة المار لها كما ستحيط به خبرا .

﴿ فأماته الله ﴾ وألبثه على الموت ﴿ مائة عام ﴾ روى أنه لما دخل القرية ربط حماره فطاف بها ولم ير بها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى فى منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك إلى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل وردهم إلى بيت المقدس وتراجع إليه من تفرق منهم فى الأكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ ثم بعثه ﴾ وإيثاره على أحياه للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم وللإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال له بعثه فقيل قال : ﴿ كم لبثت ﴾ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين فى الجملة بل بعد مدة طويلة وينحسم به

مادة استبعاده بالمرة ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ماكان عليه دهرا طويلا من غير تغيرما وكم نصب على الظرفية مميزها محذوف أى كم وقتا لبثت والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى قيل نودى من السماء ياعزير كم لبثت بعد الموت ؟

﴿ قال لبثت يوما أو بعض يوم ﴾ قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصاراً لمدة لبثه وأما مايقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوما فالتفت إليها فرآى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الإضراب فبمعزل عن التحقيق إذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسبان الغروب لتحقق النقصان من أوله ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ بل لبثت مائة عام ﴾ عطف على مقدر أى ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار ﴿ فانظر ﴾ لتعاين أمرا آخر من دلائل قدرتنا ﴿ إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أى لم يتغير فى هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد ، روى أنه وجد تينه وعنبه كما جنى وعصيره كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى (لم يمسسهم سوء) إما من الطعام والشراب وإفراد الضمير لجريانهما مجرى الواحد كالغذاء وإما من الأخير اكتفاء بدلالة حاله على حال الأول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنه لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فقلبت نونه حرف علة كما فى تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التى مرت لاحقيقة بل تشبيها أى هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام وقرىء لم يسنه بادغام التاء فى السين .

﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ما ذكر من لبثك[1] المديد وتطمئن به نفسك وقوله

---

(١) فى ط : من اللبث

عز وجل ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين فى هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ما طوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتى أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليل على ما ذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الأمر بالنظر إلى حماره وتكرير الأمر فى قوله تعالى : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المأمور به أولا هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر إليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها أى وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء فى غيرك بعد ما شاهدت نفسه فى نفسك ﴿ كيف ننشزها ﴾ بالزاى المعجمة أى ترفع بعضها إلى بعض ونردها إلى أماكنها من الجسد فنركبها تركيبا لائقا بها وقال الكسائى نلينها ونعظمها ولعل من فسره بنحييها أراد بالإحياء هذا المعنى وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحياها لا معناه الحقيقى لقوله تعالى

﴿ ثم نكسوها لحماً ﴾ أى نسترها به كما يستر الجسد باللباس وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطى كما قال الفراء فالمعنى كيف نبسطها والجملة إما حال من العظام أى وانظر إليها مركبة مكسوة لحماً أو بدل اشتمال أى وانظر إلى العظام كيفية إنشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنها مما لا تقتضى الحكمة بيانه ، روى أنه نودى أيتها العظام البالية أن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها إلى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم

الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق .

﴿ فلما تبين له ﴾ أى ما دل عليه الأمر بالنظر إليه من كيفية الإحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الأمر المذكور وإنما حذف للإيذان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر وللإشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) كأنه قيل فأنشزها الله تعالى وكساها لحماً فنظر إليها فتبين له كيفيته فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحا تاما ﴿ قال أعلم أن الله على كل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما شاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار ﴿ قدير ﴾ لا يستعصى عليه أمر من الأمور وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظرا إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل إنما تبدل بالعيان وصفه وفيه إشعار بأنه إنما قال ماقال بناء على الاستبعاد العادى واستعظاما للأمر وقد قيل فاعل تبين مضمر يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شىء قدير قال أعلم أن الله على كل شىء قدير فتدبر وقرىء تبين له على صيغة المجهول وقرىء قال اعلم على صيغة الأمر ، روى أنه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرى عزير وقد[1] فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديداً قال فإنى عزير قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أماتنى الله مائة عام ثم بعثنى قالت إن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله لى يرد على بصرى حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فأخذ بيدها فقال لها قومى بإذن الله فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل

---

(١) فى ط : قد

وهم فى أنديتهم وكان بها ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فإنى بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ابنه كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فاذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر ببيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا فقال رجل من أولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثنى أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية فى كرم فإن أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور وإنما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالذى قال رب الخ لجريان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجة ولأنه لا دخل لنفسه عليه السلام فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فإن ما جرى عليه من إحيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله فى نحو قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) أى واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه الأمر بالذكر فى أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث

(١) فى ط : وكان فى مجلس

لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر كأنها مشاهدة عيانا ﴿رب﴾ كلمة استعطاف قدمت بين يدى الدعاء مبالغة فى استدعاء الإجابة ﴿أرنى﴾ من الرؤية البصرية المتعدية إلى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فإنها تعلق كما يعلق النظر البصرى أى اجعلنى مبصرا ﴿كيف تحيي الموتى﴾ بأن تحييها وأنا أنظر إليها وكيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الأخفش والعامل فيها تحيي أى فى أى حال أو على أى حال تحيي قال القرطبي الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام ههنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل أى بصرنى كيفية إحيائك للموتى وإنما سأله عليه السلام ليتأيد إيقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان وأما ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم عليه السلام إن إحياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على أن يقول نعم فانتقل إلى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان .

﴿قال﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿أولم تؤمن﴾ عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس إيمانا وأقواهم يقينا ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفا للسامعين ﴿قال بلى﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أى كيفية شئت ﴿ولكن﴾ سألت ماسألت ﴿ليطمئن قلبي﴾ بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة .

﴿قال فخذ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف أى إن أردت ذلك فخذ ﴿أربعة من الطير﴾ قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر وتجر وقيل هو مصدر سمى به الجنس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين فى هين ومن متعلقة بخذ أو بمحذوف وقع صفة لأربعة أى أربعة كائنة من

الطير قيل هى طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الأخير وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿ فصرهن ﴾ من صاره يصوره أى أماله وقرىء بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرىء فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره ويصره إذا جمعه وقرىء فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن ﴿ إليك ﴾ لتتأملها وتعرف شياتها مفصلة حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلا ، روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رؤسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ أى جزئهن وفرق أجزاءهن على ما بحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعا أو سبعاً من كل طائر وقرىء جزؤا بضمتين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفا ثم تشديده عند الوقف ثم إجراء الوصل مجرى الوقف .

﴿ ثم ادعهن يأتينك ﴾ فى حيز الجزم على أنه جواب الأمر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع المؤنث ﴿ سعيا ﴾ أى ساعيات مسرعات أو ذوات سعى طيرانا أو مشيا وإنما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال تعالين بإذن الله فجعل كل جزء منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثا ثم أقبلن إلى رؤسهن فانضمت كل جثة إلى رأسها فعادت كل واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ويمن الضراعة فى الدعاء وحسن الأدب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ما سأله فى الحال على أيسر ما يكون من الوجوه وأرى عزيرا ما أراد بعدما أماته مائة عام

﴿ واعلم أن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعجزه شيء عما يريده ﴿ حكيم ﴾ ذو حكمة بالغة فى أفاعيله فليس بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ أى فى وجوه الخير من الواجب والنفل ﴿ كمثل حبة ﴾ لا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿ أنبتت سبع سنابل ﴾ أى خرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لكل واحدة منها سنبلة ﴿ فى كل سنبلة مائة حبة ﴾ كما يشاهد ذلك فى الذرة والدخن فى الأراضى المغلة بل أكثر من ذلك وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازى كإسناده إلى الأرض والربيع وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر ﴿ والله يضاعف ﴾ تلك المضاعفة أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال فى مقادير الثواب ﴿ والله واسع ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ بنية المنفق ومقدار إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقه ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ جملة مبتدأة جىء بها لبيان كيفية الإنفاق الذى بين فضله بالتمثيل المذكور ﴿ ثم لا يتبعون ما أنفقوا ﴾ أى ما أنفقوه أو إنفاقهم ﴿ منا ولا أذى ﴾ المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك حقا والأذى أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفى لإتباع كل واحد منهما وثم لإظهار علو رتبة المعطوف ، قيل نزلت فى عثمان رضى الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكد يخطر ببالهما شىء من المن أو الأذى ﴿ لهم أجرهم ﴾ أى حسبما وعدلهم فى ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول وفى تكرير الإسناد وتقييد الأجر بقوله ﴿ عند ربهم ﴾ من التأكيد والتشريف

مالا يخفى وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمر بين لا يحتاج إلى التصريح بالسببية وأما لإيهام أنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب فى الفعل والحث عليه ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ فى الدارين من لحوق مكروه من المكاره ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل أى لايعتريهم مايوجبه لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور ، كيف لاواستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خواص الخاصة والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا عالما أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام .

﴿ قول معروف ﴾ أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير إعطاء شىء ﴿ ومغفرة ﴾ أى ستر لما وقع من السائل من الإلحاف فى المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه وإنما صح الابتداء بالنكرة فى الأول لاختصاصها بالوصف وفى الثانى بالعطف أو بالصفة المقدرة أى ومغفرة كائنة من المسئول ﴿ خير ﴾ أى للسائل ﴿ من صدقة يتبعها أذى ﴾ لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الأولين من الضرر والجملة مستأنفة مقررة لاعتبار ترك إتباع المن والأذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة إلى المسئول يؤدى إلى أن يكون فى الصدقة الموصوفة بالنسبة إليه خير فى الجملة مع بطلانها بالمرة ﴿ والله غنى ﴾ لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل

---

(١) فى ط : الخواص

أصحاب المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعا ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثر بيان ما بطريق الغيبة مبالغة فى إيجاب العمل بموجب النهى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أى لا تحبطوا أجرها بواحد منهما ﴿ كالذى ﴾ فى محل النصب إما على أنه نعت لمصدر محذوف أى لا تبطلوها إبطال الذى ﴿ ينفق ماله رئاء الناس ﴾ وإما على أنه حال من فاعل لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق أى الذى يبطل إنفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر على ما هو رأى سيبويه وانتصاب رئاء إما على أنه علة لينفق أى لأجل رئائهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مرائيا والمراد به المنافق لقوله تعالى ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا .

﴿ فمثله ﴾ الفاء لربط ما بعدها بما قبلها أى فمثل المرائى فى الإنفاق وحالته العجيبة ﴿ كمثل صفوان ﴾ أى حجر أملس ﴿ عليه تراب ﴾ أى شىء يسير منه ﴿ فأصابه وابل ﴾ أى مطر عظيم القطر ﴿ فتركه صلدا ﴾ أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلا ﴿ لا يقدرون على شىء مما كسبوا ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياء ، ولا يجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى (فجعلناه هباء منثورا) والجملة استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لا يقدرون الخ ومن ضرورة كون مثلهم كما ذكر كون مثل من يشبههم وهم أصحاب المن والأذى كذلك والضميران الأخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل (وخضتم كالذى خاضوا) لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴾

أى لطلب رضاه ﴿ وتثبيتا من أنفسهم ﴾ أى ولتثبيت بعض أنفسهم على الإيمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه فإن المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها أو تصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى (حسدا من عند أنفسهم) ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه ويعضده قراءة من قرأ وتبيينا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة .

﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ الربوة بالحركات الثلاث وقد قرىء[1] بها المكان المرتفع أى مثل نفقتهم فى الزكاء كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فإن أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح وقرىء كمثل حبة ﴿ أصابها وابل ﴾ مطر عظيم القطر ﴿ فآتت أكلها ﴾ ثمرتها وقرىء بسكون الكاف تخفيفا ﴿ ضعفين ﴾ أى مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أى مضاعفا ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لاتضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار مايقارنها من الأحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير واليسير فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم

---

(١) فى ط : قرئت .

جلت أوقلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عند الله ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لايخفى عليه شىء منه وهو ترغيب فى الإخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه .

﴿ أيود أحدكم ﴾ الود حب الشىء مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالهما والهمزة لإنكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى لا لإنكار الواقع كما فى قولك أتضرب أباك على أن مناط الإنكار ليس جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق ﴿ أن تكون له جنة ﴾ وقرىء جنات ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ أى كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقى من المستتبعات لا على ألا يكون فيها غيرهما كما ستعرفه والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير .

كأن عينى فى غربى مقتلة   من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتملة عليها والأول هو الأنسب بقوله عزوجل ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ إذ على الثانى لابد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وكذا لابد من جعل إسناد الاحتراق إليها فيما سيأتى مجازيا والجملة فى محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى(من نخيل وأعناب) كذلك أوفى محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة ﴿ له فيها من كل الثمرات ﴾ الظرف الأول خبر والثانى حال والثالث مبتدأ أى صفة للمبتدأ قائمة مقامه أى له رزق من كل الثمرات كما فى قوله تعالى (ومامنا إلا له مقام معلوم) أى وما منا أحد إلا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير كمافى قوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) ﴿ وأصابه الكبر ﴾ أى كبر السن الذى هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أى وقد أصابه الكبر ﴿ وله ذرية ضعفاء ﴾ حال من الضمير فى أصابه أى أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغارا لايقدرون على الكسب وترتيب مبادى المعاش وقرىء ضعاف ﴿ فأصابها إعصار ﴾ أى ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم

تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود ﴿ فيه نار ﴾ شديدة ﴿ فاحترقت ﴾ عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم إليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباء منثورا بها فى التحسر والتأسف عليها ﴿ كذلك ﴾ توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعاً قد مر وجهه مرارا أى مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ كى تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته أى أنفقوا من خلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن فحذف لدلالة ماقبله عليه ﴿ ولا تيمموا ﴾ بفتح التاء أصله ولا تتيمموا وقرىء بضمها وقرىء ولا تأمموا والكل بمعنى القصد أى لاتقصدوا ﴿ الخبيث ﴾ أى الردىء الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التى لاتذكر موصوفاتها ﴿ منه تنفقون ﴾ الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أى لاتقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه أو من الخبيث أى مختصا به الإنفاق وأياً ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ إنفاقه مع الطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولين على طريقة قوله :

* كأنه فى الجلد توليع البهق *

أو للثانى وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور أى ولا تقصدوا الخبيث كائنا من المال أو مما كسبتم

وما أخرجنا لكم منفقين إياه وقوله تعالى ﴿ ولستم بآخذيه ﴾ حال على كل حال من واو تنفقون أى والحال أنكم لاتأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه ﴿ إلا أن تغمضوا فيه ﴾ أى إلا وقت إغماضكم فيه وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره إذا غضه وقرىء على البناء للمفعول على معنى إلا أن تحملوا على الإغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين وقرىء وتغمضوا وتغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى (ولا تيمموا الخبيث) ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الإنكارى فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ ﴿ واعلموا أن الله غنى ﴾ عن إنفاقكم وإنما يأمركم به لمنفعتكم وفى الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فإن إعطاء مثله إنما يكون عادة عند اعتقاد المعطى أن الآخذ محتاج إلى ما يعطيه بل مضطر إليه ﴿ حميد ﴾ مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيد والإثابة عليه .

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شىء من زمان أو غيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى : (النار وعدها الله الذين كفروا) أى يعدكم فى الإنفاق الفقر ويقول إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا وإنما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يضف مجىء الفقر إلى جهته للإيذان بمبالغته فى الإخبار بتحقق مجيئه كأنه نزله فى تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرىء بضم الفاء والسكون وبضمتين وبفتحتين ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أى بالخصلة الفحشاء أى ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخيل فاحشا قال طرفة ابن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقيل بالمعاصى والسيئات ﴿ والله يعدكم ﴾ أى فى الإنفاق ﴿ مغفرة ﴾ لذنوبكم والجار فى قوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة كائنة منه عز وجل ﴿ وفضلا ﴾ صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم زائدا عليه فى الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا فى الآخرة ﴿ والله واسع ﴾ قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه ﴿ عليم ﴾ مبالغ فى العلم فيعلم إنفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ما سيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ يؤتى الحكمة ﴾ قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقه روى عن ابن نجيح أنها الإصابة فى القول والعمل وعن إبراهيم النخعى أنها معرفة معانى الأشياء وفهمها وقيل هى معرفة حقائق الأشياء وقيل هى الإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار ومرة بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة ولعل الأنسب بالمقام ما ينتظم الأحكام المبينة فى تضاعيف الآيات الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها أى يبينها ويوفق للعلم والعمل بها ﴿ من يشاء ﴾ من عباده أن يؤتيها إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه كما آتاكم ما بينه فى ضمن الآى من الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ﴿ ومن يؤت الحكمة ﴾ على بناء المفعول وقرىء على البناء للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها وللإشعار بعلة الحكم ﴿ فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ أى أى خير كثير

فإنه قد خير له خير الدارين ﴿وما يذكر﴾ أى وما يتعظ بما أوتى من الحكمة أو وما يتفكر فيها ﴿إلا أولوا الألباب﴾ أى العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى مشايعة الهوى وفيه من الترغيب فى المحافظة على الأحكام الواردة فى شأن الإنفاق مالا يخفى والجملة إما حال أو اعتراض تذييلى .

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات ومافى حكمها إثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله وما إما شرطية أوموصولة حذف عائدها من الصلة أى وما أنفقتموه من نفقة أى نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة ﴿أو نذرتم﴾ النذر عقد الضمير على شىء والتزامه وفعله كضرب ونصر ﴿من نذر﴾ أى نذر كان فى طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالأفعال كالصيام والصلاة ونحوهما ﴿فإن الله يعلمه﴾ الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثانى مزيدة فى الخبر وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو أكرمته ولا يقال أكرمتهما ولهذا صرنا[1] إلى التأويل فى قوله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) بل يعاد الضمير تارة إلى المقدم رعاية للأولية كما فى قوله عز وعلا (وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها) وأخرى إلى المؤخر رعاية للقرب كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا) وحمل النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائره أو على حذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه كما فى قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) وقوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز إرجاع الضمير إلى ما على تقدير كونها موصوله وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها

---

(١) فى ط : صبير

إفادة لتحقيق الجزاء أى فإنه تعالى يجازيكم عليه ألبتة إن خيراً فخير وإن شراً فشر فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد ﴿ وما للظالمين ﴾ بالإنفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بإنفاق الخبيث أو بالرياء والمن والأذى وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشىء فى غير موضعه الذى يحق أن يوضع فيه ﴿ من أنصار ﴾ أى أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لاشفاعة ولا مدافعة وإيراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أى وما لظالم من الظالمين من نصير من الأنصار والجملة استئناف مقرر لما فيما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين لتحصيل الأعوان ورعاية الخلان .

﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ نوع تفصيل لبعض ما أجمل فى الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما أى أن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً إبداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة وقرىء بفتح النون وكسر العين على الأصل وقرىء بكسر النون وسكون العين وقرىء بكسر النون وإخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالإخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى ﴿ وإن تخفوها ﴾ أى تعطوها خفية ﴿ وتؤتوها الفقراء ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء مع أنه واجب فى الإبداء أيضاً لما أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فإن الغنى ربما يدعى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس ﴿ فهو خير لكم ﴾ أى فالإخفاء خير لكم من الإبداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمال وأما فى الواجب فالأمر بالعكس لدفع التهمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أى والله يكفر أو الإخفاء ومن تبعيضية أى شيئاً من سيئاتكم كما سترتموها وقيل مزيدة على رأى الأخفش وقرىء بالتاء مرفوعا ومجزوما على أن الفعل للصدقات وقرىء بالنون مرفوعا عطفا على محل ما بعد الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى

ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل وقرىء مجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الإسرار والإعلان ﴿ خبير ﴾ فهو ترغيب فى الإسرار .

﴿ ليس عليك هداهم ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعل[1] ما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وإنما الواجب عليك الإرشاد إلى الخير والحث عليه والنهى عن الشر والردع عنه بما أوحى إليك من الآيات والذكر الحكيم ﴿ ولكن الله يهدى ﴾ هداية هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما ﴿ من يشاء ﴾ هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبى صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعده من الشرطية وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الإسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم فى الإسلام فلا التفات حينئذ فى الكلام وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى :

﴿ وما تنفقوا من خير ﴾ على الأول التفات من الغيبة إلى خطاب المكلفين لزيادة هزهم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه إليهم وصرفه عن النبى صلى الله عليه وسلم وماشرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة له أى أى شىء تنفقوا كائن من مال ﴿ فلأنفسكم ﴾ أى فهو لأنفسكم لا ينتفع

---

(١) فى ط : إلى الإتيان بما أمروا به

به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولاتنفقوا من الخبيث أونفعه الدينى لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدين من فقراء المشركين ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ استثناء من أعم العلل أو أعم الأحوال أى ليست نفقتكم لشيء من الأشياء إلا لا بتغاء وجه الله أو ليست فى حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لايوجه مثله إلى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ أى أجره وثوابه أضعافا مضاعفة حسبما فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه على أحسن الوجوه وأجملها فهو تأكيد وبيان للشرطية السابقة أو يوف إليكم ما يخلفه وهو من نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفا وللممسك تلفا[1] وقيل حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين وروى أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب وأما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكافر وإن كان ذميا ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ لا تنقصون شيئاً مما وعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلف .

﴿ للفقراء ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام كما فى قوله عز وجل (فى تسع آيات إلى فرعون) أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء أو صدقاتكم للفقراء ﴿ الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ بالغزو والجهاد ﴿ لا يستطيعون ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضرباً فى الأرض﴾ أى ذهابا فيها للكسب والتجارة وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾ بحالهم ﴿أغنياء من التعفف﴾ أى من أجل تعففهم عن المسئلة ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾.

(١) المشهور : اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكا تلفا .

أى تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب مبالغة فى بيان وضوح فقرهم ﴿ لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه من قولهم لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده والمعنى لا يسألونهم شيئاً وإن سألوا لحاجة اضطرتهم إليه لم يلحوا وقيل هو نفى لكلا الأمرين جميعا على طريقة قوله :

* على لاحب لا يهتدى لمناره *

أى لا منار ولا اهتداء ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو ترغيب فى التصدق لاسيما على هؤلاء .

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرآ وعلانية ﴾ أى يعمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعين ألف دينار عشر آلاف منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرآ وعشرة علانية وقيل فى على رضى الله عنه حين لم يكن عنده إلا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة ولعل تقديم الليل والنهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار وقيل فى رباط الخيل والإنفاق عليها ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين الخ ولذلك جوز الوقف على علانية ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ الذين يأكلون الربوا ﴾ أى يأخذونه والتعبير عنه بالأكل لما أنه معظم ما قصد به ولشيوعه فى المعلومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الأجل حسبما فصل فى كتب الفقه وإنما كتب بالواو كالصلوة على لغة من يفخم فى أمثالها وزيدت الألف تشبيها بواو الجمع ﴿ لا يقومون ﴾ أى من قبورهم إذا بعثوا ﴿ إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ﴾ أى إلا قياما كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط

الإنسان فيصرع والخبط والضرب بغير استواء كخبط العشواء ﴿ من المس ﴾ أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجنى يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لا يقومون من المس الذى بهم بسبب أكلهم الربا أو بيقوم أو بيتخبطه فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى فى بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بفظاعة المشار إليه ﴿ بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربوا ﴾ أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فإن أحد الدرهمين فى الأول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها .

﴿ وأحل الله البيع وحرم الربوا ﴾ إنكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وإبطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ما أشير إليه من عدم الاشتراك فى المناط والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾ أى فمن بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا وقرىء جاءته ﴿ من ربه ﴾ متعلق بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجىء الموعظة للتربية ﴿ فانتهى ﴾ عطف على جاءه أى فاتعظ بلا تراخ وتبع النهى ﴿ فله ما سلف ﴾ أى ما تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف إن جعلت من موصولة بالابتداء إن جعلت شرطية على رأى سيبويه لعدم اعتماد الظرف على ما قبله ﴿ وأمره إلى الله ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية وقيل يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه ﴿ ومن عاد ﴾ أى إلى تحليل الربا ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد فى عاد

اعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ماكثون فيها أبدا والجملة مقررة لما قبلها .

﴿ يمحق الله الربوا ﴾ أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ﴿ ويربى الصدقات ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة . روى عنه صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم مهره[1] وعنه عليه الصلاة والسلام ما نقص مال من صدقة[2] قط ﴿ والله لا يحب ﴾ أى لا يرضى لأن الحب مختص بالتوابين ﴿ كل كفار ﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿ أثيم ﴾ منهمك فى ارتكابه ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿ وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام ﴿ لهم أجرهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر واقعة خبرا لأن أى لهم أجرهم الموعود لهم وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ من مكروه آت ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من محبوب فات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى قوا أنفسكم عقابه ﴿ وذروا ما بقى من الربوا ﴾ أى واتركوا بقايا ما شرطتم منه على الناس تركا كليا ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على الحقيقة فإن ذلك مستلزم لامتثال ما أمرتم به البتة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله أى إن كنتم مؤمنين فاتقوا وذروه الخ ، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ أى ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا إما مع إنكار

(١) المروى : كما يربى أحدكم فلوه . وهو المهر .

(٢) فى ط : ما نقصت زكاة من مال .

حرمته وإما مع الاعتراف بها ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أى فاعلموا بها من أذن بالشىء إذا علم به أما على الأول فكحرب المرتدين وأما على الثانى فكحرب البغاة ، وقرىء فآذنوا أى فأعلموا غيركم قيل هو من الأذان وهو الاستماع فإنه من طرق العلم وقرىء فأيقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أى بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنه لما نزلت قالت ثقيف لا يد لنا بحرب الله ورسوله ﴿ وإن تبتم ﴾ من الارتباء مع الإيمان بحرمتها بعدما سمعتموه من الوعيد ﴿ فلكم رؤس أموالكم ﴾ تأخذونها كملا ﴿ لا تظلمون ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو حال من الضمير فى لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار ﴿ ولا تظلمون ﴾ عطف على ما قبله أى لا تظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها إن كان مع إنكار الحرمة فهم مرتدون ومالهم المكسوب فى حال الردة فىء للمسلمين عند أبى حنيفة رضى الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعى وعندنا هو لورثتهم ولا شىء لهم على كل حال وإن كان مع الاعتراف بها فإن كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف برؤس أموالهم وإلا فكذلك عند ابن عباس رضى الله عنهما فإنه يقول من عامل الربا يستتاب وإلا ضرب عنقه وأما عند غيره فهم محبوسون إلى أن تظهر توبتهم لا يمكنون من التصرفات أصلا فما لم يتوبوا لم يسلم لهم شىء من أموالهم بل إنما يسلم بموتهم لورثتهم .

﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ أى إن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها ناقصة ﴿ فنظرة ﴾ أى فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهى الإنظار والإمهال وقرىء فناظره أى منتظره أو فصاحب نظرته على طريق النسب وقرىء فناظره أمراً من المفاعلة

أى فسامحه بالنظرة ﴿ إلى ميسرة ﴾ أى إلى يسار وقرىء بضم السين وهما لغتان كمشرقة ومشرقة وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كما فى قوله : وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا . ﴿ وأن تصدقوا ﴾ بحذف أحد التاءين وقرىء بتشديد الصاد أى وأن تتصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراء ﴿ خير لكم ﴾ أى أكثر ثوابا من الإنظار أو خير مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ودوامه فهو ندب إلى أن يتصدقوا برؤس أموالهم كلا أو بعضا على غرمائهم المعسرين كقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقيل المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه السلام لايحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ جوابه محذوف أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتموه ﴿ واتقوا يوما ﴾ هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل وتعليق الإتقاء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال ﴿ ترجعون فيه ﴾ على البناء للمفعول من الرجع وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والأول أدخل فى التهويل وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا تصيرون ﴿ إلى الله ﴾ لمحاسبة أعمالكم ﴿ ثم توفى كل نفس ﴾ من النفوس والتعميم للمبالغة فى تهويل اليوم أى تعطى كاملا[1] ﴿ ما كسبت ﴾ أى جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿ وهم لايظلمون ﴾ حال من كل نفس تفيد إن كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الإفراد أوفق بحال الكسب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحداً وعشرين يوما وقيل أحدا وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث ساعات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ شروع فى بيان حال المداينة

(١) فى ط . كلا .

الواقعة فى تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى إذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو آخذا وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة أو التنبيه على تنوعه إلى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتابة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالأمر ﴿ إلى أجل ﴾ متعلق بتداينتم أو بمحذوف وقع صفة لدين ﴿ مسمى ﴾ بالأيام أو الأشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها ﴿ فاكتبوه ﴾ أى الدين بأجله لأنه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح فى السلف ﴿ وليكتب بينكم كاتب ﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها إثر الأمر بها إجمالا وحذف المفعول إما لتعينه أو للقصد إلى إيقاع نفس الفعل أى ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للإيذان بأن الكاتب ينبغى أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفى بكلام أحدهما وقوله تعالى ﴿ بالعدل ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء كتابه موثوقا به معدلا بالشرع ويجوز أن يكون حالا منه أى ملتبسا بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق ﴿ ولا يأب كاتب ﴾ أى ولا يمتنع أحد من الكتاب ﴿ أن يكتب ﴾ كتاب الدين ﴿ كما علمه الله ﴾ على طريقة ما علمه من كتبه الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) ﴿ فليكتب ﴾ تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن إبائها تأكيداً لها ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة .

﴿ وليملل الذى عليه الحق ﴾ الإملال هو الإملاء أى وليكن الممل من عليه الحق لأنه المشهود عليه فلا بد أن يكون هو المقر ﴿ وليتق الله ربه ﴾

جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة فى التحذير أى وليتق المملى دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى ﴿ ولا يبخس منه ﴾ أى من الحق الذى يمليه على الكاتب ﴿ شيئاً ﴾ فإنه الذى يتوقع منه البخس خاصة ، وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقد فعل ذلك حيث أمر بالعدل وإنما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى إلى المنهى عنه فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما فى ذمته بما أمكن ﴿ فإن كان الذى عليه الحق ﴾ صرح بذلك فى موضع الإضمار لزيادة الكشف والبيان لا لأن الأمر والنهى لغيره ﴿ سفيها ﴾ ناقص العقل مبذرا مجاز ﴿ أو ضعيفاً ﴾ صبيا أو شيخا مختلا ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ أى غير مستطيع للإملاء بنفسه لخرس أو عى أو جهل أو غير ذلك من العوارض ﴿ فليملل وليه ﴾ أى الذى يلى أمره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم ﴿ بالعدل ﴾ أى من غير نقص ولا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس ﴿ واستشهدوا شهيدين ﴾ أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارف منزلة الكائن ﴿ من رجالكم ﴾ متعلق باستشهدوا ، ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية . أى شهيدين كائنين من رجال المسلمين الأحرار إذ الكلام فى معاملاتهم فإن خطابات الشرع لا تنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين فى موضعه ، وأما إذا كانت المداينة بين الكفرة أو كان من عليه الحق كافرا فيجوز استشهاد الكافر عندنا .

﴿ فإن لم يكونا ﴾ أى الشهيدان جميعاً على طريقة نفى الشمول لا شمول النفى ﴿ رجلين ﴾ إما لإعوازهما أو لسبب آخر من الأسباب ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ أى فليشهد رجل وامرأتان يكفون وهـــذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا ، وفى الأموال خاصة عند الشافعى ﴿ ممن ترضون ﴾ متعلق

بمحذوف وقع صفة لرجل وأمرأتان أى كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره فى كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين أى كائنين ممن ترضون ورد بأنه يلزم الفصل بينهما بالأجنبى وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل ورد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله وقوله عز وجل ﴿ من الشهداء ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول أى ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعد التهم وثقتكم بهم وإدراج النساء فى الشهداء بطريق التغليب ﴿ إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ تعليل لاعتبار العدد فى النساء والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له منزلته كما فى قولك أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه كأنه قيل لأجل أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت من الشهادة بأن نسيتها ولعل إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة فى الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى وقرىء فتذكر من الإذكار وقرىء فتذاكر وقرىء أن تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى (ومن عاد فينتقم الله منه) ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ لأداء الشهادة أو لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة . عن قتادة أنه كان الرجل يطوف فى الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلت .

﴿ ولا تسأموا ﴾ أى لاتملوا من كثرة مداينات‍كم ﴿ أن تكتبوه ﴾ أى الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذى هو صفة المنافق كما ورد فى قوله تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لايقول المؤمن كسلت ﴿ صغيراً أو كبيراً ﴾ حال من الضمير أى حال كونه صغيراً أو كبيراً أى قليلا أو كثيرا أو مجملا أو مفصلا ﴿ إلى

أجله ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء فى تكتبوه أى مستقرا فى الذمة إلى وقت حلوله ﴿ ذلكم ﴾ الذى أقر به المديون إشارة إلى ما أمر به من الكتب والخطاب للمؤمنين ﴿ أقسط ﴾ أى أعدل ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه تعالى ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ أى أثبت لها وأعون على إقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فإنه قياسى عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم وإنما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده ﴿ وأدنى ألا ترتابوا ﴾ وأقرب إلى انتفاء ريبكم فى جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أى لكن وقت كون تداينكم أو تجارة حاضرة بحضور البدلين تديرونها بينكم بتعاطيهما يدا بيد ﴿ فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ﴾ أى فلا بأس بألا تكتبوها لبعده عن التنازع والنسيان وقرىء برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خبرها أو على أنها تامة .

﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ هذا التبايع أو مطلقا لأنه أحوط والأوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى أحكامها ونسخها ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى عن المضارة محتمل للبناءين كما ينبىء عنه قراءة من قرأ ولا يضارر بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتغيير والتحريف فى الكتابة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرار بهما بأن يعجلهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حد لهما أو لا يعطى الكاتب جعله وقرىء بالرفع على أنه نفى فى معنى النهى ﴿ وإن تفعلوا ﴾ ما نهيتم عنه من الضرار ﴿ فإنه ﴾ أى فعلكم ذلك ﴿ فسوق بكم ﴾ أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة ﴿ ويعلمكم الله ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على

حياله فإن الأولى حث على التقوى والثانية وعد بالإنعام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أى مسافرين أو متوجهين إليه ﴿ ولم تجدوا كاتبا ﴾ فى المداينة وقرىء كتابا وكتبا وكتابا ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ أى فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لأنه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذه لأهله بل لإقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتابة[1] فى السفر الذى هو مظنة إعوازها وإنما لم يتعرض لحال الشاهد لما أنه فى حكم الكاتب توثقا وإعوازا والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك وقرىء فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرىء بسكون الهاء تخفيفا ﴿ فإن أمن بعضكم بعضاً ﴾ أى بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقرىء فإن أومن بعضكم أى آمنه الناس ووصفوه بالأمانة قيل فيكون انتصاب بعضا حينئذ على نزع الخافض أى على متاع بعض ﴿ فليؤد الذى اؤتمن ﴾ وهو المديون وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للإعلام وحمله على الأداء ﴿ أمانته ﴾ أى دينه وإنما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرىء إيتمن بقلب الهمزة ياء وقرىء بإدغام الياء فى التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لاتدغم لأنها فى حكمها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى رعاية حقوق الأمانة وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالايخفى .

﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أيها الشهود أو المديونون أى شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ آثم خبر إن وقلبه مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل يأثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مما اقترفه ونظيره نسبة الزنا إلى

---

(١) فى ط : بالكتبة .

العين والأذن أو للمبالغة لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال كأنه قيل تمكن الإثم فى نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه . عن ابن عباس رضى الله عنهما إن أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى (فقد حرم الله عليه الجنة) وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرىء قلبه بالنصب كما فى سفه نفسه وقرىء أثم قلبه أى جعله آثما ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيجازيكم به إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ من الأمور الداخلة فى حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أى كلها له تعالى خلقا وملكا وتصرفا لاشركة لغيره فى شىء منها بوجه من الوجوه ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم ﴾ من السوء والعزم عليه بأن تظهروه للناس بالقول أو بالفعل أو بهما[1] ﴿ أو تخفوه ﴾ بأن تكتموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين ولا يندرج فيه مالا يخلو عنه البشر من الوساوس وأحاديث النفس التى لاعقد ولاعزيمة فيها إذ التكليف بحسب الوسع ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكرى الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس ما فى قوله عز وجل (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) فلما أن المعلق بما فى أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية ، وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية كيف لاوعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شىء فى نفسه فى أى طور كان علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا لايختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء إذما من شىء يبدى إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقد مر فى تفسير قوله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) .

---

(١) سقط من ط .

﴿ فيغفر ﴾ بالرفع على الاستئناف أى فهو يغفر بفضله ﴿ لمن يشاء ﴾ أى يغفر له ﴿ ويعذب ﴾ بعدله ﴿ من يشاء ﴾ أى يعذبه حسبما تقتضية مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرىء بجزم الفعلين عطفا على جواب الشرط وقرىء بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتمال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط فى قوله :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وإدغام الراء فى اللام لحن ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجب لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب ﴿ آمن الرسول ﴾ لما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التى من جملتها الإيمان به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهية وأنهم حائزون لأثرتى الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها إذ ليس فيما يذكر فى حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح فى تضاعيفها من فنون الشرائع والأحكام والمواعظ والحكم وأخبار الأمم السالفة[1] وغير ذلك ما تقتضى الحكمة شرحه عين فى خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الإيمان وحسن الطاعة وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور ألا يخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التى من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية إيذانا بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به لاسيما بعد ما نص عليه فيما سلف وإيراده عليه السلام

---

(١) فى ط : سوالف الأمم .

بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ بما أنزل إليه ﴾ ومزيد توضيح لاندراجه فى الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل إليه ﴿ من ربه ﴾ إيمانا تفصيليا متعلقا بجميع ما فيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى ، وأما الإيمان بحقية أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فمن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة وفى هذا الإجمال إجلال لمحله عليه الصلاة والسلام وإشعار بأن تعلق إيمانه بتفاصيل ما أنزل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لاحاجة إلى ذكره أصلا وكذا فى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام .

﴿ والمؤمنون ﴾ أى الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لإفضائها إلى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ كل ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ آمن ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والرابط بينهما الضمير الذى ناب مناب التنوين وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد بيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الإشعار بما بين إيمانه على السلام المبنى على المشاهدة والعيان وبين إيمانهم الناشىء عن الحجة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كأنهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما وما فيه من تكرير الإسناد لما فى الحكم بإيمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محوج إلى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن ﴿ بالله ﴾ وحده من غير شريك له فى الألوهية والمعبودية ﴿ وملائكته ﴾ أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحى فإن مدار الإيمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى

أنفسهم بل هو من إضافتهم إليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب فى النظم .

﴿ وكتبه ورسله ﴾ أى من حيث مجيئهما من عنده تعالى لإرشاد الخلق إلى ماشرع لهم من الدين بالأوامر والنواهى لكن لا على الإطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى إلى رسول معين أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل فى قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) الآية ولا على أن مناط الإيمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الإيمان بالكل مندرج فى الإيمان بالكتاب المنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند إليه لما تلى من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالفة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة إلى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ إلى يوم القيامة وإنما لم يذكر ههنا الإيمان باليوم الآخر كما ذكر فى قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) لاندراجه فى الإيمان بكتبه وقرىء وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب) .

والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع فى أفراد الجنس والجمع فى جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (بما أنزل إليه من ربه) اقتصر عليه إيذانا بكفايته فى الإيمان الإجمالى المتحقق فى كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفى لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت إيمانهم بالأمور المذكورة فى مراتب التفصيل تفاوتا فاحشا فإن الإجمال فى الحكاية لا يوجب الإجمال فى المحكى كيف لا وقد أجمل فى حكاية

إيمانه عليه السلام بما أنزل إليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل مافيه من الجلائل والدقائق ثم إن الأمور المذكورة حيث كانت من الأمور الغيبية التى لا يوقف عليها إلا من جهة العليم الخبير كان الإيمان بها مصداقا لما ذكر فى صدر السورة الكريمة من الإيمان بكتبه تعالى فإشارة إلى ما فى قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذى عوض عنه التنوين راجع إلى المعطوفين معا كأنه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه من ربه ثم فصل وقيل كل واحد من الرسل[1] والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وإيذانا بأصالته عليه السلام فى الإيمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما فى الوجه الأول من كمال وإجلال شأنه عليه السلام وتفخيم إيمانه مخل بجزالة النظم الكريم لأنه إن حمل كل من الإيمانين على ما يليق بشأنه عليه الصلاة السلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال إسنادهما إلى غيره عليه الصلاة السلام وضاع التكرير وإن حملا على ما يليق بشأن آحاد الأمة كان ذلك حطا لرتبته العلية عليه السلام وأما حملهما على ما يليق بكل واحد ممن نسبا إليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على الإيمان العيانى المتعلق بجميع التفصيل وبالنسبة إلى آحاد الأمة على الإيمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بحالهم فى الإجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغى تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ، وقوله تعالى :

﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ فى حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على

---

(١) فى ط: الرسول .

أنه خبر آخر لكل أى يقولون لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به إيمانهم تحقيقا للحق وتخطئة لأهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضاً على أن مقصودهم الأصلى إبراز إيمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لا لإظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به وهذا كما ترى صريح فى أن القائلين آحاد المؤمنين خاصة إذ لا يمكن أن يسند إليه السلام أن يقول لا أفرق بين أحد من رسله وهو يريد به إظهار إيمانه برسالة نفسه وتصديقه فى دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وإنما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين لما أن الأصل فى تفريق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم بهم وقرىء بالياء على إسناد الفعل إلى كل وقرىء لا يفرقون حملا على المعنى كما فى قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور وقيل خبر ثان لكل كما قيل فى القول المقدر فلا بد من اعتبار الكلية بعد النفى دون العكس إذ المراد شمول النفى لا نفى الشمول والكلام فى همزة أحد وفى دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى (لا نفرق بين أحد منهم) وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ما ليس فى أن يقال لا نفرق بين رسله وإيثار إظهار الرسل على الإضمار الواقع مثله فى قوله تعالى (وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) إما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم أو للإشعار بعلة عدم التفريق أو للإيماء إلى عنوانه لأن المعتبر عدم التفريق من حيث الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة ﴿ وقالوا ﴾ عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامتثالهم بالأوامر إثر حكاية إيمانهم ﴿سمعنا﴾ أى فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنا بصحته ﴿ وأطعنا ﴾ ما فيه من الأوامر والنواهى وقيل سمعنا أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك ﴿ غفرانك ربنا ﴾ أى اغفر لنا غفرانك أو نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو ما لا يخلو عنه البشر

من التقصير فى مراعاة حقوقك وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة فى التضرع والجؤار .

﴿ وإليك المصير ﴾ أى الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ جملة مستقلة جىء بها إثر حكاية تلقيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة إظهاراً لما له تعالى عليهم فى ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجىء ، هذا وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل إليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه إلى قوله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير) فسئولهم الغفران المعلق بمشيئته عز وعلا فى قوله (فيغفر لمن يشاء) ثم أنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) تهوينا للخطب عليهم ببيان أن المراد بما فى أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة لا ما يعم الخواطر التى لا يستطاع الاحتراز عنها والتكليف وإلزام ما فيه كلفة ومشقة والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه أى سنته تعالى أنه لا يكلف نفسا من النفوس إلا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلا منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقرىء وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وقوله تعالى :

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة وأنها تعود إليها لا إلى غيرها ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها فإن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله لا لغيرها استقلالا أو اشتراكا ضرورة شمول كلمة ما لكل جزء من أجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه وإيراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشىء من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه ﴿ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ شروع فى حكاية بقية دعواتهم إثر بيان سر التكليف أى لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف أو بأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقا إذ لا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا فإن المعاصى كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً أو خطأ مؤد إلى الهلاك فتعاطى المعاصى أيضاً لا يبعد أن يفضى إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فإن ذلك من آثار فضله ورحمته كما ينبىء عنه الرفع فى قوله عليه السلام « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » وقد روى أن اليهود كانوا إذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة فى ذلك كما فى قوله تعالى (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً ﴾ عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة والإصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة وقيل الإصر الذنب الذى لاتوبة له فالمعنى اعصمنا من اقترافه وقرىء آصارا وقرىء ولا تحمل بالتشديد للمبالغة ﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ فى حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف

أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا أو على أنه صفة لإصراً أى إصراً مثل الإصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو إسرائيل من بخع النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فإنهم كانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال عليه السلام «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة» وعن العقوبات التى عوقب بها الأولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام «رفع عن أمتى الخسف والمسخ والغرق».

﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ عطف على ما قبله واستعفاء عن العقوبات التى لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدى إليه التفريط فيه من التكاليف الشاقة التى لا يكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لا تكلفنا تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار ما يؤدى إليها وقيل هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لايستطاع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لاتفى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جوازه عقلا وإلا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثان ﴿ واعف عنا ﴾ أى آثار ذنوبنا ﴿ واغفر لنا ﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رؤس الأشهاد ﴿ وارحمنا ﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية ﴿ أنت مولانا ﴾ سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة

---

(١) فى ط: إليها.

الكفرة وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله تعالى حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت ، وعنه عليه السلام « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى عام من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل » وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام « السورة التى يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة » .

* * *

سورة آل عمران ، مدنية ، مائتا آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم الله لا إله إلا هو ﴾ قد سلف أن ما لا تكون من هذه الفواتح مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وهابيل وكطاسين ميم الموازنة لدارابجرد حسبما ذكره سيبويه فى الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضى الله عنه رواية عن عاصم وأما ما فيها من الفتح على القراءة المشهورة فإنما هى حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها إذ ليس إسقاطها للدرج بل للتخفيف فهى ببقاء حركتها فى حكم الثابت المبتدأ به والميم بكون الحركة لغيرها فى حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض

بأنه غير معهود فى الكلام وقيل هى حركة لالتقاء السواكن التى هى الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بأن سقوطها مبنى على وقوعها فى الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقف موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما فى الحروف والأسماء المبنية على السكون فإن حقها الاتصال بما بعدها وضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم إن جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الإعراب كسائر الفواتح وإن جعلت اسما للسورة فمحلها إما الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وإما النصب على إضمار فعل يليق بالمقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مساغ لشىء منها لما أن ما بعدها غير صالح للخبرية ولا للإقسام عليه فإن الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أى هو المستحق للمعبودية لاغير وقوله عز وجل .

﴿ الحى القيوم ﴾ خبر آخر له أو لمبتدأ محذوف أى هو الحى القيوم لاغيره وقيل هو صفة للمبتدأ أو بدل منه أو من الخبر الأول أو هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرر لما يفيده الاسم الجليل أو حال منه وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى لما مر من أن معنى الحى الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم فى ثلاث سور فى سورة البقرة (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفى آل عمران (الم الله لا إله هو الحى القيوم) وفى طه (وعنت الوجوه للحى القيوم) وروى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا أراد إحياء الموتى يدعو يا حى يا قيوم ويقال إن آصف بن برخيا حين أراد أن يأتى بعرش بلقيس دعا بذلك وقرىء الحى القيام وهذا رد على من زعم أن

عيسى عليه السلام كان ربا فإنه روى أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ثلاثة منهم أكابر إليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الأيهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه ومولوه وأكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده فى دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبى حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز تعسا للأبعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم يا أخى قال إنه والله النبي الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا ؟ قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا به لأخذوا منا كلها ، فوقع ذلك فى قلب كرز وأضمره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا فى المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا إلى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله تعالى ولدا قالوا إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه فقال عليه السلام ألستم

---

(١) فى ط : الأسقام

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه فقالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شىء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا لا فقال عليه السلام ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء قالوا بلى قال عليه السلام فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا وأبوا إلا جحودا فأنزل الله عز وجل من أول السورة إلى نيف وثمانين آية تقريرا لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقا للحق الذى فيه يمترون .

﴿ نزل عليك الكتاب ﴾ أى القرآن عبر عنه باسم الجنس إيذانا بكمال تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التفخيم وتقديم الظرف على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والجملة إما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هى الخبر وقوله تعالى لا إله إلا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحى القيوم صفة أو بدل كما مر وقرىء نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبرا بحذف العائد أى نزل الكتاب من عنده ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى نزله محقا فى تنزيله على ما هو عليه أو ملتبسا بالعدل فى أحكامه أو بالصدق فى أخباره التى من جملتها خبر التوحيد وما يليه وفى وعده

ووعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة ﴿ مصدقا ﴾ حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل وأما على تقدير حاليته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بدلية حال منه بعد حال وأما عند من يمنعه فقد قيل إنه حال من محل الحال الأولى على البدلية وقيل من المستكن فى الجار والمجرور لأنه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهى حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث أهل الكتابين على الإيمان بالمنزل وتنبيههم على وجوبه فإن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه حتما ﴿ لما بين يديه ﴾ مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما يريد أى مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه إيماء إلى حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه إياها فى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيه الله عز وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والإحسان وكذا فى أنباء الأنبياء والأمم الخالية وكذا فى نزوله على النعت المذكور فيها وكذا فى الشرائع التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار ظاهر لا ريب فيه وأما فى الشرائع المختلفة باختلافهما فمن حيث أن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلى خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيداً لما قبله وتمهيدا لما بعده إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ويزداد فى القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام أى أنزلها جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وإنما لم يذكرا لأن الكلام فى الكتابين لا فيمن أنزلا عليه وهما اسمان أعجميان الأول عبرى والثانى سريانى ويعضده القراءة بفتح همزة الإنجيل فإن إفعيل ليس من أبنية العرب والتصدى لاشتقاقهما من الورى والنجل تعسف ﴿ من قبل ﴾ متعلق بأنزل أى أنزلها من قبل تنزيل

الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة فى البيان ﴿ هدى للناس ﴾ فى حيز النصب على أنه علة للإنزال أى أنزلها لهداية الناس أو على أنه حال منهما أى أنزلها حال كونهما هدى لهم والإفراد لما أنه مصدر جعلا نفس الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذوى هدى ثم إن أريد هدايتهما بجميع ما فيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الأمم الماضية من حين نزولهما إلى زمان نسخهما وإن أريد هدايتهما على الإطلاق وهو الأنسب بالمقام فالناس على عمومه لما أن هدايتهما بما عدا الشرائع المنسوخة من الأمور التى يصدقهما القرآن فيها ومن جملتها البشارة بنزوله وبمبعث النبى صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة .

﴿ وأنزل الفرقان ﴾ الفرقان فى الأصل مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا إما جنس الكتب الإلهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم إثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما فى قوله عز وجل (فأنبتنا فيها حبا وعنبا إلى قوله تعالى وفاكهة) وإما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الإنزال تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وأما الزبور فإنه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية إلى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الإنجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة فى الاشتمال على الأحكام والشرائع وشيوع اقترانهما فى الذكر وأما القرآن نفسه فذكر[1] بنعت مادح له بعد ماذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعا لمكانه وقد بين أولا تنزيله التدريجى إلى الأرض وثانيا إنزاله الدفعى إلى السماء الدنيا أو أريد بالإنزال القدر المشترك العارى عن قيد التدريج وعدمه وأما المعجزات المقرونة بإنزال

---

(١) فى ط : ذكر

الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله ﴾ وضع موضع الضمير العائد إلى ما فصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات. الآيات مضافة إلى الإسم الجليل تعيينا لحيثية كفرهم وتهويلا لأمرهم وتأكيدا لإستحقاقهم العذاب الشديد وإيذانا بأن ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر بالكل بل يكفي فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول إما أهل الكتابين. وهو الأنسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا أى إن الذين كفروا بما ذكر من آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده. تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل كلا أو بعضا مع ما بها من النعوت. الموجبة للإيمان بها بأن كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الإلهية تبعا لما أن تكذيب ما يصدقه حتما وأصالة أيضاً بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم وغيروها. ﴿ لهم ﴾ بسبب كفرهم بها ﴿ عذاب ﴾ مرتفع إما على الفاعلية من الجار والمجرور أو على الابتداء والجملة خبر إن والتنوين للتفخيم أى أى عذاب ﴿ شديد ﴾ لا يقادر قدره وهو وعيد جيء به إثر تقرير أمر التوحيد الذاتي. والوصفي والإشارة إلى ما ينطق بذلك من الكتب الإلهية حملا على القبول. والإذعان وزجرا عن الكفر والعصيان .

﴿ والله عزيز ﴾ لا يغالب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ ذو انتقام ﴾. عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنايته والجملة اعتراض تذييلي مقرر للوعيد ومؤكد له. ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ استئناف كلام سيق. لبيان سعة علمه تعالى وإحاطته بجميع ما فى العالم من الأشياء التى من جملتها. ما صدر عنهم من الكفر والفسوق سراً وجهراً إثر بيان كمال قدرته وعزته. تربية لما قبله من الوعيد وتنبيها على أن الوقوف على بعض المغيبات كما كان. فى عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الإلهية وإنما عبر عن علمه عز وجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما فى قوله سبحانه وما يخفى على الله من.

شيء فى الأرض ولا فى السماء إيذانا بأن علمه تعالى بمعلوماته وإن كانت فى أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما فى علوم المخلوقين بل هو فى غاية الوضوح والجلاء والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه فى سياق النفى أى لا يخفى عليه شيء ما كائن فى الأرض ولا فى السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفى بينهما للدلالة على الترقى من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا وقوله عز وجل .

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق فى أطوار الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكمة[1] البالغة مقررة لكمال علمه مع زيادة بيان لتعلقه بالأشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة فى متعلقة بيصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أى يصوركم وأنتم فى الأرحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية إما من فاعل يصوركم أى يصوركم كائنا على مشيئته تعالى أى مريدا أو من مفعوله أى يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير مخلقة ثم مخلقة. وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى عليه السلام وهو من جملة

---

(١) فى ط : الحكم

أبناء النواسيت المتقلبين فى هذه الأطوار على مشيئة البارى عز وجل وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفى وقرىء تصوركم على صيغة الماضى من التفعل أى أى صوركم لنفسه وعبادته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا يتصف بشيء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته ﴿ العزيز الحكيم ﴾ المتناهى فى القدرة والحكمة لذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ شروع فى إبطال شبههم الناشئة عما نطق به القرآن فى نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف إثر بيان اختصاص الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهورا تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تزعم يامحمد أن عيسى كلمة الله وروحه[1] قال عليه السلام بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى عليهم زيغهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ماهم عليه من الضلال والمراد بالإنزال القدر المشترك المجرد عن الدلالة على قيد التدريج وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير إليه فيما قبل من الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الإنزال عليه ومن التشويق إلى ما أنزل فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما بعد الإشعار برفعة شأنه أو بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به تقسيمه إلى قسميه ﴿ منه آيات ﴾ الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس بتأويل مر تحقيقه فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الآية والأول أوفق بقواعد الصناعة والثانى أدخل فى جزالة المعنى إذ المقصود الأصلى انقسام الكتاب إلى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر والجملة مستأنفة فى حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كائنا على هذه الحال منقسما إلى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع

---

(١) فى ط : وروح منه .

به على الفاعلية ﴿ محكمات ﴾ صفة آيات أى قطعية الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أى أصل فيه وعمدة يرد إليها غيرها فالمراد بالكتاب كله والإضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام فإن ذلك يؤدى إلى كون الكتاب عبارة عما عدا المحكمات والجملة إما صفة لما قبلها أو مستأنفة وإنما أفرد الأم مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع كما فى قول الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

أى وأما جلودها ﴿ وأخر ﴾ نعت المحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الأخر أو عن آخر من ﴿ متشابهات ﴾ صفة لأخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أى محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها عن[1] بعض فى استحقاق الإرادة بها ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سمى كل مالا يهتدى إليه العقل متشابها وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الأصل ما دخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وإن لم يكن غموضه من تلك الجهة وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وبإتعاب القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية وأما قوله عز وجل

---

(١) فى ط : من بعض

(الر كتاب أحكمت آياته) فمعناه أنها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثانى معناه متشابه الأجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقية المدلول .

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ أى ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة . قال الراغب الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقراً للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى بل ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أى وطلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ﴾ فإنه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الأخيرة أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقية إيذان بأنهم ليسوا من التأويل فى شىء وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على إلا الله فسر المتشابه بما استأثر الله عز وعلا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم إرادة ظاهره ولم يدل على ما هو المراد به .

﴿ يقولون آمنا به ﴾ أى بالمتشابه وعدم التعرض لإيمانهم بالمحكم لظهوره أو بالكتاب والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين أو حال منه وعلى الثانى خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى ﴿ كل من عند ربنا ﴾

من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكد له أى كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما أو آمنا به وبحقيته على مراده تعالى ﴿ وما يذكر ﴾ حق التذكر ﴿ إلا أولو الألباب ﴾ أى العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى مابه استعدوا للاهتداء إلى تأويله من تجرد العقل عن غواشى الحس وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها جواب عما تشبث به النصارى من نحو قوله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) على وجه الإجمال وسيجىء الجواب المفصل بقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ من تمام مقالة الراسخين أى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه قال صلى الله عليه وسلم «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه» وقيل معناه لا تبلنا ببلايا تزيغ على الظرف وإذ فى محل الجر بإضافته إليه خارج من الظرفية أى بعد وقت هدايتك إيانا وقيل إنه بمعنى أن ﴿ وهب لنا من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثانى بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازية ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند إذ قد تكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصها بظرف المكان وتضاف إلى صريح الزمان كما فى قوله :

تنتفض الرعدة فى ظهيرى   من لدن الظهر إلى العصير

ولا تقطع عن الإضافة بحال وأكثر ما تضاف إلى المفردات وقد تضاف إلى أن وصلتها كما فى قوله :

ولم تقطع أصلا من لدن أن وليتنا   قرابة ذى رحم ولا حق مسلم

أى من لدن ولايتك إيانا وقد تضاف إلى الجملة الاسمية كما فى قوله :

* تذكر نعماه لدن أنت[1] يافع *

وإلى الجملة الفعليه أيضاً كما فى قوله :

لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم   فلا يك منكم للخلاف جنوح

وقلما تخلو عن من كما فى البيتين الأخيرين ﴿ رحمة ﴾ واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك أو توفيقا للثبات على الحق وتأخير المفعول الصريح عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده لا سيما عند الإشعار بكونه من المنافع باللام فإذا أورده يتمكن عندها فضل تمكن ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسئول وأنت إما مبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم إن وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء . .

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم ﴾ أى لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف المضاف وأقيم مقامه المضاف إليه تهويلاله وتفظيعا لما يقع فيه ﴿لاريب فيه﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة ﴿ إن الله لايخلف الميعاد ﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما فى آخر السورة الكريمة فإنه مقام طلب الإنعام كما سيأتى وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين والميعاد مصدر كالميقات واستدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط

---

(١) فى ط : أنث : خطأ .

بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقا ﴿ إن الذين كفروا ﴾ إثر ما بين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية إيمان العلماء الراسخين به شرع فى بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو مشركو العرب ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تنفعهم وقرىء بالتذكير وبسكون الياء جدا فى استثقال الحركة على حروف اللين ﴿ أموالهم ﴾ التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار ﴿ ولا أولادهم ﴾ الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة وعليهم يعولون فى الخطوب الملمة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفى بينهما إما لعراقة الأولاد فى كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب ﴿ من الله ﴾ من عذابه تعالى ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً من الإغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما فى قوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) أى بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجد منك الجد أى لا ينفعه جده بدلك أى بدل رحمتك كما فى قوله تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) وأنت خبير بأن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته مما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفيه والأول هو الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ ومن قوله تعالى (فأخذهم الله) أى أولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فإن أريد بيان حالهم عند التسعير فإيثار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وإلا فهو للإيذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم فى الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار ما لا يخفى وهم يحتمل الإبتداء وأن يكون ضمير فصل والجملة إما مستأنفة مقررة لعدم الإغناء أو معطوفة على خبر إن وأيا ما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم منه شيأ وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها

﴿ كدأب آل فرعون ﴾ الدأب مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه وتعب غلب استعماله فى معنى الشأن والحال والعادة ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقد جوز النصب بلن تغنى أو بالوقود أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن اولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم وأنت خبير بأن المذكور فى تفسير الدأب إنما هو التكذيب والأخذ من غير تعرض لعدم الإغناء لاسيما على تقدير كون من بمعنى البدل كما هو رأى المجوز ولا لإيقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على أنه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبى على تقدير النصب بأن تغنى وهو قوله تعالى (وأولئك هم وقود النار) إلا أن يجعل استئنافا معطوفا على خبر إن فالوجه هو الرفع على الخبرية أى دأب هؤلاء فى الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة فالموصول فى محل الجر عطفا على ما قبله وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريق الاستئناف المبنى على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى :

﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أى فأخذهم الله وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصا فدأب هؤلاء الكفرة أيضاً كدأبهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد أى دأب هؤلاء كدأب أولئك وقد كذبوا الخ ، وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فما يذهب برونق النظم الكريم والالتفات إلى التكلم أولا للجرى على سنن الكبرياء وإلى الغيبة ثانيا بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ بذنوبهم ﴾ إن أريدبها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببية جىء بها تأكيدا لما تفيده الفاء من سببية ماقبلها لما بعدها وإن أريدبها سائر ذنوبهم فالباءللملابسة جىء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخرى أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما فى قوله تعالى (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) والذنب فى الأصل التلو والتابع وسمى الجريمة ذنبا لأنها تتلو أى يتبع عقابها فاعلها ﴿ والله شديد

العقاب ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له ﴿ قل للذين كفروا ﴾ المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم لاتعجلوا حتى تنظر إلى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا لايغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت أى قل لهم :

﴿ ستغلبون ﴾ البتة عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ؛ وأما ماروى عن مقاتل من أنها نزلت قبل بدر وأن الموصول عبارة عن مشركى مكة ولذلك قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وبئس المهاد فيؤدى إلى انقطاع الآية الكريمة عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر ﴿ وتحشرون ﴾ أى فى الآخرة ﴿ إلى جهنم ﴾ وقرىء الفعلان بالياء على أنه عليه السلام أمر بأن يحكى لهم ما أخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبارته كأنه قيل أد إليهم هذا القول ﴿ وبئس المهاد ﴾ إما من تمام مايقال لهم أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال أهلها والمخصوص بالذم محذوف أى وبئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم ﴿ قد كان لكم ﴾ جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور به جىء به لتقرير مضمون ما قبله وتحقيقه والخطاب لليهود أيضا والظروف خبر كان على أنها ناقصة ولتوسطه بينها وبين اسمها ترك التأنيث كما فى قوله :

إن امرأ غره منكن واحدة بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

على أن التأنيث ههنا غير حقيقى أو هو متعلق بكان على أنها تامة وإنما قدم على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أى والله قد كان لكم أيها المغترون بعددهم وعددهم ﴿ آية ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم إنكم ستغلبون ﴿ فى فئتين ﴾ أى فرقتين أو جماعتين فإن المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها مالقيها فسيصيبكم ما يصيبكم ومحل الظرف الرفع على أنه صفة لآية وقيل النصب على خبرية كان والظرف الأول متعلق بمحذوف من آية ﴿ التقتا ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة فئتين أى تلاقتا بالقتال يوم بدر ﴿ فئة ﴾ بالرفع خبر مبتدأ محذوف أى أحداهما فئة كما فى قوله :

إذا مت كان الناس حزبين شامت وآخر مثن بالذى كنت أصنع

أى أحدهما شامت والآخر مثن وقوله :

حتى إذا ما استقل النجم فى غلس وغودر البقل ملوى ومحصود

والجملة مع ما عطف عليها مستأنفة لتقرير ما فى الفئتين من الآية وقوله تعالى : ﴿ تقاتل فى سبيل الله ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة فئة كأنه قيل فئة مؤمنه ولكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان ما يليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم وإيذانا بأنه المدار فى تحقق الآية وهى رؤية القليل كثيرا وقرىء يقاتل على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق ﴿ كافرة ﴾ خبر المبتدأ المحذوف وإنما لم توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيذانا بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة وقيل كل من المتعاطفين بدل من الضمير فى التقتا ومابعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف عائد إلى المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره أى فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة[1] ويجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدهما

(١) كررت هذه العبارة فى ط بعد قوله وما بعدهما خبرا .

خبرا ، وقيل كل منهما مبتدأ محذوف الخبر أى منهما فئة تقاتل الخ وقرىء فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر أنه لا بد من ضمير عائد إلى المبدل منه ويسمى بدلا تفصيليا كما فى قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وقرىء فئة الخ بالنصب على المدح أو على الحالية من ضمير التقتا كأنه قيل التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخرى توطئة لما هو الحال حقيقة إذ المقصود بالذكر وصفا هما كما فى قولك جاءنى زيد رجلا صالحا .

﴿ يرونهم ﴾ أى يرى الفئة الأخيرة الفئة الأولى وإيثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة فى محل الرفع على أنها صفة للفئة الأخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية ﴿ مثليهم ﴾ أى مثلى عدد الرائين ألفين إذا كانوا قريبا من ألف . كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل والإبل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الأسلحة عدد لا يحصى ، عن محمد بن أبى الفرات عن سعد بن أوس أنه قال أسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا أو مثلى عدد المرئيين أى ستمائة ونيفا وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين على بن أبى طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة الخزرجى وكان فى العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبى مرثد وست أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم مددا لهم منه سبحانه كما أمدهم بالملائكة

عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قللهم فى أعينهم عند ترائيهما ليجترئوا عليهم ولا يهربوا من أول الأمر حين ينجبهم الحرب وقيل يرى الفئة الأولى الفئة الأخيرة مثلى أنفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود فى قوله تعالى (فإن يكون منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) والأول هو الأولى لأن رؤية المثلين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية المثل بل أقل منه أيضا فإنه روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قللهم الله تعالى أيضا فى أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم .

قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم فى نفس الأمر كما فى سورة الأنفال لكانت رؤيتهم إياهم أقل من أنفسهم أحق بالذكر فى كونهم آية من رؤيتهم مثليهم على أن إبانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة بإراءتهم القليل كثيرا والضعيف قويا وإلقاء الرعب فى قلوبهم بسبب ذلك أدخل فى كونها آية لهم وحجة عليهم وأقرب إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل الجملة صفة أو مستأنفة أولى من العكس هذا ما تقضيه جزالة التنزيل على قراءة الجمهور ولا ينبغى جعل الخطاب لمشركى مكة كما قيل أما ان جعل الوعيد عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لا خفاء فيه وأما إن جعل عبارة عن هزيمة أخرى فلأن الفئة التى شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ والتعبير عنهم بفئة مبهمة تارة وموصوفة أخرى ثم إسناد المشاهدة إليها مع كون إسنادها إلى المخاطبين أوقع فى إلزام الحجة وأدخل فى التبكيت مما لا داعى إليه وبهذا يتبين سر جعل الخطاب الثانى للمؤمنين ، وأما قراءة ترونهم بتاء

الخطاب فظاهرها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثانى إلى المشركين لكنه ليس بنص فى ذلك لأنه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد فى الكفر والاتفاق فى الكلمة لا سيا بعد ما وقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية إليهم مبالغة فى البيان وتحقيقا لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولاريب فى صحته وسداده وقرىء يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الإراءة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك ﴿ رأى العين ﴾ مصدر مؤكد ليرونهم إن كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى إن كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين ﴿ والله يؤيد ﴾ أى يقوى ﴿ بنصره من يشاء ﴾ أى يؤيده من غير توسيط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة فى سبيله بما ذكر من النصر وهو تمام القول المأمور به ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكى السلاح وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه فى الفضل ﴿ لعبرة ﴾ العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فإنه نوع من العبور أى لعبرة عظيمة كائنة ﴿ لأولى الأبصار ﴾ لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو إما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل وإما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته عليه الصلاة والسلام .

﴿ زين للناس ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه لرغباتهم[1] إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس ﴿ حب الشهوات ﴾ الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات

(١) فى ط : رغباتهم

أو إيذانا بانهماكهم فى حبها بحيث أحبوا شهواتها كما فى قوله تعالى (إنى أحببت حب الخير) أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو البارى سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعى والحكمة فى ذلك ابتلاؤهم ، قال تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) الآية فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة ووسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغه المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فأسند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان ﴿ من النساء والبنين ﴾ فى محل النصب على أنه حال من الشهوات وهى مفسرة لها فى المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن فى معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد فى حبهن ﴿ والقناطير المقنطرة ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون ألفا وقيل أربعون ألف مثقال وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة رطل وقيل ألف ومائتا مثقال وقيل ألف دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل : دية النفس واختلف فى أن وزنه فعلال أو فنعال ، ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة ، وقيل : المقنطرة المحكمة المحصنة ، وقيل : الكثيرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة المضروبة المنقوشة .

﴿ من الذهب والفضة ﴾ بيان للقناطير أو حال ﴿ والخيل ﴾ عطف على القناطير قيل هى جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء ﴿ المسومة ﴾ أى المعلمة من السمة[1] وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها إذا أرسلها وسيبها

---

(١) فى ط : الوسمه

للرعى أو المطهمة التامة الخلق ﴿ والأنعام ﴾ أى الإبل والبقر والغنم ﴿والحرث ﴾ أى الزرع مصدر بمعنى المفعول .

﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الأشياء المعهودة ﴿ متاع الحيوة الدنيا ﴾ أى ما يتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل فتفنى سريعا ﴿والله عنده حسن المآب﴾ حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيها عدد عاقبة حميدة وفى تكرير الإسناد بجعل الجلالة مبتدأ وإسناد الجملة الظرفية إليه زيادة تأكيد وتفخيم ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهيد فى ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية .

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ إثر ما بين شأن مزخرفات الدنيا وذكر ما عنده تعالى من حسن المآب إجمالا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والخطاب للجميع والهمزة للتقرير أى أأخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وإبهام الخبر لتفخيم شأنه والتشويق إليه وقوله تعالى ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات ﴾ استئناف مبين لذلك المبهم على أن جنات مبتدأ والجار والمجرور خبر أو على أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط فى ذلك اعتماد الجار على ما فصل فى محله والمراد بالتقوى هو التبتل إلى الله تعالى والإعراض عما سواه على ما تنبىء عنه النعوت الآتية وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات أو متعلق بما تعلق به الجار والمجرور[1] من معنى الاستقرار مفيد لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف وجنات خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لخير ويؤيده قراءة جنات بالجر على البدلية من خير ولا يخفى أن تعليق الإخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما

---

(١) سقط : من ط

يوهم أن هناك خيراً آخر لآخرين ﴿ تجرى ﴾ فى محل الرفع والجر صفة لجنات على حسب القراءتين ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ متعلق بتجرى فإن أريد بالجنات نفس الأشجار كما هو الظاهر لجريانها من تحتها ظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مراراً ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من المستكن فى للذين والعامل ما فيه من معنى الاستقرار ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ عطف على جنات أى مبرأة مما يستقذر من النساء من الأحوال البدنية والطبيعية ﴿ ورضوان ﴾ التنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة أى رضوان وأى رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل وقرىء بضم الراء ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها أو بصير بأحوال الذين اتقوا ولذلك أعد لهم ما ذكر وفيه إشعار بأنهم المستحقون بالتسمية باسم العبد .

﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا ﴾ فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ أو النصب على المدح أو الجر على أنه تابع للمتقين نعتا أو بدلا أو للعباد كذلك والأولى أظهر وقوله تعالى (والله بصير بالعباد) حينئذ معترضة وتأكيد الجملة لإظهار أن إيمانهم ناشىء من وفور الرغبة وكمال النشاط وفى ترتيب الدعاء بقولهم ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾ على مجرد الإيمان دلالة على كفايته فى استحقاق المغفرة والوقاية من النار ﴿ الصابرين ﴾ هو على تقدير كون الموصول فى محل الرفع منصوب على المدح بإضمار أعنى وأما على تقدير كونه فى محل النصب أو الجر فهو نعت له والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس ﴿ والصادقين ﴾ فى أقوالهم ونياتهم وعزائمهم ﴿ والقانتين ﴾ المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات ﴿ والمنفقين ﴾ أموالهم فى سبيل الله تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾

قال مجاهد وقتادة والكلبي هم المصلون[1] بالأسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح في جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضي الله عنه يحيي الليلة ثم يقول[1] يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا فيعاود الصلاة فإذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أسبق والنفس أصفى والروح أجمع لاسيما للمتهجدين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها ﴿ شهد الله أنه ﴾ بفتح الهمزة أي بأنه أو على أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذانا بقوته في إثبات المطلوب وإشعارا بإنكار المنكر وقرىء إنه بكسر الهمزة إما بإجراء شهد مجرى قال وإما بجعل الجملة اعتراضا وإيقاع الفعل على قوله تعالى إن الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتي وقرىء شهداء لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ومآله الرفع على المدح أي هم شهداء لله وهو إما جمع شهيد كظرفاء في جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء في جمع شاعر .

﴿ والملائكة ﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازي شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أي أقروا بذلك ﴿ وأولوا العلم ﴾ أي آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعية قيل المراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والأنصار وقيل علماء مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين

---

(١) في ط : أي المصلين (٢) في ط : قال .

الأخيرتين قيل بالعطف على الضمير فى شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدى إلى تقييد حال المذكورين بشهادة الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه حينئذ كون ارتفاعهما بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أى والملائكة وأولو العلم شهداء ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فحينئذ يحسن العطف على المستتر على كل حال وقوله تعالى ﴿ قائما بالقسط ﴾ أى مقيما للعدل فى جميع أموره بيان لكماله تعالى فى أفعاله إثر بيان كماله فى ذاته وانتصابه على الحالية من الله كما فى قوله تعالى (وهو الحق مصدقا) وإنما جاز إفراده مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) ولعل تأخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسارعة إلى إقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله والسر فى تقديمه على المعطوفين مع ما فيه من الإيذان بأصالته تعالى فى الشهادة به كما مر فى قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أو من هو وهو الأوجه والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد أو أحقه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقيل على أنه صفة للمنفى أى لا إله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج فى المشهود به إذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه وقرىء القائم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما فى الصفة أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقرىء قيما بالقسط .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليجرى عليه قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب إذن (١) تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدأ مضمر وقد روى فى فضلها أنه عليه السلام قال « يجاء بصاحبها يوم القيامة

---

(١) سقط من ط .

فيقول الله عز وجل إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة ، وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وروى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا وقيل نزلت فى نصارى نجران وقال الكلبى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشأم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بصفته فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالا فإنا نسألك عن شىء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقال أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم الرجلان ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضيا لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة وعن قتادة أنه شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرىء إن الدين عند الله الإسلام وقرىء أن الدين الخ على أنه بدل الكل إن فسر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتمال إن فسر بالشريعة أو على أن شهد واقع عليه تقدير قراءة إنه بالكسر كما أشير إليه ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل إيتاء الكتاب صلة لزيادة تقبيح حالهم فإن الاختلاف ممن أوتى[1] ما يزيله ويقطع شأفته فى غاية القبح والسماجة وقوله تعالى : ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أى وما اختلفوا فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة

(١) فى ١١ : عرف .

والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على ترامى حالهم فى الضلالة ما لا يزيد عليه فإن الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة مما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى : ﴿ بغياً بينهم ﴾ أى حسدا كائنا بينهم وطلبا للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الأمر تشنيع إثر تشنيع .

﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الإسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى فإنه على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة وإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم ﴿ فإن حاجوك ﴾ أى فى كون الدين عند الله الإسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج ﴿ فقل أسلمت وجهى ﴾ أى أخلصت نفسى وقلبى وجملتى وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه إلى كل شىء ﴿ لله ﴾ لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت إليه الآيات والرسل عليهم السلام ﴿ ومن اتبعن ﴾ عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفى المتعاطفين ﴿ والأميين ﴾ أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ﴿ أأسلمتم ﴾ متبعين لى كما فعل المؤمنون فإنه قد أتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بمقتضاها[1] أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه

(١) فى ط : بقضيتها .

المسألة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا إلا سلكه فهل فهمتها على على منهاج قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) إثر تفصيل الصوارف عن تعاطى الخمر والميسر وفيه من استقصارهم وتعييرهم بالمعاندة وقلة الإنصاف وتوبيخهم بالبلادة وكلة القريحة مالا يخفى .

﴿ فإن أسلموا ﴾ أى كما أسلمتم وإنما لم يصرح به كما فى قوله تعالى (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) حسما لباب إطلاق اسم الإسلام على شيء آخر بالكلية ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أى فازوا بالحظ الأوفر ونجوا عن مهاوى الضلال ﴿ وإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ قائم مقام الجواب أى لم يضروك شيئا إذ ما عليك إلا البلاغ وقد فعلت على أبلغ وجه ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله قال عليه الصلاة والسلام للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا وذلك قوله عز وجل وإن تولوا ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ عالم بجميع أحوالهم وهو تذييل فيه وعد ووعيد .

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ﴾ أى آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقية الإسلام على الوجه الذى مر تفصيله دخولا أوليا ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ هم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين حول قتل النبى صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنيعة وقد أشير إليه بصيغة الاستقبال وقرىء بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق للإيذان بأنه كان عندهم أيضا بغير حق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ أى بالعدل ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما فى الوقت ، عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر معروف

ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار وقرىء ويقاتلون الذين ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر إن والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط فإنها بالنسخ لاتغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال فى النسخ بأن المفتوحة كما فى قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه) وكذا النسخ لكن كما فى قوله :

فوالله ما فارقتكم عن ملالة ولكن ما يقضى فسوف يكون

وإنما يتغير معنى الابتداء فى النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والأخفش إلى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ كما فى قولك الشيطان فاحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الإشارة مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال والموصول بما فى حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه فى إحدى الدارين وصيغة الجمع لرعاية ما وقع فى مقابلته لا لنفى تعدد الأنصار من كل واحد منهم كما فى قوله تعالى (وما للظالمين من أنصار) .

﴿ ألم تر ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم فى الإسلام إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيته أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ أى التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الإلهية تطويل للمسافة إذ تمام التقريب حينئذ بكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا

إليه وهم لم يدعوا إلا إلى التوراة والمراد بما أوتوه منها ما بين لهم فيها من العلوم والأحكام التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والعمل بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة فى تقبيح حالهم ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة والإظهار فى مقام الإضمار لإيجاب الإجابة وإضافته إلى الاسم الجليل لتشريفه وتأكيد وجوب المراجعة إليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقيل يدعون إلى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول ﴿ ليحكم بينهم ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم إلى الإيمان فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت قال عليه الصلاة والسلام على ملة إبراهيم قالا إن إبراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها فأبيا وقيل نزلت فى الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فإنهم قد علموا أنه كتاب الله ولم يشكوا فيه وقرىء ليحكم على بناء المجهول فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وهم معرضون ﴾ إما حال من فريق لتخصصه بالصفة أى يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من التولى والإعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأنهم ﴾ أى حاصل بسبب أنهم ﴿ قالوا لن تمسنا النار ﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصى ﴿ إلا أياما معدودات ﴾ وهى مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا على أنفسهم الخطوب ﴿ وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا أو إن الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام ألا يعذب أولاده إلا تحلة

القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح ﴿ فكيف ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال لما غرهم باستعظام ماسيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال أى فكيف يكون حالهم ﴿ إذا جمعناهم ليوم ﴾ أى لجزاء يوم ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه ، روى أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلا كما يزعمون وإنما وضع المكسوب موضع جزائه للإيذان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كأنهما شىء واحد وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لايخلد فى النار لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون فى النار ولا قبل دخولها فإذن هى بعد الخلاص منها ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه ﴿ قل اللهم ﴾ الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لايجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا ألله أمنا بخير أى اقصدنا به خفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿ مالك الملك ﴾ أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية ﴿ تؤتى الملك ﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون ملك غيره بطريق المجاز كما ينبىء عنه إيثار الإيتاء الذى هو مجرد الإعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة ﴿ من تشاء ﴾ أى إيتاءه إياه ﴿ وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ أى نزعه منه فالملك الأول حقيقى عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما إلى صاحبهما مجازية وقيل الملك الأول عام والآخران بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى آخرين

﴿ وتعز من تشاء ﴾ أن تعزه فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق ﴿ وتذل من تشاء ﴾ أن تذله فى إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة ﴿ بيدك الخير ﴾ تعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أى بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فمقضى بالعرض إذ ما من شر جزئى إلا وهو متضمن لخير كلى أو لأن فى حصول الشر دخلا لصاحبه فى الجملة لأنه من أجزية أعماله وأما الخير ففضل محض أو لرعاية الأدب أو لأن الكلام فيه فإنه روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له ﴿ تولج الليل فى النهار ﴾ أى تدخله فيه بتعقيبه إياه أو بنقص الأول وزيادة الثانى ﴿ وتولج النهار فى الليل ﴾ على أحد الوجهين ﴿ وتخرج الحى من الميت ﴾ أى تنشىء الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن من الكافر ﴿ وتخرج الميت من الحى ﴾ أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل تخرج الكافر من المؤمن ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ قال أبو العباس المقرى ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى

(وترزق من تشاء بغير حساب) وبمعنى العدد قال تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وبمعنى المطالبة قال تعالى (فامنن أو أمسك بغير حساب) والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل ترزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول والأفهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم أهون من كل هين عن على رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) و(قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب) معلقات ما بينهن وبين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله تعالى إنى حلفت أنه لا يقرؤكن أحد دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته فى حظيرة القدس ونظرت إليه بعينى كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم وفى بعض الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فإن العباد أطاعونى جعلتهم لهم رحمة وإن العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يول عليكم ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة كما فى قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله تعالى (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم إلى الله أو عن الاستعانة بهم فى الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿ من دون المؤمنين ﴾ فى موضع الحال أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالا أو اشتراكا وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى اتخاذهم أولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره ﴿ فليس من الله ﴾ أى من ولايته تعالى ﴿ فى شىء ﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فإن موالاة المتعاديين مما لا يكاد يدخل تحت الوقوع قال :

تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك ليس النوك عنك بعازب

والجملة اعتراضية . قوله تعالى ﴿ إلا أن تتقوا ﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهى معتبرا فيه الخطاب كأنه قيل لاتتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا فى حال من الأحوال إلا حال إتقائكم ﴿ منهم ﴾ أى من جهتهم ﴿ تقاة ﴾ أى اتقاء أو شيئا يجب اتقاؤه على أن المصدر واقع موقع المفعول فإنه يجوز إظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار ما فى الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطاوامش جانبا وأصل تقاة وقية ثم أبدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفا وقرىء تقية ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى ذاته المقدسة فإن جواز إطلاق لفظ النفس مرادا به الذات عليه سبحانه بلا مشاكلة مما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محقق المتأخرين بعدم الجواز وإن أريد به الذات إلا مشاكلة وفيه من التهديد ما لايخفى عظمه وذكر النفس للإيذان بأن له عقابا هائلا لايؤبه دونه بما يحذر من الكفرة ﴿ وإلى الله المصير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومحقق لوقوعه حتما ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم ﴾ من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة ﴿ أو تبدوه ﴾ فيما بينكم ﴿ يعلمه الله ﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه وتقديم الإخفاء على الإبداء قد مر سره فى تفسير قوله تعالى(وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) وقوله تعالى(يعلم ما يسرون وما يعلنون) ﴿ ويعلم مافى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من باب إيراد العام بعد الخاص تأكيدا له وتقريرا ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فيقدر على عقوبتكم بما لامزيد عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى(ويحذركم الله نفسه)بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لايتصف به شىء منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لايخرج من ملكوته شىء قط

﴿يوم تجد كل نفس﴾ أى من النفوس المكلفة ﴿ما عملت من خير محضرا﴾ عندها بأمر الله تعالى وفيه من التهويل ما ليس فى حاضرا ﴿وما عملت من سوء﴾ عطف على ما عملت والإحضار معتبر فيه أيضا إلا أنه خص بالذكر فى الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ﴿تود﴾ عامل فى الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة ﴿لو أن بينها وبينه﴾ أى بين ذلك اليوم ﴿أمدا بعيدا﴾ لشدة هوله وفى إسناد الود إلى كل نفس سواء كان لها عمل سيء أو لا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه مالايخفى ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية بإضمار اذكروا وتودا ما حال من كل نفس أو استئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ماعملت من خير وشر محضرا وادة أن بينها وبينه أمدا بعيدا أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فماذا يكون إذ ذاك فقيل تود لو أن بينها الخ أو تجد مقصور على ما عملت من خير وتود خبر ما عملت من سوء ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود وقرىء ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أوقع معنى لأنها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تكرير لما سبق وإعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لإفادة مايفيده قوله عز وجل ﴿والله رؤف بالعباد﴾ من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه وأن تحذيره ليس مبنيا على تناسى صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما فى قوله تعالى (ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم) فالجملة على الأول اعتراض وعلى الثانى حال وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقى ليس إلا لله عز وجل وأن كل ما يراه كما لا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه

إلا لله وفى الله وذلك مقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبادته والحرص على مطاوعته ﴿ يحببكم الله ﴾ أى يرض عنكم ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أى يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم فى جوار قدسه عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى لمن يتحبب إليه بطاعته ويتقرب إليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة ، روى أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل نزلت فى وفد نجران لما قالوا إنا نعبد المسيح حبا لله تعالى وقيل فى أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فأمروا أن يجعلوا لقولهم مصداقا من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم فى المسجد الحرام يسجدون للأصنام وقد علقوا عليهم بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لقد خالفتم ملة إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام فقالت قريش إنما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام قل إن كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه فاتبعونى أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ أى فى جميع الأوامر والنواهى فيدخل فى ذلك الطاعة فى اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها فإن الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث أنه رسول الله لا من حيث ذاته ولا ريب فى أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها ﴿ فإن تولوا ﴾ إما من تمام مقول القول فهى صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التاءين أى تتولوا وإما كلام

متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهى صيغة الماضى الغائب وفى ترك ذكر احتمال الطاعة كما فى قوله تعالى فإن أسلموا تلويح إلى أنه غير محتمل منهم ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ نفى المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أى لا يرضى عنهم ولا يثنى عليهم وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والإشعار بعلته فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والإيذان بأن التولى عن الطاعة كفر وبأن محبته عز وجل خاصة بالمؤمنين .

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ لما بين الله تعالى أن الدين المرضى عنده هو الإسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغى والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع فى تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام تحقيقاً للحق وإبطالا لما عليه أهل الكتابين فى شأنهما من الإفراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم فى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى عبادة الله عز وجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسهم أو غيرهم من الملائكة والنبيين وأن أممهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقا لوجوب الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ووجوب الطاعة له حسبما سيأتى تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عليه السلام فإنه آدم الثانى وأما ذكر آل إبراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم فى الإيمان بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم مع مامر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقا فى النبوة من زمرة المصطفين

الأخيار وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم فى آل إبراهيم فلإظهار مزيد
الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لكمال رسوخ الخلاف فى
شأنه فإن نسبة الاصطفاء إلى الأب الأقرب أدل على تحققه فى الآل وهو
الداعى إلى إضافة الآل إلى إبراهيم دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام
والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء مثل به اختياره تعالى إياهم
النفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية
المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما فى كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو
فيمن يلابسه وينشأ منه كما فى مريم وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن
خلقه بيده فى أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إياه وإسكان
الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم
يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وبإطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين
واستجابة دعوته فى حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل
إبراهيم إسمعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى صلى الله
عليه وسلم ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم
بطريق الأولوية وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى
الخلة وكونه إمام الأنبياء وقدوة للرسل عليهم الصلاة والسلام وكون اصطفاء
آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية ولذلك قال عليه الصلاة
والسلام أنا دعوة أبى إبراهيم وبآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن
ماثان بن أبى يور بن رب بابل بن ساليان بن يوشيان بن أمون بن منشا بن
حزقيا بن أحز بن يوثم بن عزياهو بن يهوشافاط بن أسا بن رحبعم بن
سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ابن بيشا بن عوفيذ ابن بوعز بن سلمون
بن نحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن باص بن يهوذا بن يعقوب
عليه الصلاة والسلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى
عليه الصلاة والسلام حينئذ بالاندراج فى آل إبراهيم عليه السلام والأول هو
الأظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام

بالانتظام فى سلك آل إبراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه .

﴿ ذرية ﴾ نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها فى قوله تعالى (ومن ذريتى) ، وقوله تعالى ﴿ بعضها من بعض ﴾ فى محل النصب على أنه صفة لذرية أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض فى النسب كما ينبىء عنه التعرض لكونه ذرية وقيل بعضها من بعض فى الدين فالاستمالة على الوجه الأول تقريبية وعلى الثانى برهانية ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ عليم ﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها .

﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ فى حيز النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كيفيته أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير إلى الأوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لما قبله أى سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوى وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آل عمران إذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل فى ذلك الوقت وامرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذاك فإن قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج إيشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام وأما قوله عليه الصلاة والسلام فى شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هما ابنا خالة فقيل تأويله أن الأخت كثيرا ما تطلق على بنت الأخت وبهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابنى خالة وقيل كانت

إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب على أن عمران نكح أولا
أم حنة فولدت له إيشاع ثم نكح حنة بناء على نكاح الربائب فى شريعتهم
فولدت مريم فكانت إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت
حنة من الأم روى أنها كانت عجوزا عاقرا فبينما هى ذات يوم فى ظل شجرة
إذ رأت طائرا يطعم فرحه فحنت إلى الولد وتمنته وقالت اللهم إن لك على نذرا
إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر
مشروعا عندهم فى الغلمان ثم هلك عمران وهى حامل وحينئذ فقولها ﴿ رب إنى
نذرت لك ما فى بطنى ﴾ لابد من حمله على التكرير لتأكيد نذرها وإخراجه
عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن
إفاضة مافيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة
ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه
وصفاته وتأكيد الجملة لإبراز وفور الرغبة فى مضمونها وتقديم الجار والمجرور
لكمال الاعتناء به وإنما عبرعن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء
﴿ محررا ﴾ أى معتقا لخدمة بيت المقدس لا يشغله شأن عنه أو مخلصا للعبادة ونصبه
على الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره فى الصلة والعامل
معنى الاستقرار فإنها فى قوة ما استقر فى بطنى ولا يخفى أن المراد تقييد فعلها
بالتحرير ليحصل به التقرب إليه تعالى لا تقييد مالا دخل لها فيه من الاستقرار
فى بطنها ﴿ فتقبل منى ﴾ أى ما نذرته والتقبل أخذ الشىء على وجه الرضا وهذا
فى الحقيقة استدعاء للولد إذ لا يتصور القبول بدون تحقيق المقبول بل للولد
الذكر لعدم قبول الأنثى ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لجميع المسموعات التى من جملتها
تضرعى ودعائى ﴿ العليم ﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها ما فى ضميرى لا غير
وهو تعليل لاستدعاء القبول لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائها عليما بما
فى ضميرها مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها
وإخلاصها مستدع لذلك تفضلا وإحسانا وتأكيد الجملة لعرض قوة يقينها
بمضمونها وقصر صفتى السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى

وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة فى الضراعة والابتهال ﴿ فلما وضعتها ﴾ أى ما فى بطنها وتأنيث الضمير العائد إليه لما أن المقام يستدعى ظهور أنوثته واعتباره فى حيز الشرط إذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى ﴿ قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ لاعلى وضع ولد ما كأنه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ قيل تأنيثه لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله تعالى أو لأنه مؤول بالمرة من الحبل أو النفس أو النسمة وأنت خبير بأن اعتبار شىء مما ذكر فى حيز الشرط لايكون مدارا لترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه وتأنيثه للمسارعة إلى عرض مادهمها من خيبة الرجاء أو لما مر من التأويل بالحبلة أو النسمة فالحال حينئذ مبينة وإنما قالته تحزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذلك نذرته محررا للسدانة والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ تعظيم منَ جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أى والله أعلم بالشىء الذى وضعته وما علق به من عظائم الأمور وجعله وابنه آية للعالمين وهى غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرىء وضعت على خطاب الله تعالى لها أى إنك لاتعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار وقرىء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إظهاراً لغاية الإجلال فيكون ذلك منها اعتذارا إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لايصلح لما نذرته من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ اعتراض آخر مبين لما فى الأول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته واللام فى الذكر والأنثى للعهد أى ليس الذكر الذى كانت تطلبه وتتخيل كماله ليكون كواحد من السدنة كالأنثى التى وهبت لها فإن دائرة علمها وأمنيتها لاتكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا على القراءتين الأوليين وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه وليس الذكر كهذه الأنثى فى الفضيلة بل أدنى منها وأما على التفسير الأول لها فمعناه تأكيد

الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات فإنهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى ﴿ وإنى سميتها مريم ﴾ عطف على إنى وضعتها أنثى وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن مريم فى لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبى معناه خادم الرب وإظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعته أنثى وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه ﴿ وإنى أعيذها بك ﴾ عطف على إنى سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى أجيرها بحفظك وقرىء بفتح ياء المتكلم فى المواضع التى بعدها همزه مضمومه إلا فى موضعين بعهدى أوف آتونى أفرغ ﴿ وذريتها ﴾ عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لإبراز كمال العناية به ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ أى المطرود وأصل الرجم الرمى بالحجارة . عن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه إلا مريم وابنها ومعناه أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة ﴿ فتقبلها ﴾ أى أخذ مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر ﴿ ربها ﴾ مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق بها وفيه من تشريفها ما لا يخفى ﴿ بقبول حسن ﴾ قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أى تقبلها قبولا حسنا وإنما عدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فإن صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكليف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها فى حقه تعالى مايترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته وقيل القبول ما يقبل به الشىء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد وهو اختصاصه تعالى إياها بإقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أنثى أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . روى أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها إلى بيت المقدس ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها

كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإن بنى ماثان كانت رؤس بنى إسرائيل وملوكهم وقيل لأنهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام فى الكتب الإلهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها لأن عندى خالتها فأبوا إلا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أى فتقبلها بذى قبول أى بأمر ذى قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقصى بمعنى استقصى وتعجل بمعنى استعجل أى استقبلها فى أول أمرها حين ولدت بقبول حسن ﴿ وأنبتها ﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها فى جميع أحوالها ﴿ نباتا حسنا ﴾ مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد وقيل بل لفعل مضمر موافق له تقديره فنبتت نباتا حسنا ﴿ وكفلها زكريا ﴾ أى جعله عليه الصلاة والسلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير أمورها لا على طريقة الوحى بل على ما ذكر من التفصيل فإن رغبته عليه الصلاة والسلام فى كفالتها وطفو قلمه ورسوب أقلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار قدرته تعالى وقرىء أكفلها وقرىء زكرياء بالنصب والمد وقرىء بتخفيف الفاء وكسرها ورفع زكرياء ممدودا وقرىء وتقبلها ربها وأنبتها وكفلها على صيغة الأمر فى الكل ونصب ربها على الدعاء أى فاقبلها يا ربها وربها تربية حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية . قيل بنى عليه الصلاة والسلام لها محرابا فى المسجد أى غرفة يصعد إليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب . روى أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده وإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ تقديم الظرف على الفاعل لإظهار كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة كلما ظرف على أن ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف والعامل فيها جوابها أى كل زمان دخوله عليها أو كل وقت دخل عليها فيه ﴿ وجد عندها رزقا ﴾ أى نوعا منه غير معتاد إذ كان

ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها فى الصيف فاكهة الشتاء وفى الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند مشاهدة هذه الآية فقيل قال ﴿ يامريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين جاء لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا إرهاصا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الأمر عليه عليه الصلاة السلام وإنما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بما شاهده أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة ﴿ قالت ﴾ استئناف كما قبله كأنه قيل فماذا صنعت مريم وهى صغيرة لاقدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل قالت ﴿ هو من عند الله ﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿ إن الله يرزق من يشاء ﴾ أن يرزقه (بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لكونه من عند الله إما من تمام كلامها فيكون فى محل النصب وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها أهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها فقال هلمى يابنية فكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبزا ولحما فقال لها أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى اسرائيل ثم جمع عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فأكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها ﴿ هنالك ﴾ كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع مافى إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت إذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان ﴿ دعا

زكريا ربه ﴾ لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد حنة فى النجابة والكرامة على الله تعالى وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفواكه فى غير إبانها تنبه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفانى فأقبل بالدعاء من غير تأخير كما ينبىء عنه تقديم الظرف على الفعل لاعلى معنى أن ذلك كان هو الموجب للإقبال على الدعاء فقط بل كان جزءا أخيرا من العلة التامة التى من جملتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبما فصل فى سورة مريم ﴿ قال ﴾ تفسير الدعاء وبيان لكيفيته لامحل له من الإعراب ﴿ رب هب لى من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا أى أعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد ﴿ ذرية طيبة ﴾ كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أى كائنة من لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد فالتأنيث فى الصفة لتأنيث لفظ الموصوف كما فى قول من قال :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

وهذا إذا لم يقصد به واحد معين أما إذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ أى مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الإجابة ﴿ فنادته الملائكة ﴾ كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناداه جبريل والجمع كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أى أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لابدله من إتباع فأسند النداء إلى الكل مع كونه صادرا عنه خاصة وقرىء فناداه بالإمالة ﴿ وهو قائم ﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفاده الفاء من حصول البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى ﴿ يصلى ﴾

إما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يرى تعدده عند كون الثانى جملة كما فى قوله تعالى ﴿ فى المحراب ﴾ أى فى المسجد أو منه على القول بتعددها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى فإذا هى حية تسعى أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى ﴿ فى المحراب ﴾ أى المسجد أو فى غرفة مريم متعلق بيصلى أو بقائم على تقدير كون يصلى حالا من ضمير قائم لأن العامل فيه وفى الحال حينئذ شيء واحد فلا يلزم الفصل بالأجنبي كما يلزم على التقادير الباقية .

﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ أى بأن الله وقرىء بكسر الهمزة على تقدير القول أو إجراء النداء مجراه لكونه نوعا منه وقرىء يبشرك من الإبشار ويبشرك من الثلاثى وأياما كان ينبغى أن يكون هذا الكلام إلى آخره محكيا بعبارته عن الله عز وجل على منهاج قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية كما يلوح من مراجعته عليه الصلاة والسلام فى الجواب إليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبما وقع فى سورة مريم للجرى على سنن الكبرياء كما فى قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا وللإيذان بأن ماحكى هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عن سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى فى السورتين الكريمتين فتأمل ويحيى اسم أعجمى وإن جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنما سمى يحيى لأن الله تعالى أحيا به وعقر أمه وقال قتادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالإيمان قال القرطبى كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ولا بد من تقدير مضاف يعود إليه الحال أى بولادة يحيى فإن التبشير لا يتعلق بالأعيان ﴿ مصدقا ﴾ حال مقدرة من يحيى ﴿ بكلمة من الله ﴾ أى بعيسى عليه الصلاة والسلام وإنما سمى كلمة لأنه وجد بكلمة كائنة منه تعالى قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدى لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت

يا مريم أشعرت بحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فإنى وجدت ما فى بطنك فذلك قوله تعالى (مصدقا بكلمة) الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سمى كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته ﴿ وسيدا ﴾ عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فإنه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية فيالها من سيادة ما أسناها ﴿ وحصورا ﴾ عطف على ما قبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة ، روى أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا ﴿ ونبيا ﴾ عطف على ما قبله مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة ﴿ ومن الصالحين ﴾ أى ناشئا منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لا بد منه فى منصب النبوة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى عن السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه السلام حينئذ فقيل قال ﴿ رب ﴾ لم يخاطب الملك المنادى له بملابسة أنه المباشر للخطاب وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جرى نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل إليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الأحوال وإن لم يتوقف عليه فى بعضها ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ فيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاما عند التبشير كما فى قوله تعالى (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها

وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أى كيف أومن أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام إذلو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية ﴿ وقد بلغنى الكبر ﴾ حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للإنسان لا يكاد يتركه قيل كان له تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة وعشرون وقيل ستون ، وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان وتسعون ﴿ وامرأتى عاقر ﴾ أى ذات عقر وهو أيضا حال من الياء فى لى عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء بلغنى أى كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استفهاما عن كيفية حدوثه ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر يفعل فى قوله عز وجل ﴿ الله يفعل ما يشاء ﴾ أى ما يشاء أن يفعله من عجيب الأفاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ ويفعل خبره والكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لإفادة القصر بالنسبة إلى ما هو أدنى من المشار إليه واعتبرت الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل ما يشاء

بيان لذلك الشأن المبهم أو كذلك خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر كذلك وقوله تعالى (الله يفعل ما يشاء بيان) له ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحبل وإنما سألها لأن العلوق أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهورا معتادا ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سنى يحي وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لأن ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم الآية اللهم إلا أن تكون المجاوبة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مرارا من الإعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما لى والتقديم لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الجار فلا يتغير حالهما بعد دخول الناسخ ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ﴾ أى أن تقدر على تكليمهم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ أى متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم (ثلاث ليال سويا) مع القدرة على الذكر والتسبيح وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن تحبس لسانك إلا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال ﴿ إلا رمزا ﴾ أى إشارة بيد أو رأس أو نحوهما وأصله التحرك يقال ارتمز أى تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لأن الإشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام مافهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل وقرىء رمزا بفتحتين على أنه جمع رامز كخدم وبضمتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه ومن الناس معا بمعنى مترامزين كقوله :

متى ما تلقني فردين ترجف روانف أليتيك وتستطارا

﴿ واذكر ربك ﴾ أي في أيام الحبس شكراً لحصول التفضل والإنعام كما يؤذن به العرض لعنوان الربوبية ﴿ كثيرا ﴾ أي ذكرا كثيرا أوزمانا كثيرا ﴿ وسبح ﴾ أي سبحه تعالى أو افعل التسبيح ﴿ بالعشي ﴾ أي من الزوال إلى الغروب وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل ﴿ والإبكار ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى ، قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما في قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقيل الذكر اللساني كما أن المراد بالذكر الذكر القلبي وقرىء الأبكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار ﴿ وإذ قالت الملائكة ﴾ شروع في شرح بقية أحكام اصطفاء آل عمران إثر الإشارة إلى نبذ من فضائل بعض أقاربهم أعني زكريا ويحي عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام إياهما حسبما أشير إليه وقرىء بتذكير الفعل والمراد بالملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر ما فيه من الكلام وإذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق أعني قوله(إذ قالت امرأة عمران) منصوب بناصبه فتدبر أي واذكر أيضاً من شواهد اصطفائهم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿ يامريم ﴾ وتكرير التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة فإنها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها ، قيل كلموها شفاها كرامة لها أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الإجماع على أنه تعالى لم يستنبىء امرأة وقيل ألهموها ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ أولا حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك في حجر زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية ﴿ وطهرك ﴾ أي مما يستقذر من الأحوال والأفعال ومما قذفك به اليهود بإنطاق الطفل ﴿ واصطفاك ﴾ آخراً ﴿ على نساء العالمين ﴾ بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة

والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وجعلكما آية للعالمين فعلى هذا ينبغي أن يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير ولو روعى الترتيب الخارجي لتبادر كون الكل شيأ واحدا وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتكرير للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن فحينئذ لا إشكال فى ترتيب النظم الكريم إذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ما ذكر أولا وتجعل هذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام إيذانا بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما أمرت بها مجتهدة فيها مقبلة على الله تعالى متبتلة إليه تعالى منسلخة عن أحكام البشرية مستعدة لفيضان الروح عليها ﴿ يامريم ﴾ تكرير النداء للإيذان بأن المقصود بالخطاب ما يرد بعده وأن ما قبله من تذكير النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا فى العمل بموجبه ﴿ اقنتى لربك ﴾ أى قومى فى الصلاة أو أطيلى القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للإشعار بعلة وجوب الامتثال بالأمر ﴿ واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة فى إيجاب رعايتها وإيذانا بفضيلة كل منها وأصالته وتقديم السجود على الركوع إما لكون الترتيب فى شريعتهم كذلك وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضى ذلك كون الترتيب الخارجى كذلك بل اللائق به الترقى من الأدنى إلى الأعلى وإما ليقترن اركعى بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع فى صلاتهم ليسوا مصلين وأما ما قيل من أن الواو لا توجب الترتيب فغايته التصحيح لا الترجيح وتجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعات كما فى قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل أركانها وبالركوع الخشوع والإخبات ، قيل لما أمرت بذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى

ما سلف من الأمور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى من الأنباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لامحل لهـــا من الإعراب وقوله تعالى : ﴿ نوحيه إليك ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن أنباء الغيب وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحى لم ينقطع بعد ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أى عند الذين اختلفوا وتنازعوا فى تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكريه كما فى قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى) الآية (وما كنت ثاويا فى أهل مدين) الآية فإن طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات إما المشاهدة وإما السماع وعدمه محقق عندهم فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفيت تهكما بهم ﴿ إذ يلقون أقلامهم ﴾ ظرف للاستقرار العامل فى لديهم وأقلامهم أقداحهم التى اقترعوا بها وقيل اقترعوا بأقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركا ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى فى شأنها تنافسا فى كفالتها حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف إذ يختصمون على إذ يقولون كما فى قوله عز وجل (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه السلام لاسيما إذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب فى الذكر مؤكد له ﴿ إذ قالت الملائكة ﴾ شروع فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من وإذ قالت الملائكة منصوب بناصبه وما بينهما اعتراض جيء به تقريرا لما سبق وتنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد كنظائره من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب وإيذانا بتقارن الخطابين أو تقاربهما فى الزمان وقيل

منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من إذ يختصمون كأنه قيل وما كنت حاضرا فى ذلك الزمان المديد الذى وقع فى طرف منه الاختصام وفى طرف آخر هذا الخطاب إشعارا بإحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها إلى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام وإيراد صيغة الجمع لما مر ﴿ يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ من لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه عز وجل : ﴿ اسمه ﴾ ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره ﴿ المسيح ﴾ وقوله تعالى ﴿ عيسى ﴾ بدل منه أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب بإضمار أعنى مدحا وقوله تعالى ﴿ ابن مريم ﴾ صفة لعيسى وقيل المراد بالإسم ما به يتميز المسمى عن سواه فالخبر حينئذ مجموع الثلاثة إذ هو المميز له عليه الصلاة والسلام تمييزا عن جميع من أعداه والمسيح لقبه عليه الصلاة والسلام وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من إيشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يطهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الأرض ولم يقم فى موضع أو كان عليه الصلاة والسلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبأنه كان فى لونه عيس أى بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة من كلمة فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجاهة فى الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة فى الجنة ﴿ ومن المقربين ﴾ أى من الله عز وجل وقيل هو إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الأولى وقد عطف عليه قوله تعالى ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾ أى

يكلمهم حال كونه طفلا وكهلا كلام الأنبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمى به ما يمهد للصبى أى يسوى مهلى مضجعه وقيل إنه رفع شابا والمراد وكهلا بعد نزوله وفى ذكر أحواله المختلفة المتنافية إشارة إلى أنه بمعزل من الألوهية ﴿ ومن الصالحين ﴾ حال أخرى من كلمة معطوفة على الأحوال السالفة أو من الضمير فى يكلم .

﴿ قالت ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ما قالت فقيل قالت متضرعة إلى ربها ﴿ رب أنى يكون ﴾ أى كيف يكون أو من أين يكون ﴿ لى ولد ﴾ على وجه الاستبعاد العادى والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بأنه بالتزوج أو بغيره يكون الولد ويكون إما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من ولد إذ لو تأخر لكان صفة له وإما ناقصة واسمها ولد وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالا كما مر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ ولم يمسسنى بشر ﴾ جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ الكلام فى إعرابه كما مر فى قصة زكريا بعينه خلا أن إيراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فإن فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى إنما أمره إذا أرادشيئاً وأصل القضاء الأحكام أطلق على الإرادة الإلهية القطعيةالمتعلقة بوجود الشىء لإيجابها إياه البتة وقيل الأمر ومنه قوله تعالى (وقضى ربك) ﴿ فإنما يقول له كن ﴾ لاغير ﴿ فيكون ﴾ من غير تريث وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة حصول المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة

حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للآمر القوى المطاع وبيان لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة إلى شيء من الأسباب والمواد ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾ أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية ﴿ والحكمة ﴾ أى العلوم وتهذيب الأخلاق ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ إفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلهما وإنافتهما على غيرهما والجملة عطف على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها وإزاحة لما أهمها من خوف اللائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرىء ونعلمه بالنون ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾ منصوب بمضمر يعود إليه المعنى معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل أى كلهم وقال بعض اليهود إنه كان مبعوثا إلى قوم مخصوصين ثم قيل كان رسولا حال الصبا وقيل بعد البلوغ ، وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلاوم وقوله تعالى ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ معمول لرسولا لما فيه من معنى النطق أى رسولا ناطقا بأنى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر معطوف على يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ وقيل معطوف على الأحوال السابقة ولا يقدح فيه كونها فى حكم الغيبة مع كون هذا فى حكم التكلم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال كونه وجيها ورسولا ناطقا بأنى الخ وقرىء ورسول بالجر عطفا على كلمة والباء فى قوله تعالى ﴿ بآية ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على أنها للملابسة والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرىء بآيات أو بجئتكم على أنها للتعدية ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة كائنة من ربكم أن أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتى من الأوامر

وقوله تعالى ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ﴾ بدل من قوله تعالى ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ ومحله النصب على نزع الجار عند سيبويه والفراء والجر على رأى الخليل والكسائى أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر أى أعنى أنى الخ وقيل مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هى أنى أخلق لكم وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياى من الطين شيئاً مثل صورة الطير ﴿ فأنفخ فيه ﴾ الضمير للكاف أى فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير وقرىء فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدرة أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها ﴿ فيكون طيرا ﴾ حيا طيارا كسائر الطيور ﴿ بإذن الله ﴾ بأمره تعالى أشار عليه الصلاة والسلام بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى لامنه . قيل لم يخلق غير الخفاش ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله تعالى قيل إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ثديا وأسنانا وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الإنسان وتطير بغير ريش ولاتبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعا من الطير ﴿ وأبرىء الأكمه ﴾ أى الذى ولد أعمى أو الممسوح العين ﴿ والأبرص ﴾ المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شىء نفرتها منه ويقال له الوضح أيضا وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء وكانوا فى غاية الحذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فأراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس . روى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه إلا بالدعاء ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ كرره مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية . قال الكلبى كان عليه الصلاة والسلام يحيي

الموتى بياحى ياقيوم ، أحيا عازر وكان صديقا له فعاش وولدت بعد ذلك فقالوا إنك تحي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحى لنا سام بن نوح فقال دلونى على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال ياروح الله لما دعوتنى سمعت صوتا يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فمن هول ذلك شبت فسأله عن النزع قال يا روح الله إن مرارته لم تذهب من حنجرتى وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فإنه نبى الله فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يافلان أكلت كذا ويافلان خبىء لك كذا وذلك قوله تعالى ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم﴾ أى بالمغيبات من أحوالكم التى لا تشكون فيها وقرىء تذخرون بالذال والتخفيف ﴿إن فى ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأمور العظام ﴿لآية﴾ عظيمة وقرىء لآيات ﴿لكم﴾ دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى إليه أو دلالة المذكور عليه أى انتفعتم بها أو لن إن كنتم ممن يتأتى منهم الإيمان دلتكم الآية[1] على صحة رسالتى والإيمان بها .

﴿ومصدقا لما بين يدى من التوراة﴾ عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى بآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدى الخ أو على رسولا على الأوجه الثلاثة فإن مصدقا فيه معنى النطق كما فى رسولا أى ويجعله مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقاً ناطقاً بأنى أصدق الخ أو منصوب بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة إما حال من الموصول والعامل مصدقا وإما من ضميره المستتر فى الظرف الواقع صلة والعامل

---

(١) سقطت من ط .

الاستقرار المضمر فى الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ﴿ ولأحل لكم ﴾ معمول لمضمر دل عليه ما قبله أى وجئتكم لأحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معتذرا ولا جتلب رضاه كأنه قيل قد جئتكم لأصدق ولأحل الخ وقيل عطف على بآية أى قد جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم ﴿ بعض الذى حرم عليكم ﴾ أى فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسمك ولحوم الإبل والعمل فى السبت ، قيل أحل لهم من السمك والطير مالاصيصة له واختلف فى إحلال السبت وقرىء حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يدى أو الله عز وجل وقرىء حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولايخل ذلك بكونه مصدقا لها لما أن النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الأزمان وتأخير المفعول عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة إلى ذكر مايسر المخاطبين وللتشويق[1] إلى ما أخر ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ شاهدة على صحة رسالتى وقرىء بآيات ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى عدم قبولها ومخالفة مدلولها ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هى قولى .

﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ فإنه الحق الصريح الذى أجمع عليه الرسل قاطبة فيكون آية بينة على أنه عليه الصلاة والسلام من جملتهم وقرىء أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتكم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالخفيات وغيره من ولادتى بغير أب ومن كلامى فى المهد وغير ذلك والأول لتمهيد الحجة والثانى لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله فاتقوا الله أى لما جئتكم

---

(١) فى ط : التشويق

بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله فى المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم إليه ومعنى قراءة من فتح ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى (لإيلاف قريش) الخ ثم شرع فى الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال (إن الله ربى وربكم) إشارة إلى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذى غايته التوحيد وقال فاعبدوه إشارة إلى استكمال القوة العملية فإنه يلازم الطاعة التى هى الإتيان بالأوامر والإنتهاء عن المناهى ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام قل آمنت بالله ثم استقم ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ شروع فى بيان مآل أحواله عليه السلام إثر ما أشير إلى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل حسبما شرحته كما فى قوله تعالى (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله تعالى (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) كأنه قيل فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وإنما لم يذكره اكتفاء بحكاية الملائكة وإيذانا بعدم الخلف وثقة بما فصل فى المواضع الأخر وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام فى سلك النقل فإما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمكايد والمراد بالإحساس الإدراك القوى الجارى مجرى المشاهدة وبالكفر إصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه الإحساس فإنه إنما يستعمل فى أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما فى قوله عز وجل (فلما أحسوا بأسنا إذاهم منها يركضون) وكلمة من متعلقة بأحس والضمير المجرور لبنى إسرائيل أى ابتدأ الإحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر ﴿ قال ﴾ أى لخلص أصحابه لا لجميع بنى إسرائيل لقوله تعالى (كما قال عيسى ابن مريم للحواريين) الآية وقوله تعالى (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) ليس بنص فى

فى توجيه الخطاب إلى الكل بل يكفى فيه بلوغ الدعوة إليهم ﴿من أنصارى﴾ الأنصار جمع نصير كأشراف جمع شريف .

﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أى من أنصارى متوجها إلى الله ملتجئا إليه أو بأنصارى متضمنا معنى الإضافة كأنه قيل من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله عز وجل ينصروننى كما ينصرنى وقيل إلى بمعنى فى أى فى سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام فقيل قال ﴿الحواريون﴾ جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن ونقائهن سمى به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم .

وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون البياض[1] وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لايزال يأكل منها ولاتنقص فذكروا ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى ابن مريم فترك ملكه وتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فإن اتبعتمونى صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الأبدية قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئاً فأمره عيسى عليه الصلاة والسلام بإلقائها فى الماء مرة أخرى ففعل فاجتمع فى الشبكة من السمك ما كادت تتمزق واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملأوا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر

---

(١) فى ط. البيض

رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا إذا جاءوا قالوا جعنا ياروح الله فيضرب بيده الأرض فيخرج منها لكل واحد رغيفان وإذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة فسموا حواريين وقيل إن أمه سلمته إلى صباغ فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام ههنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها فى جب واحد وقال كونى بإذن الله كما أريد فرجع الصباغ فسأله فأخبره بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر إلى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسبما كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الإثنى عشر من الملوك وبعضهم من صيادى السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين فى طاعته ومحبته .

﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى أنصار دينه ورسوله ﴿ آمنا بالله ﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله فإن الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه ﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ مخلصون فى الإيمان منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم أشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم وعليهم إيذانا بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ تضرع إلى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة فى إظهار أمرهم ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ أى فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم أو مع

أمة محمد عليه الصلاة والسلام فإنهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا .

﴿ ومكروا ﴾ أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿ ومكر الله ﴾ بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى إسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وقيل إنه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال « ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة » فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ورفعه إلى السماء فأخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبكيان فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعنى ولم يصبنى إلا خير وإن هذا شىء شبه لهم قال محمد بن إسحاق إن اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلا من بنى إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء

الأكمه والأبرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم .

وسألهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بنى إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية فى الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له تيتوس [1] وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبي ولم يترك فى مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز قال أهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض «أوريشلم» لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ إذ قال الله ﴾ ظرف لمكر الله أو لمضمر نحو وقع ذلك ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ﴾ أى مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم أو أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما إذ روى أنه رفع وهو نائم وقيل مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن أو مميتك من الشهوات العائقة عن التروج إلى عالم الملكوت وقيل أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى ، قال القرطبى والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد

---

(١) فى ط : طيطوس وهما واحد .

وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا فى غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم إبليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة فقال واحد منهم أنا يا نبى الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع عنه النور شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى (إنى متوفيك) فطار مع الملائكة ثم إن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الإسلام منطمسا إلى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم .

﴿ ورافعك إلى ﴾ أى إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم ﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبى هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه الصلاة وسلم دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من النصارى ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعه والحجة وقيل هم الحواريون فينبغى أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الإتحاد فى الإسلام والتوحيد وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الإدعاء والمحبة وإلا فأولئك الكفرة بمعزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام ﴿ إلى يوم القيامة ﴾

غاية للجعل أو للاستقرار المقدر فى الظرف لا على معنى أن الجعل أو الفوقية تنتهى حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد ﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ بالبعث وثم للتراخى وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب فى ضمن الالتفات فإنه أبلغ فى التبشير والإنذار ﴿ فأحكم بينكم ﴾ يومئذ إثر رجوعكم إلى ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل .

﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا ﴾ تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام لتهديدهم وزجرهم عما هم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى : ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق بأعذبهم لا بمعنى إيقاع كل واحد من التعذيب فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة وإحداثهما يوم القيامة بل بمعنى إتمام مجموعهما يومئذ وقيل إن المرجع أعم من الدنيوى والأخروى وقوله تعالى إلى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهرا ثم أخلع عليك خلعة فيلزم تأخر الخلع عن الإعارة لا عن الشهر ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يخلصونهم من عذاب الله تعالى فى الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد ﴿ وأما الذين آمنوا ﴾ بما أرسلت به ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ كما هو ديدن المؤمنين ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ أى يعطيهم إياها كاملة ولعل الالتفات إلى الغيبة للإيذان بما بين مصدرى التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال ، وقرىء فنوفيهم جريا على سنن العظمه والكبرياء ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ أى بعضهم فإن هذه الكناية

فاشية فى جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزوا الحدود[1] واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأن المشار إليه وبعد منزلته فى الشرف وعلى كونه فى ظهور الأمر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد للمعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ نتلوه ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ عليك ﴾ متعلق بنتلوه وقوله تعالى ﴿ من الآيات ﴾ حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الإشارة أو ذلك خبر لمبتدأ مضمر أى الأمر ذلك ونتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال إما لاستحضار الصورة أو على معناها إذ التلاوة لم تتم بعد ﴿ والذكر الحكيم ﴾ أى المشتمل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه والمراد به القرآن فمن تبعيضية أو بعض مخصوص منه فمن بيانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية ﴿ إن مثل عيسى ﴾ أى شأنه البديع المنتظم لغرابته فى سلك الأمثال ﴿ عند الله ﴾ أى فى تقديره وحكمه ﴿ كمثل آدم ﴾ أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع ﴿ خلقه من تراب ﴾ تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبهة الخصوم فإن إنكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم مما لا يكاد يصح والمعنى خلق قالبه من تراب ﴿ ثم قال له كن ﴾ أى أنشأه بشرا كما فى قوله تعالى ثم (أنشأناه خلقا آخر) أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخى المخبر به ﴿ فيكون ﴾ حكاية حال ماضية ، روى أن وفد نجران قالوا لرسول صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول إنه عبد قال أجل هو عبد الله

---

(١) فى ط : متجاوزون عن الحدود

ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب فحيث سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام إن آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الحق من ربك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق أى ماقصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف إما حال أى كائنا من ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أى الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإيذان بأن تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنه الأمر ترتبة له عليه الصلاة والسلام ولطف به ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ فى ذلك والخطاب إما للنبى صلى الله عليه وسلم على طريقة الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت والإشعار بأن الامتراء فى المحذورية بحيث ينبغى أن أن ينهى عنه من لايكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء وإما لكل من له صلاحية الخطاب ﴿ فمن حاجك ﴾ أى من النصارى إذ هم المتصدرون[1] للمحاجة ﴿ فيه ﴾ أى فى شأن عيسى عليه السلام وأمه زعماً منهم أنه ليس على الشأن المحكى ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ أى ما يوجبه إيجابا قطعيا من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عما هم عليه من الغى والضلال ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أى هلموا بالرأى والعزيمة ﴿ ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهن وأما النساء فتعلقهن من جهة أخرى ﴿ ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المهالك ومظان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للإيذان بكمال أمنه عليه الصلاة والسلام وتمام

(١) فى ط : المقصدون .

ثقته بأمره وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم فى ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر فى تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين فى كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل فى الصيغة فإن غير المتكلم تبع له فى الإسناد .

﴿ ثم نبتهل ﴾ أى نتباهل بأن نلعن الكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قولهم بهلت الناقة أى تركتها بلا صرار ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه ، روى أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما خلوا[1] قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضناً[2] الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ وهو يقول إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولايبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين » فأبوا قال عليه الصلاة والسلام « فإنى أناجزكم » فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ألا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفا فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال « والذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لا عنوا

---

(١) فى ط : تخالوا .

(٢) فى ١٠ : ومعه .

لمسخوا قردة وخنازير ولا ضطرم عليهم الوادى نارا ولا ستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا .

﴿ إن هذا ﴾ أى ماقص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام ﴿ لهو القصص الحق ﴾ دون ما عداه من أكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب إلى المبتدأ من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقرىء لهو بسكون الهاء والقصص خبر إن والحق صفته أو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لأن ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم ﴿ وإن الله لهو العزيز ﴾ القادر على جميع المقدورات ﴿ الحكيم ﴾ المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى القدرة والحكمة ليشاركه فى الألوهية ﴿ فإن تولوا ﴾ عن التوحيد وقبول الحق الذى قصصنا[1] عليك بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أى بهم وإنما وضع موضعه ما وضع للإيذان بأن الإعراض عن التوحيد والحق الذى لا محيد عنه بعدما قامت به الحجج إفساد للعالم وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى ﴿ أن لا نعبد إلا الله ﴾ أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿ ولا نشرك به شيئاً ﴾ ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا ، روى أنه لما نزلت اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذاك ﴿ فإن تولوا ﴾ عما

(١) فى ط : قص

دعوتهم إليه من التوحيد وترك الإشرك ﴿فقولوا﴾ أى قل لهم أنت والمؤمنون ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام .

﴿تنبيه﴾ انظر إلى ما روعى فى هذه القصة من المبالغة فى الإرشاد وحسن التدرج فى المحاجة حيث بين أولا أحوال عيسى عليه السلام وما توارد عليه من الأطوار المنافية للإلهية ثم ذكر كيفيه دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام فلما ظهر عندهم دعوا إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائر الانبياء عليهم والسلام والكتب ثم لما ظهر عدم إجدائه أيضاً أمر بأن يقال لهم اشهدوا بأنا مسلمون ﴿يا أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿لم تحاجون فى إبراهيم﴾ أى فى ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى فى إبراهيم عليه السلام وزعم كل منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم ﴿وما أنزلت التوارة﴾ على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿والإنجيل﴾ على عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلا من بعده﴾ حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنه وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بينت بجملة مستأنفة إشعاراً بكمال غفلتهم أى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى حيث ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ فى الجملة حيث وجدتموه فى التوارة والإنجيل .

﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أصلا إذلا ذكر لدين إبراهيم فى أحد الكتابين قطعا وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاججتم صلته وقيل ها أنتم أصله

أأنتم على الاستفهام للتعجب قبلت الهمزة هاء ﴿ والله يعلم ﴾ ماحاججتم فيه أوكل شيء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿ وأنتم لاتعلمون ﴾ أى محل النزاع أو شيئاً من الأشياء التى من جملتها ذلك ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ ولكن كان حنيفا ﴾ أى مائلا عن العقائد الزائغة كلها ﴿ مسلما ﴾ أى منقاداً لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ أى أقربهم إليه وأخصهم به ﴿ للذين اتبعوه ﴾ أى فى زمانه ﴿ وهذا النبى والذين آمنوا ﴾ لموافقتهم له فى أكثر ما شرع لهم على الأصالة وقرىء والنبى بالنصب عطفا على الضمير فى اتبعوه وبالجر عطفا على إبراهيم ﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم فى النبى صلى الله عليه وسلم بدلالة النص ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذاً إلى اليهودية ولو بمعنى أن ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ جملة حالية جيء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ماهم عليه من الدين القويم أى ومايتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا إليهم لما أنه يضاعف به عذابهم. وقيل وما يضلون إلا أمثالهم ويأباه قوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ أى باختصاص وباله وضرره بهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ أى بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أى والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله أوبالقرآن وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ بتحريفكم وإبراز الباطل فى صورته أو بالتقصير فى التمييز بينهما وقرىء تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كما فى قوله عليه

السلام كلابس ثوبى زور ﴿ وتكتمون الحق ﴾ أى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حقيته ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾ وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم ﴿ آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا ﴾ أى أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل عليهم ﴿ وجه النهار ﴾ أى أوله ﴿ واكفروا ﴾ أى أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به ﴿ آخره ﴾ مرائين لهم أنكم آمنتم به بادىء الرأى من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم عنه ﴿ لعلهم ﴾ أى المؤمنين ﴿ يرجعون ﴾ عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من أحبار خيبر اتفقوا على أن[1] يدخلوا فى الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوارة لعل أصحابه يشكون فيه .

﴿ ولا تؤمنوا ﴾ أى لا تقروا بتصديق قلبى ﴿ إلا لمن تبع دينكم ﴾ أى لأهل دينكم أو لا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم من قبل فإن رجوعهم أرجى وأهم ﴿ قل إن الهدى من الله ﴾ يهدى به من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ متعلق بمحذوف أى دبرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) اعتراض مفيد لكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبر إن على أن هدى الله بدل من الهدى وقرىء أن يؤتى على الاستفهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الأول

---

(١) فى ط : تقاولوا بأن .

أى لأن يؤتى أحد الخ دبرتم وقرىء أن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم والواو ضمير أحد لأنه فى معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ رد لهم وإبطال لما زعموه بالحجة الباهرة ﴿يختص برحمته﴾ أى يجعل رحمته مقصورة على ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ومن أهل الكتاب﴾ شروع فى بيان خيانتهم فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبما مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ خبره قوله تعالى ﴿من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ على أن المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث إن تأمنه بقنطار أى بمال كثير يؤده إليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداها إليه[1] ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة والخائنون فى القليل اليهود إذ الغالب فيهم الخيانة ﴿إلا ما دمت عليه قائما﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغا فى مطالبته بالتقاضى وإقامة البينة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد

---

(١) فى ط فأداه إليه

﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قالوا ليس علينا فى الأميين ﴾ أى فى شأن من ليس من أهل الكتاب ﴿ سبيل ﴾ أى عتاب ومؤاخذة ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله مامن شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى ﴾ إثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى ﴿ من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ استئناف مقرر للجملة التى سد بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء إلى من ومشعر بأن التقوى ملاك الأمر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى ﴿ إن الذين يشترون ﴾ أى يستبدلون ويأخذون ﴿ بعهد الله ﴾ أى بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالأمانات ﴿ وأيمانهم ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ ثمنا قليلا ﴾ هو حطام الدنيا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ لا خلاق ﴾ لا نصيب ﴿ لهم فى الآخرة ﴾ من نعيمها ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ أى بما يسرهم أو بشىء أصلا وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ والتقريع فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى ﴿ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ فإنه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره بصره[1] ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن

---

(١) فى ط : ١١ وأعاره نظره .

ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرد المعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوزعليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أى لا يثنى عليهم أو لا يطهرهم من أوضار الأوزار ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ على ما فعلوه من المعاصى قيل إنها نزلت فى أبى رافع ولبابة ابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت فى الأشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع فى بئر فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهداك أو يمينه فقال الأشعث إذن يحلف ولا يبالى فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به . ﴿ وإن منهم ﴾ أى من اليهود المحرفين ﴿ لفريقا ﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ أى يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف أو يعطفونها بشبه الكتاب وقرىء يلوون بالتشديد ويلؤن بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على ما قبلها من الساكن ﴿ لتحسبوه ﴾ أى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى (يلوون) الخ وقرىء بالياء والضمير للمسلمين ﴿ من الكتاب ﴾ أى من جملته وقوله تعالى ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ حال من الضمير المنصوب أى والحال أنه ليس منه فى نفس الأمر وفى اعتقادهم أيضاً ﴿ ويقولون ﴾ مع ما ذكر من اللى والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض ﴿ هو ﴾ أى المحرف ﴿ من عند الله ﴾ أى منزل من عند الله ﴿ وما هو من عند الله ﴾ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضاً وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكمال جرأتهم ما لا يخفى وإظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول .

﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس

رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم ﴿ما كان لبشر﴾ بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وإبطال له إثر بيان افترائهم على الله سبحانه وإبطاله أى ما صح وما استقام لأحد وإنما قيل لبشر إشعارا بعلة الحكم فإن البشرية منافية للأمر الذى أسنده الكفرة إليهم ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ الناطق بالحق الآمر بالتوحيد الناهى عن الإشراك ﴿والحكم﴾ هو[1] الفهم والعلم أو الحكمة وهى السنة والنبوة .

﴿ثم يقول﴾ ذلك البشر ما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شئونه العالية ﴿للناس كونوا عباداً لى﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لعباد[2] أى عباداً كائنين ﴿من دون الله﴾ متعلق بلفظ عبادا لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف أى متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالا أو اشتراكا فان التجاوز متحقق فيهما حتما قيل أن أبا رافع القرظى والسيد النجرانى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ الله أن يعبد غير الله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت وقيل قال رجل من المسلمين يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال عليه السلام لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ﴿ولكن كونوا﴾ أى ولكن يقول كونوا ﴿ربانيين﴾ الربانى منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحيانى والرقبانى وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أى بسبب مثابرتكم على تعليم

---

(١) سقطت من ط . (٢) فى ط : عبادا .

الكتاب ودراسته أى قراءته فإن جعل خبر كان مضارعا لإفادة الاستمرار المتجدد[١] وتكرير بما كنتم للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثانى لمن دونهم وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الإدراس بمعنى التدريس كأكرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس .

﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ بالنصب عطفا على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله تعالى (ما كان لبشر) أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارعة إلى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه إثر تنزيهه عما لا يليق بشأنه ويمتنع صدوره عنه وأما ما قيل من أنها غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أربابا بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقضى بفساده ما ذكر من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وكذا قوله تعالى ﴿أيأمركم بالكفر﴾ فإنه صريح فى أن المراد بيان انتفاء كلا الأمرين قصدا لا بيان انتفاء الأول لانتفاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدأ أى وهو لا يأمركم إلى آخره بين الفساد لما عرفته آنفا وقوله تعالى ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود عليه السلام ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى أذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم .

﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به

---

(١) فى ط : التجددى .

ولتنصرنه ﴾ قيل هو على ظاهره وإذا كان هذا حكم الأنبياء عليهم السلام كان الأمم بذلك أولى وأحرى وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكرهم وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الفاعل والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل أو سماهم نبيين تهكما بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام فى لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية وقرىء لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعنى أخذه الذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرىء لما بمعنى حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالا .

﴿ قال ﴾ أى الله تعالى بعد ما أخذ الميثاق ﴿ أأقررتم ﴾ بما ذكر ﴿ وأخذتم على ذلكم إصرى ﴾ أى عهدى سمى به لأنه يؤصر أى يشد وقرىء بضم الهمزة إما لغة كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ أقررنا ﴾ وإنما لم يذكر أخذهم الإصرار اكتفاء بذلك ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ فاشهدوا ﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أى وأنا أيضاً على إقراركم ذلك وتشاهدكم به[1] شاهد وإدخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير ما لا يخفى ﴿ فمن تولى ﴾ أى أعرض عما ذكر ﴿ بعد ذلك ﴾ الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة فمعنى البعد فى اسم الإشارة لتفخيم الميثاق ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد فى تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة

---

(١) سقطت من ط.

على ترامى أمرهم فى السوء وبعد منزلتهم فى الشر والفساد أى فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿ هم الفاسقون ﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فإن الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد .

﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ عطف على مقدر أى أيتولون فيبغون غير دين الله وتقديم المفعول لأنه المقصود إنكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار وقرىء بتاء الخطاب على تقدير وقل لهم ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض ﴾ جملة حالية مفيدة لوكادة الإنكار ﴿ طوعا وكرها ﴾ أى طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون على الامتناع عما قضى عليهم ﴿ وإليه يرجعون ﴾ أى من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرىء بتاء الخطاب والجملة إما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية وإما مستأنفة سيقت التهديد والوعيد ﴿ قل آمنا بالله ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالإيمان بما ذكر وجمع الضمير فى قوله تعالى ﴿ وما أنزل علينا ﴾ وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه إليهم أو لأن المنسوب إلى واحد من الجماعة قد ينسب إلى الكل أو عن نفسه فقط وهو الأنسب بما بعده والجمع لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الأمر عاما والإفراد لتشريفه عليه عليه السلام والإيذان بأنه عليه السلام أصل فى ذلك كما فى قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) .

﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ من الصحف والنزول كما يعدى بإلى لانتهائه إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وإلى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى إلى قوله تعالى : (بما أنزل إليك الخ)

وقوله (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) الخ وإنما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولا لأنه المعروف له والعيار عليه والأسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الإثنا عشر وذراريهم فإنهم حفدة إبراهيم عليه السلام ﴿ وماأوتىموسىوعيسى ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما ينبىء عنه إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿ والنبيون ﴾ عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أى وما أوتى النبيون من المذكورين وغيرهم ﴿ من ربهم ﴾ من الكتب والمعجزات ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقية ما أنزل إليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) وهمزة أحدا ما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس وإما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وغيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير إذ جاء سالما أبو حجر إلا ليـال قلائل

أى بين الخير وبينى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى منقادون أو مخلصون أنفسنا له تعالى[1] لا نجعل له شريكا فيها وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمعزل عن ذلك ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ﴾ أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل

(١) سقطت من ط .

الكتابين ﴿ دينا ﴾ ينتحل إليه وهو نصب على مفعول ليبتغ وغير الإسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا أوهو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الإبهام أو بدل من غير الإسلام ﴿ فلن يقبل ﴾ ذلك ﴿ منه ﴾ أبدا بل يرد أشد رد وأقبحه ، وقوله تعالى ﴿ وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ إما حال من الضمير المجرور أو استئناف لامحل له من الإعراب أى من الواقعين فى الخسران والمعنى أن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفى قبول كل دين يغايره لاقبول كل ما يغايره .

﴿ كيف يهدى الله ﴾ إلى الحق ﴿ قوما كفروا بعد إيمانهم ﴾ قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ﴿ وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله تعالى فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك فى الضلال بعيدعن الرشاد وقيل نفى وإنكار له وذلك يقتضى أن لاتقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على إيمانهم باعتبار انحلاله إلى جملة فعلية كما فى قوله تعالى (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله) الخ فإنه فى قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا بإضمار قد وهو دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الايمان ﴿ والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فيكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه والجملة اعتراضية أو حالية .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ جزاؤهم ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ خبره

والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفى جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فإن الكافر أيضا يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لايعرف الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه ﴿ خالدين فيها ﴾ فى اللعنة أو العقوبة أو النار وإن لم تذكر لدلالة الكلام عليها ﴿ لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون ﴾ أى يمهلون ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾ أى من بعد الارتداد ﴿ وأصلحوا ﴾ أى ما أفسدوا أودخلوا فى الصلاح ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء وقيل نزلت فى الحرث بن سويد حين ندم على ردته فأرسل إلى قومه أن يسألوا هل لى من توبة فأرسل إليه أخوه الجلاس الآية فرجع إلى المدينة فتاب ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا ﴾ كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه الصلاة والسلام التوراة ، ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالإصرار عليه والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازداوا كفرا بقولهم نتربص به ريب المنون أو نرجع إليه فننافقه بإظهار الإيمان .

﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ لأنهم لايتوبون إلا عند إشرافهم على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا فى شأنهم وإبرازا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة أو لأن توبتهم لاتكون إلا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفراً ولذلك لم تدخل فيه الفاء ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ الثابتون على الضلال ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ﴾ لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية زيدت الفاء ههنا للإشعار به وملء الشيء ما يملأ به وذهبا تمييز وقرىء بالرفع على أنه بدل من ملء أو خبر لمحذوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل

فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا أوالعطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيرا لأن المثلين فى حكم شيء واحد ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار إتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لهم عذاب أليم﴾ مؤلم اسم الإشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعتماده على المبتدأ ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية ﴿ومالهم من ناصرين﴾ فى دفع العذاب عنهم أوفى تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد .

﴿لن تنالوا البر﴾ من ناله نيلا إذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم إثر بيان مالا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم[1]. أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الأبرار أولن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته ﴿حتى تنفقوا﴾ أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى ﴿مما تحبون﴾ تبعيضيه ويؤيده قراءة من قرأ بعض ما تحبون وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة أى مماتهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم كما فى قوله تعالى (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أو مما يعمها وغيرها من الأعمال والمهج[2] على أن المراد بالإنفاق مطلق البذل وفيه من الإيذان بعزة منال البر مالايخفى وكان السلف رضى الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله عز وجل ، وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إن أحب أموالى إلى بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام بخ بخ ذاك مال رائح أو رابح وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقسمها فى أقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى

---

(١) فى ط : منهن (٢) فى ط : والمهجة .

سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكأن زيداً وجد فى نفسه وقال إنما أردت أن أتصدق بها[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إن الله تعالى قد قبلها منك . قيل وفيه دلالة على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يشترى له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت إليه أعجبته فقال إن الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فأعتقها . وروى أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان عمر راغبا فيها وكان قد طلبها منها مرارا فلم تعطها إياه ثم لما ولى الخلافة زينتها وأرسلتها إليه فقالت قد وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين ملكتها قالت جئت بها من بيت أبى عبد الملك ففتش عن كيفية تملكها إياها فقيل إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعا بإعطاء المال ثم توجه إلى الجارية وكان يهواها هوى شديدا فقال أنت حرة لوجه الله تعالى فقالت لم يا أمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست إذن ممن نهى النفس عن الهوى ﴿ وما تنفقوا من شىء ﴾ ما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شىء تنفقوا كائنا من الأشياء فإن المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار والمجرور النصب على التمييز أى أى شىء تنفقوا طيبا تحبونه أو خبيثا تكرهونه .

﴿ فإن الله به عليم ﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أى فجازيكم بحسبه جيدا كان أو رديئا فإنه تعالى عليم بكل شىء تنفقونه علما كاملا بحيث

---

(١) ط : به .

(٢) ط : تملكه

لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب فى إنفاق الجيد والتحذير عن إنفاق الردىء مالا يخفى ﴿كل الطعام﴾ أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه ﴿كان حلا لبنى إسرائيل﴾ أى حالا لهم فإن الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى (لاهن حل لهم) ﴿إلا ماحرم إسرائيل على نفسه﴾ استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الإبل وألبانها ، قيل كان به وجع النسا فنذر لئن شفى لا يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه وقيل فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء واحتج به من جوز للنبي الاجتهاد وللمانع أن يقول كان ذلك بإذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ متعلق بقوله تعالى كان حلا ولا ضير فى توسيط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بحرم وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ما عدا المستثنى حلالا لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة لهم وتشديدا وهو رد على اليهود فى دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) الآيتين بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا وتبكيت لهم فى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لإبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها .

﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم إخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم وإظهار اسم التوراة لكون الجملة كلاما مع اليهود منقطعا عما قبله وقوله تعالى :

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف للدلالة المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها فإن صدقكم بما يدعوكم إلى ذلك البتة . روى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحجة النيرة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذى يجحدونه مالا يخفى والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ فمن افترى على الله الكذب ﴾ أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ما ذكر قبل نزول التوراة على بنى إسرائيل و[على][1] من تقدمهم من الأمم ﴿ من بعد ذلك ﴾ من بعد ما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيت والإلزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما أن الإفراد فى الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للإشعار[2] ببعد منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الإفتراء بعد ما ظهرت حقيقة الحال وضاقت عليهم حلبة المحاجة والجدال ﴿ هم الظالمون ﴾ المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة ﴿ قل صدق الله ﴾ أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم وقيل فى قوله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا) الخ أو صدق فى كل شأن من الشئون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ أى ملة الإسلام التى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام فإنكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون أو فاتبعوا ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابدة وتلفيق الأكاذيب لتسوية الأغراض الدنيئة الدنيوية

---

(١) سقطت من ط . (٢) فى ط : للايذان .

وألزمتكم تحريم طيبات محللة لإبراهيم عليه السلام ومن تبعه للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه .

﴿ حنيفا ﴾ أى مائلا عن الأديان الزائغة كلها ﴿وما كان من المشركين﴾ أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض بإشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم عليه السلام فى الأصول لأنه لايدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام إثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلاله عليه السلام روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء [ولكونه][1] فى الأرض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى إن أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى ﴿ للذى ببكة ﴾ خبر لإن وإنما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين الإضافة والوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذى ببكة أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم مالا يخفى وبكة لغة فى مكة فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنبيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب وراتم وسبد رأسه وسمدها وأغبطت الحمى وأغمطت وهى علم للبلد الحرام من بكة إذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وأيد هذا بأن التباك وهو الازدحام إنما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى (للذى

---

(١) سقطت من ط .

بمكة مباركا) . روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة وقيل أول من بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا ما فيه من الأقاويل فى سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لا بالزمان .

﴿ مباركا ﴾ كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف فيه[1] وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن فى الظرف لأن التقدير للذى ببكة هو والعامل فيه ما قدر فى الظرف من فعل الاستقرار ﴿ وهدى للعالمين ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال ﴿ فيه آيات بينات ﴾ واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار ومخالطة ضوارى السباع الصيود فى الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدى أو حال أخرى ﴿ مقام إبراهيم ﴾ أى أثر قدميه عليه السلام فى الصخرة التى كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روى أنه عليه السلام جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسمعيل عليه السلام إنزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه وهو إما مبتدأ حذف خبره أى منها مقام إبراهيم أو بدل من آيات بدل البعض من الكل أو عطف بيان إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا) أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فإن كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء وغوصه فيها إلى

(١) فى ط . دونه .

الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الأعداء ألف سنة آية مستقلة ويؤيده القراءة على التوحيد وإما بما يفهم من قوله عز وجل .

﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ فإنه وإن كان جملة مستأنفة إبتدائية أو شرطية لكنها فى قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام إبراهيم ولايخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمنا) وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب وعن عمر رضى الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ولذلك قال أبو حنيفة رحمة الله تعالى من لزمه القتل فى الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لايؤوى ولايطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج وقيل أمنه من النار وعن النبى صلى الله عليه وسلم من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وعنه عليه الصلاة والسلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران فى الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر وعن النبى صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتى عام .

﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ جملة من مبتدأ هو حج البيت وخبر هو الله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو

حال من الضمير المستكن فى الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر والله متعلق بما تعلق به الخبر ولاسبيل إلى أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوى وذلك مما لامساغ له عند الجمهور وقد جوزه ابن مالك إذا كانت هى ظرفا أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فإنهما يتقدمان على عاملهما المعنوى واللام فى البيت للعهد وحجه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم المصدر وقرىء بفتحها ﴿ من استطاع إليه سبيلا ﴾ فى محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف أى من استطاع منهم وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة إلى الضمير وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أى هم من استطاع الخ وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى وقيل كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد إلى الناس أى من استطاع منهم إليه سبيلا فلله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المجرور فى إليه راجع إلى البيت أو إلى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماما بشأنه كما فى قوله عز وجل (فهل إلى خروج من سبيل) و(هل إلى مرد من سبيل) لما فيه من معنى الإفضاء والإيصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فإنه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة وروى ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال يارسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعى أخذ بظاهره فأوجب الاستنابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الأمر كيف لا والمفسر فى الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع إلى البيت وذا لايتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدرة القوة

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك أنه إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع .

﴿ومن كفر﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتشديد [التكبير][1] على تاركه ولذلك قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال فى خطبته أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا فيها دخولا أوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت فى صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه فى ذمم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والإبهام ثم التبيين والإجمال ثم التفصيل لما فى ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر الذى لا قبيح وراءه وجعل جزاؤه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لا عن تاركه فقط فإنه قد ضرب عنه صفحا إسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل وترك ليدل على نهاية شدة الغضب . هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أى جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فإنهم قالوا الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال إن الله كتب عليكم

---

(١) سقط من ط .

الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه فنزل ومن كفر وعن النبي صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع إلى السماء فى الثالثة وروى حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت وعن عمر رضى الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا .

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى وإنما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة فى تقبيح حالهم فى كفرهم بها وقوله عز وجل ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم الآيات القرآنية التى من جملتها ما تلى فى شأن الحج وغيره وما فى التوراة والإنجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ حال من فاعل تكفرون مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وصيغة المبالغة فى شهيد للتشديد فى الوعيد وكلمة ما إما عبارة عن كفرهم أو هى على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا والمعنى لأى سبب تكفرون بآياته عز وعلا[1] والحال أنه تعالى مبالغ فى الاطلاع على جميع أعمالكم وفى مجازاتكم عليها ولا ريب فى أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتونه ويقطع أسبابه بالكلية ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ أمر بتوبيخهم بالإضلال إثر توبيخهم بالضلال والتكرير للمبالغة فى حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهم كما أن قطع قوله تعالى ﴿لم تصدون﴾ عن قوله تعالى (لم تكفرون) للإشعار بأن كل واحد من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة فى استتباع اللائمة والتقريع وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب

---

(١) فى ط : وجل .

لتأكيد الاستقلال وتشديد التشنيع فإن ذلك العنوان كما يستدعى الإيمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصدهم عنه فى أقصى مراتب القباحة ولكون صدهم فى بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرىء تصدون من أصده .

﴿عن سبيل الله﴾ أى دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو التوحيد وملة الإسلام ﴿من آمن﴾ مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به. كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون إن صفته عليه السلام ليست فى كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا إلى ما كانوا فيه ﴿تبغونها﴾ على إسقاط الجار وإيصال الفعل إلى الضمير كما فى قوله :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارا

بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل ﴿عوجا﴾ اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون وقيل من سبيل الله ﴿وأنتم شهداء﴾ حال من فاعل تصدون باعتبار تقييده بالحال الأولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها إضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما أى شهداء [على][1] أن فى التوراة إن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الإسلام أو وأنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا وعظائم الأمور ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ اعتراض تذييلى فيه تهديد ووعيد شديد قيل لما كان صدهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم

(١) سقط من ط .

مادة حيلتهم من إحاطة علمه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآيه السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون .

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة فى التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فإنه فى قوة أن يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة فى الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فإنه روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودى وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما رأى منهم من تآلف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأى بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للأوس وينشدهم ماقيل فيه من الأشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية إلى قوله تعالى (لعلكم تهتدون) فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون وقوله تعالى كافرين إما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

أوحال من مفعوله والأول أدخل فى تنزيه المؤمنين عن نسبتهم إلى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف العاقل عن مباشرته أو لممانعة الإيمان له كأنه قيل بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿ وكيف تكفرون ﴾ استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) الخ لا بمعنى إنكار الواقع كما فى قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا) الخ وفى توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال أتكفرون لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهانى وقوله تعالى ﴿ وأنتم تتلى عليكم آيات الله ﴾ جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين فى تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما فيها من الشئون الداعية إلى الثبات على الإيمان الرادعة [1] عن الكفر وقوله تعالى ﴿ وفيكم رسوله ﴾ معطوف عليها داخل فى حكمها فإن تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر وعدم إسناد التلاوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيذان باستقلال كل منهما فى الباب .

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ أى ومن يتمسك بدينه الحق الذى بينه على

---

(١) فى ط : الوازعة .

لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الإسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله ﴿ فقد هدى ﴾ جواب للشرط وقد لإفادة معنى التحقيق كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع فيه ظاهر فإن المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للندى ﴿إلى صراط مستقيم﴾ موصل إلى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغون له عوجا وهذا وإن كان هو دينه الحق فى الحقيقة والاهتداء إليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز فى معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشريف إثر تشريف .

خصائص الإسلام

﴿اتقوا الله﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة ﴿حق تقاته﴾ أى حق تقــــواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع فى القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم كما فى قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وعن ابن مسعود رضى الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روى مرفوعا إليه عليه السلام وقيل هو أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه وقيل وهو أن ينزه الطاعة عن الالتفات[1] إليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق فى ذلك عند قوله عز وجل ﴿ هدى للمتقين ﴾ والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما فى تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفا .

﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أى مخلصون نفوسكم لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا كما فى قوله تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله)

---

(١) أى لا يرى نفسه طائعا إلا بتوفيق الله تعالى ولا يلتفت إلى عمله مجردا عن هذا المعنى .

وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حال من الأحوال إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه كما تنبىء عنه الجملة الاسمية ولو قيل إلا مسلمين لم يفد بفائدتها والعامل فى الحال ما قبل إلا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وإن كان نهيا عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أى حال غير حال الإسلام لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فإن النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد ورفع له من أصله بالكلية مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد فإن قولك لا تصل إلا وأنت خاشع يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك لا تترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعما يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل .

﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ أى بدين الاسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم إما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز فى المفردات وإما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب أو الاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه ﴿ جميعا ﴾ حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا أو لا تحدثوا ما يوجب التفرق[1] ويزيل الألفة التى أنتم عليها ﴿ واذكروا

(١) وهى البدع التى فرقت الأمة إلى طوائف وشيع يحكمها الهوى ، وقد حدث ذلك فى القرن الثانى الهجرى ، واشتد خطره ، ثم ضعفت تلك الأهواء وتلاشت تقريبا .

نعمة الله ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل وقوله تعالى ﴿ عليكم ﴾ متعلق به أو بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى ﴿ إذ كنتم ﴾ ظرف له أو للاستقرار فى عليكم أى اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا إنعامه مستقراً عليكم وقت كونكم ﴿ أعداء ﴾ فى الجاهلية بينكم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل هم الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم فوقعت بين أولادهما العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾ بتوفيقكم للإسلام ﴿ فأصبحتم ﴾ أى فصرتم ﴿ بنعمته ﴾ التى هى ذلك التأليف ﴿ إخوانا ﴾ خبر أصبحتم أى إخوانا متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا إخوانا أى فأصبحتم ملتبسين حال كونكم إخوانا .

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها ﴿ فأنقذكم ﴾ بأن هداكم للإسلام ﴿ منها ﴾ الضمير للحفرة أو للنار أو للشفا والتأنيث للمضاف إليه كما فى قوله :

* كما شرقت صــــدر القناة من الدم *

أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبة وأصله شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾ أى دلائله ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ طلبا لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه .

﴿ ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده إثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهى تثبيتا للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الإخلال بها والجمهور على إسكان لام الأمر وقرىء بكسرها على الأصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالأمر أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل وهو أمة ويدعون صفتها أى لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير والأمة هى الجماعة التى يؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أى لتكن منكم أمة داعين إلى الخير وأياما كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ولو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية ولأنها من عظائم الأمور وعزائمها التى لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن معروف ويغلظ فى مقام اللين ويلين فى مقام الغلظة وينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التمادى والإصرار وقيل من بيانية كما فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) الآية والأمر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمه تدعون الآية كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولا يقتضى ذلك كون الدعوة فرض عين فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطاب العام[1] والدعاء إلى الخير عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى :

(١) فى ١٠ : الأعم .

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلهما وعلوهما[1] على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة إما للإيذان بظهوره أى يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم وإما القصد إلى إيجاد نفس الفعل كما فى قولك فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمن عداهم وانتظامهم بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والإفراد فى كاف الخطاب إما لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب وإما لأن التعيين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿ هم المفلحون ﴾ أى هم الأحقاء بكمال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون إما للعهد أو للإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال : « آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم » وعنه عليه السلام « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه » وعنه عليه السلام «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم » وعن على رضى الله عنه « أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن شنأ الفاسقين[2] وغضب لله غضب الله له » والأمر بالمعروف فى الوجوب والندب تابع للمأمور به وأما النهى عن المنكر فواجب

---

(١) فى ط : وإنافتهما ، والمعنى واحد .

(٢) شنأ الفاسقين أى أبغضهم .

كله فإن جميع ما أنكره الشرع حرام[١] والعاصى يجب عليه النهى عما ارتكبه إذ يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيء منهما والتوبيخ فى قوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إنما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخير وإن لم تفعلوا ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا والنصارى فرقا ﴿واختلفوا﴾ باستخراج التأويلات الزائغة وكتم الآيات الناطقة وتحريفها بما أخلدوا إليه من حطام الدنيا الدنيئة ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ أى الآيات الواضحة المبينة للحق للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهى متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالة وإلى أعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول للمختلفين من الأمم السالفة المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات﴾ وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة وقيل هم الحرورية[٢] وعلى كل تقدير فالمنهى عنه إنما هو الاختلاف فى الأصول دون الفروع إلا أن يكون مخالفا للنصوص البينة أو الإجماع لقوله عليه الصلاة والسلام «اختلاف أمتى رحمة» وقوله عليه السلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد».

﴿وأولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما فى حيز الصلة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم﴾ خبره وقوله تعالى ﴿عذاب عظيم﴾ مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين بهم ما لا يخفى ﴿يوم تبيض وجوه﴾ أى وجوه كثيرة وقرىء تبياض ﴿وتسود وجوه﴾ كثيرة وقرىء تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على أنه ظرف للاستقرار فى

---

(١) وهذا الأمر يكتسب الصفة العالمية من عالمية دعوة الإسلام فليس خاصا بالنهى فى مجتمع المسلمين وحدهم.

(٢) لاداعى للتخصيص فكل من أحدث فى الإسلام بدعة فهو داخل فى هذا النوع

لهم أى لثبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات وترغيبا فى الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه وأهـــل الباطل بأضداد ذلك ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ على إرادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إيمان أسلافهم أو إيمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعد ما تمكنوا من الإيمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والأهواء والفاء فى قوله عز وعلا .

﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على أن الأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى ﴿بما كنتم تكفرون﴾ صريح فى أن نفس الذوق معلل بذلك والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه فى الدنيا ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله﴾ أعنى الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى وقرىء ابياضت كما قرىء اسوادت ﴿هم فيها خالدون﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الآى ﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار

وتعذيب الكفار ومعنى البعد للإيذان بعلو شأنها وسمو مكانها فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ آيات الله ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ نتلوها ﴾ جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة أو هى الخبر وآيات الله بدل من اسم الإشارة والالتفات إلى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لإبراز كمال العناية بالتلاوة وقرىء يتلوها على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى وقوله تعالى ﴿ عليك ﴾ متعلق بنتلوها وقوله تعالى ﴿ الحق ﴾ حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أى ملتبسين أو [التلاوة][1] ملتبسة بالحق والعدل ليس فى حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسيء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله ﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله على أبلغ وجه وآكده فإن تنكير الظلم وتوجيه النفى إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بآحاد الجمع المعروف والالتفات إلى الاسم الجليل إشعارا بعلة الحكم وبيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليـــه أى ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين فى وقت من الأوقات فضلا عن أن يظلمهم فإن المضارع كما يفيد الاستمرار فى الإثبات يفيده فى النفى بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعرفة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفى تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفى سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما فى قوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون).

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى له تعالى وحده من غير شركة أصلا ما فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهارا

---

(١) سقطت من ط.

لحقارتهم فى مقام بيان عظمته تعالى ﴿ وإلى الله ﴾ أى إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا ﴿ ترجع الأمور ﴾ أى أمورهم فيجازى كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل فى ذلك لأحد قط فالجملة مقررة لمضمون ما ورد فى جزاء الفريقين وقيل هى معطوفة على ما قبلها مقررة لمضمونه فإن كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى إرادة الخير بهم ﴿ كنتم خير أمة ﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير وكنتم من كان الناقصة التى تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق كما فى قوله تعالى وكان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك فى علم الله تعالى أو فى اللوح أو فيما بين الأمم السالفة وقيل معناه أنتم خير أمة ﴿ أخرجت للناس ﴾ صفة لأمة واللام متعلقة بأخرجت أى أظهرت لهم وقيل بخير أمة أى كنتم خير الناس للناس فهو صريح فى أن الخيرية بمعنى النفع للناس وإن فهم ذلك من الإخراج لهم أيضا أى أخرجت لأجلهم ومصلحتهم قال أبو هريرة رضى الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فتدخلونهم فى الإسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبى قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم فى الإسلام فهم خير أمة للناس .

﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وصيغة المستقبل للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وإن كان خاصا بمن شاهد الوحى من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعم سائر أمته وروى الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم

لا أوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة فى الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم .

﴿ وتؤمنون بالله ﴾ أى إيمانا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وإنما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شىء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان بالله[1] تعالى فى شىء قال تعالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى .

أهل الكتاب والإسلام

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ أى لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وإنما لم يتعرض للمؤمن به أصلا للإشعار بظهور أنه الذى يطلق

---

(١) فى ظ : به تعالى .

عليه اسم الإيمان لايذهب الوهم إلى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا إيمانا فى الجملة لكن إيمان المؤمنين خير منه وهيهات ذلك ﴿ منهم المؤمنون ﴾ جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم كأنه قيل هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ المتمردون فى الكفر الخارجون عن الحدود ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ استثناء مفرغ من المصدر العام أى لن يضروكم أبدا ضرراً ما إلا ضرر أذى لايبالى به من طعن وتهديد لا أثر له ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً من قتل أو أسر ﴿ ثم لاينصرون ﴾ عطف على الشرطية وثم للتراخى فى الرتبة أى لاينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلا وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فإنهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لايقدرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يعبأ به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وإنما لم يعطف نفى منصوريتهم على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفى النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم شأنهم الذى أخبركم عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لاينهضون بعد ذلك بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقى بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر مالقوا .

﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ أى هدر النفس والمال والأهل وذل التمسك بالباطل ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أى وجدوا ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ استثناء من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هى عليه فى جميع الأحوال إلا حال كونهم معتصمين بذمة الله أو كتابه الذى أتاهم وذمة المسلمين أو بذمة الإسلام واتباع سبيل المؤمنين ﴿ وباءوا بغضب من

الله ﴾ أى رجعوا مستوجبين له والتنكير للتفخيم والتهويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والهول أى كائن الله عز وجل ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ فهى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدى المسلمين والنصارى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك الذى ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وتحريفهم لها وبسائر الآيات القرآنية ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أى فى اعتقادهم أيضا وإسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل ﴿ بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فإن الإصرار على الصغائر يفضى الى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى الى الكفر وقيل معناه أن ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة ﴿ ليسوا سواء ﴾ جملة مستأنفة سيقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى ﴿ منهم المؤمنون ﴾ والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة وهو اسم ليس وخبره سواء وإنما أفرد لأنه فى الأصل مصدر والمراد بنفى المساواة نفى المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفى المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أى ليس جميع أهل الكتاب متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإبهام كما أن ما سبق من قوله تعالى (تأمرون بالمعروف) الآية مبين لقوله تعالى (كنتم خير أمة) الخ ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتى نصيبا وافراً من الكتاب لا من أراذلهم والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل هم أربعون رجلا من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمدا عليهما الصلاة والسلام وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى ﴿ يتلون آيات الله ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة وقيل فى محل النصب على أنه حال منها لتخصصها بالنعت والعامل فيه الاستقرار الذى يتضمنه الجار أو من ضميرها فى قائمة أو من المستكن فى الجار لوقوعه خبراً لأمة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى :

﴿ آناء الليل ﴾ ظرف ليتلون أى فى ساعاته جمع أنى بزنة عصا أو إنى بزنة معى ، أو أنى بزنة ظبى ، أو إنى بزنة نحى ، أو أنو بزنة جرو .

﴿ وهم يسجدون ﴾ أى يصلون إذ لا تلاوة فى السجود قال عليه الصلاة والسلام ألا إنى نهيت أن أقرأ راكعا وساجدا وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم آيات الله فى الصلاة مع أنها مشتملة عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آنفا بالكفر بها وهو السر فى تقديم هذا النعت على نعت الإيمان والمراد بصلاتهم التهجد إذ هو أدخل فى مدحهم وفيه تتسنى لهم التلاوة فإنها فى المكتوبة وظيفة الإمام واعتبار حالهم عند

الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة وقيل صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها ليلة ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هى مستأنفة والمعنى أنهم يقومون تارة ويسجدون أخرى يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون فى الصلاة من الخضوع لله عز وجل كما فى قوله تعالى: (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما فى قوله تعالى : (ولله يسجد ما فى السموات والأرض) ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع والإطلاق للإيذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الإيمان بهما فلا[1] يذهب الوهم إلى غيره وللتعريض بأن إيمان اليهود بهما مع قولهم عزيز ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما فى شىء أصلا ولو قيد بما ذكر فربما توهم[2] أن المنتفى عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم بالأصل وهيهات .

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير إثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم فى فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله

---

(١) فى ط : لا يذهبه . (٢) فى ط : لربما توهم .

فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ﴿ ويسارعون فى الخيرات ﴾ صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب فى الأمر سارع فى توليه والقيام به وآثر الفور على التراخى أى يبادرون مع كمال الرغبة فى فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم إلى الشرور وإيثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة) الخ للإيذان بأنهم مستقرون فى أصل الخير متقلبون فى فنونه المترتبة فى طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الأمة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل وإيثاره على الضمير للإشعار بعلة الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها ﴿ من الصالحين ﴾ أى من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ كائنا ما كان مما ذكر أو لم يذكر ﴿ فلن يكفروه ﴾ أى لن يعدموا ثوابه البتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر إظهاراً لكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك إثابتهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وتعديته إلى مفعولين بتضمين معنى الحرمان وإيثار صيغة البناء للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب .

﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ تذييل مقرر ما قبله فإن علمه تعالى بأحوالهم يستدعى توفية أجورهم لامحالة ، والمراد بالمتقين إما الأمة المعهودة وضع موضع الضمير العائد إليهم مدحا لهم وتعيينا لعنوان تعلق العلم بهم وإشعاراً بمناط إثابتهم وهو التقوى المنطوية[1] على الخصائص السالفة وإما جنس المتقين عموما وهم مندرجون تحت حكمه اندراجاً أولياً .

---

(١) فى ط : المنطوى .

أعمال الكافرين ونواياهم

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أى بما يجب أن يؤمن به . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم كانت لأجل المال وقيل هم مشركوا قريش فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بماله وقيل أبو سفيان وأصحابه فإنه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد وقيل هم الكفار كافة فإنهم فاخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تدفع عنهم ﴿ أموالهم ولا أولادهم من الله ﴾ أى من عذابه تعالى ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً يسيرا منه أو شيئاً من الإغناء ﴿ وأولئك أصحاب النار ﴾ أى مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ أبدا .

﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحيوة الدنيا ﴾ بيان لكيفية عدم إغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة وماموصولة اسمية حذف عائدها أى حال ما ينفقه الكفرة قربة أومفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة ﴿ كمثل ريح فيها صر ﴾ أى برد شديد فإنه فى الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصى فباءوا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿ فأهلكته ﴾ عقوبة لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثيرا والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث [قوم][1] كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (كمثل الذى استوقد نارا) ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه الريح

---

(١) سقطت من ظ

دون الحرث ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء تنفقون ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بما بينه من ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ لما أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغى وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص إذ الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أى ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة ويأباه أنه قد مر التعرض له تصريحا وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم يظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل إليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما فى قوله :

* ولكن من يبصر جفونك يعشق *

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ﴾ بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام « الأنصار شعار والناس دثار » قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والمحالفة[1] فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة ﴿ من دونكم ﴾ أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم .

﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الاجتناب عنهم

---

(١) فى ظ : الحلف .

أو صفة بطانة يقال آلا فى الأمر إذا أقصر فيه ثم استعمل معدى إلى مفعولين
فى قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخبال
الفساد أى لا يقصرون لكم فى [تمنى][1] الفساد ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ أى تمنوا
عنتكم أى مشقتكم وشدة ضرركم وهو أيضاً استئناف مؤكد للنهى موجب
لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ استئناف
آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لما
أنهم لا يتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من
ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين وقرىء قد بدا البغضاء والأفواه جمع فم وأصله
فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة إليه
فوهى ﴿ وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار
﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين وموالاة
المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أى إن كنتم من أهل العقل
أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة
المذكور عليه .

﴿ ها أنتم أولاء ﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه إظهاراً
لكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء الخطئون فى موالاتهم وقوله تعالى ﴿ تحبونهم
ولا يحبونكم ﴾ بيان لخطئهم فى ذلك وهو خبر ثان لأنتم أو خبر لأولاء والجملة
خبر لأنتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الإشارة
ويجوز أن ينتصب أولاء بفعل يفسره ما بعده وتكون الجملة خبرا ﴿ وتؤمنون
بالكتاب كله ﴾ أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول فى
لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبونهم
وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم

---

(١) سقطت من ط .

﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ نفاقا ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل الغيظ ﴾ أى من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلكم ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فيعلم ما فى صدوركم من العداوة والبغضاء والحنق وهو يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم إن الله تعالى عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى لا تتعجب من إطلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بذات الصدور وقيل هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظا بإعزاز الإسلام وإذلالهم بقوته[1] من غير أن يكون ثمة قول كأنه قيل حدث نفسك بذلك .

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ بيان لتناهى عداوتهم إلى حد أن حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة إما للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة وإما لأن المس مستعار لمعنى الإصابة ﴿ وإن تصبروا ﴾ أى على عدواتهم أو على مشاق التكاليف ﴿ وتتقوا ﴾ ما حرم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه ﴿ لا يضركم كيدهم ﴾ مكرهم وحيلتهم التى دبروها لأجلكم وقرىء لا يضركم بكسر الضاد وجزم الراء على جواب الشرط من ضاره يضيره بمعنى ضره يضره وضمة الراء فى القراءة المشهورة للإتباع كضمة مد ﴿ شيئاً ﴾ نصب على المصدرية أى لا يضركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المجد فى الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئا على الخصم ﴿ إن الله بما يعملون ﴾ فى عداوتكم من الكيد ﴿ محيط ﴾ علما فيعاقبهم على ذلك وقرىء بالتاء الفوقية[2] أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

---

(١) فى ط : وإذلالهم به .
(٢) فى ط : الفوقانية .

غزوة بدر

﴿ وإذ غدوت ﴾ كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة من مضرة كيد الأعداء وإذ نصبت على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أى واذكر لهم وقت غدوك ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه فى تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) الخ والمراد به خروجه عليه السلام إلى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى ﴿ من أهلك ﴾ أى من عند أهلك ﴿ تبوىء المؤمنين ﴾ أى تنزلهم أو تهيء وتسوى لهم ﴿ مقاعد ﴾ ويؤيد قراءته من قرأ تبوىء للمؤمنين والجملة حال من فاعل غدوت لكن لا على أنها حال مقدرة أى ناويا وقاصدا للتبوئة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوئة وما يترتب عليها إذ هو المذكر للقصة وإنما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه إذ حينئذ وقعت التبوئة التى هى العمدة فى الباب إذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتزايلهم عن أحيازهم المعينة لهم عند التبوئة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى ﴿ للقتال ﴾ إما متعلقة بتبوىء أى لأجل القتال وإما بمحذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال أماكنه ومواقفه فإن استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى (فى مقعد صدق) وقوله تعالى (قبل أن تقوم من مقامك) .

روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله عبد الله بن أبى بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم يارسول الله أخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام إنى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها خيراً ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة فتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ أخرج بنا إلى أعدائنا وقال النعمان بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال بقولى أشهد أن لا إله إلا الله وأنى لا أفر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لأمته فلما رأوه كذلك ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحى يأتيه وقالوا اصنع يارسول الله ما رأيت فقال ما ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال فكأنما يقوم بهم القدح إن رأى صدرا خارجا قال تأخر وكان نزوله فى عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ﴿ والله سميع ﴾ لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بضمائركم والجملة اعتراض للإيذان بأنه قد صدر عنهم هناك من الأقوال والأفعال مالا ينبغى صدوره عنهم .

﴿إذ همت﴾ بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير أو ظرف لسميع عليم على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم بالضمائر فى ذلك الوقت إذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت . قال الفراء معنى قولك ضربت وأكرمت زيدا أن زيدا منصوب بهما وأنهما تسلطا عليه معا ﴿طائفتان منكم أن تفشلا﴾ متعلق بهمت والباء محذوفة أى بأن تفشلا أى تجبنا وتضعفا وهما حيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما الجناحان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح إن صبروا فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس فقال ياقوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى فقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس قلما تخلو النفس عنه عند الشدائد ﴿والله وليهما﴾ أى عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز أن تكون حالا من فاعل همت أو من ضميره فى تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما أو همهما به مع كونهما فى ولاية الله تعالى وقرىء والله وليهم كما فى قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ﴿وعلى الله﴾ وحده دون ما عداه مطلقا استقلالا أو اشتراكا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فى جميع أمورهم فإنه حسبهم وإظهار الاسم الجليل للتبرك والتأميل[1] فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى واللام فى المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعى التوكل وموجباته .

﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ جملة مستأنفة سيقت لإيجاب الصبر والتقوى

---

(١) فى ط : والتعليل .

بتذكير ما ترتب عليهما من النصر إثر تذكير ما ترتب على عدمهما من الضرر وقيل لإيجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان رجل اسمه بدر بن كلدة فسمى باسمه وقيل سمى به لصفائه كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع أو الوادى وكانت وقعة بدر فى السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿وأنتم أذلة﴾ حال من مفعول نصركم وأذلة جمع جمع ذليل وإنما جمع قلة للإيذان باتصافهم حينئذ بوصفى القلة و الذلة إذ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان ضعف حالهم فى الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن فى العسكر إلا فرس واحد وقيل فرسان للمقداد ومرثد وتسعون بعيرا وست أدرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء ألف ومعهم مائة فرس وشكة وشوكة ﴿فاتقوا الله﴾ اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له ولذلك قدم عليه فى الذكر وفى ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أى إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ ﴿لعلكم تشكرون﴾ أى راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذى هو الإنعام .

﴿إذ تقول﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام (لهم)[1] وإذ ظرف لنصركم قدم عليه الأمر بالتقوى لإظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذى وقع فيه ما ذكر بعده وما طوى ذكره تعويلا على شهادة الحال مما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أى نصركم وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة

---

(١) سقطت من ط .

قال الشعبي بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر والإمداد في الأصل إعطاء الشيء حالا بعد حال . قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والإعانة يقال فيه أمده يمده إمداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمده مدا ومنه والبحر يمده من بعده سبعة أبحر وقيل المد في الشر كما في قوله تعالى (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) وقوله (ونمد له من العذاب مدا) والإمداد في الخير كما في قوله تعالى (وأمددناكم بأموال وبنين) والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتي مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار العناية بهم والإشعار بعلة الإمداد والمعنى إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة لن للإشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿ من الملائكة ﴾ بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه أي كائنين من الملائكة ﴿ منزلين ﴾ صفة لثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقرىء مبنيا للفاعل من الصيغتين أي منزلين النصر .

﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد لن وتحقيق له أي بلى يكفيكم ذلك ثم وعدهم[(١)] الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال ﴿ إن تصبروا ﴾ على لقاء العدو ومناهضتهم ﴿ وتتقوا ﴾ معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ ويأتوكم ﴾ أي المشركون ﴿ من فورهم هذا ﴾ أي من ساعتهم هذه وهو في الأصل مصدر فارت القدر أي اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لا ريث فيها أصلا ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه ونظم إتيانهم بسرعة في سلك شرطي الإمداد المستتبعين له وجودا وعدما أعني الصبر والتقوى مع تحقق الإمداد لا محالة سواء أسرعوا أو أبطأوا لتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أي حال فرض على أبلغ وجه

---

(١) في ط : وعدلهم .

وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرها بالطريق الأولى فإن هجوم الأعداء وإتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق به تحقق الإمداد إيذانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فلأن يتحقق بدونه أولى وأحرى كما إذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول إن لبستها وبارزت بها الأعداء فضربوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعاً ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ من التسويم الذى هو إظهار سيما الشىء أى معلمين أنفسهم أو خيلهم فقد روى أنهم كانوا بعمائم بيض إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة عمائم صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعهن فى نواصى الخيل وأذنابها روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه تسوموا فإن الملائكة قد تسومت وقرىء مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسويم بمعنى الإسامة .

﴿ وما جعله الله ﴾ كلام مبدأ غير داخل فى حيز القول مسوق[1] من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن الإخبار بوقوع النصر على الإطلاق وتذكير وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الإمداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعيا لكن لم يصرح به تعويلا على تعاضد الدلائل وتآخذ الإمارات والمخايل وإيذانا بكمال الغنى عنه بل احترازا عن شائبة التكرير أو عن إيهام احتمال الخلف فى الوعد المحتوم كأنه قيل عقيب قوله تعالى (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من

(١) فى ١١ : سيق .

الملائكة مسومين) فأمدكم بهم وما جعله الله الخ . والجعل متعد إلى واحد هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدر وأما عوده إلى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزاله التنزيل لأن الهيئة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائية لوجود الإمداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده فى نفسه ولا ريب فى أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الأول معتبر من حيث الكفاية والثانى من حيث الوعد على أن الأول هو الإمداد بثلاثة آلاف وقوله تعالى :

﴿ إلا بشرى لكم ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين وللإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بماله من التأييد الروحانى أى وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عيانا لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون ﴿ ولتطمئن قلوبكم به ﴾ أى بالإمداد وتسكن إليه كما كانت السكينة لبنى إسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدرا مسوقا للتعليل وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للإشارة أيضا إلى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما فى قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفى قصر الإمداد عليهما إشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأى بعض السلف رضى الله عنه وقيل الجعل متعد إلى اثنين وقوله عز وجل إلا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله تعالى شيئا من الأشياء إلا بشارة لكم فاللام فى قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك .

﴿ وما النصر ﴾ أى حقيقة النصر على الإطلاق فيندرج فى حكمة النصر المعهود اندراجا أوليا ﴿ إلا من عند الله ﴾ أى إلا كائن من عنده تعالى من غير

أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وإنما هي مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فإنهم بمعزل من التأثير وإنما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب ﴿ العزيز ﴾ أى الذى لا يغالب فى حكمه وأقضيته وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعلة اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله ﴿ الحكيم ﴾ أى الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة للإيذان بعلة جعل النصر بإنزال الملائكة فإن ذلك من مقتضيات الحكمة [1] البالغة ﴿ ليقطع ﴾ متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصور على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان إنما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك فى تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر فى قوله عز وعلا (وما النصر إلا من عند الله) على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير إلى أن المعلل بالبشارة والاطمئنان إنما هو الإمداد الصورى لا ما فى ضمنه من النصر المعنوى الذى هو ملاك الأمر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبى هو الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر المخصوص المعلل بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد إلا قصر حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند إمداد الملائكة إلا ثابت من عند الله ليقطع أى يهلك وينقص ﴿ طرفا من الذين كفروا ﴾ أى طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿ أو يكبتهم ﴾ أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فإن الكبت شدة غيظ أو وهن يقع فى القلب من كبته بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وقيل الكبت الإصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حينئذ غير مبدلة وأو للتنويع ﴿ فينقلبوا خائبين ﴾

---

(١) فى ط. الحكم.

أى فينهزموا منقطعى الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما فى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا).

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين إثر بيان أن لا تأثير للناصرين وتخصيص النفى برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى وإنما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والكبت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشرى القتال مدخل فى الجملة ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ عطف على يكبتهم والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا [على الكفر] (١) وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخروى المخصوص بأشد الكفرة كفرا وإلا فمطلق التعذيب الأخروى متحقق فى الفريقين الأولين أيضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور فى سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه فى الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشيء من علمهم بحقية الإسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على إصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل إن عتبة بن أبى وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم فنزلت ليس لك من الأمر شيء الآية. كأنه نوع معاتبة على إنكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه

---

(١) سقطت من ط.

بأن منهم من يؤمن فقوله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الأمر أو على شىء بإضمار أن أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شىء أو ليس لك من أمرهم شىء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الأنبارى أن أو بمعنى إلا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتتشفى منهم وأيا ما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد إثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لأن كلا منهما مبنى على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ومنبىء عن سلبه عمن سواه .

وأما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى إذ تقول بدل ثان من إذ غدوت وأن ما حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الإمداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم أما أولا فلأن المشروط بالصبر والتقوى إنما هو الإمداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الإمداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلأنه كان ينبغى حينئذ أن ينعى عليهم جناياتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهورة مع عدم دلالة السباق والسياق عليه بل مع دلالتهما على خلافه مما لا يكاد يسمع وأما ثالثا فلأنه لا سبيل إلى جعل الضمير فى قوله تعالى (وما جعله الله) الخ . عائدا إلى الإمداد الموعود لأنه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية ولا إلى الوعد به على معنى أنه تعالى إنما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع إنجاز الموعود لما أن قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) صريح فى أنه قد وقع الإمداد الموعود لكن أثره إنما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصلا وأما النصر الحقيقى فليس ذلك إلا من عنده تعالى وجعله استئنافا مقرراً لعدم وقوع الإمداد على معنى أن النصر الموعد مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى (ليقطع طرفا)

الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى (من عند الله) من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى (ولقدنصركم الله ببدر) الآية ، مع كون مابينهما من التفصيل متعلقا بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلابد من اعتبار وجود النصر قطعا لأن تفصيل الأحكام المترتبة على وجود شيء بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد فى كلام الناس فضلا عن الكلام المجيد فالحق الذى لامحيد عنه أن قوله تعالى إذ تقول ظرف لنصركم وأن ما حكى فى أثنائه إلى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعا وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى .

﴿ فإنهم ظالمون ﴾ تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل إثر بيان اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريراً لما سبق وتكملة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء أيضاً تغليبا أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا لا مدخل فيه لأحد أصلا فله الأمر كله ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له مشيئة مبنية على الحكمة والمصلحة(١) ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه بعمله مشيئة كذلك وإيثار كلمة من فى الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمته تعالى غضبه وبأنها من مقتضيات الذات دونه فإنه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح فى نفى وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافى له ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى (يغفر لمن يشاء) مع زيادة وفى تخصيص التذييل به دون قرينه من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى .

---

(١) فى ط : الحكم والمصالح .

جهاد النفس وجهاد العـــدو

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا ﴾ كلام مبتدأ مشتمل على ما هو ملاك الأمر فى كل باب لا سيما فى باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جيء به فى تضاعيف القصة مسارعة إلى إرشاد المخاطبين إلى ما فيه وإيذانا بكمال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فإن الأمور المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز فى الدارين على الإطلاق عمدة فى أمر الجهاد عليها يدور فلك النصرة والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا ما لقوا ولعل إيراد النهى عن الربا فى أثنائها لما أن الترغيب فى الإنفاق فى السراء والضراء الذى عمدته الإنفاق فى سبيل الجهاد متضمن للترغيب فى تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس إلى طرق الاكتساب ومن جملتها الربا فنهوا عن ذلك والمراد بأكله أخذه وإنما عبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ ليس لتقييد النهى به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك إذ كان الرجل يربى إلى أجل فإذا حل قال للمدين زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشيء الطفيف ما له بالكلية ومحله بالنصب على الحالية من الربا وقرىء مضعفه ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما نهيتم عنه من الأعمال[1] التى من جملتها الربا ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ راجين للفلاح ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى ما يتعاطونه كان أبو حنيفة رحمة الله تعالى يقول هى أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه ﴿ وأطيعوا الله ﴾ فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ والرسول ﴾ الذى يبلغكم أوامره ونواهيه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ راجين لرحمته . عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة

---

(١) فى ط : من الأمور .

وترغيبا فى الطاعة وإيراد لعل فى الموضعين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد ابن إسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد .

﴿ وسارعوا ﴾ عطف على أطيعوا وقرىء بغير واو على وجه الاستئناف أى بادروا وأقبلوا وقرىء وسابقوا ﴿ إلى مغفرة من ربكم وجنة ﴾ أى إلى ما يؤدى إليهما وقيل إلى الإسلام وقيل إلى التوبة وقيل إلى الإخلاص وقيل إلى الجهاد وقيل إلى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الأمور المأمور بها والمنهى عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أى كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ أى كعرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة فى وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فإن العرض فى العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضى الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿ أعدت للمتقين ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو فى محل النصب على الحالية منها لتخصصها بالصفة أى هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم ﴿ الذين ينفقون ﴾ فى محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو فى حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح للإنفاق أو متروك بالكلية كما فى قولك يعطى ويمنع ﴿ فى السراء والضراء ﴾ فى حالتى الرخاء والشدة واليسر والعسر أو فى الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلون فى حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير .

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ عطف على الموصول والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الإنفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد

الحدث هوالتجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أى حبسه قال المبرد تأويله أنه كتمه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه أى الممسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيمانا ﴿ والعافين عن الناس ﴾ أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته . روى أنه ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم إلا من عفا وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الأمم التى مضت وفى هذين الوصفين إشعار بكمال حسن موقع عفوه عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بمافعلوا بحمزة رضى الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به لأمثلن بسبعين مكانك .

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ اللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين إيذانا بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه السلام بقوله أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك والجملة تذييل يقرر مضمون[1] ما قبلها ﴿ والذين ﴾ مرفوع على الابتداء وقيل مجرورمعطوف على ماقبله من صفات المتقين وقوله تعالى (والله يحب المحسنين) اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما من التفاوت فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر ﴿ إذا فعلوا فاحشة ﴾ أى فعلة بالغة فى القبح كالزنا ﴿ أو ظلموا أنفسهم ﴾ بأن أتوا ذنبا أى ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة ما يتعدى إلى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك قيل قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم إذا أذنب

---

(١) فى ١١ : مقرر مضمون .

أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل إن نبهان التمار أتته امرأة حسناء تطلب منه تمراً فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين أنصارى وامرأة رجل ثقفى كان بينهما مؤاخاة فندم الأنصارى وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسيح فى الجبال تائبا مستغفراً ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت وأياما كان فإطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الزناة انتظاما أوليا ﴿ اذكروا الله ﴾ تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه .

﴿ فاستغفروا لذنوبهم ﴾ بالتوبة والندم والفاء للدلالة على أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة ﴿ ومن يغفر الذنوب ﴾ استفهام إنكارى والمراد بالذنوب جنسها كما فى قولك فلان يلبس الثياب ويركب الخيل لا كلها حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى وقوله تعالى ﴿ إلا الله ﴾ بدل من الضمير المستكن فى يغفر أى لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله خلا أن دلالة الاستفهام عن الانتفاء أقوى وأبلغ لإيذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع إلى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والإشعار بالوعد بالقبول ﴿ ولم يصروا ﴾ عطف على فاستغفروا وتأخيره عنه مع تقدم عدم الإصرار على الاستغفار رتبة لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للمسارعة إليه عقيب ذكره تعالى أو حال من فاعله أى ولم يقيموا أو غير مقيمين ﴿ على ما فعلوا ﴾ أى ما فعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أو على فعلهم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة وأنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من فاعل يصروا أى لم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه والنهى عنه

والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لا يعلم ذلك إذا لم يكن التقصير[1] فى تحصيل العلم به .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين آخرا باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعيد منزلتهم و علو طبقتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ جزاؤهم ﴾ بدل اشتمال منه وقوله تعالى ﴿ مغفرة ﴾ خبر له أو جزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر له والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى (والذين إذا فعلوا) الخ على الوجه الأول وهو الأظهر الأنسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب فى سلك الجزاء إذ على الوجهين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الأولين ما فيه شائبة الذنب حتى يذكر فى مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الإشارة بالآخرين مع اشتراكهما فى حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة الحكم والتشريف ﴿ وجنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ عطف على مغفرة والتنكير المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الأول ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من الضمير فى جزاؤهم لأنه مفعول به فى المعنى لأنه فى قوة يجزيهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ لأن يكون حالا من جنات فى اللفظ وهى لأصحابها فى المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير .

﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك أى ما ذكر من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالأجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وان كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب فى الطاعات والزجر

---

(١) فى ط ٠ عن تقصير ٠

عن المعاصى والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذييل السابق بالأولين وناهيك مضمونهما دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل وبين العاملين الحائزين لأجرتهم وعمالتهم .

عود إلى جهاد الأعداء

﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ رجوع إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو المضى والسنن الوقائع وقيل الأمم والظرف إما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سنها الله تعالى فى الأمم المكذبة كما فى قوله تعالى (وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا) الخ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للأمر بهما وقيل المعنى على الشرط أى إن شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق بفعل النظر والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض لأن الأصل استعماله بالجار .

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما سلف من قوله تعالى قد خلت إلى آخره ﴿ بيان للناس ﴾ أى تبيين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على أنها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أى هذا إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضاً على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعانون من آثار دمارهم وإن لم يكن الكلام مسوقا لهم ﴿ وهدى وموعظة ﴾ أى وزيادة بصيرة وموعظة لكم وإنما قيل ﴿ للمتقين ﴾ للإيذان بعلة الحكم فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم انما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين إلى التقوى والهدى والموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين

إلى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لمآل أمر الناس وسوء مغبته وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وأن يراد به ما يعمهم ويعم[1] غيرهم من المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة أيضاً ما يعم ابتداءهما والزيادة فيهما وإنما قدم كونه بيانا للمكذبين مع أنه غير مسوق له على كونه هدى وموعظة للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لأن أول ما يترتب على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور حال أخلافهم وأما زيادة الهدى أو أصله فأمر مترتب عليه وتخصيص البيان للناس مع شموله للمتقين أيضاً لما أن المراد به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والاقتصار عليهما فى جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما أنهما المقصد الأصلى ويجوز أن يكون تعريف الناس للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظه للمتقين منهم خاصة وقيل كلمة هذا إشارة إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى قد خلت الآية اعتراض للحث[2] على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين وأنت خبير بأن الاعتراض لابد أن يكون مقررا لمضمون ما وقع فى خلاله ومعاينة آثار هلاك المكذبين مما لا تعلق له بحال أحد الأصناف الثلاثة المؤمنين وإن كان باعثا على الإيمان زاجرا عن التكذيب وقيل إشارة إلى القرآن ولا يخفى بعده .

﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا ﴾ تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن مظعون وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الأنصار سبعون رجلا

---

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ط : للبعث .

رضى الله عنهم أى لاتضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولاتحزنوا على من قتل منكم ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق أو وأنتم المعهودون بغاية علو الشان لما أنكم على الحق وقتالكم لله عز وجل وقتلاكم فى الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار ، وقيل وأنتم الأعلون حالا منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالنهى أو بالأعلون وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه أى إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولاتحزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون فإن الإيمان يقتضى العلو لامحالة أو إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى فأنتم الأعلون وأياما كان فالمقصود تحقيق المعلق به كما فى قول الأجير إن كنت عملت لك فأعطنى أجرى ولذلك قيل معناه إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن بقيتم على الإيمان .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرىء بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها ، وقرىء بفتحتين ، وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد ، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لاتضعفوا فإنكم ترجون من الله مالايرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل ﴿ وتلك الأيام ﴾ إشارة إلى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى الأيام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها

أوقات الظفر والغلبة ﴿ نداولها بين الناس ﴾ نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال :

فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أى عاورته فتعاوروه واسم الإشارة مبتدأ والأيام إما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فنداولها خبره أو خبر فنداولها حال من الأيام والعامل معنى اسم الإشارة أو خبر بعد خبر وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله عز وجل ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ إما من باب التمثيل أى ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم كما فى قوله تعالى (ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث أنه موجود بالفعل إذ هو الذى يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث أنه موجود بالقوة وإطلاق الإيمان مع أن المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه للإيذان بأن اسم الإيمان لا ينطلق على غيره والالتفات إلى الغيبة بإسناده إلى اسم الذات المستجمع للصفات لتربيةالمهابة و الإشعار بأن صدرر كل واحد مما يذكر بصدد التعايل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها قوله تعالى (نداولها بين الناس) من المداولة المعهودة الجارية بين فريقى المؤمنين والكافرين واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة إما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة المذكورة عليها لكونها من مبادئها كأنه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر

أمركم وليعلم الخ فإن ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادىء تمييزهم عن غيرهم ومواجب تعلق العلم الأزلى بها من تلك الحيثية وكذا الحال فى باب التمثيل فتأمل وإما على العموم والإبهام للتنبيه على أن العلل غير منحصرة فيما عدد من الأمور وأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من النوائب ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له فى ذلك من الألطاف الخفية ما لا يخطر ببال كأنه قيل نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد التسلية ومزيد التبصرة ما لا يخفى وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الأمم تعيينا أو إبهاما لعدم تعلق الغرض العلمى ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علل سائر أفرادها للإشارة إجمالا إلى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية إليه كأنه قيل نداولها بين الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية إلى تلك الأفراد وليعلم الخ فاللام الأولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الأفراد والثانية باعتبار تقيده بالفرد المعهود وقيل هى متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك .

﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ جمع شهيد أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بيتخذ أو بمحذوف وقع حالا من شهداء أو جمع شاهد أى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الأمم يوم القيامة فمن بيانية لأن تلك الشهادة وظيفة الكل دون المستشهدين فقط وأياما كان ففى لفظ الاتخاذ المنبىء عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ونفى المحبة كناية عن البغض وفى إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم والمراد بهم إما غير الثابتين على الإيمان فالتقرير من حيث أن بغضه تعالى لهم من دواعى إخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم وإما

الكفرة الذين أديل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فإنها مختصة بأوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين وقوله تعالى ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أى ليصفيهم ويطرهم من الذنوب عطف على يتخذ وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين أو ليقترن بقوله عز وجل ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ فإن التمحيص فيه محو الآثار وإزالة الأوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والإذهاب قال المفضل هو أن يذهب الشىء بالكلية حتى لا يرى منه شىء ومنه قوله تعالى (يمحق الله الربا) أى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعا .

﴿ أم حسبتم ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان ما هى الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء وإظهار عزة منالها والخطاب للذين انهزموا يوم أحد وأم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن التسلية ببيان السبب[1] فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها مبادىء الفوز بالمطلب الأسنى والهمزة للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخلوا الجنة ﴾ وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للانكار فإن رجاء الأجر بغير عمل ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقق الأول لتحقق الثانى ضرورة استحالة تحقق شىء

(١) فى ط : العلل .

بدون علمه تعالى به وإيثارها على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد فإنها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان وللإيذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى بها كأنه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وإنما وجه النفى إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط وكان يكفى أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلا وفى كلمة لما إيذان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر فى تأكيد الإنكار وقرىء يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون أو على طريقة إتباع الميم لما قبلها فى الحركة لإبقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين .

﴿ ويعلم الصابرين ﴾ منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع كما فى قولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن أى لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والإتباع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ما هو الأصل فى تحريك الساكن وقرىء يعلم بالرفع على أن الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وأنتم صابرون .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ أى تتمنون الحرب فإنها من مبادىء الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ متعلق بتمنون مبين لسبب إقدامهم على التمنى أى من قبل

أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرىء تلاقوه ﴿ فقد رأيتموه ﴾ أى ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ حال من ضمير المخاطبين وفى إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل إن كنتم صادقين فى تمنيكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم مافعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شىء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة .

﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لانتقاض نفيه بإلا قوله تعالى ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ صفة لرسول منبئة عن كونه فى شرف الخلو فإن خلو مشاركيه فى منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لا محالة كأنه قيل قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبى فإنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا أو يجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس إلا رسولا كسائر الرسل فسيخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر إفراد فإنهم لما استعظموا عدم بقائه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كأنهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الخ كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم براءته عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وأياما كان فالكلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية

والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم بعد وفاته مع كونه سببا فى الحقيقة لثباتهم على الدين وإيراد الموت بكلمة أن مع علمهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم إياه وهكذا الحال فى سائر الموارد فإن كلمة إن فى كلام الله تعالى لاتجرى على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع أو اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أوأمر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذى ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت فى شرف الوقوع فزجر الناس عن النكوص(١) عنده وحملهم على التثبت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام وهو الخلو بالموت دون القتل . روى أنه لما التقى الفئتان حمل أبو دجانة فى نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالا شديداً وقاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه قتالا عظيما حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبى قاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة إليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا إلى نهى أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده إلا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم فى مائتين وخمسين فارسا من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقى من الرماة ودخلوا خلف أقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلا كل منهم يجثو بين يديه ويقول وجهى لوجهك وقاء نفسى لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله بن قميئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يزعم أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمدا وصرخ صارخ قيل إنه إبليس ألا أن محمدا قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عباد الله قال كعب بن مالك

---

(١) فى ط : الانقلاب .

كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فناديت بأعلى صوتى يامعشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحملوه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت ابن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك ياقوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا كراما على ما مات عليه ثم قال اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به[1] هؤلاء ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل وتجويزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) لما أن كل آية ليس يسمعها كل أحد ولا كل من يسمعها يستحضرها فى كل مقام لاسيما فى مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضى الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته عليه الصلاة والسلام وقام فى الناس فقال إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى[2] وأن رسول الله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر ذلك إلى أن قام أبو بكر رضى الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية قال الراوى والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر وقال عمر رضى الله عنه والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضى الله يتلوها فعقرت حتى ماتحملنى رجلاى وعرفت أن

---

(١) المروى : مما صنع .. مما فعل . (٢) فى ١١ قد مات .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ بإدباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده[1] عن الإسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين إلا ما كان من المنافقين .

﴿ فلن يضر الله ﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئا من الضرر وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ أى الثابتين على دين الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار وعن على رضى الله عنه أبو بكر وأصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين ومن أحباء الله تعالى وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم .

﴿ وما كان لنفس أن تموت ﴾ كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لا يكاد يقع بدون تعلقها به وإن خاضت موارد الحتوف واقتحمت مضايق كل هول ومخوف وقد أشير بذلك إلى أنها لم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لإحجامهم عن مباشرة القتال وكلمة كان ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على أنه متعلق بمحذوف .

وقوله تعالى ﴿ إلا بإذن الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أى وما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى على أن الإذن مجاز منها لكونها من لوازمه أو إلا بإذنه لملك الموت فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفوس بصورة

---

(١) فى ١١ بردته .

الأفعال الاختيارية التى لا يتسنى للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالى أو بتنزيل إقدامها على مباديه أعنى القتال منزلة الإقدام على نفسه للمبالغة فى تحقيق المرام فإن موتها حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه أو على مباديه وسعيها فى إيقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر وفيه من التحريض على القتال ما لا يخفى ﴿ كتابا ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى كتبه الله كتابا ﴿ مؤجلا ﴾ مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة وقرىء موجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق أن مناط[1] الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلا أشير إلى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على إرادتهم ليصرفوها عن الأغراض الدنيئة إلى المطالب السنية فقيل .

﴿ ومن يرد ﴾ أى بعمله ﴿ ثواب الدنيا نؤته ﴾ بنون العظمة على طريق الالتفات ﴿ منها ﴾ أى من ثوابها ما نشاء أن نؤتيه إياه كما فى قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يومئذ وقد مر تفصيله ﴿ ومن يرد ﴾ أى بعمله ﴿ ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ أى من ثوابها ما نشاء من الأضعاف حسبما جرى به الوعد الكريم ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هى لأجله من طاعة الله تعالى لا يلويهم عن ذلك صارف أصلا والمراد بهم إما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم وإما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ووعد بالمزيد عليه وفى تصديرها بالسين وإبهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان ما لا يخفى وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء.

﴿ وكأين ﴾ كلام مبتدأ ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم

(١) فى ط : مدار

عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالين[1] عليهم السلام وكأين لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث فى كذا وكذا والنون تنوين أثبتت فى الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هى إحداهن والثانية كائن مثل كاعن والثالثة كأين مثل كعين والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ما قبلها والخامسة كأن مثل كعن وقد قرىء بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿ من نبى ﴾ تمييز لها لأنها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما فى قوله

أطرد اليأس بالرجا فكأين آملا حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى ﴿ قاتل معه ربيون كثير ﴾ خبر لها على أن الفعل مسند إلى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور فى معه وقرىء قتل وقتل على صيغة المبنى للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب إلى الرب كالربانى وكسر الراء من تغييرات النسب وقرىء بضمها وبفتحها أيضاً على الأصل وقيل هو منسوب إلى الربة وهى الجماعة أى كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة[2] فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالا من فاعله كما فى القراءتين الأخيرتين إذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه فى القتال لا فى القتل قال سعيد بن جبير ما سمعنا بنبى قتل فى القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظماء لم يقتل نبى فى حرب قط وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبى والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والرابط هو الضمير المجرور الراجع إليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خوف أى كم نبى قاتل كائنا معه فى القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير ظاهر لا سيما على قراءة التشديد وقد جوزه بعضهم وأيده بأن مدار التوبيخ انخذالهم للإرجاف بقتله عليه السلام أى كم من نبى قتل كائنا معه فى القتل أو فى القتال ربيون الخ وقوله تعالى :

---

(١) فى ط : الخالية .

(٢) فى ١١ كثيرون .

﴿ فما وهنوا ﴾ عطف على قاتل على أن المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فإن الإتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه بحسب الظاهر ولكنه بحسب الحقيقة صنع جديد مصحح لدخول الفاء المرتبة له على ما قبله أى فما فتروا وما انكسرت همتهم ﴿ لما أصابهم ﴾ فى أثناء القتال وهو علة للمنفى دون النفى نعم يشعر بعلته قوله تعالى ﴿ فى سبيل الله ﴾ فإن كون ذلك فى سبيله عز وجل مما يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة أو موصوفة فإن جعل الضميران لجميع الربيين فهى عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاره المعترية للكل وإن جعلا للبعض الباقين بعد ما قتل الآخرون كما هو الأليق(١) بمقام توبيخ المنخذلين بعد ما استشهد الشهداء فهى عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل إخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءتين الأخيرتين فإن أسند الفعل إلى الربيين فالضميران للباقين منهم حتما وإن أسند إلى ضمير النبى كما هو الأنسب بالتوبيخ على الانخذال بسبب الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما للباقين أيضا إن اعتبر كون الربيين مع النبى فى القتل وللجميع إن اعتبر كونهم معه فى القتال ﴿ وما ضعفوا ﴾ عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل فى الدين ﴿ وما استكانوا ﴾ أى وما خضعوا للعدو وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده والألف من إشباع الفتحة أو استكون من الكون لأنه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والإرجاف بقتل النبى صلى الله عليه وسلم وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بابن أبى المنافق فى طلب الأمان من أبى سفيان ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ أى على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره فى سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين إما المعهودين والإظهار

(١) فى ط الأنسب .

فى موضع الإضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والإشعار بعلة الحكم وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وما كان قولهم ﴾ كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ما قبله من الجمل المبينة لمحاسنهم وقولهم بالنصب الفعلية خبر لكان واسمها أن وما بعدها فى قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ما كان قولا لهم عند أى لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال شىء من الأشياء إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى صغائرنا ﴿ وإسرافنا فى أمرنا ﴾ أى تجاوزنا الحد فى ركوب الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط فى جنب الله تعالى هضما لهم واستصغارآ[1] لهممهم وإسنادا لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أى فى مواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ تقريبا له إلى حيز القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتزلزل فى مواقف الحرب ومراصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين مالا يخفى وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن وما فى حيزها أى ما كان قولهم حينئذ شيئاً من الأشياء إلا هذا القول المنبىء عن أحسن[2] المحاسن وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الإخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلا كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل الخبرية هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة

---

(١) فى ط : واستقصاراً .

(٢) فى ط : احاسن .

من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا يخفى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة إجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات فى باب البيان وإنما اختار الجمهور مااختاره لقاعدة صناعية هى أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالإسمية ولا ريب فى أعرفية أن قالوا لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه يشبه المضمر من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به وقولهم مضاف إلى مضمر فهو بمنزلة العلم فتأمل .

﴿ فآتاهم الله ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ ثواب الدنيا ﴾ أى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿ وحسن ثواب الآخرة الحسن وهو الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للإيذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون[1] ما قبله فإن محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وإرادة الخير به فهى مبدأ لكل سعادة واللام إما للعهد وإنما وضع المظهر موضع ضمير المعهودين للإشعار بأن ماحكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيل ما حكى عنهم من المناقب الجليلة .

من دستور الحرب

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة إثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء إفضائها[2] إلى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما فى حيزه ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار

---

(١) فى ١ : يقرر مضمون .

(٢) فى ط : إفضائه .

مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكفر فى قوله تعالى : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ لذلك قصدا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم فوقوع قوله تعالى : ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ جوابا للشرط مع كونه فى قوة أن يقال إن تطيعوهم فى قولهم ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم يدخلوكم فى دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى : ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشىء منهما واقعين فى العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم على انتكاس الأمر ومثل فى الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه فى الدين ويقولون لو كان نبيا حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه ويوما له وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستكانة لهم وقيل الموصول على عمومه والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم فى أمر من الأمور حتى لا يستجروهم إلى الارتداد عن الدين فلا حاجة على هذه التقادير إلى ما مر من البيان .

﴿ بل الله مولاكم ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لا غيره فأطيعوه واستعينوا به عن موالاتهم وقرىء بالنصب كأنه قيل فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله ومولاكم نصب على أنه صفة له ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة ﴿ سنلقى ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتقوية[1] المهابة وقرىء بالياء والسين لتأكيد الإلقاء ﴿ فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسكون العين وقرىء بضمها على الأصل وهو ما قذف فى قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا إلى

---

(١) فى ط : لتربية .

مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فأمسكوا فلا بد من كون نزول الآية فى تضاعيف الحرب أو عقيب انقضائها[1]

وقيل هو ما ألقى فى قلوبهم من الرعب يوم الأحزاب ﴿بما أشركوا بالله﴾ متعلق بنلقى دون الرعب وما مصدرية أى بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعى الرعب ﴿ ما لم ينزل به ﴾ أى بإشراكه ﴿ سلطانا ﴾ أى حجة سميت به لوضوحها وإنارتها أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها فى نفسها من قبيل قوله :

ه ولا ترى الضب بها ينجحر ه

أى لاضب ولا انجحار وفيه إيذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة .

﴿ ومأواهم ﴾ بيان لأحوالهم فى الآخرة إثر بيان أحوالهم فى الدنيا وهى الرعب أى ما يأوون إليه فى الآخرة ﴿ النار ﴾ لاملجأ لهم غيرها ﴿ وبئس مثوى الظالمين ﴾ أى مثواهم وإنما وضع موضعه المظهر المذكور للتغليظ والتعليل والإشعار بأنهم فى إشراكهم ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مثوى الظالمين النار وفى جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز إلى خلودهم فيها فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحا وقيل بنزع الجار أى فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر

---

(١) فى ط : انقضائه .

حيث قال للرماة لاتبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ماثبتم مكانكم وفى رواية أخرى لاتبرحوا عن هذا المكان فإنا لانزال غالبين ما دمتم فى هذا المكان وقد كان كذلك فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى :

﴿ إذ تحسونهم ﴾ أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه إذا أبطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى : ﴿ بإذنه ﴾ أى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى (إن تصبروا وتتقوا) الآية وقد مر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر إمداده عز وجل بإنزال الملائكة عليهم السلام وتقييد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم بإذنه تعالى صريح فى أن الموعود هو النصر المعنوى والتيسير لا الإمداد بالملائكة وقيل هو ما وعده تعالى بقوله سنلقى الخ وأنت خبير بأن إلقاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو بعد ذلك فى الطريق على اختلاف [فى][1] الروايتين وأياً ما كان فلا سبيل إلى كونه مغيا بقوله تعالى ﴿حتى إذا فشلتم ﴾ أى جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف القلب ﴿ وتنازعتم فى الأمر ﴾ فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقفنا ههنا بعد هذا وقال أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه فى نفردون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى :

﴿ وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ أى من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى (أفإن مات أوقتل انقلبتم

---

(١) سقطت من ط

على أعقابكم) وجواب إذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم إلى قسمين كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون إذا شرطية وحتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وقيل إذا اسم كما فى قولهم إذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى إلى المتعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل لقد نصركم الله إلى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى ﴿ ليبتليكم ﴾ أى يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الإيمان عندها ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والإحسان لا بطريق الوجوب عليه أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال أديل عليهم إذ الابتلاء أيضا رحمة والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين إما المخاطبون والإظهار فى موقع الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم وإما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا ﴿ إذ تصعدون ﴾ متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى: ليبتليكم أو بمقدر كما ذكروا والإصعاد الذهاب والإبعاد فى الأرض وقرىء بثلاثى أى فى الجبل وقرىء تصعدون من التفعل بطرح إحدى التاءين وقرىء تصعدون من يصعدون بالالتفات إلى الغيبة .

﴿ ولا تلوون على أحد ﴾ أى لا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لواحد وقرىء تلون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرىء يلوون كيصعدون ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته

سبحانه إشباعا فى توبيخ المنهزمين ﴿ فى أخراكم ﴾ فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى ﴿ فأثابكم ﴾ عطف على صرفكم أى فجازاكم الله تعالى بما صنعتم ﴿ غما ﴾ موصولا ﴿ بغم ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتنكير للتكثير أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى عليه وسلم بعصيانكم له ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضرآت وقيل لا زائدة والمعنى لتتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم وقيل الضمير فى أثابكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى واساكم فى الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يثربكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيسا لكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح وغير ذلك ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى عالم بأعمالكم وبما أردتم[1] بها .

﴿ ثم أنزل عليكم ﴾ عطف على قوله تعالى فأثابكم والخطاب للمؤمنين حقا ﴿ من بعد الغم ﴾ أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الإنزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة كما فى قوله تعالى (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية ﴿أمنة﴾ أى أمنا نصب على المفعولية وقوله تعالى ﴿ نعاسا ﴾ بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة عليه أو مفعول له حال من المخاطبين على تقدير مضاف أى ذو أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة وقرىء بسكون الميم كأنها مرة من الأمن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالإزالة لأنه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متأهبين للقتال فأنزل الله تعالى

(١) فى ط : قصدتم .

عليهم الأمنة فأخذهم النعاس . قال ابن عباس رضي الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم بعد خوف وإنما ينعس من أمن والخائف لا ينام وقال الزبير رضي الله عنه كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم والله إني أسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا وقال أبو طلحة رضي الله عنه رفعت رأسي يوم أحد فجعلت لا أرى أحدا من القوم إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس . قال وكنت ممن ألقي عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي فآخذه ثم يسقط السوط من يدي فآخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبيء عنه قوله عز وجل :

﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكل والجملة في محل النصب على أنها صفة لنعاسا وقريء بالتاء على أنها صفة لأمنة وفيه أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل وعطف البيان وأن لا يفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن يحدث عن البدل دون المبدل منه ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ أي أوقعتهم في الهموم والأحزان أو ما بهم إلا هم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همني الشيء أي كان من همي وقصدي والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ وما بعدها إما خبرها وإنما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما في قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها في موضع التفصيل كما في قوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

وإما صفتها والخبر محذوف أي ومعكم طائفة أو وهناك طائفة وقيل تقديره ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضي دخول المنافقين في الخطاب بإنزال الأمنة

وأيا ما كان فالجملة إما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة فى الخلاص عنه كما فى قوله تعالى (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وإما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل ﴿ يظنون بالله ﴾ حال من ضمير أهمتهم أومن طائفة لتخصصها بالصفة أو صفة أخرى لها أو خبر بعد خبر أو استئناف مبين لما قبله وقوله تعالى ﴿ غير الحق ﴾ فى حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى ﴿ ظن الجاهلية ﴾ بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والإضافة كما فى حاتم الجود ورجل صدق وقوله تعالى :

﴿ يقولون ﴾ بدل من يظنون لما أن مسئلتهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد ﴿ هل لنا من الأمر ﴾ أى من أمر الله ووعده من النصر والظفر ﴿ من شىء ﴾ أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شىء وقوله تعالى ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ أى إن الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون أو أن التدبير كله لله فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له وقرىء كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ يخفون فى أنفسهم ﴾ أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ ما لا يبدون لك ﴾ استئناف أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل إن الأمر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل أى شىء يخفون فقيل يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية ﴿ لو كان لنا من الأمر شىء ﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبة لله تعالى ولأوليائه وأن الأمر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شىء ﴿ ما قتلنا ههنا ﴾ أى ما غلبنا أو ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة على أن النفى راجع إلى نفس القتل لا إلى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن أبى ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى :

﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم ﴾ أى لو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ أى فى اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ إلى مصارعهم التى قدر الله تعالى قتلهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعا فإن قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعين زمانه أيضا لقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال أرسلنى مع الريح إلى عالم آخر فإنى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فما لبث أن عاد ملك الموت إلى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل هذا إليها وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير إخلال بشىء من ذلك وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرىء كتب عليهم القتال وقرىء لبرز بالتشديد على البناء للمفعول ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم ﴾ أى ليعاملكم معاملة من يبتلى ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للإيذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى الخ وجعلها عللا لبرز يأباه الذوق السليم فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض أو الفعل مقدر بعدها أى وللابتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتقدير الفعل مقدما خال عن هذه المزية .

﴿ وليمحص ما فى قلوبكم ﴾ من مخفيات الأمور ويكشفها أو يخلصها من الوساوس ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أى السرائر والضمائر الخفية التى لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة إما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غنى عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين أو حال من متعلق الفعلين أى فعل ما فعل للابتلاء والتمحيص والحال أنه تعالى غنى عنهما محيط بخفيات الأمور وفيه وعد ووعيد ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ وهم الذين انهزموا يوم أحد حسبما مرت حكايتهم ﴿ إنما استزلهم الشيطان ﴾ أى إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ﴿ ببعض ما كسبوا ﴾ من الذنوب والمعاصى التى هى مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فحرموا التأييد وقوة القلب وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فإن المعاصى يجر بعضها إلى بعض كالطاعة وقيل استزلهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿ إن الله غفور ﴾ للذنوب ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفى إظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ وهم المنافقون القائلون ولو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا وإنما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال المؤمنين وتنفيراً عن مماثلتهم آثر ذى أثير وقوله تعالى .

﴿ وقالوا لإخوانهم ﴾ تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لأجلهم وفى حقهم ومعنى أخوتهم اتفاقهم نسباً أو مذهباً ﴿ إذا ضربوا فى الأرض ﴾ أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها وإيثار إذا المفيدة لمعنى الاستقبال على إذا المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذى عليه يدور أمر استحضار الصورة . قال الزجاج إذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان وما يستقبل يعنى أنها لمجرد الوقت أو يقصد

بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم إنما هى باعتبار ما وقع فيهما بل التحقيق أنها ظرف له لا لقولهم كأنه قيل قالوا لأجل ما أصاب إخوانهم حين ضربوا الخ ﴿ أو كانوا ﴾ اى إخوانهم ﴿ غزا ﴾ جمع غاز كعفى جمع عاف قال :

ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى لها قلب عافى الحياض أجون

وقرىء بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الأرض لأنه المقصود بيانه فى المقام وذكر الضرب فى الأرض توطئه له وتقديمه لكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الأرض إذ المراد به السفر البعيد وإنما لم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزا فيما مضى وقوله تعالى ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أى مقيمين ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ مفعول لقالوا دليل على أن هناك مضمراً قد حذف ثقه به أى إذا ضربوا فى الأرض فماتوا أو كانوا غزا فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى إلى قوله عز وجل :

﴿ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ﴾ فإنه الذى جعل حسرة فيها قطعا وإليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج أنه إشارة إلى ظنهم أنهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار ما فيه من الحكم والاعتقاد واللام لام للعاقبة كما فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلا وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك كما مر إشارة إلى مادل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون إشارة إلى مادل عليه النهى أى لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فإن مضادتكم لهم فى القول والاعتقاد مما يغمهم

ويغيظهم ﴿ والله يحي ويميت ﴾ رد لباطلهم[1] إثر بيان غائلته أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك فإنه تعالى قد يحي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرىء بالياء على أنه وعيد الذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذى هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة فى التهديد والتشديد فى الوعيد .

﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم ﴾ شروع فى تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت فى سبيل الله تعالى ليس مما ينبغى أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون إثر إبطال ترتبه عليهما واللام هى الموطئة للقسم وما فى قوله تعالى ﴿ لمغفرة من الله ورحمة ﴾ لام الابتداء والتنوين فى الموضعين للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للمبتدأ وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل أصلا ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء وقرىء بالتاء أى مما تجمعونه أنتم لو لم تموتوا والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للإخبار بحصولها لهم للإيذان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد الإطماع وقد قيل لا بد من حذف آخر أى لمغفرة لكم من الله الخ وحينئذ يكون أيضاً إخراج المقدر مخرج الصفة دون الخبر لنحو ما ذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الإخبار به وتغيير الترتيب الواقع فى قولهم

(١) فى ط : لقولهم الباطل

ما ماتوا وما قتلوا المبنى على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة فى الترغيب فى الجهاد ببيان زيادة مزية القتل فى سبيل الله وإنافته فى استجلاب المغفرة والرحمة وفيه دلالة واضحة على ما مر من أن المقصود بالنهى إنما هو عدم مماثلتهم فى الاعتقاد بمضمون القول المذكور والعمل بموجبه لا فى النطق به وإضلال الناس به .

﴿ ولئن متم أو قتلتم ﴾ أى على أى وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الإرادة الإلهية وقرىء متم بكسر الميم من مات ﴿ لإلى الله ﴾ أى إلى المعبود بالحق العظيم الشأن الواسع الرحمة الجزيل الإحسان ﴿ تحشرون ﴾ لا إلى غيره فيوفيكم أجوركم ويجزل عطاءكم والكلام فى لامى الجملة كما مر فى أختها ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبىء عنه السياق من استحقاقهم للائمة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته والباء متعلقة بلنت قدمت عليه للقصر وما مزيدة للتوكيد أو نكرة ورحمة بدل منها مبين لإبهامها[1] والتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمة أى فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهى ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بهم حيث اغتممت لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو.

﴿ ولو ﴾ لم تكن كذلك بل ﴿ كنت فظا ﴾ جافيا فى المعاشرة قولا وفعلا وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق وقال الواحدى هو الغليظ الجانب السىء الخلق ﴿ غليظ القلب ﴾ قاسيه وقال الكلبي فظا فى القول غليظ القلب فى الفعل ﴿ لانفضوا من حولك ﴾ لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك وتردوا فى مهاوى الردى والفاء فى قوله عز وجل ﴿ فاعف عنهم ﴾ لترتيب العفو أو الأمر به على ما قبله أى إذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم ﴿ واستغفر لهم ﴾ الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماما للشفقة عليهم وإكمالا

---

(١) فى ١١ : لبيان إبهامها .

للبربهم ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ أى فى أمر الحرب إذ هو المعهود أو فيه وفى أمثاله مما تجرى فيه المشاورة عادة استظهارا بآرائهم وتطييبا لقلوبهم وتمهيدا لسنة المشاورة للأمة وقرئ وشاورهم فى بعض الأمر .

﴿ فإذا عزمت ﴾ أى عقيب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك ﴿ فتوكل على الله ﴾ فى إمضاء أمرك على ما هو أرشد لك وأصلح فإن علمه مختص به سبحانه وتعالى وقرئ فإذا عزمت على صيغة التكلم أى عزمت لك على شئ وأرشدتك إليه فتوكل على ولا تشاور بعد ذلك أحدا والالتفات لتربية المهابة وتعليل التوكل أو الأمر به فإن عنوان الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى أو الأمر به ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم[1] والجملة تعليل للتوكل عليه تعالى وقوله تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفا للمؤمنين لإيجاب توكلهم عليه تعالى وحثهم على اللجأ إليه وتحذيرهم عما يفضى إلى خذلانه أى إن ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم على طريق نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد الغالب ذاتا وصفة ولو قيل فلا يغلبكم أحد لدل على نفى الصفة فقط ثم المفهوم من ظاهر النظم الكريم وإن كان نفى مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة أيضاً وهو الذى يقتضيه المقام لكن المفهوم منه فهما قطعيا هو نفى المساواة وإثبات الغالبية للمخاطبين فإذا قلت لا أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمفهوم منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا أمر مطرد فى جميع اللغات ولا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام الإنكارى كما فى قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فى مواقع كثيرة من التنزيل ومما هو نص قاطع فيما ذكرنا ما وقع فى سورة هود حيث قيل بعده

---

(١) فى ط : خير لهم وصلاح .

فى حقهم لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون فإن كونهم أخسر من كل خاسر يستدعى قطعا كونهم أظلم من كل ظالم .

﴿ وإن يخذلكم ﴾ كما فعل يوم أحد وقرئ يخذلكم من أخذله إذا جعله مخذولا ﴿ فمن ذا الذى ينصركم ﴾ استفهام إنكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد خذلانه تعالى أو من بعد الله تعالى على معنى إذا جاوزتموه ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة قصره عليه تعالى والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به على ما مر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم فإن العلم بذلك مما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى لا محالة والمراد بالمؤمنين إما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولا أوليا وإما هم خاصة بطريق الالتفات وأياما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الإيمان اشتراكا أو استقلالا وتعليل لتحتم التوكل عليه تعالى فإن وصف الإيمان مما يوجبه قطعا ﴿ وما كان لنبى ﴾ أى وما صح لنبى من الأنبياء ولا استقام له ﴿ أن يغل ﴾ أى يخون فى المغنم فإن النبوة تنافيه منافاة بينة يقال غل شيئا من المغنم يغل غلولا وأغل إغلالا إذا أخذه خفية والمراد إما تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز وأفاضوا فى الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا فقال عليه السلام بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم بينكم وأما المبالغة فى النهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى أنه بعث طلائع فغنم النبى صلى الله عليه وسلم بعدهم غنائم فقسمها بين الحاضرين[1] ولم يترك للطلائع شيئاً فنزلت .

---

(١) فى ط : الحاضر .

والمعنى ما كان لنبي أن يعطى قوما من العسكر ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا وأما ما قيل من أن المراد تنزيهه عليه السلام عما تفوه به بعض المنافقين اذ روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فبعيد جدا وقرئ على البناء للمفعول والمعنى ما كان له أن يوجد غالا أو ينسب إلى الغلول .

﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ يأت بالذى غله بعينه يحمله على عنقه كما ورد فى الحديث الشريف وروى أنه عليه السلام قال ألا لا أعرفن أحدكم يأتى ببعير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء فينادى يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك أو يأت بما احتمل من إثمه ووباله ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى تعطى وافيا جزاء ما كسبت خيراً أو شرا كثيرا أو يسيرا ووضع المكسوب موضع جزائه تحقيقا للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب كما وكيفا كأنهما شئ واحد وفى إسناد التوفية إلى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند إتيانه بما غله يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلعه والمبالغة فى بيان فظاعة حال الغال مالا يخفى فإنه حيث وفى كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص منه شيء وإن كان جرمه فى غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شيء وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلى ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عقاب أو بنقص ثواب .

﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ أى سعى فى تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبي ومن يسير بسيرته ﴿ كمن باء ﴾ أى رجع ﴿ بسخط ﴾ عظيم لا يقادر قدره كائن ﴿ من الله ﴾ تعالى بسبب معاصيه كالغال ومن يدين بدينه والمراد تأكيد نفى الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام

وتقريره بتحقيق المباينة الكلية بينه وبين الغال حيث وصف كل منهما بنقيض ما وصف به الآخر فقوبل رضوانه تعالى بسخطه والاتباع بالبوء والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة بينهما والحكم بها على ما ذكر من حال الغال كأنه قيل أبعد ظهور حاله يكون من ترقى إلى أعلى عليين كمن تردى إلى أسفل سافلين وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة ﴿ ومأواه جهنم ﴾ إما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل أمر من باء بسخطه تعالى وإما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصلة الاسمية على الفعلية وأيا ما كان فلا محل له من الإعراب ﴿ وبئس المصير ﴾ اعتراض تذييلى والمخصوص بالذم محذوف أى وبئس المصير جهنم والفرق بينه وبين المرجع أن الأول يعتبر فيه الرجوع على خلاف الحالة الأولى بخلاف الثانى ﴿ هم ﴾ راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى ﴿ درجات عند الله ﴾ أى طبقات متفاوتة فى علمه تعالى وحكمه شبهوا فى تفاوت الأحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وإيذانا بأن بينهم تفاوتا ذاتيا كالدرجات أو ذوو درجات ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ من الأعمال ودرجاتها فيجازيهم .

﴿ لقد من الله ﴾ جواب قسم محذوف أى والله لقد من الله أى أنعم ﴿ على المؤمنين ﴾ أى من قومه عليه السلام ﴿ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ أى من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ليكونوا واقفين على حاله فى الصدق والأمانة مفتخرين به وفى ذلك شرف لهم عظيم قال الله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقرىء من أنفسهم أى أشرافهم فإنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونها وقرىء لمن من الله على المؤمنين إذ بعث الخ . على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى منه إذ بعث الخ أو على أن إذ فى محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله عليه من[1] المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها

(١) فى ط : على المؤمنين .

وقوله تعالى من أنفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا أى كائنا من أنفسهم وقوله تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ صفة أخرى أى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحى ﴿ ويزكيهم ﴾ عطف على يتلو أى يطهرهم من دنس الطبائع وسوء العقائد وأوضار الأوزار .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ أى القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) لتبادر إلى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر فى التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة [تارة][1] أخرى رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فى ذلك شمول الحكمة لما فى مطاوى الأحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف فى سورة البقرة ﴿ وإن كانوا من قبل بعثته عليه السلام وتزكيته وتعليمه ﴿ لفى ضلال مبين ﴾ أى بين لا ريب فى كونه ضلالا وأن هى المخففة من الثقيلة[2] وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية والظرف الأول لغو متعلق بكان والثانى خبرها وهى مع خبرها خبر لأن المخففة التى حذف اسمها أعنى ضمير الشأن وقيل هى نافية واللام بمعنى إلا أى وما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين وأياما كان فالجملة إما حال من الضمير المنصوب فى يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهى مبينة لكمال النعمة وتمامها .

---

(١) سقطت من ط.　　(٢) فى ط : مع أن

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لإبطال بعض ما صدر عنهم من الظنون الفاسدة والأقاويل الباطلة الناشئة منها إثر إبطال بعض آخر منها والهمزة للتقريع والتقرير والواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم مضاف إلى ما بعده وقد أصبتم فى محل الرفع على أنه صفة لمصيبة والمراد بها ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وبمثليها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين وأنى هذا مقول قلتم وتوسيط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع أن[1] المقصود إنكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فإن فعل القبيح فى غير وقته أقبح والإنكار على فاعله أدخل والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القول عنهم فى ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا إليه بل على كونه داعيا إلى عدمه فإن كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم مما يهون الخطب ويورث السلوة أو أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الإشارة فى أنى هذا مع كونه إشارة إلى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لما أن إشارتهم ليست إلا إلى ما شاهدوه فى المعركة من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم المصيبة وإنما هى عند الحكاية وقوله عز وجل :

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد إثر تحقيق فساده بالإنكار والتقريع ويبكتهم ببيان أن ما نالهم إنما نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل

---

(١) فى ق : مع أنه

باختيارهم الخروج من المدينة ويأباه أن الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده) الآية وأن عمل النبي صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جنايتهم فيه على أن اختيار الخروج والإصرار عليه كان ممن أكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ وأين هم من التفوه بمثل هذه الكلمة وقيل بأخذهم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لهم والأول هو الأظهر والأقوى وإنما يعضده توسيط خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطابين المتوجهين إلى المؤمنين وتفويض التبكيت إليه عليه السلام فإن توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان ممن نهاه عنه كان أشد تأثيرا ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ومن جملته النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر .

فى الهزيمة عبرة

﴿ وما أصابكم ﴾ رجوع إلى خطاب المؤمنين إثر خطابه عليه السلام بسر يقتضيه وإرشاد لهم إلى طريق الحق فيما سألوا عنه وبيان لبعض ما فيه من الحكم والمصالح ودفع لما عسى أن يتوهم من قوله تعالى (هو من عند أنفسكم) من استقلالهم فى وقوع الحادثة والعدول عن الإضمار إلى ما ذكر للتهويل وزيادة التقرير ببيان وقته بقوله تعالى ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أى جمعكم وجمع المشركين ﴿ فبإذن الله ﴾ أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمى ذلك إذناً لكونها من لوازمه ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ عطف على قوله تعالى فبإذن الله عطف المسبب عن السبب والمراد بالعلم التمييز والإظهار فيما بين الناس ﴿ وليعلم الذين نافقوا ﴾ عطف على ما قبله من مثله وإعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام فى سلك[1] المنافقين وللإيذان باختلاف حال

(١) فى ط . فى قرن

العلم بحسب التعلق بالفريقين فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق وبالمنافقين على وجه جديد وهو السر فى إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق ﴿وقيل لهم﴾ عطف على نافقوا داخل معه فى حيز الصلة أو كلام مبتدأ قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عبد الله بن أبى وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام أذكركم الله لا[1] تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم إلى القتال وذلك قوله تعالى:

﴿تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا﴾ قال السدى ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا وقيل أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحريمكم إن لم تقاتلوا فى سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصود بهما واحد وهو الثانى وذكر الأول توطئة له وترغيب فيه لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين فقيل قالوا ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ أى لو نحسن قتالا ونقدر عليه وإنما قالوه دغلا واستهزاء وإنما عبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به لما أن القدرة على الأفعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها أو لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال أصلا وإنما هو إلقاء النفس إلى التهلكة وفى جعلهم التالى مجرد الاتباع دون القتال الذى هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسهم بجعله تاليا لمقدم مستحيل الوقوع ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ الضمير مبتدأ وأقرب خبره واللام فى للكفر وللإيمان متعلقة به كذا يومئذ ومنهم وعدم جواز تعلق حرفين متحدين لفظا ومعنى بعامل واحد بلا عطف أو بدلية إنما هو فيما عدا أفعل

---

(١) فى ط: أن تخذلوا.

التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها وأما أفعل التفضيل فحيث دل على أصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كأنه قيل قربهم للكفر زائد على قربهم للإيمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين أى هم للكفر يوم إذ قالوا ما قالوا أقرب منهم للإيمان فإنهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة مؤذنة بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن تقليل سواد المسلمين بالانخذال تقوية للمشركين وقوله تعالى :

﴿ يقولون بأفوههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها وذكر الأفواه والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم وما عبارة عن القول والمراد به إما نفس الكلام الظاهر فى اللسان تارة وفى القلب أخرى فالمثبت والمنفى متحدان ذاتا وإن اختلفا مظهراً وإما القول الملفوظ فقط فالمنفى حينئذ منشؤه الذى لا ينفك عنه القول أصلا وإنما عبر عنه به إبانة لما بينهما من شدة الاتصال أى يتفوهون بقول لا وجود له أو لمنشئه فى قلوبهم أصلا من الأباطيل التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا فإنهم أظهروا فيه أمرين ليس فى قلوبهم شىء منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما كذبا بينا حيث كانوا عالمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين مع ذلك على الانخذال عازمين على الارتداد وقوله عز وجل :

﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد إثر بيان خلوها عما يوافقها وصيغة التفضيل لما أن بعض ما يكتمونه من أحكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الإجمال وأن تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الإلهى ﴿ الذين قالوا ﴾ مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون أو خبر لمبتدأ محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادرؤا بحذف العائد

تقديره قل لهم الخ أو منصوب على الذم أو على أنه نعت للذين نافقوا أو بدل منه وقيل مجرور على أنه بدل من ضمير أفواههم أو قلوبهم كما فى قوله على جوده لضن بالماء حاتم والمراد بهم عبد الله بن أبى وأصحابه ﴿لإخوانهم﴾ أى لأجلهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو من أقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء ﴿وقعدوا﴾ حال من ضمير قالوا بتقدير قد أى قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال ﴿لو أطاعونا﴾ أى فيما أمرناهم به ووافقونا فى ذلك ﴿ما قتلوا﴾ كما لم نقتل وفيه إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا وأغووهم كما غووا وحمل القعود على ما استصوبه ابن أبى عند المشاورة من الإقامة بالمدينة ابتداء وجعل الإطاعة عبارة عن قبول رأيه والعمل به يرده كون الجملة حالية فإنها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أن ابن أبى ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى على أن تخصيص عدم الطاعة بإخوانهم ينادى باختصاص الأمر أيضاً بهم فيستحيل أى يحمل على ما خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم عند المشاورة .

﴿قل﴾ تبكيتا لهم وإظهارا لكذبهم ﴿فادرؤا عن أنفسكم الموت﴾ جواب لشرط قد حذف تعويلا على ما بعده من قوله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ كما أنه شرط حذف جوابه لدلالة الجواب المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فيما ينبىء عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم معلقا بسبب خاص موقتا بوقت معين بدفع سببه فإن أسباب الموت فى إمكان المدافعة بالحال وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من إخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فإن ذلك مما لا سبيل إليه بل قد يكون القتال سببا للنجاة والقعود مؤديا إلى الموت . روى أنه مات يوم قالوا سبعون منافقا وقيل أريد إن كنتم صادقين فى مضمون الشرطية والمعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله تعالى (فادرؤا عن أنفسكم الموت) حينئذ استهزاء بهم أى إن كنتم

رجالا دفاعين لأسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا كما درأتم فى زعمكم هذا السبب الخاص .

مكانة الشهداء

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من أجل المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون إثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى وقرىء ولا تحسبن بكسر السين والمراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبد الله ابن جحش وباقيهم من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقرىء بالياء على الإسناد إلى ضميره عليه السلام أو ضمير من يحسب وقيل إلى الذين قتلوا والمفعول الأول محذوف لأنه فى الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة والتقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتا أى لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا على أن المراد من توجيه النهى إليهم تنبيه السامعين على أنهم أحقاء بأن يسلوا بذلك ويبشروا بالحياة الأبدية والكرامة السنية والنعيم المقيم لكن لا فى جميع أوقاتهم بل عند ابتداء القتل إذ بعد تبين حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه وقرىء قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين ﴿بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء وقرىء منصوبا أى بل أحسبهم أحياء على أن الحسبان بمعنى اليقين كما فى قوله :

حسبت التقى والجود خير تجارة ... رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا

أو على أنه وارد على طريق المشاكلة ﴿عند ربهم﴾ فى محل الرفع على أنه خبر ثان للمبتدأ المقدر أو صفة لأحياء أو فى محل النصب على أنه حال من الضمير فى أحياء وقيل هو ظرف لأحياء أو للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلفى وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع

الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكرمة لهم ﴿ يرزقون ﴾ أى من الجنة وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم . قال الإمام الواحدى الأصح فى حياة الشهداء ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون . وروى عنه عليه السلام أنه قال لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور[1] خضر تدور فى أنهار الجنة وروى ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وفيه دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول المراد إن نفوس الشهداء تتمثل طيورا خضرا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر وقيل المراد أنها تتعلق بالأفلاك والكواكب فتلتذ بذلك وتكتسب زيادة كمال ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا .

﴿ ويستبشرون ﴾ يسرون بالبشارة ﴿ بالذين لم يلحقوا بهم ﴾ أى بإخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿ من خلفهم ﴾ متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم أو بمحذوف وقع حالا من فاعل يلحقوا أى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا ﴿ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ بدل من الذين بدل اشتمال مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم وأن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة المنفية أى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف [ولا][2] وقوع محذور ولا حزن [على][3] فوات مطلوب أو لا خوف عليهم فى الدنيا من القتل

---

(١) فى ١٠ : طير .

(٢) سقطت من ط .

(٣) سقطت من ط .

فإنه عين الحياة التي يجب أن يرغب فيها فضلا عن أن تخاف وتحذر أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا فإن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ﴿ يستبشرون بنعمة ﴾ كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهى ثواب أعمالهم وقد جوز أن يكون الأول متعلقا بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم بيانا لبعض ما أجمل فى قوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الإضافية أى كائنة منه تعالى ﴿ وفضل ﴾ أى زيادة عظيمة كما فى قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ بفتح أن عطف على فضل منتظم معه فى سلك المستبشر به والمراد بالمؤمنين إما الشهداء والتعبير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين وقرىء بكسرها على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة لا أجر له وفيه من الحث على الجهاد والترغيب فى الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى .

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ صفة مادحة للمؤمنين لا مخصصة أو نصب على المدح أو رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ بجملته ومن للبيان والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون ومتقون . روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن

يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان، وقال لايخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لايفوتهم الأجر وألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ يعنى الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعى وإطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ روى أن أبا سفيان نادى عندانصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه السلام إن شاء الله تعالى فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله تعالى فى قلبه الرعب وبدا له أن يرجع فمر به ركب من بنى عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوا المسلمين وقيل لقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل وضمنها منه سهيل بن عمرو فخرج نعيم ووجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففروا فقال عليه السلام والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل. قيل هى الكلمة التى قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار.

﴿ فزادهم إيمانا ﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله إن أريد به نعيم وحده والمعنى أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصانا فإن ازدياد اليقين بالإلف وكثرة التأمل وتناصر الحجج مما لاريب فيه ويعضده قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله الإيمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة

وينقمص حتى يدخل صاحبه النار ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ أى محسبنا الله وكافينا من أحسبه إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه لايستفيد بالإضافة تعريفا فى قولك هذا رجل حسبك ﴿ ونعم الوكيل ﴾ . أى نعم الموكول إليه والمخصوص بالمدح محذوف أى الله عز وجل ﴿ فانقلبوا ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى نخرجوا إليهم ووافوا الموعد . روى أنه عليه الصلاة والسلام وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً كثيراً والباء فى قوله تعالى ﴿ بنعمة ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير فى فانقلبوا والتنوين للتفخيم أى فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لايقادر قدرها وقوله عز وجل :

﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لفخامتها الذاتية التى يفيدها التنكير بالفخامة الإضافية أى كائنة من الله تعالى وهى العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم ﴿ وفضل ﴾ أى ربح فى التجارة وتنكيره أيضاً للتفخيم ﴿ لم يمسسهم سوء ﴾ حال أخرى من الضمير فى فانقلبوا أو من المستكن فى الحال كأنه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال إذا كان مضارعا منفيا بلم وفيه ضمير ذى الحال جاز فيه دخول الواو كما فى قوله تعالى (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء) وعدمه كما فى هذه الآية الكريمة وفى وفى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) .

﴿ واتبعوا ﴾ فى كل ما أتوا من قول وفعل ﴿ رضوان الله ﴾ الذى هو مناط الفوز بخير الدارين ﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾ حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب فى الدين وإظهار الجراءة على العدو وحفظهم عن كل ما يسوءهم مع إصابة النفع الجليل وفيه تحسير لمن تخلف عنهم وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء وروى أنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضى عنهم ﴿ إنما ذلكم ﴾ إشارة إلى المثبط أو إلى من حمله على التثبيط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الشيطان ﴾ إما خبره وقوله تعالى ﴿ يخوف أولياءه ﴾

جملة مستأنفة مبينة لشيطنته أو حال كما فى قو له تعالى (فتلك بيوتهم خاوية) الخ وإما صفته والجملة خبره ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أى إنما ذلكم قول الشيطان أى إبليس والمستكن فى يخوف إما للمقدر وإما للشيطان بحذف الراجع إلى المقدر أى يخوف به والمراد بأوليائه إما أبو سفيان وأصحابه فالمفعول الأول محذوف أى يخوفكم أولياءه كما هو قراءة ابن عباس وابن مسعود ويؤيده قوله تعالى ﴿ فلا تخافوهم ﴾ أى أولياءه ﴿ وخافون ﴾ فى مخالفة أمرى وإما القاعدون فالمفعول الثانى محذوف أى يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير البارز فى فلا تخافوهم للناس الثانى أى فلا تخافون فتقعدوا عن القتال وتجبنوا وخافونى فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به والخطاب لفريقى الخارجين والقاعدين والفاء لترتيب النهى أو الانتهاء على ما قبلها فإن كون المخوف شيطانا مما يوجب عدم الخوف والنهى عنه ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره ويستدعى الأمن من شر الشيطان وأوليائه .

﴿ ولا يحزنك ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية والإيذان بأصالته فى تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤونه ﴿ الذين يسارعون فى الكفر ﴾ أى يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وإيثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى : (أولئك يسارعون فى الخيرات) فإن ذلك مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم فى فنونها فى طرفى المسارعة وتضاعيفها وأما إيثار كلمة إلى فى قوله تعالى(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) الخ فلأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود حسبما عين فى قوله تعالى (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا) وقيل قوم ارتدوا عن الإسلام والتعبير عنهم بذلك للإشارة بما فى حيز الصلة إلى مظنة وجود المنهى عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا يحزنوك بمسارعتهم فى

الكفر ومبادرتهم إلى تنفيذ(١) أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهى إلى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة فى ذلك لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى إلى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وقرأ لا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاء والمعنى واحد وقيل معنى حزنه جعل فيه حزنا كما فى دهنه أى جعل فيه دهنا ومعنى أحزنه جعله حزينا وقيل معنى حزنه أحدث له الحزن ومعنى أحزنه عرضه للحزن .

﴿ إنهم لن يضروا الله ﴾ تعليل للنهى وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبدا أى لن يضروا بذلك أولياء الله البتة وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وفيه مزيد مبالغة فى التسلية وقوله تعالى ﴿ شيئا ﴾ فى حيز النصب على المصدرية أى شيئا من الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة وقيل على نزع الجار أى بشىء ما أصلا وقيل المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئا كما روى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على قلب أتقى(٢) رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على قلب أفجر(٣) رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا والأول هو الأنسب بمقام التسلية والتعليل .

﴿ يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة ﴾ استئناف مبين لسر ابتلائهم بما هم فيه من انهماك فى الكفر وفى ذكر الإرادة من الإيذان بكمال خلوص الداعى إلى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما إرادة أرحم الراحمين مالا يخفى وصيغة الإستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها أى يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم فى الآخرة حظاً ما من الثواب ولذلك

---

(١) فى ط : إلى تمشية . (٢) فى ط : أتقى قلبه

(١) فى ط : أفجر قلب

وقد جوز كون الموصول الأول عاما للكفار والثانى خاصا بالمعهودين وأنت خبير بأنه مع خلوه عن النكت المذكورة مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة فى الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لإيراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهى عنه إنما يتصور ممن علم اتصافه بها وأما من لا يعرف حاله من الكفرة الكائنين فى الأماكن البعيدة فإسناد المسارعة المذكورة إليهم باعتبار كونها من مبادى حزنه عليه السلام مما لا وجه وقوله تعالى :

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية إيلامه بعد ذكر نهاية عظمه . قيل لما جرت العادة باغتباط المشترى بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وبتألمه عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك .

استدراج الكفار

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ﴾ عطف على قوله تعالى (ولا يحزنك الذين) الآية والفعل مسند إلى الموصول وأن بما فى حيزها سادة مسد مفعوليه عند سيبويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبى بالنسبة بين المبتدأ والخبر أو مسد أحدهما والآخر محذوف عند الأخفش وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها ووصلها فى الكتابة لاتباع الإمام أى لا يحسبن الكافرون أن إملاءنا لهم أو أن ما نمليه لهم خير لأنفسهم أو لا يحسبن الكافرون خيرية إملائنا لهم أو خيرية ما نمليه لهم ثابتة أو واقعة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر إملائه تعالى لهم بناء على حسبان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض كما أن مآل المعطوف عليه نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية والمراد بالموصول إما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلى أحكام المعهودين اندراجا أوليا وإما المعهودون خاصة فإيثار الإظهار

تركهم فى طغيانهم يعمهون إلى أن يهلكوا على الكفر ﴿ ولهم ﴾ مع ذلك الحرمان الكلى ﴿ عذاب عظيم ﴾ لا يقادر قدره قيل لما دلت المسارعة فى الشيء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية للمناسبة وتنبيها على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته فى نفسه والجملة إمامبتدأة مبينة لحظهم من العقاب إثر بيان أن لاشيء لهم من الثواب وإما حال من الضمير فى لهم أى يريد الله حرمانهم من الثواب معدا لهم عذاب عظيم ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أى أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه وإعراضا عما تركوه وقد مر تحقيق القول فى هذه الاستعارة فى تفسير قوله عز وجل (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) مستوفى .

﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ تفسيره كما مر غير أن فيه تعريضا ظاهرا باقتصار الضرر عليهم كأنه قيل وإنما يضرون أنفسهم فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه إما بأخذه بدلا من الإيمان الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدين أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ببيان علته بتغيير عنوان الموضوع فإن ما ذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم تعديه إلى غيرهم أصلا كيف لا وهو علم فى الخسران الكلى والحرمان الأبدى دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأى ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهى أعز من الأبلق الفرد وأمنع من عقاب الجو وإن أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحى الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقرير القواعد الكلية لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام هذا

على الإضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الإملاء الذى هو عبارة عن إمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا فإن المقارن له دائما إنما هو الكفر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فإنهما من الأحوال المتجددة المنقضية فى تضاعيف الكفر المستمر وقرىء لا تحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأنسب بمقام التسلية أو لكل من يتأتى منه الحسبان قصدا إلى إشاعة فظاعة حالهم والموصول مفعول وإنما نملى لهم إما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما فى قوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون) اقتصر على مفعول واحد كما فى قولك جعلت المتاع بعضه فوق بعض وإمامفعول ثان بتقدير مضاف إما فيه أى لا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم أو فى المفعول الأول أى لا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم .

﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾ استئناف مبين لحكمة الإملاء وما كافة واللام لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرى بفتح الهمزة ههنا على إيقاع الفعل عليه وكسرها فيما سبق على أنه اعتراض بين الفعل ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بإبطال الحسبان ورده على معنى لا يحسبن الكافرون أن إملاءنا لهم لازدياد الإثم حسبما هو شأنهم بل إنما هو لتلافى ما فرط منهم بالتوبة والدخول فى الإيمان ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب مهين ﴾ لما تضمن الإملاء التمتيع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر وصف عذابهم بالإهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقا والجملة إما مبتدأة مبينة لحالهم فى الآخرة إثر بيان حالهم فى الدنيا وإما حال من الواو أى ليزدادوا إثما معدا لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الأخير .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾ كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين ووعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التى هى الفضيحة والخزى إثر بيان عقوبتهم الأخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون وما الخطاب فقد قيل إنه لجمهور

المصدقين من أهل الإخلاص وأهل النفاق ففيه التفات فى ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم بعضا واستواؤهم فى إجراء أحكام الإسلام عليهم إذ هو القدر المشترك بين الفريقين وقيل إنه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيرى للكفار وإلا فلا شركة بين المؤمنين والمنافقين فى أمر من الأمور والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فإنه كما يجوز نسبته إلى الفريقين معا يجوز نسبته إلى كل منهما لا الكفر والنفاق كما قيل فإن المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم فى ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل إنه للمؤمنين خاصة وهو قول أكثر أهل المعانى ففيه تلوين والتفات كما مر والتعرض لإيمانهم قبل الخطاب للإشعار بعلة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والأول هو الأقرب وإليه جنح المحققون من أهل التفسير لكونه صريحا فى كون المراد بما هم عليه ما ذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الأخيرين فإنهما بمعزل من ذلك كيف لا والمفهوم مما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق ومما عليه المؤمنون هو الإيمان والإخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فإنما يفهم من حيث الانتساب إلى أحدهما لا من حيث الانتساب إليهما معا وعليه يدور أمر الاختلاط المحوج إلى الإفراز واللام فى ليذر إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريداً أو متصديا لأن يذر المؤمنين الخ ففى توجيه النفى إلى إرادة الفعل تأكيد مبالغة ليست فى توجيهه إلى نفسه وأما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله عز وجل ؛

﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ غاية لما يفيده النفى المذكور كأنه قيل ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط بل يقدر الأمور ويرتب الأسباب حتى يعزل المنافق من المؤمن وفى التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به وإشعار بعلة الحكم وإفراد الخبيث والطيب مع تعددهما أريد

بكل منهما وتكثره لا سيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع للإيذان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا لخصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما فى مثل قوله تعالى (ذلك أدنى ألا تعولوا) ونظيره قوله تعالى (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم وتعليق الميز(١) بالخبيث المعبر به عن المنافق مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعلقه بهم وإفرازهم عن المنافقين لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف فى المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان وإن ظهر مزيد إخلاصهم لا بالتصرف فيهم وتغييرهم من حال إلى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه فى قوله تعالى (والله يعلم المفسد من المصلح) وإنما لم ينسب عدم الترك إليهم لما أنه مشعر باعتناء بشأن من نسب إليه فإن المتبادر منه عدم تركه(٢) على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرىء حتى يميز من التمييز وقوله تعالى:

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشريفاً لهم وقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال وإظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادىء حتى يخرج المنافقين من بينهم وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحى إلى رسوله عليه السلام فيخبره بذلك وبما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤس الأشهاد ويخلصكم من خسة الشركاء

(١) فى ١٠ : التمييز . (٢) فى ط : عدم الترك .

وسوء جوارهم والتعرض للاجتباء للإيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الأمم واصطفاه على الجماهير لإرشادهم وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه السلام فى هذا الباب أمر متين له أصل أصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام وتعميم الأمر فى قوله تعالى :

﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبى عليه الصلاة والسلام لإيجاب الإيمان بالطريق البرهانى والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام فيدخل فيه تصديقه عليه السلام فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولا أوليا هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم وقدجوز أن يكون المعنى لا يتركـكم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التى لا يصبر عليها إلا الخلص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم كبذل الأرواح فى الجهادوإنفاق الأموال فى سبيل الله تعالى فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمائركم حتى يعلم بعضكم بما فى قلب بعض بطريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور فإن ذلك مما استأثر الله تعالى به وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبىء عن مزيد مزيتهم وفضل معرفتهم على الخلق إثر بيان قصور رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح فى أن المراد إظهار تلك السرائر بطريق الوحى لا بطريق التكليف بما يؤدى إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريعته لهم فالمعنى ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبدا كما تركهم كذلك إلى الآن لسر يقتضيه بل يفرز عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من فى قلوبهم مرض ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤس الأشهاد وقيل قال

الكافرون إن كان محمدا صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ أى بما ذكر حق الإيمان ﴿ وتتقوا ﴾ أى عدم مراعاة حقوقه أو النفاق ﴿ فلكم ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿ أجر عظيم ﴾ لا يبلغ كنهه .

البخل والبخلاء

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ﴾ بيان لحال البخل ووخامة عاقبته وتخطئة لأهله فى توهم خيرته حسب بيان حال الإملاء وإيراد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله تعالى إياه من فضله للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم فإن ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) والفعل مسند إلى الموصول والمفعول الأول محذوف لدلالة الصلة عليه وضمير الفصل راجع إليه أى لا يحسبن الباخلون بما آتاهم الله من فضله من غير أن يكون لهم مدخل فيه أو استحقاق له هو خيراً لهم من إنفاقه وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى ضمير من يحسب والمفعول الأول هو الموصول بتقدير مضاف والثانى ما ذكر كما هو كذلك على قراءة الخطاب أى ولا يحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ﴿ بل هو شر لهم ﴾ التنصيص على شريته لهم مع إدراكها(١) من نفى خيريته للمبالغة فى ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ بيان لكيفية شريته أى سيلزمون وبال ما بخلوا به من الزكاة حية فى عنقه تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك .

﴿ ولله ﴾ وحده لا لأحد غيره استقلالا أو اشتراكا ﴿ ميراث السموات والأرض ﴾ أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره من الرسالات التى يتوارثها أهل السموات والأرض فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله تعالى عند هلاكهم

---

(١) فى ط : انفهامها .

وتدوم(١) عليهم الحسرة والندامة ﴿ والله بما تعملون ﴾ من المنع والبخل ﴿ خبير ﴾ فيجازيكم على ذلك وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة والالتفات للمبالغة فى الوعيد والإشعار باشتداد غضب الرحمن الناشيء من ذكر قبائحهم وقريء بالياء على الظاهر ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) وروى أنه عليه السلام كتب مع أبى بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص إن الله فقير حتى سألنا القرض فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فى وجهه وقال لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقين بذلك والمعنى أنه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العذاب كفاء والتعبير عنه بالسماع للإيذان بأنه من الشناعة والسماجة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع والتوكيد القسمى للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد .

﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ أى سنكتب ما قالوه من العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته فى علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب والسين للتأكيد أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته لكونه فى غاية العظم والهول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله تعالى ﴿ وقتلهم الأنبياء ﴾ إيذانا بأنهما فى العظم إخوان وتنبيها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذه العظائم والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم وقوله تعالى ﴿ بغير حق ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم أى كائنا بغير حق فى اعتقادهم أيضا كما هو فى نفس الأمر وقريء سيكتب على البناء

(١) فى ط : أو تبقى .

للفاعل وسيكتب على البناء للمفعول وقتلهم بالرفع ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أى وننتقم منهم بعد الكتبة بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق كما أذقتم المسلمين الغصص وفيه من المبالغات ما لا يخفى وقرىء ويقول بالياء ويقال على البناء للمفعول ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى العذاب المذكور وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأنه وبعد منزلته فى الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أى بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصى والتعبير عن الأنفس بالأيدى لما أن عامة أفاعيلها تزاول بهن ومحل أن فى قوله تعالى :

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها للمبالغه كما لا كيفا هذا وقد قيل محل أن الجر بالعطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث أن نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء وفساده ظاهر فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفى الظلم سببا للتعذيب حسبما ذكره القائل فى سورة الأنفال وقيل سببية ذنوبهم لعذابهم مقيدة بانضمام انتفاء ظلمه تعالى إليها إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم وأنت خبير بأن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج

إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج إلى ذلك أن لو كان المدعى أن جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين .

﴿ الذين قالوا ﴾ نصب أو رفع على الذم وهم كعب بن الأشرف ومالك ابن صيفى وحيى بن أخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا ﴿ إن الله عهد إلينا ﴾ أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ﴿ أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ كما كان عليه أمر أنبياء بنى إسرائيل حيث كان يقرب بالقربان فيقوم النبى فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله أى تحيله إلى طبعها بالإحراق وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم فإن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم إتيانه بما قالوا ولو تحقق الإتيان به لتحقق الإيمان رد عليهم بقوله تعالى ﴿ قل ﴾ أى تبكيتا لهم وإظهارا لكذبهم ﴿ قد جاءكم رسل ﴾ كثيرة العدد كبيرة المقدار ﴿ من قبلى بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة ﴿ وبالذى قلتم ﴾ بعينه من القربان الذى تأكله النار ﴿ فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ أى فيما يدل عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه فإن زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جاءوكم بما قلتم فى معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم ﴿ فإن كذبوك ﴾ شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم إثر ما أوحى إليه ما يحزنه عليه الصلاة والسلام من مقالات الكفرة من المشركين واليهود وقوله تعالى ﴿ فقد كذب رسل من قبلك ﴾ تعليل لجواب الشرط أى فتسل فقد كذب الخ ومن متعلقة بكذب أو بمحذوف هو صفة الرسل أى كائنة من قبلك ﴿ جاءوا بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة صفة لرسل ﴿ والزبر ﴾ هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته إذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته ﴿ والكتاب المنير ﴾ قيل أى التوراة والإنجيل والزبور والكتاب فى عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين فى عامة المواقع

وقرىء وبالزبر بإعادة الجار دلالة على أنها مغايرة بالذات للبينات ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب وقرىء ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما فى قوله ولا ذاكرا لله إلا قليلا ﴿ وإنما توفون أجوركم ﴾ أى تعطون جزاء أعمالكم على التمام والكمال ﴿ يوم القيامة ﴾ أى يوم قيامكم من القبور وفى لفظ التوفية إشاره إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ﴿ فمن زحزح عن النار ﴾ أى بعد عنها يومئذ ونجا والزحزحة فى الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿ وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ بالنجاة ونيل المراد والفوز الظفر بالبغية وعن النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه ﴿ وما الحيوة الدنيا ﴾ أى لذاتها وزخارفها ﴿ إلا متاع الغرور ﴾ شبهت بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب بها الآخرة فهى له متاع بلاغ والغرور إما مصدر أو جمع غار ﴿ لتبلون ﴾ شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكاره إثر تسليتهم عما قد وقع منهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقائه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فإن هجوم الأوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب وأصل البلاء الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا ملابسته ومفارقته وذلك إنما يتصور حقيقة مما لا وقوف له على عواقب الأمور وأما من جهة العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين أو الأمور قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مباديه العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف أى والله لتبلون أى لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والأعمال الحسنة وفائدة التوكيد إما تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب وإما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد ﴿ فى أموالكم ﴾

بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية إلى هلاكها وأما إنفاقها فى سبيل الخير مطلقا فلا يليق نظمه فى سلك الابتلاء لما أنه من باب الإضعاف لا من قبيل الإتلاف ﴿وأنفسكم﴾ بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الأموال لكثرة وقوع الهلكة فيها ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى من قبل إيتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض مايسمعونه منهم مستند على زعمهم إلى الكتاب كما فى قوله تعالى (إن الله عهد إلينا) الخ والتصريح بالقبلية لتأكيد الإشعار وتقوية المدار فإن قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم به ﴿ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ من الطعن فى الدين الحنيف والقدح فى أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الأشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه ﴿وإن تصبروا﴾ أى على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿وتتقوا﴾ أى تبتلوا إلى الله تعالى بالكلية معرضين عما سواه بالمرة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فإن ذلك﴾ إشارة الى الصبر والتقوى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب إما باعتبار كل واحد من المخاطبين وإما لأن المراد بالخطاب لمجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين

﴿من عزم الأمور﴾ من معزوماتها التى يتنافس فيها المتنافسون أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه يعنى أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى لا بد أن تصبروا وتتقوا والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كأنه قيل وإن تصبروا وتتقوا فهو خير لكم أو فافعلوا أو فقد أحسنتم أو فقد أصبتم فإن ذلك الخ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى صبر المخاطبين وتقواهم فالجملة حينئذ جواب الشرط وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية من إظهار كمال

اللطف بالعباد ما لا يخفى ﴿ وإذ أخذ الله ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم ما فى كتابهم من شواهد نبوته عليه الصلاة والسلام وغيرها وإذ منصوب على المفعولية بمضمر أمر به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق تجريد الخطاب إثر الخطاب الشامل له عليه الصلاة والسلام والمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها على ما مر بيانه فى تفسير قوله تعالى وإذ قال (ربك للملائكة إنى جاعل) الخ أى اذكر وقت أخذه تعالى ﴿ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى ذكروا بعنوان إيتاء الكتاب مبالغة فى تقبيح حالهم .

﴿ لتبيننه ﴾ حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينبىء عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم بالله لتبيننه ﴿ للناس ﴾ وتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته عليه الصلاة والسلام وهو المقصود بالحكاية وقرىء بالياء لأنهم غيب ﴿ ولا تكتمونه ﴾ عطف على الجواب وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا كما فى قولك والله لا يقوم زيد وقيل اكتفى بالتأكيد فى الأول لأنه تأكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين إما على إضمار مبتدأ بعد الواو أى وأنتم لا تكتمونه وإما على رأى من جوز دخول الواو على المضارع المنفى عند وقوعه حالا أى لتبيننه غير كاتمين والنهى عن الكتمان بعد الأمر بالبيان إما للمبالغة فى إيجاب المأمور به وإما لأن المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وبالكتمان المنهى عنه إلقاء التأويلات الزائغة والشبهات الباطلة وقرىء بالياء كما قبله ﴿ فنبذوه ﴾ النبذ الرمى والإبعاد أى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكيد وألقوه .

﴿ وراء ظهورهم ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلا فإن نبذ الشىء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به والإعراض عنه بالكلية كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين وإظهار

ما منحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتمانه لغرض من الأغراض الفاسدة أو لطمع فى عرض من الأعراض الفانية الكاسدة ما لا يخفى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار وعن طاوس أنه قال لوهب بن منبه إنى أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك وعن محمد بن كعب لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل وعن على رضى الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ﴿ واشتروا به ﴾ أى بالكتاب الذى أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه فإن ذكر نبذ الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة وإيقاع الفعل على الكل مع أن المراد به كتم بعضه كدلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ونحوها لما أن ذلك كتم للكل إذ به يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لكلها أو بمنزلة كتم الكل من حيث أنهما سيان فى الشناعة واستجرار العقاب كما فى قوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أى تركوا ما أمروا به وأخذوا بدلا منه[1] ﴿ ثمنا قليلا ﴾ أى شيئاً تافها حقيراً من حطام الدنيا وأعراضها وفى تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة فى المأخوذ والإعراض عن المعطى والتعبير عن المشترى الذى هو العمدة فى العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إليه وجعل الكتاب الذى حقه أن يتنافس فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنىء الحقير على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلى وسيلة والوسيلة مقصداً ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه ﴿ فبئس ما يشترون ﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشترون صفته والمخصوص بالذم محذوف أى بئس شيئاً

(١) فى ط : بدله .

يشترونه ذلك الثمن ﴿ لا تحسبن ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح له .

﴿ الذين يفرحون بما أتوا ﴾ أى بما فعلوا كما فى قوله تعالى (إنه كان وعده مأتيا) ويدل عليه قراءة أبى : يفرحون بما فعلوا وقرىء بما آتوا بمعنى أعطوا وبما أوتوا أى بما أوتوه عن علم التوراة . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شىء مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا وقيل فرحوا بكتمان النصوص الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وأحبوا أن يحمدوا بأنهم متبعون ملة إبراهيم عليه السلام فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخروى إثر بيان قباحتها وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو إصرارهم على ما هم عليه من القبائح وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة وقد نظم ذلك فى سلك الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند المخاطب إيذانا بشهرة اتصافهم بذلك وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى ذلك واستحمدوا به وقيل هم المنافقون كافة وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى :

﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من إظهار الإيمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم فى الغاية القاصية من العداوة فالموصول عبارة عن طائفة معهودة من المذكورين وغيرهم فإن أكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الأولى إجراء الموصول على عمومه شاملا لكل من يأتى بشىء من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما أوليا وأياما

كان فهو مفعول أول لتحسبن وقوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم ﴾ تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثانى قوله تعالى ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ أى ملتبسين بنجاة منه على أن المفازة مصدر ميمى ولا يضر تأنيثها بالتاء لما أنها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما فى قوله:

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا بالموارد

ولا سبيل إلى جعلها اسم مكان على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة لها أى بمفازة كائنة من العذاب لأنها ليست من العذاب وتقدير فعل خاص ليصح به المعنى أى بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الأصل تعسف مستغنى عنه وقرىء بضم الباء فى الفعلين على أن الخطاب شامل للمؤمنين أيضاً وقرىء بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على أن الفعل له عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يتأتى منه الحسبان ومفعولاه كما ذكر وقرىء بضم الباء فى الثانى فقط على أن الفعل للموصول والمفعول الأول محذوف لكونه عين الفاعل والثانى بمفازة أى لا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم فائزين وقوله تعالى فلا يحسبنهم تأكيد للأول والفاء زائدة كما مر ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معا اختصاراً لدلالة مفعولى الثانى عليهما على عكس ما فى قوله:

بأى كتاب أو بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

حيث حذف فيه مفعولا الثانى لدلالة مفعولى الأول عليهما أو على أن الفعل الأول للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل حاسب ومفعوله الأول الموصول والثانى محذوف لدلالة مفعول الفعل الثانى عليه والفعل الثانى مسند إلى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع حسبانهم على عدم حسبانه عليه السلام ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى بمفازة وتصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم وأما نهيه عليه السلام فللتعريض بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه السلام ﴿ ولهم

عذاب أليم ﴾ بعد ما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حقق أن لهم فردا منه لا غاية له فى المدة والشدة كما تلوح به الجملة الاسمية والتنكير التفخيمى والوصف .

﴿ ولله ﴾ أى خاصة ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد إيجادا وإعداما إحياء وإماتة تعذيبا وإثابة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل فى شىء من ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ تقرير لاختصاص ملك العالم الجسمانى المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى قادرا على الكل بحيث لا يشذ من ملكوته شىء من الأشياء يستدعى كون ما سواه كائنا ما كان مقدوراً له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شىء من الأشياء فى القدرة على شىء من الأشياء فضلا عن المشاركة فى ملك السموات والأرض وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الأليم لهم وعدم نجاتهم منه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية مع ما فيه من الإشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير ﴿ إن فى خلق السموات ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما سبق من اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمة التأكيد اعتناء بتحقيق مضمونها أى فى إنشائها على ما هى عليه فى ذواتها وصفاتها من الأمور التى يحار فى فهم أجلاها العقول ﴿ والأرض ﴾ على ما هى عليه ذاتا وصفة .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى فى تعاقبهما فى وجه الأرض وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الأرض أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة أما فى الطول والقصر فإن البلاد القريبة

من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما فى أنفسها فإن كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأماكن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا أو عصرا أو غير ذلك والليل قيل إنه اسم جنس يفرق بين واحده وجمعه بالتاء كتمر وتمرة والليالى جمع جمع والصحيح أنه مفرد ولا يحفظ له جمع والليالى جمع ليلة وهو جمع غريب كأنهم توهموا أنها ليلاة كما فى كيكة وكيا كى كأنها جمع كيكاة والنهار اسم لما بين طلوع الفجر وغروب الشمس قاله الراغب وقال ابن فارس هو ضياء ما بينهما وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر فى الليالى وإما لتقدمه فى الخلقية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) أى نزيله منه فيخلفه ﴿لآيات﴾ اسم إن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة عظيمة لا يقادر قدرها دالة على تعاجيب شئونه التى من جملتها ما مر من اختصاص الملك العظيم والقدرة التامة به سبحانه وعدم التعرض لما ذكر فى سورة البقرة من الفلك والمطر وتصريف الرياح والسحاب لما أن المقصود ههنا بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدرة فاكتفى بمعظم الشواهد الدالة على ذلك وأما هناك فقد قصد فى ضمن بيان اختصاصه تعالى بالألوهية بيان اتصافه تعالى بالرحمة الواسعة فنظمت دلائل الفضل والرحمة فى سلك دلائل التوحيد فإن ما فصل هناك [هو][1] من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيته ووحدته .

﴿لأولى الألباب﴾ أى لذوى العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم المتجردين عن العلائق النفسانية المتخلصين من العوائق الظلمانية المتأملين فى أحوال الحقائق وأحكام النعوت المراقبين فى أطوار الملك وأسرار الملكوت المتفكرين فى بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين فى روائع حكمه المودعة فى الأنفس والآفاق الناظرين إلى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصين عن

---

(١) سقطت من ط .

حقيقة سر الحق فى كل موجود المثابرين على مراقبته وذكراه غير ملتفتين إلى شيء مما سواه إلا من حيث أنه مرآة لمشاهدة جماله وآلة لملاحظة صفات كماله فإن كل ما ظهر فى مظاهر الإبداع وحضر محاضر التكوين والاختراع سبيل سوى إلى عالم التوحيد ودليل قوى على الصانع المجيد ناطق بآيات قدرته فهل من سامع واع ومخبر بأنباء علمه وحكمته فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويرد جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عبارة ويلوح أخرى بألطف إشارة مراعيا فى الحوار إبهامهم وتصريحهم وإن من شيء إلا تسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فتأمل فى هذه الشئون والأسرار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل لك يا عائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى فقلت يا رسول الله إنى لأحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام إلى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال له يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال ومالى لا أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة إن فى خلق السموات والأرض الخ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول إن فى خلق السموات والأرض الخ .

﴿ الذين يذكرون الله ﴾ الموصول إما موصول بأولى الألباب مجرور على أنه نعت كاشف له بما فى حيز الصلة وإما مفصول عنه مرفوع أو منصوب على المدح أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر هو القول المقدر قبل قوله تعالى ربنا وفيه من تفكيك النظم الجليل مالايخفى وأياما كان فقد أشير بما فى حيز صلته أن المراد بهم الذين لايغفلون

عنه تعالى فى عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم فى مراقبته لما أيقنوا بأن كل ما سواه فائض منه وعائد إليه فلا يشاهدون حالا من الأحوال فى أنفسهم وإليه أشير بقوله عز وجل ﴿ قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ ولا فى الآفاق وإليه أشير بما بعده إلا وهم يعاينون فى ذلك شأنا من شئونه تعالى فالمراد به ذكره تعالى مطلقا سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والأفعال وسواء قارنه الذكر اللسانى أولا وأما ما يحكى عن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة رضى الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم أما قال الله تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا) فقاموا يذكرون الله على أقدامهم فليس مرادهم به تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين وإنما أرادوا به التبرك بنوع موافقة لها فى ضمن الإتيان بفرد من أفراد مدلولها وأما حمل الذكر على الصلاة فى هذه الأحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران بن الحصين صلى قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب تومىء إيماء فمما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كنيام ورقود جمع نائم وراقد وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون أى يذكرونه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحالين أى وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين والمراد تعميم الذكر للأوقات كما مر وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالبا ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ عطف على يذكرون منتظم معه فى حيز الصلة فلا محل له من الإعراب وقيل محله النصب على أنه معطوف على الأحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكرهم فى أفعاله سبحانه إثر بيان تفكرهم فى ذاته تعالى على الإطلاق وأشار إلى نتيجته التى يؤدى إليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به ألسنة الرسل وآيات الكتب فكما أنها آيات تشريعية هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم إلى ذلك فالأولى منبهات لهم على

الثانية ودواع إلى الاستشهاد بها كهذه الاية الكريمة ونحوها مما ورد في مواضع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للاولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقية مكنونها فإن من تأمل فى تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتى والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات الكمال وحكم بأن من قدر على إنشائه بلا مثال يحتذيه أو قانون ينتحيه فهو على إعادته بالبعث أقدر وحكم بأن ذلك ليس إلا لحكمه باهرة هى جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط بأعمالهم أى علومهم واعتقاداتهم التابعة لأنظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والأمارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرعة على ذلك فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول للعمل القلبى هو أشرف أفراده لما أن لكل من القلب والقالب عملا خاصا .

ومن قضية كون الأول أشرف من الثانى كون عمله أيضاً أشرف من عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفته تعالى التى هى أول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به عز وجل وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون أى ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف وإنما طريقها النظر والتفكر فيما ذكر من شئونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام لاعبادة مثل التفكر وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحقة وإلا لما فسر النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) بقوله عليه الصلاة والسلام أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله تعالى

فإن التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوطة بالكتاب والسنة فحينئذ تتصادق الآيات التكوينية وتتوافق الأدلة السمعية والعقلية وهو السر فى نظم ما حكى عن المتفكرين من الأمور المستدعية للإيمان بالشريعة فى سلك نتيجة تفكرهم كما ستقف عليه وإظهار خلق السموات والأرض مع كفاية الإضمار لإبراز كمال العناية ببيان حالهم والإيذان بكون تفكرهم على وجه التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لإدراج اختلاف الملوين فى سلك التفكر مع ذكره فيما سلف إما للإيذان بظهور اندراجه فيه لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السموات والأرض كما أشير إليه وإما للإشعار بمسارعتهم إلى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكرهم فى بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها فى إثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أى يتفكرون فى إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات وقيل بمعنى المخلوق على أن الإضافة بمعنى فى أى يتفكرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانية .

﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ كلمة هذا إشارة إلى السموات والأرض متضمنة لضرب من التعظيم كما فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما فى معنى المخلوق أو إلى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق وباطلا إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أو حال من المفعول به أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما تنبىء عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكر فيه بل منتظما لحكمة[1] جليلة ومصالح عظيمة من جملتها أن يكون مدارا لمعايش العباد ومنارا يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبما أفصحت عنه الرسل والكتب الإلهية كما تحققته مفصلا والجملة بتمامها فى حيز النصب بقول مقدر

---

(١) فى ط : لحكم .

هو على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الألباب استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات ناشىء مما سبق فإن النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة فى خلق العالم بأولى الألباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر فى محال تلك الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فماذا يكون عند تفكرهم فى ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل كيت وكيت مما ينبىء عن وقوفهم على سر الخلق المؤدى إلى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية على التفصيل الذى وقفت عليه هذا وأما جعله حالا من المستكن فى الفعل كما أطبق عليه الجمهور فمما لا يساعده جزالة النظم الكريم لما أن ما فى حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادىء الحكم الذى أجرى على الموصول ودواعى ثبوته له كذكرهم الله عز وجل فى عامة أوقاتهم وتفكرهم فى خلق السموات والأرض فإنهما مما يؤدى إلى اجتلاء تلك الآيات والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب فى أن قولهم ذلك ليس من مبادىء الاستدلال المذكور بل من نتائجه المترتبة عليه فاعتباره قيداً لما فى حيز الصلة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعا أو منصوبا على المدح أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف إذ لا اشتباه فى أن قولهم ذلك مبادىء مدحهم ومحاسن مناقبهم وفى إبراز هذا القول فى معرض الحال دون الخبر إشعار بمقارنته لتفكرهم من غير تلعثم وتردد فى ذلك.

وقوله تعالى ﴿ سبحانك ﴾ أى تنزيها لك عما لا يليق بك من الأمور التى من جملتها خلق ما لا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممد لما بعده من قوله تعالى ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ فإن معرفة سر خلق العالم وما فيه من الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما تقتضيه من الأعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالى عن العبث من دواعى الاستعاذة مما يحيق بالمخلين بذلك من وجهين أحدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ما ذكر والثانى الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو أعنى الوقاية على ذلك كأنه قيل وإذ قد عرفنا سرك وأطعنا أمرك ونزهناك عما لا ينبغى فقنا عذاب النار الذى

هو جزاء الذين لا يعرفونك [(١)] ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ مبالغة فى استدعاء الوقاية وبيان لسببه وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة فى التضرع والجؤار وتأكيدها لإظهار كمال اليقين بمضمونها والإيذان بشدة الخوف وإظهار النار فى موضع الإضمار لتهويل أمرها وذكر الإدخال فى مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته . قال الواحدى للإخزاء معان متقاربة يقال أخزاه الله أى أبعده وقيل أهانه وقيل أهلكه وقيل فضحه . قال ابن الأنبارى الخزى لغة الهلاك بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع فى بلاء والمعنى فقد أخزيته خزيا لا غاية وراءه كقولهم من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك أى المرعى الذى لا مرعى بعده وفيه من الإشعار بفظاعة العذاب الروحانى ما لا يخفى .

وقوله تعالى ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ببيان خلود عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد الاستدعاء ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الأشياء فى غير مواضعها وجمع الأنصار بالنظر إلى جمع الظالمين أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة على أن المراد بالظالمين هم الكفار .

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مبنى على تأملهم فى الدليل السمعى بعد حكاية دعائهم السابق المبنى على التفكر فى الأدلة العقلية وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة والابتهال والتأكيد للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال النشاط والمراد بالنداء الدعاء وتعديتهما بإلى لتضمنهما معنى الإنهاء وباللام لاشتمالها على معنى التخصيص [(٢)] والمراد بالمنادى الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوينه [(٣)] للتفخيم وإيثاره على

---

(١) فى ط : لا يعرفون ذلك .

(٢) فى ط : الاختصاص . (٣) فى ط : وتنويه .

الداعى للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الدانى والقاصى لما فيه من الإيذان برفع الصوت وينادى صفة لمناديا عند الجمهور كما فى قولك سمعت رجلا يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالا منه كما إذا قلت سمعت زيدا يقول الخ ومفعول ثان لسمعنا عند الفارسى وأتباعه وهذا أسلوب بديع يصار إليه للمبالغة فى تحقيق السماع والإيذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل إلى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى ثم وصف بالنداء للإيمان على طريقة قولك سمعت متكلما يتكلم بالحكمة لما أن التفسير بعد الإبهام والتقييد بعد الإطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول وقيل المنادى القرآن العظيم ﴿أن آمنوا﴾ على أن «أن» تفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية ﴿بربكم﴾ بمالككم ومتولى أموركم ومبلغكم إلى الكمال وفى إطلاق الإيمان ثم تقييده تفخيم لشأنه .

﴿فآمنا﴾ أى فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءه ﴿ربنا﴾ تكرير للتضرع وإظهار لكمال الخضوع وعرض للاعتراف بربوبيته مع الإيمان به والفاء فى قوله تعالى : ﴿فاغفر لنا﴾ الفاء لترتيب المغفرة أو الدعاء بها على الإيمان به تعالى والإقرار بربوبيته فإن ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها ﴿ذنوبنا﴾ أى كبائرنا فإن الإيمان يجب ما قبله ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أى صغائرنا فإنها مكفرة عمن اجتنب[1] الكبائر ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أى مخصوصين بصحبتهم مغتنمين لجوارهم معدودين من زمرتهم وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والأبرار جمع بار أو بر كأصحاب وأرباب ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخلية وتكرير النداء لما مر مكررا والمراد بالموعود الثواب وعلى إما متعلقة بالوعد كما فى قولك

(١) فى ط : ومجتنب .

وعد الله الجنة على الطاعة أى وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أى وعدتنا وعدا كائنا على ألسنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة فى مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لا سيما فى باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب) الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على ألسنة الكل وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقة بإنجاز الموجود بناء على كثرة الشهود .

﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله (يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه) مظهرين أنهم ممن آمن معه رجاء للانتظام فى سلكهم يومئذ وقوله تعالى ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ تعليل لتحقيق ما نظموا فى سلك الدعاء وهذه الدعوات وما فى تضاعيفها كمال الضراعة والابتهال ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد بل لخوفهم من ألا يكونوا من جملة الموجودين بتغير الحال وسوء الخاتمة والمآل فمرجعها إلى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة فى التعبد والخشوع والميعاد الوعد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه البعث بعد الموت وفى الآثار عن جعفر الصادق من حزبه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية .

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ الاستجابة بمعنى الإجابة وقال تاج القراء الإجابة عامة والاستجابة خاصة باعطاء المسئول وتتعدى باللام وبنفسها كما فى قوله :

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب * وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على ما فى حيزه من الأدعية كما أن قوله عز وجل (ثم قيل للذين ظلموا) الخ عطف على قيل المقدر قبل الآن أى قيل لهم آلآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما أن قوله تعالى فى سورة الأعراف (ونطبع على قلوبهم) معطوف

على ما دل عليه معنى أو لم يهد لهم الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير فى اختلافهما صيغة لما أن صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء وصيغة الماضى ههنا للإيذان بتحقيق الاستجابة وتقررها كما لاضير فى الاختلاف بين قوله تعالى (إذ تستغيثون ربكم) وبين ماعطف عليه من قوله تعالى (فاستجاب لكم) كما سيأتى ويجوز أن يكون معطوفا على مضمر ينساق إليه الذهن أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب الخ وأما على تقدير كون المقدر حالا فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالا من فاعله أعنى قوله تعالى ربنا ربنا الخ فإن الاستجابة مترتبة على دعواتهم لا على مجرد تفكرهم وحيث كانت هى من أوصافهم الجميلة المترتبة على أعمالهم بالآخرة استحقت الانتظام فى سلك محاسنهم المعدودة فى أثناء مدحهم وأما على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الألباب فلا مساغ لهذا العطف أصلا لما عرفت من أن حق مافى حيز الصلة أن يكون من مبادى جريان الحكم على الموصول وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك فأين الاستجابة المتأخرة عنها وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم من تشريفهم وإظهار اللطف بهم مالا يخفى .

﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ أى بأنى وهكذا قرأ أبى رضى الله عنه والباء للسببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لايضيع عمل عامل منهم أى سنته السنية مستمرة على ذلك والالتفات إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب والمراد تأكيدها ببيان سببها والإشعار بأن مدارها أعمالهم التى قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وإن لم يبلغوا درجة أولى الألباب لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة والتعبير عن ترك الإثابة بالإضاعة مع أنه ليس بإضاعة حقيقة إذ الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وقرىء بكسر الهمزة على إرادة

القول أى قائلا إنى الخ فلا إلتفات حينئذ وقرىء لا أضيع بالتشديد ومن متعلقة بمحذوف وقع صفه لعامل أى عامل كائن منكم وقوله تعالى ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ بيان لعامل وتأكيد لعمومه وقوله تعالى ﴿ بعضكم من بعض ﴾ جملة معترضة مبينة لسبب انتظام النساء فى سلك الرجال فى الوعد فإن كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من أصل واحد أو لفرط الإتصال بينهما أو لاتفاقهما فى الدين والعمل بما[1] يستدعى الشركة والاتحاد فى ذلك . روى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أسمع الله تعالى يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى ﴿ فالذين هاجروا ﴾ ضرب تفصيل لما أجمل فى العمل وتعداد لبعض أحاسن أفراده على وجه المدح والتعظيم أى فالذين هجروا[2] الشرك أو الأوطان والعشائر للدين وقوله تعالى .

﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ على الأول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثانى عن كيفيتها وكونها بالقسر والاضطرار ﴿ وأوذوا فى سبيلى ﴾ أى بسبب الله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قبل المشركين ﴿ وقاتلوا ﴾ أى الكفار فى سبيل الله تعالى ﴿ وقتلوا ﴾ استشهدوا فى القتال وقرىء بالعكس لما أن الواو لا تستدعى الترتيب أو لأن المراد قتل بعضهم وقتال آخرين إذ ليس المعنى على اتصاف كل فرد من أفراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر فى حيز الصلة بل على اتصاف الكل بالكل فى الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الأوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثر إما بطريق التوزيع أو بطريق حذف بعض الموصولات من البين كما هو رأى الكوفيين كيف لا ولو أدير الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد أضيع عمل من اتصف بالبعض وقرىء وقتلوا بالتشديد .

﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ جواب قسم محذوف أى والله لأكفرن والجملة القسمية خبر للمبتدأ الذى هو الموصول وهذا تصريح بوعد ما سأله

---

(١) فى ط : مما . (٢) فى ط : هاجروا .

الداعون بخصوصه بعد ما وعد ذلك عموما وقوله تعالى ﴿ ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ إشارة إلى ما عبر عنه الداعون فيما قبل بقولهم وآتنا ما وعدتنا على رسلك وتفسير له ﴿ ثوابا ﴾ مصدر مؤكد لما قبله فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة فى معنى الإثابة وقوله تعالى ﴿ من عند الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة له مبينة لشرفه أى لأثيبنهم إثابة كائنة أو تثويبا كائنا من عنده تعالى بالغا إلى المرتبة العالية[1] من الشرف وقوله تعالى ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والعندية عبارة عن الاختصاص به تعالى مثل كونه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدر عليه غيره بحال شيء يكون بحضرة أحد لا يد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل عنده خبراً مقدماً لحسن الثواب أولا وفى تصدير الوعد الكريم بعدم إضاعة العمل ثم تعقيبه بمثل هذا الإحسان الذى لا يقدر[2] قدره من لطف المسلك المنبيء عن عظم شأن المحسن ما لا يخفى .

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾ بيان لقبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها إثر بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على أن المراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى (فلا تطع المكذبين) أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب إلى مداره القوم ورؤسائهم والمراد أفناؤهم[3] ولكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين والنهى للمخاطب وإنما جعل للتقلب مبالغة أى لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط فى المكاسب والمتاجر والمزارع . روى أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين

---

(١) فى ط : القاصية . (٢) فى ط : لا يقادر .

(٣) فى ١١ : عامتهم وهما بمعنى .

فى رخاء ولين عيش فيقولون إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت وقرىء لا يغرنك بالنون الخفيفة ﴿ متاع قليل ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع قليل لا قدر له فى جنب ما ذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى ليم فلينظر بم يرجع فإذن لايجدى وجوده لواجديه ولا يضر فقدانه لفاقديه ﴿ ثم مأواهم ﴾ أى مصيرهم الذى يأوون إليه لا يبرحونه ﴿ جهنم ﴾ التى لا يوصف عذابها وقوله تعالى .

﴿ وبئس المهاد ﴾ ذم لها وإيذان بأن مصيرهم إليها مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ بيان لكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له إثر تقرير مع زيادة خلودهم فى الجنات ليتم بذلك سرورهم ويزداد تبجحهم ويتكامل به سوء حال الكفرة وإيراد التقوى فى حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الإتقاء من الشرك والمعاصى فالموصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع به على الفاعليه لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر لجنات والجملة خبر للموصول وخالدين فيها أى فى الجنات حال مقدرة من الضمير أو من جنات لتخصصها بالوصف والعامل ما فى الظرف من معنى الاستقرار ﴿ نزلا من عند الله ﴾ وقرىء بسكون الزاى وهو ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال أبو الشعر الضبى :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وانتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالوصف والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كأنه قيل رزقا أو عطاء من عند الله ﴿ وما عند الله خير ﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ للأبرار ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لخير أى ما عنده تعالى من الأمور المذكورة الدائمة خير كائن للأبرار أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم

بالأبرار للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر كما أنها من قبيل التقوى والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت هناتهم من نبذ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة . قيل هم عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا وقيل المراد به أصحمة النجاشي فإنه لما مات نعاه جبريل إلى النبي عليه السلام فقال عليه السلام أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فخرج إلى البقيع فنظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه واستغفر له فقال المنافقون أنظروا إلى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط وليس على دينه فنزلت وإنما دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما كما فى قوله تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن) .

﴿ وما أنزل إليكم ﴾ من القرآن ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ من الكتابين وتأخير إيمانهم بهما عن إيمانهم بالقرآن فى الذكر مع أن الأمر بالعكس فى الوجود لما أنه عيار ومهيمن عليهما فإن إيمانهم بهما إنما يعتبر بتبعية إيمانهم به إذ لا عبرة بأحكامهما المنسوخة وما لم ينسخ منها إنما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن ولتعلق ما بعده بهما والمراد بإيمانهم بهما إيمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو ديدن المحرفين وأتباعهم من العامة ﴿ خاشعين لله ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال كما قبله ونظمها فى سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لإظهار ما فى الكتابين من شواهد نبوته عليه السلام ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم من حيث اتصافهم بما عد من صفاتهم الحميدة وما فيه من معنى البعد للدلالة على رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضيلة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ لهم ﴾ وقوله ﴿ أجرهم ﴾ أى المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) وقوله تعالى (يؤتكم كفلين من رحمته)

مرتفع بالظرف على الفاعلية أو على الإبتداء والظرف خبره والجملة خبر لأولئك وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ نصب على الحالية من أجرهم والمراد به التشريف كالصفة .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الأجر من غير حاجة إلى تأمل والمراد بيان سرعة وصول الأجر الموعود إليهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إثر ما بين فى تضاعيف السورة الكريمة فنون الحكم والأحكام ختمت بما يوجب المحافظة عليها فقيل ﴿ اصبروا ﴾ أى على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد ﴿ وصابروا ﴾ أى غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب وأعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿ ورابطوا ﴾ أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو مستعدين له قال تعالى (ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وعن النبى صلى الله عليه وسلم من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلى لحاجة ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفة أمره على الإطلاق فيندرج فيه ما ذكر فى تضاعيف السورة الكريمة إندراجا أولياً ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ كى تنتظموا فى زمرة المفلحين الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل الكروب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس والله أعلم .

* * *

سورة النساء ، مدنية ، وهى مائة وخمس وسبعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فإن خطاب المشافهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف إلا عند الحنابلة بل إما بطريق تغليب الفريق الأول على الأخيرين وإما بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجى فإن الإجماع منعقد على أن آخر الأمة مكلف بما كلف به أولها كما ينبيء عنه قوله عليه السلام الحلال ما جرى على لسانى إلى يوم القيامة والحرام ما جرى على لسانى إلى يوم القيامة وقد فصل فى موضعه وأما الأمم الدارجة قبل النزول فلاحظ لهم فى الخطاب لاختصاص الأوامر والنواهى بمن يتصور منه الامتثال وأما اندراجهم فى خطاب ما عداهما مما له دخل فى تأكيد التكليف وتقوية الإيجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر فى قوله تعالى ﴿ اتقوا ربكم ﴾ فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للإناث عند غير الحنابلة وأما إدخالهن فى الأمر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجى وإن كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعى تخصيص لفظ الناس ببعض أفراده والمأمور به إما مطلق التقوى التى هى التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وإما التقوى فيما يتعلق بحقوق أبناء الجنس أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيه على الإطلاق أو فى مخالفة تكاليفه الوارة ههنا وأياً ما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى .

﴿ الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ فإن خلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التى من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لا قدارها من أقوى الدواعى إلى الاتقاء من موجبات

نقمته وأتم الزواجر عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى إياهم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة هى نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة وتعميم الخطاب فى ربكم وخلقكم للامم السالفة أيضا مع اختصاصه فيما قبل بالمأمورين بناء على أن تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقه للكل من مؤكدات الأمر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لأن خلقه تعالى للمأمورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة ما بينهم وبينه عليه السلام من الآباء والأمهات كان التعرض لخلقهم متضمنا للتعرض لخلق الوسايط جميعا وكذا التعرض لربوبيته تعالى لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لأصولهم قاطبة لا سيما وقد نطق بذلك قوله عز وجز ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ فإنه مع ما عطف عليه صريح فى ذلك وهو معطوف إما على مقدر ينبىء عنه سوق الكلام لأن تفريغ الفروع من أصل واحد يستدعى إنشاء ذلك الأصل لا محالة كأنه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبدأ وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ما أجمل أولا أو صفة لنفس مفيدة لذلك وإما على خلقكم داخل معه فى حيز الصلة مقرر ومبين لما ذكر وإعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الأول كما فى قوله تعالى(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم) الخ لإظهار ما بين الخلقين من التفاوت فإن الأول بطريق التفريع من الأصل والثانى بطريق الإنشاء من المادة فإنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وتأخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما أن تذكير خلقهم أدخل فى تحقيق ما هو المقصود من حملهم على الامتثال بالأمر بالتقوى من تذكير خلقها وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيته عليه السلام لها مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مرارا وإيرادها بعنوان الزوجية تمهيد لما بعده من التناسل .

﴿ وبث منهما ﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل ﴿ رجالا كثيرا ﴾ نعت لرجالا مؤكد لما أفاده التنكير من الكثرة والإفراد باعتبار معنى الجمع أو العدد وقيل هو نعت لمصدر مؤكد للفعل أى بثا كثيرا ﴿ ونساء ﴾ أى كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور وإيثارهما على ذكورا وإناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره وقرىء وخالق وباث على حذف المبتدأ أى وهو خالق وباث ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به ﴾ تكرير للأمر وتذكير ببعض[1] آخر من موجبات الامتثال به فإن سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بأن يقولوا أسألك بالله وأنشدك الله على سبيل الاستعطاف يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وإدخال الروعة ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته وتساءلون أصله تتساءلون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا وقرىء بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس وقرىء تسألون من الثلاثى أى تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الأولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما فى قولك رأيت الهلال وتراءيناه وبه فسر عم يتساءلون على وجه وقرىء تسلون بنقل حركة الهمزة إلى السين .

﴿ والأرحام ﴾ بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة تساءلون به وبالأرحام فإنهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل ويقولون أسألك بالله وبالرحم أو عطفا على الاسم الجليل أى اتقوا الله والأرحام وصلوها ولا تقطعوها فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى وهو قول مجاهد وقتادة والسدى والضحاك والفراء والزجاج وقد جوز الواحدى نصبه على الإغراء أى والزموا الأرحام وصلوها وقرىء بالجر عطفا على الضمير المجرور وبالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام

---

(١) فى ط : لبعض .

كذلك أى مما يتقى أو يتساءل به وقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على أن صلتها بمكان منه كما فى قوله تعالى (أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وعنه عليه السلام الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ أى مراقبا وهى صيغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا إذا أحد النظر لأمر يريد تحقيقه أى حافظا مطلعا على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال وعلى ما فى ضمائركم من النيات مريدا لمجازاتكم بذلك وهو تعليل للأمر ووجوب الامتثال به وإظهار الاسم الجليل لتأكيده وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل .

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها أمرا ونهيا عقيب الأمر بنفسه مرة بعد أخرى وتقديم ما يتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم ولملابستهم بالأرحام إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب واليتيم من مات أبوه من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وجمعه على يتامى إما أنه لما جرى مجرى الأسماء جمع على يتائم ثم قلب فقيل يتامى أو لأنه لما كان من وادى الآفات جمع على يتمى ثم جمع يتمى على يتامى والاشتقاق يقتضى صحة إطلاقه على الكبار أيضا واختصاصه بالصغار مبنى على العرف وأما قوله عليه السلام لا يتم بعد الحلم فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ أى لا يجرى على اليتيم بعده حكم الأيتام والمراد بإيتاء أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة كما ينبىء عنه ما بعده عن النهى عن التبدل والأكل لا الإعطاء بالفعل فإنه مشروط بالبلوغ وإيناس الرشد على ما ينطق به قوله تعالى (حتى إذا بلغوا) الآية وإنما عبر عما ذكر بالإيتاء مجازا للإيذان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك إيصالا إليهم لا مجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم إما الصغار على ما هو المتبادر والأمر خاص بمن يتولى أمرهم من الأولياء والأوصياء وشمول حكمه لأولياء من كان بالغا عند نزول الآية بطريق الدلالة دون العبارة وأما من جرى عليه

اليتم فى الجملة مجازا أعم من أن يكون كذلك عند النزول أو بالغا فالأمر شامل لأولياء الفريقين صيغة موجب عليهم ما ذكر من حفظ أموالهم والتحفظ عن إضاعتها مطلقا وأما وجوب الدفع إلى الكبار فمستفاد مما سيأتى من الأمر به وقيل المراد بهم الصغار وبالإيتاء الإعطاء فى الزمان المستقبل وقيل أطلق اسمهم على الكبار بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتم حثا للأولياء على المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم أول ما بلغوا قبل أن يزول عنهم اسمهم المعهود فالإيتاء بمعنى الإعطاء بالفعل ويأباهما ما سيأتى من قوله تعالى (وابتلوا اليتامى) الخ فإن ما فيه من الأمر بالدفع وارد على وجه التكليف الابتدائى لا على وجه تعيين وقته أو بيان شرطه فقط كما هو مقتضى القوانين وأما تعميم الاسم للصغار والكبار مجازا بطريق التغليب مع تعميم الإيتاء للإيتاء حالا وللإيتاء مآلا وتعميم الخطاب لأولياء كلا الفريقين على أن من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع إليه بالفعل وأن من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع إليه عند بلوغه الرشد فمع ما سبق تكلف لا يخفى فالأنسب ما تقدم من حمل إيتاء أموالهم إليهم على ما يؤدى إليه من ترك التعرض لها بسوء كما يلوح من التعبير عن الإعطاء بالفعل بالدفع سواء أريد باليتامى الصغار أو ما يعم الصغار والكبار حسبما ذكر آنفا وأما ما روى من أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه فنزلت فلما سمعها قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فغير قادح فى ذلك لما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ نهى عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهى الضمنى عن أخذه على الإطلاق وتبدل الشىء بالشىء واستبداله به أخذ الأول بدل الثانى بعد أن كان حاصلا له أو فى شرف الحصول يستعملان أبدا بإفضائهما إلى الحاصل بأنفسهما وإلى الزائل بالباء كما فى قوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) الخ وقوله تعالى (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) وأما التبديل فيستعمل تارة كذلك كما فى قوله تعالى (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) الخ وأخرى بالعكس كما فى قولك بدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وجعلتها خاتما

نص عليه الأزهرى وتارة أخرى بإفضائه إلى مفعوليه بنفسه كما فى قوله تعالى (يبدل الله سيئاتهم حسنات) والمراد بالخبيث والطيب إن كان هو الحرام والحلال فالمنهى عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج وقيل معناه لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالمنهى عنه أكل ماله مكان مالهم المحقق أو المقدر وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وأياما كان فإنما عبر عنهما بهما تنفيرا عما أخذوه وترغيبا فيما أعطوه وتصويرا لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل وإن كان هو الردىء والجيد فمورد النهى ما كانوا عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم وإعطاء الردىء من مال أنفسهم وبه قال سعيد ابن المسيب والنخعى والزهرى والسدى وتخصيص هذه المعاملة بالنهى لخروجها مخرج العادة لا لإباحة ما عداها وأما التعبير عنها بتبدل الخبيث بالطيب مع أنها تبديله به أو تبدل الطيب بالخبيث فللإيذان بأن الأولياء حقهم أن يكونوا فى المعاوضات عاملين لليتيم لا لأنفسهم مراعين لجانبه قاصدين لجلب المجلوب إليه مشترى كان أو ثمنا لا لسلب المسلوب عنه ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم ولا تسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولى فقيرا ﴿ إنه ﴾ أى الأكل المفهوم من النهى ﴿ كان حوبا ﴾ أى ذنبا عظيما وقرىء بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا وقرىء حابا وهو أيضا مصدر كقال قولا وقالا ﴿ كبيرا ﴾ مبالغة فى بيان عظم ذنب الأكل المذكور كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفنائها ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى ﴾ الإقساط العدل وقرىء بفتح التاء فقيل هو من قسط أى جار ولا مزيدة كما فى قوله تعالى (لئلا يعلم) وقيل هو بمعنى أقسط فإن الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط والمراد بالخوف العلم كما فى قوله تعالى (فمن خاف من موص جنفا) عبر عنه بذلك إيذانا بكون المعلوم مخوفا محذورا لا معناه الحقيقى لأن الذى علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه وإلا لم يكن الأمر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخافه وهذا

شروع فى النهى عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة وبأموالهم تبعا عقيب النهى عما يتعلق بأموالهم خاصة وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهى عنه بالنسبة إلى الأول ونزوله منه بمنزلة المركب من الفرد وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من اليتامى اللاتى يلونهن لكن لا لرغبة فيهن بل فى مالهن ويسيئون فى الصحبة والمعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن وهذا قول الحسن وقيل هى اليتيمة التى تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من مهر نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء وهذا قول الزهرى رواية عن عروة عن عائشة رضى الله عنها وأما اعتبار اجتماع عدد كثير منهن كما أطبق عليه أكثر أهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال ويكون وليها فيتزوجها ضناً بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر منهن الخ فلا يساعده الأمر بنكاح غيرهن فإن المحذور حينئذ يندفع بتقليل عددهن أى وإن خفتم أن لا تعدلوا فى حق اليتامى إذا تزوجتم بهن بإساءة العشرة أو بنقص الصداق ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ ما موصولة أو موصوفة ما بعدها صلتها أو صفتها أوثرت على من ذهابا إلى الوصف وإيذانا بأنه المقصود بالذات والغالب فى الاعتبار لا بناء على أن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء لإخلاله بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن أبى عبلة من طاب ومن فى قوله تعالى ﴿من النساء﴾ بيانية وقيل تبعيضية والمراد بهن غير اليتامى بشهادة قرينة المقام أى فانكحوا من استطابتهن نفوسكم من الأجنبيات وفى إيثار الأمر بنكاحهن على النهى عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف فى استنزالهم عن ذلك فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذى أشير إليه فيه مبالغة فى الاستمالة إليهن والترغيب فيهن وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر فى توجيه النهى الضمنى إلى النكاح المترقب مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة إلى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة فى بيان حال النكاح

المحقق فإن محظوريه المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى وقيل المراد بالطيب الحل أى ماحل لكم شرعا لأن ما استطابوه شامل للمحرمات ولا مخصص له بمن عداهن وفيه فرار من محذور ووقوع فيما هو أفظع منه لأن ما حل لهم مجمل وقد تقرر أن النص إذا تردد بين الإجمال والتخصيص يحمل على الثانى لأن العام المخصوص حجة فى غير محل التخصيص والمجمل ليس بحجة قبل ورود البيان أصلا ولئن جعل قوله تعالى حرمت عليكم الخ دالا على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه فى التنزيل فليجعل دالا على التخصيص ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ معدولة عن أعداد مكررة غير منصرفة لما فيها من العدلين عدلها عن صيغها وعدلها عن تكررها وقيل للعدل والصفة فإنها بنيت صفات وإن لم تكن أصولها كذلك وقرىء وثلث وربع على القصر من ثلاث ورباع ومحلهن النصب على أنها حال من فاعل طاب مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن والاستمالة إليهن بتوسيع دائرة الإذن أى فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا حسبما تريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أى عدد شاء من الأعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم وبعضها لبعض آخر كما فى قولك اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعه أربعة ولو أفردت لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الأعداد دون التوزيع ولو ذكرت بكلمة أو لفات تجويز الاختلاف فى العدد ، هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الأولياء يتحرجون من ولايتهم خوفا من لحوق الحوب بترك الإقساط مع أنهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل فى حقوق النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر منهن فقيل لهم إن خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنى وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل إن خفتم الجور فى حق اليتامى

فخافوا الزنى فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات ولا يخفى أنه لا يساعدهما جزالة النظم الكريم لبنائهما على تقدم نزول الآية الأولى وشيوعها بين الناس مع ظهور توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) إلى قوله تعالى (وكفى بالله حسيبا) .

﴿ فإن خفتم أن لا تعدلوا ﴾ أى فيما بينهن ولو فى أقل الأعداد المذكورة كما خفتموه فى حق اليتامى أو كما لم تعدلوا فى حقهن أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الأعداد ﴿ فواحدة ﴾ أى فالزموا أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع بالكلية وقرىء بالرفع أى فالمقنع واحدة أو فحسبكم واحدة ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أى من السرارى بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق التسرى لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين فى الموضعين بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم) فإن المأمور بالنكاح هناك غير المخاطبين بملك اليمين وإنما سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السرارى من غير حصر فى عدد لقلة تبعتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم بينهن وقرىء أو من ملكت أيمانكم وما فى القراءة المشهورة للإيذان بقصور رتبتهن عن رتبة العقلاء ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسرى ﴿ أدنى أن لا تعولوا ﴾ العول الميل من قولهم عال الميزان عولا إذا مال وعال فى الحكم أى جار والمراد هنا الميل المحظور المقابل للعدل أى ما ذكر من اختيار الواحدة والتسرى أقرب بالنسبة إلى ما عداهما من أن لا تميلوا ميلا محظورا لانتفائه رأسا بانتفاء محله فى الأول وانتفاء خطره فى الثانى بخلاف اختيار العدد فى المهائر فإن الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر ومن ههنا تبين أن مدار الأمر هو عدم العول لا تحقق العدل كما قيل وقد فسر بأن لا يكثر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم أى مانهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكناية ويؤيده قراءة أن تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله ووجه كون

التسرى مظنة قلة العيال مع جواز الاستكثار من السرارى أنه يجوز العزل عنهن بغير رضاهن ولا كذلك المهائر والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى التعليل ﴿ وآتوا النساء ﴾ أى اللاتى أمر بنكاحهن ﴿ صدقاتهن ﴾ جمع صدقة كسمرة وهى المهر وقرىء بسكون الدال على التخفيف وبضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة كغرفة وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة فى ظلمة ﴿ نحلة ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد فريضةمن الله تعالى لأنها مما فرضه الله فى النحلة أى الملة والشرعة والديانة فانتصابها على الحالية من الصدقات أى أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينا فانتصابها على أنها مفعول له أى أعطوهن ديانة وشرعية وقال الكلبى نحلة أى هبة وعطية من الله وتفضلا منه عليهن فانتصابه على الحالية منها أيضاً وقيل عطية من جهة الأزواج من نحله كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر وانتصابها على المصدرية لأن الإيتاء والنحلة بمعنى الإعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحالية من ضمير آتوا أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبى النفوس بالإعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة الأنفس فالخطاب للأزواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم وكانوا يقولون هنيئا لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك أى تعظمه ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه ﴾ الضمير للصدقات وتذكيره لإجرائه مجرى ذلك فإنه يشار به إلى المتعدد كما فى قوله عز وجل (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) بعد ذكر الشهوات المعدودة وقد روى عن رؤبة أنه حين قيل له فى قوله :

فيها خطوط من سواد وبلق وكأنه فى الجلد توليع البهق

إن أردت الخطوط ينبغى أن تقول كأنها وإن أردت السواد والبلق ينبغى أن تقول كأنهما قال لكنى أردت كأن ذلك أو للصداق الواقع موقعه صدقاتهن

كأنه قيل وآتوا النساء صداقهن كما فى قوله تعالى (فأصدق وأكن) حيث عطف أكن على ما دل عليه المذكور ووقع موقعه كأنه قيل إن أخرتنى أصدق وأكن. واللام متعلقة بالفعل وكذا عن لكن بتضمينه معنى التجافى والتجاوز ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أى كائن من الصداق وفيه بعث لهن على تقليل الموهوب ﴿ نفسا ﴾ تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أى إن وهبن لكم شيئا من الصداق متجافيا عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم لهن عدل عن لفظ الهبة والسماحة إلى ما عليه النظم الكريم إيذانا بأن العمدة فى الأمر إنما هو طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة ﴿ فكلوه ﴾ أى فخذوا ذلك الشيء الذى طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية ﴿ هنيئا مريئا ﴾ صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغا لا تنغيص فيه وقيل الهنيء الذى يلذه الآكل والمريء ما يحمد عاقبته وقيل ما ينساغ فى مجراه الذى هو المريء وهو ما بين الحلقوم إلى فم المعدة سمى بذلك لمروء الطعام فيه أى انسياغه ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر أى أكلا هنيئا مريئا أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أى كلوه وهو هنيء مريء وقد يوقف على كلوه ويبتدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين كأنه قيل هنأ ومرأ وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة فى الإباحة وإزالة التبعة . روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا مما ساقه إليها فنزلت ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ رجوع إلى بيان بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شرط إيتائها ووقته وكيفيته إثر بيان بعض الأحكام المتعلقة بأنفسهن أعنى نكاحهن وبيان بعض الحقوق المتعلقة بغيرهن من الأجنبيات من حيث النفس ومن حيث المال استطرادا والخطاب للأولياء نهوا أن يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها وإنما أضيفت إليهم وهى لليتامى لا نظرا إلى كونها تحت ولايتهم كما قيل فإنه غير مصحح لاتصافها

بالوصف الآتى بل تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء فكأن أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الإتحاد الجنسى والنسبى مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها كما فى قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم بعضا حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم مبالغة فى زجرهم عن قتلهم فكأن قتلهم قتل أنفسهم وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناط لمعاش الأولياء فقيل ﴿ التى جعل الله لكم قياما ﴾ أى جعلها الله شيئا تقومون به وتنتعشون على حذف الأول فلو ضيعتموه لضعتم ثم زيد فى المبالغة حتى جعل ما به القيام قياما فكأنها فى أنفسها قيامكم وانتعاشكم وقيل إنما أضيفت إلى الأولياء لأنها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم حيث لم يقصد بها الخصوصية الشخصية بل الجنسية التى هى معنى ما يقام به المعاش وتميل إليه القلوب ويدخر لأوقات الاحتياج وهى بهذا الاعتبار لا تختص باليتامى وأنت خبير بأن ذلك بمعزل من حمل الأولياء على المحافظة المذكورة كيف لا والوحدة الجنسية المالية ليست مختصة بما بين أموال اليتامى وأموال الأولياء بل هى متحققة بين أموالهم وأموال الأجانب فإذن لا وجه لاعتبارها أصلا وقرىء اللاتى واللواتى وقرىء قيما بمعنى قياما كما جاء عوذا بمعنى عياذا وقرىء قواما بكسر القاف وهو ما يقام به الشىء أو مصدر قاوم وقرىء بفتحها ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ أى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا وتربحوا حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال وقيل الخطاب لكل أحد كائنا من كان والمراد نهيه عن أن يفوض أمر ماله إلى من لا رشد له من نسائه وأولاده ووكلائه وغير ذلك ولا يخفى أن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم ﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ أى كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج عدوهم عدة جميلة بأن تقولوا إذا صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه شرعا أو عقلا من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته لقبحه شرعا أو عقلا فهو منكر ﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ شروع فى تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم وبيان

شرطه بعد الأمر بإيتائها على الإطلاق والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فإن كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعا وشراء وإن كانوا ممن له ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لكم كيفية أحوالهم ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ بأن يحتلموا لأنهم يصلحون حينئذ للنكاح ﴿ فإن آنستم ﴾ أى شاهدتم وتبينتم وقرىء أحستم بمعنى أحسستم كما فى قول من قال :

خلا أن العتاق من المطايا أحسن به وهن إليه شوس

﴿ منهم رشدا ﴾ أى اهتداء إلى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو للاعتداد بمبدئيته له والتنوين للدلالة على كفاية رشد فى الجملة وقرىء بفتح الراء والشين وبضمهما ﴿ فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ وفى إيثار الدفع على الإيتاء الوارد فى أول الأمر إيذان بتفاوتهما بحسب المعنى كما أشير إليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة أن حتى هى التى تقع بعدها الجمل كالتى فى قوله :

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للإبتلاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه الشرطية الثانية كأنه قيل وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالعجز لا يدفع إليه ماله أبداً وبه أخذ أبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن البلوغ بالسن ثمانى عشر سنة فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لما قاله عليه الصلاة والسلام مروهم بالصلاة لسبع دفع إليه ماله أونس منه

أو لم يؤنس ﴿ ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ﴾ أى مسرفين ومبادرين كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا والجملة تأكيد للأمر بالدفع وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ﴾ الخ أى من كان من الأولياء والأوصياء غنيا فليتنزه عن أكلها وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى والرزق إشفاقا على اليتيم وإبقاء على ماله ﴿ ومن كان ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿ فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته وفى لفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف ما يدل على أن للوصى حقاً لقيامه عليها . عن النبى عليه الصلاة والسلام أن رجلا قال له إن فى حجرى يتيما أفآكل من ماله قال بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ولى يتيم قال له أفأشرب من لبن إبله قال إن كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى الحلب وعن محمد بن كعب يتقرم كما تتقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لابد منه وعن الشعبى يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه وعنه كالميتة يتناول عند الضرورة وعن مجاهد يستسلف فإذا أيسر أدى وعن سعيد بن جبير إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاه وإن أعسر فهو فى حل وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنى أنزلت نفسى من مال الله تعالى منزلة ولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أيسرت قضيت . واستعف أبلغ من عف كأنه يطلب زيادة العفة ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴾ بعد ما راعيتم الشرائط المذكورة وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام به ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذممكم لما أن ذلك أبعد من التهمة وأنفى للخصومة وأدخل فى الأمانة وبراءة الساحة وإن لم يكن ذلك واجبا عند أصحابنا فإن الوصى مصدق فى الدفع مع اليمين خلافا لمالك والشافعى رحمهما الله ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أى

محاسباً فلا تخالفوا ما أمركم به ولا تجاوزوا ما حد لكم ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ شروع فى بيان أحكام المواريث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقله إليهم بالإرث والمراد بالأقربين المتوارثون منهم ومن فى مما متعلقة بمحذوف وقع صفة لنصيب أى لهم نصيب كائن مما ترك وقد جوز تعلقها بنصيب ﴿ وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ إيراد حكمهن على الاستقلال دون الدرج فى تضاعيف أحكامهم بأن يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن والإيذان بأصالتهن فى استحقاق الإرث والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبى الفريقين والمبالغة فى إبطال حكم الجاهلية فإنهم لم يكونوا يورثون النساء والأطفال ويقولون إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة روى أن أوس بن ثابت الأنصارى خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فزوى أبناء عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه فقال ارجعى حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى فنزلت فأرسل إليهما إن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين فلا تفرقا من مال أوس شيئاً حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى لابنى العم وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب وقوله تعالى ﴿ مما قل منه أو كثر ﴾ بدل من ما الأخيرة بإعادة الجار وإليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد فى الجملة الأولى أيضاً محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم تخصيص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقا من كل ما جل ودق ﴿ نصيبا مفروضا ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى (فريضة من الله) كأنه قيل قسمة مفروضة أو على الحالية إذ المعنى ثبت لهم نصيب كائن مما ترك الوالدان والأقربون حال كونه مفروضا أو على الاختصاص أى أعنى نصيبا مقطوعا مفروضا واجبا لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ أى قسمة التركة وإنما قدمت مع كونها مفعولا لأنها المبحوث عنها ولأن فى الفاعل تعددا فلو روعى الترتيب

يفوت تجاوب أطراف الكلام ﴿ أولو القربى ﴾ ممن لا يرث ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ من الأجانب ﴿ فارزقوهم منه ﴾ أى أعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة وقيل الضمير لما وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطييبا لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقا عليهم وقيل أمر وجوب ثم اختلف فى نسخه ﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ويعتذروا من ذلك ولا يمنوا عليهم ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم أو لمن حضر المريض من العواد عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافا مثلهم هل يجوزون حرمانهم أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا فى الوصية ولو بما فى حيزها صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ورثة ضعافا خافوا عليهم الضياع وفى ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبعث على التراحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه وتهديد للمخالف بحال أولاده وقرىء ضعفاء وضعافى وضعافى ﴿ فليتقوا الله ﴾ فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ﴿ وليقولوا قولا سديدا ﴾ أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثانى ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب أو للمريض ما يصده عن الإسراف فى الوصية وتضييع الورثة يذكره التوبة وكلمة الشهادة أو لحاضرى القسمة عذرا ووعدا حسنا أو يقولوا فى الوصية مالا يؤدى إلى تجاوز الثلث .

وقوله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ أى على وجه الظلم أو ظالمين استئناف جىء به لتقرير مضمون ما فصل من الأوامر والنواهى

﴿ إنما يأكلون فى بطونهم ﴾ أى ملء بطونهم ﴿ نارا ﴾ أى ما يجر إلى النار ويؤدى إليها وعن أبى بردة أنه صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا ، فقيل من هم ؟ فقال عليه السلام « ألم تر أن الله يقول(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا) » ﴿ وسيصلون سعيرا ﴾ أى سيدخلون نارا هائلة مبهمة الوصف وقرىء بضم الياء مخففا ومشددا من الإصلاء والتصلية يقال صلى النار قاسى حرها وصليته وشويته وأصليته وصليته ألقيته فيها والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار إذا ألهبتها . روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروى أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الأمر على اليتامى فنزل قوله تعالى (وإن تخالطوهم) الآية .

﴿ يوصيكم الله ﴾ شروع فى تفصيل أحكام المواريث المجملة فى قوله تعالى (للرجال نصيب)الخ وأقسام الورثة ثلاثة قسم لا يسقط بحال وهم الآباء والأولاد والأزواج فهؤلاء قسمان والثالث الكلالة أى يأمركم ويعهد إليكم ﴿ فى أولادكم ﴾ أولاد كل واحد منكم أى فى شأن ميراثهم بدىء بهم لأنهم أقرب الورثة إلى الميت وأكثرهم بقاء بعد المورث ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ جملة مستأنفة جىء بها لتبيين الوصية وتفسيرها وقيل محلها النصب بيوصيكم على أن المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب مما رآه الفراء فإنه يجرى ما كان بمعنى القول من الأفعال مجراه فى حكاية الجملة بعده ونظيره قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) الآية وقوله تعالى للذكر لا بد له من ضمير عائد إلى الأولاد محذوف ثقة بظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى للذكر منهم وقيل الألف واللام قائم مقامه والأصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف محذوف أى للذكر منهم حظ الأنثيين والبداءة ببيان حكم الذكر لإظهار مزيته على الأنثى كما أنها المناط فى تضعيف حظه وإيثار اسمى الذكر والأنثى على ما ذكر أولا من الرجال والنساء للتنصيص على استواء

الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر فى ذلك أصلا كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال كالنساء ﴿ فإن كن ﴾ أى الأولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى ﴿ نساء ﴾ أى خلصا ليس معهن ذكر ﴿ فوق اثنتين ﴾ خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ﴾ أى المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام ﴿ وإن كانت ﴾ أى المولودة ﴿ واحدة ﴾ أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق ﴿ فلها النصف ﴾مما ترك وقرىء واحدة على كان التامة واختلف فى الثنتين فقال ابن عباس حكمهما حكم الواحدة لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الجمهور حكمهما حكم ما فوقهما لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى (فإن كن نساء فوق اثنتين) ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها الأقوى منها فى الاستحقاق فلأن تستحقه مع مثلها أولى وأحرى وأن البنتين أمس رحما من الأختين وقد فرض الله لهما الثلثين حيث قال تعالى ﴿ فلهما الثلثان مما ترك ﴾ .

﴿ ولأبويه ﴾ أى لأبوى الميت . غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله من الصور ﴿ لكل واحد منهما ﴾ بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدأ الذى هو قوله تعالى ﴿ السدس ﴾ وبين خبره الذى هو لأبويه ونقل الخبرية إليه تنصيصا على استحقاق كل منهما السدس وتأكيدا له بالتفصيل بعد الإجمال وقرىء السدس بسكون الدال تخفيفا وكذلك الثلث والربع والثمن ﴿ مما ترك ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من السدس والعامل الاستقرار المعتبر فى الخبر أى كائنا مما ترك المتوفى ﴿ إن كان له ولد ﴾ أو ولد ابن ذكرا كان أو أنثى واحدا أو متعددا غير أن الأب فى صورة الأنوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور ويأخذ ما بقى من ذوى الفروض بالعصوبة ﴿ فإن لم يكن له ولد ﴾ ولا ولد ابن ﴿ وورثه أبواه ﴾ فحسب ﴿ فلأمه الثلث ﴾ مما ترك والباقى

للأب وإنما لم يذكر لعدم الحاجة إليه لأنه لما فرض انحصار الوارث فى أبويه وعين نصيب الأم علم أن الباقى للأب وتخصيص جانب الأم بالذكر وإحالة جانب الأب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس أيضا لما أن حظها أخصر واستحقاقه أتم وأوفر أو لأن استحقاقه بطريق العصوبة دون الفرض هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما إذا كان معهما ذلك فللأم ثلث ما بقى بعد فرض أحدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما فإنه يفضى إلى تفضيل الأم على الأب مع كونه أقوى منها فى الإرث بدليل إضعافه عليها عند انفرادهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع .

﴿ فإن كان له إخوة ﴾ أى عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الأبوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا ذكورا أو إناثا أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿ فلأمه السدس ﴾ أما السدس الذى حجبوها عنه فهو للأب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه وعليه الجمهور وعند ابن عباس رضى الله عنهما أنه لهم على كل حال خلا أن هذا الحجب عنده لا يتحقق بما دون الثلاث وبالأخوات الخلص وقرىء فلإمه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها ﴿ من بعد وصية ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده أى هذه الأنصباء للورثة من بعد إخراج وصية ﴿ يوصى بها ﴾ أى الميت وقرىء مبنيا للمفعول مخففا ومبنيا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب فى الوصية والندب إليها ﴿ أو دين ﴾ عطف على وصية إلا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة أو الإقرار فى الصحة وإيثار أو المفيدة للإباحة على الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين وتقديم الوصية على الدين ذكرا مع تأخرها عنه حكما لإظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط فى أدائها ولإطرادها بخلاف الدين ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ الخطاب للورثة فآباؤكم مبتدأ وأبناؤكم عطف عليه ولا تدرون

خبره وأيهم مبتدأ وأقرب خبره ونفعا نصب على التمييز منه وهو منقول من الفاعلية كأنه قيل أيهم أقرب لكم نفعه والجملة فى حيز النصب بلا تدرون ، والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية أى أصولكم وفروعكم الذين يتوفون لا تدرون أيهم أنفع لكم أمن يوصى ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته أم من لا يوصى بشىء فيوفر عليكم عرض الدنيا وليس المراد بنفى الدراية عنهم بيان اشتباه الأمر عليهم وكون أنفعية كل من الأول والثانى فى حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان أحدهما على الآخر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره فإن ذلك بمعزل من إفادة التأكيد المذكور والترغيب فى تنفيذ الوصية بل تحقيق أنفعية الأول فى ضمن التعريض بأن لهم اعتقادا بأنفعية الثانى مبنيا على عدم الدرايه ، وقد أشير إلى ذلك حيث عبر عن الأنفعية بأقربية النفع تذكيراً لمناط زعمهم وتعيينا لمنشأ خطئهم ومبالغة فى الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لأن الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كأنه قيل لا تدرون أيهم أنفع لكم فتحكمون نظرا إلى ظاهر الحال وقرب المنال بأنفعية الثانى مع أن الأمر بخلافه فإن ثواب الآخرة لتحقق وصوله إلى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قصر مدة ما بينهما من الحياة الدنيا أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاده وفنائه أبعد وأقصى وقيل الخطاب للمورثين والمعنى لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم عاجلا وآجلا فتحروا فى شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمان بعض ، روى أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر فى الجنة سأل الله تعالى أن يرفع إليه صاحبه فيرفع إليه بشفاعته قيل فالجملة الاعتراضية حينئذ مؤكدة لأمر القسمة وأنت خبير بأنه مشعر بأن مدار الإرث ما ذكر من أقربية النفع أنه العلاقة النسبية ﴿ فريضة من الله ﴾ نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف أى فرض الله ذلك فرضا أو لقوله تعالى (يوصيكم الله) فإنه فى معنى يأمركم ويفرض عليكم ﴿إن الله كان عليما﴾

أى بالمصالح والرتب ﴿ حكيما ﴾ فى كل ما قضى وقدر فيدخل فيه الأحكام المذكورة دخولا أوليا .

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ من المال شروع فى بيان أحكام القسم الثانى من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال مما لا حاجة إلى ذكره ﴿ إن لم يكن لهن ولد ﴾ أى ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وإن سفل ذكرا كان أو أنثى واحدا كان أو متعددا لأن لفظ الولد ينتظم الجميع منكم أو من غيركم والباقى لورثتهن من ذوى الفروض والعصابات أو غيرهم ولبيت المال إن لم يكن لهن وارث آخر أصلا ﴿ فإن كان لهن ولد﴾ على نحو ما فصل والفاء لترتيب ما بعدها على قبلها فإن ذكر تقدير عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه ﴿فلكم الربع مما تركن ﴾ من المال والباقى لباقى الورثة ﴿من بعد وصية﴾ متعلق بكلتا الصورتين لا بما يليه وحده ﴿يوصين بها﴾ فى محل الجر على أنه صفة لوصية وفائدتها ما مر من ترغيب الميت فى الوصية وحث الورثة على تنفيذها ﴿أو دين﴾ عطف على وصية سواء كان ثبوته بالبينة أو بالإقرار وإيثار أو على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما فى الوجوب والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكراً لما ذكر من إبراز كمال العناية بتنفيذها ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد﴾ على التفصيل المذكور آنفا والباقى لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض والعصبات أو ذوى الأرحام أو لبيت المال إن لم يكن لكم وارث آخر أصلا ﴿فإن كان لكم ولد﴾ على النحو الذى فصل ﴿ فلهن الثمن مما تركتم ﴾ من المال والباقى للباقين ﴿ من بعد وصية توصون بها أو دين ﴾ الكلام فيه كما فصل فى نظيريه فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما فى النسب لمزيته عليها وشرفه الظاهر ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا فى فى الجهة والقرب ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة وتستوى الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن ﴿وإن كان رجل﴾ شروع فى بيان أحكام

القسم الثالث من الورثة المحتمل للسقوط ووجه تأخيره عن الأولين بين والمراد بالرجل الميت وقوله تعالى ﴿ يورث ﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث خبر كان أى يورث منه ﴿ كلالة ﴾ الكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد لضعفها بالإضافة إلى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذى كلالة كما تطلق القرابة على ذوى القرابة وقد جوز كونها صفة كالهجاجة والفقاقة للأحمق فنصبها إما على أنها مفعول له أى يورث منه لأجل القرابة المذكورة أو على أنها حال من ضمير يورث أى حال كونه ذا كلالة أو على أنها خبر لكان ويورث صفه لرجل أى إن كان رجل موروث ذا كلالة ليس له والد ولا ولد وقرىء يورث على البناء للفاعل مخففا ومشددا فانتصاب كلالة إما على أنها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف أى يورث وارثه حال كونه ذا كلالة وإما على أنها مفعول به أى يورث ذا كلالة وإما على أنه مفعول له أى يورث لأجل الكلالة ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل مقيد بما قيد به أى أو امرأة تورث كذلك ولعل فصل ذكرها عن ذكره للإيذان بشرفه وأصالته فى الأحكام ﴿وله﴾ أى للرجل ففيه تأكيد للإيذان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها أيضا وقيل الضمير لكل منهما ﴿أخ أو أخت﴾ أى من الأم فحسب وقد قرىء كذلك فإن أحكام بنى الأعيان والعلات هى التى ذكرت فى آخر السورة الكريمة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير يورث أو من رجل على تقدير كون يورث صفة وسيقت لتصوير المسألة وذكر الكلالة لتحقيق جريان الحكم المذكور وإن كان مع من ذكر ورثة أخرى بطريق الكلالة وأما جريانه فى صورة وجود الأم أو الجدة مع أن قرابتهما ليست بطريق الكلالة فبإجماع ﴿ فلكل واحد منهما ﴾ من الأخ والأخت ﴿ السدس ﴾ من غير تفضيل للذكر على الأنثى لأن الإدلاء إلى الميت بمحض الأنوثة .

﴿فإن كانوا أكثر من ذلك﴾ أى أكثر من الأخ أو الأخت المنفردين

بواحد أو بأكثر والفاء لما مر من أن ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد ﴿ فهم شركاء فى الثلث ﴾ يقتسمونه بالسوية والباقى لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات هذا وأما جواز أن يكون يورث فى القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وإن كان رجل يجعل وارثا لأجل الكلالة أو ذا كلالة أى غير والد أو ولد ولذلك الوارث أخ أو أخت فلكل واحد من ذلك الوارث وأخيه أو أخته السدس فإن كانوا أكثر من ذلك أى من الاثنين بأن كانوا ثلاثة أو أكثر فهم شركاء فى الثلث الموزع للإثنين لا يزاد عليه شيء فبمعزل من السداد أما أولا فلان المعتبر على ذلك التقدير إنما هى الأخوة بين الوارث وبين شريكه فى الإرث من أخيه أو أخته لا ما بينه وبين مورثه من الأخوة التى عليها يترتب حكم الإرث وبها يتم تصوير المسألة وإنما المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلالة وهى عامة لجميع صور القرابات التى لا تكون بالولادة فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه مما ذكر بعينه ومن ادعى اختصاصها بالأخوة لأم متمسكا بالإجماع على أن المراد بالكلالة ههنا أولاد الأم فقد اعترف ببطلان رأيه من حيث لا يحتسب كيف لا ومبناه إنما هو الإجماع على أن المراد بالأخوة فى قوله تعالى (وله أخ أو أخت)هو الأخوة لأم خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية فى آخر السورة الكريمة ولولا أن الرجل عبارة عن الميت والأخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون الكل أولاد الأم ثم إن الكلالة كما نبهت عليه باقية على إطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الأم فضلا عن الإجماع على ذلك وإلا لاقتصر البيان على حكم صورة انحصار الورثة فيهم وإنما الإجماع فيما ذكر من أن المراد بالأخ والأخت من كان لأم خاصة وأنت خبير بأن ذلك فى قوة الإجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر وأما ثانيا فلأنه يقتضى أن يكون المعتبر فى استحقاق الورثة فى الفرض المذكور أخوة بعضهم لبعض من جهة الأم فقط لما ذكر من الإجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الأخوة من الجهتين وأما ثالثا فلأن حكم صورة

انفراد الوارث عن الأخ والأخت يبقى حينئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الإجماع كونه كذلك عند الانفراد ألا يرى أن حظ كل من الأختين الثلث عند الإجتماع والنصف عند الانفراد وأما رابعا فلأن تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تبعا له فيه مع اتحاذ الكل فى الإدلاء إلى المورث مما لا عهد به .

﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى نظائره خلا أن الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضارة فيه أيضاً وذلك إنما يتحقق فيما يكون ثبوته بالإقرار فى المرض كأنه قيل أو دين يوصى به ﴿ غير مضار ﴾ حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتماداً عليه كما أن رجال فى قوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) على قراءة المبنى للمفعول فاعل لفعل ينبىء عنه المذكور ومن فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة البناء للفاعل أى يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة أى بأن يوصى بما زاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الإضرار بهم دون القربة وبأن يقر فى المرض بدين كاذبا وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم ﴿ وصية من الله ﴾ مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكدة لفخامته الذاتية بالفخامة الإضافية أى يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله كقوله تعالى (فريضة من الله) ولعل السر فى تخصيص كل منهما بمحله الإشعار بما بين الأحكام المتعلقة بالأصول والفروع وبين الأحكام المتعلقة بغيرهم من التفاوت حسب تفاوت الفريضة والوصية وإن كانت كلتاهما واجبة المراعاة أو منصوب بغير مضار على أنه مفعول به فإنه اسم فاعل معتمد على ذى الحال أو منفى معنى فيعمل فى المفعول الصريح ويعضده القراءة بالإضافة أى غير مضار لوصية الله وعهده لا فى شأن الأولاد فقط كما قيل إذلا تعلق لهم بالمقام بل فى شأن الورثة المذكورة ههنا فإن الأحكام المفصلة كلها

مندرجة تحت قوله تعالى (يوصيكم الله) جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضارتها الإخلال بحقوقهم ونقصها بما ذكر من الوصية بما زاد على الثلث والوصية لقصد الإضرار دون القربة والإقرار بالدين كاذبا وإيقاعها على الوصية مع أنها واقعة على الورثة حقيقة كما فى قوله :

* يا سارق الليلة أهل الدار *

للمبالغة فى الزجر عنها بإخراجها مخرج مضارة أمر الله تعالى ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فما دونه يقتضى أن يكون غير مضار حالا من ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدى إلى الفصل بين الحال وعاملها بأجنبي هو المعطوف على وصية مع أنه لاتنحسم به مادة المضارة لبقاء الإقرار بالدين عن إطلاقه ﴿ والله عليم ﴾ بالمضار وغيره ﴿ حليم ﴾ لايعاجل بالعقوبة فلا يغتر بالإمهال وإيراد الاسم الجليل مع كفاية الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة .

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الأحكام التى تقدمت فى شئون اليتامى والمواريث وغير ذلك ﴿ حدود الله ﴾ أى شرائعه المحدودة التى لاتجوز مجاوزتها ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فى جميع الأوامر والنواهى التى من جملتها ما فصل ههنا وإظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفا ﴿ يدخله جنات ﴾ نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الأخفش ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ صفة لجنات منصوبه حسب انتصابها ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من مفعول يدخله وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعية من بحسب المعنى كما أن إفراد الضمير بالنظر إلى أفراده لفظا ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من دخول الجنات الموصوفة على وجه الخلود وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال علو درجته ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذى لافوز وراءه وصف الفوز وهو الظفر بالخير بالعظيم إما باعتبار متعلقه أو باعتبار ذاته فإن الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ ولو فى بعض الأوامر والنواهى قال مجاهد فيما اقتص من المواريث وعكرمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى

ويتعدما قال الله تعالى وقال الكلبي يعني ومن يكفر بقسمة الله المواريث ويتعد حدوده استحلالا والإظهار فى موقع الإضمار للمبالغة فى الزجر بتهويل الأمر وتربية المهابة ﴿ ويتعد حدوده ﴾ شرائعه المحدودة فى جميع الأحكام فيدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿ يدخله ﴾ وقرىء بنون العظمة فى الموضعين ﴿ نارا ﴾ أى عظيمة هائلة لا يقادر قدرها ﴿ خالدا فيها ﴾ حال كما سبق ولعل إيثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة ﴿ وله عذاب مهين ﴾ أى وله مع عذاب الحريق الجسمانى عذاب آخر مبهم لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحانى كما يؤذن به وصفه والجملة حالية .

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ شروع فى بيان بعض آخر من الأحكام المتعلقة بالنساء إثر بيان أحكام المواريث واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنا لزيادة قبحه والإتيان الفعل والمباشرة يقال أتى الفاحشة أى فعلها وباشرها وكذا جاءها ورهقها وغشيها وقرىء بالفاحشة فالإتيان بمعناه المشهور ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين أى اللاتى يفعلن الزنا كائنات من نسائكم أى من أزواجكم كما فى قوله تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم) وقوله تعالى (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) وبه قال السدى ﴿ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما فى حيز الصلة للحكم أى فاطلبوا أن يشهد عليهن بإتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم

﴿ فإن شهدوا ﴾ عليهن بذلك ﴿ فأمسكوهن فى البيوت ﴾ أى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجنا عليهن ﴿ حتى يتوفاهن ﴾ أى إلى أن يستوفى أرواحهن ﴿ الموت ﴾ وفيه تهويل للموت وإبراز له فى صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيها أو يتوفاهن ملائكة الموت ﴿ أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ أى يشرع لهن

حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للإيذان بكونه طريقا مسلوكا فليس فيه دلالة على كونه أخف من الحبس كما قاله أبو مسلم .

﴿ واللذان يأتيانها منكم ﴾ هما الزانى والزانية تغليبا قال السدى أريد بهما البكران منهما كما ينبىء عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد وبذلك يندفع التكرار إلا أنه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما لاختصاص العقوبة الأولى بالمحصنات وعدم ظهور إلحاقه بأحد الحكمين دلالة لخفاء الشركة فى المناط ﴿ فآذوهما ﴾ أى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال أيضا والظاهر أن إجراء هذا الحكم أيضا إنما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ما ذكر آنفا ﴿ فإن تابا ﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب ما لقيا من زواجر الأذية وقوارع التوبيخ كما ينبىء عنه الفاء ﴿ وأصلحا ﴾ أى أعمالهما ﴿ فاعرضوا عنهما ﴾ بقطع الأذية والتوبيخ فإن التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب وقد جوز أن يكون الخطاب للشهود الواقفين على هناتهما ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الولاة وبالإعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع إليهم قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى أوائل الإسلام على ما مر من التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد وقيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولا وكانت عقوبة الزناة الطلقاء الأذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز أن يكون الأمر بالحبس غير منسوخ بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ويوصى بإمساكهن فى البيوت بعد إقامة الحد صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ولا يخفى أنه مما لا يساعده النظم الكريم وقال أبو مسلم وعزاه إلى مجاهد إن الأولى فى السحاقات وهذه فى اللواطين وما فى سورة النور فى الزناة والزوانى متمسكا بأن المذكور فى الأولى صيغة الإناث خاصة وفى الثانية صيغة الذكور ولا ضرورة للمصير إلى التغليب على أنه لا إمكان له فى الأولى ويأباه الأمر باستشهاد الأربعة فإنه غير معهود فى الشرع فيما عدا الزنا ﴿ إن الله كان

توابا ﴾ مبالغا فى قبول التوبة ﴿ رحيما ﴾ واسع الرحمة وهو تعليل للأمر بالإعراض .

﴿ إنما التوبة على الله ﴾ استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه كما ينبىء عنه وصفه تعالى بكونه توابآ رحيما بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى ﴿ للذين يعملون السوء ﴾ خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فإن تقديم الجار والمجرور على عامله المعنوى مما لا نزاع فى جوازه وكذا الظرف أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدأ المستكن فيما تعلق به الخبر على رأى من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوى عند كونها ظرفا أو حرف جر كما سبق فى تفسير قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) وأيآ ما كان فمعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق ألبتة بحكم جرى العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هى بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى وقيل هى التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا يشير إلى أن قوله تعالى على الله صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى إنما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى متعلق الخبر وليس فيه ما فى الوجه الأول من تقديم الحال على العامل المعنوى إلا أن الذى يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو الأول لما أن ما قبله من وصفه تعالى بكونه توابا رحيما إنما يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمذكورين وذلك إنما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبرا ألا ترى إلى قوله عز وجل (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) الخ فإنه ناطق بما قلنا كأنه قيل إنما التوبة لهؤلاء لا لهؤلاء ﴿ بجهالة ﴾ متعلق بمحذوف

وقع حالا من فاعل يعملون أي يعملون السوء متلبسين بها أي جاهلين سفهاء أو بيعملون على أن الباء سببية أي يعملونه بسبب الجهالة لأن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءاً بل عدم التفكر في العاقبة كما يفعله الجاهل قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شيء عصى به ربه فهو جهالة عمدا كان أو خطأ وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعني بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ أي من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت كما ينبىء عنه ما سيأتي من قوله تعالى : (حتى إذا حضر أحدهم الموت) الخ فإنه صريح في أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة فبقي ما وراءه في حيز القبول وعن ابن عباس رضي الله عنهما قبل أن ينزل به سلطان الموت وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب .

وعن إبراهيم النخعي مالم يؤخذ بكظمه وهو مجرى النفس ، وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر » وعن عطاء لو قبل موته بفواق ناقة ، وعن الحسن أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادام روحه في جسده ، فقال تعالى : « وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر » ومن تبعيضية أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم في حكم البعيد، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ يتوب الله عليهم ﴾ وما فيه من تكرير الإسناد لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم إثر بيان أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ مبالغا في العلم والحكمة فيبني أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة

والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية أصل لاتصافه تعالى بصفات الكمال .

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان أن توبة من عداهم بمنزلة العدم وجمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها فى الزمان المديدلا لأن المراد بها جميع أنواعها وبما مر من السوء نوع منها ﴿ حتى إذا حضر أحدكم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ حتى حرف إبتداء والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها أى ليس قبول التوبة للذين يعملون السيئات إلى حضور موتهم وقولهم حينئذ إنى تبت الآن وذكر الآن لمزيد تعيين الوقت وإيثار قال على تاب لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشى عن تسميته توبة ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ عطف على الموصول الذى قبله أى ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء وإنما ذكر هؤلاء مع أنه لاتوبة لهم رأسا مبالغة فى بيان عدم قبول توبة المسوفين وإيذانا بأن وجودها كعدمها بل فى تكرير حرف النفى فى المعطوف إشعار خفى بكون حال المسوفين فى عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الذين يموتون على الكفر والمراد بالموصولين إما الكفار خاصة وإما الفساق وحدهم وتسميتهم فى الجملة الحالية كفارا للتغليظ. كما فى قوله تعالى (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) ، وأما مايعم الفريقين جميعاً فالتسمية حينئذ للتغليب ويجوز أن يراد بالأول الفسقة وبالثانى الكفرة ففيه مبالغة أخرى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفريقين وما فيه من معنى البعد للإيذان بترامى حالهم فى الفظاعة وبعد منزلتهم فى السوء وهو مبتدأ خبره ﴿ أعتدنا لهم ﴾ أى هيأنا لهم ﴿ عذابا أليما ﴾ تكرير الإسناد لما مر من تقوية الحكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معدا لهم ووصفه للتفخيم الذاتى والوصفى .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ كان الرجل

إذا مات قريبه يلقى ثوبه على امرأته أو على خبائها ويقول أرث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم إن شاء تزوجها بلا صداق غير الصداق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً وإن شاء عضلها لتفتدى نفسها بما ورثت من زوجها وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل إلقاء الثوب فهى أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لايحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أومكرهات عليه وقيل كانوا يمسكونهن حتى يمتن ويرثوا منهن فقيل لهم لايحل لكم ذلك وهن غير راضيات بإمساككم وقرىء لاتحل بالتاء الفوقية على أن أن ترثوا بمعنى الوراثة وقرىء كرها بضم الكاف وهى لغة كالضعف والضعف وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدى نفسها منه بما لها وتختلع فقيل لهم ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ عطفا على ترثوا ولا لتأكيد النفى والخطاب للأزواج والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها فخرج بعضه وبقى بعضه أى ولا أن تضيقوا عليهن ﴿ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى من الصداق بأن يدفعن إليكم بعضه اضطرارا فتأخذوه منهن وإنما لم يتعرض لفعلهن إيذانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهن اضطرارا وإنما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالأخذ ولا بالإذهاب للمبالغة فى تقبيحه ببيان تضمنه لأمرين كل منهما محظور شنيع الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستصحبا به ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ على صيغة الفاعل من بين بمعنى تبين وقرىء على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل من أبان بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة ويعضده قراءة أبى إلا أن يفحشن عليكم ، وقيل الفاحشة الزنا ، وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أو أعم العلل أى ولايحل لكم عضلهن فى حال من الأحوال أوفى وقت من الأوقات أولعلة من العلل إلا فى حال إتيانهن بفاحشة

أو إلا فى وقت إتيانهن أو إلا لإتيانهن بها فإن السبب حينئذ يكون من جهتهن وأنتم معذورون فى طلب الخلع .

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ خطاب للذين يسيئون العشرة معهن والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة والمراد ههنا النصفه فى المبيت والنفقة والإجمال فى القول ونحو ذلك ﴿ فإن كرهتموهن ﴾ وسئمتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك من الأمور المذكورة فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا ﴾ علة للجزاء أقيمت مقامه للإيذان بقوة استلزامها إياه كأنه قيل فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر أى فقد قربت كراهتكم شيئا وجعل الله فيه خيراً كثيراً فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح فى الدين وأحمد عاقبة وأدنى إلى الخير وتحب ما هو بخلافه فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم وذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه وانحصار العلية فى الثانى للتوسل إلى تعميم مفعوله ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصا بمكروه دون مكروه بل هو سنة إلهية جارية على الإطلاق حسب اقتضاء الحكمة وأن ما نحن فيه مادة من موادها وفيه من المبالغة فى الحمل على ترك المفارقة وتعميم الإرشاد ما لا يخفى وقرىء ويجعل مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة حالية تقديره وهو أى ذلك الشىء يجعل الله فيه خيرا كثيرا وقيل تقديره والله يجعل بوضع المظهر موضع المضمر وتنوين خيراً لتفخيمه الذاتى ووصفه بالكثرة لبيان فخامته الوصفية والمراد به ههنا الولد الصالح وقيل الألفة والمحبة .

﴿ وإن أردتم استبدال زوج ﴾ أى تزوج إمرأة ترغبون فيها ﴿ مكان زوج ﴾ ترغبون عنها بأن تطلقوها ﴿ وآتيتم إحداهن ﴾ أى إحدى الزوجات فإن المراد بالزوج هو الجنس والجملة حالية بإضمار قد لا معطوفة على الشرط

أى وقد آتيتم التى تريدون أن تطلقوها ﴿ قنطارا ﴾ أى مالا كثيرا ﴿ فلا تأخذوا منه ﴾ أى من ذلك القنطار ﴿ شيئاً ﴾ يسيراً فضلا عن الكثير ﴿ أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾ استئناف مسوق لتقرير النهى والتنفير عن المنهى عنه والاستفهام للإنكار والتوبيخ أى أتأخذونه باهتين وآثمين أو للبهتان والإثم فإن أحدهم كان إذا تزوج امرأة بهت التى تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الإفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل فى الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل .

﴿ وكيف تأخذونه ﴾ إنكار لأخذه إثر إنكار وتنفير عنه بعد تنفير وقد بولغ فيه حيث وجه الإنكار إلى كيفية الأخذ إيذانا بأنه مما لا سبيل له إلى التحقق والوقوع أصلا لأن ما يدخل تحت الوجود لابد أن يكون على حال من الأحوال فإذا لم يكن لشىء حال أصلا لم يكن له حظ من الوجود قطعاً وقوله عز وجل ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ حال من فاعل تأخذونه مفيدة لتأكيد النكير وتقرير الاستبعاد أى على أى حال أو فى أى حال تأخذونه والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك ﴿ وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى أخذن منكم عهداً وثيقاً وهو حق الصحبة والمعاشرة أو ما وثق الله تعالى عليهم فى شأنهن بقوله تعالى (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أو ما أشار إليه النبى عليه الصلاة والسلام أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى .

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ﴾ شروع فى بيان من يحرم نكاحها من النساء ومن لا يحرم وإنما خص هذا النكاح بالنهى ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس وجمهور المفسرين كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم فنهوا

عن ذلك واسم الآباء ينتظم الأجداد مجازا فتثبت حرمة ما نكحوها نصا وإجماعا ويستقل فى إثبات هذه الحرمة نفس النكاح إذا كان صحيحا وأما إذا كان فاسدا فلا بد فى إثباتها من الوطء أوما يجرى مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو المثبت لها فى الحقيقة حتى لو وقع شىء من ذلك بحكم ملك اليمين أو بالوجه المحرم تثبت به الحرمة عندنا خلافا للشافعى فى المحرم أى لا تنكحوا التى نكحها آباؤكم وإيثار ما على من للذهاب إلى الوصف وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر ﴿ من النساء ﴾ بيان لما نكح على الوجهين ﴿ إلا ما قد سلف استثناء مما نكح مفيد للمبالغة فى التحريم بإخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　　بهن فلول من قراع الكتائب

والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم إلا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الإباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى (حتى يلج الجمل فى سم الخياط) وقيل هو استثناء مما يستلزمه النهى ويستوجبه مباشرة المنهى عنه كأنه قيل لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فإنه موجب للعقاب إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه وقيل هو استثناء منقطع معناه لكن ما قد سلف لا مؤاخذة عليه لا أنه مقرر ويأباهما قوله تعالى ﴿ إنه كان فاحشة ومقتا ﴾ فإنه تعليل للنهى وبيان لكون المنهى عنه فى غاية القبح مبغوضا أشد البغض وأنه لم يزل فى حكم الله تعالى وعلمه موصوفا بذلك ما رخص فيه لأمة من الأمم فلا يلائم أن يوسط بينهما ما يهون أمره من ترك المؤاخذة على ما سلف منه ﴿ وساء سبيلا ﴾ فى كلمة ساء قولان أحدهما أنها جارية مجرى بئس فى الذم والعمل ففيها ضمير مبهم يفسره ما بعده والمخصوص بالذم محذوف تقديره وساء سبيلا سبيل ذلك النكاح كقوله تعالى بئس الشراب أى ذلك الماء وثانيهما أنها كسائر الأفعال وفيها ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير إنه وسبيلا تمييز والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو معطوفة على خبر كان محكية بقول مضمر هو المعطوف فى الحقيقة

تقديره ومقولا فى حقه ساء سبيلا فإن ألسنة الأمم كافة لم تزل ناطقة بذلك فى الأعصار والأمصار . قيل مراتب القبح ثلاث القبح الشرعى والقبح العقلى والقبح العادى وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك فقوله تعالى فاحشة مرتبة قبحه العقلى وقوله تعالى ومقتا مرتبة قبحه الشرعى وقوله تعالى وساء سبيلا مرتبة قبحه العادى وما اجتمع فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن وما يقصد به من التمتع بهن وبيان امتناع ورود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له أصلا وأما حرمة التمتع بهن بملك اليمين فى المواد التى يتصور فيها قرار الملك كما فى بعض المعطوفات على تقدير رقهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذى هو عدم محلية أبضاعهن للملك لا بعبارته بشهادة سباق النظم الكريم وسياقه وإنما لم يوجب المدار المذكور امتناع ورود ملك اليمين عليهن رأسا ولا حرمة سببه الذى هو العقد أو ما يجرى مجراه كما أوجب حرمة عقد النكاح وامتناع ورود حكمه عليهن لأن مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذى هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له كملك النكاح فإنه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته له قطعا وإنما مورده الرقبة الموجودة فى كل رقيق فيتحقق بتحقق محله حتما ثم يزول بوقوع العتق فى المواد التى سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات ويبقى فى البواقى على حاله مستتبعا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعا وأما حل الوطء فليس من تلك الأحكام فلا ضير فى تخلفه عنه كما فى المجوسية . والأمهات تعم الجدات وإن علون والبنات تتناول بناتهن وإن سفلن والأخوات ينتظمن الأخوات من الجهات الثلاث وكذا الباقيات والعمة كل أنثى ولدها من ولد والدك والخالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك قريبا أو بعيدا وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القريبة والبعيدة ﴿ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أما للرضيع والمراضعة أختا وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته

عمته وكل ولد ولدله من غير المرضعة قبل الرضاع و بعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولدها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولدها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه ومنه قوله عليه السلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهو حكم كلى جار على عمومه وأما أم أخيه لأب وأخت إبنه لأم وأم أم ابنه وأم عمه وأم خاله لأب فليست حرمتهن من جهة النسب حتى يحل بعمومه ضرورة حلهن فى صور الرضاع بل من جهة المصاهرة ألا يرى أن الأولى موطوءة أبيه والثانية بنت موطوءته والثالثة أم موطوءته والرابعة موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد .

﴿ وأمهات نسائكم ﴾ شروع فى بيان المحرمات من جهة المصاهرة إثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التى لها لحمة كلحمة النسب والمراد بالنساء المنكوحات على الإطلاق سواء كن مدخولا بهن أو لا وعليه جمهور العلماء روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال فى رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها إنه لا بأس بأن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها وعن عمر وعمران بن الحصين رضى الله عنهما أن الأم تحرم بنفس العقد وعن مسروق هى مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله وعن ابن عباس أبهموا ما أبهم الله خلا أنه روى عنه وعن على وزيد وابن عمر وابن الزبير رضى الله عنهم أنهم قرؤا وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن زيد أنه إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل أقام الموت فى ذلك مقام الدخول كما قام مقامه فى باب المهر والعدة ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوسات ونظائرهن والأمهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبما ذكر ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم ﴾ الربائب جمع ربيبة فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل إلى الإسمية والربيب ولد المرأة من آخر سمى به لأنه يربه غالبا كما يرب

ولده وإن لم يكن ذلك أمرا مطردا وهو المعنى بكونهن فى الحجور فإن شأنهن الغالب المعتاد أن يكن فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها كما أنها هى النكتة فى إيرادهن باسم الربائب دون بنات النساء فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن وفى شرف التقلب فى حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوى الملابسة والشبه بينهن وبين أولادهم ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم لا تقييد الحرمة بكونهن فى حجورهم بالفعل كما روى عن على رضى الله عنه وبه أخذ داود ومذهب جمهور العلماء ما ذكر أولا بخلاف ما فى قوله تعالى :

﴿ من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ﴾ فإنه لتقييدها به قطعا فإن كلمة من متعلقة بمحذوف وقع حالا من ربائبكم اللاتى استقررن فى حجوركم كائنات من نسائكم الخ ولامساغ لجعله حالا من أمهات أوىما أضيفت هى إليه خاصة وهو بين لا سترة به ولا مع ما ذكر أولا ضرورة أن حاليته من ربائبكم أو من ضميرها تقتضى كون كلمة من ابتدائية وحاليته من أمهات أومن نسائكم تستدعى كونها بيانية وادعاء كونها اتصالية منتظمة لمعنى الابتداء والبيان أوجعل الموصول صفة للنساءين مع اختلاف عامليهما مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله مع أنه سعى فى إسكات ما نطق به النبى عليه الصلاة والسلام واتفق عليه الجمهور حسبما ذكر فيما قبل وأما ما نقل من القراءة فضعيفة الرواية وعلى تقدير الصحة محمولة على النسخ ومعنى الدخول بهن إدخالهن الستر والباء للتعدية وهى كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفى حكمه اللمس ونظائره كما مر ﴿ فإن لم تكونوا ﴾ أى فيما قبل ﴿ دخلتم بهن ﴾ أصلا ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أى فى نكاح الربائب وهو تصريح بما أشعر به ما قبله والفاء الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه ﴿ وحلائل أبنائكم ﴾ أى زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج أو لحلولها فى محله وقيل لحل كل منهما إزار صاحبه وفى حكمهن مزنياتهم ومن

يجرين مجراهن من الممسوسات ونظائرهن وقوله تعالى ﴿الذين من أصلابكم﴾ لإخراج الأدعياء دون أبناء الأولاد والأبناء من الرضاع فإنهم وإن سفلوا فى حكم الأبناء الصلبيين ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ فى حيز الرفع عطفا على ما قبله من المحرمات والمراد به جمعهما فى النكاح لا فى ملك اليمين وأما جمعهما فى الوطء بملك اليمين فملحق به بطريق الدلالة لاتحادهما فى المدار ولقوله عليه الصلاة والسلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه فى رحم أختين بخلاف نفس ملك اليمين فإنه ليس فى معنى النكاح فى الإفضاء إلى الوطء ولا مستلزما له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئهما لا يحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه وطء الأخرى بسبب من الأسباب وكذا لو تزوج أخت أمته الموطوءة لا يحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه الأخرى لأن المنكوحة موطوءة حكما فكأنه جمعهما وطئا وإسناد الحرمة إلى جمعهما لا إلى الثانية منهما بأن يقال وأخوات نسائكم للاحتراز عن إفادة الحرمة المؤبدة كما فى المحرمات السابقات ولكونه بمعزل من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية ويشترك فى هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها فإن مدار حرمة الجمع بين الأختين إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله وذلك متحقق فى الجمع بين هؤلاء بل أولى فإن العمة والخالة بمنزلة الأم فقوله عليه السلام لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على إبنة أخيها ولا على ابنة أختها من قبيل بيان التفسير لا بيان التغيير وقيل هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب ﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء منقطع أى لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ولا سبيل إلى جعله متصلا بقصد التأكيد والمبالغة كما مر فيما سلف لأن قوله تعالى :

﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾ تعليل لما أفاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع وقال عطاء والسدى معناه إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه قد جمع بين ليا أم يهوذا وبين راحيل أم يوسف عليه الصلاة والسلام ولا يساعده التعليل لأن ما فعله يعقوب عليه السلام كان حلالا فى شريعته وقال ابن عباس رضى

الله عنهما كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين وروى هشام بن عبد الله عن محمد بن الحسن أنه قال كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات إلا اثنتين نكاح امرأة الأب والجمع بين الأختين ألا يرى أنه قد عقب النهى عن كل منهما بقوله تعالى إلا ما قد سلف وهذا يشير إلى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد ويأباه اختلاف التعليلين ﴿ والمحصنات ﴾ بفتح الصاد وهن ذوات الأزواج أحصنهن التزوج أو الأزواج أو الأولياء أى أعفهن عن الوقوع فى الحرام وقرىء على صيغة اسم الفاعل فإنهن أحصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الأولى أيضا وفتح الصاد محمول على الشذوذ كما فى نظيريه ملقح ومسهب من ألقح وأسهب قيل قد ورد الإحصان فى القرآن على أربعة معان الأول التزوج كما فى هذه الآية الكريمة الثانى العفة كما فى قوله تعالى (محصنين غير مسافحين) الثالث الحرية كما فى قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) والرابع الإسلام كما فى قوله تعالى (فإذا أحصن) قيل فى تفسيره أى أسلمن وهى معطوفة على المحرمات السابقة وقوله تعالى :

﴿ من النساء ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا منها أى كائنات من النساء وفائدته تأكيد عمومها فى دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة للأنفس كما توهم ﴿ إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ استثناء من المحصنات استثناء النوع من الجنس أى ملكتموه وإسناد الملك إلى الأيمان لما أن سببه الغالب هو الصفة الواقعة بها وقد اشتهر ذلك فى الأرقاء لاسيما فى إناثهم وهن المرادات ههنا رعاية للمقابلة بينه وبين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لإسقاطهن بما فيهن من قصور الرق عن رتبة العقلاء وهى إما عامة حسب عموم صلتها فالاستثناء حينئذ ليس لإخراج جميع أفرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفى بل بطريق نفى الشمول المستلزم لإخراج بعضها أى حرمت عليكم المحصنات على الإطلاق إلا المحصنات اللاتى ملكتموهن فإنهن لسن من المحرمات على

الإطلاق بل فيهن من لا يحرم نكاحهن فى الجملة وهن المسبيات بغير أزواجهن أو مطلقا حسب اختلاف الرأيين وإما خاصة بالمذكورات فالمعنى حرمت عليكم المحصنات إلا اللاتى سبين فإن نكاحهن مشروع فى الجملة أى لغير ملاكهن وأما حلهن لهم بحكم ملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط لا بعبارته لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان حرمة التمتع بالمحرمات المعدودة بحكم ملك النكاح وإنما ثبوت حرمة التمتع بهن بحكم ملك اليمين بطريق دلالة النص وذلك مما لا يجرى فيه الاستثناء قطعاً وأما عدهن من ذوات الأزواج مع تحقق الفرقة بينهن وبين أزواجهن قطعا بالتباين أو بالسبى على اختلاف الرأيين فمبنى على اعتقاد الناس حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفرقة ألا ترى إلى ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه من أنه قال أصبنا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبى عليه السلام وفى رواية عنه قلنا يا رسول الله كيف نقع على نساء قد عرفنا أنسابهن وأزواجهن فنزلت والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم فاستحللناهن .

وفى رواية أخرى عنه ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض فأباح وطأهن بعد الاستبراء وليس فى ترتيب هذا الحكم على نزول الآية الكريمة ما يدل على كونها مسوقة له فإن ذلك إنما يتوقف على إفادتها له بوجه من وجوه الدلالة لا على إفادتها بطريق العبارة أو نحوها . هذا وقد روى عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه قال إنها نزلت فى نساء كن يهاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى عن نكاحهن فالمحصنات حينئذ عبارة عن المهاجرات اللاتى يتحقق أو يتوقع من أزواجهن الإسلام والمهاجرة ولذلك لم يزل عنهن اسم الإحصان والنهى للتحريم المحقق وتعرف حال المتوقع وإلا فما عداهن بمعزل من الحرمة واستحقاق إطلاق الاسم عليهن كيف لا وحين انقطعت العلاقة بين المسبية وزوجها مع اتحادهما

فى الدين فلأن تنقطع ما بين المهاجرة وزوجها أحق وأولى كما يفصح عنه قوله عز وجل (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) الآية .

﴿ كتاب الله ﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله ﴿عليكم﴾ تحريم هؤلاء كتابا وفرضه فرضا وقيل منصوب على الإغراء بفعل مضمر أى إلزموا كتاب الله وعليكم متعلق إما بالمصدر وإما بمحذوف وقع حالا منه وقيل هو إغراء آخر مؤكد لما قبله قد حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه أو بنفس عليكم على رأى من جوز تقديم المنصوب فى باب الإغراء كما فى قوله :

يا أيها المائح دلوى دونكا إنى رأيت الناس يحمدونكا

وقرىء كتب الله بالجمع والرفع أى هذه فرائض الله عليكم وقرىء كتب الله بلفظ الفعل ﴿ وأحل لكم ﴾ عطف على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى (كتاب الله عليكم) بينهما للمبالغة فى الحمل على المحافظة عن المحرمات المذكورة وقرىء على صيغة المبنى للفاعل فيكون معطوفا على الفعل المقدر وقيل بل على حرمت الخ فإنهما جملتان متقابلتان مؤسستان للتحريم والتحليل المنوطين بأمر الله تعالى ولا ضير فى اختلاف المسند إليه بحسب الظاهر لاسيما بعد ما أكدت الأولى بما يدل على أن المحرم هو الله تعالى ﴿ ما وراء ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة أى أحل لكم نكاح ما سواهن انفراداً وجمعاً ولعل إيثار اسم الإشارة المتعرض لوصف المشار إليه وعنوانه على الضمير المتعرض للذات فقط لتذكير ما فى كل واحدة منهن من العنوان الذى يدور عليه[1] حكم الحرمة فيفهم مشاركة من فى معناهن لهن فيها بطريق الدلالة فإن حرمة الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها ليست بطريق الدلالة كما سلف وقيل ليس المراد بالإحلال مطلقا أى على جميع الأحوال

(١) فى ط : عليه يدور .

حتى يرد أنه يلزم منه حل الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها بل إنما هو إحلالهن فى الجملة أى على بعض الأحوال ولا ريب فى حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدح فى ذلك حرمته بطريق الجمع ألا ترى أن حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلاثا والخامسة ونكاح الأمة على الحرة ونكاح الملاعنة لاتقدح فى حل نكاحهن بعد العدة وبعد التحليل وبعد تطليق الرابعة وانقضاء العدة وبعد تطليق الحرة وبعد إكذاب الملاعن نفسه وأنت خبير بأن الحل يجب أن يتعلق ههنا بما تعلق به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلابد أن يتعلق الحل ههنا به أيضا .

﴿ أن تبتغوا ﴾ متعلق بالفعلين المذكورين على أنه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتهما بل باعتبار بيانهما وإظهارهما أى بين لكم تحريم المحرمات المعدودة وإحلال ما سواهن إرادة أن تبتغوا بأموالكم والمفعول محذوف أى تبتغوا النساء أو متروك أى تفعلوا الابتغاء ﴿ بأموالكم ﴾ بصرفها إلى مهورهن أو بدل اشتمال مما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول ﴿ محصنين ﴾ حال من فاعل تبتغوا والإحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب ﴿ غير مسافحين ﴾ حال ثانية منه أو حال من الضمير فى محصنين والسفاح الزنا والفجور من السفح الذى هو صب المنى سمى به لأنه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف أى محصنين فروجكم غير مسافحين الزوانى وهى فى الحقيقة حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح ألبتة وما فى قوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ إما عبارة عن النساء أو عما يتعلق بهن من الأفعال وعلى التقديرين فهى إما شرطية ما بعدها شرطها وإما موصولة مابعدها صلتها وأياما كان فهى مبتدأ خبرها على تقدير كونها شرطية إما فعل الشرط أو جوابه أو كلاهما على الخلاف المعروف وعلى تقدير كونها موصولة قوله تعالى : ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد إلى المبتدأ هو الضمير المنصوب فى فآتوهن سواء

كانت شرطية أو موصولة ومن بيانية أو تبعيضية محلها النصب على الحالية من الضمير المجرور فى به والمعنى فأى فرد استمتعتم به أو فالفرد الذى استمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فآتوهن وقد روعى تارة جانب اللفظ فأفرد الضمير أولا وأخرى جانب المعنى فجمع ثانيا وثالثا وأما على تقدير كونها عبارة عما يتعلق بهن فمن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد إلى المبتدأ محذوف والمعنى أى فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح أو خلوة أو نحوهما أو فالفعل الذى استمتعتم به من قبلهن من الأفعال المذكورة فآتوهن أجورهن لأجله أو بمقابلته والمراد بالأجور المهور فإنها أجور أبضاعهن .

﴿ فريضة ﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو نعت لمصدر محذوف أى إيتاء مفروضا أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة أى لهن عليكم ﴿ ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به ﴾ أى لا إثم عليكم فيما تراضيتم به من الحط عن المهر أو الإبراء منه على طريقة قوله تعالى (فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه) إثر قوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن) وقوله تعالى (إلا أن يعفون) وتعميمه للزيادة على المسمى لايساعده رفع الجناح عن الرجال لأنها ليست مظنة الجناح إلا أن يجعل الخطاب للأزواج تغليبا فإن أخذ الزيادة على المسمى مظنة الجناح على الزوجة وقيل فيما تراضيتم به من نفقة ونحوها وقيل من مقام أو فراق ولا يساعده قوله تعالى :

﴿ من بعد الفريضة ﴾ إذ لاتعلق لهما بالفريضة إلا أن يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت فى المتعة التى هى النكاح إلى وقت معلوم من يوم أو أكثر سميت بذلك لأن الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يعطى وقد أبيحت ثلاثة أيام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما لما روى أنه عليه السلام أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة وقيل أبيح مرتين وحرم مرتين وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رجع عن القول

بجوازه عند موته وقال اللهم إنى أتوب إليك من قولى بالمتعة وقولى فى الصرف ﴿ إن الله كان عليما ﴾ بمصالح العباد ﴿ حكيما ﴾ فيما شرع لهم من الأحكام ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقة بحالكم ﴿ ومن لم يستطع منكم ﴾ من إما شرطية ما بعدها شرطها أو موصولة ما بعدها صلتها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يستطع أى حال كونه منكم وقوله تعالى .

﴿ طولا ﴾ أو غنى وسعة أى اعتلاء ونيلا وأصله الزيادة والفضل مفعول ليستطع وقوله عز وجل ﴿ أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ إما مفعول صريح لطول فإن إعمال المصدر المنون شائع ذائع كما فى قوله تعالى (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة) كأنه قيل ومن لم يستطع منكم أن ينال نكاحهن وإما بتقدير حرف الجر أى ومن لم يستطع منكم غنى إلى نكاحهن أو لنكاحهن فالجار فى محل النصب صفة لطولا أى طولا موصلا إليه أو كائنا له أو على نكاحهن على أن الطول بمعنى القدرة فى القاموس الطول والطائل والطائلة الفضل والقدرة والغنى والسعة ومحل أن بعد حذف الجار نصب عند سيبويه والفراء وجر عند الكسائى والأخفش وإما بدل من طولا لأن الطول فضل والنكاح قدرة وإما مفعول ليستطع وطولا مصدر مؤكد له لأنه بمعناه إذ الإستطاعة هى الطول أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة أو من جهة الطول والغنى أى لا من جهة الطبيعة والمزاج فإن عدم الاستطاعة من تلك الجهة لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان وقوله عز وجل .

﴿ فمما ملكت أيمانكم ﴾ إما جواب للشرط أو خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط والجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله وما موصولة أى فلينكح امرأة أو أمة من النوع الذى ملكته أيمانكم وهو فى الحقيقة متعلق بمحذوف وقع صفة لذلك المفعول والمحذوف ومن تبعيضية أى فلينكح امرأة

كائنة من ذلك النوع وقيل من زائدة والموصول مفعول للفعل المقدر أى فلينكح ما ملكته أيمانكم وقوله تعالى ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ فى محل النصب على الحالية من الضمير المقدر فى ملكت الراجع إلى ما وقيل هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من ومما ملكت متعلق بنفس الفعل ومن لابتداء الغاية أو بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبعيض أى فلينكح فتياتكم كائنات بعض ما ملكت أيمانكم والمؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقدير وقيل هو المفعول للفعل المقدر ومما ملكت على ما تقدم آنفا ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف وظاهر النظم الكريم يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع كما ذهب إليه الشافعى رحمه الله تعالى وعدم جواز نكاح الأمة الكتابية أصلا كما هو رأى أهل الحجاز وقد جوزهما أبو حنيفة رحمه الله تعالى متمسكا بالعمومات فمحمل الشرط والوصف هو الأفضلية ولا نزاع فيها لأحد وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسرا وقوله تعالى .

﴿ والله أعلم بإيمانكم ﴾ جملة معترضة جىء بها لتأنيسهم بنكاح الإماء واستنزالهم من رتبة الاستنكاف منه ببيان أن مناط التفاضل ومدار التفاخر هو الإيمان دون الأنساب على ما نطق به قوله عز قائلا (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والمعنى أنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم فى الإيمان الذى به تنتظم أحوال العباد وعليه يدور فلك المصالح فى المعاش والمعاد ولا تعلق له بخصوص الحرية والرق فرب أمة يفوق إيمانها إيمان الحرائر وقوله تعالى : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ إن أريد به الاتصال من حيث الدين فهو بيان لتناسبهم من تلك الحيثية إثر بيان تفاوتهم فى ذلك وإن أريد به الاتصال من حيث النسب فهو اعتراض آخر مؤكد للتأنيس من جهة أخرى والخطاب فى الموضعين إما لمن كما فى الخطاب الذى يعقبه قد روعى فيما سبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والالتفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس وإما لغيرهم من المسلمين كالخطابات السابقة لحصول

الترغيب بخطابهم أيضا وأياما كان فإعادة الأمر بالنكاح على وجه الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فانكحوهن ﴾ مع انفهامه من قوله تعالى فما ملكت أيمانكم حسبما ذكر لزيادة الترغيب فى نكاحهن وتقييده بقوله تعالى ﴿ بإذن أهلهن ﴾ وتصديره بالفاء للإيذان بترتبه على ما قبله أى وإذ قد وقفتم على جلية الأمر فانكحوهن بإذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن وفى اشتراط إذن الموالى دون مباشرتهم للعقد إشعار بجواز مباشرتهن له ﴿ وآتوهن أجورهن ﴾ أى مهورهن ﴿ بالمعروف ﴾ متعلق بآتوهن أى أدوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإلجاء إلى الاقتضاء واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته أن يكون الأداء إليهن بإذن الموالى فيكون ذكر إيتائهن لبيان جواز الأداء إليهن لا لكون المهور لهن وقيل أصله آتوا مواليهن فحذف المضاف وأوصل الفعل إلى المضاف إليه ﴿ محصنات ﴾ حال من مفعول فانكحوهن أى حال كونهن عفائف عن الزنا .

﴿ غير مسافحات ﴾ حال مؤكدة أى غير مجاهرات به ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ عطف على مسافحات ولا لتأكيد ما فى غير من معنى النفى والخدن الصاحب قال أبو زيد الأخدان الأصدقاء على الفاحشه والواحد خدن وخدين والجمع للمقابلة بالانقسام على معنى ألا يكون لواحده منهن خدن لا على معنى ألا يكون لها أخدان أى غير مجاهرات بالزنا ولا مسرات له وكان الزنا فى الجاهلية منقسما إلى هذين القسمين ﴿ فإذا أحصن ﴾ أى بالتزويج وقرىء على البناء للفاعل أى أحصن فروجهن أو أزواجهن ﴿ فإن أتين بفاحشة ﴾ أى فعلن فاحشة وهى الزنا ﴿ فعليهن ﴾ وجب عليهن شرعا ﴿ نصف ما على المحصنات ﴾ أى الحرائر الأبكار ﴿ من العذاب ﴾ من الحد الذى هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الإحصان فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالإحصان كتفاوت حد الحرائر فالفاء فى فإن أتين جواب إذا والثانية جواب إن والشرط الثانى مع جوابه مترتب على وجود الأول كما فى قولك إذا أتيتنى فإن لم أكرمك فعبدى حر ﴿ ذلك ﴾ أى نكاح الإماء

﴿ لمن خشى العنت منكم ﴾ أى لمن خاف وقوعه فى الإثم الذى تؤدى إليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعترى الإنسان بعد صلاح حاله ولاضرر أعظم من مواقعة المآثم بارتكاب أفحش القبائح وقيل أريد به الحد لأنه إذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد والأول اللائق بحال المؤمن دون الثانى لإيهامه أن المحذور عنده الحد لا ما يوجبه ﴿ وأن تصبروا ﴾ أى عن نكاحهن متعففين كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصى .

﴿ خير لكم ﴾ من نكاحهن وإن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضى الله عنه أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه وقال سعيد بن جبير ما نكاح الأمة من الزنا إلا قريب ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادى وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده مالا مزيد عليه ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح والعزة هى اللائقة بالمؤمنين ولأن مهرها لمولاها فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال عليه السلام الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت ﴿ والله غفور ﴾ مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحهن ما فى ذلك من الأمور المنافية لحال المؤمنين ﴿ رحيم ﴾ مبالغ فى الرحمة ولذلك رخص لكم فى نكاحهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما سبق من الأحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين قيل أصل النظم الكريم يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة ومفعول بين محذوف ثقة بشهادة السباق والسياق أى يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم من مصالحكم وفضائل أعمالكم أو ماتعبدكم به من الحلال والحرام وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تشريع ماشرع

من التحريم والتحليل لأجل التبيين لكم وهذا مذهب البصريين ويعزى إلى سيبويه وقيل إن اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل المتقدم فإن اللام قد تقام مقام أن فى فعل الإرادة والأمر فيقال أردت لأذهب وأن أذهب وأمرتك لتقوم وأن تقوم قال تعالى (يريدون ليطفئوا نور الله) وفى موضع (يريدون أن يطفئوا) وقال تعالى (وأمرنا لنسلم) وفى موضع (وأمرت أن أسلم) وفى آخر (وأمرت لأعدل بينكم) أى أن أعدل بينكم وهذا مذهب الكوفيين ومنعه البصريون وقالوا إن وظيفة اللام هى الجر والنصب فيما قالوا بإضمار أن أى أمرنا بما أمرنا لنسلم ويريدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل الذى قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء ويجعل ما بعده خبرا له كما فى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أى أن تسمع به ويعزى هذا الرأى إلى بعض البصريين ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم .

﴿ ويتوب عليكم ﴾ إذ أنبتم إليه تعالى عما يقع منكم من التقصير والتفريط فى مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فإن المكلف قلما يخلو من تقصير يستدعى تلافيه بالتوبة ويغفر لكم ذنوبكم أو يرشدكم إلى ما يردعكم عن المعاصى ويحثكم على التوبة أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده تعالى عن إرادته فيمن لم يتب منهم بل لطائفة معينة حصلت لهم هذه التوبة ﴿ والله عليم ﴾ مبالغ فى العلم بالأشياء التى من جملتها ما شرع لكم من الأحكام ﴿ حكيم ﴾ مراع فى جميع أفعاله الحكمة والمصلحة ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ جملة مبتدأ مسوقة لبيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى وكمال مضرة ما يريد الفجرة لا لبيان إرادته تعالى لتوبته عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الأسلوب إلى الجملة الاسمية دلالة على دوام الإرادة ولم يفعل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات ﴾ للإشارة إلى الحدوث وللإيماء إلى كمال المباينة بين مضمونى الجملتين كما مر فى قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا) الآية

والمراد بمتبغى الشهوات الفجرة فإن اتباعها الائتمار بها وأما المتعاطى لما سوغه الشرع من المشتهيات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود والنصارى وقيل هم المجوس حيث كانوا يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت فلما حرمهن الله تعالى قالوا فإنكم تحلون بنت الخالة مع أن العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت ﴿ أن تميلوا ﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم وقرىء بالياء التحتانية والضمير للذين يتبعون الشهوات .

﴿ ميلا عظيما ﴾ أى بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا استحلال ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ بما مر من الرخص ما فى عهدتكم من مشاق التكاليف والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه فى مشاق الطاعات وعن الحسن أن المراد ضعف الخلقة ولا يساعده المقام فإن الجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقرير ماقبله من التخفيف بالرخصة فى نكاح الإماء وليس لضعف البنية مدخل فى ذلك وإنما الذى يتعلق به التخفيف فى العبادات الشاقة وقيل المراد به ضعفه فى أمر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن سعيد بن المسيب ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت إحدى عينى وأنا أعشو بالأخرى وإن أخوف ما أخاف على نفسى فتنة النساء وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما وخلق الإنسان على البناء للفاعل والضمير لله عز وجل وعنه رضى الله عنه ثمانى آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت (يريد الله ليبين لكم) (والله يريد أن يتوب عليكم) (يريد الله أن يخفف عنكم) (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة

يضاعفها) (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ شروع فى بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس إثر بيان الحرمات المتعلقة بالأبضاع وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل ما يخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك مما لم يبحه الشرع أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بغير طريق شرعى ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أى إلا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراض كما فى قوله

ه إذا كان يوما ذا كواكب أشعنا ه

أى إذا كان اليوم يوما الخ أو إلا أن تكون الأموال أموال تجارة وقرىء تجارة بالرفع على أن كان تامة أى ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أى وقوعها أو ولكن وجود تجارة عن تراض غير منهى عنه وتخصيصها بالذكر من بين سائر أسباب الملك لكونها معظمها وأغلبها وقوعا وأوفقها لذوى المروءات والمراد بالتراضى مراضاة المتبايعين فيما تعاقدا عليه فى حال المبايعة وقت الإيجاب والقبول عندنا وعند الشافعى رحمة الله حالة الافتراق عن مجلس العقد .

﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أى من كان من جنسكم من المؤمنين فإن كلهم كنفس واحدة وعن الحسن لاتقتلوا إخوانكم والتعبير عنهم بالأنفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم بتصويره بصورة مالا يكاد يفعله عاقل أو لاتهلكوا أنفسكم بتعريضها للعقاب باقتراف ما يفضى إليه فإنه القتل الحقيقى كما يشعر به إيراده عقيب النهى عن أكل الحرام فيكون مقرراً للنهى السابق وقيل لاتقتلوا أنفسكم بالبخع كما يفعله بعض الجهلة أو بارتكاب ما يؤدى إلى القتل من الجنايات وقيل بإلقائها فى التهلكة وأيد بما روى عن عمرو بن العاص أنه تأوله بالتيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي عليه الصلاة والسلام وقرىء ولا تقتلوا

بالتشديد للتكثير وقد جمع فى التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما أنه شقيقها من حيث أنه سبب لقوامها وتحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها وتقديم النهى عن التعرض له لكثرة وقوعه ﴿ إن الله كان بكم رحيما ﴾ تعليل للنهى بطريق الاستئناف أى مبالغا فى الرحمة والرأفة ولذلك نها كم عما نها كم[1] عنه فإن فى ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصى وللذين هم فى معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم وقيل معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيما حيث أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم ولم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ إشارة إلى القتل خاصة أو لما قبله من أكل الأموال وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهما فى الفساد ﴿ عدوانا وظلما ﴾ أى إفراطا فى التجاوز عن الحد وإتيانا بما لا يستحقه وقيل أريد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية أو على التعليل[2] أى معتديا وظالما أو للعدوان والظلم وقرىء عدوانا بكسر العين .

﴿ فسوف نصليه ﴾ جواب للشرط أن ندخله وقرىء بالتشديد من صلى وبفتح النون من صلاه يصليه ومنه شاة مصلية ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث أنه سبب للصلى ﴿ نارا ﴾ أى نارا مخصوصة هائلة شديدة العذاب ﴿ وكان ذلك ﴾ أى إصلاؤه النار ﴿ على الله يسيرا ﴾ لتحقق الداعى وعدم الصارف وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ أى كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عنها مما ذكر ههنا وما لم يذكر وقرئ كبير على إرادة الجنس ﴿ نكفر عنكم ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات وقرىء بالياء بالإسناد إليه تعالى والتكفير إماطة المستحق من العقاب بثواب أريد أو بتوبة

(١) فى ط : نهى .

(٢) فى ط : العلية .

أى نغفر لكم ﴿ سيئاتكم ﴾ صغائركم ونمحها عنكم ، قال المفسرون الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر إذا اجتنبت الكبائر واختلف فى الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل ما علم حرمته بقاطع وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها سبع الإشراك بالله تعالى وقتل النفس التى حرمها الله تعالى وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وعن على رضى الله عنه التعقيب بعد الهجرة مكان عقوق الوالدين وزاد ابن عمر رضى الله عنهما السحر واستحلال البيت الحرام وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له الكبائر سبع قال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع وروى عنه إلى سبعين إذلا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل أريد به أنواع الشرك لقوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقيل صغر الذنوب [وكبرها][1] بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها وبحسب فاعلها [فقط][2] بل بحسب الأوقات والأماكن أيضا فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وما بينهما وسائط يصدق عليه الأمران فمن له أمران منهما[3] ودعت نفسه إليهما بحيث لايتمالك فكفها عن أكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق على اجتناب الأكبر من الثواب ﴿ وندخلكم مدخلا ﴾ بضم الميم اسم مكان هو الجنة ﴿ كريما ﴾ أى حسنا مرضيا أو مصدر ميمى أى إدخالا مع كرامة وقرىء بفتح الميم وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر ونصبه على الثانى بفعل مقدر مطاوع للمذكور أى ندخلكم فتدخلون مدخلا أو دخولا كريما كما فى قوله .

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على

(١ ، ٢) سقط من المطبوعة . (٣) فى ط : منها

بعض ﴾ أى عليكم ولعل إيثار الإبهام عليه للتفادى عن المواجهة بما يشق عليهم. قال القفال لما نهاهم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه بالنهى عما يؤدى إليه من الطمع فى أموالهم وتمنيها وقيل نهاهم أولا عن التعرض لأموالهم بالجوارح ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس دونكم فإن ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد مترتب على الإحاطة بجلائل شئونهم ودقائقها فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده عليه لما أنه معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكم البالغة لا لأن عدمه خير له ولا لأنه لو كان خلافه لكان مفسدة له كما قيل إذ لا يساعده ما سيأتى من الأمر بالسؤال من فضله تعالى فإنه ناطق بأن المنهى عنه تمنى نصيب الغير لا تمنى ما زاد على نصيبه مطلقا هذا وقد قيل لما جعل الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين قالت النساء نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لأنا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت وهـــذا هو الأنسب بتعليل النهى بقوله عز وجل ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ فإنه صريح فى جريان التمنى بين فريق الرجال والنساء ولعل صيغة المذكر فى النهى بالبعض والمعنى لكل من الفريقين فى الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيدا لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره فإن ذلك مما يوجبه الانتهاء عن التمنى المذكور .

وقوله تعالى ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ عطف على النهى وتوسيط التعليل بينهما لتقرير الانتهاء مع ما فيه من الترغيب فى الامتثال بالأمر كأنه قيل لا تتمنوا ما يختص بغيركم من نصيبه المكتسب له واسألوا الله تعالى من خزائن

نعمه التى لا تنفد وحذف المفعول الثانى للتعميم أى واسألوه ما تريدون فإنه تعالى يعطيكموه أو لكونه معلوما من السياق أى واسألوه مثله وقيل من زائدة والتقدير واسألوه فضله وقد جاء فى الحديث لا يتمنين أحدكم مال أخيه ولكن ليقل اللهم ارزقنى اللهم أعطنى مثله وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج وحمل النصيب على الأجر الأخروى وإبقاء الاكتساب على حقيقته بجعل سبب النزول ما روى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم على أن المعنى لكل من الفريقين نصيب خاص به من الأجر مترتب على عمله فللرجال أجر بمقابلة ما يليق بهم من الأعمال كالجهاد ونحوه وللنساء أجر بمقابلة ما يليق بهن من الأعمال كحفظ حقوق الأزواج ونحوه فلا تتمن النساء خصوصية أجر الرجال وليسألن من خزائن رحمته تعالى ما يليق بحالهن من الأجر لا يساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث وفضائل الرجال ﴿ إن الله كان بكل شىء عليما ﴾ ولذلك جعل الناس على طبقات ورفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية .

﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ جملة مبتدأة مقررة لمضمون ماقبلها ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون البعض كما فى قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة فى الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة ومما ترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل فيه كما فصل فى قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض) بين لفظ الجلالة وبين صفته بالعامل فيما أضيف إليه أعنى غير أو ولكل قوم جعلناهم موالى أى وراث نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك الوالدان والأقربون على أن جعلنا موالى صفة

لكل والضمير الراجع إليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله إنسانا من رزق الله أى حظ منه وأما ما قيل من أن المعنى لكل أحد جعلنا موالى مما ترك أى وراثا منه على أن من صلة موالى لأنه فى معنى الوارث وفى ترك ضمير مستكن عائد إلى كل وقوله تعالى الوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى كأنه قيل من هم فقيل الوالدان ففيه تفكيك للنظم الكريم لأن ببيان الموالى بما ذكر يفوت الإبهام المصحح لاعتبار التفاوت بينهم وبه يتحقق الانتظام كما أشير إليه فى تقرير الوجهين الأولين مع ما فيه من خروج الأولاد من الموالى إذ لا يتناولهم الأقربون كما لا يتناول الوالدين ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ هم موالى الموالاة كان الحليف يرث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وعند أبى حنيفة رحمه الله إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله إرثه إن لم يكن له وارث أصلا وإسناد العقد إلى الأيمان لأن المعتاد هو المماسحة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهودهم فحذف العهود وأقيم المضاف إليه مقامه ثم حذف وقرىء عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم أيمانكم وماسحتموهم وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعنى قوله تعالى ﴿ فآتوهم نصيبهم ﴾ بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره ما بعده كقولك زيدا فاضربه أو مرفوع معطوف على الوالدان والأقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها والضمير للموالى ﴿ إن الله كان على كل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها الإيتاء والمنع ﴿ شهيدا ﴾ ففيه وعد ووعيد .

﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة فى الميراث تفصيلا إثر بيان تفاوت استحقاقهم إجمالا وإيراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم فى الاتصاف بما أسند إليهم ورسوخهم فيه أى شأنهم القيام عليهن بالأمر والنهى قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهبى وكسبى فقيل ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ الباء

سببية متعلقة بقوامون أو بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية
والضمير البارز لكلا الفريقين تغليبا أى قوامون عليهن بسبب تفضيل الله
تعالى إياهم عليهن أو ملتبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين
للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه
أصلا ولذلك لم يصرح بما به التفضيل من صفات كماله التى هى كمال العقل وحسن
التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة فى الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة
والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة فى جميع القضايا ووجوب الجهاد
والجمعة وغير ذلك ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ الباء متعلقة بما تعلقت به الأولى
وما مصدرية وموصولة حذف عائدها من الصلة ومن تبعيضية أو ابتدائية متعلقة
بأنفقوا أو بمحذوف وقع حالا من العائد المحذوف أى وبسبب إنفاقهم من
أموالهم أو بسبب ما أنفقوه من أموالهم أو كائنا من أموالهم وهو ما أنفقوه
من المهر والنفقة . روى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار رضى الله عنهم
نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا فقال عليه السلام لتقتص منه فنزلت فقال
عليه السلام أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذى أراده الله خير .

﴿ فالصالحات ﴾ شروع فى تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن
بحسب اختلاف أحوالهن أى فالصالحات منهن ﴿ قانتات ﴾ أى مطيعات لله
تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿ حافظات للغيب ﴾ أى لمواجب الغيب أى
لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال . عن النبى
صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها
أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها وتلا الآية وقيل لأسرارهم
وإضافة المال إليها للإيذان بأن ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله
تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) الآية ﴿ بما حفظ الله ﴾ ما مصدرية أى بحفظه
تعالى إياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوعيد والتوفيق
له أو موصولة أى بالذى حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقه والقيام بحفظهن

والذب عنهن وقرىء بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أى بالأمر الذى حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال .

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ خطاب للأزواج وإرشادهم إلى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أى تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم من النشز وهو المرتفع من الأرض ﴿ فعظوهن ﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب ﴿ واهجروهن ﴾ بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة ﴿ فى المضاجع ﴾ أى فى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع وقيل المضاجع المبايت أى لا تبايتوهن وقرىء فى المضجع وفى المضطجع ﴿ واضربوهن ﴾ إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضربا غير مبرح ولا شائن ﴿ فإن أطعنكم ﴾ بذلك كما هو الظاهر لأنه منتهى ما يعد زاجراً ﴿ فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ بالتوبيخ والأذية أى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

﴿ إن الله كان عليا كبيراً ﴾ فاحذروه فإنه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم أو أنه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند إطاعتهن لكم أو أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه وعدم التعرض لعدم إطاعتهن لهم للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض تحققه وأن الذى يتوقع منهن ويليق بشأنهن لاسيما بعد ما كان ما كان من الزواجر هو الإطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفاء المنبئة عن سببية ما قبلها لما بعدها ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحكام وارد على بناء الأمر على التقدير المسكوت عنه أعنى عدم الإطاعة المؤدى إلى المخاصمه والمرافعة إليهم والشقاق المخالفة إما لأن كلا منهما يريد ما يشق على الآخر وإما لأن كلا منهما فى شق أى جانب غير شق الآخر والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس والجزم بوجود الشقاق لا ينافى بعث الحكمين لأنه لرجاء إزالته لا لتعرف وجوده بالفعل وقيل بمعنى

الظن وضمير التثنية للزوجين وإن لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وإضافة الشقاق إلى الظرف إما على إجرائه مجرى المفعول به كما فى قوله ياسارق الليلة أو مجرى الفاعل كما فى قولك نهاره صائم أى إن علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة بحيث لا يقدر الزوج على إزالتها ﴿ فابعثوا ﴾ أى إلى الزوجين لإصلاح ذات البين ﴿ حكما ﴾ رجلا وسطا صالحا للحكومة والإصلاح ﴿ من أهله ﴾ من أهل الزوج ﴿ وحكما ﴾ آخر على صفة الأول ﴿ من أهلها ﴾ فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبا من الأجانب جاز واختلف فى أنهما هل يليان الجمع والتفريق إن رأيا ذلك فقيل لهما ذلك وهو المروى على رضى الله عنه وبه قال الشعبي وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان وقال مالك لهما أن يتخالعا إن كان الصلاح فيه ﴿ إن يريدا ﴾ أى الحكمان ﴿ إصلاحا ﴾ أى إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى .

﴿ يوفق الله بينهما ﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة والألفة وألقى فى نفوسهما المودة والرأفة وعدم التعرض لذكر عدم إرادتهما الإصلاح لما ذكر من الإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يفرض صدوره عنهما وأن الذى يليق بشأنهما ويتوقع صدوره عنهما هو إرادة الإصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين فى الإصلاح وتحذير عن المساهلة لكيلا ينسب اختلال الأمر إلى عدم إرادتهما فإن الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الإرادة منبئة عن دوران عدمه على عدمها وقيل كلا الضميرين للحكمين أى إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما فتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل كلاهما للزوجين أى إن أرادا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله تعالى بينهما الألفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه ﴿ إن الله كان عليما خبيراً ﴾ بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم إثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج صدر بما يتعلق

بحقوق الله عز وجل التى هى آكد الحقوق وأعظمها تنبيها على جلالة شأن حقوق الوالدين بنظمها فى سلكها كما فى سائر المواقع وشيئاً نصب على أنه مفعول أى لا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنما أو غيره أو على أنه مصدراً أى لا تشركوا به شيئا من الإشراك جليا أو خفيا ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى أحسنوا إليهما إحسانا ﴿ وبذى القربى ﴾ أى بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك .

﴿ واليتامى والمساكين ﴾ من الأجانب ﴿ والجار ذى القربى ﴾ أى الذى قرب جواره وقيل له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيما لحق الجار ذى القربى ﴿ والجار الجنب ﴾ أى البعيد أو الذى لا قرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب وقرىء والجار الجنب ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ أى الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه صحبك وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجنبك فى مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه وقيل هى المرأة ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر المنقطع به أو الضيف ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ من العبيد والإماء ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا ﴾ أى متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ﴿ فخوراً ﴾ يتفاخر عليهم والجملة تعليل للأمر السابق .

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ بضم الباء وسكون الخاء وقرىء بفتح الأول وبفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله تعالى (من كان) أو نصب على الذم أو رفع عليه أى هم الذين أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ أى من المال والغنى أو من نعوته عليه السلام التى بينها لهم فى التوراة وهو أنسب بأمرهم للناس بالبخل فإن أحبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون أعقابهم

بكتمها ﴿ وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء والآية نزلت فى طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر وقيل فى الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها ﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ﴾ أى للفخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا ابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون أو على الكافرين وانما شاركوهم فى الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذى هو الإنفاق فيما لا ينبغى من حيث أنهما طرفا تفريط وإفراط سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغاير الوصفى مجرى التغاير الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

أومبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يكن الخ كأنه قيل والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخر ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه تعالى وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ أى فقرينهم الشيطان وإنما حذف للإيذان بظهوره واستغنائه عن التصريح به والمراد به إبليس وأعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم كما فى قوله تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار ﴿ وماذا عليهم ﴾ أى على من ذكر من الطوائف .

﴿ ولو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ أى ابتغاء وجه الله تعالى وإنما لم يصرح به تعويلا على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فإنه يقتضى أن يكون الإنفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب

ثوابه البتة أى وما الذى عليهم أو وأى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان بالله والإنفاق فى سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والإعتقاد فى الشىء بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب لعله يؤدى بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب إليه إحتياطا فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى وتقديم الإيمان بهما لأهميته فى نفسه ولعدم الإعتداد بالإنفاق بدونه وأما تقديم إنفاقهم رئاء الناس على عدم إيمانهم بهما مع كون المؤخر أقبح من المقدم فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به ﴿ وكان الله بهم ﴾ وبأحوالهم المحققة ﴿ عليما ﴾ فهو وعيد لهم بالعقاب أو بأعمالهم المفروضة وبيان لإثابته تعالى إياهم لو كانوا قد آمنوا وأنفقوا كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ المثقال مفعال من الثقل كالمقدار من القدر وانتصابه على أنه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعنى وضع الشىء فى غير موضعه أى لا ينقص من الأجر ولا يزيد فى العقاب شيئاً مقدار ذرة أو على أنه نعت للمصدر المحذوف نائب منابه أى لا يظلم ظلما مقدار ذرة وهى النملة الصغيرة أو كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة وهو الأنسب بمقام المبالغة فإن قلته فى الثقل أظهر من قلة النملة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة .

﴿ وإن تك حسنة ﴾ أى وإن تك مثقال ذرة حسنة أنث لتأنيث الخبر أو لإضافته إلى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيها بحروف العلة وتخفيفاً لكثرة الاستعمال وقرىء حسنة بالرفع على أن كان تامة ﴿ يضاعفها ﴾ أى يضاعف ثوابها جعل ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيها على كمال الإتصال بينهما كأنهما شىء واحد وقرىء يضعفها وكلاهما بمعنى واحد وقرىء نضاعفها بنون العظمة على طريقة الإلتفات . عن عثمان النهدى أنه قال لأبى هريرة رضى الله عنه بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله

تعالى يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم يقول يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية والمراد الكثرة لا التحديد ﴿ ويؤت من لدنه ﴾ ويعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائداً على ما وعده فى مقابلة العمل ﴿ أجراً عظيما ﴾ عطاء جزيلا وإنما سماه أجرا لكونه تابعا للأجر مزيدا عليه ﴿ فكيف ﴾ محلها إما الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف وإما النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال كما هو رأى سيبويه أو على التشبيه بالظرف كما هو رأى الأخفش أى كيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم أو كيف يصنعون ﴿ إذا جئنا ﴾ يوم القيامة ﴿ من كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ بشهيد ﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمال وهو نبيهم كما فى قوله تعالى (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) والعامل فى الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هول الأمر وعظم الشأن أو الفعل المقدر ومن متعلقة بجئنا .

﴿ وجئنا بك ﴾ يا محمد ﴿ على هؤلاء ﴾ إشارة إلى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر ﴿ شهيداً ﴾ تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم وقيل إلى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الأنبياء على أممهم وقيل إلى المؤمنين كما فى قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ﴾ استئناف لبيان حالهم التى أشير إلى شدتها وفظاعتها بقوله تعالى فكيف فإن أريد بهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لا سيما بعد الإشارة إليهم بهؤلاء لذمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل ولإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه فإن حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لا أن يكفر به ويعصى وإن أريد بهم جنس الكفرة فهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم للنبى عليه السلام إنتظاما أوليا وأياما كان ففيه من تهويل الأمر وتفظيع الحال ما لا يقادر قدره

وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه فى الصلة والمراد معاصيهم المغايرة لكفرهم ففيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر أى يود فى ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول أو الذين كفروا وقد عصوا الرسول أو الذين كفروا والذين عصوا الرسول ولو فى قوله تعالى :

﴿ لو تسوى بهم الأرض ﴾ إن جعلت مصدرية فالجملة مفعول ليود أى يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى وقيل يودون أنهم لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكأنهم والأرض سواء وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها وإن جعلت على بابها فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه أى يودون تسوية الأرض بهم وجواب لو أيضاً محذوف إيذانا بغاية ظهوره أى لسروا بذلك وقوله تعالى ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ عطف على يود أى ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم وقيل الواو للحال أى يودون أن يدفنوا فى الأرض وهم لا يكتمون منه تعالى حديثا ولا يكذبونه بقولهم : والله ربنا ما كنا مشركين إذ روى أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض وقرىء تسوى على أن أصله تتسوى فأدغم التاء فى السين وقرىء تسوى بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ لما نهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى نهوا ههنا عما يؤدى إليه من حيث لا يحتسبون فإنه روى أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه صنع طعاما وشرابا حين كانت الخمر مباحة فدعا نفرا من الصحابة رضى الله عنهم فأكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلى بهم فقرأ أعبد ما تعبدون فنزلت وتصدير الكلام بحرفى النداء والتنبيه للمبالغة فى حملهم على العمل بموجب النهى وتوجيه النهى إلى قرب الصلاة مع أن المراد هو النهى عن إقامتها للمبالغة فى ذلك وقيل المراد النهى عن قربان المساجد

لقوله عليه السلام جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ويأباه قوله تعالى (حتى تعلموا ما تقولون) فالمعنى لا تقيموها فى حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه إذ بتلك التجربة يظهر أنهم يعلمون ما سيقرءونه فى الصلاة وحمل ما تقولون على ما فى الصلاة يستدعى تقدم الشروع فيها على غاية النهى وحمل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تكونوا بحيث تعلمون ما ستقرءونه فى الصلاة تطويل بلا طائل لأن تلك الحيثية إنما تظهر بما ذكر من التجربة على أن إيثار ما تقولون على ما تقرؤن حينئذ يكون عاريا عن الداعى وقيل المراد بالسكر سكر النعاس وغلبة النوم وأياما كان فليس مرجع النهى هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا بحاله بل إنما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله : إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا. كأنه قيل يا أيها الذين آمنوا لا تسكروا فى أوقات الصلاة وقد روى أنهم كانوا بعد ما نزلت الآية لا يشربون الخمر فى أوقات الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون .

﴿ ولا جنبا ﴾ عطف على قوله تعالى وأنتم سكارى فإنه فى حيز النصب كأنه قيل لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا والجنب من أصابه الجنابة يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر ﴿ إلا عابرى سبيل ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على أنه حال من ضمير لا تقربوا باعتبار تقييده بالحال الثانية دون الأولى والعامل فيه فعل النهى أى لا تقربوا الصلاة جنبا فى حال من الأحوال لاحال كونكم مسافرين على معنى أن فى حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لا بطريق شمول النفى لجميع صورها بل بطريق نفى الشمول فى الجملة من غير دلالة على انتفاء خصوصية البعض المنتفى ولا على بقاء خصوصية البعض الباقى ولا على ثبوت نقيضه لا كليا ولا جزئيا فإن الاستثناء لا يدل على ذلك عبارة . نعم يشير إلى مخالفة حكم ما بعده لما قبله إشارة إجمالية يكتفى بها فى المقامات الخطابية لا فى إثبات الأحكام الشرعية فإن ملاك الأمر فى ذلك إنما هو الدليل وقد ورد عقيبه على طريقة البيان وقيل

هو صفة لجنبا على أن إلا بمعنى غير أى وإلا جنبا غير عابرى سبيل ومن حمل الصلاة على مواضعها فسر العبور بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رحمه الله وعندنا لا يجوز ذلك إلا أن يكون الماء أو الطريق فيه وقيل إن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد فرخص لهم ذلك ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ غاية للنهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للإيذان من أول الأمر بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الإطلاق كما فى صورة السكر تشويقا إلى البيان وروما لزيادة تقرره فى الأذهان وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وأن يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية عند إمكان أعاليها .

﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فى الاستثناء وبيان ما هو فى حكم المستثنى من الأعذار والاقتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقى له فى حكم الترخيص للإشعار بأنه العذر الغالب المنبىء عن الضرورة التى عليها يدور أمر الرخصة كأنه قيل ولا جنبا إلا مضطرين وإليه مرجع ما قيل من أنه جعل عابرى سبيل كناية عن مطلق المعذورين والمراد بالمرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقا سواء كان ذلك بتعذر الوصول إليه أو بتعذر استعماله ﴿ أو على سفر ﴾ عطف على مرضى أى أو كنتم على سفر ما طال أو قصر وإيراده صريحا مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبناء الحكم الشرعى عليه وبيان كيفيته فإن الاستثناء كما أشير إليه بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلا عن الدلالة على كيفيته وتقديم المرض عليه للإيذان بأصالته واستقلاله بأحكام لا توجد فى غيره كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ هو المكان الغائر المطمئن والمجىء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليوارى شخصه عن أعين الناس وإسناد المجىء منه إلى واحد منهم من المخاطبين دونهم للتفادى عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل ﴿ أو

لامستم النساء ﴾ على التصريح بالجماع ونظمهما فى سلك سببى سقوط الطهارة والمصير إلى التيمم مع كونهما سببى وجوبها ليس باعتبار أنفسهما بل باعتبار قيدهما المستفاد من قوله تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ بل هو السبب فى الحقيقة وإنما ذكرا تمهيدا له وتنبيها على أنه سبب للرخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصغرى والكبرى كأنه قيل أولم تكونوا مرضى أو مسافرين بل كنتم فاقدين للماء بسبب من الأسباب مع تحقق ما يوجب استعماله وتخصيص ذكره بهذه الصورة مع أنه معتبر فى صورة المرض والسفر أيضا لندرة وقوعه فيها واستغنائهما عن ذكره إما لأن الجنابة معتبرة فيهما قطعا فيعلم من حكمها حكم الحدث الأصغر بدلالة النص لأن تقدير النظم لا تقربوا الصلاة فى حال الجنابة إلا حال كونكم مسافرين فإن كنتم كذلك أو كنتم مرضى الخ وإما لما قيل من أن عموم إعواز الماء فى حق المسافر غالب والعجز عن استعمال الماء القائم مقام عدمه فى حق المريض مغن عن ذكره لفظا وما قيل من أن هذا القيد راجع إلى الكل وأن قيد وجوب التطهر المكنى عنه بالمجىء من الغائط والملامسة معتبر فى الكل مما لا يساعده النظم الكريم .

﴿ فتيمموا صعيدا طيبا ﴾ فتعمدوا شيئا من وجه الأرض طاهرا قال الزجاج الصعيد وجه الأرض ترابا أو غيره وإن كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله وعند الشافعى رحمه الله لا بد أن يعلق باليد شىء من التراب ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ أى إلى المرفقين لما روى أنه عليه السلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ولأنه بدل من الوضوء فيقدر بقدره ﴿ إن الله كان عفوا غفورا ﴾ تعليل للترخيص والتيسير وتقريرهما فإن من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين لا بد أن يكون ميسرا لا معسرا وقيل هو كناية عنهما فإن الترفيه والمسامحة من روادف العفو وتوابع الغفران ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين

وتوجيهه فيما بعد إلى الكل معا للإيذان بكمال شهرة شناعة حالهم وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية بصرية أى ألم تنظر إليهم فإنهم أحقاء أن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم وتجويز كونها قلبية على أن إلى تتضمن معنى الانتهاء لما فعلوه يأباه مقام تشهير شنائعهم ونظمها فى سلك الأمور المشاهدة والمراد بهم أحبار اليهود .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى حبرين من أحبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين عبد الله بن أبى ورهطه يثبطانهم عن الإسلام وعنه رضى الله عنه أيضاً أنها نزلت فى رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا لسانهما وعاباه والمراد بالكتاب هو التوراة وحمله على جنس الكتاب المنتظم لها انتظاما أوليا تطويل للمسافة وبالذى أوتوه ما بين لهم فيها من الأحكام والعلوم التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب المنبىء عن كونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والمحافظة عليها بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا وتنوينه تفخيمى مؤيد للتشنيع عليهم والتعجيب من حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم والاشعار بمكان ما طوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العوضين وكلمة من متعلقة إما بأوتوا أو بمحذوف وقع صفة لنصيبا مبينة لفخامته الإضافية أثر بيان فخامته الذاتية أى نصيبا كائنا من الكتاب وقوله تعالى :

﴿ يشترون الضلالة ﴾ قيل هو حال مقدرة من واو أوتوا ولا ريب فى أن اعتبار تقدير اشترائهم المذكور فى الإيتاء مما لا يليق بالمقام وقيل هو حال من الموصول أى ألم تنظر إليهم حال اشترائهم وأنت خبير بأنه خال عن إفادة أن مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وما عطف عليه والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أنه استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومين

من صدر الكلام على وجه الإجمال والإبهام مبنى على سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقيل يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية وإنما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر لاسيما بعد الإشعار المذكور والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه أخذا ناشئا عن الرغبة فيها والإعراض عنه للإيذان بكمال رغبتهم فى الضلالة التى حقها أن يعرض عنها كل الإعراض وإعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم مالا يخفى حيث صورت حالهم بصورة مالايكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المنبىء عن تأخرها عنه بل هو فردها الكامل وهو عنادهم وتماديهم فى الكفر بعد ماعلموا بشأن النبي عليه السلام وتيقنوا بحقية دينه وأنه هو النبي العربى المبشر به فى التوراة ولا ريب فى أن هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر فى أوائل سورة البقرة .

﴿ ويريدون ﴾ عطف على يشترون شريك له فى بيان محل التشنيع والتعجب وصيغة المضارع فيهما للدلالة على الاستمرار التجددى فإن تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه فى قوة تجدد نفسه وتكرره أى لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته عليه السلام ﴿أن تضلوا﴾ أنتم أيضا أيها المؤمنون ﴿ السبيل ﴾ المستقيم الموصل إلى الحق ﴿ والله أعلم ﴾ أى منكم ﴿ بأعدائكم ﴾ جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم والجملة معترضة لتقرير إرادتهم المذكورة ﴿ وكفى بالله وليا ﴾ فى جميع أموركم ومصالحكم ﴿ وكفى بالله نصيراً ﴾ فى كل المواطن فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ولا تتولوا غيره أو لا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء فإنه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعيد والباء مزيدة فى

فاعل كفى لتأكيد الاتصال الإسنادى بالاتصال الإضافى وتكرير الفعل فى الجملتين مع إظهار الجلالة فى مقام الإضمار لا سيما فى الثانى لتقوية استقلالها المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عز وجل فى كل من الولاية والنصرة والإشعار بعليتهما فإن الألوهية من موجباتهما لا محالة ﴿ من الذين هادوا ﴾ قيل هو بيان لأعدائكم وما بينهما اعتراض وفيه أنه لا وجه لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من أعدائهم لا سيما فى معرض الاعتراض الذى حقه العموم والإطلاق وانتظام ما هو المقصود فى المقام انتظاما أولياً كما أشير إليه وقيل هو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كما فى قوله تعالى (فمن ينصرنى من الله) وفيه ما فيه من تحجير واسع نصرته عز وجل مع أنه لا داعى إلى وضع الموصول موضع ضمير الأعداء لأن ما فى حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وقع قوله تعالى :

﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ صفة له أى من الذين هادوا قوم أو فريق يحرفون الخ وفيه أنه يقتضى كون الفريق السابق بمعزل من التحريف الذى هو المصداق لاشترائهم فى الحقيقة فالذى يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للموصول الأول المتناول بحسب المفهوم لأهل الكتابين قد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته ونصرته وأن قوله تعالى يحرفون وما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور وتفصيل لفنون ضلالتهم وقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإبهام والتفصيل إثر الإجمال روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والكلم اسم جنس واحده كلمة كتمر وتمرة وتذكير ضميره باعتبار إفراده لفظا وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى وقرىء بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة وقرىء يحرفون الكلام والمراد به ههنا إما ما فى التوراة خاصة وإما ما هو أعم منه ومما سيحكى عنهم من الكلمات المعهودة

الصادرة عنهم فى أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مساغ لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يحمل عطف قوله تعالى :

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ الخ على ما قبله عطفا تفسيريا لما ستقف على سره فإن أريد به الأول كما هو رأى الجمهور فتحريفه إزالته عن مواضعه التى وضعه الله تعالى فيها من التوراة كتحريفهم فى نعت النبى عليه السلام أسمر ربعة عن موضعه فى التوراة بأن وضعوا مكانه آدم طوال وكتحريفهم الرجم بوضعهم بدله الحد أو صرفه عن المعنى الذى أنزله الله تعالى فيه إلى ما لا صحة له بالتأويلات الزائغة الملائمة لشهواتهم الباطلة وإن أريد به الثانى فلابد من أن يراد بمواضعه ما يليق به مطلقا سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحا كمواضع ما فى التوراة أو بتعيين العقل أو الدين كمواضع غيره وأيا ما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغى أن يجرى على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة بل وأن يحمل على ما هو أعم من القول الحقيقى وبما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم ليندرج فيه ما انطقت به ألسنة حالهم عند تحريف التوراة فإن من لا يتفوه بتلك العظيمة لا يكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية وإلا لحمله على ما قالوه فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعى اختصاص حكم الشرطية الآتية وما بعدها بهن من غير تعرض لتحريفهم التوراة مع أنه معظم جناياتهم المعدودة ومن ههنا انكشف لك السر الموعود فتأمل أى يقولون فى كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبى صلى الله عليه وسلم أولا بلسان المقال أو الحال سمعنا وعصينا عنادا وتحقيقا للمخالفة وقوله تعالى .

﴿ واسمع غير مسمع ﴾ عطف على سمعنا وعصينا داخل تحت القول أى ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبته عليه السلام خاصة وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاما أصلا بصمم أو موت أى مدعوا عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاما ترضاه فحينئذ يجوز أن يكون نصبه على المفعولية وللخير بأن يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا

يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به ﴿ وراعنا ﴾ عطف على اسمع غير مسمع أى ويقولون فى أثناء خطابهم له عليه السلام هذا أيضاً يوردون كلا من العظائم الثلاث فى مواقعها وهى أيضا كلمة ذات وجهين محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك وللشر بحملها على السب بالرعونة أى الحمق أو بإجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهى راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينوون الشتيمة والإهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم إلى مسلك النفاق فى القولين الأخيرين مع تصريحهم بالعصيان فى الأول لما قالوا من أن جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الأول فيما بينهم وقيل يجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا به صاروا[1] كأنهم نطقوا به .

﴿ ليا بألسنتهم ﴾ أى فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه إلى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع لا أن سمعت مكروها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما لما يظهرونه من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرونه من السب والتحقير ﴿ وطعنا فى الدين ﴾ أى قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على التعليل ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين أى يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن فى الدين أو على الحالية أى لاوين طاعنين فى الدين ﴿ ولو أنهم ﴾ عندما سمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿ قالوا ﴾ بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ إنما أعيد سمعنا مع أنه متحقق فى كلامهم وإنما الحاجة إلى وضع أطعنا مكان عصينا لا للتنبيه على عدم اعتباره بل على اعتبار عدم كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم بحكايته الإعلام بأن[2] عصيانهم للأمر

---

(١) فى ط : جعلوا .   (٢) فى ط : إعلام أن

بعد سماعه والوقوف عليه فلا بد من إزالته وإقامة سماع القبول مقامه .

﴿ واسمع ﴾ أى لو قالوا عند مخاطبة النبى عليه الصلاة والسلام بدل قولهم اسمع غير مسمع اسمع ﴿ وانظرنا ﴾ أى ولو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم شرا وفسادا أى لو ثبت أنهم قالوا هـذا مكان ماقالوا من الأقوال ﴿ لـكان ﴾ قولهم ذلك ﴿ خيرا لهم ﴾ ممـا قالوا ﴿ وأقوم ﴾ أى أعدل وأسد فى نفسه وصيغة التفضيل إما على بابها واعتبار أصل الفضل فى المفضل عليه بناء على اعتقادهم أو بطريق التهـكم وإما بمعنى اسم الفاعل وإنما قدم فى البيان حاله بالنسبة إليهم على حاله فى نفسه لأن هممهم مقصورة على ما ينفعهم .

﴿ ولـكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى ولـكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله تعالى وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك ﴿ فلا يؤمنون ﴾ بعد ذلك .

﴿ إلا قليلا ﴾ قيل أى إلا إيمانا قليلا لا يعبأ به وهو الإيمان ببعض الـكتب والرسل أو إلا زمانا قليلا وهو زمان الاحتضار فإنهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان قال تعالى (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وكلاهما ليس بإيمان قطعا وقد جوز أن يراد بالقلة العدم بالـكلية على طريقة قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) أى إن كان الإيمان المعدوم إيمانا فهم يحدثون شيئا من الإيمان فهو فى المعنى تعليق بالمحال وأنت خبير بأن الـكل يأباه ما يعقبه من الأمر بالإيمان بالقرآن الناطق بهذا لإفضائه إلى التـكليف بالمحال الذى هو إيمانهم بعدم إيمانهم المستمر أما على الوجه الأخير فظاهر وأما على الأولين فلأن أمرهم بالإيمان المنجز بجميع الـكتب والرسل تـكليف لهم بإيمانهم ببعض الـكتب والرسل وبعدم إيمانهم إلى وقت الاحتضار فالوجه أن يحمل القليل على من يؤمنون لإفضائه إلى وقوع إيمان من لعنه الله تعالى وخذله مع ما فيه من نسبة القراء إلى الإتفاق على

غير المختار بل بجعله ضمير المفعول فى لعنهم أى ولكن لعنهم الله إلا فريقا قليلا فإنه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الإيمان وقد آمن بعد ذلك فريق من الأحبار كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما كما سيأتى .

﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إما إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات ووصفهم تارة بإيتاء الكتاب أى التوراة وأخرى بإيتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فإن المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وإزالة ما أوتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ما أزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بإيتائه بل هو بعضها فوصفوا بإيتائه وأما ههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذى يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث أن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه والكفر بالثانى مقتض للكفر بالأول قطعا ولا ريب فى أن المحذور عندهم إنما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لا ببعضها وذلك إنما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لكلها وإن كان مناط التصديق بعضا منها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل المتضمن له حتما وإما إليهم وإلى غيرهم قاطبة وهو الأظهر وأيا ما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان إقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة عقب ذلك بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على المخالفه فقال :

﴿ آمنوا بما نزلنا ﴾ من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما فى حيز الصلة وتحقيقيا لكونه من عنده عز وعلا ﴿ مصدقا لما معكم ﴾ من التوراة عبر عنها بذلك للإيذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فإن المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرر المراجعة إليها من موجبات العثور على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها فى جزئيات

الأحكام بسبب تفاوت الأمم والأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى عين الموافقة من حيث أن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى ﴿ من قبل أن نطمس وجوها ﴾ متعلق بالأمر مفيد للمسارعة إلى الامتثال به والجد فى الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على أن ذلك أمر محقق غنى عن الإخبار به وأنه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفى تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب وفى إبهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان وأصل الطمس محو الآثار وإزالة الأعلام أى آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها قال ابن عباس رضى الله عنهما نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى (فطمسنا أعينهم) وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القردة .

﴿ فنردها على أدبارها ﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها وأقفائها مطموسة مثلها فالفاء للتسبيب أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الأقفاء والأقفاء إلى موضعها وقد اكتفى بذكر أشدهما فالفاء للتعقيب وقيل المراد بالوجوه الوجهاء على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلب إقبالهم ووجاهتهم وننكسوهم صغارا وإدبارا[1] أو نردهم من حيث جاؤا منه وهى أذرعات الشأم فالمراد بذلك إجلاء بنى النضير ولا يخفى أنه لا يساعده مقام تشديد الوعيد وتعميم التهديد للجميع فالوجه ماسبق من الوجوه وقد اختلف فى أن الوعيد هل كان بوقوعه فى الدنيا أو فى الآخرة فقيل كان بوقوعه فى

(١) فى ١٠ : وإذلالا

الدنيا ويؤيده ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه لما قدم من الشام وقد سمع هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهى إلى قفاى وفى رواية جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويده على وجهه وأسلم وقال ماقال وكذا ما روى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية على كعب الأحبار فقال كعب يارب آمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيدها ثم اختلفوا فقيل إنه منتظر بعد ولا بد من طمس فى اليهود ومسخ وهو قول المبرذ وفيه أن انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم وهم الذين باشروا أسباب نزوله وموجبات حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوها وفى التوراة فحرفوها وأصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشافهة بالوعيد ثم نزوله على من وجد بعد مئات من السنين من أعقابهم الضالين بإضلالهم العالمين بما مهدوا من قوانين الغواية بعيد من حكمة الله تعالى العزيز الحكيم وقيل إن وقوعه كان مشروطا بعدم الإيمان وقد آمن من أحبارهم المذكوران وأضرابهما فلم يقع وفيه أن إسلام بعضهم إن لم يكن سبباً لتأكد نزول العذاب على الباقين لتشديدهم النكير والعناد بعد إزدياد الحق وضوحا وقيام الحجة عليهم بشهادة أماثلهم العدول فلا أقل من ألا يكون سبباً لرفعه عنهم وقيل كان الوعيد بوقوع أحد الأمرين كما ينطق به قوله تعالى .

﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ فإن لم يقع الأمر الأول فلا نزاع فى وقوع الثانى كيف لاوهم ملعونون بكل لسان فى كل زمان وتفسير اللعن بالمسخ ليس بمقرر البتة وأنت خبير بأن المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت هو المسخ وليس فى عطفه على الطمس والرد على الأدبار شائبة دلالة على عدم إرادة المسخ لضرورة أنه تغيير مغاير لما عطف عليه على أن المتوعد به لابد أن يكون أمراً حادثاً مترتبا على الوعيد محذوراً عندهم ليكون مزجرة عن مخالفة الأمر ولم يعهد أنه وقع عليهم لعن بهذا الوصف إنما الواقع عليهم ما تداولته الألسنة من اللعن المستمر الذى ألفوه وهو بمعزل من صلاحية أن

يكون حكما لهذا الوعيد أو مزجرة للعنيد وقيل إنما كان الوعيد بوقوع ما ذكر في الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لامحالة أحد الأمرين أو كلاهما على سبيل التوزيع وأما ما روى عن عبد الله بن سلام وكعب فبنى على الاحتياط اللائق بشأنهما والحق أن النظم الكريم ليس بنص فى أحد الوجهين بل المتبادر منه بحسب المقام هو الأول لأنه أدخل فى الزجر وعليه مبنى ما روى عن الحبرين لكن لما لم يتضح وقوعه علم أن المراد هو الثانى والله تعالى أعلم وأياما كان فلعل السر فى تخصيصهم بهذه العقوبة من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينهما وبين ما أوجبها من جنايتهم التى هى التحريف والتغيير والله هو العليم الخبير ﴿ وكان أمر الله ﴾ أى ما أمر به كائنا ما كان أو أمره بإيقاع شيء ما من الأشياء ﴿ مفعولا ﴾ نافذاً كائنا لا محالة فيدخل فيه ما أوعدتم به دخولا أوليا فالجملة اعتراض تذييلى مقرر لما سبق ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما فى الاعتراض من الاستقلال .

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون فى المغفرة كما فى قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) أى على التحريف (ويقولون سيغفر لنا) والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاما أوليا فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود أصناف الكفرة فى النار ونزوله فى حق اليهود كما قال مقاتل وهو الأنسب بسياق النظم الكريم وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم بل يكفى اندراجه فيه قطعا بل لا وجه له أصلا لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم فى الشدة من أنواع الكفر أى لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وإيمان لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدى إلى فتحه ولأن ظلمات الكفر والمعاصى إنما يسترها نور الإيمان فمن لم يكن له إيمان لم

يغفر له شيء من الكفر والمعاصى ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ عطف على خبر إن وذلك إشارة إلى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه فى الذكر للإيذان ببعد درجته وكونه فى أقصى مراتب القبح أى ويغفر ما دونه فى القبح من المعاصى صغيرة كانت أو كبيرة تفضلا من لدنه وإحسانا من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل ﴿لمن يشاء﴾ أى لمن يشاء أن يغفر له ممن اتصف به فقط لا بما فوقه فإن مغفرتهما لمن اتصف بهما سواء فى استحالة الدخول تحت المشيئة المبنية على الحكمة التشريعية فإن اختصاص مغفرة المعاصى من غير توبة بأهل الإيمان من متممات الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشيئة بكلا الفعلين وجعل الموصول الأول عبارة عمن لم يتب والثانى عمن تاب فقد ضل سواء السبيل (١) كيف لا وإن مساق النظم الكريم لإظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه عن سائر المعاصى ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فرق للإجماع على مغفرتها بالتوبة ولم يحصل ما هو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والإيمان .

﴿ومن يشرك بالله﴾ إظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لزيادة تقبيح الإشراك وتفظيع حال من يتصف به [ولإظهار المهابة من الكفر] (٢) ﴿فقد افترى إثما عظيما﴾ أى افترى واختلق مرتكبا إثما لا يقادر قدره ويستحقر دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعا ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ تعجيب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ناس من اليهود جاءوا بأطفالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء ذنب فقال عليه الصلاة والسلام لا قالوا ما نحن إلا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار أى انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ماهم عليه من الكفر والإثم

---

(١) فى ط : الصواب . (٢) ما بين الحاصرين سقط من ط

العظيم أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وبعمله ﴿ بل الله يزكى من يشاء ﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل هم لا يزكونها فى الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم بل الله يزكى من يشاء تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين إذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم الله بما هم متصفون به من القبائح وأصل التزكية نفى ما يستقبح بالفعل أو بالقول .

﴿ ولا يظلمون ﴾ عطف على جملة قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها وإيذانا بأنها غنية عن الذكر أى يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون فى ذلك العقاب ﴿ فتيلا ﴾ أى أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل التقدير يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلا ولا يساعده مقام الوعيد .

﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ كيف نصب إما تشبيها (١) بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والأخفش والعامل يفترون وبه تتعلق على أى فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض والنظر متعلق بهما وهو تعجيب وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : إدعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه وافتراؤهم على الله سبحانه . فإن ادعاءهم الزكاة عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه إياهم تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكون هذا أشنع من الأول جرما وأعظم قبحا لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه

---

(١) فى ط : على التشبيه .

وجه النظر إلى كيفيته تشديدا للتشنيع وتأكيدا للتعجيب والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا للمبالغة فى تقبيح حالهم .

﴿ وكفى به ﴾ أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام ﴿إثما مبينا﴾ ظاهر بينا كونه [أشد] (١) إثما والمعنى كفى ذلك وحده فى كونهم أشد إثما من كل كفار أثيم أو فى استحقاقهم لأشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزعمهم مما لا مساغ له لإخلاله بتهويل أمر الافتراء فتدبر ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ تعجب من حال أخرى لهم ووصفهم بما ذكر من إيتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح وقوله عز وجل ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ استئناف مبين لمادة التعجب مبنى على سؤال ينساق إليه الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون حين ينظر إليهم فقيل يؤمنون الخ والجبت الأصنام وكل ماعبد من دون الله تعالى فقيل أصله الجبس وهو الذى لا خير عنده فأبدل السين تاء وقيل الجبت الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان قيل هو فى الأصل كل مايطغى الإنسان . روى أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة فى سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد فقال ماذا يقول محمد قال يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال وما دينكم قالوا نحن ولاة البيت نسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العانى وذكروا أفعالهم فقال أنتم أهدى سبيلا .

---

(١) سقط من ط .

وذلك قوله تعالى ﴿ ويقولون للذين كفروا ﴾ أى لأجلهم وفى حقهم ﴿ هؤلاء ﴾ يعنونهم ﴿ أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ أى أقوم دينا وأرشد طريقة وإيرادهم بعنوان الإيمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى تعريفا لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى القائلين وما فيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للإشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ الذين لعنهم الله ﴾ أى أبعدهم عن رحمته وطردهم والجملة مستأنفة لبيان حالهم وإظهار مصيرهم ومآلهم ﴿ ومن يلعن الله ﴾ أى يبعده عن رحمته ﴿ فلن تجد له نصيرا ﴾ يدفع عنه العذاب دنيويا كان أو أخرويا لا بشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص على حرمانهم مما طلبوا من قريش وفى كلمة لن وتوجيه الخطاب إلى كل أحد ممن يتسنى له الخطاب وتوحيد النصير منكرا والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المنبىء عن سبق الطلب مسندا إلى المخاطب العام من الدلالة على حرمانهم الأبدى بالكلية ما لا يخفى .

﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم وأم منقطعة وما فيها من بل للإضراب والانتقال من ذمهم بتزكيتهم أنفسهم وغيرها مما حكى عنهم إلى ذمهم بادعائهم نصيبا من الملك وبخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لإنكار أن يكون لهم ما يدعونه وإبطال ما زعموا أن الملك سيصير إليهم وقوله تعالى ﴿ فإذن لا يؤتون الناس نقيرا ﴾ بيان لعدم استحقاقهم له بل لاستحقاقهم الحرمان منه بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئا من ذلك لما أعطوا الناس منه أقل قليل ومن حق من أوتى الملك أن يؤثر الغير بشىء منه فالفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أى إن جعل لهم نصيب منه فإذن لا يؤتون الناس مقدار نقير وهو ما فى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ويجوز أن لا تكون

الهمزة لإنكار الوقوع بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه أى لعده منكرا غير لائق بالوقوع على أن الفاء للعطف والإنكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى ألهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرا كما تقول لغنى لا يراعى أباه ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئا وفائدة إذن تأكيد الإنكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سببا للمنع مع كونه سببا للإعطاء وهى ملغاة عن العمل كأنه قيل فلا يؤتون الناس إذن وقرىء فإذن لا يؤتوا بالنصب على إعمالها .

﴿ أم يحسدون الناس ﴾ منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذى هو شر الرذائل وأقبحها لا سيما على ماهم بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد والإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وحمله على الجنس إيذانا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لاغير لايلائمه ذكر حديث آل إبراهيم فإن ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلاقة الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه فإنهم كانوا يطمعون أن يكون النبى الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أى بل أيحسدونهم ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ يعنى النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما وقوله تعالى ﴿فقد آتينا﴾ تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر والمعنى أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فإنا قد آتينا من قبل هذا ﴿ آل ابراهيم ﴾ الذين هم أسلاف محمد عليه الصلاة والسلام أو أبناء أعمامه ﴿ الكتاب والحكمة ﴾ أى النبوة .

﴿ وآتيناهم ﴾ مع ذلك ﴿ ملكا عظيما ﴾ لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه الصلاة والسلام ويحسدونه على إيتائها. وتكرير الإيتاء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فإن أريد به الإيتاء بالذات فالمراد بآل إبراهيم أنبياؤهم خاصة والضمير المنصوب فى الفعل الثانى لبعضهم إما بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام لما أن الملك لم يؤت كلهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما الملك فى آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام إن أريد به ما يعمه وغيره من الإيتاء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والأوفق لما قبله من نسبة إيتاء الفضل إلى الناس فالمراد بآل إبراهيم كلهم فإن تشريف البعض بما ذكر من إيتاء النبوة والملك تشريف للكل لاعتنائهم بآثاره واقتباسهم من أنواره وفى تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم وتنكيره التفخيمى من تأكيد الإلزام وتشديد الإنكار مالا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم وإليه جنح جمهور أئمة التفسير لكن الظاهر حينئذ أن يكون قوله تعالى ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ﴾ حكاية لما صدر عن أسلافهم عقيب وقوع المحكى من غير أن يكون له دخل فى الإلزام الذى سيق له الكلام أى فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم ومنهم من أعرض عنه وأما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل إبراهيم فيستدعى تراخى الآية الكريمة عما قبلها نزولا كيف لا وحكاية إيمانهم بالحديث المذكور وإعراضهم عنه بصيغة الماضى إنما يتصور بعد وقوع الإيمان والإعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الإلزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لا تساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ما قبلها ولا يبعد كل البعد أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكون قوله تعالى فقد (آتينا) الآية تعليلا له بدلالته على إعراضهم عما أوتى آل إبراهيم وإن لم يذكر كونه بطريق الحسد كأنه قيل بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك ديدنهم المستمر فإنا قد آتينا آل إبراهيم ما آتينا فمنهم أى من جنسهم من آمن بما

آتيناهم ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به والله سبحانه أعلم وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وكفى بجهنم سعيرا ﴾ نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تذييل لما قبلها ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا ﴾ إن أريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات إما القرآن أو ما يعم كله وبعضه أو ما يعم سائر معجزاته أيضاً وإن أريد بهم الجنس المتناول لهم تناولا أوليا فالمراد بالآيات ما يعم المذكورات وسائر الشواهد التى أوتيها الأنبياء عليهم السلام ﴿ سوف نصليهم نارا ﴾ قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها السين وقد يذكران فى الوعد فيفيدان التأكيد أى ندخلهم نارا عظيمة هائلة ﴿ كلما نضجت جلودهم ﴾ أى احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴾ من قبيل بدله بخوفه أمنا لا من قبيل يبدل الله سيئاتهم حسنات أى أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة وإن كان عينه مادة بأن يزال عنه الإحتراق ليعود إحساسه للعذاب والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد أى كلما نضجت فيها جلودهم فمعنى قوله تعالى .

﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ ليدوم ذوقهم[1] ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله وقيل يخلق مكانه جلداً آخر والعذاب للنفس العاصية لا لآلة إدراكها قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يبدلون جلودا بيضاء كأمثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله تعالى عنه فقال للقارىء أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدل فى ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا

---

(١) فى ط : ذوقه .

فيعودون كما كانوا وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بين منكبي الكافر مسيره ثلاثة أيام للراكب المسرع وعن أبي هريرة أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان أن إحساسهم بالعذاب فى كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث أنه لايدخله نقصان بدوام الملابسة أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه أوللتنبيه على شدة تأثيره من حيث أن القوة الذائقة أشد الحواس تأثرا أو على سرايته للباطن ولعل السر فى تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع إبقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانة بدنها عن الاحتراق .

﴿ إن الله كان عزيزا ﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ولا يمانعه أحد ﴿ حكيما ﴾ يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الإصلاء والتبديل وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتهويل الأمر وتربية المهابة وتعليل الحكم فإن عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ عقب بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلا لمساءة الأولين ومسرة الآخرين أى الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضياتها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :

﴿ سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وقرىء سيدخلهم بالياء رداً على الاسم الجليل وفى السين تأكيد للوعد ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب فى سندخلهم وقوله عز وعلا ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة البدنية والأدناس الطبيعية فى محل النصب على أنه حال من جنات أو حال ثانية من الضمير المنصوب أو على أنه صفة لجنات بعد صفة أو فى محل الرفع على أنه خبر للموصول بعد خبر

﴿ وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ أى فينانا لا جوب فيه دائما لا تنسخه شمس اللهم ارزقنا ذلك بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد كما فى ليل أليل ويوم أيوم وقرىء يدخلهم بالياء وهو عطف على سيدخلهم لا على أنه غير الإدخال الأول بالذات بل بالعنوان كما فى قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فى تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية وإن ورد فى شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضى الله عنه باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى على بن أبى طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل النبى صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان لعلى أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال لقد أنزل الله تعالى فى شأنك قرآنا فقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة فى أولاد عثمان أبدا وقرىء الأمانة على التوحيد والمراد الجنس لا المعهود وقيل هو أمر للولاة بأداء الحقوق المتعلقة بذممهم من المناصب وغيرها إلى مستحقيها كما أن قوله تعالى :

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر لهم بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة

قيد به بخلاف المأمور به أو لا فإنه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق إطلاقا فقوله تعالى أن تحكموا عطف على أن تؤدوا قد فصل بين العاطف والمعطوف بالظرف المعمول له عند الكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها عندهم أى وأن تحكموا إذا حكمتم الخ وقوله تعالى بالعدل متعلق بتحكموا أو بمقدر وقع حالا من فاعله أى متلبسين بالعدل والإنصاف .

﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ ما إما منصوبة موصوفة بيعظكم به أو مرفوعة موصوله به كأنه قيل نعم شيأ يعظكم به أو نعم الشيء الذى يعظكم به والمخصوص بالمدح محذوف أى نعما يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل فى الحكومات وقرىء نعما بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الامتثال بالأمر وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة[فى القلوب][1] ﴿ إن الله كان سميعا ﴾ لأقوالكم ﴿ بصيرا ﴾ بأفعالكم فهو وعد ووعيد وإظهار الجلالة لما ذكر آنفا فإن فيه تأكيدا لكل من الوعد والوعيد ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بعد ما أمر الولاة بطريق العموم أو بطريق الخصوص بأداء الأمانات والعدل فى الحكومات أمر سائر الناس بطاعتهم لكن لا مطلقا بل فى ضمن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قيل ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ وهم أمراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام فى وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ويأباه قوله تعالى :

﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله ﴾ إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد

---

(١) سقطت من ط .

فى حكمه إلا أن يجعل الخطاب لأولى الأمر بطريق الالتفات وفيه بعد وتصدير [إن][١] الشرطية بالفاء لترتبها على ما قبلها فإن بيان حكم طاعة أولى الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه السلام يستدعى بيان حكمها عند المخالفة أى إن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر منكم فى أمر من أمور الدين فراجعوا فيه إلى كتاب الله ﴿ والرسول ﴾ أى إلى سنته وقد استدل به منكروا القياس وهو فى الحقيقة دليل على حجيته كيف لا ورد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعنى بالقياس ويؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد إليهما بالقياس ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ متعلق بالأمر الأخير الوارد فى محل النزاع إذ هو المحتاج إلى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه أى إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه الخ فإن الإيمان بهما يوجب ذلك أما الإيمان بالله تعالى فظاهر وأما الإيمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة ﴿ ذلك ﴾ أى الرد المأمور به ﴿ خير ﴾ لكم وأصلح ﴿ وأحسن ﴾ فى نفسه ﴿ تأويلا ﴾ أى عاقبة ومآلا وتقديم خيريته لهم على أحسنيته فى نفسه لما مر من تعلق أنظارهم بما ينفعهم والمراد بيان اتصافه فى نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل فى حد ذاته من غير اعتبار فضله على شىء يشاركه فى أصل الخيرية والحسن كما ينبىء عنه التحذير السابق :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجيبا له من حال الذين يخالفون ما مر من الأمر المحتوم ولا يطيعون الله ولا رسوله ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله أعنى التوراة لتأكيد التعجيب وتشديد

---

(١) سقطت من ط .

التوبيخ والاستقباح بإظهار[1] كمال المباينة بين دعواهم وبين ما صدر عنهم وقرىء الفعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون فقيل يريدون الخ . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وقال إن عمر فرق بين الحق والباطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فالطاغوت كعب بن الأشرف سمى به لإفراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم إلى غير النبى صلى الله عليه وسلم على التحاكم إليه تحاكما إلى الشيطان وقال الضحاك المراد بالطاغوت كهنة اليهود وسحرتهم وعن الشعبى أن المنافق دعا خصمه إلى كاهن من جهينة فتحاكما إليه وعن السدى أن الحادثة وقعت فى قتيل بين بنى قريظة والنضير فتحاكم المسلمون من الفريقين إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون منهما إلا التحاكم إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى فتحاكموا إليه فيكون الاقتصار حينئذ فى معرض التعجيب والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم دون نفسه مع وقوعه أيضا للتنبيه على أن إرادته مما يقضى منه العجب ولا ينبغى أن يدخل تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب بوصف المنافقين بادعاء الإيمان بالتوراة فإنه كما يقتضى كونهم من منافقى اليهود يقتضى كون ما صدر عنهم من

---

(١) فى ط بيان .

التحاكم ظاهر المنافاة لادعاء الإيمان بالتوراة وليس التحاكم إلى كعب بن الأشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضاً فالمتبادر من قوله تعالى .

﴿ وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ كونهم مأمورين بكفره فى الكتابين وما ذاك إلا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة ونظائرهم لا من عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كما فى قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم) والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة لتأكيد التعجيب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ عطف على يريدون داخل فى حكم التعجيب فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عمن يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب . وضلالا إما مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما فى قوله تعالى (وأنبتها نباتا حسنا) أى إضلالا بعيدا وإما مصدر موكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور أى فيضلوا ضلالا وأياما كان فوصفه بالبعد الذى نعت موصوفه للمبالغة وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ تكملة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحا عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم إلى الطاغوت وقرىء تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفا كما فى قولهم ما باليت بالة أصلها بالية كعافية وكما قالوا فى آية إن أصلها آيية فحذفت اللام ووقعت واو الجمع بعد اللام فى تعالى فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالى بكسر اللام وعليه قول أبى فراس الحمدانى :

أيا جارتى ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى

﴿ رأيت المنافقين ﴾ إظهار المنافقين فى مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والإشعار بعلة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿ يصدون عنك ﴾ حال من المنافقين وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والأول هو الأنسب بظهور حالهم وقوله تعالى ﴿ صدودا ﴾ مصدر مؤكد لفعله أى يعرضون عنك

إعراضا وأى إعراض وقيل هو اسم للمصدر الذى هو الصد والأظهر أنه مصدر لصد اللازم والصد مصدر للمتعدى يقال صد عنه صدودا أى أعرض عنه وصده عنه صدا أى منعه منه وقوله تعالى .

﴿ فكيف ﴾ شروع فى بيان غائلة جناياتهم المحكية ووخامة عاقبتها أى كيف يكون حالهم ﴿ إذا أصابتهم مصيبة ﴾ أى وقت إصابة المصيبة إياهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بسبب ما عملوا من الجنايات التى من جملتها التحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن حكمك ﴿ ثم جاءوك ﴾ للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على أصابتهم والمراد تفظيع حالهم وتهويل مادهمهم من الخطب واعترائهم من شدة الأمر عند إصابة المصيبة وعند المجىء للإعتذار ﴿ يحلفون بالله ﴾ حال من فاعل جاؤك ﴿ إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ أى ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله تعالى فقالوا ماأردنا أى ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم إلى عمر رضى الله تعالى عنه إلا أن يحسن إليه ويوفق بينه وبين خصمه ﴿ أولئك ﴾ إشاره إلى المنافقين وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ أى من فنون الشرور والفساد المنافية لما أظهروا لك من الأكاذيب .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ جواب شرط محذوف أى إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم لمصلحة فى استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما فى بواطنهم ولاتهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿ وعظهم ﴾ أى ازجرهم عن النفاق والكيد .

﴿ وقل لهم فى أنفسهم ﴾ فى حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على

الشرور التي يعلمها الله تعالى أو في أنفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لأنها في السر أنجع ﴿ قولا بليغا ﴾ مؤثرا واصلا إلى كنه المراد مطابقا لما سيق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالأمر وقيل متعلق ببليغا على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف أى قل لهم قولا بليغا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال والإيذان بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات وإنما هذه المكافأة والتأخير لإظهارهم الإيمان والطاعة وإضمارهم الكفر ولئن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفق النفاق ليمسنهم العذاب إن الله شديد العقاب ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ كلام مبتدأ جيء به تمهيداً لبيان خطئهم في الإشتغال بستر جناياتهم بالاعتذار بالأباطيل وعدم تلافيها بالتوبة أى وما أرسلنا رسولا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته وأمره المرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤد عنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى ومعصيته معصيته تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته .

﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ وعرضوها لعذاب ﴾ [زائد][1] على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك ﴿ جاؤك ﴾ من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك في التنصل عن جناياتهم القديمة والحادثة ولم يزدادوا جناية على جناية بالقصد إلى سترها بالاعتذار الباطل والأيمان الفاجرة ﴿ فاستغفروا الله ﴾ بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع إليك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله تعالى واستغفرت لهم وإنما قيل ﴿ واستغفر لهم الرسول ﴾ على طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سقطت من ط .

وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعته فى حيز القبول ﴿ لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ لعلموه مبالغا فى قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وإن فسر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالا ورحيما بدلا منه أو حالا من الضمير فيه وأياما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين فى المسارعة إلى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ما صنعوا لما أن ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة فى تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها .

﴿ فلا وربك ﴾ أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد النفى فى جوابه أعنى قوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ لأنها تزاد فى الإثبات أيضا كما فى قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ونظائره ﴿ حتى يحكموك ﴾ أى يتحاكموا إليك ويترافعوا إليك وإنما جىء بصيغة التحكيم مع أنه عليه الصلاة والسلام حاكم بأمر الله سبحانه إيذانا بأن حقهم أن يجعلوه حكما فيما بينهم وترضوا بحكمه وإن قطع النظر عن كونه حاكما على الإطلاق ﴿ فيما شجر بينهم ﴾ أى فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿ ثم لايجدوا ﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لايجدوا ﴿ فى أنفسهم حرجا ﴾ ضيقا ﴿ مما قضيت ﴾ أى مما قضيت به أو من قضائك وقيل شكا من أجله إذ الشاك فى ضيق من أمره ﴿ ويسلموا ﴾ أى ينقادوا لأمرك ويذعنوا له ﴿ تسليما ﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم يقال سلم لأمر الله وأسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها إذا جعلها سالمة له خالصة أى ينقادوا لحكمك انقيادا لاشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم قيل نزلت فى شأن المنافق واليهودى [السابقين][1] وقيل فى شأن الزبير ورجل من الأنصار حين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصارى وقال لأن

---

(١) سقطت من ط .

كان ابن عمتك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ثم أرسله إلى جارك كان قد أشار على الزبير برأى فيه سعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد ابن الأسود فقال لمن القضاء فقال الأنصارى قضى لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم وأيم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله إن الله ليعلم منى الصدق لو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لقتلتها وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده إن من أمتى رجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى فنزلت فى شأن هؤلاء .

﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ﴾ أى لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتابتهم من عبادة العجل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا فى معنى أمرنا ﴿ ما فعلوه ﴾ أى المكتوب المدلول عليه بكتبنا أو أحد مصدرى الفعلين ﴿ إلا قليل منهم ﴾ أى إلا أناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال والله لو أمرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا أنفسكم تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد وقرىء إلا قليلا بالنصب على الاستثناء أو إلا فعلا قليلا ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ من متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهرا وباطنا وسميت أوامر الله تعالى ونواهيه مواعظ لاقترانها بالوعد والوعيد ﴿ لكان ﴾ أى فعلهم ذلك ﴿ خيرا لهم ﴾ عاجلا وآجلا ﴿ وأشد تثبيتا ﴾ لهم على الإيمان وأبعد من الاضطراب فيه وأشد تثبيتا لثواب أعمالهم .

﴿ وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وماذا يكون لهم بعد التثبيت فقيل وإذن لو ثبتوا لآتيناهم فإن إذن جواب وجزاء ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ يصلون بسلوكه إلى عالم القدس [والطهارة] (١) ويفتح لهم أبواب الغيب قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم ﴿ ومن يطع الله والرسول ﴾ كلام مستأنف فيه فضل ترغيب فى الطاعة ومزيد تشويق إليها ببيان أن نتيجتها أقصى ما ينتهى إليه همم الأمم وأرفع ما يمتد إليه أعناق عزائمهم من مجاورة أعظم الخلائق مقدارا وأرفعهم منارا متضمن لتفسير ما أبهم فى جواب الشرطية السابقة وتفصيل ما أجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل لجميع الأوامر والنواهى ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى فعل الشرط باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع القرب فى الذكر للإيذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ خبره ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم ﴾ والجملة جواب الشرط وترك ذكر المنعم به للإشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه .

﴿ من النبيين ﴾ بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن الكلام فى بيان حكم طاعة نبينا عليه الصلاة والسلام لجريان ذكرهم فى سبب النزول مع ما فيه من الإشارة إلى أن طاعته عليه الصلاة والسلام متضمنة لطاعتهم لاشتمال شريعته على شرائعهم التى لا تتغير بتغير الأعصار روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله إن صرنا إلى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلا نراك وقال الشعبى جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال ما يبكيك يا فلان فقال يا رسول الله بالله الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسى وأهلى

---

(١) سقطت من ط .

ومالى وولدى وإنى لأذكرك وأنا فى أهلى فيأخذنى مثل الجنون حتى أراك وذكرت موتى وأنك ترفع مع النبيين وإنى إن أدخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك فلم يرد النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت وروى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه الصلاة والسلام قليل الصبر عنه فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يارسول الله مابى من وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وروى أن أنسا قال يارسول الله الرجل يحب قوما ولما يلحق بهم قال عليه الصلاة والسلام المرء مع من أحب .

﴿والصديقين﴾ أى المتقدمين فى تصديقهم المبالغين فى الصدق والإخلاص فى الأقوال والأفعال وهم أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأماثل خواصهم المقربين كأبى بكر الصديق رضى الله عنه ﴿والشهداء﴾ الذين بذلوا أرواحهم فى طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته ﴿والصالحين﴾ الصارفين أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وليس المراد بالمعية الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أراد وإن بعد ما بينهما من المسافة ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ الرفيق الصاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا وفعلا فإن جعل أولئك إشارة إلى النبيين ومن بعدهم على أن ما فيه من معنى البعد لما مر مرارا فرفيقا إما تمييز أو حال على معنى أنهم وصفوا بالحسن من جهة كونهم رفقاء للمطيعين أو حال كونهم رفقاء وإفراده لما أنه كالصديق والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد أو لأنه أريد حسن كل واحد

منهم رفيقا وإن جعل إشارة إلى المطيعين فهو تمييز على معنى أنهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما يجوز فى الوجه الأول والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق قيل فيه معنى التعجب كأنه قيل وما أحسن أولئك رفيقا ولاستقلاله بمعنى التعجب قرىء وحسن بسكون السين .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من عظيم الأجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم أو إلى فضلهم ومزيتهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الفضل ﴾ صفته وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ خبره أى ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره أو الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف وقع حالا منه والعامل فيه معنى الإشارة أى ذلك الذى ذكر فضل كائنا من الله تعالى لا أن أعمال المكلفين موجبة له ﴿ وكفى بالله عليما ﴾ بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ الحذر والحذر واحد كالإثر والأثر والشبه والشبه أى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم يقال أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف كأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه وقيل هو ما يحذر به من السلاح والحزم أى استعدوا للعدو ﴿ فانفروا ﴾ بكسر الفاء وقرىء بضمها أى اخرجوا إلى الجهاد عند خروجكم ﴿ ثبات ﴾ جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة ووزنها فى الأصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث وهل هى واو أو ياء فيه قولان قيل إنها مشتقة من ثبا يثبو كحلا يحلو أى اجتمع وقيل من ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه كأنك جمعت محاسنه ويجمع أيضا على ثبين جبراً لما حذف من عجزه ومحلها النصب على الحالية أى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية ﴿ أو انفروا جميعا ﴾ أى مجتمعين كوكبة واحدة ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة .

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ أى ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد من بطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم

المؤمنين منهم والمنافقين والمبطئون منافقوهم الذين تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد أو ليبطئن غيره ويثبطنه من بطأ منقولا من بطؤ كثقل من ثقل كما بطأ ابن أبى ناسا يوم أحد والأول أنسب لما بعده واللام الأولى للإبتداء دخلت على اسم إن للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن فى ليبطئن والتقدير وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ كقتل وهزيمة ﴿ قال ﴾ أى المبطىء فرحا بصنعه وحامدا لرأيه ﴿ قد أنعم الله على ﴾ أى بالقعود .

﴿ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ أى حاضراً فى المعركة فيصيبنى ما أصابهم والفاء فى الشرطية لترتيب مضمونها على ماقبلها فإن ذكر التبطئة مستتبع لذكر ما يترتب عليها كما أن نفس التبطئة مستدعية لشىء ينتظر المبطىء وقوعه ﴿ ولئن أصابكم فضل ﴾ كفتح وغنيمة ﴿ من الله ﴾ متعلق بأصابكم أو بمحذوف وقع صفة لفضل أى فضل كائن من الله تعالى ونسبة إصابة الفضل إلى جناب الله تعالى دون إصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما فى قوله سبحانه (وإذا مرضت فهو يشفين) وتقديم الشرطية الأولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثر نفاقهم فيها أظهر ﴿ ليقولن ﴾ ندامة على تثبطه وقعوده وتهالكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرىء ليقولن بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من وقوله تعالى ﴿ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذى هو ﴿ ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما ﴾ لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه ما فى البين من المودة بل هو للحرص على المال كما ينطق به آخره وليس إثبات المودة فى البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم وقيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن أى ليقولن مشبها بمن لا مودة بينكم وبينه وقيل هى داخلة فى المقول أى ليقولن المثبط لمن يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم وبين محمد مودة حيث لم يستصحبكم فى الغزو حتى تفوزوا بما فاز ياليتنى كنت معهم وغرضه إلقاء العداوة

بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وتأكيدها وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف وقرىء لم يكن بالياء والمنادى فى ياليتنى محذوف أى ياقوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع وقوله تعالى فأفوز نصب على جواب التمنى وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فأنا أفوز فى ذلك الوقت أو على أنه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى .

﴿ فليقاتل فى سبيل الله ﴾ قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به ﴿ الذين يشرون الحيوة الدنيا بالآخرة ﴾ أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون فالفاء للتعقيب أى ليتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليبدلوه بالقتال فى سبيل الله ﴿ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه ﴾ بنون العظمة التفاتا ﴿ أجراً عظيما ﴾ لا يقادر قدره وتعقيب القتال بأحد الأمرين للإشعار بأن المجاهد حقه أن يوطن نفسه بإحدى الحسنيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلا وتقديم القتل للإيذان بتقدمه فى استتباع الأجر ، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه الإجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة ﴿ ومالكم ﴾ خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة فى التحريض عليه وتأكيدا لوجوبه وهو مبتدأ وخبر وقوله عز وجل ﴿ لاتقاتلون فى سبيل الله ﴾ حال عاملها ما فى الظرف من معنى الفعل والاستفهام للإنكار والنفى أى أى شىء لكم غير مقاتلين أى لاعذر لكم فى ترك المقاتلة .

﴿ والمستضعفين ﴾ عطف على اسم الله أى فى سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو أو على السبيل بحذف المضاف أى فى خلاص المستضعفين ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله يعم أبواب الخير

وتخليص ضعفاء(١) المؤمنين من أيدى الكفرة أعظمها وأخصها ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ بيان للمستضعفين أو حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصد المشركين أو لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتهنين وإنما ذكر الولدان معهم تكميلا للاستعطاف واستجلاباً للرحمة (٢) وتنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لإرغام آبائهم وأمهاتهم وإيذانا بإجابة الدعاء الآتى واقتراب زمان الخلاص ببيان شركتهم فى التضرع إلى الله تعالى كل ذلك للمبالغة فى الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد والإماء إذ يقال لهما الوليد والوليدة وقد غلب الذكور على الإناث فأطلق الولدان على الولائد أيضاً ﴿ الذين ﴾ محله الجر على أنه صفة للمستضعفين أو لما فى حيز البيان أو النصب على الاختصاص .

﴿ يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ بالشرك الذى هو ظلم عظيم وبأذية المسلمين وهى مكة والظالم صفتها وتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل والمفعول إذا أجرى على غير من هوله كان كالفعل فى التذكير والتأنيث بحسب ما عمل فيه ﴿ واجعل لنا من لدنك وليا ﴾ كلا الجارين متعلق باجعل لاختلاف معنييهما وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلى وروده ينبىء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وتقديم اللام على من للمسارعة إلى إبراز كون المسئول نافعا لهم مرغوباً فيه لديهم ويجوز أن تتعلق كلمة من بمحذوف وقع حالا من وليا قدمت عليه لكونه نكرة وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ول علينا واليا من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا وينصرنا على أعدائنا

---

(١) فى ط : ضعفه .

(٢) فى ط : واستجلاب الرحمة ، خطأ .

ولقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقى منهم خير ولى وأعز ناصر ففتح مكة على يدى نبيه عليه الصلاة والسلام فتولاهم أى تول ونصرهم أية نصرة ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها وقيل المراد واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة أى كن أنت ولينا وناصرنا وتكرير الفعل ومتعلقيه للمبالغة فى التضرع والابتهال .

﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ﴾ كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين فى القتال وتشجيعهم ببيان كمال قوتهم بإمداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف أعدائهم أى المؤمنون إنما يقاتلون فى دين الله الحق الموصل لهم إلى الله عز وجل وفى إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لامحالة ﴿ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ أى فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه والفاء فى قوله تعالى ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ﴾ لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها وذكر بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه فإن ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ثم صرح بالتعليل فقيل ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ أى فى حد ذاته فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى إيذانا بظهورها قالوا فائدة إدخال كان فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كذلك فالمعنى أن كيد الشيطان منذ كان كان موصوفا بالضعف .

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه بحيث كادوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدى فإن ذلك مشعر

بكونهم بصدد بسطها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم قال الكلبي إن جماعة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام منهم عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد ابن الأسود الكندي وقدامة ابن مظعون الجمحي وسعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله تعالى عنهم كانوا يلقون من مشركي مكة قبل الهجرة أذى شديداً فيشكون ذلك إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون ائذن لنا في قتالهم ويقول لهم النبي عليه الصلاة والسلام كفوا أيديكم ﴿ وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ فإني لم أومر بقتالهم وبناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي عليه الصلاة والسلام للإيذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ولأن المقصود بالذات والمعتبر في التعجيب إنما هو كمال رغبتهم في القتال وكونهم بحيث احتاجوا إلى النهي عنه وإنما ذكر في حيز الصلة الأمر بكف الأيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية فلا يتعلق ببيان خصوصية الآمر غرض وكانوا في مدة إقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمروا بالقتال في وقعة بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا في الدين ولا رغبة عنه بل نفوراً عن الإخطار بالأرواح وخوفا من الموت بموجب الجبلة البشرية وذلك قوله تعالى :

﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا أيديكم باعتبار مدلوله الكنائي إذ حينئذ يتحقق التباين بين مدلولي المعطوفين وعليه يدور أمر التعجيب كأنه قيل ألم تر إلى الذين كانوا حراصا على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس ﴾ جواب لما على أن فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة له ويخشون خبره وتصديره بإذا المفاجاة لبيان مسارعتهم إلى الخشية آثر ذي أثير من غير تلعثم وتردد أي فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم ولعل توجيه التعجيب إلى الكل مع صدور الخشية عن بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالتهم الأولى وقوله تعالى ﴿ كخشية الله ﴾ مصدر مضاف إلى

المفعول محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أى يخشونهم مشبهين الأهل خشية الله تعالى ﴿ أو أشد خشية ﴾ عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله أو على أنه مصدر مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة كما فى جد جده أى يخشونهم خشية مثل خشية الله أو خشية أشد خشية من خشية الله وأياما كان فكلمة أو إما للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها وإما للإبهام على السامع وهو قريب مما فى قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) يعنى أن من يبصرهم يقول إنهم مائة ألف أو يزيدون ﴿ وقالوا ﴾ عطف على جواب لما أى فلما كتب عليهم القتال هلع[1] فريق منهم خشية الناس وقالوا ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ فى هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والإنكار لإيجابه بل على طريق تمنى التخفيف. ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ استزادة فى مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر حذرا من الموت وقد جوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحا .

﴿ قل ﴾ أى تزهيدا لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفانى وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقى ﴿ متاع الدنيا ﴾ أى ما يتمتع وينتفع به فى الدنيا ﴿ قليل ﴾ سريع التقضى وشيك الانصرام ولن أخرتم إلى ذلك الأجل ﴿ والآخرة ﴾ أى ثوابها الذى من جملته الثواب المنوط بالقتال ﴿ خير ﴾ أى لكم من ذلك المتاع القليل لكثرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وإنما قيل ﴿ لمن اتقى ﴾ حثا لهم على اتقاء العصيان والإخلال بمواجب التكليف ﴿ ولا تظلمون فتيلا ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شىء من أجور أعمالكم التى من جملتها مسعاكم[2] فى شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل ما فى شق النواة من الخيط يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقرىء يظلمون بالياء إعادة للضمير إلى ظاهر من ﴿ أينما تكونوا

---

(١) فى ط : فاجأ . (٢) فى ١٠ : جدكم .

يدرككم الموت ﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه الصلاة والسلام فلا محل له من الإعراب أو فى محل النصب داخل تحت القول المأمور به أى أينما تكونوا فى الحضر والسفر يدرككم الموت الذى لأجله تكرهون القتال زعما منكم أنه من مظانه وتحبون القعود عنه على زعم أنه منجاة منه وفى لفظ الإدراك إشعار بأنهم فى الهرب من الموت وهو مجد فى طلبهم وقرىء بالرفع على حذف الفاء كما فى قوله ۞ من يفعل الحسنات الله يشكرها ۞ أو على اعتبار وقوع أينما كنتم فى موقع أينما تكونوا أو على أنه كلام مبتدأ وأينما تكونوا متصل بلا تظلمون أى لا تنقصون شيئا مما كتب من آجالكم أينما تكونوا فى ملاحم الحروب ومعارك الخطوب .

﴿ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ فى حصون رفيعة أو قصور محصنة وقال السدى وقتادة بروج السماء يقال شاد البناء وأشاده وشيده رفعه وقرىء مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً كما فى قصيدة شاعر ومشيدة من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص وجواب لو محذوف اعتمادا على دلالة ما قبله عليه أى ولو كنتم فى بروج مشيدة يدرككم الموت والجملة معطوفة جملة مثلها[1] أى لو لم تكونوا فى بروج مشيدة ولو كنتم الخ وقد اطرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فإن الشيء إذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو الوصلية من التأكيد والمبالغة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى(أولوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)﴿ وإن تصبهم حسنة يقولون هذا من عند الله ﴾ كلام مبتدأ جيء به عقيب ما حكى عن المسلمين لما بينهما من المناسبة فى اشتمالهما على إسناد ما يكرهونه إلى بعض الأمور وكراهتهم له بسبب ذلك والضمير لليهود والمنافقين

---

(١) فى ط : أخرى .

روى أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا مازلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى :

﴿ وإن تصبهم سيئة يقولون هذه من عندك ﴾ أى وإن تصبهم نعمة ورخاء نسبوها إلى الله تعالى وإن تصبهم بلية من جدب وغلاء أضافوها إليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم حجرا[1] ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقا وإيجاداً من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شيء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلا ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة كما سيأتى بيانه فهذا الجواب المجمل فى معنى ما قيل رداً على أسلافهم من قوله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) أى إنما سبب خيرهم وشرهم أو سبب إصابة السيئة التى هى ذنوبهم عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها إليه ويطيروا به وقوله تعالى :

﴿ فما لهؤلاء القوم ﴾ الخ كلام معترض بين المبين وبيانه مسوق من جهته تعالى لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجيب من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ما قبله وقوله تعالى ﴿ لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ حال من هؤلاء والعامل فيها ما فى الظروف من معنى الاستقرار أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شيء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثا أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام كأنه قيل ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثا من الأحاديث أصلا فيقولون ما يقولون إذ لو فقهوا شيئا من ذلك لفهموا هذا النص وما فى معناه وما هو أوضح منه

---

(١) فى ط : الحجر .

من النصوص القرآنية الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد لاسيما النص الوارد عليهم فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لاتزر وازرة وزر أخرى ولم يسندوا جناية أنفسهم إلى غيرهم وقوله تعالى :

﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ الخ بيان للجواب المجمل المأمور به وإجراؤه على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ثم سوق البيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى كل واحد من الناس والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والإشعار بأن مضمونه مبنى على حكمة دقيقة حتى بأن يتولى بيانها علام الغيوب وتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم دون كلهم كما فى قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) للمبالغة فى التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين أى ما أصابك من نعمة من النعم ﴿ فمن الله ﴾ أى فهى منه تعالى بالذات تفضلا وإحسانا من غير استيجاب لها من قبلك كيف لا وأن كل ما يفعله المرء من الطاعات التى يفرض كونها ذريعة إلى إصابة نعمة ما فهى بحيث لا تكاد تكافىء نعمة حياته المقارنة لأدائها ولا نعمة إقداره تعالى إياه على أدائها فضلا عن استيجابها لنعمة أخرى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا .

﴿ وما أصابك من سيئة ﴾ أى بلية من البلايا ﴿ فمن نفسك ﴾ أى فهى منها بسبب اقترافها المعاصى الموجبة لها وإن كانت من حيث الإيجاد منسوبة[1] إليه تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وعن عائشة رضى الله عنها مامن مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو

---

(١) فى ط : منتسبة .

الله عنه أكثر ، وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله وما بعده لكن لا لبيان حاله عليه الصلاة والسلام بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل عن استحقاق[1] الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ بيان لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه عليه الصلاة والسلام بناء على جهلهم بشأنه الجليل وتعريف الناس للاستغراق والجار إما متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر إلى قيد العموم أى مرسلا لكل الناس لا لبعضهم فقط كما فى قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) وإما بالفعل فرسولا حال مؤكدة وقد جوز أن يكون مصدرا مؤكدا كما فى قوله :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى بإرسال بمعنى رسالة ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أى على رسالتك بنصب المعجزات التى من جملتها هذا النص الناطق والوحى الصادق والالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بيان لأحكام رسالته عليه الصلاة والسلام إثر بيان تحققها وثبوتها وإنما كان كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الله تعالى وإنما هو عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه فمرجع الطاعة وعدمها هو لله سبحانه ، روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله فقال المنافقون ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله ما يريد إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت ، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالرسول دون الخطاب للإيذان بأن مناط كون طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه الصلاة والسلام

(١) فى ط : من استحقاق .

بل من حيثية رسالته وإظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عنوان الألوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاما أوليا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام فى قوله تعالى :

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ وجواب الشرط محذوف والمذكور تعليل له أى ومن أعرض عن الطاعة عنه إنما أرسلناك رسولا مبلغا لا حفيظا مهيمنا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفيظا حال من الكاف وعليهم متعلق به قدم عليه رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى تولى باعتبار لفظه ﴿ ويقولون ﴾ شروع فى بيان معاملتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيان وجوب طاعته أى يقولون إذا أمرتهم بشىء ﴿ طاعة ﴾ أى أمرنا وشأننا طاعة أو منا طاعة والأصل النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أى خرجوا من مجلسك ﴿ بيت طائفة منهم ﴾ أى من القائلين المذكورين وهم رؤساؤهم ﴿ غير الذى تقول ﴾ أى زورت طائفة منهم وسوت خلاف ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة لأنهم مصرون على الرد والعصيان وإنما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق أو خلاف ما قلت لها والتبييت إما من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل يقال هذا أمر بيت بليل وإما من بيت الشعر لأن الشاعر يدبره ويسويه وتذكير الفعل لأن تأنيث الطائفة غير حقيقى وقرىء بإدغام التاء فى الثاء لقرب المخرج وإسناده إلى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون له بالذات والباقون أتباع لهم فى ذلك لا لأن الباقين ثابتون على الطاعة .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أى يكتبه فى جملة ما يوحى إليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن مكرهم يخفى عليكم فيجدون بذلك إلى الإضرار بكم سبيلا أو يثبته فى صحائفهم فيجازيهم عليه وأياما كان فالجملة اعتراضية ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أى لا تبال بهم وبما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصد للانتقام منهم والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها .

﴿ وتوكل على الله ﴾ فى كلما تأتى وما تذر لاسيما فى شأنهم وإظهار الجلالة فى مقام الإضمار للإشعار بعلة الحكم ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ فيكفيك معرتهم وينتقم لك منهم والإظهار ههنا أيضا لما مر وللتنبيه على استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان وتدبر الشيء تأمله والنظر فى أدباره وما يؤول إليه فى عاقبته ومنتهاه ثم استعمل فى كل تفكر ونظر والفاء للعطف على مقدر أى أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة مافيه من الشواهد[1] التى من جملتها هذا الوحى الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكى على ما هو عليه .

﴿ ولو كان ﴾ أى القرآن ﴿ من عند غير الله ﴾ كما يزعمون ﴿ لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع إذ لا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلة لغيره سبحانه وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى . قال الزجاج ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الإخبار بالغيب مما يسره المنافقون وما يبيتونه مختلفا بعضه حق وبعضه باطل لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وقال أبو بكر الأصم إن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطؤون فى السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك ويخبره بها مفصلة فقيل لهم إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرد الصدق فيه ولوقع فيه الاختلاف فلما لم يقع ذلك قط علم أنه بإعلامه تعالى هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة بأن كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى وبعضه على معنى

(١) فى ١٠ : الدلائل .

فاسد غير ملتئم وبعضه بالغا حد الإعجاز وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته كما جنح إليه الجمهور فما لايساعده السباق ولا السياق ومن رام التقريب وقال لعل ذكره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ماسبق من الأحكام ليس لتناقض فى الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد بعد عن الحق بمراحل .

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ يقال أذاع السر وأذاع به أى أشاعه وأفشاه وقيل معنى أذاعوا به فعلوا به الإذاعة وهو أبلغ من أذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ماعسى يتوهم فى بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك أن ناسا من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال كانوا إذا أخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه ولا ضبط لفحواه على حسب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطا بأمور تفوت بالإذاعة فلا يظهر أثره المتوقع فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعى عليهم ذلك وقيل ﴿ ولو ردوه ﴾ أى ذلك الأمر الذى جاءهم ﴿ إلى الرسول ﴾ أى عرضوه على رأيه عليه الصلاة والسلام مستكشفين لمعناه وما ينبغى له من التدبير والالتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة إلى رأيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وإلى أولى الأمر منهم ﴾ وهم كبراء الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله تعالى عنهم ﴿ لعلمه ﴾ أى لعلم الرادون معناه وتدبيره وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول فقيل :

﴿ الذين يستنبطونه منهم ﴾ للإيذان بأنه ينبغى أن يكون قصدهم برده إليهم استكشاف معناه واستيضاح فحواه أى لعلمه أولئك الرادون الذين يستنبطونه أى يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيره منهم أى من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام وأولى الأمر من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ولما فعلوا فى حقه ما فعلوا فلم يقع فيه ما وقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف وقيل لعلمه الذين

يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها فكلمة من فى منهم بيانية وقيل إنهم كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت إذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه أى يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها وقيل كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه ومايأتون وما يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الأخبار(1) عن السرايا مظنونا غير معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع لعلموا (2) صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم فمساق النظم الكريم حينئذ لبيان جناية تلك الطائفة وسوء تدبيرهم إثر بيان جناية المنافقين ومكرهم والخطاب فى قوله تعالى :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ للطائفه المذكورة على طريقة الالتفات أى لولا فضله تعالى عليكم ورحمته بإرشادكم إلى طريق الحق الذى هو المراجعة فى مظان الاشتباه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر ﴿ لاتبعتم الشيطان ﴾ وعملتم بآراء المنافقين فيما تأتون وماتذرون ولم تهتدوا إلى سنن الصواب ﴿ إلا قليلا ﴾ وهم أولوا الأمر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون فى

---

(1) فى ط : الخبر (2) فى ط : لعلم .

معرفة أحكامه فالاستثناء منقطع وقيل ولولا فضله تعالى عليكم ورحمته بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لاتبعتم الشيطان وبقيتم على الكفر والضلالة إلا قليلا منكم قد تفضل عليه بعقل راجح اهتدى به إلى طريق الحق والصواب وعصمه من متابعة الشيطان كقس بن ساعدة الإيادى وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة ابن نوفل وأضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النصرة والظفر بالأعداء أى ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لاتبعتم الشيطان وتركتم الدين إلا قليلا منكم وهم أولوا البصائر النافذة والنيات القوية والعزائم الماضية من أفاضل المؤمنين الواقفين على حقية الدين البالغين إلى درجة حق اليقين المستغنين عن مشاهدة آثار حقيته من الفتح والظفر وقيل إلا اتباعا قليلا ﴿ فقاتل فى سبيل الله ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم أى إذا كان الأمر كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم وتقصير الآخرين فى مراعاة أحكام الإسلام فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا وقوله تعالى :

﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ أى إلا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله فإن اختصاص تكليفه عليه الصلاة والسلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وفيه دلالة على أن ما فعلوا من التثبط لا يضره عليه الصلاة والسلام ولا يؤاخذ به وقيل هو حال من فاعل قاتل أى فقاتل غير مكلف إلا نفسك وقرىء لا تكلف بالجزم على النهى وقيل على جواب الأمر وقرىء بنون العظمة أى لا نكلفك إلا فعل نفسك لا على معنى لا تكلف أحدا إلا نفسك ﴿ وحرض المؤمنين ﴾ عطف على الأمر السابق داخل فى حكمه فإن كون حال الطائفتين كما حكى سبب للأمر بالقتال وحده وبتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشىء الحث عليه والترغيب فيه قال الراغب كأنه فى الأصل إزالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به أى رغبهم فى القتال ولا تعنف بهم وإنما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى :

﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ عدة منه سبحانه وتعالى محققة الإنجاز بكف شدة الكفرة ومكروههم فإن ماصدر بلعل وعسى مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر للصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكبا ووافوا الموعد وألقى الله تعالى فى قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مر الظهران وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا وقد مر فى سورة آل عمران ﴿ والله أشد بأسا ﴾ أى من قريش ﴿ وأشد تنكيلا ﴾ أى تعذيبا وعقوبة تنكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدى إليها والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتأكيد التشديد وقوله تعالى :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أى من ثوابها جملة مستأنفة سيقت لبيان أن له عليه الصلاة والسلام فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فإن الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت فى أمر مشروع روعى بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الأغراض الدنيوية وأى منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه الصلاة والسلام على الجهاد من المنافع الدنيوية والأخروية وأى مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها الدعاء للمسلم فإنه شفاعة إلى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية .روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة ﴾ وهى ما كانت بخلاف الحسنة ﴿ يكن له

كفل منها ﴾ أى نصيب من وزرها مساو لها فى المقدار من غير أن ينقص منه شيء ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتا ﴾ أى مقتدرا من أقات على الشيء إذا اقتدر عليه أوشهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فإنه يقوى البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين .

﴿ وإذا حييتم بتحية ﴾ ترغيب فى فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة إثر مارغب فيها على الإطلاق وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة وإرشاد إلى توفية حق الشفيع وكيفية أدائه فإن تحية الإسلام من المسلم شفاعة منه لأخيه إلى الله تعالى والتحية مصدر حيي أصلها تحيية كتسمية من سمى وأصل الأصل تحيي بثلاث ياءات فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وأدغمت الأولى فى الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت فى كل دعاء وكانت العرب إذا لقى بعضهم بعضا يقول حياك الله ثم استعملها الشرع فى السلام وهى تحية الإسلام وقال تعالى تحيتهم فيها سلام وقال فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله قالوا فى السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية وهى مستلزمة لطول الحياة وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لاريب فى فضله ومزيته أى إذا سلم عليكم من جهة المؤمنين ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله إن اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته إن جمعهما المسلم وهى النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التى هى السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها .

﴿ أوردوها ﴾ أى أجيبوها بمثلها . روى أن رجالا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتنى فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه الصلاة والسلام إنك لم تترك لى فضلا فرددت

عليك مثله وجواب التسليم واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعى أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد فى الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والأذان والإقامة ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغنى والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى فى الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الأجنبية والسنة أن يسلم الماشى على القاعد والراكب على الماشى وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير وإذا التقيا ابتدرا وعن أبى حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعنى الجهر الكثير وعن النبى عليه الصلاة والسلام إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أى وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم وروى لا تبدأ اليهودى بالسلام وإذا بدأك فقل وعليك وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل التحية بالأحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا .

﴿إن الله كان على كل شىء حسيبا﴾ فيحاسبكم على كل شىء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . ﴿الله لا إله إلا هو﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة وقيل إلى بمعنى فى والجملة القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو خبر ثان للمبتدأ أو هى الخبر ولا إله إلا هو اعتراض وقوله تعالى ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى يوم القيامة أو فى الجمع حال من اليوم أو صفة للمصدر أى جمعا لا ريب فيه ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ إنكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحالته كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره .

﴿فما لكم﴾ مبتدأ وخبر والاستفهام للإنكار والنفى والخطاب لجميع المؤمنين لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم وقوله تعالى ﴿فى المنافقين﴾ متعلق إما بما تعلق به الخبر أى أى شىء كائن لكم فيهم أى فى أمرهم وشأنهم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وإما بما يدل عليه قوله تعالى ﴿فئتين﴾ من معنى الافتراق أى فما لكم تفترقون فى المنافقين وإما بمحذوف وقع حالا من فئتين أى كائنتين فى المنافقين لأنه فى الأصل صفة فلما قدمت انتصبت على الحال[1] كما هو شأن صفات النكرات على الإطلاق أو من الضمير فى تفترقون وانتصاب فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل ما فى لكم من معنى الفعل كما فى قوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين) وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة أى فما لكم فى المنافقين كنتم فئتين والمراد إنكار أن يكون للمخاطبين شىء يصحح اختلافهم[2] فى أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم وإجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر فى جميع الأحكام وذكرهم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق . روى أنهم قوم من المنافقين استأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فى أمرهم وقيل هم قوم هاجروا من مكة إلى المدينة ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا على دينك وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا وقيل هم ناس أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا ويأباه ما سيأتى من جعل هجرتهم غاية للنهى عن توليهم وقيل هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ما سيأتى من الآيات الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد أخذوا وفعل بهم ما فعل من المثله والقتل ولم ينقل فى أمرهم اختلاف المؤمنين .

---

(١) فى ط : حالا .

(٢) فى ط : مصحح لاختلافهم .

﴿ والله أركسهم ﴾ حال من المنافقين مفيدة لتأكيد الإنكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود النافى بعد بيان عدم الداعى وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو أى أى شىء يدعوكم إلى الاختلاف فى كفرهم مع تحقق ما يوجب اتفاقكم على كفرهم وهو أن الله تعالى قد ردهم فى الكفر كما كانوا ﴿ بما كسبوا ﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والعائد إلى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية أى بكسبهم وقيل معنى أركسهم نكسهم بأن صيرهم للنار وأصل الركس رد الشىء مقلوبا وقرىء ركسهم مشددا وركسهم أيضا مخففا ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك وإشعار بأنه يؤدى إلى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى وذلك بأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعى فى هدايتهم وإرادة لها ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر فى حيز الصلة وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها بأن يقال أتهدون الخ للمبالغة فى إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلا عن إمكان نفسه وحمل الهداية والإضلال على الحكم بهما يأباه قوله تعالى :

﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ أى ومن يخلق فيه الضلال كائنا من كان فلن تجد له سبيلا من السبل فضلا عن أن تهديه إليه وفيه من الإفصاح عن كمال الاستحالة ما ليس فى قوله تعالى (ومن يضلل الله فما له من هاد) ونظائره وحمل إضلاله تعالى على حكمه وقضائه بالضلال مخل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المخاطبين للإشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل والجملة إما حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو أو اعتراض تذييلى مقرر للإنكار السابق ومؤكد لاستحالة الهداية فحينئذ يجوز أن يكون الخطاب لكل أحد ممن يصلح له من المخاطبين

أولا ومن غيرهم ﴿ودوا لو تكفرون﴾ كلام مستأنف لبيان غلوهم وتماديهم فى الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم وكلمة لو مصدرية غنية عن الجواب وهى مع ما بعدها نصب على المفعولية أى ودوا أن تكفروا وقوله تعالى ﴿ كما كفروا ﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى كفرا مثل كفرهم أو حال من ضمير ذلك المصدر كما هو رأى سيبويه وقوله تعالى ﴿ فتكونون سواء ﴾ عطف على تكفرون داخل فى حكمه أى ودوا أن تكفروا فتكونوا سواء مستوين فى الكفر والضلال وقيل كلمة لو على بابها وجوابها محذوف كمفعول ودوا التقدير ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسروا بذلك ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء ﴾ الفاء جواب شرط محذوف وجمع أولياء لمراعاة جمع المخاطبين فإن المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا منهم أى إذا كان حالهم ما ذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم ﴿ حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾ أى حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لا لغرض من أغراض الدنيا .

﴿ فإن تولوا ﴾ أى عن الإيمان المؤيد[1] بالهجرة الصحيحة المستقيمة ﴿ فخذوهم ﴾ أى إذا قدرتم عليهم ﴿ واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ من الحل والحرم فإن حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا ﴿ ولاتتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ﴾ أى جانبوهم مجانبة كلية ولاتقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبدا ﴿ إلاالذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ استثناء من قوله تعالى فخذوهم واقتلوهم أى إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الأسلميون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه من مكة قد وادع هلال بن عويمر الأسلمى على أنه لايعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل إلى

---

(١) فى ط المظاهر .

هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذى لهلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة .

﴿ أو جاءوكم ﴾ عطف على الصلة أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين أو على صفة قوم كأنه قيل إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين أو إلى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والأول هو الأظهر لما سيأتى من قوله تعالى (فإن اعتزلوكم) الخ فإنه صريح فى أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض لهم وقرىء جاءوكم بغير عاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف ﴿ حصرت صدورهم ﴾ حال بإضمار قد بدليل أنه قرىء حصرة صدورهم وحصرات صدورهم وقيل هو بيان لجاءوكم وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض ﴿ أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ﴾ أى من أن يقاتلوكم أى لأن يقاتلوكم أو كراهة أن يقاتلوكم الخ ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم ﴾ جملة مبتدأة جارية مجرى التعليل لاستثناء الطائفة الأخيرة من حكم الأخذ والقتل ونظمهم فى سلك الطائفة الأولى الجارية مجرى المعاهدين مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدونا كالطائفة الأولى أى ولو شاء الله لسلطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وإزالة الرعب عنها ﴿ فلقاتلوكم ﴾ عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير أو الإبدال من الأولى وقرىء فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد ﴿ فإن اعتزلوكم ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿ فلم يقاتلوكم ﴾ مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل ﴿ وألقوا إليكم السلم ﴾ أى الانقياد والاستسلام وقرىء بسكون اللام ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ طريقا بالأسر أو بالقتل فإن كفهم عن قتالكم وأن يقاتلوا قومهم أيضاً وإلقاءهم إليكم السلم وإن لم يعاهدوكم كافية فى استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ هم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا

ليأمنوا المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل هم بنو عبد الدار وكان ديدنهم ما ذكر ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة ﴾ أى دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين ﴿ أركسوا فيها ﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير ﴿ فإن لم يعتزلوكم ﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجه ما ﴿ ويلقوا إليكم السلم ﴾ أى لم يلقوا إليكم الصلح والعهد بل نبذوه إليكم ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أى لم يكفوها عن قتالكم ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أى تمكنتم منهم ﴿ وأولئكم ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة ﴿ جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ حجة واضحة فى الإيقاع بهم قتلا وسبيا لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر وإضرارهم بأهل الإسلام أو تسلطا ظاهراً حيث أذنا لكم فى أخذهم وقتلهم ﴿ وما كان لمؤمن ﴾ أى وما صح له ولا لاق بحاله ﴿ أن يقتل مؤمنا ﴾ بغير حق فإن الإيمان زاجر عن ذلك ﴿ إلا خطأ ﴾ فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية وانتصابه إما على أنه حال أى وما كان له أن يقتل مؤمنا فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ أو على أنه المفعول له أى وما كان له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ أو على أنه صفه للمصدر أى إلا قتلا خطأ وقيل إلا بمعنى ولا التقدير وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمداً ولا خطأ وقيل ما كان نفى فى معنى النهى والاستثناء منقطع أى لكن إن قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر والخطأ ما لا يقارنه القصد إلى الفعل أو إلى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبا أو لا يقصد به محظور كرمى مسلم فى صف الكفار مع الجهل بإسلامه وقرىء خطاء بالمد وخطا كعصا بتخفيف الهمزة . روى أن عياش بن أبى ربيعة وكان أخا أبى جهل لأمه أسلم وهاجر إلى المدينة خوفا من أهله وذلك قبل هجرة النبى عليه الصلاة والسلام فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يأويها سقف حتى يرجع فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبى أنيسة فأتياه وهو فى أطم فقتل منه أبو جهل فى الذروة والغارب وقال أليس محمد يحثك على صلة الرحم انصرف وبر أمك وأنت على دينك حتى نزل وذهب معهما

فلما فسحا من المدينة كتفاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحرث هذا أخى فمن أنت يا حرث لله على إن وجدتك خاليا أن أقتلك وقدما به على أمه فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد ففعل بلسانه ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحرث وهاجر فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه فأنحى عليه فقتله ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلته ولم أشعر بإسلامه فنزلت ﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة ﴾ أى فعليه أو فجزاؤه تحرير رقبة أى إعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس ﴿ مؤمنة ﴾ أى محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة ﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث لقول الضحاك بن سفيان الكلابى كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى أن أورث امرأة أشيم الضبابى من عقل زوجها ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ أى إلا أن يتصدق أهله عليه سمى العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله وعن النبي عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة وقرىء إلا أن يتصدقوا وهو متعلق بعليه أو بمسلمة أى تجب الدية أو يسلمها إلى أهله إلا وقت تصدقهم عليه فهو فى محل النصب على الظرفية أو إلا حال كونهم متصدقين عليه فهو حال من الأهل أو القاتل ﴿ فإن كان ﴾ أى المقتول ﴿ من قوم عدو لكم ﴾ كفار محاربين ﴿ وهو مؤمن ﴾ ولم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم أو بأن أتاهم بعدمافارقهم لمهم من المهمات ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فعلى قاتله الكفارة دون الدية إذ لا وراثة بينه وبين أهله لأنهم محاربون ﴿ وإن كان ﴾ أى المقتول المؤمن ﴿ من قوم ﴾ كفرة ﴿ بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أى عهد مؤقت أو مؤبد ﴿ فدية ﴾ أى فعلى قاتله دية ﴿ مسلمة إلى أهله ﴾ من أهل الإسلام إن وجدوا ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للإشعار بالمسارعة إلى تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق ﴿ وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ كما هو حكم سائر المسلمين ولعل إفراده بالذكر مع اندراجه فى حكم ماسبق من قوله تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ) الخ لبيان أن كونه فيما بين المعاهدين لا يمنع وجوبه

الدية كما منعه كونه فيما بين المحاربين وقيل المراد بالمقتول الذمى أو المعاهد لئلا يلزم التكرار بلا فائدة ولا التوريث بين المسلم والكافر وقد عرفت عدم لزومهما ﴿ فمن لم يجد ﴾ أى رقبة ليحررها بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها من الثمن ﴿ فصيام ﴾ أى فعليه صيام ﴿ شهرين متتابعين ﴾ لم يتخلل بين يومين من أيامهما إفطار ﴿ توبة ﴾ نصب على أنه مفعول له أى شرع لكم ذلك توبة أى قبولا لها من تاب الله عليه إذا قبل توبته أو مصدر مؤكد لفعل محذوف أى تاب عليكم توبة وقيل على أنه حال من الضمير المجرور فى عليه بحذف المضاف أى فعليه صيام شهرين حال كونه ذا توبة وقوله تعالى : ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لتوبة أى كائنة منه تعالى : ﴿ وكان الله عليما ﴾ بجميع الأشياء التى من جملتها حاله ﴿ حكيما ﴾ فى كل ماشرع وقضى من الشرائع والأحكام التى من جملتها ما شرعه فى شأنه ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ لما بين حكم القتل خطأ وفصل أقسامه الثلاثة عقب ذلك ببيان القتل عمدا خلا أن حكمه الدنيوى لما بين فى سورة البقرة اقتصر ههنا على حكمه الأخروى . روى أن مقيس بن ضبابة الكنانى وكان قد أسلم هو وأخوه هشام وجد أخاه قتيلا فى بنى النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له القصة فأرسل عليه السلام معه زبير بن عياض الفهرى وكان من أصحاب بدر إلى بنى النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتص منه إن علموه وبأداء الدية إن لم يعلموه فقالوا سمعا وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام ما نعلم له قاتلا ولكننا نؤدى ديته فأتوه بمائة من الإبل فانصرفا راجعين إلى المدينة حتى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيسا فوسوس إليه فقال أتقبل دية أخيك فيكون مسبة عليك اقتل الذى معك فيكون نفسا بنفس وفضل الدية فتغفل الفهرى فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيرا من الإبل واستاق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا وهو يقول :

قتلت به فهرا وحملت عقله ... سراة بنى النجار أصحاب قارع

وأدركت ثأرى واضطجعت موسدا ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت وهو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ممن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة وقوله تعالى : متعمدا حال من فاعل يقتل وروى عن الكسائى سكون التاء كأنه فر من توالى الحركات ﴿ فجزاؤه ﴾ الذى يستحقه بجنايته ﴿ جهنم ﴾ وقوله تعالى ﴿ خالدا فيها ﴾ حال مقدرة من فاعل فعل مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالدا فيها وقيل هو حال من ضمير يجزاها وقيل من مفعول جازاه وأيد ذلك بأنه أنسب بعطف ما بعده عليه لموافقته له صيغة ولا يخفى أن ما يقدر للحال أو للعطف عليه حقه أن يكون مما يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا ويدل عليه الكلام دلالة بينة وظاهر أن كون جزائه ما ذكر لا يقتضى وقوع الجزاء البتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها أو جازاه بطريق الإخبار عن وقوعه وأما قوله تعالى : ﴿ وغضب الله عليه ﴾ فمعطوف على مقدر يدل عليه الشرطية دلالة واضحة كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريرا وتأكيدا لمضمونها حكم الله بأن جزاءه ذلك وغضب عليه أى انتقم منه ﴿ ولعنه ﴾ أى أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ما ذكر وقيل هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير أن وحمل الماضى على معنى المستقبل كما فى قوله تعالى (ونفخ فى الصور) ونظائره أى فجزاؤه جهنم وأن يغضب الله عليه الخ ﴿ وأعد له ﴾ فى جهنم ﴿ عذابا عظيما ﴾ لا يقادر قدره ولما ترى فى الآية الكريمة من التهديد الشديد والوعيد الأكيد وفنون الإبراق والإرعاد وقد تأيدت بما روى من الأخبار الشداد كقوله عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن وقوله عليه الصلاة والسلام لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه وقوله عليه الصلاة والسلام من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى وبنحو ذلك من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود من قتل المؤمن عمدا فى النار ولا متمسك لهم فيها إلا لما قيل من أنها فى حق المستحل كما هو رأى عكرمة وأضرابه بدليل أنها نزلت فى مقيس بن ضبابة الكنانى المرتد حسبما

مرت حكايته فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ما روى عن سفيان أن أهل العلم كانوا إذا سئلوا قالوا لا توبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التشديد والتغليظ وعليه يحمل ما روى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . كيف لا وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأله ألقاتل المؤمن توبة قال لا وسأله آخر ألقاتل المؤمن توبة فقال نعم فقيل له قلت لذلك كذا ولهذا كذا قال كان الأول لم يقتل بعد فقلت ما قلت كيلا يقتل وكان هذا قد قتل فقلت له ما قلت لئلا ييأس وقد روى عنه جواز المغفرة بلا توبة أيضا حيث قال فى قوله تعالى : فجزاؤه جهنم الآية هى جزاؤه فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له وروى مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هو جزاؤه إن جازاه وبه قال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله المزنى وأبو صالح قالوا قد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب ثم إن لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدى والأصل فى ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد وان امتنع أن يخلف الوعد . بهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من وعده الله تعالى على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق أنه لا ضرورة إلى تفريع ما نحن فيه على الأصل المذكور لأنه إخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه بذلك . كيف لا وقد قال الله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولو كان هذا إخبارا بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى (ويعفو عن كثير) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إثر ما بين حكم القتل بقسميه وأن ما يتصور صدوره عن المؤمن إنما هو القتل خطأ شرع فى التحذير عما يؤدى إليه من قلة المبالاة فى الأمور ﴿ إذا ضربتم

فى سبيل الله ﴾ أى سافرتم فى الغزو ولما فى إذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى : ﴿ فتبينوا ﴾ بالفاء أى فاطلبوا بيان الأمر فى كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرىء فتثبتوا أى اطلبوا إثباته وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام ﴾ نهى عما هو نتيجة لترك المأمور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التى يجب فيها التبيين وقرىء السلم بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام أى لا تقولوا بغير تدبر لمن حياكم بتحية الإسلام أو لمن ألقى إليكم مقاليد الاستسلام والانقياد ﴿ لست مؤمنا ﴾ وإنما أظهرت ما أظهرت متعوذا بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه وقرىء مؤمنا بالفتح أى مبذولا لك الأمان وهذا أنسب بالقراءتين الأخيرتين والاقتصار على ذكر تحية الإسلام فى القراءة الأولى مع كونها مقرونة بكلمتى الشهادة كما سيأتى فى سبب النزول للمبالغة فى النهى والزجر والتنبيه على كمال ظهور خطئهم ببيان أن تحية الإسلام كانت كافية فى المكافة والانزجار عن التعرض لصاحبها فكيف وهى مقرونة بهما وقوله تعالى ﴿ تبتغون عرض الحيوة الدنيا ﴾ حال من فاعل لا تقولوا منبىء عما يحملهم على العجلة وترك التأنى لكن لا على أن يكون النهى راجعا إلى القيد فقط كما فى قولك لا تطلب العلم تبتغى به الجاه بل إليهما جميعا أى لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لما له الذى هو حطام سريع النفاد وقوله تعالى ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنى كأنه قيل لا تبتغوا ماله فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به كما فى قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) الخ وتقديم خبر كان للقصر المقيد لتأكيد المشابهة بين طرفى التشبيه وذلك إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والفاء فى فمن للعطف على كنتم أى مثل ذلك

الذى ألقى إليكم السلام كنتم أيضا فى بدء إسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فتبينوا ﴾ فصيحة أى إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم فى أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وتستدعيه فخامة شأنه الجليل ومن حسب أن المعنى أول مادخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم فمن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم فيه وأن صرتم أعلاما فيه فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام فى الكف ولا تقولوا الخ فقد أبعد عن الحق لأن المراد كما عرفت بيان أن تحصين الدماء والأموال حكم مترتب على ما فيه المماثلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة وإظهار أن ترتبه عليه فى حقهم يقتضى ترتبه عليه فى حقه أيضاً إلزاما لهم وإظهارا لخطئهم ولا يخفى أن ذلك إنما يتأتى بتفسير منه تعالى عليهم المترتب على كونهم مثله بتحصين دمائهم وأموالهم حسبما ذكر حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضا بحكم المشاركة فيما يوجبه وحيث لم يفعل ذلك بل فسره به لم يبق فى النظم الكريم ما يدل على ترتب تحصين دمائهم وأموالهم على ما ذكر فمن أين له أن يقول فحصنت دماءكم وأموالكم حتى يتأتى البيان وارتكاب تقديره بناء على اقتضاء ما ذكر فى تفسير المن إياه بناء على أساس واه كيف لا وإنما ذكره بصدد التفسير وإن كان أمرا متفرعا على ما فيه المماثلة مبنيا عليه فى حقهم لكنه ليس بحكم أريد إثباته فى حقه بناء على ثبوته فى حقهم كالتحصين المذكور حتى يستحق أن يتعرض له ولا بأمر له دخل فى وجوب اعتبار ظاهر الإسلام من الداخلين فيه حتى يصح نظمه فى سلك ما فرع عليه قوله فعليكم أن تفعلوا الخ .

وحمل الكلام على معنى أنكم فى أول الأمر كنتم مثله فى قصور الرتبة فى الإسلام فمن الله عليكم وبلغتم هذه الرتبة العالية منه فلا تستقصروا حالته نظرا إلى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا إلى حالتكم السابقة يرده أن قتله لم يكن لاستقصار إسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسانه فإن الآية الكريمة نزلت فى شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثى فهربوا وبقى مرداس لثقته بإسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال قتلتموه إرادة ما معه فقال أسامة إنه قال بلسانه دون قلبه وفى رواية إنما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام هلا شققت عن قلبه وفى رواية أفلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال يا رسول الله استغفر لى فقال كيف بلا إله إلا الله قال أسامة فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر لى. وقال أعتق رقبة وقيل نزلت فى رجل قال يا رسول الله كنا نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى فقصدت رجلا فلما أحس بالسيف قال إنى مسلم فقتلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلت مسلما قال إنه كان متعوذا فقال عليه الصلاة والسلام أفلا شققت عن قلبه ﴿إن الله كان بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها ﴿خبيرا﴾ فيجازيكم بحسبها إن خيرا فخير وإن شرا فشر فلا تتهاونوا فى القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما قبلها بطريق الاستئناف وقرىء بفتح أن على أنها معموله لتبينوا أو على حذف لام التعليل ﴿لا يستوى القاعدون﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم فى الجهاد بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته فيهتز له رغبة فى ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا ما روى عن مقاتل من أنهم الخارجون إلى تبوك فإنه مما لا يوافقه التاريخ ولا يساعده الحال إذا لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة وقوله تعالى ﴿ من المؤمنين ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين أى كائنين من المؤمنين وفائدتها الإيذان من أول الأمر بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم والإشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتى من الحسنى ﴿ غير أولى الضرر ﴾ صفة للقاعدين لجريانه مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه وقرىء بالنصب على أنه حال منه أو استثناء وبالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أوزمانة أو نحوها وفى معناه العجز عن الأهبة . عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه فقال اكتب فكتبت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى يارسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينة كذلك ثم سرى عنه فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) ﴿ والمجاهدون ﴾ إيرادهم بهذا العنوان دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع فى عبارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا تقييد المجاهدة بكونها ﴿ فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾ لمدحهم بذلك والإشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود وتقديم القاعدين فى الذكر والإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) إلى غير ذلك وأما قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة لصلة المفضول وقوله عز وجل ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم

وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ استئناف مسوق لتفصيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم استوائهما إجمالا ببيان كيفيته وكميته مبنى على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل كيف وقع ذلك فقيل فضل الله الخ وأما تقدير ماهم لايستوون فإنما يليق بجعل الاستئناف تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لإثباته وفيه عكس ظاهر فإن الذى يحق أن يكون مقصودا بالذات إنما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوته وأما عدم استوائهما فقصارى أمره أن يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد فى سبيل الله معتبر فى الأول كما أن قيد عدم الضرر معتبر فى الثانى ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل أى فضل الله تفضيلة أو على نزع الخافض أى بدرجة وقيل على التمييز وقيل على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة وتنوينها للتفخيم وقوله تعالى ﴿ وكلا ﴾ مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لإفادة القصر تأكيدا للوعد أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين ﴿ وعد الله الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا أحدهما فقط كما فى قوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) على أن اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جىء به تداركا لما عسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين ﴾ عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام فى الفريقين مغنية لهما عن ذكر القيود التى تركت على سبيل التدريج وقوله تعالى ﴿ أجرا عظيما ﴾ مصدر مؤكد لفضل على أنه بمعنى أجر وإيثاره على ماهو مصدر من فعله للإشعار بكون ذلك التفضيل أجرا لأعمالهم أو مفعول ثان له بتضمينه معنى الإعطاء أى أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما وقيل هو منصوب بنزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم وقوله تعالى ﴿ درجات ﴾ بدل من أجرا بدل الكل مبين لكمية التفضيل وقوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أى درجات كائنة منه تعالى قال ابن محيريز هى سبعون درجة ما بين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين خريفا وقال السدى هى سبعمائة درجة وعن أبى هريرة رضى الله عنه

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما فى قولك ضربه أسواطا أى ضربات كأنه قيل فضلهم تفضيلا وقوله تعالى ﴿ ومغفرة ﴾ بدل من أجرا بدل البعض لأن بعض الأجر ليس من باب المغفرة أى مغفرة لما فرط منهم من الذنوب التى لا يكفرها سائر الحسنات التى يأتى بها القاعدون أيضا حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى ﴿ ورحمة ﴾ بدل الكل من أجرا مثله درجات ويجوز أن يكون انتصابهما بإضمار فعلهما أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا .

ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبىء عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام إما لتنزيل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيداً لسلوك طريق الإبهام ثم التفسير روما لمزيد التحقيق والتقرير كما فى قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ما قيل ولله در شأن التنزيل وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثانى ما أنعم به فى الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبىء عنه تقديم الأول وتأخير الثانى وتوسيط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل وفضلهم عليهم فى الدنيا درجة واحدة وفى الآخرة درجات لا تحصى وقد وسط بينهما فى الذكر ما هو متوسط بينهما فى الوجود أعنى الوعد بالجنة توضيحا لحالهما ومسارعة إلى

تسلية المفضول والله سبحانه أعلم . هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبأن الاستثناء من النفى إثبات وأما عند من لا يقول بذلك فلا دلالة لعبارة النص عليه وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم فى المدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من من ضرر أو غيره وبعبارة أخرى إن فى المدينة لأقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر قالوا هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى سوى الضرر قد ذكرت فى قوله تعالى (ليس على الضعفاء ولا على المرضى إلى قوله إذا نصحوا لله ورسوله) وقيل القاعدون الأول هم الأضراء والثانى غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم مالا يخفى ولا ريب فى أن الأضراء أفضل من غيرهم درجة كما لا ريب فى أنهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيوية ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة بعد بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم يحتمل أن يكون ماضيا ويؤيده قراءة من قرأ توفتهم وأن يكون مضارعا قد حذف منه إحدى التاءين وأصله تتوفاهم على حكاية الحال الماضية والقصد إلى استحضار صورتها ويعضده قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى أن الله تعالى يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ حال من ضمير توفاهم فإنه وإن كان مضافا إلى المعرفة إلا أنه نكرة فى الحقيقة لأن المعنى على الانفصال وإن كان موصولا فى اللفظ كما فى قوله تعالى (غير محلى الصيد) وهديا بالغ الكعبة (وثانى عطفه) أى محلين الصيد وبالغا الكعبة وثانيا عطفه كأنه قيل ظالمين أنفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفار الموجبة للإخلال بأمور الدين فإنها نزلت فى ناس من أهل مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة ﴿ قالوا ﴾ أى الملائكة للمتوفين

تقريرا لهم بتقصيرهم فى إظهار إسلامهم وإقامة أحكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخا لهم بذلك ﴿ فيم كنتم ﴾ أى فى أى شىء كنتم من أمور دينكم ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الإقرار الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجبه على زعمهم ﴿ كنا مستضعفين فى الأرض ﴾ أى فى أرض مكة عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها ﴿ قالوا ﴾ إبطالا لتعللهم وتبكيتا لهم ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة وأما حمل تعللهم على إظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيباً لهم فى ذلك فيرده أن سبب العجز عنها لاينحصر فى فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو لعدم تمكين الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الأرض تكذيبا لهم ورداً عليهم بل لا بد من بيان استطاعتهم أيضاً حتى يتم التبكيت وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجت مع المشركين إلى بدر منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ما قالوا فيكون ذلك منهم تقريعا وتوبيخا لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة وانتظامهم فى عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللا بأنهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنهم أخرجوهم كارهين فرد عليهم بأنهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من المهاجرة ﴿ فأولئك ﴾ الذين حكيت أحوالهم الفظيعة ﴿ مأواهم ﴾ أى فى الآخرة ﴿ جهنم ﴾ كما أن مأواهم فى الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومة فمأواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر إن والفاء فيه لتضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة بإضمار قد عند من يشترطه أو هو الخبر والعائد منه محذوف أى قالوا لهم والجملة المصدرة بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه ومما فى حيزه ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أى مصيرهم أى جهنم وفى الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع

لا يتمكن الرجل من إقامة أمور دينه بأى سبب كان وعن النبى صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ إلا المستضعفين ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم فى الموصول وضميره والإشارة إليه ومن فى قوله تعالى ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين كائنين منهم وذكر الولدان إن أريد بهم المماليك أو المراهقون ظاهر وأما إن أريد بهم الأطفال فللمبالغة فى أمر الهجرة والإيذان بأنها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والإشعار بأنهم لا محيص لهم عنها البتة تجب عليهم كما بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا أن يهاجروا بهم متى أمكنت وقوله تعالى ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ صفة للمستضعفين فإن ما فيه من اللام ليس للتعريف أو حال منه أو من الضمير المستكن فيه وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة ومباديها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر إليه بنفسه أو بدليل ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز ﴿ عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ جىء بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذانا بأن الهجرة من تأكد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها ممن تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لا جزما وقطعا ﴿ وكان الله عفواً غفورا ﴾ تذييل مقرر لما قبله ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا ﴾ ترغيب فى المهاجرة وتأنيس لها أى يجد فيها متحولا ومهاجرا وإنما عبر عنه بذلك تأكيدا للترغيب لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجرهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيها طريقا يراغم بسلوكه قومه أى يفارقهم على رغم أنوفهم ﴿ وسعة ﴾ أى من الرزق ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ﴾ أى قبل أن يصل إلى المقصد وأن

كان ذلك خارج بابه كما ينبىء عنه إيثار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت إلى الكاف على نية الوقف كما فى قوله :

من عنزى سبنى لم أضربه   عجبت والدهر كثير عجبه

وقرىء بالنصب على إضمار أن كما فى قوله ∗ وألحق بالحجاز فأستريحا ∗ ﴿ فقد وقع أجره على الله ﴾ أى ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الأمر الواجب . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالآيات المتقدمة إلى مسلمى مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيراً إحملونى فإنى لست من المستضعفين وإنى لأهتدى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفى بالمدينة لكان أتم أجرا فنزلت . قالوا كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة إلى الله عز وجل وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام .

﴿ وكان الله غفورا ﴾ مبالغا فى المغفرة فيغفر له مافرط منه من الذنوب التى من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج ﴿ رحيما ﴾ مبالغا فى الرحمة فيرحمه بإتمام[1] ثواب هجرته .

الصلاة فى الضرورات

﴿ وإذا ضربتم فى الأرض ﴾ شروع فى بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أى إذا سافرتم أى مسافرة كانت

(١) فى ط : بإكمال

ولذلك لم يقيد بما قيد به المهاجرة ﴿ فليس عليكم جناح ﴾ أى لا حرج [ولا] [1] مأثم ﴿ أن تقصروا ﴾ أى فى أن تقصروا والقصر خلاف المد يقال قصرت الشيء أى جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فمتعلق القصر حقيقة إنما هو ذلك الشيء لا بعضه فإنه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ من الصلوة ﴾ ينبغى أن يكون مفعولا لتقصروا على زيادة من حسبما رآه الأخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفا كما هو رأى سيبويه أى شيئاً من الصلاة فينبغى أن يصار إلى وصف الجزء بصفة الكل أو يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشيء إذا حبسته أو يراد بالصلاة الجنس ليكون المقصور بعضا منها وهى الرباعيات أى فليس عليكم جناح فى أن تقصروا بعض الصلاة بتنصيفها وقرىء تقصروا من الإقصار وتقصروا من التقصير والكل بمعنى وأدنى مدة السفر الذى يتعلق به القصر عند أبى حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام بالإقتصاد وعند الشافعى مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وأفضلية الإتمام وبه قال [2] الشافعى وبما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه أتم فى السفر وعن عائشة رضى الله عنها أنها أتمت تارة وقصرت أخرى وعن عثمان رضى الله عنه أنه كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لا محالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة وبعضهم رخصة إسقاط بحيث لا مساغ للإتمام لا رخصة ترفيه إذ لا معنى للتخيير بين الأخف والأثقل وهو قول عمر وعلى وابن عباس وابن عمر وجابر رضوان الله عليهم وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه السلام وعن أنس رضى الله عنه خرجنا مع النبى صلى الله عليه

---

(1) سقط من ط (2) فى ط : تعلق .

وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة وعن عمران بن حصين رضى الله عنه ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلى فى السفر إلا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال أتموا فإنا قوم سفر وحين سمع ابن مسعود أن عثمان رضى الله عنه صلى بمنى أربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع رسول الله عليه الصلاة والسلام بمنى ركعتين وصليت مع أبى بكر رضى الله عنه بمنى ركعتين وصليت مع عمر رضى الله عنه بمنى ركعتين فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضى الله عنه عن إتمامه بأنه تأهل بمكة وعن الزهرى أنه إنما أتم لأنه أزمع الإقامة بمكة وعن عائشة رضى الله عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت فى السفر وزيدت فى الحضر وفى صحيح البخارى أنها قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين فى الحضر والسفر وزيد فى صلاة الحضر وأما ما روى عنها من الإتمام فقد اعتذرت عنه وقالت أنا أم المؤمنين فحيث حللت فهى دارى وإنما ورد ذلك بنفى الجناح لما أنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا فى القصر فصرح بنفى الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا إليه كما فى قوله تعالى (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) مع أن ذلك الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعى وقوله تعالى :

﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أى إن خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر فى شرعية ما يذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة بالجماعة وأما فى حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقا لتظاهر السنن على مشروعيته حسبما وقفت على تفاصيلها وقد ذكر الطحاوى فى شرح الآثار مسنداً إلى يعلى ابن أمية أنه قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما قال الله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد أمن الناس

---

(١) ط : فسا كت .

فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على عدم جواز الإكمال لأن التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لا يحتمل الرد كما حقق فى موضعه ولا يتوهمن أنه مخالف للكتاب لأن التقييد بالشرط عندنا إنما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط وأما عدمه عند عدمه فسكوت عنه فإن وجد له دليل ثبت عنده أيضا وإلا بقى[1] على حاله لعدم تحقق دليله لا لتحقق دليل عدمه وناهيك بما سمعت من الأدلة الواضحة وأما عند القائلين بالمفهوم فلأنه إنما يدل على نفى الحكم عند عدم الشرط إذا لم يكن له فائدة أخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الأغلب كما فى قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) بل نقول إن الآية الكريمة مجملة فى حق مقدار القصر وكيفيته وفى حق ما يتعلق به من الصلوات وفى مقدار مدة الضرب الذى نيط به القصر فكل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من القصر فى حال الأمن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب فى المدة المعينة بيان لإجمال الكتاب وقد قيل إن قوله تعالى إن خفتم الخ متعلق بما بعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله فإنه روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال نزل قوله تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حول فنزل (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح) الخ وقد قرىء من الصلاة أن يفتنكم بغير إن خفتم على أنه مفعول له لما دل عليه الكلام كأنه قيل شرع لكم ذلك كراهة أن يفتنكم الخ فإن استمرار الاشتغال بالصلاة مظنة لاقتدارهم على إيقاع الفتنة وقوله تعالى .

﴿ إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ﴾ تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فإن كمال عداوتهم للمؤمنين من

---

(١) فى ط : يبقى.

موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى ﴿ وإذا كنت فيهم ﴾ بيان لما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر بطريق التفريع وتصوير لكيفيته عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها إليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية ومن هنا ظهر لك أن مورد النص الشريف على المقصورة وحكم ما عداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره يتعلق من لا يرى صلاة الخوف بعده عليه السلام ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه عليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما فى قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة) وقد روى أن سعيد بن العاص لما أراد أن يصلى بطبرستان صلاة الخوف قال من شهد منكم صلاة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضرة الصحابة رضى الله عنهم فلم ينكره أحد فحل محل الإجماع وروى فى السنن أنهم غزوا مع عبد الرحمن بن سمرة بابل فصلى بهم صلاة الخوف ﴿ فأقمت لهم الصلوة ﴾ أى أردت أن تقيم بهم الصلاة .

﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوكم منهم وإنما لم يصرح به لظهوره ﴿ وليأخذوا ﴾ أى الطائفة القائمة معك ﴿ أسلحتهم ﴾ أى لا يضعوها ولا يلقوها إنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء ﴿ فإذا سجدوا ﴾ أى القائمون معك وأتموا الركعة ﴿ فليكونوا من ورائكم ﴾ أى فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿ ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا ﴾ بعد وهى الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة وإنما لم تعرف لما أنها لم تذكر فيما قبل ﴿ فليصلوا معك ﴾ الركعة الباقية ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين وقد بين ذلك بالسنة حيث روى عن ابن عمرو وابن مسعود رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف

صلى بالطائفة الأولى ركعة وبالطائفة الأخرى ركعة كما فى الآية الكريمة ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه إلى مقابلة العدو حتى قضت الأولى الركعة الأخيرة بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان ﴿ وليأخذوا ﴾ أى هذه الطائفة .

﴿ حذرهم وأسلحتهم ﴾ لعل زيادة الأمر بالحذر فى هذه المرة لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض عن غيرها ومظنة[1] لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل الأمر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة والمراد بالأمتعة ما يتمتع به فى الحرب لا مطلقا وهذا الأمر للوجوب لقوله تعالى . ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ﴾ حيث رخص لهم فى وضعها إذا ثقل عليهم استصحابها بسبب مطر أو مرض وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل .

﴿ وخذوا حذركم ﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة روى الكلبى عن أبى صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبنى أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش فحال الوادى بينه عليه السلام وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث ابن الحرث المحاربى فقال قتلنى الله أن لم أقتلك ثم انحدر من الجبل

---

(١) فى ط : ومشنة .

ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال يا محمد من يعصمك منى الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفنى غورث بن الحرث بما شئت ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فبدر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال يا غورث من يمنعك منى الآن قال لا أحد قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لأنت خير منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم قال وسكن الوادى فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر وقوله تعالى :

﴿ إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ تعليل للأمر بأخذ الحذر أى أعد لهم عذابا مهينا بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا فى مباشرة الأسباب ليحل[1] بهم عذابه بأيديكم وقيل لما كان الأمر بالحذر من العدو موهما لتوقع غلبته واعتزازه نفى ذلك الإيهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم ﴿ فإذا قضيتم الصلوة ﴾ أى صلاة الخوف أى أديتموها على الوجه المبين وفرغتم منها ﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ أى فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه فى جميع الأحوال حتى فى حال المسايفة والقتال كما فى قوله تعالى : (إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد ما وضعت الحرب أو زارها ﴿ فأقيموا الصلوة ﴾ أى الصلاة التى دخل وقتها حينئذ أى أدوها بتعديل أركانها ومراعاة

---

(١) فى ط : كى يحل .

شرائطها وقيل المراد بالذكر فى الأحوال الثلاثة الصلاة فيها أى فإذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما عند المسايفة وقعودا جاثين على الركب عند المراماة وعلى جنوبكم مثخنين بالجراح فإذا اطمأننتم فى الجملة فاقضوا ما صليتم فى تلك الأحوال التى هى [من](١) أحوال القلق والانزعاج وهو رأى الشافعى رحمه الله وفيه من البعد مالا يخفى .

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ أى فرضا موقتا قال مجاهد وقته الله عليهم فلا بد من إقامتها فى حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين فلا بد أن تؤدى فى كل وقت حسبما قدر فيه .

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ﴾ أى لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار بالقتال والتعرض لهم بالحراب وقوله تعالى : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ﴾ تعليل للنهى وتشجيع لهم أى ليس ماتقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب فى الآخرة مالا يخطر ببالهم وقرىء إن تكونوا بفتح الهمزة أى تهنوا لأن تكونوا تألمون وقوله تعالى فإنهم تعليل للنهى عن الوهن لأجله والآية نزلت فى بدر الصغرى ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم ﴿ حكيما ﴾ فيما يأمر وينهى فجدوا فى الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة .

وجوب الحكم بما أنزل الله

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ روى أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بنى ظفر سرق درعا من جاره قتادة ابن النعمان فى جراب دقيق

(١) سقطت من ط .

فجعل الدقيق يتنثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودى فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها فقال دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزلت وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بنى سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول ولا الخروج فأخذ ليقتل فقيل دعه فإنه قد لجأ إليك فتركه وأخرجوه من مكة فالتحق بتجار من قضاعة نحو الشام فنزلوا منزلا فسرق بعض متاعهم وهرب فأخذوه ورجموه بالحجارة حتى قتلوه وقيل إنه ركب سفينة إلى جدة فسرق فيها كيسا فيه دنانير فأخذ وألقى فى البحر .

﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ أى بما عرفك وأوحى به إليك ﴿ ولا تكن للخائنين ﴾ أى لأجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه من قومه أو هو ومن يسير بسيرته ﴿خصيما﴾ مخاصما للبراءة أى لا تخاصم اليهود لأجلهم والنهى معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فاحكم به ولا تكن الخ ﴿ واستغفر الله ﴾ مما هممت به تعويلا على شهادتهم : ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يستغفره ، ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أى يخونونها بالمعصية كقوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلما لها لرجوع ضررها إليهم والمراد بالموصول إما طعمة وأمثاله وأما هو ومن عاونه وشهد ببراءته من قومه فإنهم شركاء فى الإثم والخيانة ﴿ إن الله لا يحب من كان خوانا ﴾ مفرطاً فى الخيانة مصراً عليها ﴿ أثيما ﴾ منهمكا فيه وتعليق عدم المحبة الذى هو كناية عن البغض والسخط بالمبالغ فى الخيانة والإثم ليس لتخصيصه به بل لبيان إفراط طعمة وقومه فيهما ﴿ يستخفون

من الناس ﴾ يستترون منهم حياء وخوفا من ضررهم ﴿ ولا يستخفون من الله ﴾ أى لا يستحيون منه سبحانه وتعالى وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿ وهو معهم ﴾ عالم بهم وبأحوالهم فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يستقبحه ويؤاخذ به ﴿ إذ يبيتون ﴾ يدبرون ويزورون ﴿ ما لا يرضى من القول ﴾ من رمى البرىء والحلف الكاذب وشهادة الزور ﴿ وكان الله بما يعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿ محيطا ﴾ لا يعزب عنه شىء منها ولا يفوت .

﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إليهم بطريق الالتفات إيذانا بأن تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ جادلتم عنهم فى الحيوة الدنيا ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا ويجوز أن يكون أولاء اسما موصولا بمعنى الذين وجادلتم الخ صلة له والمجادلة أشد المخاصمة والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وأمثاله فى الدنيا ﴿ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم ﴿ أم من يكون عليهم وكيلا ﴾ حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه .

﴿ ومن يعمل سوءا ﴾ قبيحا ليسوء[1] به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودى ﴿ أو يظلم نفسه ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك وقيل هما الصغيرة والكبيرة ﴿ ثم يستغفر الله ﴾ بالتوبة الصادقة ﴿ يجد الله غفورا ﴾ لذنوبه كائنة ما كانت ﴿ رحيما ﴾ متفضلا عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كما ﴿ ومن يكسب إثما ﴾ من الآثام ﴿ فإنما يكسبه على نفسه ﴾ حيث لا يتعدى ضرره ووباله إلى غيره فليحترز عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلا وآجلا ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم ﴿ حكيما ﴾ مراعيا للحكمة فى

(١) فى ط ، يسوء .

كل ماقدر وقضى ولذلك لاتحمل وازرة وزر أخرى ﴿ ومن يكسب خطيئة ﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب وقرىء ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد السين وأصله يكتسب ﴿ أو إثما ﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد ﴿ ثم يرم به ﴾ أى يقذف به ويسنده [إليه][1] وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو وتذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة كأنه قيل ثم يرم بأحدهما وقرىء يرم بهما وقيل الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخى فى الرتبة ﴿ بريئاً ﴾ أى بما رماه به ليحمله عقوبته العاجلة كما فعله طعمة بزيد .

﴿ فقد احتمل أى بما فعل من تحميل جريرته على البرىء ﴿ بهتانا ﴾ وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله وقيل هو الكذب الذى يتحير فى عظمه ﴿ وإثما مبينا ﴾ أى بينا فاحشا وهو صفة لإثما وقد اكتفى فى بيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمى كأنه قيل بهتانا لا يقادر قدره وإثما مبينا على أن وصف الإثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لأنهما عبارة عن أمر واحد هو رمى البرىء بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا لأمره وتفظيعا لحاله فمدار العظم والفخامة كون المرمى به للرامى فإن رمى البرىء بجناية ما خطيئة كانت أو إثما بهتان وإثم فى نفسه أما كونه بهتانا فظاهر وأما كونه إثما فلأن كون الذنب بالنسبة إلى من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة إلى من نسبه إلى البرىء منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم فى جميع الأديان[2] فهو فى نفسه بهتان وإثم لا محالة ويكون تلك الجناية للرامى يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته

---

(١) سقط من ط .

(٢) لا دين إلا الإسلام على الحقيقة وهو ما آمن به نوح فمن بعده صراحة وقد أكد المؤلف ذلك فيما سبق ولعل مراده هنا الشرائع الممهدة لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

المكسوبة إلى رمى البرىء وإلا لكان الرمى بغير جناية مثله فى العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة وإلا لكان الرمى بغير جناية مع تبرئة نفسه كذلك فى العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البرىء وإجراء عقوبتها عليه كما ينبىء عنه إيثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر نعم بما ذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه إلى رمى البرىء تزداد الجناية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للمجموع لا للإثم .

﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته ﴾ بإعلامك ما هم عليه بالوحى وتنبيهك على الحق وقيل بالنبوة والعصمة ﴿ لهمت طائفة منهم ﴾ أى من بنى ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز أن يكون المراد بالطائفة كلهم ويكون الضمير راجعا إلى الناس وقيل هم وفد بنى ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا جئناك لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا ولا تعشرنا فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أن يضلوك ﴾ أى بأن يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكنه الأمر والجملة جواب لولا وإنما نفى همهم مع أن المنفى إنما هو تأثيره فقط إيذانا بانتفاء تأثيره بالكلية وقيل المراد هو الهم المؤثر ولا ريب فى انتفائه حقيقة وقيل الجواب محذوف أى لأضلوك وقوله تعالى لهمت جملة مستأنفة أى لقد همت طائفة الخ ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ لاقتصار وبال مكرهم عليهم من غير أن يصيبك منه شىء والجملة اعتراض وقوله تعالى ﴿ وما يضرونك من شىء ﴾ عطف عليه ومحل الجار والمجرور النصب على المصدرية أى وما يضرونك شيئا من الضرر لما أنه تعالى عاصمك وأما ماخطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة بأقوال القائلين من غير أن يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ أى القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة ﴿ وعلمك ﴾ بالوحى من خفيات الأمور التى من جملتها وجوه إبطال كيد المنافقين أو من أمور الدين وأحكام الشرع ﴿ مالم تكن تعلم ﴾ ذلك إلى وقت التعليم .

﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامه ﴿ لاخير فى كثير من نجواهم ﴾ أى فى كثير من تناجى الناس ﴿ إلا من أمر ﴾ أى إلا فى نجوى من أمر ﴿ بصدقة أو معروف ﴾ وقيل المراد بالنجوى المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجى نقله الكرمانى وأيا ما كان فالاستثناء متصل ويجوز الانقطاع أيضا على معنى لكن من أمر بصدقة الخ ففى نجواه الخير . والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل فينتظم أصناف الجميل وفنون أعمال البر وقد فسر ههنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة ﴿ أو إصلاح بين الناس ﴾ عند وقوع المشاقة والعداء[1] بينهم من غير أن يجاوز فى ذلك حدود الشرع الشريف وبين إما متعلق بنفس إصلاح يقال أصلحت بين القوم أو بمحذوف هو صفة له أى كائن بين الناس عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يا رسول الله قال تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا قالوا ولعل السر فى إفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة والمنفعة إما جسمانية كإعطاء المال وإليه الإشارة بقوله تعالى (إلا من أمر بصدقة) وإما روحانية وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف وأما دفع الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى (أو إصلاح بين الناس) .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة أعنى الصدقة والمعروف والإصلاح فإنه يشار به إلى متعدد وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بها للإيذان ببعد منزلتها ورفعة شأنها وترتيب الوعد على فعلها إثر بيان خيرية الأمر بها لما أن المقصود الأصلى هو الترغيب فى الفعل وبيان خيرية الأمر به للدلالة

(١) فى ط : والمعاداة .

على خيريته بالطريق الأولى لما أن مدار حسن الأمر وقبحه حسن المأمور به وقبحه فحيث ثبت خيرية الأمر بالأمور المذكورة فخيرية فعلها أثبت وفيه تحريض للامر بها على فعلها أو إشارة إلى الأمر بها كأنه قيل ومن يأمر بها والكلام فى ترتيب الوعد على فعلها كالذى مر فى الخيرية فإن استتباع الأمر بها للأجر العظيم إنما هو لكونه ذريعة [وسببا][1] إلى فعلها فاستتباعه له أولى وأحق ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ علة للفعل والتقييد به لأن الأعمال بالنيات وأن من فعل خيراً لغير ذلك لم يستحق به غير الحرمان ﴿ فسوف نؤتيه ﴾ بنون العظمة على الالتفات وقرىء بالياء ﴿ أجراً عظيما ﴾ يقصر عنه الوصف ﴿ ومن يشاقق الرسول ﴾ التعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعة ما اجترأوا عليه من المشاقة والمخالفة وتعليل الحكم الآتى بذلك ﴿ من بعد ما تبين له الهدى ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ أي غير ماهم مستمرون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم .

﴿ نوله ما تولى ﴾ أى نجعله واليا لما تولى من الضلال ونخذله بأن نخلى بينه وبين ما اختاره ﴿ ونصليه جهنم ﴾ أى ندخله إياها وقرىء بفتح النون من صلاة ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أى جهنم وفيها دلالة على حجية الإجماع وحرمة مخالفته ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ قد مر تفسيره فيما سبق وهو تكرير للتأكيد والتشديد أو لقصة طعمة وقد مر موته كافرا . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى شيخ منهمك فى الذنوب إلا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصى جراءة على الله تعالى وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا وإنى لنادم تائب مستغفر فما ترى حالى عند الله تعالى فنزلت ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا

(١) سقطت من ط .

بعيداً ﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء وإثم عظيم ولذلك جعل الجزاء فى هذه الشرطية فقد ضل الخ وفيما سبق فقد افترى إثما عظيما حسبما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه .

﴿ إن يدعون من دونه ﴾ أى ما يعبدون من دونه عز وجل ﴿ إلا إناثا ﴾ يعنى اللات والعزى ومناة ونحوها . عن الحسن أنه لم يكن من أحياء العرب حى إلا كان لهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان قيل لأنهم كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل لأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحلى ويزينونها على هيآت النسوان وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها إناثا لتأنيث أسمائها أو لأنها فى الأصل جماد والجمادات تؤنث من حيث أنها ضاهت الإناث لانفعالها وإيرادها بهذا الاسم للتنبيه على فرط حماقة عبدتها وتناهى جهلهم والإناث جمع أنثى كرباب وربى وقرىء على التوحيد وأنثا أيضا على أنه جمع أنيث كقليب وقلب أو جمع إناث كثمار وثمر وقرىء وثنا واثنا بالتخفيف والتثقيل جمع وثن كقولك أسد وأسد وآسد على الأصل وقلب الواو ألفا نحو أجوه فى جوه ﴿ وإن يدعون ﴾ وما يعبدون بعبادتها ﴿ إلا شيطانا مريدا ﴾ إذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو الذى لا يتعلق[1] بخير وأصل التركيب للملاسة ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتى تناثر ورقها .

﴿ لعنه الله ﴾ صفة ثانية لشيطانا ﴿ وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن ما يعبدونها ينفعل ولا يفعل فعلا إختياريا

---

(١) فى ط : يعلق .

وذلك ينافى الألوهية غاية المنافاة ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة الأول منهمك فى الغى لا يكاد يعلق بشىء من الخير والهدى فتكون طاعته ضلالا بعيداً عن الحق والثانى أنه ملعون لضلاله فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال والثالث أنه فى غاية السعى فى إهلاكهم وإضلالهم فموالاة من هـــذا شأنه غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع أى نصيبا قدر لى وفرض من قولهم فرض له فى العطاء ﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة وألا بعث ولا عقاب ونحو ذلك ﴿ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ﴾ أى فليقطعنها بموجب أمرى ويشقنها من غير تعلثم فى ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب ﴿ ولآمرنهم فليغيرن ﴾ ممتثلين به ﴿ خلق الله ﴾ عن نهجه صورة أو صفة وينتظم فيه ما قيل من فقء عين الحامى وخصاء العبيد والوشم والوشر ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا فى البهائم لمكان الحاجة وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أو حالا وما فيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به فى الموضعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ﴾ بإيثار ما يدعو إليه على ما أمر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى إلى طاعته ﴿ فقد خسر خسرانا مبينا ﴾ لأنه ضيع رأس ماله بالكلية واستبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار ﴿ يعدهم ﴾ أى ما لا يكاد ينجزه ﴿ ويمنيهم ﴾ أى الأمانى الفارغة أو يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطى ويمنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى يتخذ وخسر باعتبار لفظها .

﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بإلقاء الخواطر الفاسدة أو بألسنة أوليائه وغرورا إما مفعول ثان للوعد أو مفعول لأجله أو نعت لمصدر محذوف أى وعدا ذا غرور أو مصدر على غير لفظ المصدر لأن يعدهم فى قوة يغرهم بوعده والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لأنها باب من الوعد ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى أولياء

الشيطان وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الخسران وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ مأواهم ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ جهنم ﴾ خبر للثانى والجملة من الثانى [وخبره](١) خبر للأول ﴿ ولا يجدون عنها محيصا ﴾ أى معدلا ومهربا من حاص الحمار إذا عدل وقيل خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور وعنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصا أى كائنا عنها ولا مساغ لتعلقه بمحيصا أما إذا كان اسم مكان فظاهر وأما إذا كان مصدرا فلأنه لا يعمل فيما قبله .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾ قرن وعيد الكفرة بوعد المؤمنين زيادة لمسرة هؤلاء ومساءة أولئك ﴿ وعد الله حقا ﴾ أى وعده وعدا وحق ذلك حقا فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية وعد والثانى مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب الموصول بمضمر يفسره ما بعده وينتصب وعد الله بقوله تعالى سندخلهم لأنه فى معنى نعدهم إدخال جنات الخ وحقا على أنه حال من المصدر ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه والمبالغة فى تأكيده ترغيبا للعباد فى تحصيله والقيل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القيل والقال اسمان لا مصدران ونصبه على التمييز وقرىء بإشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال .

الأعمال والثواب

﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ أى ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأمانى أهل الكتاب وإنما يحصل .

---

(١) سقطت من ط .

بالإيمان والعمل الصالح ولعل نظم أمانى أهل الكتاب فى سلك أمانى المسلمين مع ظهور حالها للإيذان بعدم إجداء أمانى المسلمين أصلا كما فى قوله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) كما سلف وعن الحسن ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل وقيل إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله تعالى منكم فقال المسلمون نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين ويؤيده تقدم ذكرهم أى ليس الأمر بأمانى المشركين وهو قولهم لا جنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالا وقولهم لأوتين مالا وولدا ولا أمانى أهل الكتاب وهو قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ثم قرر ذلك بقوله تعالى .

﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ عاجلا أو آجلا لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن ينجو مع هذا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تحزن أو تمرض أو يصيبك البلاء قال بلى يا رسول الله قال هو ذاك ﴿ ولا يجد له من دون الله ﴾ أى مجاوزا لموالاة الله ونصرته ﴿ وليا ﴾ يواليه ﴿ ولا نصيرا ﴾ ينصره فى دفع العذاب فيه .

﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ أى بعضها أو شيئا منها فان كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفا بها ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ فى موضع الحال من المستكن فى يعمل ومن للبيان أو من الصالحات فمن للابتداء أى كائنة من ذكر الخ ﴿ وهو مؤمن ﴾ حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيها على أنه لا اعتداد به دونه ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من بعنوان اتصافه بالإيمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ومافيه

من معنى البعد لما مر غير مرة من الإشعار بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الشرف ﴿ يدخلون الجنة ﴾ وقرىء يدخلون مبنيا للمفعول من الإدخال ﴿ولا يظلمون نقيرا﴾ أى لا ينقصون شيئا حقيرا من ثواب أعمالهم فإن النقير علم فى القلة والحقارة وإذا لم ينقص ثواب المطيع فلأن لا يزاد عقاب العاصى أولى وأحرى كيف لا والمجازى [هو][1] أرحم الراحمين وهو السر فى الاقتصار على ذكره عقيب الثواب ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له ربا سواه وقيل بذل وجهه له فى السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوض أمره إليه تعالى وهذا إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أحسن دينا ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها يرشدك إليه العرف المطرد والاستعمال الفاشى فإنه إذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى) ونظائره ودينا نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل فى الحقيقة جار بين الدينين لا بين صاحبيهما ففيه تنبيه على أن ذلك أقصى ما تنتهى إليه القوة البشرية ﴿ وهو محسن ﴾ أى آت بالحسنات تارك للسيئات أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك والجملة حال من فاعل أسلم ﴿ واتبع ملة إبراهيم ﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها وقبولها ﴿ حنيفا ﴾ مائلا عن الأديان الزائغة وهو حال من فاعل اتبع أو [حال[2]] من إبراهيم .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات

---

(١) سقطت من ط .

(٢) سقطت من ط .

الخليل عند خليله وإظهاره عليه الصلاة والسلام فى موقع الإضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية والخلة من الخلال فإنه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر أو من الخل وهو الطريق فى الرمل فإنهما يتوافقان فى الطريقة أو من الخلة بمعنى الخصلة فإنهما يتوافقان فى الخصال وفائدة الاعتراض جمة من جملتها الترغيب فى اتباع ملته عليه السلام فإن من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغا مصححا لتسميته خليلا حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد إليه أعناق الهمم وأشرف ما يرمق نحوه أحداق الأمم قيل إنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر فى أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنه يريدها للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه عليه الصلاة والسلام فاجتازوا ببطحاء لينة فملأوا منها الغرائر حياء من الناس وجاءوا بها إلى منزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وألقوها فيه وتفرقوا وجاء أحدهم فأخبر إبراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا لا سيما لاجتماع الناس ببابه رجاء الطعام فغلبته عيناه وعمدت سارة إلى الغرائر فإذا فيها أجود ما يكون من الحوارى فاختبزت وفى رواية فأطعمت الناس وانتبه إبراهيم عليه الصلاة والسلام فاشتم رائحة الخبز فقال من أين لكم قالت سارة من خليلك المصرى فقال بل من عند خليلى الله عز وجل فسماه الله تعالى خليلا.

طاعة الله على أهل السماء والأرض

﴿ ولله ما فى السموات والأرض ﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والأرض ببيان أن جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا لا يخرج عن ملكوته شيء منها فيجازى كلا بموجب أعماله خيرا أو شرا وقيل لبيان أن اتخاذه عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليلا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك فى شأن من شئونه كما هو دأب الآدميين.

فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض فى مصالحهم بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام وقيل لبيان أن الخلة لا تخرجه عن رتبة العبودية وقيل لبيان أن اصطفاءه عليه السلام للخلة بمحض مشيئته تعالى أى له تعالى ما فيهما جميعا يختار منهما ما يشاء لمن يشاء وقوله عز وجل ﴿ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله على الوجوه المذكورة فإن إحاطته تعالى علما وقدرة بجميع الأشياء التى من جملتها ما فيهما من المكلفين وأعمالهم مما يقرر ذلك أكمل تقرير

أحكام فى معاشرة النساء

﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ أى فى حقهن على الإطلاق كما ينبىء عنه الأحكام الآتية لا فى حق ميراثهن خاصة فإنه صلى الله عليه وسلم قد سئل عن أحوال كثيرة مما يتعلق بهن فما بين حكمه فيما سلف أحيل بيانه على ما ورد فى ذلك من الكتاب وما لم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى ﴿ قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب ﴾ بإسناد الإفتاء الذى هو بيان[1] المبهم وتوضيح المشكل إليه تعالى وإلى ما تلى من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك أغنانى زيد وعطاؤه بعطف ما على المبتدأ أو ضميره فى الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجار والمجرور وإيثار صيغة المضارع للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها وفى الكتاب إما متعلق بيتلى أو بمحذوف وقع حالا من المستكن فيه أى يتلى كائنا فيه ويجوز أن يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفى الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو عليهم وأن العدل فى الحقوق المبينة فيه من عظائم الأمور التى تجب مراعاتها والمحافظة عليها فيما يتلى حينئذ متناول لما تلى وما سيتلى ويجوز أن يكون مجرورا على القسم المنبىء عن تعظيم المقسم به وتفخيمه كأنه قيل قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بما يتلى عليكم فى الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق

---

(١) فى ط تبيين .

واللاحق ولامساغ لعطفه على المجرور من فيهن لاختلاله لفظا ومعنى وقوله تعالى : ﴿ فى يتامى النساء ﴾ على الوجه الأول وهو الأظهر متعلق بيتلى أى ما يتلى عليكم فى شأنهن وعلى الأخيرين بدل من فيهن وهذه الإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه وقرىء بيامى بقلب[1] همزة أيامى ياء .

﴿ اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن ﴾ أى ما فرض لهن من الميراث وغيره ﴿ وترغبون ﴾ عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتأويل وأنتم ترغبون ولاريب فى أنه لايظهر لتقييد عدم الإيتاء بذلك فائدة إلا إذا أريد بما كتب لهن صداقهن ﴿ أن تنكحوهن ﴾ أى فى أن تنكحوهن لا لأجل التمتع بهن بل لأكل مالهن أوفى أن تنكحوهن بغير إكمال الصداق وذلك ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها من أنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق أو عن أن تنكحوهن وذلك ما روى عنها رضى الله عنها أنها يتيمة يرغب وليها عن نكاحها ولا ينكحها فيعضلها طمعا فى ميراثها وفى رواية عنها رضى الله عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها فى المال حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فالمراد بما كتب لهن على الوجه الأول والأخير ميراثهن وبما يتلى فى حقهن قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم) وقوله تعالى (ولا تأكلوها) ونحوهما من النصوص الدالة على عدم التعرض لأموالهم وعلى الوجه الثانى صداقهن وبما يتلى فيهن قوله تعالى (وإن خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى) الآية .

﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ عطف على يتامى النساء وما يتلى فى حقهم وقوله تعالى (يوصيكم الله) الخ وقد كانوا فى الجاهلية لايورثونهم كما لايورثون

---

(١) فى ط : على قلب .

النساء وإنما يورثون الرجال القوامين[1] بالأمور . روى أن عيينة ابن حصن الفزارى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بأنك تعطى الإبنة النصف والأخت النصف وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام كذلك أمرت ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ بالجر عطف على ماقبله وما يتلى فى حقهم قوله تعالى (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) ونحو ذلك مما لايكاد يحصر هذا على تقدير كون فى يتامى النساء متعلقا بيتلى وأما على تقدير كونه بدلا من فيهن فالوجه نصبه عطفا على موضع فيهن أى يفتيكم أن تقوموا ويجوز نصبه بإضمار فعل أى ويأمركم وهو خطاب للولاة أو للأولياء والأوصياء ﴿ وما تفعلوا ﴾ فى حقوق المذكورين ﴿ من خير ﴾ حسبما أمرتم به أو ماتفعلوه من خير على الإطلاق فيندرج فيه ما يتعلق بهم اندراجا أوليا .

﴿ فإن الله كان به عليما ﴾ فيجازيكم بحسبه ﴿ وأن امرأة خافت ﴾ شروع فى بيان مالم يبين فيما سلف من الأحكام أى إن توقعت امرأة ﴿ من بعلها نشوزا ﴾ أى تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها ﴿ أو إعراضا ﴾ بأن يقل محادثتها ومؤانستها لما يقتضى ذلك من الدواعى والأسباب ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ حينئذ ﴿ أن يصلحا بينهما صلحا ﴾ أى فى أن يصلحا بينهما بأن تحط عنه[2] المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت يومها لعائشة رضى الله عنها أو بأن تهب له شيأ تستميله وقرىء يصالحا من يتصالحا ويصلحا من يصطلحا ويصالحا من المفاعلة وصلحا إما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على أنه مصدر منه بحذف الزوائد وقد يعبر عنه باسم المصدر كأنه قيل إصلاحا أو تصالحا أو

(١) فى ط : القوام .

(٢) فى ط : له .

إصطلاحا حسبما قرىء الفعل أو بفعل مترتب على المذكورأى فيصلح حالهما صلحا وبينهما ظرف للفعل أو حال من صلحا والتعرض لنفى الجناح عنهما مع أنه ليس من جانبها الآخذ الذى هو المظنة للجناح لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوه المحرمة للمعطى والآخذ .

﴿ والصلح خير ﴾ أى من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة فاللام للعهد أو هو خير من الخيور فاللام للجنس والجملة اعتراض مقرر لما قبله وكذا قوله تعالى ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه لا تنفك عنه أبدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها فإن فيه تحقيقاً للصلح وتقريرا له بحث كل منهما عليه لكن لا بالنظر إلى حال نفسه فإن ذلك يستدعى التمادى فى المماكسة والشقاق بل بالنظر إلى حال صاحبه فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالته وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقتنع من قبلها بشىء يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح ﴿ وإن تحسنوا ﴾ فى العشرة ﴿ وتتقوا ﴾ النشوز والإعراض مع تعاضد[1] الأسباب الداعية إليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن إلى بذل شىء من حقوقهن ﴿ فإن الله كان بما تعملون ﴾ أى من الإحسان والتقوى أو بما تعملون جميعا فيدخل ذلك فيه دخولا أوليآ ﴿ خبيراً ﴾ فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة أن يضيع أجر المحسنين وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى المنبىء عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة مالا يخفى . روى أنها نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع

---

(١) فى ط : وإن تعاضدت .

تزوجها وهى شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت إليه ذلك ، وقيل : نزلت فى أبى السائب ، كانت له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقنى ودعنى على أولادى فاقسم لى من كل شهرين إن شئت فلا تقسم لى فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت .

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ﴾ أى محال أن تقدروا على أن تعدلوا بينهن بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن فى شأن من الشئون البتة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك وفى رواية وأنت أعلم بما لا أملك يعنى فرط محبته لعائشة رضى الله عنها ﴿ ولو حرصتم ﴾ أى على إقامة العدل وبالغتم فى ذلك .

﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أى فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور واعدلوا ما استطعتم فإن عجزكم عن حقيقة العدل إنما يصحح عدم تكليفكم بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم ﴿ فتذروها ﴾ أى التى ملتم عنها ﴿ كالمعلقة ﴾ التى ليست ذات بعل أو مطلقة وقرىء كالمسجونة وفى الحديث من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ﴿ وإن تصلحوا ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿ وتتقوا ﴾ الميل فيما يستقبل ﴿ فإن الله كان غفوراً ﴾ يغفر لكم ما فرط منكم من الميل ﴿ رحيما ﴾ يتفضل عليكم برحمته ﴿ وإن يتفرقا ﴾ وقرىء يتفارقا أى وإن يفارق كل منهما صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره ﴿ يغن الله كلا ﴾ منهما أى يجعله مستغنيا عن الآخر ويكفه مهماته ﴿ من سعته ﴾ من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن المفارقة رغما لصاحبه ﴿ وكان الله واسعا حكيما ﴾ مقتدرا متقنا فى أفعاله وأحكامه وقوله تعالى ﴿ ولله ما فى السموات وما فى

الأرض ﴾ أى من الموجودات كائنا ما كان من الخلائق وأرزاقهم وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ أى أمرناهم فى كتابهم وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم واللام فى الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا .

﴿ وإياكم ﴾ عطف على الموصول ﴿ أن اتقوا الله ﴾ أى وصينا كلا منكم ومنهم بأن اتقوا الله على أن أن مصدرية حذف منها[1] الجار ويجوز أن تكون مفسرة لأن التوصية فى معنى القول فقوله تعالى ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ حينئذ من تتمة القول المحكى أى ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وإن تكفروا إلى آخر الآية وعلى تقدير كون أن مصدرية مبنى الكلام وإرادة القول أى أمرناهم وإياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم إن تكفروا الآية وقيل هى جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وأياما كان فالمترتب على كفرهم ليس مضمون قوله تعالى فإن لله الآية بل هو الأمر بعلمه كأنه قيل وإن تكفروا فاعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الأرض من الخلائق قاطبة مفتقرون إليه فى الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طرفة عين فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه وقد قرر ذلك بقوله تعالى ﴿ وكان الله غنيا ﴾ أى عن الخلق وعبادتهم ﴿ حميدا ﴾ محمودا فى ذاته حمدوه أو لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وإنما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكى أى له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيفما يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة .

﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ فى تدبير أمور الكل وكل الأمور فلا بد من أنه

---

(١) فى ط : عنها .

يتوكل عليه لا على أحد سواه ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ﴾ أى يفنكم ويستأصلكم بالمرة ﴿ ويأت بآخرين ﴾ أى ويوجد دفعة مكانكم قوما آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الإنس ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أى إن يشأ أفناكم وإيجاد آخرين يذهبكم الخ يعنى أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بإفنائكم لا لعجزه سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وكان الله على ذلك ﴾ أى على إفنائكم بالمرة وإيجاد آخرين دفعة مكانكم ﴿ قديرا ﴾ بليغ القدرة وفيه لاسيما فى توسط[1] الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب لمن عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب إى أن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه فمعناه هو معنى قوله تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال إنهم قوم هذا يريد أبناء فارس ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا ﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ أى فعنده تعالى ثوابهما له إن أراده فماله يطلب أخسهما فليطلبهما كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب أشرفهما فإن من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله فى الآخرة ما هى فى جنبه كلا شىء أى فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا ما يريده كقوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) الآية ﴿ وكان الله سميعا بصيرا ﴾ عالما بجميع المسموعات والمبصرات فيندرج فيها ما صدر عنهم من الأقوال والأعمال المتعلقة بمراداتهم اندرجا أوليا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ مبالغين فى العدل وإقامة القسط فى جميع الأمور مجتهدين فى ذلك حق الاجتهاد ﴿ شهداء لله ﴾ بالحق

---

(١) فى ط : توسيط .

تقيمون شهاداتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أى ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقروا عليها على أن الشهادة عبارة عن الإخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث بأن تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أى ولو كانت على والديكم وأقاربكم ﴿ إن يكن ﴾ أى المشهود عليه ﴿ غنيا ﴾ يبتغى فى العادة رضاه ويتقى سخطه ﴿ أو فقيراً ﴾ يترحم عليه غالبا وقرىء إن يكن غنى أو فقير على أن كان تامة وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى :

﴿ فالله أولى بهما ﴾ عليه أى فلا يمتنعوا عنها طلبا لرضا الغنى أو ترحما على الفقير فإن الله تعالى أولى بجنسى الغنى والفقير المدلول عليهما بما ذكر ولو أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وقرىء أولى بهم ﴿ فلاتتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أى مخافة أن تعدلوا عن الحق فإن إتباع الهوى من مظان الجور الذى حقه أن يخاف ويحذر وقيل كراهة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا عن الحق ﴿ وإن تلووا ﴾ أى ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بأن تأتوا بها لا على وجهها وقرىء وإن تلوا من الولاية والتصدى أى وإن وليتم إقامة الشهادة ﴿ أو تعرضوا ﴾ أى عن إقامتها رأسا ﴿ فإن الله كان بما تعملون ﴾ من لى الألسنة والإعراض بالكلية أو من جميع الأعمال التى من جملتها ما ذكر ﴿ خبيرا ﴾ فيجازيكم لا محالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الأخيرة متضمن للوعيد .

خطاب للمسلمين جميعاً

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب لكافة المسلمين فمعنى قوله تعالى ﴿ آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى أنزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقينا أو آمنوا بما ذكر متصلا بناء على أن إيمان بعضهم إجمالى والمراد بالكتاب الثانى الجنس

المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى (وكتبه) وبالإيمان به الإيمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لإرشاد أمته إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهى لكن لا على أن مدار الإيمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن الإيمان بالكل مندرج تحت الإيمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها كانت حقة ثابتة إلى ورود ما نسخها وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر فى تفسير خاتمة سورة البقرة وقرىء نزل وأنزل على البناء للمفعول وقيل هو خطاب لمؤمنى أهل الكتاب لما أن عبد الله ابن سلام وابن أخته سلامة وابن أخيه سلمة وأسدا وأسيدا ابنى كعب وثعلبة ابن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال عليه السلام بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لا نفعل فنزلت فآمنوا كلهم فأمرهم بالإيمان بالكتاب المتناول للتوراة مع أنهم مؤمنون بها من قبل ليس لكون المراد بالإيمان ما يعم إنشاءه والثبات عليه ولا لأن متعلق الأمر حقيقة هو الإيمان بما عداها كأنه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوه بالبعض بل لأن المأمور به إنما هو الإيمان بها فى ضمن الإيمان بالقرآن على الوجه الذى أشير إليه آنفا لا إيمانهم السابق ولأن فيه حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب فى التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو النزول من عند الله تعالى وقيل خطاب لأهل الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وأمر كل طائفة بالإيمان بكتابه فى ضمن الأمر بالإيمان بجنس الكتاب لما ذكر وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم لا بالسنتكم فقط ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ أى بشىء من ذلك .

﴿ فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه وزيادة الملائكة واليوم الآخر فى جانب الكفر لما أنه[١] بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلا وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلا عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الرسل فى إنزال الكتب .

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى ﴿ ثم كفروا ﴾ بعبادتهم العجل ﴿ ثم آمنوا ﴾ عند عوده إليهم ﴿ ثم كفروا ﴾ بعيسى والإنجيل ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تماديا فى الغى ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان فإن قلوبهم قد ضريت بالكفر وتمرنت على الردة وكان الإيمان عندهم أهون شيء وأدونه لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم وخبر كان محذوف أى مريدا ليغفر لهم وقوله عز وجل ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ يدل على أن المراد بالمذكورين الذين آمنوا فى الظاهر نفاقا وكفروا فى السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا كفراً ونفاقا ووضع التبشير[٢] موضع الإنذار[٣] تهكما بهم ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء ﴾ فى محل نصب أو الرفع على الذم بمعنى أريد بهم الذين أو هم الذين وقيل نصب على أنه صفة للمنافقين وقوله تعالى ﴿ من دون المؤمنين ﴾ حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة أنصاراً متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد عليه الصلاة والسلام فتولوا اليهود ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ إنكار لرأيهم وإبطال له وبيان لخيبة رجائهم وقطع لأطماعهم الفارغة والجملة

---

(١) فى ط : لما أن . (٢) فى ط : يشر .

(٣) فى ط أنذر .

معترضة مقررة لماقبلها أى أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة ؟ قال الواحدى أصل العزة الشدة ومنه قيل للأرض الشديدة الصلبة عزاز وقوله تعالى .

﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾ تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكارى من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فإن انحصار جميع أفراد العزة فى جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) يقضى ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قيل إن يبتغوا عندهم العزة فإن العزة لله وجميعاً حال من المستكن فى قوله تعالى لله لاعتماده على المبتدأ ﴿ وقد نزل عليكم ﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذى يستدعيه تعداد جناياتهم وقرىء مبنياً للمفعول من التنزيل والإنزال ونزل أيضاً مخففا والجملة حال من ضمير يتخذون أيضا مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه ببيان أنهم فعلوا ما فعلوا من موالاة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم من ذلك وهو ورود النهى الصريح عن مجالستهم المستلزم للنهى عن موالاتهم على أبلغ وجه وآكده إثر بيان انتفاء ما يدعوهم إليه بالجملة المعترضة كأنه قيل تتخذونهم أولياء والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة ﴿ فى الكتاب ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ وذلك قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) الآية وهذا يقتضى الانزجار عن مجالستهم فى تلك الحالة القبيحة فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم وأن هى المخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة الشرطية خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستهزأ بها عطف عليه داخل فى حكم الحالية وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها أى نزل عليكم فى الكتاب أنه إذا سمعتم آيات الله مكفوراً بها ومستهزأ بها وفيه دلالة على أن المنزل على النبى عليه السلام وإن خوطب به خاصة منزل على الأمة وأن مدار الإعراض عنهم هو العلم بخوضهم فى الآيات

ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير فى معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها .

﴿ إنكم إذن مثلهم ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر أى لا تقعدوا معهم فى ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم فى الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع وقرىء شاذاً مثلهم بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كما فى قوله تعالى (مثل ما أنكم تنطقون) وقيل هو منصوب على الظرفية أى فى مثل حالهم وقوله تعالى ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً ﴾ تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم فى العذاب والمراد بالمنافقين إما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم الظاهر[1] تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق وإما الجنس وهم داخلون تحته دخولا أولياً وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعاً مثل ما قبله ﴿ الذين يتربصون بكم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعديد بعض آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم وهو إما بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين فقط إذ هم المتربصون دون الكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فإن كان لكم فتح من الله ﴾ لترتيب مضمونه على ما قبلها فإن حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك كما أن نفس التربص يستدعى شيئاً ينتظر المتربص وقوعه .

﴿ قالوا ﴾ أى لكم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا فى فى الغنيمة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿ قالوا ﴾

---

(١) فى ط : المظهر .

أى للكفرة ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ أى ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم ﴿ ونمنعكم من المؤمنين ﴾ بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا فى قتالكم وتوانينا فى مظاهرتهم وإلا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما للكافرين نصيبا لتعظيم شأن المسلمين وتحقير[1] حظ الكافرين وقرىء ونمنعكم بإضمار أن ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ حكما يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب وأما فى الدنيا فقد أجرى على من تفوه بكلمة الإسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقا ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ حينئذ كما قد يجعل ذلك فى الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج أو فى الدنيا على أن المراد بالسبيل الحجة .

من علامات النفاق

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان طرف آخر من قبائح أعمالهم أى يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان نقيضه والله فاعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والأموال وأعد لهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار وقد مر التحقيق فى صدر سورة البقرة وقيل يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين فينادون انظرونا نقتبس من نوركم .
﴿ وإذا قاموا إلى الصلوة قاموا كسالى ﴾ متثاقلين كالمكره على الفعل وقرىء بفتح الكاف وهما جمعا كسلان ﴿ يراءون الناس ﴾ ليحسبوهم مؤمنين والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فإن المرائى يرى غيره عمله وهو يريه استحسانه والجملة إما استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يريدون بقيامهم إليها كسالى فقيل يراءون الخ أو حال من ضمير قاموا

---

(١) فى ط : وتخسيس .

﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ عطف على يراءون أى لا يذكرونه سبحانه إلا ذكراً قليلا وهو ذكرهم باللسان فإنه بالإضافة إلى الذكر بالقلب قليل أو إلا زمانا قليلا أو لا يصلون إلا قليلا لأنهم لا يصلون إلا بمرآى من الناس وذلك قليل وقيل لا يذكرونه تعالى فى الصلاة إلا قليلا عند التكبير والتسليم ﴿ مذبذبين بين ذلك ﴾ حال من فاعل يراءون أو منصوب على الذم وذلك إشارة إلى الإيمان والكفر المدلول عليهما بمعونة المقام أى مترددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى وقرىء بكسر الذال أى مذبذبين قلوبهم أو رأيهم أو دينهم أو بمعنى متذبذبين كما جاء صلصل بمعنى تصلصل وفى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه متذبذبين وقرىء مدبدبين بالدال غير المعجمة وكأن المعنى أخذ بهم تارة فى دبة أى طريقة وأخرى فى أخرى .

﴿ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ أى لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين أو لا صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين فمحله النصب على أنه حال من ضمير مذبذبين أو على أنه بدل منه أو بيان وتفسير له ﴿ ومن يضلل الله ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿ فلن تجد له سبيلا ﴾ موصلا إلى الحق والصواب فضلا عن أن تهديه إليه والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ نهوا عن موالاة الكفرة صريحا وإن كان فى بيان حال المنافقين زجر[1] عن ذلك مبالغة فى الزجر والتحذير ﴿ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴾ أى أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون فإن موالاتهم أوضح أدلة النفاق أو سلطانا يسلط عليكم عقابه وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال أتجعلون الخ للمبالغة فى إنكاره وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور

(١) فى ط : مزجرة .

نفسه كما فى قوله عز وجل (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ وهو الطبقة التى فى قعر جهنم وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفره حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله وخداعهم وأما قوله عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ونحوه فمن باب التشديد والتهديد والتغليظ مبالغة فى الزجر وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض وقرىء بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر ويعضده أن جمعه أدراك ﴿ ولن تجد لهم نصيرا ﴾ يخلصهم منه والخطاب كما سبق .

﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أى عن النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم فى الخبر ﴿ وأصلحوا ﴾ ما أفسدوا من أحوالهم فى حال النفاق ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى وثقوا به وتمسكوا بدينه ﴿ وأخلصوا دينهم ﴾ أى جعلوه خالصا ﴿ لله ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة ﴿ مع المؤمنين ﴾ أى المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا وإلا فهم أيضا مؤمنون أى معهم فى الدرجات العليا (١) من الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى ﴿ وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ لا يقادر قدره فيساهمونهم فيه ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم لا شىء آخر فيكون مقررا لما قبله من إثابتهم عند توبتهم وما استفهامية مقيدة للنفى على أبلغ وجه وآكده أى أى شىء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم أيتشفى به من الغيظ أم يدرك به الثأر أم يستجلب به نفعا أم يستدفع به ضررا كما هو شأن الملوك وهو الغنى المتعالى عن أمثال ذلك ؟ وإنما هو أمر يقتضيه كفركم فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر

---

(١) فى ط : العالية

انتفى التعذيب لا محالة وتقديم الشكر على الإيمان لما أنه طريق موصل إليه فإنه يدرك أولا ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكرا مبهما ثم يترقى إلى معرفة المنعم فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ وكان الله شاكرا ﴾ الشكر من الله سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده وإضعاف الثواب بمقابلته ﴿ عليما ﴾ مبالغا فى العلم بجميع المعلومات التى من جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم .

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ عدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالا من السوء أى لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء كائنا من القول ﴿ إلا من ظلم ﴾ أى إلا جهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه وقيل هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم (ولمن انتصر بعد ظلمه) الآية وقيل ضاف رجل قوما فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب على الشكاية فنزلت وقرئ إلا من ظلم على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع أى ولكن الظالم يرتكب مالا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء ﴿ وكان الله سميعا ﴾ لجميع المسموعات فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم ﴿ عليما ﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لما يفيده الاستثناء .

﴿ إن تبدوا خيرا ﴾ أى خير كان من الأقوال والأفعال ﴿ أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ﴾ مع ماسوغ لكم من مؤاخذة المسيء والتنصيف عليه مع اندراجه فى إبداء الخير وإخفائه لما أنه الحقيق بالبيان وإنما ذكر إبداء الخير وإخفاءه بطريق التسبيب له كما ينبيء عنه قوله عز وجل ﴿ فإن الله كان عفوا قديرا ﴾ فإن إيراده فى معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أى كان مبالغا فى العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة وقال الحسن يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى وقال الكلبى هو أقدر على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب من ظلمكم وقيل عفوا عمن عفا قديرا على إيصال الثواب إليه ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ أى يؤدى

إليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لا أنهم يصرحون بذلك كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أى بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم لكن لا بأن يصرحوا بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الاستلزام كما يحكيه قوله تعالى ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴾ أى نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتوراة وعزيز ونكفر بما وراء ذلك وما ذاك إلا كفر بالله تعالى ورسله وتفريق بين الله تعالى ورسله فى الإيمان لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وما من نبى من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقية دين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى أيضا من حيث لا يحتسب ﴿ ويريدون ﴾ بقولهم ذلك ﴿ أن يتخذوا بين ذلك ﴾ أى بين الإيمان والكفر ﴿ سبيلا ﴾ يسلكونه مع أنه لا واسطة بينهما قطعا إذ الحق لا يتعدد[1] وماذا بعد الحق إلا الضلال .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿ هم الكافرون ﴾ الكاملون فى الكفر لا عبرة بما يدعونه ويسمونه إيمانا أصلا ﴿ حقا ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى حق ذلك أى كونهم كاملين فى الكفر حقا أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفرا حقا أى ثابتا يقينا لا ريب فيه ﴿ وأعتدنا للكافرين ﴾ أى لهم وإنما وضع المظهر مكان المضمر ذما لهم وتذكيرا لوصفهم أو لجميع الكافرين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ﴿ عذابا مهينا ﴾ سيذوقونه عند حلوله ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ أى على الوجه الذى بين فى تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) الآية ﴿ ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على أحد قد مر تحقيقه فى سورة البقرة بما لا مزيد عليه ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ الموعودة لهم

---

(١) فى ط : يختلف .

وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تراخى وقرىء نؤتيهم بنون العظمة ﴿ وكان الله غفورا ﴾ لما فرط منهم ﴿ رحيما ﴾ مبالغا فى الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم .

عود إلى اليهود

﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ﴾ نزلت فى أحبار اليهود حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كتابا محررا بخط سماوى على اللوح كما نزلت التوراة أو كتابا نعاينه حين ينزل أول كتابا إلينا بأعياننا بأنك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة إلا التحكم والتعنت قال الحسن ولو سألوه لكى يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما آتاهم كفاية ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴾ جواب شرط مقدر أى إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى شيئا أكبر منه وقيل تعليل للجواب أى فلا تبال بسؤالهم فقد سألوا موسى أكبر منه وهذه المسألة وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم فى كل ما يأتون وما يذوون أسندت إليهم والمعنى أن لهم فى ذلك عرقا راسخا وأن ما اقترحوه عليك ليس أول جهالاتهم ﴿ فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ أى أرناه نره جهرة أى عيانا أو مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى النار التى جاءتهم[1] من السماء فأهلكتهم وقرىء الصعقة ﴿ بظلمهم ﴾ أى بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحالة التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أى المعجزات التى أظهرها لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد ﴿ فعفونا عن ذلك ﴾ ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به. قيل هذا استدعاء لهم إلى التوبة كأنه

(١) فى ط : جاءت .

قيل إن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم أيضا حتى نعفو عنكم .

﴿ وآتينا موسى سلطانا مبينا ﴾ سلطانا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ أى بسبب ميثاقهم ليعطوه على ماروى أنهم هموا بنقضة فرفع الله تعالى عليهم الجبل فجاؤا وأقلعوا عن النقض وهو الأنسب بما سيأتى من قوله عز وجل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) ﴿ وقلنا لهم ﴾ على لسان موسى عليه السلام والطور يظللهم(١) ﴿ ادخلوا الباب ﴾ قال قتادة كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو إيليا وقيل هو أريحا وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿ سجدا ﴾ أى متطامنين خاضعين ﴿ وقلنا لهم لا تعدو ﴾ أى لا تظلموا باصطياد الحيتان ﴿ فى السبت ﴾ وقرىء لا تعتدو ولا تعدوا بفتح العين وتشديد الدال على أن أصله تعتدوا وأدغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى المخرج بعد نقل حركتهما إلى العين ﴿ وأخذنا منهم ﴾ على الامتثال بما كلفوه ﴿ ميثاقا غليظا ﴾ مؤكدا وهو العهد الذى أخذه الله عليهم فى التوراة قيل إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد .

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ ما مزيدة للتأكيد أو نكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة بفعل محذوف أى فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم مافعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم . روى أنهم اعتدوا فى السبت فى عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسخوا قردة وقيل متعلقة بحرمنا على أن قوله تعالى (فبظلم) بدل من قوله تعالى (فبما) وما عطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولا يخفى أن قولهم إنا قتلنا المسيح وقولهم على

(١) فى ط : مظال لهم .

مريم البهتان متأخر عن التحريم ولامساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى(بل طبع الله عليها بكفرهم) لأنه رد لقولهم(قلوبنا غلف) فيكون من صلة قوله تعالى (وقولهم) المعطوف على المجرور فلا يعمل فى جاره ﴿ وكفرهم بآيات الله ﴾ أى بالقرآن أو بما فى كتابهم ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ كزكريا ويحيي عليهما السلام ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ جمع أغلف أى هى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أو هو تخفيف غلف جمع غلاف أى هى أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبي يعنون أن قلوبنا بحيث لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضاً ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ كلام معترض بين المعطوفين جيء به على وجه الاستطراد مسارعة إلى رد زعمهم الفاسد أى ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلىقلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم أو ليست قلوبهم كما زعموا بل هى مطبوع عليها بسبب كفرهم ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أو إلا إيمانا قليلا لا يعبأ به .

﴿ وبكفرهم ﴾ أى بعيسىعليه السلام وهو عطف على (قولهم) وإعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد جوز عطفه على بكفرهم فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله وتكرير ذكر الكفر للإيذان بتكرر كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام ﴿ وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾ لا يقادر قدره حيث نسبوها إلى ما هى عنه بألف منزل ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ نظم قولهم هذا فى سلك سائر جناياتهم التى نعيت عليهم ليس لمجرد كونه كذبا بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبي عليه السلام والاستهزاء به فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما فى قوله تعالى (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) الخ ولإنبائه عن ذكرهم لهعليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى

مدحا له ورفعا لمحله عليه السلام وإظهارا لغاية جراءتهم فى تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ حال أو اعتراض .

﴿ ولكن شبه لهم ﴾ روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه سيرفعه[1] إلى السماء فقال لأصحابه أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله تعالى عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه وقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام وقيل إن طططيانوس اليهودى دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام فأخذ وقتل وأمثال هذه الخوارق لاتستبعد فى عصر النبوة وقيل إن اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى إلى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا إنسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم أنه هو المسيح وما كانوا يعرفونه إلا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم إلا قليلا وشبه مسند إلى الجار والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو فى الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثم مقتولا .

﴿ وإن الذين اختلفوا فيه ﴾ أى فى شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود إنه كان كاذبا فقتلناه حتما وتردد آخرون فقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من سمع منه عليه السلام إن الله يرفعنى إلى

---

(١) فى ط : يرفعه .

السماء إنه رفع إلى السماء وقال توم صاب الناسوت وصعد اللاهوت [وقد مر][1] ﴿ لفى شك منه ﴾ لفى تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿ ما لهم به من علم إلا إتباع الظن ﴾ استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزما كان أو غيره فالاستثناء حينئذ متصل ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ أى قتلا يقينا كما زعموا بقولهم إنا قتلنا المسيح وقيل معناه وما علموه يقينا كما فى قول من قال :

كذاك تخبر عنها العالمات بها وقد قتلت بعلمى ذلكم يقنا

من قولهم قتلت الشئ علما ونحرته علما إذا تبالغ علمك فيه وفيه تهكم بهم لإشعاره بعلمهم فى الجملة وقد نفى ذلك عنهم بالكلية ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ رد وإنكار لزعمهم قتله[2] وإثبات لرفعه ﴿ وكان الله عزيزا ﴾ لا يغالب فيما يريده ﴿ حكيما ﴾ فى جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى فى أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا ﴿ وإن من أهل الكتاب ﴾ أى من اليهود والنصارى وقوله تعالى .

﴿ إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف إليه يرجع الضمير الثانى والأول لعيسى عليه السلام أى وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله ورسوله ولات حين إيمان لانقطاع وقت التكليف ويعضده أنه قرئ ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما أن أحدا فى معنى الجمع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه فسره كذلك فقال له عكرمة فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه قال فإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به وعن شهر بن حوشب

---

(١) سقطت من ط . (٢) فى ط : لقتله .

قال لى الحجاج آية ما قرأتها إلا تخالج فى نفسى شىء منها يعنى هذه الآية وقال إنى أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى عليه السلام نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه عبد نبى وتقول للنصرانى أتاك عيسى عليه السلام نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه قال وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر إلى وقال ممن سمعت هذا قلت حدثنى محمد بن على بن الحنفية فأخذ ينكث الأرض بقضيبه ثم قال لقد أخذتها من عين صافية والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه مع انتفاء جدواه وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعنى وما من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام أحد إلا ليؤمنن به قبل موته. روى أنه عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ويهلك الله فى زمانه الدجال وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات ويلبث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه وقيل الضمير الأول يرجع إلى الله تعالى وقيل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ويوم القيامة يكون ﴾ أى عيسى عليه السلام .

﴿ عليهم ﴾ على أهل الكتاب ﴿ شهيدا ﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ فبظلم من الذين هادوا ﴾ لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعد ما هادوا أى تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس إثر بيان عظمه فى حد ذاته بالتنوين التفخيمى أى بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الأشباه والأشكال صادر عنهم ﴿ حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ ولمن قبلهم لا بشىء غيره كما زعموا فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها يحرم عليهم نوع من الطيبات التى كانت محللة لهم ولمن

تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه [الكذب][1] ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فكذبهم الله عز وجل فى مواقع كثيرة وبكتهم بقوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) أى فى ادعائكم أنه تحريم قديم. روى أنه عليه السلام لما كلفهم إخراج التوراة لم يجسر أحد على إخراجها لما أن كون التحريم بظلمهم كان مسطورا فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ﴾ أى ناسا كثيرا أو صدا كثيرا ﴿ وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه ﴾ فإن الربا كان محرما عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على أن النهى يدل على حرمة المنهى عنه ﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿ وأعتدنا للكافرين منهم ﴾ أى للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم ﴿ عذابا أليما ﴾ سيذوقونه فى الآخرة كما ذاقوا فى الدنيا عقوبة التحريم ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم ﴾ استدراك من قوله تعالى وأعتدنا الخ وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلا وآجلا أى لكن الثابتون فى العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كأولئك الجهلة والمراد بهم عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ والمؤمنون ﴾ أى منهم وصفوا بالإيمان بعد ما وصفوا بما يوجبه من الرسوخ فى العلم بطريق العطف المنبيء عن المغايرة بين المعطوفين تنزيلا للاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى وقوله تعالى :

﴿ يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ حال من المؤمنين مبينة لكيفية إيمانهم وقيل اعتراض مؤكد لما قبله وقوله عز وجل ﴿ والمقيمين الصلوة ﴾ قيل نصب بإضمار فعل تقديره وأعنى المقيمين الصلاة على أن الجملة معترضة بين

---

(١) سقطت من ط .

المبتدأ والخبر وقيل هو عطف على ما أنزل إليك على أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام أى يؤمنون بالكتب وبالأنبياء أو الملائكة قال مكى أى ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم إقامة الصلاة لقوله تعالى(يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقيل عطف على الكاف فى إليك أى يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة وهم الأنبياء وقيل على الضمير المجرور فى منهم أى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرىء بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون بناء على ما مر من تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى وكذا الحال فيما سيأتى من المعطوفين فإن قوله تعالى ﴿والمؤتون الزكوة﴾ عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فإن المراد بالكل مؤمنوا أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين فى علم الكتاب إيذانا بأن ذلك موجب للإيمان حتما وأن من عداهم إنما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والأحكام واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الإيمان بقطرته وإحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فإنهم مشركون بالله سبحانه بقولهم عزير ابن الله[1] وبقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما عدد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد وتنكير الأجر للتفخيم وهذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أوعد الأولون بالعذاب الأليم ووعد الآخرون بالأجر العظيم كأنه قيل

---

(١) فى ط . فإنهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه

إثر قوله تعالى وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجراً عظيما وأما ماجنح إليه الجمهور من جعل قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك) الخ خبرا للمبتدأ فنى كمال السداد أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرىء سيؤتيهم بالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله

رد على أهل الكتاب

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وإنما شأنه فى حقيقة الإرسال وأصل الوحى كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريب لأحد فى نبوتهم والكاف فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى إيحاء مثل إيحائنا إلى نوح أو على أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفا كما هو رأى سيبويه أى أوحينا الإيحاء حال كونه مشبها لإيحائنا[1] الخ ومن بعده متعلق بأوحينا وإنما بدىء بذكر نوح لأنه أبو البشر وأول نبى شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والأحكام وأول نبى عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم ﴾ عطف على أوحينا إلى نوح داخل معه فى حكم التشبيه أى وكما أوحينا إلى ابراهيم ﴿ واسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ وهم أولاد يعقوب عليهم السلام ﴿ وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ﴾ خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم فى سلك النبيين تشريفاً لهم وإظهارا لفضلهم كما فى قوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وتصريحا بمن ينتمى إليهم اليهود من الأنبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الإيحاء والتنبيه على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحى .

﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها

(١) فى ط . بإيحائنا .

حكم من الأحكام وإنما هى حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرىء بضم الراء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل فى حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء أى وكما آتينا داود زبورا وإيثاره على وأوحينا إلى داود لتحقيق المماثلة فى أمرخاص هو إيتاء الكتاب بعد تحقيقها فى مطلق الإيحاء ثم أشير إلى تحقيقها فى أمر لازم لهما لزوما كليا وهو الإرسال فإن قوله تعالى ﴿ورسلا﴾ نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه فى حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أى وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الأول منصوب على أنه صفة لرسلا وعلى الوجه الثانى لا محل له من الإعراب فإنه مما لا سبيل إليه كما ستقف عليه وقرىء برفع رسل وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم .

﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ عطف على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بأرسلنا فإن فيه تحقيقا للمماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الأنبياء عليهم السلام فى مطلق الإيحاء ثم إيتاء الكتاب ثم فى الإرسال فإن قوله تعالى إنا أوحينا إليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتما كأنه قيل إنا أوحينا إليك إيحاء مثل ما أوحينا إلى نوح ومثل ما أوحينا إلى إبراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان إيتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك إرسالا مثل ما أرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم فى حقيقة الإيحاء وأصل الإرسال فما للكفرة يسألونك شيئا لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح أن رسلا لا يمكن نصبه بقصصنا فإن ناصبه يجب أن يكون معطوفا على أوحينا داخلا معه فى حكم التشبيه الذى يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب فى أن قصصنا لا تعلق له بشىء من الإيحاء والإيتاء حتى

يمكن اعتباره فى ضمن قوله تعالى إنا أوحينا إليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره فى رسلا الأول يقتضى تقدير نفيه فى الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا .

﴿ وكلم الله موسى ﴾ برفع الجلالة ونصب موسى وقرىء على القلب وقوله تعالى ﴿ تكليما ﴾ مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام والجملة إما معطوفه على قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) عطف القصة على القصة لا على آتينا وماعطف عليه وإما حال بتقدير قد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا فى نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا فى صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضيه لذلك من جملتها أن بنى اسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها إلا بعد اللتيا والتى وقد فضل الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده أو على البدلية من رسلا الأول أى مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة ﴾ أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها كما فى قوله عز وجل (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) الآية وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة

التي لامرد لها ولذلك قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب إليه الإعذار[1] من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب فاللام متعلقة بأرسلنا وقيل بقوله تعالى (مبشرين ومنذرين) وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما تعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى .

﴿ بعد الرسل ﴾ أى بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع إلى الأمم على ألسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لأن الظروف يوصف بها الأحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الإجابة إلى مسئلة المتعنتين ﴿ حكيما ﴾ فى جميع أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل وإنزال الكتب فإن تعدد الرسل والكتب واختلافها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق بشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم المتغايرة من الشرائع والأحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى إرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم مافيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد إذ حينئذ تتعاقم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدتها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الأمور الداعية إليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالا ﴿ لكن الله يشهد ﴾ بتخفيف النون

(١) فى ط : العذر .

ورفع الجلالة وقرىء بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم مما قبله كأنهم لما تعنتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى (إنا أوحينا) الخ قيل إنهم لايشهدون بذلك لكن الله يشهد ﴿بما أنزل إليك﴾ على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد بحقية ما أنزل إليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) قالوا ما نشهد لك بذلك فنزل لكن الله يشهد .

﴿أنزله بعلمه﴾ أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزله عليه واستعداده لاقتباس الأنوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة فى موقع التفسير لما قبلها وقرىء نزله وقوله تعالى ﴿والملائكة يشهدون﴾ أى بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ماقبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله والملائكة يشهدون بصدقه وحقيته ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها ﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل ما يجب الإيمان به وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام من أراد سلوكه بقولهم ما نعرف صفة محمد فى كتابنا وقرىء صدوا مبنيا للمفعول ﴿قد ضلوا﴾ بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق ﴿ضلالا بعيدا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الإقلاع عنه .

﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما ذكر آنفا ﴿وظلموا﴾ أى محمدا صلى الله عليه وسلم بإنكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس بصدهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر ﴿ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم﴾ لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة

من الاستثناء بطريق الإشارة خلقه تعالى لأعمالهم السيئة المؤدية بهم إلى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم إلى اكتسابها أوسوقهم إليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى ﴿أبدا﴾ نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل ﴿ وكان ذلك ﴾ أى جعلهم خالدين فى جهنم ﴿ على الله يسيرا ﴾ لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى .

أمر بالإيمان

﴿ يا أيها الناس ﴾ بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعلل اليهود بالأباطيل واقتراحهم الباطل تعنتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر الوحى والإرسال كشئون من يعترفون بنبوته من مشاهير الأنبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المكلفين كافة على طريق تلوين الخطاب بالإيمان بذلك أمرا مشفوعا بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد تنبيها على أن الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر فى عدم القبول وقوله عز وجل ﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالإيمان وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهى للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الرسول أى ملتبسا بالحق ومن أيضا متعلقة إما بالفعل وإما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أو جاءكم بالحق كائنا من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيبا لهم فى الامتثال بما بعده من الأمر والفاء فى قوله عز وجل ﴿ فآمنوا ﴾ للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله

تعالى ﴿ خيرا لكم ﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الإضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أى اقصدوا أو ائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا إيمانا خيرا لكم أو على أنه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للأمر لا جزاء للشرط الصناعى وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الإيمان خيرا لكم ﴿وإن تكفروا﴾ أى أن تصروا وتستمروا على الكفر به ﴿فإن الله ما فى السموات والأرض﴾ من الموجودات سواء كانت داخلة فى حقيقتهما وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شىء منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا ﴿ حكيما ﴾ مراعيا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى إياهم بكفرهم .

زجر النصارى

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال ﴿لا تغلوا فى دينكم﴾ بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته وأما غلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم له بأنه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أى لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك ﴿إنما المسيح﴾ قد مر تفسيره فى سورة آل عمران وقرىء بكسر الميم وتشديد السين كالسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى﴿عيسى﴾بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى﴿ابن مريم﴾

صفة له مفيدة لبطلان ماوصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى ﴿ رسول الله ﴾ خبر للمبتدأ والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى عن القول الباطل المستلزم للأمر بضده أعنى الحق أى إنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها ﴿ وكلمته ﴾ عطف على رسول الله أى مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ ألقاها إلى مريم ﴾ أى أوصلها إليها وجعلها[١] فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلمها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدرة معها .

﴿ وروح منه ﴾ قيل هو الذى نفخ جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملت بإذن الله تعالى سمى النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح ومن لابتداء الغاية مجازا لا تبعيضية كما زعمت النصارى يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدى المروزى[٢] ذات يوم فقال له إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدى (وسخر لكم ما فى السموات والأرض جميعا منه) فقال إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة فاخرة . وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره سبحانه وقيل سمى روحا لإحيائه الأموات وقيل لإحيائه القلوب كما سمى به القرآن لذلك فى قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقيل أريد بالروح الوحى الذى أوحى إلى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شىء بغاية الطهارة والنظافة قالوا إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح وتقديم كونه

---

(١) فى ط : وحصلها . (٢) فى ط : المروزى خطأ .

عليه السلام رسول الله فى الذكر من تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه فى الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائغ .

﴿ فآمنوا بالله ﴾ وخصوه بالألوهية ﴿ورسله﴾ أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أى الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبىء عنه قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) أو الله ثلاثة إن صح إنهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الإبن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة ﴿ انتهوا ﴾ أى عن التثليث ﴿ خيرا لكم ﴾ قد مر وجوه انتصابه ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ أى بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ وإله خبره وواحد نعت أى منفرد فى ألوهيته ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد أو سبحوه تسبيحا من ذلك فإنه إنما يتصور فيمن يماثله شىء ويتطرق إليه فناء والله سبحانه منزه عن أمثاله وقرىء أن يكون أى سبحانه ما يكون له ولد وقوله تعالى ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقريره أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج عن ملكوته شىء من الأشياء التى من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولدا له تعالى ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ إليه يكل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين فأنى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم ﴿ لن يستنكف المسيح ﴾ استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت الدمع إذا نحيته عن وجهك بالأصبع أى لن يأنف ولن يترفع .

﴿ أن يكون عبداً لله ﴾ أى عن أن يكون عبدا له تعالى مستمرا على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه احواله ويفصح عنه أقواله أو لا يرى أن أول مقالة قالها

للناس قوله (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) لوقوعه فى موقع الجواب عما قاله الكفرة . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شيء أقول قالوا تقول له عبد الله قال إنه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت وهو السر فى جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع إفادة فائدة جليلة هى كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فإن كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير إليه بخلاف عبادته تعالى فإنها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام[1] يكفى فى إتصاف موصوفها بها تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها .

﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ عطف على المسيح أى ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله تعالى وقيل أن أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج إلى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى فى رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع إلى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فإن الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلا ولا نزاع لأحد فى علو درجتهم من هذه الحيثية وإنما النزاع فى علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما

---

(١) فى ١٠ : لا تستلزم الدوام .

قالوا حينئذ وإن سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لا باعتبار التكبير والتفضيل كما فى قولك أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرءوس ولئن سلم إرادة التفضيل فغاية الأمر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الأنبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقا وهل التشاجر إلا فيه ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ﴾ أى عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى مما لا سبيل لهم إلى إنكار اتصافهم به إن قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق إنكار كون الأمر من جهته تعالى لا بطريق الاستنكاف قلنا لأنهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو إلا استنكاف عن طاعة الله تعالى إذ لا أمر له عليه الصلاة والسلام سوى أمره تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ﴿ ويستكبر ﴾ الاستكبار الأنفة عما لا ينبغى أن يؤنف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيرا واعتقاده كذلك وإنما عبر عنه بما يدل على الطلب للإيذان بأن مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب فى قوله تعالى (يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) فإنهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الإشعار بأن ليس هناك شىء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبىء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه .

﴿ فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ أى المستنكفين ومقابليهم المدلول عليهم ذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين فى المفصل تعويلا على إنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد

الفريقين فى التفصيل عند قوله تعالى (فأما الذين آمنوا بالله) الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء إثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكل وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم إليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه أن الأنسب بالتفصيل الآتى اعتبار حشر الكل فى الإجمال على نهج واحد وقرىء فسيحشرهم بكسر السين وهى لغة وقرىء فسنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بيان لحال الفريق المنوى ذكره فى الإجمال قدم على بيان حال ما يقابله إبانة لفضله ومسارعة إلى بيان كون حشره أيضا معتبرا فى الإجمال وإيراده بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ من غير أن ينقص منها شيئا أصلا ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ بتضعيفها أضعافا مضاعفة وبإيفاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وأما الذين استنكفوا ﴾ أى من عبادته عز وجل ﴿ واستكبروا فيعذبهم ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿ عذابا أليما ﴾ لا يحيط به الوصف ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ﴾ يلى أمورهم ويدبر مصالحهم ﴿ ولا نصيرا ﴾ ينصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه ﴿ يا أيها الناس ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المكلفين إثر بيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال وإلزامهم بالبراهين القاطعة التى تخر لها صم الجبال وازاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت [عليهم][1] فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمعتذر .

﴿ قد جاءكم ﴾ أى وصل إليكم وتقرر فى قلوبكم بحيث لا سبيل لكم إلى الإنكار ﴿ برهان ﴾ البرهان ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبى عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التى

---

(١) سقطت من ط .

من جملتها ما أشير إليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقية الحق وبطلان الباطل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التى تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التى أظهرها وقيل هو دين الحق الذى أتى به وقوله تعالى :

﴿ من ربكم ﴾ إما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن منه تعالى على أن من لابتداء الغاية مجازا وقد جوز على الثانى كونها تبعيضية بحذف المضاف أى كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير إليه آنفا وأخرى بالنور النير بنفسه المنوز لغيره إيذانا بأنه بين بنفسه مستغن فى ثبوت حقيته وكونه من عند الله تعالى بإعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره من الأمور المذكورة وإشعاراً بهدايته للخلق وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وقد سلك به مسلك العطف المبنى على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجيء المسند إليه المنبيء عن كمال قوته فى البرهانية كأنه يجيء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجيء به أحد ويجيء على شبه الكفرة بالإبطال وأخرى بالإنزال الموقع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيرا له باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحق فالأمر هين وقوله تعالى إليكم متعلق بأنزلنا فإن إنزاله بالذات وإن كان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لكنه منزل إليهم أيضا بواسطته عليه الصلاة والسلام وإنما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما فى قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس)

ونظائره لإظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله إليهم مبالغة فى الإعذار وتقديمه على المعقول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غيرة من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر والمحافظة على فواصل الآى الكريمة .

﴿ فأما الذين آمنوا بالله ﴾ حسبما يوجبه البرهان الذى أتاهم ﴿واعتصموا به﴾ أى عصموا به أنفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره ﴿ فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الجنة وما يتفضل عليهم [به][(1)] مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وعبر عن إفاضة الفضل بالإدخال على طريقة قوله ۞ علفتها تبنا وماء باردأ ۞ وتنوين رحمة وفضل تفخيمى ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة ﴿ويهديهم إليه﴾ أى إلى الله عز وجل وقيل إلى الموعود وقيل إلى عبادته ﴿صراطا مستقيما﴾ هو الإسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الأخرة وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة على الوعد بالهداية إليها على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلى قيل انتصاب صراطا على أنه مفعول لفعل محذوف ينبىء عنه يهديهم أى يعرفهم صراطا مستقيما .

حكم الكلالة

﴿يستفتونك﴾ أى فى الكلالة استغنى عن ذكره بوروده فى قوله تعالى ﴿ قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة عام حجة الوداع فقال إن لى أختاً فكم آخذ من ميراثها إن ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلل إنى كلالة فكيف أصنع فى مالى . وروى عنه رضى الله عنه أنه قال عادنى

---

(١) سقطت من ط .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وإنما يرثنى كلالة فنزلت وقوله تعالى ﴿إن امرؤ هلك﴾ استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى :

﴿ليس له ولد﴾ صفة له وقيل حال من الضمير فى هالك ورد بأنه مفسر للمحذوف غير مقصود فى الكلام أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد ذكرا كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الوالد أيضا معتبر فى الكلالة ثقة بظهور الأمر ودلالة تفضيل الورثة عليه وقوله تعالى ﴿ وله أخت﴾ عطف عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فإن فرضها السدس وقد مر بيانه فى صدر السورة الكريمة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أى بالفرض والباقى للعصبة أولها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وهو﴾ أى المرء المفروض ﴿يرثها﴾ أى أخته المفروضة إن فرض هلاكها مع بقائه ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ ذكرا كان أو أنثى فالمراد بإرثه لها إحراز جميع ما لها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا إرثه لها فى الجملة فإنه يتحقق مع وجود بنتها وليس فى الآية ما يدل على سقوط الإخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وإنما دلت السنة الشريفة على سقوطهم فى الأب[1] ﴿ فإن كانتا اثنتين ﴾ عطف على الشرطية الأولى أى اثنتين فصاعدا ﴿ فلهما الثلثان مما ترك ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الإخبار عنها باثنتين مع دلالة ألف التثنية على الإثنينية التنبيه على أن المعتبر فى اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿ وإن كانوا ﴾أى من يرث بطريق الأخوة ﴿ أخوة ﴾ أى مختلطة ﴿ رجالا ونساء ﴾ بدل من أخوة والأصل وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث ﴿ فللذكر ﴾

(١) فى ط دلت على سقوطها السنة الشريفة فى

أى فللذكر منهم ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما أنزل من كتاب الله تعالى فى الأحكام ، روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته ألا إن الآية التى أنزلها الله تعالى فى سورة النساء فى الفرائض فأولها فى الولد والوالد وثانيها فى الزوج والزوجة والأخوة من وثانيها فى الزوج والزوجة والأخوة من الأم والآية التى ختم بها السورة فى والآية التى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام .

﴿ يبين الله لكم ﴾ أى حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التى من جملتها حكمها ﴿ أن تضلوا ﴾ أى كراهة أن تضلوا فى ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين إلى تقدير اللام ولا فى طرفى أن أى لئلا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وقال أبو عبيد رويت للكسائى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله إجابة أى لئلا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر من الآية والحديث نصا فيما ذهب إليه الكسائى وأضرابه فإن التقدير فيهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الخ وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وإنما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه وأنت خبير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى تعيين على طريقة مواقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك .

﴿ والله بكل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿ عليم ﴾ مبالغ[1] فى العلم فيبين لكم ما فيه

(١) فى ١٠ : بليبغ فى العلم .

مصلحتكم ومنفعتكم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثا وأعطى من الأجر كمن اشترى محررا أو برىء من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم والله أعلم .

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الأول من تفسير العلامة أبى السعود
ويليه الجزء الثانى وأوله سورة المائدة

فهرس موضوعي

للجزء الأول من تفسير
أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير أبى السعود

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع